المؤلفات شبه الكاملة

-1-



محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي

سيغموند فرويد

ترجمة:
جورج طرابيشي



محاضرات تمهيدية

في التحليل النفسي



الكتاب: **محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي**

المؤلف: **سيغموند فرويد**

ترجمة: **جورج طرابيشي**

التصنيف: **علم نفس**

الناشر: **دار مدارك للنشر**

الطبعة الأولى: سبتمبر (أيلول) 2014

الرقم الدولي المتسلسل للكتاب: ISBN: 978 - 9948 - 22 - 324 - 5

طبعت في مطابع المتحدة للطباعة والنشر United Printing & Publishing



عنوان المعرض

الكتاب متوفر لدى معرض مدارك للنشر والتوزيع

الرياض، حي المحمدية، طريق الامام سعود بن عبدالعزيز



www.mdrek.com read@mdrek.com

مجمع الذهب والألماس، شارع الشيخ زايد، بناية رقم 3، مكتب رقم 3226، دبي - الإمارات العربية المتحدة

Gold and Diamond park, Sheikh Zayed Road, Bldg 3 Office 3226, Dubai - United Arab Emirates

P.O.Box: 333577, Dubai - UAE. Tel: +971 4 380 4774 Fax: +971 4 380 5977










www.mdrek.com

سيغموند فرويد

المؤلفات شبه الكاملة

المجلد الأول

محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي

ترجمة جورج طرابيشي




مكتبة
الفكر الجديد

فهرس المجلد الأول

تقديم ١٣

المحاضرة الأولى ـ تمهيد ١٥

المحاضرة الثانية ـ الهفوات ٢٧

المحاضرة الثالثة ـ الهفوات (تابع) ٤٣

المحاضرة الرابعة ـ الهفوات (خاتمة) ٦٥

الحلم

المحاضرة الخامسة ـ صعوبات ومقاربات أولى ٨٩

المحاضرة السادسة ـ منطلقات التأويل وتقنيته ١٠٩

المحاضرة السابعة ـ مضمون الحلم الظاهر وأفكاره الكامنة ١٢٥

المحاضرة الثامنة ـ الأحلام الطفلية ١٣٩

المحاضرة التاسعة ـ رقابة الحلم ١٥٣

المحاضرة العاشرة ـ الرمزية في الحلم ١٦٧

المحاضرة الحادية عشرة ـ عمل الحلم ١٩١

المحاضرة الثانية عشرة ـ تحليل أمثلة من الأحلام ٢٠٧

المحاضرة الثالثة عشرة ـ السمات الأثرية والطفالة في الحلم ٢٢٣

المحاضرة الرابعة عشرة ـ تحقيق الرغبات ٢٣٩

المحاضرة الخامسة عشرة ـ شكوك وانتقادات ٢٥٥



النظرية العامة للأمراض العصابية

المحاضرة السادسة عشرة ـ التحليل النفسي والطب النفسي ٢٧١
المحاضرة السابعة عشرة ـ معنى الأعراض ٢٨٧
المحاضرة الثامنة عشرة ـ التثبيت فعل رضّي. اللاشعور ٣٠٥
المحاضرة التاسعة عشرة ـ المقاومة والكبت ٣١٩
المحاضرة العشرون ـ حياة الإنسان الجنسية ٣٣٧
المحاضرة الحادية والعشرون ـ تطور الليبيدو والتنظيمات الجنسية ٣٥٧
المحاضرة الثانية والعشرون ـ مظهران: التطور والنكوص. في أسباب نشوء الأعصبة ٣٧٩
المحاضرة الثالثة والعشرون ـ طرق تكوّن الأعراض ٣٩٩
المحاضرة الرابعة والعشرون ـ العصبية الشائعة ٤١٩
المحاضرة الخامسة والعشرون ـ الحَصَر ٤٣٥
المحاضرة السادسة والعشرون ـ نظرية الليبيدو و"النرجسية" ٤٥٥
المحاضرة السابعة والعشرون ـ التحويل ٤٧٧
المحاضرة الثامنة والعشرون ـ العلاج التحليلي ٤٩٧



الترجمة بين الخيانة والاجتهاد

إذا كان لا مفر لنا من التسليم، بالإحالة إلى القول السائر الإيطالي (Traduttor, traditore)، بأن الترجمة خيانة، فإن الترجمة عن الترجمة خيانة مضاعفة. ذلك أن المسافة التي تفصل لا محالة النص المترجم عن النص الأصلي تتضاعف في حال المرور بلغة وسيطة بين اللغة الأصلية للنص وبين اللغة المترجم إليها.

ولكن على حين أن الخيانة لا تقبل أي تبرير من وجهة نظر الوطنية، فإن الترجمة، أو حتى الترجمة عن الترجمة، قد تجد من وجهة نظر ثقافية، حاجة ليس من سبيل إلى سدِّها عن طريق آخر بحكم المعطى الجيو ـ ثقافي.

فلئن تكن الثقافة العربية، التي هي نموذج منقطع النظير لثقافة تراثية، لم يُقيَّض لها أن تتصل بالحداثة إلا من خلال الوساطة اللغوية لأكبر قوتين إمبرياليتين في العصر الحديث، أي الإنكليزية والفرنسية، فإن المرحلة الاستقلالية، التي بات لها من العمر اليوم ثلاثة أرباع القرن، لم تستطع، إلا في حالات استثنائية، أن تكسر طوق ذلك الاحتكار اللغوي الذي فرضه المستعمر الأنغلو ـ فرنسي، إن لم يكن عن سبق قصد، فعلى كل حال نزولاً عند مقتضيات الأمر الواقع.

على هذا النحو، وباستثناء حالات فردية نادرة، فإن علاقة الثقافة العربية الحديثة بالثقافة العالمية بقيت ملزمة بالمرور بالإنبيق اللغوي الأنغلو/ فرنسي حتى في حال التعاطي مع الثقافات الأوروبية التي لا تنتمي إلى لغة المستعمر السابق مثل الألمانية أو السويدية أو اليونانية.

وفي حالة فرويد خاصة والتحليل النفسي إجمالاً كان الخيار ذا حدّين لا ثالث لهما: إما أن تبقى الثقافة العربية في حال من القطيعة مع ذلك الفتح العلمي



الكبير الذي مثَّلته الفرويدية، وإما أن تنهل بدورها من معين هذا الفتح ولو عن طريق لغة وسيطة، مع كل ما يترتب على الترجمة عن ترجمة من مخاطر الابتعاد عن حرف النص الأصلي، إن لم يكن عن روحه.

زد على ذلك أن اللغة الألمانية التي بها كتب فرويد ومعظم رواد التحليل النفسي من غير الألمان تختلف بنيةً وروحاً وحرفاً اختلافاً غير هيِّن عن الواسطة اللغوية شبه الإجبارية كما تتمثل بالإنكليزية أو الفرنسية.

ومع ذلك، كان الخيار يفرض نفسه فرضاً: فليس لأي ثقافة معاصرة أن تفتح لنفسها قفل الحداثة وهي تفتقد مفتاحاً أساسياً من مفاتيحه كما يتمثل بالتحليل النفسي، الفرويدي منه وغير الفرويدي على حدّ سواء. ومن هنا كانت مغامرة القرار الذي اتخذتُه قبل نحو من أربعة عقود بتقديم مؤلفات فرويد العربية ولو بالترجمة عن الترجمة الفرنسية لمؤلفاته والذي تمخض خلال عقد السبعينات ومطلع الثمانينات من القرن الماضي عن ترجمة أو تعريب ثلاثين ونيِّفٍ عنواناً من مؤلفات فرويد التي تناهز الأربعين.

ولئن انقطعتُ منذ منتصف الثمانينات نهائياً عن الترجمة لأنصرف إلى التأليف، فقد جاء اقتراح دار مدارك ومؤسسها الزميل تركي الدخيل بإعادة نشر مؤلفاتي وما لم يفقد راهنيته من ترجماتي ليتيح لي فرصة ثمينة لإعادة النظر في ترجماتي للنصوص الفرويدية. ذلك أنه صدرت باللغة الفرنسية خلال العشرين سنة الأخيرة ترجمات جديدة ومتعددة لمؤلفات فرويد، بلغ عددها بالنسبة إلى الكتاب الواحد في بعض الحالات ثلاث أو أربع ترجمات، فضلاً عن صدور ترجمة جديدة وكاملة لأعماله من قبل فريق عمل واحد في عشرين مجلداً.

والحال أنه بالاستناد إلى جدلية تشبه ما عرفته الثقافة العربية الحديثة من جدلية الترجمة والتعريب تميَّزت الترجمات الفرنسية الجديدة عن القديمة بحرصها على حرف النص الألماني الأصلي بقدر ما تميَّزت القديمة بالحرص على أداء المعنى بلغة مفهومة للقارئ المعاصر. ومن هذا المنطلق، وبالاستناد إلى هذه الترجمات الحديثة المتعددة للنص الواحد، قمت بمراجعة شاملة، وجذرية أحياناً، لترجمتي السابقة لمؤلفات فرويد محاولاً التوفيق، بالقدر المستطاع، وبالقدر الذي تتيحه اللغة



العربية، بين روح النص الفرويدي وحرفه الذي هو على درجة عالية من الرهافة والدقة المفهومية ـ شبه المستغلقة أحياناً ـ في آن واحد.

وقد انتهزت فرصة هذه المراجعة الشاملة لترجماتي السابقة لأقدّم في الهوامش شروحاً بيانية لا بأسماء الأعلام وحدها ـ وما أكثرها في النصوص الفرويدية ـ بل كذلك بجميع الوقائع التاريخية والإحالات الثقافية التي قد لا يكون للقارئ العربي المعاصر من منفذ مباشر إليها.

وبدون أن نماري في صحة القول المأثور الإيطالي عن الترجمة = الخيانة، فلنقل إن الترجمة هي أيضاً اجتهاد، أو باستعارة تعريف أبي حيان التوحيدي المشهور للنقد، هي كلام ثانٍ على كلام أول ولكن بلغة أخرى.

باريس في ٢٥ أيار/ مايو ٢٠١٤

جورج طرابيشي





محاضرات تمهيدية
في التحليل النفسي




مكتبة
الفكر الجديد

تقديم

في الفصلين الدراسيين من شتاء ١٩١٥ ـ ١٩١٦ وشتاء ١٩١٦ ـ ١٩١٧، وتحت عنوان **محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي**، ألقى فرويد في أحد مدرجات عيادة الطب النفسي في المستشفى العام بجامعة فيينا ثماني وعشرين محاضرة في ثلاث مجموعات، حضرها أطباء وطلاب طب من الجنسين ومستمعون من سائر الكليات الأخرى تراوح تعدادهم بين ستين ومئة مستمع.

وقد ارتجل محاضرات الفصل الأول ارتجالاً، أما محاضرات الفصل الثاني فقد كتبها في أثناء اصطيافه في سالزبورغ، ثم ألقاها بنصها في الشتاء التالي.

وبديهي أن هذه المحاضرات، التي تحتوي على أوفى خلاصة للتحليل النفسي بقلم مبدعه، تبقى متعيِّنة بالزمن الذي كُتبت فيه. فلئن كانت تعكس بأمانة مدى التطور الذي أصابته إلى حينه نظرية التحليل النفسي وممارسته فليس ينبغي أن يغيب عنا أن علم نفس اللاشعور أصاب منذ زمن كتابتها، وعلى امتداد ربع القرن التالي، تطوراً مرموقاً، وهذا ما سيحمل فريد نفسه على استكمال المحاضرات الثماني والعشرين بسبع محاضرات جديدة كتبها ولم يلقِها في عام ١٩٣٢ تحت عنوان **محاضرات تمهيدية جديدة في التحليل النفسي** ليستكمل ما طرأ من جديد على العلم الجديد. وهي محاضرات سننشر ترجمتها في جزء تالٍ من **مؤلفات فرويد شبه الكاملة** هذه.

أما المحاضرات الثماني والعشرون الأولى التي بين يدي القارئ هنا فهي تنقسم من حيث خطتها وبناؤها ـ وإن كانت تؤلف كلاً متكاملاً ـ إلى أقسام ثلاثة متمايزة:



١ ـ **مدخل إلى التحليل النفسي**، ويتألف من محاضرة مدخلية، ومن ثلاث محاضرات حول علم نفس **الهفوات**.

٢ ـ **الحلم**، ويتألف من إحدى عشرة محاضرة تعرض لنظرية الحلم وآليته ورمزيته وتفسيره ووظيفته.

٣ ـ **النظرية العامة للأمراض العصابية**، ويتألف من ثلاث عشرة محاضرة تتناول الفارق بين الطب النفسي والتحليل النفسي، وتعرض لنظرية العصاب وآلية تكوين أعراض الأمراض النفسية وطريقة معالجتها.

يبقى أن نقول إننا كنا اعتمدنا في ترجمتنا الأولى لهذه المحاضرات على النص الفرنسي كما ترجمه مختصٌّ كبير في حينه في ترجمة النصوص الفرويدية هو سيرج يانكيليفتش الذي كان فرويد نفسه يراجع بعض ترجماته ويعطي موافقته عليها. ولكن كما تقدم البيان فقد صدرت في الآونة الأخيرة ترجمات جديدة رجعنا إليها لتعديل ترجمتنا السابقة ولندخل عليها كل التعديلات ـ الجذرية أحياناً ـ التي ارتأينا أنها ضرورية لتقريب النص العربي من النص الألماني. ونخصّ هنا بالذكر الترجمة الجماعية الجديدة التي قام بها فريق عمل مؤلَّف من أندريه بورغنيون وجان جلبير ديلاربر ودانييل هارتمان وفرانسوا روبير تحت إشراف جان لابلانش المسؤول العلمي عن الترجمة الجديدة لـ **أعمال فرويد الكاملة** الصادرة عن المنشورات الجامعية الفرنسية في عشرين مجلداً بين ١٩٩٥ و٢٠١٠، والتي تتميَّز بالحرص على حرف النص الأصلي بقدر ما كانت الترجمة الأولى تحرص على أداء المعنى؛ وهذا إلى حدٍّ يبيح لنا القول إن الثقافة الفرنسية عرفت بدورها في مواجهة مهمة ترجمة مؤلفات فرويد إشكالية مماثلة لتلك التي كانت واجهتها الثقافة العربية من خلال ما أسميناه بجدلية التعريب والترجمة. فالسابقون من مترجمي فرويد كانوا أحرص على الفَرْنَسَة بينما يدلِّل اللاحقون منهم على حرص أكبر على الترجمة، وبالتالي على الأمانة لحرف النصّ الأصلي، ولو على حساب الأناقة والسلاسة في التعبير.

ج. ط



المحاضرة الأولى

تمهيد

سيداتي وسادتي، لست أدري مبلغ ما تناهى إلى علمكم من أمر التحليل النفسي عن طريق مطالعاتكم أو بالسماع. لكن عنوان هذه المحاضرات بالذات: **مدخل إلى التحليل النفسي**، يلزمني بأن أتناول الموضوع كما لو أنكم لا تعرفون عنه شيئاً وكما لو أنكم بحاجة إلى الإلمام بعناصره الأولية.

على أنه لا مناص لي من الافتراض بأنكم تعرفون أن التحليل النفسي طريقة في المعالجة الطبية للأشخاص المصابين بأمراض عصبية. فإذا ما سلّمنا بذلك، أمكنني للحال أن أبيِّن لكم من خلال مثال محدد أن الأمور لا تسير هنا مسارها في سائر فروع الطب، هذا إن لم نقل إنها تسلك اتجاهاً معاكساً. فلقد جرت بنا العادة، حين نعالج مريضاً من المرضى بتقنية طبية جديدة هو بها جاهل، أن نهوّن من محاذيرها وأخطارها في نظره وأن نؤكد له، ما وسعنا، حتمية نجاح المعالجة. وأعتقد أنه من الحق سلوك هذا المسلك، فبه تزداد في أرجح الظن فرص النجاح. لكننا نسلك غير هذا السبيل حين نستخدم التحليل النفسي في معالجة المريض العصابي. فنحن نطلعه في هذه الحال على صعوبات هذه الطريقة وما تقتضيه من وقت وجهود وتضحيات؛ أما عن النتيجة فنقول إنه لا يسعنا أن نقطع له وعداً، وإنها مرهونة بمسلك المريض نفسه وبذكائه وصبره وإذعانه لما يطلب منه. وغني عن البيان أن ثمة أسباباً وجيهة ـ قد تدركون أهميتها لاحقاً ـ تملي علينا سلوك هذا المسلك غير المألوف.

وإني لأستميحكم عذراً إن بدأت بمعاملتكم معاملتي لأولئك المرضى العصابيين. ونصيحتي إليكم ألا تأتوا للاستماع إليَّ مرة أخرى. ولهذا بالتحديد سأبيِّن لكم كل ما يشوب تعليم التحليل النفسي بالضرورة من نواقص وعيوب،



وكل الصعاب التي تعترض سبيل من يبغي تكوين حكم شخصي في هذا الموضوع. سأبيِّن لكم أن ثقافتكم السابقة كلها وأن طرائقكم في التفكير قد جعلت منكم ولا بد خصوماً للتحليل النفسي، وسأوضح لكم ما ينبغي أن تقهروه في أنفسكم كيما تتغلبوا على هذا العداء المسبق. ولا يسعني بالطبع أن أتنبأ لكم بما ستفيدونه من محاضراتي هذه من منظور فهم التحليل النفسي واستيعابه، غير أني أستطيع بكل تأكيد أن أعدكم بأن حضوركم هذه المحاضرات لن يكون كافياً لتكتسبوا القدرة على القيام ببحث أو بعلاج تحليلي نفسي. وإن يكن بينكم من لا يقنع بمعرفة سطحية بالتحليل النفسي، ومن قد تسوّل له نفسه أن يعقد وإياه صلة دائمة، فلن أمتنع عن تشجيعه على ذلك فحسب، بل سأحذِّره بصورة مباشرة من محاولة كهذه. ذلك أن من يعنّ له أن يختار، في الظروف الحاضرة، هذه المهمة يكون قد قضى على كل فرصة له في النجاح الجامعي، وسيجد نفسه، بصفته طبيباً ممارساً، وسط معشر لا يفهمون مقاصده، فيسيئون به الظن، وينظرون إليه بعين الريبة والعداء، وقد لا يترددون في أن يطلقوا ضده كل الأرواح الشريرة التي يختزنونها في قمقم أنفسهم. ولعله يسعكم أن تكوِّنوا صورة تقريبية عن عدد هذه الأرواح الشريرة بمجرد تفكيركم بما يواكب هذه الحرب التي تعصف اليوم بأوروبا من وقائع[1].

ومع ذلك، إن من الناس من ينجذب إلى كل معرفة جديدة، رغم كل المحاذير التي ألمعت إليها. فإن كان بينكم من ينتمي إلى هذه الفئة من الناس ويرغب في القدوم إلى هذا المكان ثانية، من دون أن تثبّط تحذيراتي هذه عزيمته، فأهلاً به ومرحباً. لكن من حقكم جميعاً أن تحاطوا علماً بالصعاب التي تكتنف التحليل النفسي والتي سأعرضها فيما يلي.

تتصل الصعوبة الأولى بطريقة تعليم التحليل النفسي بالذات. فقد اعتدتم، في دراستكم الطب، أن تروا وتعاينوا. فأنتم تتأملون الرسوم والنماذج التشريحية، وترسبات التفاعلات الكيمياوية، وتقلص العضلة بفعل تنبيه أعصابها. وفي وقت

١ ـ فرويد ألقى محاضرته هذه في شتاء ١٩١٥. «م».



لاحق تتصلون مباشرة بالمريض، وتتقرّون أعراض دائه، وتتلمّسون عقابيل مرضه، بل كثيراً ما توضع تحت أنظاركم مباشرة، في حالة منعزلة، الجرثومة التي تسبّبت بالمرض. ومن اختصّ منكم بالجراحة، حضر العمليات التي تُجرى للمريض، وقد يتوجب عليه أيضاً أن يحاول القيام بها بنفسه. وحتى في طبّ الأمراض النفسية، يمدّكم مرأى المريض، بما يطرأ على سحنته من تقلبات وبما يصدر عنه في كلامه وسلوكه، بجملة من الملاحظات التي تترك في نفوسكم انطباعاً عميقاً ودائماً. على هذا النحو يؤدي مدرّس الطب دور مرشد وترجمان ويرافقكم كما لو عبر متحف من المتاحف، فيما أنتم تتصلون اتصالاً مباشراً بالأشياء وتتصورون أنكم اكتسبتم، بخبرتكم الشخصية، اليقين بوجود الوقائع الجديدة.

من سوء الحظ أن الأمور تجري غير هذا المجرى في التحليل النفسي. فالمعالجة التحليلية النفسية لا تشتمل إلا على تبادل كلام بين المحلَّل والطبيب. إذ يتكلم المريض، ويروي أحداث حياته الماضية وانطباعاته الحاضرة، ويتشكّى، ويعترف برغائبه وانفعالاته. ويسعى الطبيب إلى توجيه مسار أفكار المريض، ويوقظ ذكرياته، ويوجّه انتباهه في وجهة معينة، ويقدم له تفسيرات، ويرصد ما يثيره على هذا النحو لدى المريض من ردود فعل تنمّ عن فهم أو عدم فهم. ثم إن أهل مرضانا وأقاربهم، وهم من غير أهل الاختصاص، لا يصدِّقون إلا ما هو منظور وملموس، بل لا يقتنعون إلا بمثل المشاهد التي تتوالى على شاشة آلة العرض السينمائي، ولا يمسكون عن إبداء تشككهم في نجع طريقةٍ للعلاج لا تعدو أن تكون محض «كلام بكلام». والحق أن نقداً كهذا غير منطقي ولا ينمّ عن نباهة. أفليس هؤلاء الناس هم أنفسهم من يعلمون علم اليقين أن المرضى «يتخيّلون»، ليس إلا، ما ينتابهم من أعراض؟ لقد كانت الكلمات في ماضي الأزمنة تُدرج في عداد السحر، ولا تزال الكلمة تحتفظ إلى يومنا هذا بقدر كبير من قوتها السحرية السالفة. فبالكلمات يستطيع المرء أن يسعد نظيره أو أن يدفع به إلى هوة اليأس، وبالكلمات ينقل المعلِّم علمه إلى تلاميذه، وبها يستحوذ الخطيب على ألباب سامعيه ويوجِّه أحكامهم وقراراتهم. وتثير الكلمات انفعالات، وهي للناس الوسيلة العامة للتأثير في بعضهم بعضاً. فلنحاذر إذاً أن ننتقص من القيمة التي



يمكن أن تكون لاستخدام الكلام في التطبيب النفسي، ولنعرف كيف نعير آذاناً صاغية لما يدور من كلام بين المحلِّل والمريض.

لكن ذلك ليس متاحاً لنا على كل حال. فالتحادث الذي على أساسه يقوم التحليل النفسي لا يتحمل وجود سامعين، ولا يصلح ما يجري في العيادة للتمثيل أمام شهود. صحيح أننا نستطيع أن نعرض على تلاميذنا، في أثناء درس في الطب النفسي، مريضاً بالنوراستينيا أو مصاباً بالهستيريا[٢]، فيفصح أمامهم عما يشكو منه ويسرد تفاصيل أعراضه. لكن ذلك سيكون كل شيء. أما المعلومات التي يحتاجها المحلِّل فلن يفضي بها المريض إلا إذا ساوره إزاء الطبيب شعور بعاطفة خاصة؛ لكنه سيلزم الصمت إذا ما آنس وجود شاهد واحد لا يأبه له. وآية ذلك أن هذه المعلومات تتصل بأخص الخصوصيات في حياة المريض النفسية، بكل ما يتوجب عليه، بصفته شخصاً اجتماعياً مستقلاً بذاته، أن يخفيه عن الآخرين، وأخيراً بكل ما لا يريد الإقرار به، حتى بينه وبين نفسه، بوصفه شخصاً يعي فرادته.

يتعذر عليكم إذاً أن تحضروا كمستمعين جلسة للمعالجة التحليلية النفسية. وكل ما يسعكم هو الاستماع إلى ما يقال عنها، ولن يكون في مستطاعكم أن تعرفوا التحليل النفسي إلا سماعاً ليس إلا. وتعذُّر حصولكم على معلومات إلا بطريق غير مباشر يضعكم في شروط غير مألوفة لتكوين حكم. إذ سيكون كل شيء رهناً إلى حدٍّ بعيد بمدى الثقة التي يوحي بها إليكم من يزوِّدكم بالمعلومات.

تخيَّلوا لهنيهة من الزمن أنكم تستمعون، لا إلى محاضرة في الطب النفسي، بل إلى محاضرة في التاريخ، وأن المحاضر يحدثُّكم عن حياة الإسكندر الأكبر وفتوحاته. فما الأسباب التي ستحملكم، والحالة هذه، على تصديق صحة ما يرويه؟ للوهلة الأولى، يبدو أن الوضع أقل مؤاتاة مما في التحليل النفسي، على اعتبار أن أستاذ التاريخ لم يشارك، مثله مثلكم، في حملات الإسكندر، بينما يحدثِّكم المحلِّل النفسي على كل حال عن وقائع لعب فيها هو نفسه دوراً. لكن

٢ ـ النهك العصبي والهرع على التوالي بحسب المصطلحات التي يعتمدها القاموس الطبي العربي. «م».



هنا يطرأ عامل يوجب عليكم أن تمحضوا المؤرخ ثقتكم. إذ يسعه أن يحيلكم إلى روايات قدامى الكتَّاب، ممن عاصروا الأحداث المشار إليها، أو كانوا قراباً إليها في الزمن، أي إلى كتب فلوطرخوس[٣] وديودورس[٤] وأريانس[٥]، إلخ؛ كما يسعه أن يعرض عليكم نسخاً من النقود أو من تماثيل الملك، وصورة فوتوغرافية لفسيفساء مدينة بومباي التي تمثل موقعة إيسوس[٦]. والحق أن هذه الوثائق جميعها تثبت فقط أن أجيالاً سابقة قد آمنت بوجود الإسكندر وبحقيقة فتوحاته، وهذه مسألة قد تكون لكم بمثابة منطلق جديد إلى ممارسة نقدكم. إذ قد تجدون في أنفسكم ميلاً إلى الاستنتاج بأن كل ما روي عن الإسكندر ليس أهلاً للتصديق أو أنه لا يمكن القطع بيقين بصدد تفاصيله كافة؛ ومع ذلك لا أتصوَّركم مغادرين قاعة المحاضرات وأنتم ترتابون في أن يكون الإسكندر الأكبر قد وجد فعلاً وواقعاً. وقراركم سيعيِّنه اعتباران رئيسيان: أولهما أن المحاضر ليس لديه من سبب معقول يحمله على إقناعكم بواقعية شيء لا يؤمن هو نفسه بواقعيته، وثانيهما أن جميع كتب التاريخ التي بين أيدينا تعرض الأحداث عرضاً شبه متطابق. فإذا تنطعتم بعد ذلك لتمحيص أقدم المراجع، أخذتم باعتباركم العاملين نفسيهما، أعني الدوافع التي أملت على الكتَّاب ما كتبوه، والتوافق بين شهاداتهم. وفي حالة الإسكندر ستكون نتيجة الامتحان إيجابية بكل تأكيد، لكنها قد لا تكون كذلك في حالات غيره من الشخصيات من أمثال موسى أو نمرود[٧]. أما الشكوك التي قد تساوركم حيال مدى مصداقية ما قد يرويه محلِّل

٣ ـ فلوطرخوس: كاتب إغريقي (نحو ٥٠ ـ ١٢٥)، عاش في روما وجال في الشرق، كتب كتباً كثيرة، من أشهرها **سير العظماء**. «م».

٤ ـ ديودورس الصقلي: مؤرخ إغريقي من القرن الأول ق.م، مؤلف **المكتبة التاريخية**، وفيها يسرد وقائع التاريخ منذ العصور السحيقة وانتهاء بالعام ٦٠ ق.م. «م».

٥ ـ فلافيوس أريانس: مؤرخ إغريقي من القرن الثاني ب.م، له كتاب تاريخي عن الإسكندر المقدوني. «م».

٦ ـ إيسوس: مدينة قديمة في آسيا الصغرى في كيليكيا، قهر الإسكندر فيها إمبراطور الفرس داريوس الثالث سنة ٣٣٣ ق.م. «م».

٧ ـ نمرود: ملك خرافي تأتي بذكره كثرة من الأساطير العربية والفارسية التي تجعل منه مؤسس مملكة بابل، ويعرِّفه سفر التكوين بأنه ابن كوش بن حام. «م».



من المحللين النفسيين عن حالة بعينها، فلن يتأتى لكم أن تحسموا أمرها إلى الحدّ الذي يحظى باقتناعكم إلا في فرص لاحقة.

من حقكم الآن أن تسألوني: إذا لم يكن ثمة من معيار موضوعي للفصل في صحة ما يقوله التحليل النفسي، وإذا لم يكن ثمة من إمكانية لاتخاذه موضوعاً للتجريب، فكيف السبيل إلى تعلم التحليل النفسي والتحقق من صحة مدّعاه؟ بالفعل، ما هذا التعلم بسهل، وقليلون هم من تعلموا التحليل النفسي بصورة منتظمة. لكن هذا لا يعني أنه ليس ثمة من سبُل ومداخل إلى هذا التعلم. فالمرء يتعلم التحليل النفسي أولاً بتطبيقه على نفسه، وبدراسته شخصيته الخاصة. وليس هذا على وجه الدقة ما يسمى بملاحظة الذات لذاتها، ولكننا نستطيع عند الاقتضاء أن نردّ إلى هذه الملاحظة الدراسة التي نحن بصدد الكلام عنها. إن ثمة طائفة من ظاهرات نفسية متواترة ومعروفة للكثرة من الناس يمكن أن تتخذ موضوعاً للتحليل الذاتي متى ما تدرَّب الإنسان قليلاً على تقنيته. وعن هذا السبيل يتأتى له أن يظفر بالاقتناع المنشود بصحة السيرورات التي يصفها التحليل النفسي وبصوابية تصوراته. غير أنه يجدر بنا التنويه بأنه ليس للإنسان أن يتوقع، إذا ما سلك هذا السبيل، إحراز تقدم كبير. بل هو سيحرز تقدماً أكبر بكثير فيما لو وضع نفسه تحت تصرف محلّل كفؤ ليقوم بتحليله، وفيما لو رصد في أناه بالذات أثر التحليل النفسي واهتبل هذه الفرصة ليستوعب تقنية هذه الطريقة بجميع دقائقها. وغني عن البيان أن هذا النهج الممتاز لا يمكن لغير شخص مفرد أن ينهجه، وبالتالي ليس ثمة من سبيل إلى تطبيقه على كامل المجموعة التي يتألف منها تلاميذ صف من الصفوف.

أما الصعوبة الثانية التي تعترض سبيلكم إلى التحليل النفسي فلا تتصل به بقدر ما تتصل بكم، أنتم أنفسكم، وذلك بقدر ما يكون تمّ لكم تحصيله من دراساتكم الطبية السالفة. فالتعليم الذي تلقيتموه حتى الآن وجّه فكركم في اتجاه معيّن يباعد الشقّة كثيراً بينكم وبين التحليل النفسي. فقد عوَّدوكم على أن تعزوا إلى وظائف الجسم واضطراباتها عللاً تشريحية، وعلى تفسيرها على ضوء الكيمياء والفيزياء، وعلى تصورها من المنظور البيولوجي، ولم يوجهوا اهتمامكم قط إلى



الحياة النفسية التي فيها يبلغ أداء جسمنا ـ الرائع التعقيد ـ لوظائفه أوجه وذروته. ولهذا انقطعت الأسباب بينكم وبين الطريقة السيكولوجية في التفكير، ولهذا أيضاً درجتم على النظر إلى هذه الطريقة بعين الريبة، فأنكرتم عليها كل صفة علمية وتركتم أمرها لغير أهل العلم وللشعراء وفلاسفة الطبيعة والمتصوفة. وهذا الانحداد ضارٌّ بكل تأكيد بمهنتكم الطبية، لأن المريض يعرض عليكم، أول ما يعرض، كما هي الحال في جميع العلائق الإنسانية، واجهته النفسية، وإني لأخشى أن تكون عاقبة ذلك اضطراركم لأن تذروا لغير أهل العلم وللمبرِّئين والمتصوفة، الذين لا تنظرون إليهم إلا بعين الازدراء، جانباً غير هيّن من التأثير العلاجي الذي تسعون إلى ممارسته.

لست أجهل الأسباب التي قد تساق لتبرير هذه الثغرة في تدريسكم. ولئن ما زال يعوزنا شيء فهو ذلك العلم الفلسفي المساعد الذي يمكن أن يعينكم على تحقيق الغايات التي ترسمها مهنة الطب. فلا الفلسفة التأملية، ولا علم النفس الوصفي، ولا علم النفس المسمّى بالتجريبي وذو الصلة بفيزيولوجيا الحواس، لا شيء من هذه جميعها، كما تُدرَّس في المدارس، حقيق بأن يمدّكم بمعطيات مفيدة حول العلاقات بين الجسم والنفس وقمين بأن يهديكم إلى الطريق لفهم اضطراب من الاضطرابات النفسية. صحيح أن طب الأمراض النفسية يهتم، في إطار الطب بالذات، بوصف الاضطرابات النفسية التي يرصدها، وبجمعها في جداول سريرية، لكن أطباء الأمراض النفسية أنفسهم يتساءلون في لحظات صفوهم عما إذا كانت تصانيفهم الوصفية البحتة جديرة باسم العلم. إننا لا نعرف أصل الأعراض التي تتألف منها تلك الجداول التصنيفية، ولا آليتها، ولا روابطها المتبادلة؛ وليس ثمة تطابق يمكن أن يقام عليه البرهان بين تلك الجداول وبين أي تبدل يطرأ على جهاز النفس التشريحي[٨]؛ وأما التعديلات التي يقال لنا إنه يمكن إدخالها على تلك الجداول فهي لا تقدم أي تفسير للأعراض. والواقع أن هذه الاضطرابات النفسية لا تستجيب لأي مجهود علاجي إلا بقدر ما تؤلف محض عقبى ثانوية لإصابة عضوية ما.

٨ ـ يقصد المخ. «م».



إن هذه لثغرة يسعى التحليل النفسي إلى ردمها. فهو يريد أن يوفر لطب الأمراض النفسية الأساس السيكولوجي الذي يفتقر إليه، ويأمل أن يكتشف المضمار المشترك الكفيل بتعليل الترابط بين الاضطراب البدني والاضطراب النفسي. وتوصلاً إلى هذا الهدف، عليه أن يبتعد عن كل مسلّمة ذات صفة تشريحية أو كيمياوية أو فيزيولوجية، وألا يعوِّل في عمله إلا على مفاهيم سيكولوجية بحتة. ولهذا تحديداً أخشى أن يبدو لكم لأول وهلة غريباً.

أخيراً ثمة صعوبة ثالثة لن ألقي تبعتها عليكم ولا على طبيعة التدريس الذي تلقيتموه. ذلك أن من جملة مقدمات التحليل النفسي مقدمتين تثيران سخط الناس أجمعين وتجلب عليه الاستنكار العام: مقدمة تصطدم بحكم مسبق فكري، وأخرى بحكم مسبق جمالي/ أخلاقي. ولنحاذر الاستهانة بهذه الأحكام المسبقة: فهي على جانب من القوة، وقد تخلّفت عن أطوار مفيدة، بله ضرورية، من تطور البشرية. وهي ترتكز إلى قوى وجدانية، والنضال ضدها صعب وشاق.

إن السيرورات النفسية، بموجب أولى مقدمتي التحليل النفسي المثيرتين للاستهجان، هي في ذاتها ولذاتها[9] لاشعورية؛ وأما الشعورية منها فلا تعدو أن تكون أفعالاً منعزلة، شذرات من الحياة النفسية الشاملة. وعليكم أن تتذكروا هنا أننا درجنا، على العكس، على المماهاة بين النفسي والشعوري. ومن ثم، إن الشعور يتبدى لنا وكأنه هو السمة المميزة للنفسي وأنه بمثابة تعريف له، وأن قوام علم النفس بالتالي دراسة مضامين الشعور حصراً. بل إن تلك المماثلة تبدو لنا طبيعية للغاية، حتى لنعدّ كل اعتراض عليها ضرباً من العبث الذي لا طائل فيه. ومع ذلك لا يمكن للتحليل النفسي إلا أن يعترض على هذه المماهاة بين النفسي والشعوري. ولئن كان يعرِّف النفسي بأنه يتألف من سيرورات تدخل ضمن نطاق العاطفة والفكر والإرادة، فلا مناص له من أن يؤكد أيضاً على وجود فكر لاشعوري وإرادة منبثقة عن اللاشعور. لكنه إذ يتقدم بهذا التعريف وهذا التوكيد يخسر سلفاً عطف جميع أصدقاء الوقار العلمي البارد، ويجرّ على نفسه الشبهة

٩ ـ في ذاتها ولذاتها: تعبير يقبسه فرويد من اللغة الفلسفية الألمانية السائدة في عصره. «م».



بأنه محض علم باطني وخيالي يريد أن يبني في الظلام وأن يصطاد في الماء العكر. لكن لا يسعكم بعد بطبيعة الحال، أيها المستمعون الأعزاء، أن تفهموا بأي حق أطلق صفة الحكم المسبق على عبارة مجردة كتلك التي تقول إن «النفسي هو الشعوري»، كما لا يسعكم بعد أن تحزروا ما طبيعة التطور الذي أمكن له أن يفضي إلى نكران اللاشعور (على فرض أنه موجود) وما المكسب من مثل هذا النكران. وقد يبدو لكم الجدل فيما إذا كانت المطابقة بين النفسي والشعوري واجبة، أو الجدل فيما إذا كان من الضروري توسيع مدى النفسي إلى ما وراء حدود الشعوري، ضرباً من السفسطة والمماحكة لا طائل فيه، لكن بوسعي أن أؤكد لكم أن الاعتراف بالسيرورات النفسية اللاشعورية يدشّن اتجاهاً جديداً وفاصلاً في العالم وفي العلم.

لا أخالكم تحزرون أيضاً الصلة الوثيقة القائمة بين هذه الخطوة الجريئة الأولى التي خطاها التحليل النفسي وبين الخطوة التالية التي سأعرض لها الآن. فالأطروحة الثانية التي يتقدم بها التحليل النفسي على أنها اكتشاف من اكتشافاته تؤكد ما يلي: إن الحاثات Motions الغريزية التي يمكن وصفها بأنها جنسية محض، بالمعنى الضيق أو الواسع للكلمة، تلعب، بصفتها عللاً محدِّدة للأمراض العصبية والنفسية، دوراً فائق الأهمية، لم يقدَّر حتى يومنا هذا حقّ قدره. بل أكثر من ذلك: فالتحليل النفسي يؤكّد أن هذه الحاثات الجنسية عينها تسهم بقسط لا يستهان به في إبداعات العقل البشري في ميادين الثقافة والفن والحياة الاجتماعية.

وبحسب خبرتي، إن النفور الذي تثيره هذه النتيجة التي ينتهي إليها البحث التحليلي النفسي هو أهم سبب للمقاومات التي يصطدم بها. فهل لكم رغبة في أن تعرفوا كيف نفسر هذه الواقعة؟ إننا نعتقد أن الحضارة قد أُبدعت تحت ضغط الضرورات الحيوية وعلى حساب إشباع الدوافع الغريزية، وأنها يعاد خلقها دوماً من جديد على المنوال نفسه إلى حدّ بعيد، إذ يقوم كل فرد جديد يرى النور في المجتمع البشري بتكرار التضحية بإشباعاته الغريزية لصالح المجموع. وتحتل الحاثات الجنسية، بين جملة القوى الغريزية المكبوح جماحها على هذا النحو، مكانة بارزة؛



فهي تتعرض لعملية إسماء Sublimation، أي أنها تحوَّل عن هدفها الجنسي وتوجَّه نحو أهداف اجتماعية أعلى لا تتصف بأية صفة جنسية. غير أن مثل هذا التنظيم لا يتمتَّع بصفة الثبات. فالدوافع الغريزية الجنسية يعسر ترويضها، وكل فرد يسهم في بناء الحضارة يكون عرضة لأن تتمرد دوافعه الغريزية الجنسية على هذا الكبت(١٠). ولا يرى المجتمع من خطر يهدِّد حضارته أعظم من خطر انعتاق الدوافع الغريزية الجنسية ورجعتها إلى أهدافها الأولية. لذا لا يطيب للمجتمع أن يذكِّره أحد بهذا الجانب «الفاسق» من الأسس التي يقوم عليها وجوده؛ ولا مصلحة له على الإطلاق في الاعتراف بقوة الدوافع الغريزية الجنسية وفي إماطة اللثام لكل فرد عن أهمية الحياة الجنسية؛ وقد أخذ المجتمع، على العكس، بنهج في التربية يصرف الانتباه عن هذه الناحية. ولهذا لا يتحمل ولا يطيق تلك النتيجة التي انتهى إليها التحليل النفسي والتي نحن بصدد الكلام عنها؛ ومن ثم نراه يبادر إلى وصمها بأنها مثيرة للاشمئزاز من وجهة النظر الجمالية، وبأنها مرذولة مذمومة من وجهة النظر الأخلاقية، علاوة على خطورتها من النواحي الأخرى. لكن ليس بمثل هذا التأنيب والتعنيف يمكن إسقاط هذه أو تلك من النتائج الموضوعية التي ينتهي إليها البحث العلمي. وحتى يكون الاعتراض مقبولاً، فلا بدَّ أن ينقل إلى صعيد الفكر. والحال أن الطبيعة البشرية مجبولة على اعتبار ما لا تستسيغه ظلماً وجوراً. ومن ثم لا يشقّ عليها أن تجد حججاً تبرِّر بها نفورها واشمئزازها. وعلى هذا النحو ينقلب ما هو مستكره في نظر المجتمع إلى باطل، وينبري هذا المجتمع عينه إلى محاربة حقائق التحليل النفسي لا بحجج منطقية وعينية، بل بذرائع وتعلات يستقيها من معين العاطفة والهوى، ويتشبَّث بهذه الاعتراضات ويشهرها أحكاماً مسبقة رداً على كل من تسوّل نفسه له تفنيدها.

ويجدر بي أن ألفت انتباهكم، سيداتي وسادتي، إلى أننا حاذرنا الإغراض

١٠ ـ يؤثر فرويد في نصوصه جميعاً استعمال مصطلح الدوافع الغريزية بدل الغرائز لأن هذه الأخيرة أصدق على الحيوان المحكوم سلوكه بغريزته التي لا رادّ لها، على حين أن إشباع الدافع الغريزي لدى الإنسان ـ الراشد على الأقل ـ يبقى محكوماً بقدر أو بآخر بإرادته. «م».



والتحيّز في صياغتنا هذه الأطروحة المختلف عليها. وقد كان هدفنا الأوحد أن نعرض حقيقة واقعة تراءى لنا أنه قد أمكننا الإحاطة بها بعد بحث شاقّ ومضنٍ. ويخيّل إلينا أنه من واجبنا، هذه المرة أيضاً، أن نحتج على أية محاولة للزجّ بالاعتبارات العملية في شؤون البحث العلمي، وهذا حتى قبل أن نتحقق مما إذا كانت تلك المخاوف التي باسمها يراد فرض تلك الاعتبارات علينا مبررة أم لا.

تلكم هي بعض الصعاب التي قد تصطدمون بها إذا ما أردتم دراسة التحليل النفسي. ولعلها أكثر مما يطيقه مبتدئ. فإن لم تتهيّبوا من احتمال مواجهتها، أمكننا أن نمضي في ما نحن فيه.




مكتبة
الفكر الجديد

المحاضرة الثانية

الهفوات

سيداتي وسادتي، لن نبدأ اليوم بفروض، بل ببحث موضوعه جملة من ظاهرات شائعة، متواترة، لا تعار اهتماماً كافياً، ولا ضلع لها بالحالات المرضية، إذ نستطيع أن نلحظها لدى كل إنسان معافى. إنها الظاهرات التي سنطلق عليها اسم جنس: **الهفوات** Actes manqués، والتي تحدث عندما ينطق المرء أو يكتب، عن انتباه أو بدون انتباه، كلمة غير تلك التي كان يريد أن ينطق بها أو يكتبها (**زلة**)؛ أو عندما يقرأ، في نص مطبوع أو مخطوط، كلمة غير تلك التي هي مطبوعة أو مسطورة (**قراءة غالطة**)؛ أو عندما يسمع شيئاً هو غير ما يقال له، من دون أن يكون مردّ هذا **السمع المغلوط** إلى خلل عضوي في حاسة السمع. وثمة طائفة أخرى من هذه الظاهرات عينها قوامها النسيان، على أن يكون معلوماً أن هذا النسيان مؤقت، لا دائم، كما عندما يتعذر على المرء تذكر اسم يعرفه حق المعرفة ولا يلبث أن يهتدي إليه فعلاً في وقت لاحق، أو كما عندما ينسى الإنسان تنفيذ مشروع كان عقد العزم عليه ثم لا يعتم أن يتذكره لاحقاً، فيكون بذلك قد سها عنه لحين من الزمن ليس إلا. وثمة طائفة ثالثة من الظاهرات لا تتسم بهذا الطابع المؤقت، كما عندما لا يوفق واحدنا، مثلاً، إلى العثور على شيء كان قد حفظه في مكان ما؛ وتدخل في هذا الباب شتى حوادث تضييع الأشياء. وهذه ضروب من النسيان ندهش لها ونغتاظ لحدوثها، ولا نملك لها فهماً. وتتصل بهذه الحالات بعض **الأخطاء** التي يتجلى فيها من جديد الطابع المؤقت، كما عندما نتكهَّن لحين من الزمن بأشياء كنا نعرف من قبل وسنعرف من بعد أنها ليست كما نتصورها. وبوسعنا، إذا شئنا، أن نضيف إلى جميع هذه الحالات جملة من ظاهرات مماثلة، تعرف بأسماء شتى.



وجميع هذه الحوادث تتصل فيما بينها بصلة قربى وثيقة تتجلى في أن جميع الألفاظ التي تفيد في الدلالة عليها بالألمانية تبدأ كلها بالسابقة Ver[1]. وهي جميعها حوادث لا تتصف بالأهمية، ولا تدوم إلا لمدة قصيرة في أغلب الأحيان، وليس لها دور كبير في حياة الناس. ونادراً ما يتسم بعضها بأهمية عملية، كما في حال تضييع الأشياء مثلاً. ولهذا لا توقظ الاهتمام، ولا تثير إلا انفعالاً واهناً، إلخ.

هذه الظاهرات هي إذاً ما أريد أن أحدِّثكم عنه. غير أني أسمعكم تبدون من الآن تأففكم واعتراضكم: «إن العالم الخارجي الفسيح، وكذلك عالم الحياة النفسية الأقل فساحة، حافل بالألغاز العظيمة، ومضمار الاضطرابات النفسية حافل بالظواهر المدهشة التي تتطلب وتستأهل تفسيراً، فما الجدوى من هدر وقتنا في الانكباب على مثل هذه السفاسف؟ لو كان بوسعك أن تفسِّر لنا كيف تؤول الحال بإنسان سليم البصر والسمع إلى أن يرى في وضح النهار ويسمع أشياء لا وجود لها، ولماذا يتراءى لفلان من الناس على حين بغتة أن أولئك الذين يحبهم ويقدمهم في المعزة على سواهم انقلبوا عليه يضطهدونه ويكيدون له، أو لماذا يلاحق أوهاماً لا يعجز حتى الطفل عن إدراك ما فيها من هراء وعبث، لو كان ذلك في مقدورك لقلنا إن التحليل النفسي يستأهل عناء دراسته. أما إذا كان كل ما يقدر عليه التحليل النفسي هو البحث عن السبب الذي جعل خطيباً في مأدبة ينطق يوماً بكلمة بدل أخرى، أو لماذا تعجز ربة البيت عن العثور على مفاتيحها، وغير ذلك من السفاسف، فإننا نصارحك القول، والحال هذه، بأن ثمة معضلات أخرى هي بوقتنا واهتمامنا أجدر».

وجوابي عليكم في هذه الحال: «صبراً سيداتي وسادتي! إن نقدكم لا يقوم، على ما يبدو لي، على أساس سليم. صحيح أن التحليل لا يستطيع أن يتباهى بأنه

---

١ ـ على سبيل المثال: Ver-Sprechen (فلتة لسان)، Ver-Lesen (قراءة مغلوطة)، Ver-Horon (خطأ في السمع)، Ver-Legen (تعذُّر العثور على شيء بعد وضعه في مكان ما)، إلخ. وهذه تعابير لا مقابل لفظي لها في العربية أو في اللغات اللاتينية، وقد ترجم بعضهم الهفوات بمصطلح «الأفعال المحبطة»، وهي ترجمة حرفية لكلمة هفوات في اللغة الفرنسية: Actes Manqués. «م».



لم يولِ السفاسف اهتمامه قط؛ فمواد ملاحظاته يستمدها عادة من تلك الوقائع غير اللافتة للنظر التي تصدف عنها العلوم الأخرى وتعدّها مما لا يُعتدّ به، ويستقيها من نفايات عالم الظواهر. لكن ألا تخلطون في نقدكم بين أهمية المشكلات وبين ظاهر علاماتها؟ أليس ثمة أمور هامة لا تتظاهر، في بعض الظروف وفي بعض الأحيان، إلا من خلال علامات طفيفة غير ذات شأن؟ وليس أسهل عليّ من أن أضرب لكم طائفة من الأمثلة على مثل هذا الوضع. أفلا تستدلون من علامات تكاد لا تقع تحت حسّ أنكم، وأنتم على ما أنتم عليه من شباب وفتوَّة، قد حزتم رضى هذه الفتاة أو تلك؟ وهل تنتظرون، كيما تعرفوا ذلك، تصريحاً سافراً من جانبها، أو مبادرتها إلى معانقتكم بحرارة؟ ألا تكتفون، على العكس، بنظرة خاطفة، أو بإيماءة عابرة، أو بمصافحة أطول بقليل من المعتاد؟ وحين تقومون، بصفتكم قضاة، بتحقيق في جريمة قتل، فهل تنتظرون أن يترك لكم القاتل صورته الشمسية في مكان الجريمة، وعليها عنوانه، أم تراكم تضطرون إلى الاكتفاء بآثار طفيفة، وعديمة الأهمية بحدّ ذاتها، للتوصل إلى معرفة هوية المجرم؟ خليق بنا إذاً ألا نزدري العلامات الصغيرة: فقد تهدينا إلى أشياء أجلّ شأناً وأعظم أهمية. ثم إني أرى كما ترون أن مشكلات العالم والعلم الكبرى هي الأَوْلى بأن تستأثر باهتمامنا كله. غير أنه لا جدوى، في كثير من الأحيان، من عقد المرء العزم على تكريس جهده لدراسة هذه المشكلة الكبيرة أو تلك، إذ إنه لن يدري في هذه الحال في أي اتجاه ينبغي أن يوجه خطاه. والأقرب إلى الصواب والعقل في البحث العلمي أن يتصدى المرء لما يلفاه أمامه، لموضوعات تعرض نفسها من تلقاء نفسها لبحثه وتنقيبه. فإن فعل ذلك بجدّ، بدون أفكار مسبقة، وبدون آمال مسرفة، وإن واتاه نصيب من الحظ، فقد يفتح عمله الذي شرع به بلا ادعاء أو تبجح الطريق إلى دراسة المعضلات الكبرى، وذلك لما بين الأشياء كلها، صغيرها وكبيرها، من روابط ووشائج».

هذا ما كان عليّ أن أقوله لكم حتى أبقي انتباهكم متيقظاً ساعة أشرع بالكلام عن تلك الهفوات العديمة الأهمية في الظاهر والتي تصدر عن أسوياء الناس. ولكن دعونا الآن نتوجَّه بخطابنا إلى امرئ لا علاقة له على الإطلاق



بالتحليل النفسي، لنسأله أن يفسر لنا كيف تحدث هذه الأمور.

من المؤكد أنه سيجيبنا بادئ الأمر بقوله: «هذه أشياء لا تستأهل أي تفسير؛ فهي حوادث تافهة». ترى ماذا يعني بقوله هذا؟ أتراه يزعم أن ثمة أحداثاً لا يعتدّ بها، وأنها لا تخضع للترابط المتحكم بصيرورة العالم، وأنه كان من الممكن أن تحدث وألا تحدث على حدّ سواء؟ لكننا لو حطّمنا الحتمية الكونية، ولو في نقطة واحدة من نقاطها، نكون قد قلبنا رأساً على عقب كل التصور العلمي للعالم. وعلينا في هذه الحال أن نبيِّن لصاحبنا أنه حتى التصور الديني للعالم أكثر تماسكَ منطقٍ حين يؤكد بعبارة لا لبس فيها أن العصفور الدوري لا يسقط من عشه في السقف إلا بتدخل مقصود من المشيئة الإلهية. وهنا أتصور صديقنا يمسك عن استخلاص النتيجة التي تترتب على جوابه الأول، ويعدِّل رأيه، ويصرح قائلاً إنه لو انكبّ على دراسة هذه الأشياء لوجد لها بسرعة تفسيراً. فلا بد أنها اختلالات وظيفية زهيدة، أو اضطرابات بسيطة في النشاط النفسي يمكن بسهولة تحديد شروطها. فالمرء الذي ينطق نطقاً سليماً بوجه عام يمكن أن يخطئ في الكلام: ١ ـ متى كان متوعك الصحة أو متعباً؛ ٢ ـ متى كان مهتاجاً؛ ٣ ـ متى كان مستغرقاً في أمور أخرى. وإثبات هذه التوكيدات ليس بالعسير. ففلتات اللسان كثيرة الحدوث متى كان الإنسان متعباً، أو به صداع، أو على وشك أن تأخذه نوبة من نوبات وجع الرأس. وفي ظروف مشابهة يحدث للإنسان أن ينسى أسماء الأعلام. وكثيرون من الأشخاص يشعرون بأزوف نوبة الصداع لمجرد وقوعهم في مثل ذلك النسيان؛ كذلك عندما يكون المرء فريسة الانفعال والاهتياج فكثيراً ما تختلط عليه الأسماء والمسميات، فيغلط ويخطئ؛ وأكثر ما ينصبّ نسيانه على ما نوى القيام به من أفعال أو على قيامه بأفعال ما كان في نيته القيام بها ساعة يأخذه السهو والغفلة، أي ساعة يكون انتباهه مركّزاً على شيء آخر. ومن الأمثلة المعروفة على مثل هذا السهو والغفلة مثال الأستاذ كما تصوَّره **الأوراق الطائرة**[٢] عندما ينسى مظلته ويأخذ قبعة غير قبعته لأنه كان

٢ ـ الأوراق الطائرة Fliegende Blatter: مجلة هزلية ألمانية صدرت في ميونيخ بين ١٨٤٥ ـ ١٩٤٤.
«م».



مستغرق الفكر في المشكلات التي سيعالجها في كتابه التالي. أما المشاريع التي يُعقد عليها العزم والوعود التي يُقطع بها العهد، ثم لا تلبث أن تُنتسى لأن أحداثاً قد استجدّت وحوّلت الانتباه على حين غرة في وجهة أخرى، فليس أسهل من أن يجد واحدنا أمثلة وفيرة لها في تجربته الخاصة.

قد يبدو لكم هذا واضحاً مفهوماً وبمنأى عن كل اعتراض. وقد لا يكون على جانب كبير من الطرافة، أو على الأقل ليس بالقدر الذي كنا نتوقعه. فلننعم النظر إذاً في هذه التفاسير للهفوات. فالشروط التي يُفترض توفرها لحدوثها ليست جميعها من طبيعة واحدة. فتوعك الصحة واضطراب الدورة الدموية لهما دورهما كأسباب فيزيولوجية في الاختلال الذي قد يصيب الوظيفة السوية؛ بينما الاهتياج والتعب والسهو عوامل من نوع آخر، ويصحّ وصفها بأنها نفسية/ فيزيولوجية. ومن السهل ترجمة هذه العوامل الأخيرة إلى صيغة نظرية. فالتعب، والسهو، وربما أيضاً التهيُّج العام، من شأنها أن تشتّت الانتباه، فلا تعود الوظيفة المعنية تتلقى قدراً كافياً من الانتباه، فيطرأ عليها بسهولة خلل أو يتعذر أداؤها بالدقة المطلوبة. وقد يكون لانحراف الصحة العامة أو لتغيُّر الدورة الدموية في الجهاز العصبي المركزي هذا المفعول عينه، إذ يؤثران بالكيفية نفسها على العامل الحاسم والأهم، أي توزّع الانتباه. إذاً، فهي في كل الأحوال ظاهرات متأتية عن اضطرابات في الانتباه، سواء أنشأت هذه الاضطرابات عن أسباب عضوية أم عن أسباب نفسية.

غير أن هذا كله ليس من شأنه أن يحفز اهتمامنا بالتحليل النفسي، وقد نكون لا تزال بنا رغبة في نفض أيدينا من هذا الموضوع. والحال أننا لو دققنا النظر في هذه الملاحظات تدقيقاً أكبر، لتبيّن لنا أن الهفوات لا تتمشى كلها مع نظرية الانتباه هذه، أو أنها على الأقل ليست قابلة جميعها للاستنتاج من هذه النظرية مباشرة. وسنلاحظ بوجه خاص أن هفوات ونسيانات تحدث أيضاً لدى أشخاص ليسوا بمتعبين أو ساهين أو مهتاجين، بل في حالة سوية من جميع الوجوه، اللهم إلا إذا عزونا إلى هؤلاء الأشخاص، وعلى وجه التحديد بسبب الهفوة التي صدرت عنهم، حالة من الاهتياج يأبون هم التسليم بها. ولا يخلو



الأمر من نزعة إلى التبسيط لو زعمنا أن زيادة الانتباه قمينة بتنفيذ أكثر إحكاماً لوظيفة من الوظائف، وأن نقصان الانتباه تترتب عليه بالتالي نتيجة معاكسة. فكثيرة هي الأعمال التي ينفّذها المرء بصورة آلية أو بانتباه غير كافٍ، من دون أن يضرّ ذلك بإحكامها. فالمتنزِّه، الذي لا يكاد يدري أين مقصده، يسلك على كل حال الطريق الصحيح ويصل إلى غايته بلا تردد. وعازف البيانو المدرب يضغط بأصابعه على الملامس الصحيحة من دون تفكير بها. صحيح أنه قد يتفق له أن يخطئ، لكن لو كان من شأن العزف الآلي أن يزيد من احتمال الوقوع في الخطأ لكان البارع بين العازفين هو أكثرهم عرضة للوقوع في الخطأ باعتبار أن عزفه أمسى بعد طول تدريب آلياً صرفاً. وإنه ليتبين لنا، على العكس، أن الكثير من الأفعال تؤدَّى بتوفيق كبير حينما لا تكون موضوع انتباه خاص، وأن الغلط قد يقع على وجه التحديد حينما يحرص المرء أشد الحرص على الأداء الأمثل، أي حينما يكون انتباهه كله مشدوداً إليه. وقد يقول قائلنا عندئذ عن الغلط إنه جاء نتيجة «التهيُّج». ولكن لمَ لا يكون هذا التهيج قميناً بالأحرى بتركيز الانتباه على العمل الذي يحيطه المرء بكل اهتمامه؟ فحين يزلّ بالإنسان لسانه في أثناء خطاب هام أو عملية تفاوضية وينطق بعكس ما كان يريد قوله، فإنه يرتكب خطأً يعسر علينا تفسيره بالنظرية النفسية/ الفيزيولوجية أو بنظرية الانتباه.

إن من جملة الهفوات هفوات تصاحبها ظواهر ثانوية صغيرة عديدة تعصى على الفهم ولا تزيدها التفاسير المعتمدة حتى الآن قابلية للفهم. فحين ينسى الإنسان على سبيل المثال كلمة من الكلمات بصورة مؤقتة، نراه يضيق ذرعاً، ويبذل قصاراه ليتذكر الكلمة، ولا يقرّ له قرار ما لم يهتدِ إليها. فلمَ لا يفلح، رغم تلهفه وتحرّقه، إلا فيما ندر، في تركيز انتباهه كله على الكلمة التي يقول هو نفسه إنها «على طرف لسانه»، والتي يستذكرها حالما يلتفظ بها أحدهم أمامه؟ كما أن هناك حالات أخرى تتضاعف فيها الهفوات وتتكاثر، ويتشابك بعضها ببعض، ويقوم بعضها مقام بعض. فقد ينسى المرء، في مرة أولى، موعداً؛ وفي المرة الثانية، وبعد أن يكون قد عزم على ألا ينساه أبداً، يكتشف أنه قد أخطأ في



تسجيل الساعة المضروبة له. وقد يسعى أحدنا بكل ما أوتيه من حيلة إلى أن يتذكر كلمة منسية، فإذا بكلمة ثانية تفلت من ذاكرته مع أنها كان يمكن أن تفيده في استحضار الأولى؛ وإذ يشرع بالبحث عن هذه الكلمة الثانية، ينسى ثالثة، وهكذا دواليك. ومثل هذه المضاعفات قد تحدث أيضاً، كما نعلم، في الأخطاء المطبعية التي يمكن اعتبارها هفوات يقع فيها منضِّد الحروف في المطبعة. وقد وقعتْ في مثل هذا الغلط المعاند صحيفة اشتراكية ـ ديموقراطية. فقد جاء يوماً في تعليق لها على إحدى المظاهرات: «وكان بين الحضور سمو ولي العهر» (بدلاً من ولي العهد). وفي اليوم التالي، أرادت الصحيفة تصحيح خطئها والاعتذار عنه، فكتبت تقول: «كنا نقصد بطبيعة الحال ولي العهر» (هذه المرة أيضاً بدلاً من ولي العهد)[3]. ويطيب لبعضهم في مثل هذه الأحوال أن يتكلم عن روح شرير يتحكم بالأخطاء المطبعية، عن عفريت صندوق الحروف، وكلها تعابير تتجاوز أقصى المدى الذي يمكن أن تصل إليه نظرية نفسية/فيزيولوجية خالصة عن الخطأ المطبعي.

لعلكم تعلمون أيضاً أن فلتات اللسان يمكن استحداثها بالإيحاء، نوعاً ما. وثمة نكتة حول الموضوع: فقد عُهِد يوماً في **عذراء أورليان**[4] إلى ممثل ناشئ بإبلاغ الملك في موقف جدي من مواقف المسرحية بأن **القائد** العام يردّ إليه **سيفه**[5]. والحال أن أحد الممثلين الرئيسيين أراد أثناء التمرين أن يعابث الممثل المبتدئ، فلقَّنه العبارة محرَّفة على النحو التالي: إن **القوّاد** يردّ **ضيفه**. ويبدو أن هذا المزَّاح الثقيل أصاب هدفه: فقد نطق الممثل التعيس الحظ فعلاً بالعبارة المحرّفة كما هي أثناء التمثيل الفعلي، وهذا بالرغم من التحذيرات التي تلقاها بهذا الخصوص، أو ربما بسبب هذه التحذيرات بالذات.

والحال أن جميع هذه التلاوين الجزئية المميّزة لكل هفوة للهفوات غير قابلة

٣ ـ نترجم هنا روح الهفوة، لا لفظها. وهذا ما سنفعله في كل الأمثلة المشابهة. «م».

٤ ـ مسرحية لشيلر استوحاها من حياة جان دارك. «م».

٥ ـ في الواقع إن من ينطق بهذه العبارة في مسرحية شيلر هو الملك شارل السابع نفسه. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.



للتفسير بنظرية الانتباه المحوَّل. غير أن هذا لا يعني أن هذه النظرية خاطئة. ولعلها بحاجة إلى تكملة كيما تكون مُرْضية ومقبولة تماماً. على أن الكثير من الهفوات يمكن النظر إليها، مع ذلك، من وجهة نظر مغايرة.

لنتأمل من الهفوات تلك التي تلائم غرضنا أكثر من سواها: فلتات اللسان. ولقد كان يسعنا أن نختار بدلاً منها أغلاط الكتابة أو القراءة. وبهذا الصدد، يجب ألا يغيب عن بالنا أن السؤال الوحيد الذي طرحناه حتى الآن هو متى وفي أية شروط يفلت اللسان، وأننا لم نفز بجواب إلا عن هذا السؤال وحده. لكن من الممكن أن ننظر في الشكل الذي تتلبسه الفلتة، والمفعول الذي ينجم عنها. وأنتم تدركون ولا بدّ أننا ما لم نجب عن هذا السؤال الأخير، وما لم نفسِّر المفعول الذي يتأتى عن الفلتة، فستظل هذه الظاهرة حادثاً عارضاً من وجهة النظر السيكولوجية، حتى لو وجدنا لها تفسيرها الفيزيولوجي. وبديهي أن فلتة اللسان التي تصدر عني يمكن أن تتلبس ألف شكل وشكل؛ فمن الممكن أن ألفظ، بدلاً من الكلمة الصحيحة، آلافاً غيرها مما هو في غير محله، وأن أحرِّف الكلمة الصحيحة على ألف وجه. وعلى هذا، وعندما تصدر عني في موقف بعينه فلتة بعينها دون سواها من الفلتات المحتملة، فهل تقسرني على ذلك أسباب قاهرة، أم أن الأمر محض مصادفة اعتباطية، ومسألة لا تستتبع أي جواب معقول؟

حاول مؤلفان، هما السيد مرنغر Meringer والسيد ماير Mayer (الأول فقيه في اللغة، والثاني طبيب نفسي)، في عام ١٨٩٥ أن يطرقا من هذه الزاوية مسألة الأغلاط اللغوية[٦]. وقد جمعا أمثلة وعرضاها بادئ الأمر من وجهة نظر وصفية خالصة. وهما لم يقدِّما بذلك، بطبيعة الحال، أي تفسير، لكنهما دلّانا إلى الطريق الذي يمكن أن يفضي إليه. فقد صنَّفا التحريفات التي تصيب الخطاب القصدي ضمن الأبواب التالية:

٦ ـ رودلف مرنغر وكارل ماير: **الغلط في الكلام والغلط في القراءة، دراسة نفسية/ لغوية**، شتوتغارت ١٨٩٥. هامش الترجمة الجديدة الفرنسية.



أ ـ القلب؛ ب ـ الاستباق؛ ج ـ الاستلحاق؛ د ـ الإدغام؛ هـ ـ الإبدال. وسأسوق لكم أمثلة على كل باب من هذه الأبواب. فمن **القلب** أن يقول قائل: **ميلو فينوس** بدلاً من **فينوس ميلو**[٧]. ومن الاستباق قول القائل: ما **أجثم** الهمّ الذي يجثم على صدري، بدلاً من: ما أثقل الهمّ الذي يجثم على صدري. ومن الاستلحاق قول من يقول: أدعوكم إلى شرب **شخب**[٨] رئيسنا، بدلاً من **نخب**. وهذه الأشكال الثلاثة من الفلتات ليست كثيرة الذيوع. وبالمقابل تكثر الفلتات التي تنجم عن تداخل كلمتين أو إدغامهما كأن يقول الفتى لفتاة يعاكسها في الطريق: هل تسمحين لي بأن **أرانقك** في الطريق؟ فهنا حدث إدغام بين كلمة **أرافقك** التي كان مفروضاً أن ينطق بها وبين كلمة **نافق** التي نطق بها، والتي فيها إهانة الفتاة. وأقول بالمناسبة إن صاحبنا الفتى لم يقع بكل تأكيد موقع رضا في عين فتاتنا. أما الإبدال أخيراً فسأضرب عليه مثالاً من الأمثلة التي جمعها مرنغر وماير: «سأضع اللحم في علبة **البريد**» بدلاً من: «سأضع اللحم في علبة **الجليد**».

أما التفسير الذي يحاول الباحثان المشار إليهما استخلاصه مما جمعاه من أمثلة فيبدو لي غير كافٍ على الإطلاق. فهما يعتقدان أن أصوات اللفظة ومقاطعها تتفاوت قيمة وأهمية، وأن تعصيب Innervation العنصر الأرفع في القيمة يمكن أن يترك أثراً تشويشياً في تعصيب العناصر الأدنى في القيمة[٩]. وهذا في الحقّ لا يسري إلا على البابين الثاني والثالث عند الاقتضاء، وهو على كل حال قليل التواتر؛ أما في ضروب الفلتات الأخرى، فإن تغليب بعض الأصوات على غيرها، على افتراض وجوده، لا يلعب أي دور على الإطلاق. فأكثر الفلتات تواتراً هي تلك التي يهفو فيها اللسان بكلمة بدل أخرى مشابهة لها، وهذا التشابه يبدو للكثيرين كافياً لتفسير الهفوة. من ذلك أن أستاذاً قال في درسه الأول: «لست منكراً **جمود** الأستاذ الذي سبقني إلى تدريسكم»، وكان قصده أن يقول:

---

٧ ـ ميلو: جزيرة يونانية في بحر إيجه، اكتشف فيها سنة ١٨٢٠ تمثال الآلهة فينوس الشهير، فنسب إليها. «م».

٨ ـ شخب القتيل: سال الدم من أوداجه. «م».

٩ ـ التعصيب: نمط اشتغال الجهاز العصبي أو جملة الوظائف العصبية. «م».



«لست منكراً **جهود** الأستاذ.. إلخ». وكذلك قول القائل: «أما فيما يتعلق بجهاز المرأة التناسلي، فرغم كل البحوث التي **هاجت** مؤخراً.. عفواً، رغم كل البحوث التي **راجت** مؤخراً...».

لكن الفلتة الأكثر تواتراً والألفت للانتباه هي تلك التي يهفو فيها اللسان بالعكس تماماً مما كان يريد النطق به. ومن الواضح أن العلاقات الصوتية أو تأثيرات التشابه لا تلعب هنا سوى دور طفيف للغاية. فإذا استبعدنا هذين العاملين، جاز لنا أن نتوقف عند حقيقة معروفة، وهي أن الأضداد تقوم بينها وشائج متينة على صعيد التصور، وتكون قريبة إلى بعضها بعضاً غاية القرب من حيث التداعي أو الترابط السيكولوجي. وثمة أمثلة مشهورة في هذا الموضوع. فقد افتتح مرة رئيس مجلس النواب عندنا الجلسة بقوله: «سادتي، بالنظر إلى اكتمال النصاب، أعلن **ارفضاض** الجلسة».

والواقع أن أي شكل آخر من أشكال التداعي السهل قد يكون له ما لتداعي الأضداد من مفعول إذا جاء حدوثه في غير محله. مثلاً، إن العالم الفيزيولوجي المشهور ديبوا ـ ريمون Du Bois - Reymond[١٠] ألقى خطبة في مأدبة أقيمت بمناسبة زواج أحد أولاد هلمهولتز Helmholtz[١١] من ابنة الصناعي المعروف إ. سيمنز Siemens، وأنهى كلمته الرائعة، كما هو مفروض، بالدعوة إلى شرب نخب «شركة سيمنز وهالسكه halske **الجديدة**». وكان يقصد بقوله هذا، بطبيعة الحال، شركة سيمنز/هالسكه **القديمة**[١٢]؛ والربط بين هذين الإسمين لا بد أن يكون مألوفاً لدى جميع أبناء برلين مثلما هو مألوف لدى أهالي فيينا اسم ريدل/ بوتل Riedel/ Beutel[١٣].

١٠ ـ إميل دي بوا ـ ريمون: عالم فيزيولوجي ألماني (١٨١٨ ـ ١٨٩٦)، من مؤسسي الفيزيولوجيا الكهربية. «م».

١١ ـ هرمان فون هلمهولتز: فيزيولوجي وفيزيائي ألماني (١٨٢١ ـ ١٨٩٤). من السباقين إلى القول بانخفاض الطاقة. «م».

١٢ ـ سيمنز: من كبريات الشركات الألمانية أسسها فرنر سيمنز سنة ١٨٤٧ بالشراكة مع صديقه يوهان هالسكه. «م».

١٣ ـ مخزن كبير للملابس الجاهزة في فيينا. «م».



وعليه لا بد أن ندخل في حسابنا، علاوة على العلاقات الصوتية بين الألفاظ وتشابهها، تأثير الجمع بينها. ولكن هذا أيضاً لا يكفي. فثمة طائفة بكاملها من الحالات لا يمكن تفسير الفلتة فيها إلا إذا أخذت بعين الاعتبار العبارة التي كان المتكلم قد نطق بها أو حتى فكر بها قبل النطق بها. إذاً فهي بدورها من الحالات ذات المفعول الاستلحاقي، شبيهة بتلك التي حدّثنا عنها مرنغر، وإن تكن أوسع نطاقاً. وهنا لا أجد مناصاً من الاعتراف لكم بأنه يلوح لي، إذا ما أمعنا التفكير في كل ما تقدم، أننا أبعد الآن عن فهم الطبيعة الحقيقية لأغلاط اللسان مما كنا عليه من قبل.

غير أني أخالني لا أخطئ إن زعمت أن الأمثلة التي سقناها على الهفوات في ما تقدم من بحثنا تترك لدينا انطباعاً جديداً حقيقاً بأن نوليه اهتمامنا. فقد بحثنا أولاً في الشروط التي تحدث فيها الفلتة بصفة عامة، ثم درسنا العوامل التي تعيِّن ما يطرأ من تحريف على اللفظة؛ لكننا لم ننظر إلى الآن في مفعول الفلتة بحدّ ذاته، بصرف النظر عن الكيفية التي تحدث بها. فإن قرّ قرارنا على أن نفعل، رأينا أنفسنا مطالبين بأن تكون لنا الجرأة على التصريح بأن التحريف، الذي هو قوام الفلتة، له في بعض الأمثلة التي سقناها مغزى. لكن ماذا نعني بقولنا: له مغزى؟ نعني أن مفعول الفلتة قد يكون حقيقاً بأن نرى فيه فعلاً نفسياً تاماً، له هدفه الخاص، وتظاهرة لها مضمونها ومدلولها الخاصان. ونحن لم نتكلم حتى الآن إلا عن الهفوات، لكن يلوح الآن أن الهفوة قد تكون فعلاً صحيحاً تماماً[١٤]، وكل ما هنالك أنه ناب مناب الفعل المنتظر أو المراد.

هذا المعنى اللصيق بالهفوة يتجلى للعيان في بعض الأحوال على نحو باهر لا يخطئه الإدراك. فإن يكن رئيس مجلس النواب قد أعلن، من أول عبارة نطق بها، ارفضاض الجلسة، بينما كان قصده الإعلان عن افتتاحها، فإننا نميل، نحن العارفين بالظروف التي حدثت فيها الفلتة، إلى الافتراض بأن لهذه الهفوة معنى. فقد كان الرئيس لا يتأمل خيراً من الجلسة، وما كان ليسوءه لو استطاع رفعها.

١٤ ـ حتى نفهم دلالة هذا التعريف للهفوة بأنها فعل صحيح وتام ينبغي أن نأخذ في اعتبارنا أن الهفوة يقال لها بالفرنسية Acte manqué، أي حرفياً فعل ناقص أو محبط. «م».



ولا يعسر علينا البتة في هذه الحال أن نهتدي إلى مغزى الفلتة المشار إليها وأن نفهم مدلولها. أو عندما تسأل سيدة سيدة أخرى في ظاهر من الاستحسان: هذه القبعة الأنيقة لا بد أنك **خربشتها** (بدلاً من **خيّطتها**) بنفسك، فليس لأي سلطة علمية في العالم أن تمنعنا من أن نفهم أن مقصدها هو أن تلك القبعة في غاية من القبح في رأيها. وعندما تروي سيدة معروفة بتشبثها برأيها: «استشار زوجي طبيباً في نوع الحمية التي ينبغي عليه اتباعها، فأجابه الطبيب أن لا حاجة به إلى الحمية، وأنه يستطيع أن يأكل ويشرب **ما أريده أنا**»، فلا شك في أن في هذا القول فلتة، لكن هذه الفلتة تمثِّل تعبيراً سافراً لا يخطئه الإدراك عن طبيعة مسلك تلك السيدة حيال زوجها.

سيداتي سادتي، إذا ما تأكد لنا أن الفلتات ذات المغزى لا تشكل استثناء، بل هي على العكس كثيرة التواتر، تبدى لنا هذا المغزى، الذي لم نعره حتى الآن اهتماماً في كلامنا عن الهفوات، على أنه بالضرورة العنصر الذي له الصدارة على كل العناصر الأخرى، وجاز لنا أن نقدِّمه في البحث عليها. وعندئذ يكون في وسعنا أن نضرب صفحاً عن جميع العوامل الفيزيولوجية والنفسية/الفيزيولوجية، وأن نقصر اهتمامنا على البحث السيكولوجي المحض في معنى الهفوات ومغزاها والنيات والمقاصد التي تشفّ عنها. وعليه، سنمضي قدماً إلى الأمام في تمحيص طائفة كبيرة من الأمثلة من هذا المنظور تحديداً.

لكن قبل أن نضع هذا المشروع موضع التنفيذ، أدعوكم إلى أن تسلكوا معي طريقاً آخر. فقد حدث لأكثر من شاعر أن استخدم الفلتة أو غيرها من الهفوات وسيلة من وسائل الأداء الشعري. وفي هذا وحده ما يثبت لنا أن الشاعر يرى أن الهفوة، وعلى سبيل المثال فلتة اللسان، ليست خالية من المعنى، ولا سيما أنه يصطنعها عن قصد وعمد. ولن يدور في خلد أحد أن يفترض أن الشاعر أخطأ وعثر به قلمه أثناء الكتابة، وأنه ترك خطأه بلا تصحيح، فصار على هذا النحو فلتة على لسان البطل. وإنما قصد الشاعر من الفلتة الإشارة من طرف خفيّ إلى شيء ما، كتنبيهنا إلى أن الشخص المذكور شارد اللب أو متعب أو على وشك أن يصاب بنوبة صداع. لكن حتى ولو استخدم الشاعر الفلتة كما لو أنها كلمة



ذات معنى ومغزى، فإنه يجدر بنا ألا نغلو بطبيعة الحال في أهميتها. وفي الواقع، قد تكون الفلتة مجردة من كل معنى، وقد لا تعدو أن تكون عارضاً نفسياً، أو قد لا يكون لها من معنى إلا بصفة استثنائية، وهذا من دون أن ننكر على الشاعر حقه في تزويق إخراجها وتحميلها ما يتفق من المعاني مع الغرض الذي يرمي إليه. لا تعجبوا إذاً إن صارحتكم بأنكم قد تجنون فائدة أكبر في هذا الموضوع لو قرأتم الشعراء بدل أن تدرسوا مؤلفات فقهاء اللغة وأطباء الأمراض النفسية.

لدينا مثال على فلتة من هذا القبيل في **فالنشتاين**(١٥) (**آل بيكولوميني**، الفصل الأول، المشهد الخامس). ففي المشهد السابق كان بيكولوميني(١٦) قد دافع دفاعاً حاراً عن الدوق، فأشاد بمحاسن السلم ومزاياه التي فطن إليها خلال الرحلة التي قام بها ليواكب ابنة فالنشتاين إلى المعسكر. ثم يغادر خشبة المسرح تاركاً أباه ومبعوث البلاط الملكي في انذهال ووجوم شديدين. وعندئذ يجري المشهد الخامس على النحو الآتي:

كوستنبرغ(١٧): تعساً لنا! أين وصل بنا الحال، يا صديقي؟ وهل ندعه يذهب بوهمه هذا، من دون أن ننبهه إليه وأن نفتح عينيه حالاً؟

أوكتافيو (يفيق من استغراقه في التفكير): عيناي مفتوحتان، وما أراه ليس مما يسرني.

كوستنبرغ: ما الأمر، يا صديقي؟

١٥ ـ ألبريخت فالنشتاين: دوق ألماني من مواليد بوهيميا (١٥٨٣ ـ ١٦٣٤)، عمل في خدمة الإمبراطور الجرماني وأبلى بلاء حسناً في حرب الثلاثين عاماً. لكنه، طمعاً منه في عرش بوهيميا، تفاوض على عقد الصلح مع العدو، فأمر الإمبراطور باغتياله. وقد استوحى شيلر من قصة حياته ثلاثية مسرحية مُثِّلت في فايمار (١٧٩٨ ـ ١٧٩٩) وتألفت من ثلاثة أجزاء: معسكر فالانشتاين، وآل بيكولوميني، وموت الدوق. «م».

١٦ ـ المقصود هنا بيكولوميني الفتى، ابن اوكتافيو بيكولوميني، وهو جنرال نمساوي من مواليد بيزا بإيطاليا (١٦٠٠ ـ ١٦٥٦)، لمع اسمه في عدد من المعارك في حرب الثلاثين عاماً. «م».

١٧ ـ كوستنبرغ هو في مسرحية شيلر مبعوث الإمبراطور الجرماني فردينان الثاني. «م».



أوكتافيو: لعن الله تلك الرحلة!

كوستنبرغ: لماذا؟ ما الخطب؟

أوكتافيو: تعال! ينبغي أن أتتبع دون إبطاء هذا الأثر المشؤوم الذي أراه بعينيّ... تعال! (يهمّ باقتياده).

كوستنبرغ: ما بك؟ أين تريد الذهاب؟

أوكتافيو (في تعجل): إليها!

كوستنبرغ: إلى....

أوكتافيو (متداركاً): إلى الدوق! هيا!

كان أوكتافيو يريد أن يقول «إليه، إلى الدوق!». لكن لسانه هفا به؛ وبقوله: إليها، أماط اللثام (لنا على الأقل) عن كونه أدرك تحت تأثير مَنْ صار المقاتل الشاب يحلم بمحاسن السلم.

لقد اكتشف أ. رانك[١٨] Rank مثالاً أكثر روعة من هذا لدى شكسبير، وذلك في مسرحية **تاجر البندقية**، وعلى وجه التحديد في المشهد الشهير الذي يتعين فيه على العاشق المحظوظ أن يختار بين صناديق ثلاثة. وخير ما يمكن أن أفعله أن أقرأ عليكم الفقرة المقتضبة التالية مما كتبه رانك بصدد هذا الموضوع:

«يحتوي المشهد الثاني من الفصل الثالث من **تاجر البندقية** لشكسبير على مثال من فلتات اللسان ينمّ عن رهافة كبيرة في الحس الشعري وعن براعة كبيرة في الصنعة الفنية؛ وهو يثبت، نظير ذلك المثال الذي وجده فرويد في **فالنشتاين** (**علم نفس أمراض الحياة اليومية**[١٩]، الطبعة الثانية، ص ٤٨)، أن الشعراء

١٨ ـ أوتو رانك: طبيب نفسي (١٨٨٤ ـ ١٩٣٩)، كان لفترة طويلة من الزمن من تلاميذ فرويد الأوفياء. له دراسات تحليلية نفسية في الميتولوجيا، كما أدخل تطويراً على تفسير عقدة أوديب. من أشهر مؤلفاته **أسطورة ميلاد البطل ورضة الميلاد**. «م».

١٩ ـ كتاب لفرويد أصدره سنة ١٩٠١ ودرس فيه شتى أشكال الهفوات التي ترتكب في الحياة اليومية. «م».



يعرفون حق المعرفة آلية هذه الهفوة ومغزاها، وأنهم يفترضون بالمشاهدين أيضاً المعرفة بهذا المغزى. فبورشيا، التي أرغمها أبوها على أن تختار زوجاً لها عن طريق القرعة، أفلحت، بما واتاها من حظ، في الإفلات من كل الذين تقدموا إلى خطبتها وما حازوا على رضاها. ثم لما وجدت أخيراً في باسانيو الخاطب الذي ترتضيه، بات تخشى أنت يسيء هو الآخر اختيار الصندوق. وكانت تتمنى لو تخبره بأنه حتى إن وقع له هذا فبوسعه الاطمئنان إلى حبّها، لكن العهد الذي قطعته لوالدها كان يمنعها من ذلك. وفيما هي فريسة هذا الصراع الداخلي، جعلها الشاعر تقول لخاطبها الغالي عندها:

«أرجوك أن تتمهل؛ اصبر يوماً أو يومين قبل أن تسلم أمرك للعبة الحظ؛ فلو أسأت الاختيار لفقدت عشرتك. تمهل إذاً. ثمة شيء ينبئني ـ لكنه ليس الحب ـ بأني سأتحسر وأتأسف لو فقدتك... صحيح أني أستطيع أن آخذ بيدك كيما تحسن الاختيار، لكنني في هذه الحال سأحنث بيميني، وهذا ما لا أطيقه. وعلى هذا النحو قد لا أكون من حظك؛ وعندئذ ستجعلني أتحسر على أنني لم أحنث بيميني. آه لهاتين العينين اللتين زرعتا البلبلة في نفسي وشطرتاني شطرين: شطر لك، وشطر لك... أريد أن أقول لي. لكنه إن كان لي فهو لك أيضاً، وهكذا أكون كلي لك».

«هذا الشيء الذي ما كانت تريد إلا أن تلمع إليه إلماعة طفيفة، والذي كان يفترض بها أن تكتمه وتخفيه، وهو أنها كلها له حتى قبل إجراء القرعة وأنها تحبه، هذا الشيء جعلها الشاعر، برهافة سيكولوجية بديعة، تبوح به عبر فلتة لسانها، فخفف بهذه الحيلة الفنية عن العاشق ما كان يعانيه من شكّ لا يطاق، وعن المشاهدين ما كانوا فيه من ترقب وقلق بصدد نتيجة الاقتراع».

ولنلاحظ أيضاً مدى ما دللت عليه بورشيا من إرهاف عندما وفِّقت في آخر كلامها بين الاعترافين المتضمَّنين في فلتة لسانها وأزالت ما بينهما من تناقض، مع مجاهرتها في الوقت نفسه بحبها له: «لكنه إن كان لي فهو لك أيضاً، وهكذا أكون كلي لك».

لقد اتفق لأحد المفكرين ممن لا صلة لهم بالطب أن كشف، بملاحظة واحدة



يتيمة، مغزى الهفوة، فوفّر علينا بذلك عناء البحث عن تفسير لها. أنتم جميعكم تعرفون ولا بد الهجّاء العبقري ليختنبرغ Lichtenberg (١٧٤٢ ـ ١٧٩٩)[٢٠] الذي قال عنه غوته إن كل نكتة من نكاته تخفي معضلة[٢١]. فقد كتب ليختنبرغ يقول إنه من كثرة ما قرأ هوميروس انتهى به الأمر إلى أن قرأ اسم أغاممنون Agamemnon[٢٢] حيثما طالعته كلمة أنغينومن Angeneommen[٢٣]. هنا تكمن فعلاً كل نظرية الهفوة.

في المحاضرة التالية سنرى إن كنا نستطيع أن نتفق والشعراء في تصورهم لمعنى الهفوات.

٢٠ ـ جورج كريستوف ليختنبرغ: فلكي وفيزيائي وفيلسوف ألماني (١٧٤٢ ـ ١٧٩٩). أصيب في مراهقته بحادث فصار أحدب وسوداوي الطبع. له اختراعات علمية. من مؤلفاته: **مرآة النفس**. وله كتابات هجائية نشرت بعد وفاته. «م».

٢١ ـ الإحالة هنا إلى قولة لغوته في كتابه **حِكَم وتأملات**: «أما كتابات ليختنبرغ فنستطيع أن نستخدمها كما لو أنها أروع عصا سحرية: فحيثما يمزح مزحة فثمة معنى خفيّ». هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

٢٢ ـ أغاممنون: من ملوك اليونان الأسطوريين وقائدهم في حرب طروادة، ضحى بابنته أفيجينيا قرباناً للآلهة حتى تهب الرياح مؤاتية لسفن الإغريق. «م».

٢٣ ـ كلمة ألمانية متعددة المعاني: مفترض، مقبول، متخيَّل، متبنًّى، مسلَّم به. «م».



المحاضرة الثالثة

الهفوات (تابع)

سيداتي وسادتي، اتفقنا في محاضرتنا الأخيرة على النظر إلى الهفوة في ذاتها ولذاتها، لا في صلتها بالفعل القصدي الذي تحدِث ما تحدث فيه من تشويش. وقد تبدى لنا أن الهفوة تنمّ في بعض الأحوال عن معنى خاص، وقلنا بيننا وبين أنفسنا إنه لو أمكن إثبات صحة هذا الانطباع الأول على نطاق أوسع، لكان خليقاً بهذا المعنى اللصيق بالهفوات أن يستأثر باهتمامنا أكثر مما تستأثر به الظروف التي تحدث فيها الهفوة.

ولنتفق مرة أخرى على ما نعنيه حين نتكلم عن «معنى» سيرورة من السيرورات النفسية. فما هذا «المعنى» في نظرنا سوى القصد الذي يخدمه والمكان الذي يشغله في سلسلة نفسية محددة. بل قد يسعنا، في معظم استقصاءاتنا، أن نستبدل كلمة «المعنى» بكلمة «القصد» أو «الغرض». ولكن عندما نتصور أن وراء الهفوة قصداً، ألا ترانا نجري وراء مظهر خدّاع أو ضرب من المبالغة الشعرية؟

لنلزم أمثلة فلتات اللسان، ولنستعرض عدداً أكبر من الوقائع التي تتعلق بها. فهنا تواجهنا مجموعات بكاملها من الحالات يتجلى فيها معنى الفلتة بوضوح وسطوع. وبادئ ذي بدء الحالات التي ينطق فيها المرء بعكس ما كان يبغي قوله. لقد قال الرئيس في خطابه الافتتاحي: «أعلن ارفضاض الجلسة». لا مجال هنا للبس أو الإبهام، فالمعنى والقصد اللذان يشي بهما كلامه أنه يريد فضّ الجلسة. «إنه يقول ذلك بنفسه»: ذاك هو الشاهد الذي قد يطيب لنا أن نسوقه هنا[1]؛

١ ـ «إنه يقول ذلك بنفسه»: قول يتردد على لسان فيغارو مرتين على التوالي في أوبرا موتزارت **عرس فيغارو** المقتبسة فكرتها عن مسرحية بومارشيه الهزلية: **زواج فيغارو**. «م».



وما علينا في هذه الحال إلا أن نأخذه بقوله. أرجو ألا يقاطعني الآن أحد باعتراضاته، كأن يردّ عليّ بأن ذلك أمر محال، على اعتبار أننا نعرف أنه كان يريد افتتاح الجلسة، لا فضّها، وأنه يؤكد بنفسه ـ ونحن نقرّ بأنه هو المرجع الأول والأخير ـ أنه كان يريد افتتاحها. ولا تنسوا أننا كنا اتفقنا على النظر إلى الهفوة في ذاتها ولذاتها، أما صلاتها بالقصد الذي تشوّشه فستكون موضوع بحثنا لاحقاً. ولو نهجنا غير هذا النهج، لوقعنا في خطأ منطقي، يسميه الإنكليز (Begging The Question)[٢]، من شأنه أن يبعدنا عن معالجة المسألة المطلوب معالجتها.

وحتى في الحالات الأخرى، التي لا ينطق فيها المرء تحديداً بعكس ما كان ينبغي قوله، تظل الهفوة تعبِّر عن معنى مضاد. فعندما قال الأستاذ: «لست منكراً جمود الأستاذ الذي سبقني إلى تدريسكم»، فإن كلمة **جمود** ليست نقيض **جهود**، لكن قوله يتضمن اعترافاً علنياً يتنافى تنافياً صارخاً وموقف المتكلم.

وفي حالات أخرى، يكون كل شأن الفلتة أن تضيف معنى آخر إلى المعنى المقصود. وهنا تبدو العبارة وكأنها إدغام أو اختصار أو تكثيف لعدة عبارات. وهذا ينطبق على تلك السيدة الطاغية الشخصية التي تكلمنا عنها في المحاضرة السابقة والتي قالت عن زوجها: «إنه يستطيع أن يأكل ويشرب **ما أريده أنا**». فكأنها قالت: «يستطيع أن يأكل ويشرب ما يريد. لكن ما حاجته إلى أن يريد؟ فأنا من يريد مكانه». وكثيراً ما تترك الفلتات انطباعاً بأنها اختصار من هذا القبيل. ومثال ذلك أن أستاذاً في التشريح سأل تلاميذه، في نهاية درس له عن التجويف الأنفي، عما إذا كانوا قد فهموه. فلما أجابوه بالإيجاب، أردف يقول: «لا أعتقد ذلك، لأن من يفهمون البنية التشريحية للتجويف الأنفي، حتى في مدينة تعدّ مليوناً من السكان، يمكن أن يُعدُّوا على **إصبع واحدة**.. عفواً، على أصابع يد واحدة». وهكذا، إن اختصار الجملة كان له معناه: فقد أراد الأستاذ أن يقول إنه لا يوجد سوى رجل واحد يفهم ذلك.

---

٢ ـ المصادرة على المطلوب. «م».



إلى جانب هذه الطائفة من الحالات، التي ينجلي فيها معنى الفلتة من تلقاء نفسه، تواجهنا حالات أخرى تتعارض مع كل ما كان لنا أن نتوقعه لأن الفلتة لا تشي فيها بمغزى ذي دلالة. فحين يلحن أحدهم في النطق باسم علم أو يتلفظ بأصوات غريبة مبهمة، وهذا كثير التواتر أيضاً، فقد يتراءى لنا وكأنه ليس لمسألة معنى الهفوات سوى جواب سلبي. لكن لو أمعنا التفكير في هذه الأمثلة لبان لنا أن تحريف الألفاظ أو الجمل أمر قابل بسهولة للتفسير، بل لتأكد لنا أن الفارق بين هذه الحالات التي يكتنفها قدر أكبر من الغموض وبين الحالات الواضحة البيّنة التي ذكرناها أعلاه ليس كبيراً كما حسبنا لأول وهلة.

سئل رجل عن وضع حصانه المريض، فأجاب: «آه، ربما **يصيش**... ربما **يعيش** شهراً آخر». فلما سئل عن المعنى الذي رمى إليه من وراء كلمة **يصيش** (التي نطق بها في بادئ الأمر بدلاً من **يعيش**) أجاب أنه بالنظر إلى أن مرض حصانه هو في نظره مصيبة ألمَّت به شخصياً، فقد دمج رغماً عن إرادته بين كلمتي **مصيبة** **ويعيش**، فكانت منهما زلة لسانه **يصيش** (عن مرنغر وماير).

وفي معرض حديث أحدهم عن مسالك وأساليب تثير استنكاره واشمئزازه، قال: «عندئذ **انكشرت** أمور كثيرة». وكان يقصد أن يقول: **انكشفت** أمور كثيرة. لكن بما أنه كان ينعت في سريرة نفسه تلك المسالك والأساليب بأنها شريرة، فقد ربط بغير طوعه بين كلمتي انكشفت وشريرة، فكانت الفلتة **انكشرت** (عن مرنغر وماير).

تذكروا مثال ذلك الشاب الذي عرض أن يرافق سيدة لا يعرفها بكلمة **أرانقك**. وقد أجزنا لأنفسنا أن نفك هذه الكلمة إلى رافق ونافق، وكنا على ثقة تامة بهذا التأويل، فلم نرَ داعياً إلى توكيد صحته. ويتضح لكم من هذه الأمثلة أننا نستطيع أن نفسر حتى تلك الحالات من الفلتات التي يكتنفها قدر أكبر من الإبهام بالتقاء لفظين يعبران عن قصدين مختلفين أو بتداخلهما. والفارق الوحيد بين شتى أنواع هذه الحالات أن القصد في بعضها، كما في الفلتات التي ينطق فيها المرء بعكس ما يبغي قوله، يحلّ محله قصد مغاير تماماً (إبدال)، بينما لا يصيب القصد في حالات أخرى سوى تحريف أو تعديل بفعل قصد آخر، مما



يؤدي إلى تشكيل ألفاظ مختلطة تنطوي على قدر أو آخر من المعنى.

هكذا يتهيأ لنا أننا كشفنا سر عدد كبير من الفلتات. فإذا تمسكنا بهذه النظرة، أمكننا أن نفهم مجموعات أخرى من الفلتات ما برحت حتى الآن ملغزة. من ذلك، على سبيل المثال، أننا لا نستطيع على الدوام، وفيما يتعلق بتحريف الأسماء، أن نفترض أن المسألة مسألة تزاحم بين اسمين، متشابهين ومختلفين في آن واحد. فحتى إن لم يكن لهذا التزاحم من وجود، لا يشقّ علينا أن نميط اللثام عن القصد الثاني. فتحريف الاسم أمر شائع خارج نطاق الفلتات. ومن ذلك أن يحاول أحدهم تحريف الاسم لكي يجعل له وقعاً ناشزاً، أو لكي يستحضر وقعه في الآذان صورة شيء مبتذل. وهذا لون شائع جداً من ألوان الإهانة والتجريح، ليس للإنسان المثقف إلا أن يأنف من اللجوء إليه، ولو على مضض. وكثيراً ما يعطيه شكل «نكتة» مُسِفَّة كل الإسفاف. وحتى نضرب مثالاً صارخاً وقبيحاً على هذا التحريف للأسماء سأذكر لكم أنه قد جرى مؤخراً تحوير اسم رئيس الجمهورية الفرنسية بوانكاريه إلى «خنزير مربع»[٣]. من المباح لنا إذاً أن نفترض أن الفلتة تتأتى في كثير من الأحيان عن قصد تجريحي يتنكر في إهاب تحريف اللفظ. ولو توسعنا بتصورنا هذا لوجدنا أن مثل هذه التفاسير تسري على بعض الفلتات ذات الوقع الهازل أو اللامعقول: «أدعوكم إلى شرب **شخب** رئيسنا بدلاً من: شرب نخب». فهذه الكلمة الفالتة، بما لها من وقع غير مستساغ، قد عكرت، على غير ما انتظار، جو ذلك الحفل الرسمي. فإذا تذكرنا بعض الألفاظ والعبارات التي يُنطق بها قصد الإهانة، جاز لنا أن نفترض، في

٣ ـ ريمون بوانكاريه: رجل دولة فرنسي (١٨٦٠ ـ ١٩٣٤). شغل بضع مرات منصب رئاسة الوزراء قبل أن يُنتخب رئيساً للجمهورية بين ١٩١٣ و١٩٢٠. وفي عهد رئاسته دارت الحرب العالمية الأولى. وحتى نفهم «النكتة» ينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار أن فرنسا كانت طرفاً في **التفاهم الثلاثي** إلى جانب بريطانيا وروسيا في مواجهة **التحالف الثلاثي** المؤلف من ألمانيا والنمسا وإيطاليا. والحال أن اسم بوانكاريه مؤلف من مقطعين: بوان أي نقطة، وكاريه أي مربع. ومن ثم أمكن للألمان والنمساويين أن يحرّفوه إلى «خنزير مربع». والجدير بالذكر أن دار بايو التي نشرت الترجمة الفرنسية الأولى عام ١٩٢٢ ـ ترجمة سيرج يانكيليفتش ـ حذفت هذا المقطع، فبقي محذوفاً بالتالي في جميع الطبعات المتعددة اللاحقة. «م».



الحالة التي نحن بصددها، وجود ميل يحاول الإفصاح عن نفسه، ولو بالتناقض الصارخ مع موقف الخطيب المفعم احتراماً وتوقيراً في الظاهر. ولكأن هذا الخطيب أراد أن يقول في حقيقة الأمر: لا تصدقوا ما أقوله، فأنا لا أتكلم جاداً، بل أسخر من صاحبنا، إلخ. وكذلك الحال في أرجح الظن في الفلتات التي تتحول فيها الألفاظ البريئة إلى كلمات جارحة وبذيئة.

هذا الميل إلى التحوير، أو بالأولى إلى التحريف، نلحظه لدى الكثيرين من الناس ممن يسلكون هذا المسلك حباً بالتندر و«التنكيت». وبالفعل، كلما طرق سمعنا تحريف كهذا، وجدنا أنفسنا نتساءل هل قصد المتكلم إلى التنكيت فحسب، أم أن لسانه عثر به بفلتة حقيقية.

هكذا نكون قد وجدنا، بسهولة نسبية، حلاً للغز الهفوات! فما هذه الهفوات وليدة المصادفة، وإنما هي أفعال نفسية جدية لها معنى، وناجمة عن تضافر قصدين مختلفين، أو بالأحرى عن تعارضهما. غير أني أتوقع سلفاً كل الأسئلة وكل الشكوك التي قد تثيرونها بهذا الصدد، أسئلة وشكوك لا بد أن نلتمس لها أجوبة وحلولاً قبل أن يحق لنا الاغتباط بإحراز تلك النتيجة الأولى. ولست أنوي بحال من الأحوال أن أدفع بكم إلى التعجل في استخلاص النتائج. بل لنناقش جميع النقاط في نظام وتأنٍّ، الواحدة تلو الأخرى.

ماذا عساكم تسألونني؟ أتسألونني هل أعتقد أن التفسير الذي أتقدم به يصلح للتطبيق على جميع الفلتات، أم على طائفة محدودة منها فحسب؟ وهل يشمل هذا التصور جميع ضروب الهفوات الأخرى: أغلاط القراءة والكتابة، والنسيان، والخطأ في الحركة، وتعذر اهتداء المرء إلى شيء كان قد وضعه في مكان ما، إلخ؟ وما الدور الذي يمكن أن يلعبه بعدُ التعب والتهيج والسهو وتشتت الانتباه من منظور الطبيعة النفسية للهفوات؟ وقد تلاحظون، علاوة على ذلك، أن أحد القصدين المتزاحمين في الهفوة باطن على الدوام، بينما الآخر ظاهر. فكيف السبيل إلى إظهار هذا القصد الخفي؟ وإذا تصورنا أننا أفلحنا في ذلك، فكيف نثبت أن هذا القصد ليس محتملاً فحسب، بل هو القصد الحقيقي الوحيد؟ ألديكم أسئلة أخرى تطرحونها عليّ؟ إن كان هذا كل ما لديكم، فسأزيد عليه



من عندي. وسأذكّركم بأن الهفوات بحدّ ذاتها ليست هي، والحق يقال، ما يستأثر باهتمامنا، وإنما ما نريده هو أن نستخلص من دراستها نتائج قابلة للتطبيق على التحليل النفسي. ولهذا أطرح السؤال التالي: ما هذه المقاصد والميول التي تتعدى إن جاز القول على مقاصد وميول أخرى، وما العلاقات التي تقوم بين المقاصد المتعدية والمقاصد المتعدى عليها؟ وعلى هذا النحو سنجد أنفسنا ملزمين باستئناف مجهودنا من جديد بعد أن تراءى لنا أننا وفِّقنا إلى حلّ المشكلة.

إذاً هل ينطبق تفسيرنا على جميع حالات الفلتات؟ أميل كل الميل إلى اعتقاد ذلك، لأن هذا التفسير هو الذي يفرض نفسه كلما محَّصنا فلتة من الفلتات. على أنه ليس ثمة من دليل على أنه لا وجود لفلتات تنشأ عن آليات أخرى. على رسلكم. لكن هذا الاحتمال لا يعنينا كثيراً من الوجهة النظرية، لأن النتائج التي نتطلع إلى استخلاصها كمدخل إلى التحليل النفسي تبقى قائمة حتى على فرض أن الفلتات التي تتفق وتصورنا لا تمثل إلا نسبة ضئيلة بين سائر الفلتات، وهو على كل حال فرض غير صحيح. أما سؤالكم الثاني عما إذا كان من المباح لنا أن نعمِّم على سائر أنواع الهفوات النتائج التي تتحصّل لنا من دراسة فلتات اللسان، فإني سأجيب عنه استباقاً بالإيجاب. وسترون أني محقّ في ذلك متى ما انتقلنا إلى فحص الأمثلة المتعلقة بزلة القلم، والخطأ في الحركة... إلخ. غير أني اقترح عليكم، لأسباب تقنية، إرجاء هذا العمل إلى أن ننتهي من دراسة مشكلة فلتات اللسان بمزيد من التعمق.

والآن، وحيال الآلية النفسية التي أتينا بوصفها، ما الدور الذي تضطلع به بعدُ العواملُ التي يعلِّق عليها الباحثون أهمية كبرى: اضطرابات الدورة الدموية، التعب، التهيج، الشرود وتشتت الانتباه؟ هذا سؤال جدير بتمحيص مستأنٍ. وتأكدوا أننا لا نماري البتة في تأثير هذه العوامل. والحق أنه لا يتفق كثيراً للتحليل النفسي أن يماري في ما يثبته الآخرون، وهو بصفة عامة لا يصنع أكثر من أن يضيف إليه جديداً، والمصادفة هي التي شاءت أن يكون ما أغفله الآخرون وأضافه التحليل النفسي هو أساس الموضوع وجوهره. وإن تأثير الاستعدادات الفيزيولوجية، الناشئة عن توعك الصحة واضطراب الدورة الدموية وحالات



الإعياء، على آلية حدوث الفلتات ليس مما ينكر بحال من الأحوال. وتجربتكم الشخصية واليومية كفيلة بإثبات وجود هذا التأثير. لكن هذا التفسير لا يفسر شيئاً كثيراً! والحالات التي عدّدناها ليست، باديء ذي بدء، شروطاً لازمة للهفوة. فالفلتة تحدث أيضاً في تمام الصحة وفي تمام السواء. وليس لهذه العوامل البدنية من قيمة إلا بقدر ما تسهّل وتيسر الآلية النفسية المتحكمة بالفلتة. وقد لجأت يوماً، تمثيلاً على هذه العلاقة، إلى تشبيه أجدني اليوم مضطراً إلى التمثل به من جديد لأنني لن أجد، مهما بحثت، خيراً منه. لنفرض أني بينما كنت أسير ليلاً في مكان مقفر هاجمني لص وسلبني ساعتي وصرة نقودي، وعلى إثر هذه السرقة التي ما استطعت أثناءها تمييز وجه اللص، قصدت أقرب مخفر للشرطة وقدّمت شكوى قائلاً: «لقد سلبني الظلام والانفراد قبل قليل متاعي». عندئذ قد يجيبني رئيس المخفر بقوله: «يخيل إليّ أنك تخطئ بتفسيرك الأمر هذا التفسير الميكانيكي المفرط. ولو سمحت، فإننا نتصور الموقف على النحو التالي بالأحرى: لقد سلبك لص مجهول، بحماية الظلام والانفراد، نقودك. وأهم ما في حالتك، في رأيي، هو الاهتداء إلى السارق، فعندئذ فحسب قد تتاح لنا الفرصة لاستعادة الأشياء التي سرقها منك».

وعلى هذا، إن العوامل النفسية/ الفيزيولوجية، من تهيج وشرود وتشتت انتباه، لا تسعفنا كثيراً في تفسير الهفوات. فإنْ هي إلا تعابير قولية لا تغني ولا تسمن، وستائر لا يجوز لها أن تحجب عنا رؤية ما وراءها. والأولى بنا أن نتساءل: ما علة التهيج، أو ما علة تشتت الانتباه في الحالة الخاصة التي نحن بصددها؟ وأنا لا أنكر، بطبيعة الحال، ما للمؤثرات الصوتية والتشابهات اللفظية والتداعيات المعهودة التي تقوم بين الكلمات من أهمية معلومة. فجميع هذه العوامل تسهِّل الفلتة إذ تدلّها إلى الطريق الذي يمكن لها أن تسلكه. لكن أيكفي أن يكون أمامي طريق ليتعيّن عليّ أن أسلكه؟ الحق أنه لا بدّ لي أيضاً من دافع يحفزني على إبرام قراري بسلوكه، ولا بدّ لي من قوة تحملني على المضيّ فيه. إذاً فتلك العلاقات الصوتية والتشابهات اللفظية ليس من شأنها ـ مثلها في ذلك مثل الاستعدادات الجسمانية ـ إلا أن تيسِّر السبيل أمام الفلتة، لا أن تفسرها بملء معنى الكلمة.



وحسبكم أن تستذكروا أن خطابي هذا، على كثرة ما فيه من ألفاظ تشابه بجرسها ألفاظاً أخرى أو ترتبط بأضدادها ارتباطاً وثيقاً أو تستحضر تداعيات مألوفة، بقي خالياً ـ اللهم إلا فيما ندر ـ من الزلات. ولعلنا كنا سنجيز لأنفسنا، عند الاقتضاء، أن نقول، مع الفيلسوف فونت[٤]، إن فلتة اللسان تحدث عندما ترجح كفة الميل إلى التداعي على كفة مقاصد الكلام الأخرى طراً من جراء الإعياء الجسماني. لكن التجربة تنقض هذا التفسير، وترينا أن الفلتة قد تحدث في بعض الأحوال حتى وإن غابت العوامل الجسمانية، كما قد تحدث في أحوال أخرى حتى وإن انعدمت التداعيات القمينة بتيسيرها.

لكن سؤالكم بصدد الكيفية التي نتحقق بها من تداخل القصدين سؤال مفيد حقاً. ولعلكم لا تشتبهون في النتائج الخطيرة التي قد تترتب عليه تبعاً للجواب الذي سنعطيه له. ففيما يتعلق بأول القصدين، القصد المتعدى عليه، لا يمكن أن يخالجنا شك بصدده: فالشخص الذي يرتكب الهفوة يعرف هذا القصد ويجاهر به. أما الشك والتردد فلا يكتنفان إلا القصد الآخر، القصد المتعدي. والحال أنني أسلفت لكم القول، وهو بالتأكيد لم يغب عن بالكم، أن ثمة مجموعة من الحالات يكون فيها هذا القصد الأخير جلياً بيِّناً هو الآخر. ومفعول الفلتة هو الذي يميط لنا اللثام عنه، وذلك متى واتتنا الجرأة على النظر إلى هذا المفعول بحدّ ذاته. لقد قال الرئيس عكس ما كان يفترض به أن يقوله: فمن الواضح أنه كان يريد افتتاح الجلسة، لكن من الواضح أيضاً أنه ما كان ليسوءه أن يفضّها. وهذا بيِّن إلى حدّ يغني عن كل تأويل. لكن كيف لنا، في الحالات التي لا يصنع فيها القصد المتعدي شيئاً غير أن يحرّف القصد الأصيل من دون أن يفصح عن نفسه، أن نستبينه من خلال هذا التحريف؟

نستطيع، في طائفة أولى من الحالات، أن نفعل ذلك ببساطة، وعلى نحو ثابت محقق، باتباعنا الطريقة عينها التي نتبعها في الكشف عن القصد المتعدى عليه. فنحن نعلمه من فم الشخص المعني بالذات الذي يتدارك خطأه فور

٤ ـ فلهلم فونت: فيلسوف وعالم نفس ألماني (١٨٣٢ ـ ١٩٢٠). مؤسس أول مخبر لعلم النفس التجريبي، وأول من استخدم منهج الاستبطان التجريبي. «م».



صدور الفلتة عنه ويعاود النطق بالكلمة الصحيحة، كما في المثال الآنف الذكر: «ربما **يصيش**.. ربما يعيش شهراً آخر». فلما سئل: لماذا نطقت بادئ الأمر بكلمة **يصيش؟** أجاب صاحبنا أنه يريد أن يقول إنها **مصيبة** أصابتني، لكنه خلط، بغير طوعه، بين **يعيش** وبين **المصيبة**، فكانت فلتة لسانه: **يصيش**. هكذا يكون الشخص المعني نفسه قد كشف لنا عن القصد المتعدي. وكذلك الحال في المثال الذي سقناه في المحاضرة السابقة عن فلتة اللسان: **انكشرت**، فقد أجاب الرجل، لما سئل عن سرها، بأنه كان يقصد أن يقول إنها أمور شريرة، لكنه أمسك عن ذلك وتورط في وجهة خاطئة. وهنا أيضاً يمكننا تعيين القصد المتعدي بمثل الثقة التي نعيّن بها القصد المتعدى عليه. وأنا لم أكن خالي الوفاض من كل نية مسبقة عندما سقت هذين المثالين اللذين لم أكن أنا ولا أحد من أنصاري مصدر روايتهما أو تحليلهما. على أنه في كلتا الحالتين لم يكن مناص من التدخل الطفيف من الخارج لتسهيل الحل. فقد وجب توجيه السؤال إلى الشخصين المعنيين عن السبب الذي حملهما على التورط في تلك الفلتة، وعن رأيهما في الموضوع. ولولا ذلك، فلربما نطقا بالفلتة من دون أن يجشّما نفسيهما عناء تفسيرها. لكن لما سئلا عن سرها، فسرّاها بأول فكرة خطرت على بالهما. وكما ترون، إن هذا التدخل الطفيف بالنتيجة التي تأدى إليها هو بحدّ ذاته ضرب من التحليل النفسي، نموذج مصغَّر للبحث التحليلي النفسي الذي سنحدد أصوله فيما بعد.

ترى أأكون مسرفاً في الريبة إذا ما اشتبهت بأن مقاومتكم للتحليل النفسي تبرز حالما أزجّ باسمه هنا؟ ألا تساوركم الرغبة في الاعتراض عليّ بأن المعلومات التي يدلي بها الأشخاص الذين ارتكبوا فلتات ليست مما يمكن أن يعتدّ به كل الاعتداد؟ ألا تقولون بينكم وبين أنفسكم إن الأشخاص المعنيين يجنحون بطبيعة الحال إلى الامتثال لدعوة من يطلب إليهم تفسير الفلتة فيتلفظون بأول شيء يخطر على بالهم إن لاح لهم قميناً بتقديم التفسير المنشود؟ وهذا كله ليس من شأنه، في رأيكم، أن يثبت أن فلتة اللسان تنطوي فعلاً على المعنى الذي نعزوه إليها. فقد كان من الممكن أن تخطر في بال الشخص الذي نوجّه إليه السؤال



فكرة مغايرة تماماً للفكرة الأولى، ولكنها تضاهيها، إن لم نقل إنها تفوقها، في صلاحتها للتفسير.

إنني لأعجب حقاً للاستخفاف الذي تعاملون به في صميمكم الوقائع النفسية! تخيّلوا أن أحدهم قام بتحليل كيماوي لمادة معينة، فوجد أن لأحد عناصرها المقوِّمة وزناً معيناً، مقداره كذا ميليغراماً، مثلاً. وافترضوا أن نتائج محددة يمكن استخلاصها من هذا الوزن. فهل لكم أن تتصوروا أن يبادر كيماوي آخر إلى نقض هذه النتائج بحجة أن المادة المذكورة كان يمكن أن يكون لها وزن آخر؟ إن الإنسان لا يملك إلا أن يسلِّم بأن الوزن المكتشف هو الوزن الحقيقي، ثم يتخذ من هذه الحقيقة الواقعة، بلا تردد، أساساً للاستنتاجات اللاحقة. فهل يجوز لنا، عندما تواجهنا واقعة نفسية، قوامها فكرة معينة خطرت ببال شخص رداً على سؤال وجهناه إليه، ألا نطبِّق القاعدة نفسها، وأن نزعم أن هذا الشخص كان يمكن أن تخطر له فكرة أخرى؟ الحق أنكم مأخوذون بوهمكم عن وجود حرية نفسية، وأنتم عن التخلي عن هذا الوهم عازفون! وإني لآسف إذا كنت لا أستطيع مشاطرتكم رأيكم في هذا الموضوع.

قد تسلِّمون في نهاية الأمر بهذه النقطة، لكن لتجدِّدوا معارضتكم لنقطة أخرى. وهكذا سترفدون قولكم: «إننا نفهم أن يكون قوام التقنية الخاصة للتحليل النفسي استخلاص حلّ المشكلات التي يتصدى لها من فم الشخص المحلَّل بالذات. لكن لنعد في هذه الحال إلى ذلك المثال الآخر الذي يدعو فيه خطيب المأدبة معشر الحفل إلى شرب «شخب» الرئيس. فأنت تقول إن القصد المتعدي في هذا المثال قصد تجريحي يعارض القصد التكريمي. لكن هذا تأويل شخصي من جانبك ليس إلا، بنَيْتَه على ملاحظات من خارج فلتة اللسان. أما لو وجَّهت سؤالك إلى مرتكبها فلن يقرّ أبداً بقصد تجريحي، بل سيبادر بالأحرى إلى نفيه، وبكل ما أوتيه من قوة. فلماذا لا تتنازل إذاً عن تأويلك المتعذر البرهان عليه حيال هذا الإنكار القاطع؟».

لقد اهتديتم هذه المرة إلى حجة ذات وزن. وهأنذا أتخيَّل الخطيب المجهول: فهو في أرجح الظن مساعد الرئيس المكرَّم، ولعله حائز من الآن على لقب



محاضر خاص Privat Docent[٥]، وإني لأتمثله شاباً ينتظره مستقبل حافل بالوعود. وسأسأله بإلحاح إن لم يكن قد شعر في سريرته بقدر من المقاومة تجاه فكرة التعبير عن عواطف تكريمية إزاء رئيسه. لكن ها هو ذا يستقبل سؤالي باحتداد، ويرد عليّ بسخط: «أرجوك أن تكفّ عن استجواباتك، وإلا غضبت فعلاً. وشبهاتك هذه قد تفسد عليّ مستقبلي كله. لقد نطقت بكل بساطة بـ «شخب» بدلاً من «نخب»، لأني نطقت قبلها مباشرة بكلمة «شرب». وهذا ما يسميه مرنغر بالاستلحاق الصوتي، فلا داعي للبحث عن تأويل آخر. أفهمتني؟ حسبك ذلك!» إحم! إن رد فعل فتانا لعنيف حقاً، وإنكاره لأعنف بعد. وإني لأقرّ بأنه لا مجال لانتزاع شيء منه، لكني أعتقد أيضاً أنه حريص شخصياً أشدَّ الحرص على ألا نجد لهفوته معنى. قد ترون معي أنه أخطأ باحتداده مع أن المسألة كلها مسألة تقصٌّ نظري محض، ولكن قد تضيفون قولكم: إنه يعرف ولا بدّ، على كل حال، ما كان يريد أو لا يريد قوله.

أحقاً؟ هذا تحديداً ما يتوجب علينا أن نتحقق منه بعد.

ها أنتم تضبطونني هذه المرة في الجرم المشهود! وها أنا أسمعكم تهتفون: أهذه إذاً تقنيتك؟ أكلما صدرت عن شخص فلتة لسان، وقال في تعليلها ما يتمشى مع رأيك، أعلنت أنه الحجة الأخيرة والفاصلة في الموضوع، وصرَّحت: «إنه يقول ذلك بنفسه»؟ لكن إذا قال الشخص المستجوَب شيئاً لا يتمشى مع رأيك، زعمت للحال أن تفسيره عديم القيمة، وأن ليس من داعٍ للأخذ به.

ذلك هو الوضع حقاً. غير أنه يسعني أن أضرب لكم مثالاً على حالة مشابهة تجري فيها الأمور فعلاً هذا المجرى العجيب. فحين يقرّ الظنين بجرمه، يصدّق القاضي إقراره، لكنه حين ينكره، لا يصدِّقه القاضي. ولو جرت الأمور غير هذا المجرى لما استقام للعدالة كيان، ولا محيد لنا عن الأخذ بهذا النهج، رغم الأخطاء المحتملة.

---

٥ ـ أستاذ جامعي في ألمانيا يتلقى مكافأته من الطلاب مباشرة، وهذا ما كان عليه وضع فرويد نفسه في أول حياته العلمية. «م».



«ولكن هل أنت قاضٍ، وهل من يزلّ لسانه بفلتة متهم في نظرك؟ وهل فلتة اللسان جرم؟».

لعل هذا التشبيه، على بعده، خليق بألا نردّه. لكن أرأيتم إلى تلك الفوارق البليغة التي تتكشف للعيان ما إن نتعمق قليلاً في دراسة المشكلات ـ البريئة في الظاهر ـ التي تثيرها الهفوات؟ وإنها لفوارق لا نملك بعد أن نسوّيها وأن نوفق بينها. لذا أقترح عليكم حلاً وسطاً مؤقتاً ينهض تحديداً على أساس هذه المماثلة بين التحليل النفسي والتحقيق القضائي. فعليكم من جهتكم أن تسلِّموا لي بأن معنى الهفوة يكون بمنأى عن أي شبهة متى ما أقرّ به المحلِّل نفسه. وبالمقابل أسلِّم لكم بتعذر الحصول على دليل مباشر على المعنى المشتبه به إذا ما رفض المحلَّل الإدلاء بأية معلومات، أو إذا ما كان غيابه يحول دون حصولنا على هذه المعلومات. وعندئذ نضطر، كما في التحقيق القضائي، للاكتفاء بقرائن تجعل قرارنا مشاكلاً بقدر كثير أو قليل للواقع، تبعاً للظروف. وقد تضطر المحكمة، لأسباب عملية، إلى أن تعلن أن المتهم مذنب، حتى وإن لم تتوفر لها سوى أدلة تخمينية. ومع أننا لسنا بحاجة إلى ركوب هذا المركب، إلا أنه يخلق بنا ألا نتمنع عن الاستفادة من مثل تلك القرائن. فمن الخطأ أن نتوهم أن العلم لا يتألف إلا من أطروحات قام صارم البرهان على صحتها، ومن الخطل أن نطلب منه أن يكون كذلك. والحق أن مثل هذا المطلب لا يصدر إلا عن أولئك الذين لا ينساقون إلا بسائق السلطة، والذين تمسّ حاجتهم إلى استبدال تعليمهم الديني بآخر، ولو كان علمياً. والواقع أن التعليم العلمي لا ينطوي إلا على قدر طفيف من الأحكام اليقينية الثابتة، وأكثر إثباتاته أطروحات تنطوي على درجات شتى من الرجحان لا أكثر. وخاصية الروح العلمي معرفته وقدرته على مواصلة البناء، وإن أعوزته أدلة نهائية.

لكن إن لم نظفر من فم المحلَّل بالذات بالمعلومات القمينة بتفسير معنى هفوته، فأنى لنا أن نقع على مرتكزات لتأويلاتنا، وعلى قرائن لبرهاننا؟ هذه المرتكزات وهذه القرائن تتأتى لنا من مصادر شتى. أولها المقارنة التماثلية مع ظاهرات لا صلة لها بالهفوات، كما عندما نلاحظ مثلاً أن لتحريف الاسم في الهفوة معنى



تجريحياً مماثلاً للمعنى الذي يكون لمثل هذا التحريف لو كان قصدياً. كما يزودنا بالمرتكزات والقرائن الوضع النفسي الذي حدثت فيه الهفوة، ومعرفتنا بطبع الشخص الذي ارتكب هذه الهفوة، والمشاعر التي قد تكون ساورته قبل ارتكاب الهفوة والتي قد لا تكون هذه الهفوة إلا استجابة مضادة لها. والكيفية التي تجري بها الأمور في العادة تفرض علينا أن نقوم بتأويل الهفوة، أول الأمر، انطلاقاً من مبادئ عامة. وما نصل إليه على هذا النحو لا يعدو أن يكون تخميناً، مشروعاً للتأويل نسعى إلى توكيد صحته لاحقاً بدراسة الموقف النفسي. وقد نضطر أحياناً، للفوز بما يثبت صحة افتراضنا، إلى أن ننتظر أحداثاً معينة تكون الهفوة نفسها بمثابة نذير بها.

لن يكون من السهل عليّ أن أسوق لكم الأدلة على ما أقول ما دمت أحصر بحثي بمضمار فلتات اللسان، ولو أن هذا المضمار قمين بتزويدنا هو الآخر ببعض الأمثلة الجيدة. فالشاب الذي رغب في مرافقة السيدة، فعرض عليها أن **يرانقها** (جمع بين كلمتي رافق ونافق) هو بكل تأكيد شاب خجول، والسيدة التي يتوجب على زوجها أن يأكل ويشرب ما **تريده هي** لا شك في أنها واحدة من أولئك النسوة الطاغيات الشخصية (وأنا أعرف أنها كذلك فعلاً) ممن تكون لهن اليد الطولى في بيوتهن. وهاكم أيضاً المثال التالي: ففي أثناء اجتماع عام لجمعية كونكورديا[٦]، ألقى شاب، من موقع المعارضة، خطاباً عنيفاً هاجم فيه إدارة الجمعية، لكنه وجّه كلامه إلى أعضاء «لجنة الإعارة»، بدلاً من أن يخاطب أعضاء «مجلس الإدارة». إذاً، بوسعنا أن نتكهن ونفترض أن معارضته اصطدمت بقصد متعدٍّ ذي صلة محتملة بعملية اقتراض (إعارة). وقد علمنا بالفعل أن خطيبنا كان بحاجة موصولة إلى المال، وكان قد تقدم بطلب اقتراض جديد. وعليه، إننا نستطيع أن نلخص علة القصد المتعدي بالفكرة التالية: خير لك أن تلتزم جانب الاعتدال في معارضتك، فأنت تخاطب أشخاصاً يمكنهم أن يمنحوك أو يرفضوا منحك الإعارة التي تطلبها.

٦ ـ رابطة فييناوية للكتاب والصحفيين تأسست عام ١٨٥٩، وكانت أول جمعية في أوروبا تقدم لأعضائها سُلفاً وإعانات مالية في حال المرض فضلاً عن معاشات تقاعدية. «م».



وسيكون بوسعي أن أسوق إليكم مجموعة مختارة من هذه القرائن/ الأدلة لو أبحت لنفسي أن أطرق الميدان الوسيع للهفوات الأخرى.

فحين ينسى أحدهم اسم شخص يعرفه معرفة جيدة، أو حين لا يستطيع أن يحفظه إلا بصعوبة ومشقة، فمن حقنا أن نفترض أنه يضمر لحامل هذا الاسم بعض الضغينة، فلا يطيب له أن يفكر به. تأملوا معي في ما تكشفه لنا الأمثلة التالية عن الوضع النفسي الذي تحدث فيه هفوات من هذا النوع:

«كان السيد س يحب سيدة لا تبادله الحب، ما لبثت أن تزوجت من السيد ع. ومع أن السيد س يعرف السيد ع من زمن بعيد، بل تصله وإياه علاقات تجارية، فإنه دائم النسيان لاسمه، حتى إنه يضطر إلى طلبه من أشخاص آخرين كلما دعاه الداعي إلى الكتابة إليه»[٧].

من الواضح أن السيد س لا رغبة له في أن يسمع شيئاً عن غريمه المحظوظ: Nicht gedacht soll seiner warden[٨].

مثال آخر: سألت سيدة طبيبها عن حال سيدة أخرى يعرفانها كلاهما، لكنها سمَّتها بشهرتها قبل الزواج. أما شهرتها بعد الزواج فقد غابت عن ذاكرتها نهائياً. ولما سئلت في هذا الخصوص، صرحت بأنها مستاءة جداً من زواج صديقتها وأنها لا تطيق زوج هذه الأخيرة البتة[٩].

وسنعود إلى الكلام لاحقاً بمزيد من التفصيل عن نسيان الأسماء. أما ما يستأثر باهتمامنا الآن فهو الموقف النفسي الذي يحدث فيه هذا النسيان.

إن نسيان المقاصد والمشاريع يمكن أن يعزى، بصورة عامة، إلى تأثير تيار مضاد

٧ ـ نقلاً عن ك. غ. يونغ. (والإحالة هنا إلى كتابه الصادر عام ١٩٠٨: **حول علم نفس الخبل المبكر**. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة).

٨ ـ بيت شعر لهنريخ هايني: لنمحِه من ذاكرتنا. «م».

٩ ـ نقلاً عن أ. آ. بريل(*).

(*) أبراهام آردن بريل: طبيب نفسي نمساوي (١٨٧٤ ـ ١٩٤٨). ترجم فرويد إلى الإنكليزية وكان أول من مارس التحليل النفسي في الولايات المتحدة. (والإحالة هنا إلى كتابه الصادر عام ١٩١٢: **التحليل النفسي: نظرياته وتطبيقه العملي**. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة). «م».



يعاكس وضعها موضع التنفيذ. وليس هذا رأي المحللين النفسيين وحدهم، بل رأي الناس أجمعين؛ الرأي الذي يجهر به كل إنسان في الحياة اليومية، لكنه ينكره على الصعيد النظري. فالوصي، الذي يعتذر لربيبه عن نسيانه طلبه، لا يغنيه اعتذاره هذا شيئاً في نظر الربيب الذي يقول بينه وبين نفسه: ليس في اعتذار وليّ أمري ذرة من الحقيقة، وإنما كل قصده ألا ينجز الوعد الذي قطعه لي. لذا كان النسيان في بعض العلاقات محظوراً في ظروف بعينها من الحياة، وبذلك يتلاشى الفارق بين التصور الشعبي والتصور التحليلي النفسي لهذه الهفوات. تخيَّلوا ربة منزل تستقبل ضيفاً كانت قد دعته بهذه العبارة: «كيف! أهذا يوم زيارتك؟ لقد نسيت تماماً أنني دعوتك لهذا اليوم». أو تصوروا حالة شاب مرغم على الاعتراف للفتاة التي يحبها بأنه نسي أن يوافيها إلى موعدهما الأخير: فهو بدلاً من الإقرار لها بنسيانه هذا، يبادر إلى اختلاق ما لا يصدّق من الموانع التي حالت دون موافاتها بحسب الموعد ودون اتصاله بها فيما يعد. كما أن الاعتذار بالنسيان لا يؤخذ بعين الاعتبار في الحياة العسكرية ولا يعفي الناسي من العقاب: هذا أمر نعرفه جميعنا، ونجد أن له ما يبرره، لأننا نعترف بأن بعض الهفوات في شروط الحياة العسكرية لها معنى، ونعرف في غالب الأحوال ما هو هذا المعنى. فلماذا لا نكون منطقيين ونشمل بهذه النظرة سائر الهفوات، ونجهر بذلك بصراحة وبلا قيد؟ إن لهذا أيضاً جواباً بطبيعة الحال.

لئن يكن مغزى نسيان المقاصد والمشاريع ليس موضع ريبة أحد، حتى في نظر العامة، فلن يدهشكم طبعاً أن تلاحظوا أن الشعراء يصطنعون هذه الهفوة للقصد ذاته. فمن حضر منكم أو قرأ مسرحية ب. شو: **قيصر وكليوباترا**[١٠]، يذكر في الأرجح المشهد الأخير الذي تستحوذ فيه على قيصر، المتهيء للرحيل، فكرة مقصد كان عقد العزم على تنفيذه، ولكنه بات عاجزاً عن تذكره. ثم نعلم في

---

١٠ ـ جورج برنارد شو: من كبار الكتاب والمسرحيين الإرلنديين (١٨٥٦ ـ ١٩٥٠). والمقصود بقيصر في مسرحية **قيصر وكليوباترة** يوليوس قيصر الذي قدم مصر على رأس القوات الرومانية فاتحاً عام ٤٨ ق.م والتقى كليوباترة التي كانت في السادسة عشرة من العمر في قصرها الذي نفاها إليه أخوها بطليموس. «م».



آخر الأمر أن هذا المقصد كان الذهاب إلى كليوباترا لتوديعها. وقد أراد الشاعر، بهذه الحيلة الصغيرة، أن يعزو إلى قيصر الكبير عجرفة ما كانت من خلقه ولا مما يحلو له أن يتظاهر به. وأنتم تعلمون من المصادر التاريخية أن قيصر استقدم كليوباترا إلى روما، فأقامت فيها مع قيصرونها الصغير(١١)، إلى أن اغتيل قيصر، فهربت من المدينة.

إن حالات نسيان المقاصد والمشاريع هي بوجه العموم على درجة كبيرة من الوضوح بحيث يكاد يتعذر علينا استخدامها في ما نرمي إليه، وهو استخلاص القرائن المتعلقة بمعنى الهفوة من الموقف النفسي. لذا سنيمِّم شطر نوع من الهفوات يعوزه الوضوح ويكتنفه اللبس: ضياع الأشياء واستحالة الاهتداء إلى موضعها. وقد يبدو لكم أنه لمما لا يصدّق أن يكون لنياتنا ومقاصدنا دور ما في ضياع الأشياء، بالنظر إلى ما لهذا الضياع من وقع مؤلم في أنفسنا في كثير من الأحيان. لكن كثيرة هي الأمثلة على الحالة التي سأوردها لكم: فقد أضاع شاب قلماً كان شديد الحرص عليه، والحال أنه كان تلقى في اليوم السابق من صهره رسالة ختمت بهذه العبارة: «ليس عندي على كل حال الوقت ولا الرغبة لأشجعك على استهتارك وكسلك»(١٢). وكان القلم هدية من صهره هذا على وجه التحديد. ولولا هذه المصادفة، لما أمكننا بطبيعة الحال أن نجزم بأن نية التخلص من القلم قد لعبت دوراً ما في ضياعه. وهذا النوع من الحالات كثير التواتر. فالإنسان يضيِّع الأشياء إذا ما اختلف مع من قدّمها إليه وتلاشت رغبته في التفكير به منذئذ. وقد يضيِّعها إذا سئمها ورغب في استبدالها بما هو أحسن منها. ويدخل في عداد هذا الموقف من الأشياء

١١ ـ قيصرون: ابن كليوباترة من يوليوس قيصر، وسيتولى الحكم لاحقاً باسم بطليموس السادس عشر. «م».

١٢ ـ نقلاً عن ب. داتنر(*).

* برنار داتنر: طبيب نفسي نمساوي (١٨٨٧ ـ ١٩٥٢).

استشهد فرويد به في عدة نصوص له. له كتاب عن **الأونانية** (الاستمناء). والإحالة هنا إلى مقال له بعنوان: **مساهمات جديدة في علم نفس أمراض الحياة اليومية** (١٩٠٧) . «م».



إسقاطها وكسرها وإتلافها. أفمحض مصادفة أن يضيِّع التلميذ أو يتلف أو يكسر شيئاً مما يستعمله يومياً، كحقيبته أو ساعته على سبيل المثال، عشية عيد ميلاده تحديداً؟

لا شك في أن من عانى كثيراً من عدم قدرته على الاهتداء إلى موضع الأشياء الذي وضعها بنفسه فيه يشقّ عليه أن يصدِّق أن هذه الحوادث محكومة بقصد ما. ومع ذلك، لا يندر على الإطلاق أن تنمّ الظروف المصاحبة للنسيان عن وجود ميل إلى التخلص بصورة مؤقتة أو نهائية من الشيء المنسي. وسأسوق واحدة من هذه الحالات، ولعلها أدلّ من كل ما عُرف أو نشر حتى اليوم:

روى لي شاب أن سوء تفاهم وقع بينه وبين زوجته قبل بضع سنوات، وقال: «كنت أجد زوجتي باردة أكثر مما ينبغي، وكنا نعيش جنباً إلى جنب، بلا حب أو حنان، وإن كنت لا أنكر عليها خصالها وصفاتها الحميدة. ذات يوم جاءتني، وكانت عائدة من نزهة، بكتاب اشترته، توخياً منها بأنه سيشوقني. فشكرتها على «اهتمامها» ووعدتها بقراءة الكتاب ووضعته في مكان ما. ولكني لم ألبث أن نسيت المكان الذي وضعته فيه. وتصرمت شهور تذكرت فيها الكتاب مراراً عدة وجهدت للعثور عليه، ولكن بلا طائل. وبعد ذلك بحوالي ستة شهور مرضت أمي، وكنت أحبها حباً جماً، فسارعت زوجتي إلى السفر لتقوم على العناية بها. وتفاقمت حالة المريضة، مما أتاح لزوجتي أن تظهر طيب شمائلها. وذات مساء عدت إلى بيتي عامر القلب بالشعور بالرضى عن زوجتي ومفعماً بعرفان الجميل لكل ما فعلته.. ودنوت من مكتبي، وفتحت دون قصد محدد، لكن بوثوق السائر في نومه، درجاً بعينه، فكان أول ما وقع نظري عليه الكتاب المفقود الذي طالما عزّ عليّ الاهتداء إليه».

هكذا، وبزوال الدافع، لم يعد من المتعذر الاهتداء إلى المفقود.

سيداتي وسادتي، بوسعي، لو شئت، أن أسوق من هذه الأمثلة إلى غير ما حدّ، لكني لن أفعل. ففي كتابي **علم نفس أمراض الحياة اليومية** (طبعته الألمانية الأولى صدرت عام ١٩٠١) فيض من مختلف أنواع الأمثلة لمن يبغي



دراسة الهفوات[١٣]. وجميع هذه الأمثلة تتمخض عن نتيجة واحدة لا تتبدل: إن للهفوات معنى، وهي تهدينا إلى سبل استخلاص هذا المعنى على ضوء الظروف المصاحبة لها. وسألزم جانب الاقتضاب اليوم، لأن كل قصدنا أن نستخلص من دراسة الهفوات عناصر تمهيدية للتمرس بالتحليل النفسي. وعليه، لن أحدثكم بعد إلا عن مجموعتين من الأمثلة: أمثلة تتصل بالهفوات المتراكمة والمتراكبة، وأخرى تتصل بتأكيد الأحداث التالية للهفوة صحة تأويلنا لها.

إن الهفوات المتراكمة والمتراكبة تؤلف بلا أدنى ريب أجمل تشكيلة من نوعها. ولو كان كل المطلوب أن نثبت أن للهفوات معنى ومغزى، لحصرنا اهتمامنا من البداية بهذه الهفوات وحدها، لأن معناها على درجة من الوضوح والجلاء بحيث لا يغيب حتى عن أشد العقول بلادة، ويفرض نفسه على الأذهان الخاملة كما على العقول ذات المنزع النقدي. فتراكم التظاهرات ينمّ عن مثابرة يصعب عزوها إلى المصادفة، وتتفق كل الاتفاق، على العكس، مع فرضية قصدٍ وغرضٍ. وأخيراً، إن نيابة بعض الهفوات مناب غيرها تدلنا على أن الجانب المهم والأساسي في هذه الهفوات يجب التماسه، لا في شكلها ولا في الوسائل التي

١٣ ـ وكذلك ما جمعه أ. مايدر(*) (بالفرنسية) وأ. آ. بريل (بالإنكليزية)، وإ. جونز(**) (بالإنكليزية)، وج. ستارك(***) (بالهولندية)، إلخ.

* ألفونس مايدر: طبيب نفسي سويسري فرنسي اللغة (١٨٨٢ ـ ١٨٧١). انتمى إلى الحركة التحليلية النفسية وربطته علاقة حميمة مع فرويد. لكنه لم يلبث أن افترق عنه منذ عام ١٩١٣ لينحاز إلى مدرسة ك. غ. يونغ. له مؤلفات عديدة بالفرنسية والألمانية، ولا سيما عن الأحلام ورمزيتها قبل أن يصرف اهتمامه في خاتمة حياته إلى الأنتروبولوجيا الدينية. «م».

** إرنست جونز: محلل نفسي بريطاني (١٨٧٩ ـ ١٩٥٨). اشتهر أول الأمر بسيرة حياة فرويد التي وضعها بعنوان **حياة فرويد وفكره**، ومؤسس **الجمعية البريطانية للتحليل النفسي**، وله دراسات تحليلية في الفن واللغة والأنتروبولوجيا، وقدَّم مساعدة كبيرة للمحللين النفسيين الذين لجؤوا إلى إنكلترا فراراً من الاضطهاد النازي. «م».

*** أوغست ستارك: طبيب نفسي هولندي (١٨٨٠ ـ ١٩٥٤). اكتشف التحليل النفسي ومارسه عصامياً من خلال قراءته كتاب فرويد **تفسير الحلم**. والإحالة هنا إلى مقاله الذي نشره في **المجلة الدولية للتحليل النفسي** عام ١٩١٦ تحت عنوان: **انطلاقاً من الحياة اليومية**. ويبدو أن فرويد أو الناشر الألماني أخطأ في اختصار اسمه إذ سمّاه ج. ستارك بدلاً من أ. ستارك. «م».



تستخدمها، وإنما في القصد الذي تقوم هي نفسها على خدمته والذي يمكن أن يتحقق بطرق شتى.

سأسوق لكم الآن مثالاً على نسيان متكرر: يروي إ. جونز أنه ترك مرة على مكتبه لمدة بضعة أيام، ولأسباب يجهلها، رسالة كان قد كتبها. ولما عزم على إرسالها فعلاً ونفّذ عزمه، أعادها إليه الـ Office Dead Letter (دائرة الرسائل المهملة)، لأنه نسي أن يضع عليها العنوان. فلما استصلح هذا السهو، وألقى بالرسالة من جديد في صندوق البريد، غفل هذه المرة عن لصق الطابع. وعندئذ لم يجد مناصاً من الإقرار بينه وبين نفسه بأنه لم تكن له رغبة حقيقية في إرسال الرسالة المذكورة.

وهاكم حالة أخرى يتراكب فيها استملاك الأشياء بطريق الخطأ مع استحالة الاهتداء بعد ذلك إلى موضعها. فقد قامت سيدة برحلة إلى روما مع صهرها، وهو رسام مشهور. وقد رحب الألمان المقيمون في روما بالزائر ترحيباً حاراً، واحتفلوا به، وقدموا إليه، في جملة الهدايا التي قدموها إليه، ميدالية ذهبية قديمة العهد. وقد ساء السيدة أن تلاحظ أن صهرها لا يقدّر هذه القطعة النفيسة حق قدرها. فلما حضرت أختها إلى روما، قفلت راجعة إلى بلدها، ولاحظت، وهي تفك حقيبتها، أنها حملت معها الميدالية من دون أن تدري كيف. وعلى الفور بادرت إلى إعلام صهرها وأبلغته أنها ستعيد الميدالية إلى روما في الغداة. فلما كان الغد تعذر عليها أن تهتدي إلى المكان الذي وضعتها فيه، واستحال عليها بالتالي إرسالها. وعندئذ حدست السيدة بما يعنيه «سهوها»: فهي تودّ الاحتفاظ بالقطعة النفيسة لنفسها[١٤].

لقد سقت إليكم من قبل مثالاً يتراكب فيه نسيان مع خطأ: إنه مثال ذاك الذي سها عن موعد لمرة أولى، فعزم على ألا ينساه مرة ثانية، لكنه لما وافى إلى الموعد الثاني رأى أنه قدم في غير الساعة المحددة. وقد روى صديق لي، ممن

١٤ ـ نقلاً عن ر.رايتلر(*).

* رودولف رايتلر: طبيب ومحلل نفسي نمساوي (١٨٦٣ ـ ١٩١٧). كان أول من مارس التحليل النفسي بعد فرويد. «م».



يهتمون بالعلوم والآداب معاً، قصة حادثة مشابهة من معين حياته الشخصية بالذات. قال: «وافقت، قبل بضع سنوات، على أن أكون عضواً في مجلس إدارة إحدى الجمعيات الأدبية، اعتقاداً مني بأن الجمعية قد تساعدني ذات يوم على تقديم إحدى مسرحياتي على المسرح. وصرت كل يوم جمعة أحضر جلسات مجلس الإدارة، على غير اهتمام كبير من جانبي. ومنذ بضعة أشهر تأكد لي أن إحدى مسرحياتي ستقدم على مسرح ف...، وابتداء من ذلك اليوم صرت أنسى دوماً حضور الجلسات المذكورة. لكن لما قرأت ما كتبتَه عن هذه الأمور[١٥] خجلت من مسلكي، وقلت بيني وبين نفسي ألومها إنني ما أحسنت فعلاً بانقطاعي عن الجلسات منذ أن انتفت حاجتي إلى المساعدة التي كنت أتأملها. وهكذا عقدت العزم على ألا أتخلف عن الحضور يوم الجمعة القادم. وظللت أفكر بذلك طوال الوقت، إلى أن كان اليوم الذي وجدت فيه نفسي أقف أمام باب غرفة الاجتماع. ولشدّ ما كانت دهشتي لما وجدته مقفلاً، إذ كانت الجلسة قد عقدت بالأمس! والحق أنني أخطأت في اليوم وذهبت السبت بدل الجمعة!».

ومع أنه بودي لو أمضي في سرد أمثال هذه الحالات على مسامعكم، إلا أنني أكتفي بهذا القدر، لأستعرض وإياكم بعض حالات من نوع آخر، وعلى وجه التحديد النوع الذي لا تتأكد فيه صحة تأويلنا إلا بما يقع من أحداث تالية له.

غني عن البيان أن الشرط الرئيسي في هذه الحالات أن نكون جاهلين بالموقف النفسي الراهن أو عاجزين عن إخضاعه لتحرِّينا وتقصِّينا. وعندئذ لا يعدو تأويلنا أن يكون ضرباً من التخمين الذي لا نعلِّق عليه من أهمية. لكن لا يلبث أن يطرأ في وقت لاحق حادث ما، فتتبيَّن لنا منه صحة تأويلنا الأول. فقد دعيت يوماً إلى بيت زوجين شابين، فروت لي الزوجة أثناء زيارتي، وهي تضحك، أنها ذهبت في اليوم التالي لعودتها من شهر العسل لزيارة أختها ـ وما كانت بمتزوجة ـ لتصطحبها، كما كانتا تفعلان من قبل، إلى السوق لشراء بعض الحاجات، فيما الزوج الشاب قد مضى لشؤونه. وعلى حين غرة أبصرت في الجانب الآخر من

١٥ ـ أي على الأرجح ما كتبه فرويد في الطبعة الأولى من **علم نفس أمراض الحياة اليومية**. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.



الشارع برجل يسير، وقالت لأختها وقد أشكل عليها قليلاً: «انظري، هوذا السيد ل...»، وقد سهت عن أن هذا السيد ليس أحداً آخر سوى زوجها الذي تزوجته قبل بضعة أسابيع. وقد تركت هذه القصة في نفسي انطباعاً مزعجاً، لكني لم أشأ ساعتئذ أن أسلِّم بالنتيجة التي لاح لي أنها تنطوي عليها. ولم أستذكر هذه القصة إلا بعد أن تصرمت عدة سنوات: فقد علمت يومئذ بالفعل أن زواج الزوجين الشابين قد آل إلى نهاية محزنة.

يورد أ . مايدر Maeder حالة سيدة نسيت، في اليوم السابق لزواجها، أن تذهب إلى الخياطة لتقيس ثوب عرسها، ولم تستذكر ذلك إلا في ساعة متأخرة من الليل. وهو يربط بين هذا النسيان وبين الطلاق الذي أعقب الزواج بقليل. وأعرف بدوري سيدة، هي اليوم مطلَّقة، اتفق لها تكراراً، قبل الطلاق بمدة طويلة، أن وقَّعت بشهرتها قبل الزواج على وثائق تتعلق بإدارة أملاكها. وأعرف حالات نساء أخر أضعن، أثناء شهر العسل، خاتم زواجهن، وهو شيء أسبغت عليه الأحداث اللاحقة دلالة لا لبس فيها. ومما يروى أن كيماوياً ألمانياً شهيراً ما قيّض له أن يعقد قرانه لأنه نسي موعد الاحتفال، ولأنه بدلاً من أن يقصد الكنيسة ذهب إلى مختبره. وكان على درجة كافية من الحصافة ليكتفي بهذه التجربة اليتيمة، وقد مات طاعناً في السن وعازباً.

لعل الفكر ينحو بكم إلى الافتراض بأن الهفوات تنوب، في جميع الحالات، مناب الـ«أومينا» Omina[١٦]، أو النذر لدى القدامى. وبالفعل، إن بعض حالات الأومينا ما كانت تخرج عن أن تكون هفوات، كما عندما يتعثر أحدهم أو يقع. لكن بعض الحالات الأخرى كان لها طابع الحدث الموضوعي، لا طابع الفعل الذاتي. لكن ليس لكم أن تتصوروا كم يصعب أحياناً أن نقطع في ما إذا كان حدث بعينه يندرج في عداد الفئة الأولى أو في عداد الفئة الثانية. فالفعل يعرف في كثير من الأحيان كيف يلبس قناع تجربة مُعاشة سالبة.

ولعل كل من خلّف منكم وراءه ماضياً مديداً حافلاً بالتجارب سيقول بينه

١٦ ـ أومينا: باللاتينية في النص، جمع Omen، وهي الطيرة عند العرب. «م».



وبين نفسه إنه ربما كان وفّر على نفسه الكثير من الخيبات والمفاجآت المؤلمة لو تأتّت له الشجاعة والعزيمة لتأويل الهفوات التي تقع على صعيد علاقات الناس بعضهم ببعض على أنها عوارض منذرة، ولاعتبارها قرائن على مقاصد ونيات لا تزال دفينة في الصدور. والحق أننا في أكثر الأحيان لا نجرؤ على فعل ذلك، لأننا نخشى أن نظهر بمظهر من يرتدّ إلى الخرافات والمعتقدات الباطلة، ناكصاً عن طريق العلم. وعلى كل حال، إن النذر لا تتحقق جميعها، ومتى ما ازددتم معرفة بنظرياتنا فهمتم أنه ليس من الضروري أن تتحقق جميعها.



المحاضرة الرابعة

الهفوات (خاتمة)

سيداتي وسادتي، للهفوات معنى ومغزى: تلكم هي النتيجة التي لا مناص لنا من التسليم بها باعتبارها خلاصة ما تقدم منا من تنقيب، والتي ينبغي أن نتخذها أساساً لأبحاثنا التالية. ولنقلها مرة أخرى: إننا لا نؤكد (ومثل هذا التوكيد ليس بضروري من منظور الهدف الذي ننشد) أن كل هفوة لها دلالتها، ولو كنت أعتقد أن ذلك هو المرجح. حسبنا أن نتحقق من أن هذا الهدف متواتر الوجود نسبياً في مختلف ضروب الهفوات. وهناك على كل حال، ومن هذا المنظور، اختلافات بين ضرب وآخر. ففلتات اللسان وزلات القلم، إلخ، يمكن أن يكون لها أساس فيزيولوجي محض، ولو أنه يلوح لي أن هذا ضعيف الاحتمال في مختلف صنوف حالات النسيان (نسيان الأسماء والمقاصد، تعذر الاهتداء إلى موضع الأشياء، إلخ). كما أن هناك حالات من تضييع الأشياء لا يتدخل فيها على الأرجح أي قصد. وأعتقد أنه من واجبي أن أضيف أن الأخطاء التي ترتكب في مجرى الحياة لا يمكن الحكم عليها بدالة وجهات نظرنا إلا إلى حدّ معين. وأرجو أن تبقى هذه الحدود التي نضعها لفهمنا للهفوات ماثلة في أذهانكم حينما نعتمد منطلقاً لأبحاثنا التالية الأطروحة القائلة إن الهفوات أفعال نفسية ناجمة عن تداخل قصدين.

تلكم هي النتيجة الأولى للتحليل النفسي. فقبل اليوم لم يكن علم النفس يشتبه على الإطلاق في وجود هذه التداخلات أو يعرف شيئاً عن الظاهرات التي تنشأ عنها. وقد وسَّعنا على هذا النحو مساحة العالم النفسي توسيعاً مرموقاً، وأدرجنا في مضمار علم النفس ظاهرات ما كانت من قبل تدخل في عداده.

لنقف لحظة أخرى بعد عند الأطروحة القائلة إن الهفوات «أفعال نفسية». فهل



نصادر بهذه الأطروحة على أن للهفوات معنى فحسب، أم أننا نقصد بها إلى ما هو أبعد من ذلك؟ لا أظن أن ثمة من داعٍ للتوسع في مدلولها. فكل ما يمكن لنا أن نلاحظه في حياة النفس نصفه في الأرجح بأنه ظاهرة نفسية. والمطلوب فقط أن نعرف هل هذه الظاهرة النفسية أو تلك نتيجة مباشرة لعوامل بدنية، عضوية فيزيقية، مادية، وفي هذه الحال تخرج عن نطاق البحث السيكولوجي، أم أنها ناشئة بصورة مباشرة عن سيرورات نفسية أخرى تكمن فيما وراءها فحسب، وفي مكان ما، سلسلةُ العوامل العضوية. هذا الاحتمال الثاني هو الذي يتجه إليه فكرنا حين نصف ظاهرة ما بأنها سيرورة نفسية، ولهذا قد يكون أقرب إلى الصواب أن نعطي أطروحتنا الشكل التالي: إن الظاهرة ذات دلالة، ولها معنى، أي أنها تنمّ عن قصد، عن ميل ومنزع، وتشغل بصورة أو بأخرى محلها في سلسلة من العلاقات النفسية.

ثمة ظاهرات أخرى كثيرة تشبه الهفوات، لكن هذا الاسم لا يصلح لها. ونحن نسميها بالأفعال **العارضة** Accidentels أو **العرَضية** Symptomatiques. وهي جميعها تتصف بصفات الفعل العديم الدلالة والحافز، والمجرد من الأهمية، وفي المقام الأول، الفائض عن الحاجة. لكن ما يميزها عن الهفوات بحصر المعنى هو انعدام وجود قصد عدائي ومتعدٍّ يعاكس القصد الأول ويعارضه. ثم إنها تتداخل وتلتبس، من جهة أخرى، مع الحركات والبادرات التي تفيد في التعبير عن الانفعالات. وتندرج في فئة الأفعال العارضة هذه جميع الملامسات التي لا هدف لها في الظاهر والتي تصدر عنا عندما نعبث بملابسنا، أو بأجزاء من جسمنا، أو بأشياء في متناول يدنا. وتدخل في عداد هذه الأفعال أيضاً الألحان التي نترنم بها، وبوجه العموم سائر الأفعال التي قد نمسك عنها، تماماً كما بدأناها، بلا دوافع ظاهرة. والحال أنني لا أتردد في الجزم بأن جميع هذه الظاهرات دالّة، وقابلة للتأويل بمثل النحو الذي نؤوّل به الهفوات، وأنها بمثابة نذر وعلائم طفيفة تكشف عن سيرورات نفسية أخرى أجلّ شأناً منها، ومن ثم فهي أفعال نفسية بملء معنى الكلمة. لكن ليس في نيتي أن أطيل الوقوف عند هذا التوسيع لمضمار الظاهرات النفسية، بل أؤثر استئناف تحليل الهفوات التي تضع



نصب أعيننا بكل الجلاء المرغوب أخطر مسائل التحليل النفسي.

إن أهم الأسئلة التي طرحناها بصدد الهفوات والتي لم نجب عنها حتى الآن هي التالية: قلنا إن الهفوات تنجم عن تداخل قصدين مختلفين، يمكن وصف أولهما بأنه متعدى عليه وثانيهما بأنه متعدٍّ. فأما المقاصد المتعدى عليها فلا تثير من مشكلة، وأما فيما يتعلق بالمقاصد المتعدية فيهمّنا أن نعرف في المقام الأول ما طبيعة هذه المقاصد القادرة على التعدي على غيرها، وفي المقام الثاني ما العلاقات التي تقوم بين المقاصد المتعدية والمقاصد المتعدى عليها.

اسمحوا لي أن أتخذ من جديد فلتة اللسان ممثلاً لجنس الهفوات جميعاً، وبأن أجيب أولاً عن ثاني السؤالين.

إن العلاقة بين القصدين قد تكون علاقة مضمون، وفي هذه الحال يناقض القصد المتعدي القصد المتعدى عليه أو يصحّحه أو يكمّله. أو قد لا تكون هناك أية علاقة بين مضامين القصدين، وعندئذ تكون الحالة أشدّ غموضاً وأكثر إثارة للاهتمام.

إن الحالات التي باتت لنا بها معرفة وحالات أخرى مشابهة لها تتيح لنا أن نفهم بلا مشقة أولى تينك العلاقتين. ففي الغالبية العظمى من الحالات التي ينطق فيها المرء بعكس ما كان يريد قوله، يعبّر القصد المتعدي عن معارضة للقصد المتعدى عليه، وتمثل الهفوة النزاع الناشب بين هذين الميلين اللذين لا توفيق بينهما. «أعلن افتتاح الجلسة، لكن كان بودي لو أفضّها»: ذلكم هو معنى فلتة لسان رئيس المجلس. وقد كتبت مرة صحيفة سياسية مهتمة بالارتشاء تردّ التهمة عن نفسها في مقال كان يفترض أن يتلخص بالعبارة التالية: «يشهد قراؤنا على أننا كنا على الدوام الذائدين عن الصالح العام **لغير غرض في أنفسنا**». لكن المحرر المكلف بكتابة الرد أسقط كلمة غير وكتب يقول: «يشهد قراؤنا على أننا كنا على الدوام الذائدين عن الصالح العام **لغرض في أنفسنا**». وعندي أن المحرر قد كشف لنا بذلك عن دخيلة نفسه: «مفروض فيّ أن أكتب شيئاً، لكنني أعرف أن العكس هو الصحيح». وقد أراد مرة أحد النواب أن يعلن أن الحقيقة لا بدّ أن تقال للإمبراطور بلا تخاذل، لكنه سمع للحال صوتاً داخلياً يحذّره من اجترائه



هذا، فإذا بلسانه يهفو ويستبدل عبارة «**بلا تخاذل**» Ruckhaltlos بعبارة «**بلا تطاول**» Ruckgratlos[1].

أما في الحالات التي يكون فيها قوام فلتة اللسان الإدغام أو الاختصار ـ وهي حالات تعرفونها ـ فالمسألة هي مسألة تصحيحات وإضافات ومتابعات يفصح فيها قصد ثانٍ عن وجوده إلى جانب القصد الأول. «انكشفت أمور كثيرة، كلا، كان قصدي أن أقول: شريرة، فكانت النتيجة: **انكشرت**». «من يفهم ذلك من الناس يمكن أن يُعدُّوا على **أصابع يد واحدة**، كلا، الحق أنه لا يوجد سوى **شخص واحد** يفهم هذه الأشياء؛ إذاً فالأشخاص الذين يفهمونها يمكن أن يعدُّوا على إصبع **واحدة**». أو كذلك: «يستطيع زوجي أن يأكل ويشرب ما يشاء، لكنني لا أطيق، كما تعلمون، أن يشاء شيئاً ما، إذاً فلا بد أن يأكل ويشرب ما **أشاء**». والفلتة، في هذه الحالات جميعاً، إنما تنجم، كما تعاينون، عن مضمون القصد المتعدى عليه بالذات أو ترتبط به ارتباطاً مباشراً.

أما النوع الثاني من العلاقات بين القصدين المتداخلين فيبدو غريباً بالأحرى. فإن لم يكن بين مضمونهما رابط ما، فما مصدر القصد المتعدي، وكيف له أن يظهِر أثره التعكيري في نقطة محددة بعينها؟ تتيح لنا الملاحظة، وهي وحدها القمينة بالإجابة عن هذا السؤال، أن نتحقق من أن التعكير ينشأ عن تيار أفكار كان يشغل ذهن الشخص المعني قبيل الفلتة، وأنه اقتحم عليه خطابه بتلك الطريقة الخاصة، وبالتالي كان من الممكن أيضاً (ولا أقول من الضروري) أن يتلبس تعبيراً آخر. ونحن هنا أمام صدى بملء معنى الكلمة، لكنه ليس بالضرورة وعلى الدوام صدى لكلمات منطوقة. وعليه، توجد هنا أيضاً رابطة تداعٍ بين العنصر المتعدي والعنصر المتعدى عليه، لكن هذه الرابطة، بدل أن يكون المضمون مصدرها، اصطناعية خالصة، وينبع تكوينها من تداعيات قسرية.

هاكم مثالاً بسيطاً لاحظته بنفسي. التقيت ذات يوم في جبال الدولوميت[2]

---

١ ـ جلسة الرايخستاغ الألماني، تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٠٨. «م».

٢ ـ الدولوميت: سلسلة جبلية في الألب الإيطالي سمِّيت كذلك باسم الرحالة دولومو (١٧٥٠ ـ ١٨٠١) الذي له دراسات عن الزلازل والبراكين، وقد شارك في بعثة مصر. «م».



الجميلة سيدتين فييناويتين ترتديان ملابس السياح. فصاحبتهما بعض الطريق، وتبادلنا أطراف الحديث عن متع الحياة السياحية ومتاعبها. وأقرّت إحدى السيدتين بأن يوم السائح لا يخلو من مضايقات، وقالت: «صحيح أنه ليس من الممتع أن يسير المرء طوال النهار تحت وهج الشمس حتى يبتل من العرق سترته وقميصه و...». ولما وصلت إلى هذه الكلمات الأخيرة ترددت قليلاً، ثم أردفت تقول: «لكنه عندما يعود بعد ذلك إلى **سرواله** Nach Hose (بدلاً من أن تقول: إلى **بيته** Nach Hause) ويبدل ملابسه...». نحن لم نحلل بعد فلتة اللسان هذه، لكني لا أرى من ضرورة لذلك. فقد كانت المرأة تقصد، في جملتها الأولى، أن تمضي في التعداد: السترة، القميص، السروال (Hose). غير أن داعي الحياء دعاها إلى الإمساك عن ذكر اللباس الداخلي الأخير هذا، فلما نطقت بجملتها التالية، وهي مستقلة تماماً في مضمونها عن الأولى، ظهرت فيها كلمة (Hose)، التي أمسكت عن النطق بها في اللحظة المرامة، وكان ظهورها على شكل تحريف لكلمة Hause.

في مستطاعنا أن نعود الآن إلى السؤال الرئيسي الذي طالما أرجأنا النظر فيه، وأعني به: ما تلك المقاصد التي تفصح عن نفسها على هذا النحو الغريب بتعديها على مقاصد غيرها؟ من البديهي أنها مقاصد متباينة أشدّ التباين، لكننا نريد مع ذلك أن نستخلص سماتها المشتركة. فلو درسنا على ضوء ذلك طائفة من الأمثلة، لاتضح لنا بسرعة أنها قابلة للتصنيف في ثلاث مجموعات. المجموعة الأولى تدخل في نطاقها الحالات التي يكون فيها القصد المتعدي معروفاً للمتكلم، علاوة على إرهاصه به قبل أن يهفو لسانه. وتضم المجموعة الثانية الحالات التي لا يعرف فيها المتكلم، مع إقراره بأن القصد المتعدي صادر عنه، أن هذا القصد كان نشطاً يفعل فعله في دخيلته قبل أن يزلّ لسانه بالهفوة. إنه يقبل إذاً بتأويلنا لهذه الأخيرة، لكنه لا يملك إلا أن يعرب عن دهشته منه. ولعله أيسر علينا أن نجد أمثلة لهذا الموقف في هفوات أخرى غير فلتات اللسان. أما المجموعة الثالثة فتضمّ حالات يحتج فيها الشخص المعني بقوة على التأويل الذي نعرضه عليه. فهو لا يكتفي بنفي وجود القصد المتعدي قبل وقوع الفلتة، بل يؤكد أيضاً



أن هذا القصد غريب عنه كل الغربة. تذكروا اقتراح ذلك المساعد الشاب بشرب «**شخب**» الرئيس، وردّه الجافي عليَّ حين أوضحت لشارب هذا النخب طبيعة القصد المتعدي. وتعرفون أننا لم نفلح بعد في الاتفاق على كيفية فهم هذه الحالات. وفيما يتعلق بي، فإن احتجاج المساعد الشاب، شارب النخب، لا يشوش عليّ فكري ولا ينهاني عن التمسك بتأويلي، وربما بخلاف حالكم أنتم: فلعلكم تتساءلون، وقد هالكم إنكاره، عما إذا لم يكن من الأفضل أن نقلع عن طلب تأويل لحالات من هذا النوع وأن نرى فيها محض أفعال فيزيولوجية، بالمعنى الذي كان لهذه الكلمة قبل عهد التحليل النفسي. ولا يشقّ عليّ أن أتكهن بعلّة موقفكم هذا. فالتأويل الذي أتقدم به يترتب عليه أن الشخص المتكلم قد يفصح عن مقاصد ونيات يجهلها هو نفسه، بينما أقدر أنا على استنتاجها من قرائن معينة. وأنتم تترددون في قبول هذه الدعوى الغريبة والمثقلة بالعواقب. ومع ذلك، لو شئتم أن تبقوا ملازمين جانب المنطق في تصوركم للهفوات المستند إلى كثرة من الأمثلة، يتعين عليكم ألا تترددوا في قبول هذه الدعوى، مهما بدت لكم مغربة. فإن تعذر عليكم ذلك، فما عليكم إلا أن تنفضوا أيديكم من فهم الهفوات رغم ما استأداكم من مشقة وعناء.

لنقف هنيهة عند ما يربط بين المجموعات الثلاث التي تقدم بيانها، أي عند ما هو مشترك بين الآليات الثلاث لفلتة اللسان. من حسن الحظ ثمة، من هذا المنظور، واقعة تقف فوق كل شبهة. ففي المجموعتين الأوليين، يعترف الشخص المتكلم نفسه بالميل المتعدي، ناهيك عن أن هذا القصد المتعدي يفصح عن نفسه في المجموعة الأولى قبل وقوع الفلتة مباشرة. لكن في المجموعة الأولى كما في الثانية **يبقى القصد المذكور مقموعاً. وبما أن الشخص المتكلم عقد العزم على عدم السماح له بالإفصاح عن نفسه في كلامه، نراه يتورط في فلتة اللسان، أي أن القصد المقموع يشفّ عن وجوده رغم أنف الشخص المعني، إما بتعديله القصد المجهور به، وإما بالاختلاط والالتباس به، وإما أخيراً بالحلول محله. تلكم هي إذاً آلية فلتة اللسان.**

إن وجهة نظري هذه تتيح لي أن أفسّر بالآلية نفسها حالات المجموعة الثالثة.



فما عليّ إلا أن أفترض أن الفارق الوحيد القائم بين مجموعاتي الثلاث فارق في درجة قمع القصد المتعدي. ففي المجموعة الأولى يكون القصد موجوداً ومدركاً من قبل الشخص المتكلم قبل تظاهره، وعندما يحدث القمع يقتصّ منه القصد لنفسه بفلتة اللسان. وفي المجموعة الثانية يكون القمع أشدّ وأفعل، فلا يتنبه الشخص المتكلم لوجوده قبل بدء التكلم. والمدهش في الأمر أن هذا القمع، على عمقه، لا يمنع القصد من المشاركة في استحداث الفلتة. وهذا ما يسهّل علينا كثيراً تفسير ما يجري في المجموعة الثالثة. ولن أحجم حتى عن الادعاء بأن الهفوة قد تكون تعبيراً عن قصدٍ جرى قمعه منذ زمن بعيد، بل منذ زمن بعيد جداً، بحيث لا يعود الشخص المتكلم يفطن إلى وجوده أصلاً، ويكون صادقاً إلى حدّ كبير عندما ينكر هذا الوجود. لكن لو صرفنا النظر عن المشكلة المتعلقة بالمجموعة الثالثة، فلن يكون أمامنا مناص من التسليم بالنتيجة التي تفرضها ملاحظة حالات أخرى، وهي أن **قمع الميل إلى قول شيء بعينه هو الشرط اللازم لحدوث الفلتة**.

بوسعنا أن نقول الآن إننا أحرزنا تقدماً جديداً في فهم الهفوات. فنحن لا نعرف فحسب أن هذه الهفوات أفعال نفسية ذات معنى وتنطوي على قصد، وأنها تنجم عن تداخل قصدين متباينين، بل نعرف أيضاً أن أحد هذين القصدين لا بدّ أن يكون قد تعرّض لقدر من القمع قبل النطق بالكلام كيما يتأتى له أن يتظاهر بتعدّيه على القصد الآخر. ولا بدّ أن يكون قد عانى هو نفسه من التعدي حتى يتمكن بدوره من التعدي على غيره. وغني عن البيان أن هذا لا يوفر لنا فهماً كاملاً بعد للظاهرات التي نسميها بالهفوات. بل سرعان ما تعرض لنا مسائل أخرى، ونستشعر بصفة عامة أننا كلما تقدمنا في دراستنا انفسح المجال أمامنا لطرح المزيد من الأسئلة الجديدة. فبوسعنا أن نتساءل، على سبيل المثال، إن لم تكن الأمور تجري على منوال أبسط بكثير. فعندما يعزم المرء على قمع قصد معيَّن، بدلاً من أن يتركه يفصح عن نفسه، فالمفروض أن تواجهنا حالة من اثنتين: إما أن ينجح القمع، وعندئذ لن يظهر شيء من القصد المتعدي، وإما أن يفشل القمع، وعندئذ لا مفرّ من أن يفصح هذا القصد عن نفسه على نحو سافر



وكامل. لكن الهفوات تنجم عن تسوية وحلّ وسط؛ فهي تدلّ على أن القمع حقق نجاحاً جزئياً ومُني بفشل جزئي، وأن القصد المهدَّد إن لم يكن قد انتفى بتمامه فقد جرى قمعه بالقدر الذي يكفي ليحول بينه وبين التظاهر كما هو، بلا تحريف، فيما عدا حالات استثنائية. ومن حقنا أن نفترض أن حدوث ذلك التداخل أو تلك التسوية على أساس الحل الوسط مرهون ببعض شروط خاصة، لكننا لا نملك أية فكرة عن طبيعة هذه الشروط. ولا أعتقد أن المزيد من التبحر في دراسة الهفوات من شأنه أن يساعدنا على اكتشاف هذه الشروط المجهولة. فللوصول إلى هذه النتيجة، لا بدّ لنا أن نرود ونستكشف بالأول مناطق مظلمة أخرى من الحياة النفسية، ووحدها التماثلات التي سنقع عليها فيها ستمدنا بالشجاعة اللازمة لصياغة الفرضيات القمينة بإيصالنا إلى تفسير أكمل للهفوات. لكنّ هناك شيئاً آخر بعد! فعندما ينهض عملنا على قرائن طفيفة ـ شأننا هنا ـ نبقى بالضرورة عرضة لبعض الأخطار. وأذكر بهذا الصدد أن ثمة مرضاً نفسياً يسمى **بالبارانويا المتراكبة**، والمصاب به يسرف إسرافاً شديداً لا حدّ له في استخدام القرائن الطفيفة، ولا يسعني بطبيعة الحال أن أجزم بأن كل النتائج التي تُستنتج على هذا الأساس صحيحة. ولن يتسنى لنا أن نتفادى هذه المخاطر إلا إذا بنينا ملاحظاتنا على أوسع أساس ممكن، وذلك بفضل تكرار انطباعات مشابهة صادرة عن مضامير الحياة النفسية الأكثر تبايناً.

سنتوقف إذاً هنا عن تحليل الهفوات. غير أني سأوصيكم بما يلي: أن احفظوا في ذاكرتكم الطريقة التي عالجنا بها هذه الظاهرات على أنها أنموذج. وعلى ضوء هذه الطريقة يتسنى لكم من الآن أن تتبينوا ما المقاصد التي يرمي إليها علمنا النفسي. فنحن لا نريد فقط أن نصف الظاهرات ونصنِّفها، بل نبغي أيضاً أن ننظر إليها على أنها قرائن على اصطراع قوى بعينها في داخل النفس، وعلى أنها تعبير عن ميول تسعى إلى بلوغ هدف محدد، إما متضافرة أو متنافرة. وما نسعى إليه نحن هو تكوين **تصور دينامي** عن الظاهرات النفسية. وعندنا أن الظاهرات الواقعة تحت الإدراك لا بدّ أن تكون ضئيلة الأهمية بالمقارنة مع الميول التي نفترضها افتراضاً لا غير.



لن نمضي إذاً في دراسة الهفوات، غير أنه لا يزال بوسعنا أن نقوم في هذا الميدان بجولة خاطفة نلتقي فيها بأشياء معروفة لدينا من قبل، ونكتشف بعض أشياء أخرى جديدة. وتمهيداً لذلك نعلن من جديد تمسكنا بالتقسيم الثلاثي الذي اعتمدناه في مستهل بحثنا: أ ـ فلتة اللسان وتفريعاتها إلى زلات قلم وأغلاط قراءة وسوء سمع؛ ب ـ النسيان وتفريعاته بحسب الموضوع المنسي (أسماء الأعلام، الألفاظ الأجنبية، المشاريع، الانطباعات)؛ جـ ـ الغلط في الحركة مثل تضييع الأشياء واستحالة الاهتداء إلى موضعها. أما الأخطاء فلا تعنينا إلا من حيث ارتباطها جزئياً بالنسيان، أو بالغلط في الحركة، إلخ.

لقد أسهبنا في الكلام عن فلتة اللسان، ومع ذلك لا يزال لدينا ما نودّ أن نضيفه بصددها. ففلتة اللسان ترتبط بها ظاهرات وجدانية طفيفة ليست غفلاً من الأهمية. فالمرء لا يعترف عن طيب خاطر بأنه تورط في فلتة لسان، وكثيراً ما يتفق له أن يفوته سماع الفلتة التي هفا بها لسانه، بينما لا يفوته البتة سماع الفلتة التي يهفو بها لسان غيره. كذلك إن الفلتة معدية إلى حدّ ما، فليس يسيراً على المرء أن يتكلم عن الفلتات من دون أن يتورط هو نفسه في واحدة منها. وحتى الفلتات العادمة الدلالة، والتي لا تعلمنا شيئاً ذا بال عن السيرورات النفسية الخفية، لها مع ذلك أسبابها التي لا يعسر كشفها. فحين يأخذ المرء اضطراب ما وهو ينطق بكلمة بعينها، كأن يقصر حرف مدّ، نراه لا يتخلف عن مدّ حرف القصر التالي مباشرة، مرتكباً بذلك فلتة جديدة ترمي إلى التعويض عن الأولى. وكذلك الأمر عندما يدغم المرء عن خطأ أو إهمال حرفين متماثلين متتاليين: إذ نراه يعمل على تصحيح خطئه بفكه إدغام الحرف المضعَّف التالي مباشرة، فكأني بالشخص المتكلم يحرص على أن يظهر لسامعه أنه يعرف لغة قومه وأنه ليس ممن يستهينون بالنطق الصحيح. فالتحريف الثاني، الذي يسعنا وصفه بأنه تعويضي، يهدف على وجه التحديد إلى لفت انتباه السامع إلى التحريف الأول وإلى إفهامه أنه تنبه له هو نفسه. إن أبسط أنواع الهفوات وأكثرها تواتراً وانعدام دلالة تكمن في إدغامات واستباقات تطرأ على أجزاء غير ذات أهمية من الكلام. فالفلتة التي يهفو بها لسان المرء، أثناء نطقه بجملة طويلة بعض الشيء على سبيل المثال، هي



أن يلفظ استباقاً بآخر كلمة مما يريد قوله. وهذا يوحي وكأن الشخص المتكلم ضاق ذرعاً بالجملة، فأراد إنهاءها كيفما اتفق، وينمّ إجمالاً عن نفور الشخص المعني من توصيل هذه الجملة أو عن رغبة في الإمساك عن الكلام نهائياً. وهذا يقودنا إلى الحالات التي هي بين بين والتي يتلاشى فيها الفارق بين التصور التحليلي النفسي لفلتة اللسان وبين تصورها الفيزيولوجي المعتاد. ونحن نزعم أن هذه الحالات تنطوي على ميل يشوِّش القصد المفترض بالكلام أن يفصح عنه ويتعدى عليه، لكن هذا الميل يعلن عن وجوده فقط، وليس عن الهدف الذي ينشده. أما التشويش الذي يحدثه فيجري في قناة بعض المؤثرات الصوتية أو بعض التداعيات اللفظية، ومن الممكن اعتباره وسيلة لصرف الانتباه عما يراد قوله. لكن لا تشتيت الانتباه هذا، ولا تداعيات الألفاظ هذه، بكافيين لتحديد طبيعة السيرورة. ولئن كان كلاهما ينمّان عن وجود قصد متعدٍّ، إلا أننا لا نستطيع أن نعرف شيئاً عن طبيعة هذا القصد من مفاعيله وآثاره على نحو ما نستطيع ذلك في الحالات الواضحة من فلتات اللسان.

أطرق الآن باب كبوات القلم التي تشبه فلتات اللسان إلى حدّ يتعذر معه أن تمدّنا بوجهة نظر جديدة. لكن لنحاول مع ذلك أن ننبش ما يمكن نبشه في هذا المضمار. فالأغلاط، والإدغامات، وتسبيق رسم الكلمات، وعلى الأخص الكلمات التي يفترض أن يأتي ترتيبها في الأخير، كل هذه الظاهرات تشهد بجلاء على سأم من الكتابة وعلى جزع إلى الفراغ منها؛ فإن كانت مفاعيل كبوة القلم ونتائجها أكثر بروزاً، أمكن لنا أن نتعرف طبيعة الميل المتعدي وقصده. ونحن نعرف بصفة عامة، حين نقع على زلة قلم في رسالة، أن الشخص الذي كتب هذه الرسالة لم يكن في حالته الطبيعية مئة بالمئة، ولكننا لا نستطيع دائماً أن نعرف ما كان خطبه. ومن يزلّ به قلمه، مثله مثل من يهفو به لسانه، نادراً ما يتنبه إلى خطئه. وهنا ننوه بالملاحظة التالية المثيرة للاهتمام: فهناك من الناس من درج على معاودة قراءة ما يخطّه من الرسائل قبل إرسالها، ومنهم من لا يفعل ذلك. ولكن حتى لو اتفق له أن يكون عاود القراءة، فسيتسنى له دوماً أن يعثر على غلطة فاضحة وأن يصححها. فكيف نفسر هذا الأمر؟ فلكأن هؤلاء



الأشخاص يعرفون أن قلمهم كبا بهم وهم يحررون الرسالة. لكن هل لنا أن نصدِّق ذلك حقّاً؟

أما الأهمية العملية لزلات القلم فتتضح من المشكلة الطريفة التالية. فلعلكم تذكرون قصة السفاح هـ الذي أوهم الناس بأنه اختصاصي في دراسة الجراثيم، فكان يحصل من المعاهد العلمية على جراثيم مزروعة ذات أثر إمراضي شديد الخطورة، ويسخّر هذه المزروعات للقضاء بمثل هذه الطريقة العصرية جداً على من تجمعهم وإياه صلة جوار من الناس. وقد وجّه هذا الرجل يوماً إلى إدارة معهد من تلك المعاهد رسالة يتشكى فيها من عدم فعالية المزروعات التي أرسلت إليه، لكن قلمه كبا به، فكتب: «في تجاربي على **الجيران**»، بدلاً من «تجاربي على **الفيران**». وقد استرعت هذه الزلة انتباه أطباء المعهد المذكور، ولكن من دون أن يستخلصوا منها، على حدّ ما أعلم، أي استنتاج. أفلا تعتقدون أنه كان من المرجّى لو رأى الأطباء في هذه الزلة اعترافاً وإقراراً، وطالبوا بتحقيق كان من شأنه أن يضع في وقت مبكر جداً لجرائم ذلك السفاح؟ ألا ترون أن الجهل بتصورنا للهفوات كان في تلك الحالة سبباً في تأخير يؤسف له أشد الأسف؟ أما فيما يتعلق بي، فما كانت تلك الزلة لتفوتني من دون أن تبتعث في نفسي ريبة كبيرة، لكن اتخاذها إقراراً واعترافاً تنهض دونه عقبات كأداء. فالأمر ليس من البساطة ما يبدو. فزلة القلم قرينة لا مراء فيها، لكنها لا تكفي وحدها لتبرير فتح تحقيق جنائي. صحيح أنها تشهد على أن الرجل مشغول البال بفكرة نقل العدوى إلى أقرانه، لكنها لا تبيح لنا أن نفصل في ما إذا كانت هذه الفكرة صادرة عن خطة مبيّتة لاقتراف الشرّ، أم هي مجرد تخيّل لا تترتب عليه أية نتيجة عملية. بل من المحتمل أن يجد الرجل الذي تورّط في زلة القلم تلك خير الحجج الذاتية لإنكار هذا التخيُّل وللتنصل منه كما لو أنه غريب عنه كل الغربة. ولسوف تزدادون فهماً لهذه الحالات متى ما عرضنا لاحقاً للفارق بين الواقع النفسي والواقع المادي[٣]. على أن هذا لا يغيِّر شيئاً في واقع أن الحالة التي فصَّلناها هي من الحالات التي تكتسب فيها الهفوة في زمن تالٍ أهمية غير متوقعة.

---

٣ ـ انظر لاحقاً المحاضرة الثالثة والعشرين. «م».



وإن انتقلنا الآن إلى عثرات القراءة، واجَهنا موقف نفسي يختلف اختلافاً بيّناً عنه في فلتات اللسان وكبوات القلم. فأحد القصدين المتصارعين ينوب منابه هنا تنبيه حسّي، وهذا ما قد يجعله أضعف مقاومة. فما نقرؤه لا ينبثق من حياتنا النفسية، نظير الأشياء التي قد نشاء كتابتها. لذا يكون قوام عثرات القراءة في أغلب الأحوال إبدالاً شاملاً. فالكلمة المطلوب قراءتها تستبدل بأخرى، من دون أن تكون هناك بالضرورة صلةُ مضمونٍ بين النص وبين محصلة الخطأ، على اعتبار أن الإبدال يتم بوجه عام بدالة تشابه بسيط بين الكلمتين. ومثال ليختنبرغ، الذي كان يقرأ Agamemnon بدلاً من Angenommen، خير ما يمكن سوقه من أمثلة على هذه الفئة من الهفوات. وإن شئنا أن نكتشف القصد المتعدي، المتسبب في العثرة، فلا بد أن نضرب صفحاً عن النص المغلوطة قراءته وأن نبدأ الفحص التحليلي بطرحنا هذين السؤالين: ما أول فكرة تخطر بالبال، وتكون أقرب الفكرات إلى العثرة؟ وما الوضع الذي تحدث فيه هذه العثرة؟ وقد تكون معرفة الوضع كافية أحياناً بحدّ ذاتها لتفسير العثرة. ومن ذلك أن رجلاً كان يتجول في مدينة غريبة، فألحت عليه حاجة طبيعية، فأبصر في أعلى الطابق الأول من أحد المنازل لافتة كتب عليها: «مرحاض» Closet Haus. وما كادت تأخذه الدهشة لوجود اللافتة على مثل ذلك الارتفاع، حتى أدرك أنه كان ينبغي أن يقرأ «محل مشدّات خصور» Corset Haus. وفي حالات أخرى، تتطلب العثرة، على وجه التحديد لأنها مستقلة عن مضمون النص، تحليلاً معمقاً لا يصل إلى مبتغاه ما لم يكن القائم به متمرساً بتقنية التحليل النفسي وله بها ثقة. لكن تفسير عثرة القراءة أيسر من ذلك شأناً بكثير في غالب الأحوال. فكما في مثال ليختنبرغ تنمّ الكلمة البديلة بغير عناء (**أغاممنون** بدلاً من **أنغينومن**) عن تيار الأفكار الذي كان مصدر التشويش. وكثيراً ما يتفق للمرء، في زمن الحرب مثلاً، أن يقرأ أسماء مدن وقادة عسكريين وتعابير عسكرية من قبيل تلك التي تقرع سمعه في كل آن وحين، كلما وقع نظره على كلمات بها بعض الشبه بتلك الأسماء والتعابير. فما يشغل بالنا ويستأثر باهتمامنا يحلّ محلّ ما هو غريب عنا وما لا نأبه له بعد. فانعكسات أفكارنا تشوش علينا إدراكاتنا الجديدة.



وكثيراً ما تقدَّم لنا عثرات القراءة أيضاً حالات يتسبب فيها النص المقروء نفسه في إيقاظ الميل المتعدي ليقلبه في كثير من الأحيان إلى نقيضه. ومثل هذه العثرات تنمّ عن عدم رغبة في متابعة القراءة، والتحليل كفيل بأن يظهر لنا أن الرغبة المضطرمة في تحاشي المقروء هي المسؤولة عن تحريفه.

إن العاملين اللذين عزونا إليهما دوراً هاماً في الهفوات لا يلعبان في أكثر عثرات القراءة ذيوعاً، من أشباه تلك التي ذكرناها في مستهل هذه الفقرة، سوى دور ثانوي للغاية: ونعني بهذين العاملين النزاع بين القصدين وقمع أحدهما قمعاً يجبره على الردّ والإعلان عن نفسه من خلال الهفوة. ولا نقصد بذلك أن عثرات القراءة تتسم بصفات معاكسة لهذين العاملين، وإنما يكون إلحاح تيار الأفكار الذي يتسبب في عثرة القراءة أقوى بكثير من القمع الذي يكون هذا التيار قد تعرض له من قبل. وأجلى ما يكون تأثير العاملين المشار إليهما في شتى تظاهرات الهفوة الناشئة عن النسيان.

إن نسيان القرارات ظاهرة لا يصطدم تفسيرها بأية صعوبة، ولا يماري فيه حتى عامة الناس، كما أسلفنا البيان. فالميل الذي يشوِّش تنفيذ القرار هو على الدوام قصد مضاد، رغبة معاكسة، وكل المطلوب منا أن نعرف لماذا لا تفصح عن نفسها على نحو مغاير وبصورة أقل تنكراً وخفاء. وقد نفلح أحياناً في معرفة شيء عن الأسباب التي تقتضي إخفاء تلك الرغبة المضادة: ذلك أنها عندما تتنكر تدرك على الدوام هدفها وتحققه في الهفوة، في حين أنها تعرف عن ثقة بأنها ستُنحى جانباً وتُنبذ فيما لو أعلنت عن نفسها بصفتها رغبة مناوئة سافرة. وإذا ما طرأ، في الفترة الفاصلة بين التصميم على قرار من القرارات وبين تنفيذه، تغير هام في الموقف النفسي، من شأنه أن يلغي الحاجة إلى تنفيذ هذا القرار، فإن نسيان هذا الأخير لا يعود ضرباً من الهفوة، كما لا يعود يثير الاستغراب، إذ يكون قد محي من الذاكرة بصورة دائمة أو مؤقتة. والحق أن نسيان القرار لا يمكن أن يعتبر ضرباً من الهفوات إلا في الحالات التي لا يمكننا فيها أن نعتقد بوجود مثل ذلك التعليق للقرار.

إن حالات نسيان القرارات هي بوجه عام على درجة من الجلاء ووحدة



النمط بحيث لا تنطوي على فائدة بالنسبة إلى مبحثنا هذا. بيد أن دراسة هذا الصنف من الهفوات يمكن أن تفيدنا بشيء جديد في ناحيتين. فقد قلنا إن النسيان، أي عدم تنفيذ قرار من القرارات، ينمّ عن رغبة مضادة مناوئة له. وهذه حقيقة ثابتة، لكن الرغبة المضادة يمكن أن تكون، بحسب ما نستدلّه من بحوثنا، مباشرة أو غير مباشرة. وخير ما نفعله لإيضاح ما نعنيه بالرغبة غير المباشرة أن نسوق مثالاً أو مثالين. فعندما ينسى الوصي أن يزكّي ربيبه لدى شخص ثالث، فقد يكون مردّ نسيانه إلى أنه لا يهتمّ لربيبه اهتماماً فعلياً، فلا تساوره رغبة حقيقية في تزكيته. أو هكذا على الأقل سيفسّر الربيب نسيان الوصي. لكن الوضع قد يكون أكثر تعقيداً. فقد يكون عزوف الوصي عن تنفيذ ما عزم عليه نابعاً من مصدر آخر وقابلاً للتفسير على نحو آخر. وعلى الأخص، قد لا يكون للربيب من ضلع بالنسيان الذي قد يكون متعيِّناً بدوره، في هذه الحال، بأسباب تتعلق بالشخص الثالث. وأنتم ترون من هذا مدى ما قد يكون من صعوبة في الاستخدام العملي لتأويلاتنا. فالربيب، رغم صحة تأويله، قد يعرّض نفسه لخطر الإسراف في الريبة، وبالتالي وقوف موقف غير منصف من وصيه. أو خذوا أيضاً مثل شخص ضرب موعداً لآخر، وعقد العزم على موافاته إليه، ثم أخلف وعده من جراء النسيان. إن تفسير هذا النسيان ينبغي البحث عنه في معظم الحالات، وبحسب ظاهر الحق، في وهن الودّ الذي يكنّه الناسي للشخص الذي كان يفترض به أن يلاقيه. لكن قد يدلّ التحليل، في هذه الحال، أن القصد المتعدي لا صلة له بالشخص المضروب له الموعد، بل فقط بالمكان الذي ضرب فيه هذا الموعد، وأن المخلف وعده كان يعاف التواجد فيه لارتباطه بذكرى مؤلمة. وهاكم مثالاً آخر: فحين ينسى المرء أن يرسل رسالة كتبها، فقد يكون مردّ القصد المتعدي إلى مضمون الرسالة ذاته، لكن من الممكن أيضاً أن يكون هذا المضمون عادياً تماماً بحدّ ذاته، لكنه ينطوي على شيء يذكّر بمضمون رسالة أخرى، كتبت في زمن سابق، فيتحول مباشرة إلى مصدر للقصد المتعدي، وعندئذ يجوز لنا القول إن الرغبة المضادة امتدت من الرسالة السالفة ـ حيث كان لها ما يبررها ـ إلى الرسالة اللاحقة التي لا تبررها على الإطلاق. وهكذا ترون أنه لا مناص لنا



من مراعاة الحذر والحيطة، حتى في تأويلاتنا التي تبدو في الظاهر على درجة كبرى من الصحة والدقة؛ ذلك أن ما يكون ذا مدلول واحد من وجهة النظر السيكولوجية يمكن أن يكون قابلاً لتأويلات عدة من وجهة النظر العملية.

قد يلوح لكم أن أمثال هذه الظاهرات التي حدَّثتكم عنها خارقة للمألوف. وقد تتساءلون عما إذا لم تكن الرغبة المضادة «اللامباشرة» هي التي تضفي طابعاً مرَضياً على سيرورة تمخض الظاهرة. لكن بوسعي أن أجزم لكم أن هذه السيرورة لا تتنافى أيضاً مع حالة الصحة والسواء. غير أني أرجو أن تحسنوا فهمي. فلست أميل بحال إلى التسليم بأن تأويلاتنا التحليلية تكتنفها الريبة ولا يمكن الركون إليها. ذلك أن إمكانية تعدد تأويلات نسيان القرارات تبقى قائمة فقط ما دمنا لما نشرع بعد بتحليل الحالة، وما دامت تأويلاتنا لا تستند إلى أساس غير فرضياتنا ذات الصفة العامة. أما عندما ننكبّ على تحليل الشخص المعني، فإننا نتحقق بتيقن كافٍ مما إذا كان الأمر يتعلق بالفعل برغبة مضادة مباشرة ومما إذا كان من المحتمل أن يكون لها مصدر آخر.

هذا من ناحية أولى، أما من الناحية الثانية فإننا متى ما تثبتنا من أن نسيان القرارات يرتدّ في عدد كبير من الحالات إلى رغبة مضادة، كان لنا في هذا ما يشجّعنا على تعميم النتيجة نفسها على سلسلة أخرى من الحالات التي لا يكتفي فيها الشخص المحلَّل بالامتناع عن تأكيد وجود الرغبة المضادة التي استنتجناها، بل ينكرها أيضاً إنكاراً باتاً. خذوا مثالاً على ذلك كثرة الحالات التي ينسى فيها المرء أن يعيد الكتب التي استعارها، أو أن يدفع الفواتير، أو أن يسدد الديون. من الواجب إذاً أن تكون لنا الجرأة على مجاهرة الشخص المعني بأنه عاقد النية في دخيلة نفسه على الاحتفاظ بالكتب وعلى عدم تسديد ديونه، حتى وإن أنكر هذا الشخص ما ننسبه إليه من نية، ولكن من دون أن يقدر في الوقت نفسه على تعليل مسلكه لنا بأسباب أخرى. إننا سنقول له إن هذه نيته، وإن كان لا يفطن إليها، وإنه حسبنا نحن أن تنمّ عن نفسها من خلال النسيان. وسيجيبنا الشخص المعني أنه لهذا على وجه التحديد لا يتذكرها. وهكذا تروننا ننتهي إلى وضع كنا قد مررنا به من قبل. فحرصنا على المضي بتأويلاتنا للهفوات إلى نهاياتها المنطقية،



على ما تتسم به هذه التـأويلات من تنوع وما تركز إليه من مسوغات، قادنا إلى الافتراض بأنه توجد لدى الإنسان ميول ونزعات قادرة على أن تفعل فعلها من دون علمه ودرايته. لكننا بصياغتنا هذه الأطروحة نكون قد وقفنا موقف المعارضة من جميع التصورات المعتمدة في الحياة وفي علم النفس.

إن نسيان أسماء الأعلام والأسماء الأجنبية، وكذلك الألفاظ الأجنبية، قابل بدوره للتفسير بقصد معاكس يرتبط بصورة مباشرة أو غير مباشرة بالاسم أو باللفظ المنسي. وقد ضربت لكم آنفاً عدة أمثلة على النفور المباشر من بعض الأسماء والألفاظ. لكن في هذا النوع من حالات النسيان يكون التعليل اللامباشر هو الغالب ولا سبيل في أكثر الأحوال للكشف عنه إلا بتحليل دقيق. وهكذا نجد أن الحرب الأخيرة[٤]، بحكم ما اضطرتنا إليه من العزوف عن كثير من روابطنا العاطفية السالفة، قد خلقت في نفوسنا متداعيات غريبة عجيبة كان من نتيجتها إصابتنا بالوهن في تذكر أسماء الأعلام. فقد اتفق لي مؤخراً أن عجزت عن استذكار اسم مدينة بيزنس Bisenz المورافية الوديعة، وقد دلّ التحليل أن مرد ذلك ليس إلى صدود في نفسي عن هذه المدينة، وأن النسيان ناجم بالأحرى عن التشابه الذي بين اسمها واسم قصر بيزنسي Bisenzi في أورفييتو Orvieto،[٥] وكنت قد أزجيت فيه أوقاتاً هنيئة فيما غبر من الأيام. وهنا يواجهنا، لأول مرة، مبدأ سيتكشف لنا لاحقاً مدى أهمية الدور الذي يلعبه، من منظور التعليل القصدي لنسيان الأسماء، في تعيين الأعراض العصابية: ونعني به رفض الذاكرة استحضار ذكريات مقترنة بمشاعر مؤلمة، ذكريات من شأنها لو استحضرت أن تجدد مشاعر الألم هذه. ولزام علينا أن نتعرف في هذا الميل إلى تحاشي الكدر الذي قد تسببه الذكريات أو غيرها من الأفعال النفسية، في هذا الفرار النفسي من كل ما هو مؤلم موجع، العلة الفعالة النهائية لا لنسيان الأسماء فحسب، بل أيضاً لكثير من الهفوات، كالسهو والغلط، إلخ.

٤ ـ يقصد الحرب العالمية الأولى. «م».

٥ ـ مدينة صغيرة في وسط إيطاليا ذات ماضٍ عريق. «م».



لكن يبدو أن ثمة عوامل نفسية/ فيزيولوجية تسهِّل نسيان الأسماء بوجه خاص، لذا قد نلحظ حدوثه حتى في الحالات التي لا يتدخل فيها أي عنصر ذو صلة بإحساس مكدر. وحين تواجهون شخصاً به ميل إلى نسيان بعض الأسماء، فسيتيح لكم البحث التحليلي على الدوام أن تتحققوا من أنه إذا كانت بعض الأسماء تغيب عن ذاكرته فليس ذلك لنفور به منها أو لأنها تذكِّره بما يكره، بل لأنها تنتمي إلى دائرة أخرى من دوائر التداعي وتتصل بها اتصالاً أوثق. فلكأن هذه الأسماء قد شُدّ وثاقها إلى هذه الدائرة وسُمِّرت عليها، ومُنعت عنها التداعيات الأخرى التي قد تتكون تبعاً للظروف. فلو تذكرتم ما يلجأ إليه بعض الناس من حِيَل لتقوية ذاكرتهم، لأدركتم بشيء من الدهشة أن الأسماء تنتسى بفعل نفس الترابطات التي يصطنعها المرء عن قصد وعمد ليتحاشى نسيانها. ومن الأمثلة النموذجية على ذلك أسماء الأشخاص التي لا بدّ أن يكون لها ـ هذا بدهي ـ دلالة نفسية مختلفة عند الناس تبعاً لاختلافهم بدورهم. خذوا اسم «تيودور» مثلاً. فهو لا يعني شيئاً بالنسبة إلى بعضكم، لكنه عند بعضكم الآخر اسم أب أو أخ أو صديق أو اسمه الشخصي بالذات. وستدلّكم التجربة التحليلية أن الفريق الأول بمنجى من أن ينسى أن ثمة شخصاً أجنبياً يحمل هذا الاسم، بينما سينزع الفريق الثاني على الدوام إلى أن يضنّ على الغريب باسم يلوح له أنه وقف على معارفه الشخصيين. فإذا ما أضفتم الآن إلى هذا العائق الترابطي تأثير مبدأ الكدر وكذلك وجود آلية غير مباشرة، أمكنكم أن تكوّنوا فكرة مطابقة عن درجة تعقيد أسباب النسيان المؤقت لاسم من الأسماء. غير أن التحليل المعمّق كفيل بأن يحلّ جميع خيوط هذه العقدة المتشابكة.

إن أثر الميل إلى عدم تذكّر كل ما هو مستكره أشد بروزاً وأكثر اطراداً في نسيان الانطباعات والأحداث المعاشة منه في نسيان الأسماء. وهذا الضرب من النسيان لا يجوز لنا اعتباره من قبيل الهفوات إلا بقدر ما يبدو لنا، على ضوء خبرتنا اليومية، باعثاً على الدهشة ولا مبرر له، أي حين يطال النسيان، مثلاً، انطباعات قريبة العهد أو جليلة الشأن، أو انطباعات تنشأ عن غيابها ثغرة في مجموعة متكاملة من الذكريات الراسخة التي لا تنتسى أبداً. فلماذا وكيف يمكن



لنا أن ننسى بصورة عامة، أو على الأخص، أحداثاً تركت في نفوسنا أعمق الانطباعات كأحداث السنوات الأولى من طفولتنا؟ إن هذه لمشكلة تختلف عما نحن بصدده كل الاختلاف؛ وقد نستطيع، في مسعانا إلى حلِّها، أن نعزو دوراً ما إلى الاحتماء من الأحاسيس المؤلمة، ولكن شرط التنبه مقدماً إلى أن هذا العامل يبعد عن أن يفسّرها بتمامها. إن سهولة نسيان الانطباعات المستكرهة واقعة لا جدال فيها. وقد تنبه العديد من علماء النفس لهذه الواقعة التي كان لها وقع عميق في نفس داروين العظيم حدا به إلى أن يسنّ لنفسه «قاعدة ذهبية» بأن يدوّن بعناية خاصة الملاحظات التي تبدو له معارِضةً لنظريته[٦] والتي لا تريد، كما تسنى له أن يتحقق، أن تتثبت وترسخ في ذاكرته.

إن من يسمع لأول مرة أن النسيان وسيلة دفاعية للاحتماء من الذكريات المؤلمة لا يتخلف، إلا فيما ندر، عن إبداء الاعتراض التالي بالاستناد إلى خبرته الذاتية: إن الذكريات المؤلمة هي التي تستعصي بالأحرى على النسيان، وهي التي تعاود المرء مراراً وتكراراً، مهما يفعل ليكتمها ويقمعها، وتقضّ مضجعه بلا انقطاع، ومنها على سبيل المثال ذكريات المهانة والمذلة. وهذا حقّ لا ريب فيه، لكن الاعتراض باطل. وخليق بكم ألا يغرب عن بالكم أن الحياة النفسية ميدان حرب وحلبة صراع تتواجه فيها ميول ونزعات متعارضة، أو أنها، بلغة أقل دينامية، تتألف من متناقضات وأزواج من الأضداد. فإذا ما أثبتنا وجود ميل معيّن، لا نكون قد أثبتنا بذلك عدم وجود أي ميل آخر يفعل فعله في اتجاه معاكس. فثمة مجال لكل منهما. وبيت القصيد أن نعرف العلاقات التي تقوم بين هذين الميلين المتناقضين، والأفعال التي تصدر عن كل منهما.

ويحظى منا ضياع الأشياء وتعذُّر الاهتداء إلى موضعها باهتمام خاص، بسبب تعدد التأويلات التي تصلح لهاتين الهفوتين، وتنوع الميول التي تصدعان بأمرها. والشيء المشترك بين الحالات جميعاً هو إرادة التضييع، أما ما يميز حالة عن أخرى فهو سبب التضييع وهدفه. فالمرء يضيِّع الشيء إن رثّ وبلي، أو إن عقد النية

٦ ـ الإحالة هنا إلى نظرية تشارلز داروين (١٨٠٩ ـ ١٨٨٢) في أصل الأنواع الحية التي أرجعها جميعاً إلى أصل واحد أو أصول واحدة مشتركة بموجب ما أسماه قانون الانتخاب الطبيعي. «م».



على استبداله بآخر أحسن منه، أو عافته نفسه، أو إن جاءه من شخص لم يعد يجمعه وإياه ودٌّ موصول، أو إن حازه في ظروف لا يطيب له أن يعود إلى التفكير بها وتذكّرها. وإسقاط الأشياء أو إتلافها أو كسرها قد يخدم الغايات نفسها. وقد دلّت التجربة في الحياة الاجتماعية أن الأطفال الذين يولدون خارج نطاق الزواج ويكون وجودهم مفروضاً فرضاً هم أكثر هشاشة وخرعاً بكثير من الأطفال المعترف بشرعيتهم. ولا حاجة هنا، لتفسير هذه الظاهرة، إلى الإحالة إلى تلك الطريقة الفظة التي تعتمدها أولئك اللواتي يطلق عليهن اسم صانعات الملائكة[٧]؛ فقدر من الإهمال في توفير العناية التي يتطلبها حال الطفل كافٍ تماماً لتفسير الأمر. ولعل الأمر فيما يتصل بالمحافظة على الأشياء مماثل تماماً لما يتصل بالمحافظة على الأطفال.

على أن الناس يضيّعون في حالات أخرى أشياء لم تفقد شيئاً من قيمتها، ويكون دافعهم الأوحد إلى ذلك التضحية بشيء ما اتقاء لشر الحسود وتلافياً لفقدان شيء آخر أعزّ قيمة بكثير. ويدلّنا التحليل أن هذه الطريقة لتحاشي النحس واتقاء شر الأقدار لا تزال شائعة لدينا؛ ولهذا السبب يكون ضياع أشيائنا هو في كثير من الأحيان بمثابة تضحية متعمدة. وقد يكون ضياع الأشياء أيضاً تعبيراً عن تحدٍّ أو عقاب ذاتي. وخلاصة القول: عديدة لا تحصى هي الدوافع والحوافز البعيدة والعميقة للنزوع إلى التخلص من الأشياء بفقدها.

أما الخطأ في الحركة فكثيراً ما يكون، مثله مثل سائر الهفوات، وسيلة لتحقيق أمنيات يُفترض بالمرء أن يتبرأ منها. وفي هذه الحال تلبس النية لبوس المصادفة السعيدة. ومثال ذلك أن واحداً من أصدقائنا استقل القطار إلى ضواحي المدينة ليقوم بزيارة عن غير رغبة منه، لكنه أخطأ في محطة التبديل فأخذ القطار الذي يعيده إلى المدينة. وقد يرغب الإنسان أيضاً، أثناء رحلة له، في التوقف في محطة وسيطة، مع أن مثل هذا التوقف يتعارض والتزاماته الأخرى، فإذا به يفوته، كما لو مصادفة واتفاقاً، قطار التبديل، الأمر الذي يتيح له في محصلة الحساب أن

٧ ـ صانعة الملائكة: لقب كان يطلق بالألمانية قديماً على المرأة التي تدع عن عمد الطفل الموكول إليها أمرُ العناية به يموت صانعةً منه بالتالي «ملاكاً» . «م».



يقطع سفره. وأستطيع أيضاً أن أضرب لكم مثال مريض من مرضاي كنت قد نهيته عن الاتصال بعشيقته هاتفياً، فإذا به كلما شاء مكالمتي «يغلط» ويطلب «عن غير عمد» رقماً آخر هو بالتحديد رقم عشيقته. وهاكم أخيراً قصة فصيحة الدلالة رواها لنا أحد المهندسين، وتنطوي على أهمية عملية كبيرة من حيث أنها تجعلنا نلمس لمس اليد مقدمات إتلاف الإشياء بنتيجة لخطأ في الحركة:

«كنت أقوم، قبل فترة من الزمن، مع عدد من زملائي في المدرسة العليا بسلسلة من التجارب الشديدة التعقيد حول الانمغاط Elasticité، وهو عمل كنا قد تطوعنا بالقيام به مجاناً، لكنه بدأ يستنفد منا وقتاً أطول مما كنا نتوقع. وفيما أنا قاصد ذات يوم المختبر مع زميلي **ف**، صارحني ببرمه بما سيضيعه من وقت في ذلك اليوم، مع أن الأعمال التي تنتظره في بيته كثيرة. وما وسعني إلا أن أوافقه، وقلت له مازحاً وملمحاً إلى حادثة وقعت في الأسبوع المنصرم: «لنأمل أن تتعطل الآلة اليوم كما في المرة السابقة، فيتاح لنا أن نوقف العمل وننصرف في وقت مبكر!». ولدى توزيع العمل، كان من نصيب زميلي **ف** أن كُلِّف بضبط صمام المكبس، بحيث ينساب سائل الضغط من المركم إلى أسطوانة الضغط المائي ببطء وتؤدة. وكان المشرف على التجربة يقف قرب المانومتر[٨]، وكان عليه إذا ما وصل الضغط إلى الحدّ المطلوب أن يأمر بعالي صوته بالتوقف الفوري. فلما سمع **ف** بهذا الأمر، أمسك بالصمام وأداره بكل قوته... إلى اليسار (إن جميع الصمامات بلا استثناء تقفل بإدارتها إلى اليمين!). فكان من نتيجة ذلك أن كل ضغط المركم انتقل فجأة إلى المكبس، مما تعدى مقاومة الأنابيب، فانفجر لحام أحدها. لم تكن الحادثة ذات خطورة، لكنها أرغمتنا على وقف العمل وعلى الانصراف إلى بيوتنا. والغريب في الأمر أنه عندما تسنى لي بعد زمن غير طويل أن أتكلم مع صديقي **ف** عن الحادثة، زعم أنه لا يذكر شيئاً عن العبارة التي قلتها له يومئذ مازحاً، مع أنها انطبعت في ذاكرتي بعد وقوع الحادثة انطباعاً راسخاً».

إن حالات من أشباه هذه الحالة قمينة بأن تدخل الريب إلى نفوسكم بأنه

٨ ـ المانومتر: مقياس الضغط السائل. «م».



عندما تتحول أيدي خدّامكم في كثير من الأحيان إلى أعداء لما لديكم من آنية وأدوات في منزلكم، فإن ذلك ليس مردّه إلى الصدفة البريئة. بل في مقدوركم أيضاً أن تتساءلوا عما إذا كانت الصدفة هي المسؤولة الوحيدة على الدوام عن الأذى الذي ينزله الإنسان بنفسه أو عن الخطر الذي يعرّض له سلامته. ولعلكم واصلون إلى قطع ذلك الشك بيقين وإلى الإجابة عن هذا التساؤل متى ما قمتم بتحليل ما قد يتجمع لديكم من ملاحظات ومشاهدات.

مستمعيّ الأعزاء، إنني لم أستنفد كل ما يمكن أن يقال عن الهفوات. ولا تزال هناك نقاط كثيرة تستدعي الفحص والنقاش. ولكني لن أكون إلا مغتبطاً فيما لو تأكد لي أنني أفلحت، بالنزر اليسير الذي حدثتكم به، في زعزعة أفكاركم القديمة حول الموضوع الذي كنا بصدده، وفي تهيئتكم لتقبّل أفكار جديدة. أما بخصوص ما تبقى، فلست أشعر بتبكيت من ضمير إذا تركت الأشياء عند الحدّ الذي وصلنا بها إليه، من دون أن أمضي قدماً إلى الأمام في البحث. فأطروحاتنا لا تستمد أدلتها وبراهينها كلها من الهفوات وحدها، ولا شيء يرغمنا على حصر أبحاثنا بحيث لا نتناول سوى المواد التي توفرها لنا هذه الهفوات. والقيمة الكبرى للهفوات عندنا إنما تكمن في أنها متواترة ذائعة، وفي أن كل إنسان يستطيع أن يلاحظها بسهولة في نفسه، وفي أن وقوعها ليس مشروطاً بالضرورة بحالة مَرَضية. وأودّ أن أذكّركم، في الختام، بسؤال من أسئلتكم تركته بلا جواب حتى الآن: «إذا كان الناس قريبين غاية القرب من فهم الهفوات، ويتصرفون في كثير من الأحيان كما لو أنهم يدركون معناها، كما يتضح ذلك من كثير من الأمثلة، فكيف تبدو لهم هذه الظاهرات نفسها، بصفة عامة، عَرَضية وعادمة الدلالة والأهمية، ولماذا يبدون ما يبدونه من مقاومة إزاء تفسيرها على ضوء التحليل النفسي؟».

أنتم على حق: فهذه واقعة تبعث على العجب وتتطلب تفسيراً. لكن بدلاً من أن أقدّم لكم هذا التفسير جاهزاً، أؤثر أن أتقدم وإياكم في خطوات وئيدة متتالية كيما تتهيأ لكم المقدرة على الوصول إليه بأنفسكم، من دون حاجة إلى معونتي.




مكتبة
الفكر الجديد

القسم الثاني

الحلــم




مكتبة
الفكر الجديد

المحاضرة الخامسة

صعوبات ومقاربات أولى

سيداتي وسادتي، اكتشف أحدهم ذات يوم أن الأعراض المرضية لبعض العصبيين لها معنى[1]. وكان ذلك هو منطلق المعالجة التحليلية النفسية. وقد لوحظ أثناء هذه المعالجة أن المرضى يعدّون أحلامهم من جملة تلك الأعراض. ومن هنا اتجه الظن إلى أن هذه الأحلام تنطوي هي الأخرى، ولا بدّ، على معنى.

على أننا، بدل أن نتبع التسلسل التاريخي، سنبدأ عرضنا بطريق معكوس. فسوف نوضح، تمهيداً لدراسة الأعصبة Névroses، معنى الأحلام. وهذا القلب لتسلسل العرْض لا يبرره واقع أن دراسة الأحلام تشكل خير تمهيد لدراسة الأعصبة فحسب، بل كذلك واقع أن الحلم هو نفسه عرض عصابي، فضلاً عن أنه عرض يتميز بميزة نفيسة، إذ تمكن ملاحظته لدى الناس كافة، بمن فيهم الأصحاء منهم. والحق أنه حتى لو كان كل الناس أصحاء، وحتى لو كانت الأحلام هي أعراضهم الوحيدة، لأمكننا عن طريق دراسة هذه الأحلام أن نصل إلى عين النتائج التي نظفر بها عن طريق تحليل الأعصبة.

هكذا يغدو الحلم موضوعاً للبحث التحليلي النفسي. ولئن يكن الحلم، من حيث هو ظاهرة عادية لا يعلّق عليها الناس أهمية تذكر وغفل في الظاهر من كل قيمة عملية، يشابه الهفوات من حيث أنه يحدث لدى الأصحاء من الناس، فإنه يفترق عنها من حيث أن شروط البحث فيه لا تبدو مؤاتية. فالهفوات ما أصابها

---

١ ـ جوزف بروير، في السنوات ١٨٨٠ ـ ١٨٨٢. انظر بهذا الصدد المحاضرات التي ألقيتها في أميركا سنة ١٩٠٩ (انظر الترجمة العربية في: **خمسة دروس في التحليل النفسي**، وكذلك: **حول تاريخ الحركة التحليلية النفسية**. «م»).



من العلم إلا الإهمال، فما أولاها الناس اهتماماً يذكر، غير أن الاشتغال بها ما كان، على كل حال، مما يعيب المرء؛ ولئن قيل إن هناك ما هو أهمّ منها وأجدى، فإنه من الممكن على كل حال أن تمدنا الهفوات بمعطيات مفيدة. أما الإكباب على البحث في الأحلام فلم يكن يعتبر عملاً غير ذي قيمة ولا لزوم له فحسب، بل كان يعدّ أيضاً لهوة وتسلية معيبة: فهو شاغل مناهض للعلم ينمّ عند من يتعاطاه عن ميل إلى التصوف والروحانيات. فكيف للطبيب أن يقف نفسه على دراسة الحلم مع أن علم الأمراض العصبية وطبّ الأمراض النفسية يضعان في متناوله ظاهرات كثيرة أعظم خطورة بما لا يقاس: كتلك الأورام التي تضغط على عضو الحياة النفسية[٢] والتي تكون بحجم التفاحة أحياناً، أو حالات النزيف، أو الالتهابات المزمنة التي تتسبب في تشويهات في الأنسجة يمكن التحقق منها تحت المجهر! كلا! إن الحلم شيء غير ذي بال على الإطلاق، ولا يستأهل شرف البحث العلمي!

ثم إنه شيء يتعارض صفةً مع جميع مقتضيات العلم الدقيق، شيء لا يتوفر لدى الباحث بصدده أي يقين. فالفكرة الهذائية، مثلاً، تكون واضحة المعالم والحدود، إذ يقول المريض بعالي صوته: «أنا إمبراطور الصين». أما الحلم؟ الحق أنه يتعذر في أكثر الأحيان حتى أن يروى. ثم إنه حين يسرد أحدهم تفاصيل حلمه، فما الذي يضمن لنا صحة روايته، وما الذي يثبت لنا أنه لا يحرّف حلمه أثناء روايته له، وأنه لا يضيف إليه تفاصيل مختلقة، بالنظر إلى الشكّ الذي يكتنف تذكّره؟ وهذا من دون أن يغيب عنا أن أكثر الأحلام تعصى على التذكر، ولا يبقى منها في الذاكرة إلا نتف لا يعتدّ بها. أفعلى تأويل مثل هذه المواد نريد أن نؤسس علماً نفسياً علمياً أو طريقة في علاج المرضى؟

إن بعض الشطط في الحكم من شأنه دوماً أن يبعث فينا الريبة. ومن الواضح أن الاعتراضات على الحلم، كموضوع للبحث، تغلو غلوّاً شديداً. أفيقول أصحابها إن الأحلام عديمة الأهمية والدلالة؟ لقد سبق أن رددنا على اعتراض مماثل بصدد الهفوات. وقد قلنا عندئذ إن عظائم الأمور قد تكشف عنها أمارات زهيدة. أما

٢ ـ يقصد المخ. «م».



إبهام الأحلام فهو يشكل بالتحديد خاصية من جملة خصائصها، وليس لنا أن نملي على الأشياء الخاصية التي ينبغي أن تتبدى بها. ثم إن هناك أحلاماً واضحة محددة المعالم؛ وفضلاً عن ذلك، إن أبحاث الطب النفسي كثيراً ما تتناول أشياء تشكو من الإبهام نفسه، كما هي الحال في الكثير من الأفكار الهذائية التي لا يحجم مع ذلك أطباء الأمراض النفسية النابهون والجديرون بالاحترام عن الاهتمام بها. وأذكر بهذا الصدد آخر حالة عرضت لي في مزاولتي الطب. فقد صارحتني المريضة من البداية بما يلي: «أشعر كأني آذيت أو أردت إيذاء كائن حي.. أكان طفلاً؟ كلا، بل كلب بالأحرى. يخالجني شعور بأنني رميت به من أعلى جسر أو آذيته بطريقة أخرى». والحق أننا نستطيع أن نتلافى الضرر الذي قد ينشأ عن الريبة التي تكتنف الأحلام بمصادرتنا على أنه لا يجوز لنا أن نعدّ حلماً إلا ما يرويه الحالم، وعلى أنه يتعين علينا أن نضرب صفحاً عن كل ما يمكن أن يكون قد نسيه أو حرّفه في تذكره. وأخيراً، ليس مباحاً القول بصفة عامة إن الحلم ظاهرة عديمة الأهمية. فكل واحد يعرف بتجربته الخاصة أن الوضع النفسي الذي نصحو عليه من حلم حلمنا به يمكن أن يلازمنا طوال يوم بكامله. ويعرف الأطباء حالات بدأ فيها المرض النفسي بحلم واحتفظ فيها المريض بفكرة هذائية يكمن مصدرها في هذا الحلم. ومما يروى أن شخصيات تاريخية استمدت من الأحلام القوة التي اجترحت بها بعض المآثر والأعمال الباهرة. بوسعنا إذاً أن نتساءل عن المصدر الذي ينبع منه ذلك الازدراء الذي تحيط به الدوائر العلمية الحلم.

إن هذا الازدراء في رأيي ردّ فعل على الأهمية المغالى فيها التي خلعت عليه في غابر الأيام. صحيح أن تصور ما كان عليه الماضي ليس بالأمر السهل، لكن بوسعنا الافتراض بلا تردد أن أسلافنا وأجدادنا قبل ثلاثة آلاف عام أو أكثر كانوا يحلمون بمثل الطريقة التي نحلم بها اليوم. وقد عزت جميع الشعوب القديمة، في ما نعلم، قيمة كبرى إلى الأحلام وعدَّتها قابلة للاستعمال العملي. فقد وجدت فيها دلائل لاستطلاع المستقبل، والتمست فيها فألاً وطيرة. وما كان الإغريق والشعوب الشرقية ليتصوروا حملة عسكرية بلا مفسري أحلام، مثلما لا نتصور نحن اليوم حملة بدون وسائل الاستكشاف التي يوفِّرها الطيران. ويوم شرع



الإسكندر الأكبر بحملته الفاتحة، سيَّر في ركابه أشهر مفسري الأحلام في زمانه. فلما واجهته مدينة صور ـ وكانت لا تزال قائمة عصرئذ على جزيرة ـ بمقاومة ضارية، عزم على رفع الحصار عنها. إلا أنه رأى في منامه ساتيروساً[٣] يرقص رقصة من رقصات النصر، فلما استفسر عنه منجِّمه أكّد له أن تلك بشرى بنصر على المدينة. فأمر للحال بالهجوم، وتمّ الاستيلاء على المدينة. وكان الإترووريون[٤] والرومان يلجؤون إلى وسائل أخرى لاستطلاع المستقبل، لكن تفسير الأحلام ظلّ معمولاً به، بل راجح الكفة على امتداد العهد الإغريقي/ الروماني. أما ما كتب بصدده فلم يصلنا منه إلا المرجع الرئيسي لأرتيميدورس الأفسسي[٥]، ويقال إنه كتبه في عهد الإمبراطور هدريانوس[٦]. فكيف آل فن تأويل الأحلام إلى انحطاط، وزالت حظوة الحلم بالذات؟ هذا ما أعجز عن إجابتكم عنه. على أنه لا يمكن لنا أن نعتبر هذا الانحطاط وفقدان الحظوة نتيجة لتقدم المعرفة، إذ إن العصور الوسطى المظلمة احتفظت بأشياء أشد سخفاً بكثير من فن تأويل الأحلام القديم. والواقع أن الاهتمام بالأحلام انحطّ رويداً رويداً إلى درك الخرافة والأباطيل، ووجد ملاذه الأخير لدى الجهلة من الناس. ولعل آخر مظاهر سوء استعمال هذا الفن يتمثل في يومنا الحاضر في الرجوع إلى الأحلام لمعرفة الأرقام التي ستفوز في اليانصيب. وبالمقابل، أبدى العلم العصري الدقيق اهتماماً بالأحلام في أكثر من مرة، لكن هاجسه الدائم كان أن يطبّق عليها نظرياته الفيزيولوجية. وكان الأطباء بطبيعة الحال يرون في الحلم لا فعلاً نفسياً، بل مظهراً

٣ ـ الساتيروس: من أشباه الآلهة لدى الإغريق، رفيق باخوس. كان يُمثَّل يشعر مشعَّث وأذنين مدبَّبتين وقرنين صغيرين وساقي تيس. «م».

٤ ـ الإترووريون: سكان إترووريا القديمة التي تناظرها اليوم توسكانيا في وسط شبه الجزيرة الإيطالية. وكان الإغريق يطلقون عليهم اسم الصوريين. ولعلهم كانوا من أصول فينيقية. وكانوا على معرفة طبّية متقدمة بالنسبة إلى عصرهم. وقد انتموا إلى الدولة الرومانية في القرن الأول ق. م. «م».

٥ ـ مؤلف كتاب **تفسير الأحلام** في خمسة مجلدات، وهو أحد الذين رووا حلم الإسكندر السالف الذكر. وكان يعتقد أن الأحلام وحي من الآلهة واستباق للغيب. وقد نقل إسحق بن حنين كتابه إلى العربية بعنوان **كتاب تعبير الرؤيا**. «م».

٦ ـ هدريانوس: إمبراطور روماني (١١٧ ـ ١٣٨). خلف تراجانوس وشجّع الآداب والفنون وأصلح الإدارة وحمى الإمبراطورية من هجمات البرابرة. «م».



نفسياً لتنبيهات بدنية. وقد صرَّح بنز[٧] Binz في عام ١٨٧٩ أن الحلم «سيرورة جسمانية، عديمة الجدوى على الدوام، بل مَرَضية في كثير من الأحيان، وهي بالقياس إلى النفس الكلية وإلى الخلود كمثل البقعة الرملية التي غطّتها الأعشاب الضارة في منخفض من الأرض بالقياس إلى السماء الزرقاء التي تطلّ عليها من علٍ». وشبَّه موري[٨] Maury الحلم بالاختلاجات العادمة الاتساق في مرض الرقَص[٩] بالتعارض مع الحركات المتسقة للإنسان السويّ. وثمة تشبيه قديم يماثل الأحلام بالأصوات التي «يحدثها شخص جاهل بالموسيقى عندما يمرِّر أصابعه العشر على ملامس الآلة الموسيقية»[١٠].

إن التأويل يعني الاهتداء إلى معنى خفي، وهذا أمر لا مجال له بطبيعة الحال عندما يحطّ الإنسان من شأن الحلم إلى هذا الحدّ. اقرؤوا وصف الحلم لدى فونت Wundt[١١] ويودل Jodl[١٢]، وغيرهما من الفلاسفة المحدثين: إنهم

٧ ـ كارل بنز: طبيب ألماني (١٨٣٢ ـ ١٩١٣). اشتهر بأبحاثه الصيدلانية، وبخاصة في مجال الكينين. وله دراسات في تاريخ الطب. «م».

٨ ـ ألفريد موري: علامة فرنسي (١٨١٧ ـ١٨٩٢). درس علم الآثار واللغات القديمة والعربية، وشغل مناصب ثقافية رفيعة. من مؤلفاته: **الجنّيات في العصر الوسيط، وتاريخ الأساطير الدينية في العصر الوسيط، وتاريخ ديانات اليونان القديمة، والسحر والتنجيم في العصور القديمة والوسطى**. كما اشتهر بدراساته عن النوم والحلم مستبقاً فيها بعض نظريات التحليل النفسي، وتحديداً في كتابه **النوم والأحلام**. «م».

٩ ـ الرقَص: مرض عصبي يتميز بحركات لاإرادية وغير متسقة، ويعرف باسم خوريا (رقص باليونانية). ويقال له أيضاً رقص القديس غي. «م».

١٠ ـ الإحالة هنا إلى كتاب الفيلسوف والمربي الألماني لودفيغ فون ستومبل(١٨١٢ ـ ١٨٩٩): **طبيعة الأحلام وتكوينها**. وقد كان فرويد استشهد به أيضاً في كتابه **تفسير الحلم**. «م».

١١ ـ فلهلم فونت: فيلسوف وعالم نفس ألماني (١٨٣٢ ـ ١٩٢٠). مؤسس أول مخبر لعلم النفس التجريبي، وأول من اعتمد منهج الاستبطان. وكان أول من أدخل إلى علم النفس الجداول الإحصائية. من مؤلفاته: **مساهمات في نظرية الإدراك الحسي، مباحث حول آليات الأعصاب، علم النفس الاجتماعي، المنطق: استقصاء حول مبادئ المعرفة ومناهج البحث العلمي، الأمم وفلسفتها**، وأخيراً **الأسطورة والدين**. «م».

١٢ ـ فريدريش يودل: فيلسوف وعالم نفس ألماني (١٨٤٨ ـ ١٩١٤). اشتهر بالحملة التي شنّها في سبيل حرية العلم وضد سطوة الكنيسة الكاثوليكية على القطاع العام في النمسا. وكان في الفلسفة متابعاً للمذهب الوضعي كما قال به هيوم وجون ستيورات ملّ وأوغست كونت. من مؤلفاته: **تاريخ الأخلاق كعلم فلسفي، والأخلاق والدين والمدرسة، والعلم والدين**. «م».



يكتفون جميعهم بتعداد النقاط التي يختلف بها الحلم عن الفكر في حالة اليقظة، وبالتنويه بتفكك التداعيات وانتفاء الحسّ النقدي ومجانبة الحقيقة والواقع وسائر السمات الأخرى التي من شأنها أن تظهر للعيان مدى طفافة القيمة التي ينبغي عزوها إلى الأحلام. والمساهمة الوحيدة الثمينة التي أسهم بها العلم الدقيق في معرفة العلم تتصل بتأثير التنبيهات البدنية التي تحصل أثناء النوم على مضمون الأحلام. وقد ترك لنا مؤلف نرويجي توفّي حديثاً، وهو ج، مورلي ـ فولد (J.Mourly - Vold)[١٣]، مجلدين ضخمين من أبحاث تجريبية (ترجما إلى الألمانية في ١٩١٠ و١٩١٢) تكاد تدور كلها حول النتائج التي تترتب على تغيير وضع الأعضاء في أثناء النوم. وقد كيل الثناء لهذه الأبحاث باعتبارها نموذجاً للبحث الدقيق في موضوع النوم. ولكن ماذا سيقول العلم الدقيق لو تناهى إليه أننا نحاول كشف معنى الأحلام؟ لعله أبدى رأيه في هذا الموضوع سلفاً، لكننا لن نرتدع ونتراجع أمام حكمه هذا. فما دام للهفوات معنى، فليس ثمة ما يمنع أن يكون للأحلام أيضاً معنى. وبالفعل، إن لهذه الأخيرة في الكثير من الحالات معنى غاب عن البحث الدقيق. فلنأخذ إذاً بالحكم المسبق للقدماء ولعامة الناس، ولنقتفِ أثر مفسّري المنامات القدامى.

علينا قبل كل شيء أن نحدد موقع أقدامنا في ما نحن مقدمون عليه، وأن نستعرض ميدان الأحلام. فما الحلم؟ من الصعب الإجابة عن هذا السؤال بتعريف واحد. وما حاجتنا أصلاً إلى أن نأتي بتعريف ما دامت المادة موضوع البحث معروفة للجميع؟ على أنه يتعيَّن علينا أن نبرز للعيان الصفات الرئيسية للحلم. فأين نجدها؟ الحق أنها كثيرة هي هذه الفوارق، ومن كل شكل ولون، في داخل الإطار الذي يرسم حدود ميداننا! وعلى هذا، إن الصفات الرئيسية ستكون هي الصفات التي سيسعنا القول عنها إنها مشتركة بين الأحلام كافة.

والحال أن أولى الصفات المشتركة بين الأحلام كافة هي أننا نحلم ونحن نيام.

---

١٣ ـ جون مورلي ـ فولد: فيلسوف نرويجي (١٨٥٠ ـ ١٩٠٧). له أطروحة عن فلسفة سبينوزا ومجموعة دراسات عن الحلم. «م».



من الواضح إذاً أن الأحلام تمثل تظاهرة للحياة النفسية أثناء النوم. ولئن كانت هذه الحياة تشبه من بعض الوجوه الحياة في حالة اليقظة، فإنها تتصف أيضاً بفوارق لا يستهان بها. ذلك هو أصلاً ما كانه تعريف أرسطو للحلم[١٤]. ثم إنه من الممكن أن تكون بين الحلم والنوم علاقات أكثر وثاقة بعد. فغالباً ما يوقظنا من النوم حلم ما، وكثيراً ما نكون في حلم عندما نستيقظ بصورة عفوية أو عندما نُكره على الاستيقاظ إكراهاً. وعلى هذا النحو يتبدى الحلم وكأنه حالة وسطى بين النوم واليقظة. وهكذا نجدنا وقد ارتدّ بنا المطاف إلى النوم. فما النوم؟

تلك معضلة فيزيولوجية أو بيولوجية لا تزال موضوع أخذ وردٍّ شديدين وقابلة للمناقشة. وليس يسعنا أن نقطع برأي بصددها، لكني أرى أن من واجبنا أن نحاول تحديد سمات النوم من وجهة النظر السيكولوجية. فالنوم حالة لا يريد النائم أن يعرف أثناءها شيئاً عن العالم الخارجي، حالة ينسلخ فيها اهتمامه انسلاخاً تاماً عن هذا العالم. فأنا أغرق في النوم عندما أنسحب من العالم الخارجي وأتوقى من التنبيهات التي تأتيني منه. وأنا أنام أيضاً عندما أتعب من هذا العالم وتنبيهاته. وعندما أنام، أقول للعالم الخارجي: إليك عني، فأنا أريد أن أنام. أما الطفل فيقول على العكس: أنا لا أريد أن أنام بعد، أنا لست متعباً، وأريد أن أسهر أكثر. هكذا يبدو أن القصد البيولوجي من النوم هو الاستجمام والاستراحة، كما يكمن طابعه السيكولوجي في خمود الاهتمام بالعالم الخارجي. فالوضع الذي نكون عليه في هذا العالم الذي جئناه بغير مشيئتنا يجعلنا لا نطيق احتماله بصورة متصلة. ولهذا نعاود الغطس من جديد بين الحين والآخر في الحالة التي كنا عليها قبل أن نأتي إلى العالم، أي يوم كنا في باطن الرحم، أو نخلق لأنفسنا على الأقل شروطاً مماثلة تماماً لشروط تلك الحالة: دفء، ظلام، انعدام التنبيهات. وقد يتكوَّر بعضنا، فضلاً عن ذلك، على نفسه، ويجعل لجسمه أثناء النوم وضعاً مشابهاً لذاك الذي كان عليه وهو جنين في أحشاء الأم. فلكأننا لا ننتمي، حتى ونحن في سنّ الرشد، إلى العالم إلا بثلثي فرديتنا، ولكأننا في ثلثنا الثالث لم نولد بعد. وكلما استيقظنا صباحاً نكون، في هذه الشروط،

١٤ ـ في كتابه **حول الأحلام**. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.



كمن يولد مرة ثانية. أفلا نقول عن الحالة التي نكون عليها ونحن ننفض عنا غبار النوم: ألا ما أشبهنا بمولود جديد؟ وأغلب الظن أننا إذ نقول ذلك لا نخطئ خطأً بليغاً بصدد الإحساس العام الذي يساور الوليد، ويخلق بنا بالأحرى أن نفترض أن هذا الوليد يساوره شعور شديد بالضيق. أفلسنا نقول عن الوليد عندما يولد إنه قد رأى نور العالم؟

إن يكن النوم هو كما قلنا، فإن الحلم أبعد ما يكون عن أن يؤلف جزءاً أصيلاً منه، بل يبدو بالأحرى أنه أشبه ما يكون بضيف ثقيل عليه. ونحن نرى أن نوماً بلا أحلام هو النوم الأفضل، بل هو وحده النوم الحقيقي. ومن ثم لا يفترض أن يحدث أي نشاط نفسي أثناء النوم. ولئن حدث مع ذلك نشاط نفسي، فهذا معناه أننا لم ننجح في تحقيق حالة السكون الجنينية، وفي التخلص من آخر البقايا المتبقية من النشاط النفسي. وعليه، إن هذه البقايا هي هي الحلم. ومن ثم قد يحقّ لنا القول على هذا الأساس إن الحلم ليس بحاجة إلى أن يكون له معنى. وبخلاف ذلك هو أمر الهفوات التي هي عبارة عن أنشطة في حالة اليقظة. لكن عندما أخلد إلى النوم بعد أن أكون أفلحت في وقف نشاطي النفسي، خلا بعض بقايا، فلا موجب البتة لأن يكون لهذه البقايا من معنى. بل لن يكون في مستطاعي حتى أن أستخدم هذا المعنى، نظراً إلى أن الشطر الأكبر من حياتي النفسية يكون قيد النوم. والحق أن الأمر لا يمكن أن يكون هنا إلا محض ردود فعل في شكل اختلاجات أو تقلصات، أي محض ظاهرات نفسية ناجمة مباشرة عن تنبيه بدني. وبناء على هذا الفرض، لن تكون الأحلام سوىٍ بقايا من النشاط النفسي في أثناء حالة اليقظة، بقايا ليس من شأنها سوى أن تعكر صفو النوم. ولن يكون علينا بعد الآن، وبدون مزيد من التأخير، غير أن نتخذ قراراً بهجر هذا الموضوع باعتباره لا يدخل ضمن اختصاص التحليل النفسي.

لكن حتى على فرض أن الحلم غير ذي جدوى فإنه يبقى موجوداً، ومباح لنا بالتالي أن نلتمس لأنفسنا تفسيراً لوجوده هذا. لماذا لا تنام الحياة النفسية؟ أكبر الظن لأن ثمة شيئاً ما يحول بينها وبين سكونها. فثمة تنبيهات تنتابها وتفعل فيها، ولا مناص لها من أن تستجيب لها. إذاً فالحلم، على هذا



الأساس، هو الكيفية التي بها تستجيب النفس، في أثناء حالة النوم، للتنبيهات التي تتعرض لها. هنا نلمح مدخلاً إلى فهم الحلم. فبوسعنا أن نبحث، في شتى الأحلام، عن ماهية التنبيهات التي تنزع إلى تكدير صفو النوم والتي يستجيب لها النائم بالأحلام. وبذلك نكون قد استخلصنا أول صفة تشترك فيها الأحلام جميعاً.

هل هناك صفة مشتركة أخرى؟ بكل تأكيد، لكنها أصعب إدراكاً وأعزّ وصفاً بكثير. فالسيرورات السيكولوجية التي تحدث في أثناء النوم تختلف اختلافاً بيّناً عن تلك التي تحدث في حالة اليقظة. ففي النوم تقع لنا أحداث كثيرة نعتقد بصحتها، مع أنها قد لا تعدو أن تكون تنبيهاً يزعجنا. كما نشاهد بوجه خاص صوراً بصرية، قد تصاحبها أحياناً عواطف وأفكار وانطباعات متأتية من حواس أخرى غير البصر، لكن الغلبة تبقى على الدوام للصور. وعليه، إن الصعوبة التي نلاقيها في سرد حلم من أحلامنا ترجع، إلى حدّ ما، إلى كوننا ملزمين بترجمة الصور إلى كلمات. كثيراً ما يقول لنا صاحب المنام: بوسعي أن أرسم حلمي، لكنني أعجز عن روايته. وليس الحلم عبارة عن نشاط نفسي متقلص، كنشاط ضعيف العقل إذا قيس إلى نشاط الشخص العبقري: بل هو نشاط مختلف كيفاً، وإن عزّ علينا بيان وجه الاختلاف. وقد صاغ غ. ت فخنر Fechner[١٥] في بعض كتاباته فرضية مؤداها أن المسرح الذي تحدث فيه الأحلام (في النفس) ليس مسرح التمثلات والأفكار في حياتنا اليقظة. وهذا قول لا نفهمه، ولا ندري كيف نقيّمه، غير أنه يعبّر أحسن تعبير عن ذلك الانطباع بالغرابة الذي تتركه فينا أغلب الأحلام. أما تشبيه النشاط الذي يتظاهر في الأحلام بالأصوات التي تحدثها يد غير خبيرة بفن الموسيقى فلا يعود مفيداً لنا هنا على الإطلاق، لأن الآلة الموسيقية تُصدِر على الدوام أصواتاً متماثلة، وإن لم تكن بالضرورة متناغمة، كلما شاءت المصادفة لتلك اليد أن تمرر أصابعها على ملامسها. فلنبقِ إذاً هذه

١٥ ـ غوستاف تيودور فخنر: فيلسوف ألماني (١٨٠١ ـ ١٨٨٧). من مؤسسي الفيزياء النفسية. صاغ القانون المسمّى بقانون فيبر ـ فخنر الذي ينصّ على أن «الإحساس يتنوع بحسب لوغاريتم التنبيه». والإحالة هنا إلى كتابه **مبادئ الفيزياء النفسية**. «م».



السمة الثانية التي تشترك فيها الأحلام ماثلة أمام أذهاننا، وإن لم نفهمها حق الفهم.

هل هناك سمات مشتركة أخرى؟ لست أتبيَّن ذلك وما عدت أرى بوجه عام سوى فروق بصدد النقاط الأخرى طراً: فروق في ديمومة الحلم الظاهرية وفي درجة وضوحه، وأخرى في الدور الذي تلعبه فيه الانفعالات، والمثابرة، إلخ. وفي رأينا أن كل شيء يجري خلافاً لما هو متوقع فيما لو كان كل الأمر دفاعاً قسرياً، مؤقتاً، اختلاجياً ضد تنبيه من التنبيهات. أما فيما يتصل بطول الأحلام، فثمة أحلام قصيرة للغاية تتألف من صورة واحدة أو من بضع صور قليلة، ولا تشتمل إلا على فكرة واحدة أو كلمة واحدة؛ وثمة أحلام أخرى غنية كل الغنى بالمضمون، تدور أحداثها كما لو أنها روايات حقيقية، وتدوم طويلاً فيما يبدو. وهناك أحلام واضحة وضوح أحداث الحياة الواقعية، بل واضحة إلى حدّ نحتاج معه، حتى بعد يقظتنا، إلى بعض الوقت لكي ندرك أن الأمر لم يكن إلا حلماً؛ وهناك غيرها واهنة أشدَّ الوهن، مطموسة، مشوَّشة. بل من الأحلام ما يكون بعض أجزائه في منتهى الوضوح أحياناً، بينما يكون بعضها الآخر مبهماً إلى حدّ الاستغلاق. وثمة أحلام مشبعة بالمعنى، أو على كل حال متماسكة متلاحمة، بل منها ما يتشح بمسحة من الفكاهة أو من الجمال الخارق الأخاذ، بينما بعضها الآخر ملتبس، سخيف، عادم المعنى، بل مغرب شاذ. وثمة أحلام لا تحرك فينا ساكناً، وأخرى تستثير انفعالاتنا جميعاً، فيستبدّ بنا الألم إلى حدّ البكاء، ويهصرنا القلق فنفيق ونصحو، وتستولي علينا الدهشة، ويغشانا الانذهال، إلخ. وأغلب الأحلام لا تلبث أن تُنتسى بسرعة بعد الاستيقاظ؛ لكنها إذا أقامت في الذاكرة ولم تبرحها طوال اليوم كله، فإنها تخبو مع مرّ الساعات وتحدث فيها مع حلول المساء فجوات كبيرة؛ وبالمقابل، تظل أحلام أخرى، ومنها أحلام الأطفال على سبيل المثال، ثابتة في الذاكرة حتى ليسترجعها المرء بكل نصاعتها، بين جملة ذكرياته، بعد انقضاء ثلاثين عاماً، وكأنها انطباع حديث العهد. وبعض الأحلام، شأنها شأن الفرد من البشر، لا تحدث إلا لمرة واحدة، بينما بعضها الآخر يتواتر حدوثه لدى الشخص



عينه، إما كما هي طبق الأصل، أو مع تغييرات طفيفة فيها. مجمل القول: إن هذا النشاط النفسي الليلي الضئيل الأهمية يجد في متناوله ذخيرة هائلة وتتوفر له المقدرة على أن يعيد خلق كل ما تخلقه النفس في مجرى نشاطها النهاري، لكن من دون أن يطابقه أبداً.

قد نجد في أنفسنا ميلاً إلى تفسير جميع هذه الضروب من الحلم بأن نفترض أنها تناظر شتى الحالات الوسطى بين النوم واليقظة، وشتى درجات النوم غير الكامل. لكن لو كان الأمر كذلك فعلاً، لتعيَّن أن يدرك النائم بفطنة متزايدة، طرداً مع تعاظم أهمية الحلم واكتسابه مضموناً أغنى ووضوحاً أكبر، أنه بصدد حلم ليس إلا، لأن الحياة النفسية في هذا النوع من الأحلام تقترب غاية القرب مما هي عليه في حالة اليقظة. ولكان استحال بوجه خاص أن يرى النائم، إلى جانب الأجزاء الواضحة المعقولة من الحلم، أجزاء أخرى يعوزها الوضوح وتفتقر إلى المعنى، متبوعة بأجزاء واضحة جديدة أخرى. ولو أخذنا بالتفسير المتقدم بيانه نكون قد عزونا إلى الحياة النفسية القدرة على تغيير عمق نومها بسرعة وسهولة لا تتفقان مع الواقع. بوسعنا القول إذاً إن هذا التفسير لا يستقيم. وليست الأمور، بوجه عام، بمثل هذه البساطة.

سنمسك مؤقتاً عن نشدان «معنى» الحلم لنحاول، انطلاقاً من الصفات المشتركة للأحلام كافة، أن نفهم هذه الأخيرة فهماً أفضل. لقد كنا استنتجنا من العلاقات القائمة بين الأحلام وبين حالة النوم أن الحلم استجابة لتنبيه معكِّر لصفو النوم. وهذه، في ما نعلم، النقطة الوحيدة التي يمكن لعلم النفس التجريبي أن يعيننا على فهمها، بما يقدمه لنا من برهان على أن التنبيهات التي تعرَّض لها النائم تظهر في حلمه. ولنا اطلاع على الكثير من الأبحاث التي أجريت حول هذه المسألة، بما فيها أبحاث مورلي ـ فولد التي أشرنا إليها آنفاً، وقد سنحت الفرصة لكل واحد منا للتحقق من صحة هذا الاستنتاج بملاحظاته الشخصية. وسأسوق إليكم أمثلة من بعض هذه التجارب، أختارها من بين أقدمها. وقد أجرى مورلي بعضاً منها على شخصه بالذات. فقد طلب إلى معاونيه أن ينشقوه في نومه ماء الكولونيا، فرأى في منامه أنه موجود في القاهرة، في محل جان ـ ماريا



فارينا[١٦]، وتبع ذلك جملة من مغامرات عجيبة غريبة. كما طلب إليهم أن يقرصوه قرصاً خفيفاً في رقبته، فحلم للحال بلزقة وبطبيب كان قد عالجه في طفولته. وأخيراً كلّفهم بأن يسكبوا قطرة ماء على جبينه، فرأى في منامه أنه موجود في إيطاليا، وأنه يعرق عرقاً كثيراً ويحتسي نبيذ أورفييتو الأبيض[١٧].

إن ما يسترعي الانتباه في هذه الأحلام المصطنعة تجريبياً قد يتبدى لنا بمزيد من الوضوح والجلاء بعد في طائفة أخرى من الأحلام الناشئة عن تنبيهات. وهي أحلام ثلاثة رواها مراقب حصيف، هو السيد هيلدربرانت Hildebrandt[١٨]، وتؤلف ثلاثتها استجابات لصوت صادر عن ساعة منبهة:

«إني أتنزه في صباح يوم ربيعي، وأطوف بالحقول، إلى أن أصل إلى القرية المجاورة، فأرى سكانها في ثياب العيد يتجهون زرافات صوب الكنيسة، وفي أيديهم كتاب الصلوات. اليوم، بالفعل، يوم أحد، وعما قليل سيقام أول قداس. عزمت على حضوره، لكن نظراً إلى حرارة الجو الخانقة دلفت إلى المقبرة المحيطة بالكنيسة التماساً للراحة. وفيما أنا مستغرق في قراءة ما كتب على شواهد القبور، سمعت صوت قارع الناقوس وهو يصعد إلى برج الجرس، ولمحت في قمة البرج جرس القرية الصغير الذي سيعلن عما قليل عن بدء الصلاة. وبقي الجرس ساكناً لهنيهة أخرى، ثم شرع يهتز، وعلى حين بغتة صارت دقاته واضحة، حادة الصوت، فوضعت حداً لنومي. كانت الساعة المنبِّهة هي التي أطلقت جرسها.

«مشهد آخر. يوم صاحٍ من أيام الشتاء. الطرقات تغطيها طبقة سميكة من الثلج. مفروض بي أن أشارك في نزهة في الزلاجة، لكنني مضطر إلى الانتظار ملياً قبل إبلاغي بأن الزلاجة أمام الباب. قبل أن أصعد إليها، أعدّ أغراضي: ألبس عباءتي المبطنة بالفرو، وأضع مدفأة القدمين. وأخيراً أتخذ مكاني في الزلاجة.

١٦ ـ جان ماريا فارينا: كيميائي إيطالي(١٦٨٥ ـ ١٧٦٦). اخترع طريقة في تحضير ماء الكولونيا أصابت شهرة عالمية، وما زالت دارجة إلى اليوم. «م».

١٧ ـ نبيذ إيطالي مشهور من إنتاج مدينة أورفييتو. «م».

١٨ ـ ف. و. هيلدربرانت: كاتب ألماني. مؤلف **الحلم واستخدامه برسم الحياة** الصادر عام ١٨٨١. «م».



تأخير جديد، فعلى الخيل أن تنتظر إشارة الإيذان بالسير من الأعنة. وأخيراً تشرع الأحصنة بالتحرك، وتهتز الجلاجل اهتزازاً شديداً، فتدوِّي موسيقاها الانكشارية المعروفة بعنف يمزِّق للحال خيوط شبكة الحلم. ولم يكن ذلك، هذه المرة أيضاً، إلا رنين جرس الساعة المنبهة.

«مثال ثالث. أرى خادمة مطبخ تتجه عبر الممشى نحو قاعة الطعام، وقد حملت كدسة من الأطباق المتناضدة. وبدا لي العمود الخزفي الذي تحمله في خطر من أن يختلّ توازنه. فصحت بها: حذارك، فكل حملك على وشك أن يسقط أرضاً. فجاءني جوابها بأنها قد اعتادت على عملها، إلخ؛ غير أن ذلك لم يمنعني من تتبع الخادمة بعين قلقة. وها هي، بالفعل، تتعثر بعتبة الباب، فتهوي الآنية العطوب، وتنتشر على الأرض شظاياها بقرقعة تصمّ الآذان. لكنني سرعان ما أتبيَّن أن الضوضاء مستديمة، وليست قرقعة بملء المعنى، بل رنين جرس حقيقي. وعندما استيقظت تأكد لي أنه جرس الساعة المنبهة».

هذه الأحلام بديعة، مليئة بالمعنى، وبخلاف أغلب الأحلام متماسكة متلاحمة. فلا مأخذ لنا عليها البتة. والسمة المشتركة بينها تتمثل في أن الموقف ينتهي فيها جميعاً بضوضاء يثبت فيما بعد صدورها عن جرس الساعة المنبهة. هكذا نعرف كيف يحدث الحلم. لكننا نعرف أيضاً شيئاً آخر. فالحالم لا يتعرف جرس الساعة المنبهة (وهذه لا تظهر أصلاً في الحلم)، لكنه يستبدل رنينه بضوضاء أخرى، ويؤوِّل في كل مرة التنبيه المقلق للنوم تأويلاً مغايراً. لماذا؟ ليس عن هذا من جواب: فكأن الأمر محض اتفاق ومصادفة. لكن فهمنا الحلم يعني بالتحديد قدرتنا على أن نفسر لماذا يختار الحالم ضوضاء بعينها، دون غيرها من أنواع الضوضاء، ليؤول بها التنبيه الموقظ من النوم. وبوسعنا أيضاً الاعتراض على أحلام موري بما يلي: فلئن كنا نفهم لماذا يتظاهر التنبيه في الحلم، فإننا لا نفهم لماذا يتظاهر تحديداً في شكل معطى بعينه لا ينبع البتة من طبيعة التنبيه. أضف إلى ذلك أن المفعول المباشر للتنبيه في أحلام موري ترتبط به طائفة من مفاعيل ثانوية، كتلك المغامرات العجيبة الغريبة في الحلم الذي استثاره ماء الكولونيا، وهي مغامرات يتعذر تفسيرها.



أرجو أن تلاحظوا أن الأحلام التي تؤدي إلى الاستيقاظ هي التي تتيح لنا أكثر الفرص لإيضاح تأثير التنبيهات القاطعة للنوم. أما في أغلب الحالات الأخرى، فالأمر أصعب بكثير. فنحن لا نستيقظ دوماً في إثر كل حلم. وحتى لو تذكرنا في الصباح حلم الليل، فكيف لنا أن نهتدي إلى التنبيه الذي ربما فعل فعله أثناء النوم؟ لقد أفلحت مرة، لكن بفعل ظروف خاصة بطبيعة الحال، في تعرُّفِ تنبيهٍ صوتيٍّ من هذا القبيل بعد الحلم. فقد استيقظت ذات صباح في منتجع مرتفع في جبال التيرول[١٩] موقناً بأني رأيت في منامي أن البابا قد مات. وكنت منهمكاً بيني وبين نفسي في محاولة تفسير هذا الحلم حين سألتني زوجتي: «هل سمعت عند الفجر ذلك الرنين الباهر عندما راحت جميع الكنائس والمزارات تقرع أجراسها؟». كلا، لم أسمع شيئاً من هذا، لأني كنت مستغرقاً في نوم عميق. لكن سؤالها ذاك هو الذي أتاح لي أن أفهم منامي. كم من مرة يمكن لتلك التنبيهات أن تحمل النائم على أن يحلم من دون أن يتأتى له فيما بعد أن يعلم أي شيء من أمرها؟ ربما مرات كثيرة وربما لا. فعندما تتعذر إمكانية البرهان على التنبيه، تتعذر أيضاً إمكانية معرفة أي شيء بصدده. وما علينا أصلاً أن نطيل الوقوف لمناقشة قيمة التنبيهات الخارجية من منظور ما تحدثه من اضطراب في النوم، وذلك ما دمنا نعلم أنها غير قادرة إلا على تفسير جانب طفيف فقط من الحلم، لا على تفسير كل الاستجابة التي تكوِّن الحلم.

لكن هذا ليس سبباً لإهمال كل هذه النظرية، القابلة أصلاً للتطوير. وفي الواقع، ليس من أهمية كبرى للعلة التي ترنّق النوم وتحفز على الأحلام. فعندما لا تأتي هذه العلة من تنبيه حسّي خارجي المصدر، فقد تكون نابعة من تنبيه حشوي صادر عن أعضاء داخلية. وهذا الافتراض الأخير يبدو مرجحاً جداً، ويتمشى مع التصور الشعبي بصدد حدوث الأحلام. فكثيراً ما تسمعون الناس يقولون إن الأحلام تأتي من المعدة. لكن من الممكن هنا أيضاً، لسوء الحظ، أن يفعل تنبيه حشوي فعله في أثناء الليل ثم لا يترك أثراً في الصباح، وبذا يستحيل بيان طبيعته. غير أننا لا نريد أن نضرب صفحاً عن التجارب الثابتة والعديدة

١٩ ـ التيرول: منطقة جبلية للتزلج والاصطياف في جنوب النمسا، من أهم مدنها إنسبروك. «م».



التي تؤيد فرضية ارتباط الأحلام بالتنبيهات الباطنة.

فمما لا جدال فيه، بوجه عام، أن حالة الأعضاء الباطنة من شأنها التأثير على الأحلام. وليس لنا أن نتجاهل الصلات القائمة بين مضمون بعض الأحلام، من جهة أولى، وبين تراكم البول في المثانة أو تهيج الأعضاء التناسلية، من الجهة الأخرى. غير أن هناك، إلى جانب هذه الحالات الواضحة البيّنة، حالات أخرى يكون فيها تأثير التنبيه الباطن على مضمون الحلم موضع احتمال وتخمين فحسب، على اعتبار أن هذا المضمون ينطوي على عناصر يمكن اعتبارها صياغة أو تمثيلاً أو تأويلاً لتنبيه من هذا النوع.

لقد ألح شرنر Scherner[٢٠]، وكان قد اهتم كثيراً بالأحلام (١٨٦١)، إلحاحاً خاصاً على هذه العلاقة السببية بين التنبيهات الصادرة عن الأعضاء الباطنة وبين الأحلام، وساق أمثلة كثيرة في تأييد أطروحته. فحين يرى، على سبيل المثال، «صفَّين من أولاد ملحاء، شقر الشعور، رهاف اللون، يتواجهون في موقف صراعي، وينقضّون على بعضهم بعضاً، ويمسك واحدهم بتلابيب الآخر، ثم يفترقون ليعودوا إلى مواقعهم الأولى، ثم ليعودوا ثانية إلى القتال»، فإن أول تأويل يخطر بباله هو أن صفّي الأولاد تمثيل رمزي لصفّي الأسنان. وقد تأكد هذا التأويل لما وجد الحالم نفسه، بعد هذا المشهد، في حاجة إلى «اقتلاع سنّ كبيرة من فكه». ومعقول هو الآخر التفسير الذي يعزو إلى تهيُّج معويٍّ الحلم الذي رأى فيه المؤلف «دهاليز طويلة، ضيقة، ملتفة». وبوسعنا التسليم مع شرنر بأن الحلم يسعى قبل كل شيء إلى تمثيل العضو الذي يرسل التنبيه بأشياء تشابهه.

لا يجوز لنا إذاً أن نأبى الإقرار بأن التنبيهات الباطنة من شأنها أن تلعب دوراً مماثلاً لذاك الذي تلعبه التنبيهات الآتية من الخارج. ومن دواعي الأسف أن تأويلها لا يسلم من الاعتراضات عينها. ففي عدد كبير من الحالات يكون التأويل بتنبيه باطن موضع شك أو متعذراً البرهان عليه؛ ثم إن بعض الأحلام، وليس كلها،

٢٠ - كارل ألبرت شرنر: عالم نفس ألماني (١٨٢٥ - ١٨٨٩). أكد على الدلالة الرمزية للأحلام في كتابه: **حياة الحلم**. «م».



هي التي تسمح بتخمين الدور الذي تلعبه فيها التنبيهات المنطلقة من عضو باطن؛ وأخيراً، إن تنبيه العضو الباطن، شأنه في ذلك شأن التنبيه الحسّي الخارجي، لا يفسِّر من الحلم إلا ما يناظر الاستجابة المباشرة للتنبيه، ويدعنا في شك وريب بصدد مصدر الأجزاء الأخرى من الحلم.

على أن دراسة التنبيهات الباطنة تلفت نظرنا إلى خاصية أخرى من خصائص الحلم. فالحلم لا يمثل التنبيه كما هو، بل يحوِّله ويكني عنه ويدرجه في سياق خاص ويستبدله بشيء آخر. هذا الجانب من الصياغة التي تتمّ أثناء الحلم يجب أن يحظى منا بالاهتمام، لأن أخذنا إياه بعين الاعتبار يتيح لنا المزيد من الفرص للاقتراب مما يؤلف ماهية الحلم. فنحن عندما نفعل شيئاً من الأشياء تحت تأثير ظرف محدد، فإن هذا الأخير لا يستوعب كل محتوى الفعل. فـ«**مكبث**» شكسبير مسرحية ظرفية، كتبت بمناسبة اعتلاء ملك كان أول من جمع فوق رأسه تيجان ثلاثة بلدان. ولكن هل يستوعب هذا الظرف التاريخي مضمون المسرحية، وهل يفسر عظمتها وألغازها؟ من المحتمل إذاً ألا يكون للتنبيهات الخارجية والداخلية التي تؤثِّر في النائم من دور سوى أن تعطي الحلم إشارة البدء، ولكن من دون أن تكشف لنا عن شيء من ماهيته.

أما السمة الأخرى المشتركة بين الأحلام جميعاً، أعني خصوصيتها النفسية، فيصعب، من جهة أولى، فهمها إلى حدٍّ كبير، ولا تقدِّم، من الجهة الثانية، أي مرتكز لأبحاث لاحقة. وفي أكثر الأحيان يكون للأحداث التي يتألف منها الحلم شكل بصري. فهل تقدم التنبيهات تفسيراً لهذه الواقعة؟ وهل ما نشاهده في الحلم هو حقاً التنبيه الذي وقعنا تحت تأثيره؟ ولماذا يكون الحلم بصرياً، مع أن التنبيهات البصرية لا تستثيره إلا في حالات نادرة أشدّ الندرة؟ وحتى عندما يدور حلمنا حول محادثة أو خطاب، فهل في مقدورنا أن نثبت أن محادثة ما، أو أي ضوضاء أخرى، قد طرقت آذاننا أثناء نومنا؟ إنني أبيح لنفسي أن أردّ هذا الفرض رداً قاطعاً بلا تردد.

ما دامت السمات المشتركة بين الأحلام كافة لا تعيننا على فهم هذه الأحلام، فلعلنا نكون أكثر توفيقاً لو يمَّمنا شطر الاختلافات التي تفرِّق بينها.



فالأحلام في كثير من الأحيان غفل من المعنى، مشوشة، مختلطة، لامعقولة، لكنّ هناك أيضاً أحلاماً مشبعة بالمعنى، واضحة، معقولة. فلننظر إن كان بوسع هذه أن تفسِّر تلك. سأطلعكم لهذا الغرض على آخر حلم معقول روي لي، وهو حلم حلم به أحد الشبان: «فيما كنت أتنزه في شارع كارنتنر[٢١]، التقيت بالسيد س، فسايرته بضع خطوات ثم قصدت بعد ذلك المطعم. فقدِم سيد وسيدتان للجلوس إلى طاولتي. فضايقني ذلك في بادئ الأمر، ولم أشأ أن أنظر إليهم. وفي النهاية سددت نظري نحوهم فرأيت أنهم في غاية من الأناقة». وقد لاحظ الحالم بهذا الصدد أنه كان يسير فعلاً ليلتئذ في شارع كارنتنر الذي اعتاد المرور به، وقد التقى فيه فعلاً السيد س. أما الجزء الآخر من الحلم فلم يصدر عن ذكرى مباشرة، بل كان يشبه إلى حدّ ما حادثة وقعت في زمن سابق. هاكم أيضاً حلماً آخر من هذا النوع، وقد حلمت به سيدة. فقد سألها زوجها: «ألا ينبغي أن نرسل البيانو إلى المصلِّح ليشدّ أوتاره؟»، فأجابته بقولها: «لا فائدة من ذلك، فلا بدّ على كل حال من تغيير غطائه الجلدي». إن هذا الحلم يصوِّر محادثة مشابهة جرت بينها وبين زوجها في النهار السابق للحلم. بمَ يفيدنا هذان الحلمان البسيطان؟ يفيداننا بأن بعض الأحلام تمثِّل استعادة لأحداث من حياة اليقظة أو لمشاهد تتصل بهذه الأحداث. وهذه نتيجة ذات وزن فيما لو كان في مقدورنا أن نقول الشيء عينه عن الأحلام كلها. لكن ليس كذلك واقع الحال، والاستنتاج الذي استنتجناه لا ينطبق إلا على عدد ضئيل جداً من الأحلام. ففي أكثر الأحلام لا نقع على شيء يتصل بحالة اليقظة، وبذلك نبقى على جهلنا فيما يتعلق بالعوامل التي تنشأ عنها الأحلام المتناقضة واللامعقولة. وكل ما نعلمه أنه تواجهنا هنا معضلة جديدة. فما نريد أن نعرفه الآن ليس ما يعنيه الحلم فحسب، بل كذلك، وعندما يكون معناه واضحاً كما في الحلمين اللذين استشهدنا بهما، لماذا ولأي غرض يعيد الحلم تمثيل أحداث معروفة لنا ولم يمضِ زمن يذكر على وقوعها؟

أرجح الظن أنكم سئمتم، مثلما سئمت أنا، من المضيّ في هذا النوع من المباحث. فمهما نبذل من اهتمام بمشكلة من المشكلات، يبقَ غير كافٍ ما دمنا

٢١ ـ أهم الشوارع التجارية في فيينا. «م».



نجهل ما الاتجاه الذي ينبغي أن نسلكه طلباً لحلّها. وعلم النفس التجريبي لا يزوِّدنا إلا ببعض المعطيات الطفيفة، وإن تكن في الحق ثمينة، حول دور التنبيهات في استثارة الأحلام. أما الفلسفة فليس لنا أن نتوقع من طرفها إلا أن تقابل موضوعنا بالازدراء باعتباره عديم الأهمية فكرياً. وأخيراً، نحن لا نريد أن نقبس شيئاً من معين علوم الغيب. أما التاريخ وحكمة الشعوب فيعلماننا أن للحلم معنى، وأنه ذو أهمية، وأنه يستبق المستقبل، وهذا مما يصعب علينا قبوله كما يتعذر البرهان عليه. وهكذا يكون مجهودنا الأول قد آل إلى فشل ذريع.

لكن خلافاً لكل ما هو متوقع، يأتينا العون من جهة لم نفكر بها بعد. فاللغة، التي لا تدين بشيء للمصادفة، والتي تؤلف على العكس مستودعاً تتبلور فيه المعارف المتراكمة (وإن يكن من غير الجائز الغرف منه بلا تحفظ ولا احتياط)، نقول إن هذه اللغة تعترف بوجود «أحلام يقظة»، وهي نوع من الأخاييل، ظاهرات عامة وشائعة تلحظ لدى الأسوياء كما لدى المرضى من الناس، وفي مقدور كل واحد منا أن يدرسها بسهولة على نفسه. وما يميِّز بوجه الخصوص منتجات المخيِّلة هذه أنها سُمِّيت باسم «أحلام يقظة»، وهي بالفعل لا تتسم بأي من السمتين المشتركتين بين الأحلام بحصر المعنى. فأحلام اليقظة، كما يشير اسمها، لا صلة لها على الإطلاق بحالة النوم، وهي ليست، من منظور السمة المشتركة الثانية، أحداثاً ووقائع، ولا هلوسات، وإنما هي بالأحرى تصورات وتمثلات: فالمرء يعرف أنه يتخيَّل، وأنه لا يرى، بل يفكر. وتظهر هذه الأحلام قبل سن البلوغ، بل كثيراً ما تبدأ مع الطفولة الثانية، وتزول في سن الرشد والنضج، ولكنها قد تدوم أحياناً حتى أرذل العمر. ويهيمن على مضمون منتجات الخيال هذه تحفيز بالغ الشفافية. فهي مشاهد وحوادث تجد فيها أنانية الحالم وطموحه وحاجته إلى القوة والسلطان ورغبته الإيروسية تلبية وإشباعاً. ولدى الشبان تكون الغلبة لأحلام الطموح، أما لدى النساء اللائي يركِّزن كل طموحهن على التوفيق في الحب فتحتل مكانة الصدارة الأحلام الإيروسية. لكن كثيراً ما تقبع الحاجة الإيروسية أيضاً خلف أحلام الذكور: فكل النجاحات والمآثر البطولية التي يجترحها هؤلاء الحالمون لا هدف لها ولا غاية غير أن تعود عليهم

بإعجاب النساء ورضاهن. وفيما عدا ذلك، تكون أحلام اليقظة بالغة التنوع، ومصائرها متباينة. فمنها ما يُنذر بعد وقت قصير ليستبدل بغيره، ومنها ما يحافَظ عليه ويُطوَّر بحيث يؤلف قصصاً طويلة ويتكيَّف مع تبدلات ظروف الحياة. فهي تساير، إن صحّ التعبير، الزمن، فيسمها بميسمه الذي يشهد على أثر الوضع المستجدّ. وهي المادة الخام للإنتاج الشعري؛ فمؤلف الأعمال التخيُّلية يخلق، بما يدخله على أحلام يقظته من تحوير وتنكير واختصار، المواقف التي يضمِّنها رواياته أو قصصه أو مسرحياته. بيد أن البطل في أحلام اليقظة هو على الدوام الحالم نفسه، إما بصورة مباشرة وإما عن طريق التماهي الشفاف مع شخص آخر.

لعل أحلام اليقظة سُمِّيت بهذا الاسم لأنه لا يجوز اعتبارها، فيما يتصل بعلاقاتها بالواقع، أكثر واقعية من الأحلام بحصر المعنى. ولعل هذا الاشتراك في التسمية يرتكز أيضاً إلى خاصية نفسية لا نعرفها بعد، وإن كنا نبحث عنها. ومن الممكن أيضاً أن نكون على خطأ من أمرنا إذ نعزو أهمية ما إلى هذا الاشتراك في الاسم. وهذه جميعها مشكلات لا سبيل إلى الفصل فيها إلا في محاضراتنا التالية.


مكتبة
الفكر الجديد

المحاضرة السادسة

منطلقات التأويل وتقنيته

سيداتي وسادتي، نحن بحاجة إذاً، كيما نتقدم بأبحاثنا حول الحلم، إلى طريق جديد، إلى منهج جديد. وسأقترح عليكم بهذا الصدد اقتراحاً بسيطاً للغاية. لنسلِّم، في كل ما سيلي، بأن الحلم ظاهرة نفسية، لا بدنية. وأنتم تعرفون ما معنى هذا، لكن ما الذي يأذن بهذا الفرض؟ لا شيء، لكن لا شيء أيضاً يحول دون قبولنا به. وخلاصة الأمر كما يلي: إن يكن الحلم ظاهرة بدنية، فهو لا يثير اهتمامنا. وليس له أن يثير اهتمامنا إلا في حال تسليمنا بأنه ظاهرة نفسية. لذا سنعمل على أساس الافتراض بأنه كذلك فعلاً، لنرى ما يمكن أن يتمخض عنه عملنا في هذه الشروط. وبحسب النتيجة التي سنحصل عليها، سنحكم إن كان يتعيَّن علينا أن نتمسك بفرضنا وأن نتبناه بدوره كنتيجة مستخلصة من مقدمات سليمة. وبالفعل، إلامَ نطمح ولأي هدف نعمل؟ هدفنا هو هدف العلم بوجه عام: فنحن نريد أن نفهم الظاهرات، أن نربطها بعضها ببعض، وفي المقام الأخير أن نزيد بقدر المستطاع من سلطاننا عليها.

سنمضي إذاً في عملنا مفترضين أن الحلم ظاهرة نفسية. لكن الحلم على أساس هذا الفرض نشاط للحالم، نشاط لا يفيدنا شيئاً ولا نفهمه. والحال ماذا أنتم فاعلون لو صدر عني شيء لا تفهمونه؟ ستتوجهون إليّ بالسؤال، أليس كذلك؟ فلمَ لا نفعل هذا مع الحالم؟ **لمَ لا نسأله عن معنى حلمه؟**

تذكروا أننا واجهنا من قبل وضعاً كهذا. كان ذلك في معرض تحليلنا بعض الهفوات، وعلى وجه التحديد فلتة لسان. فقد قال أحدهم: «عندئذ **انكشرت** أمور كثيرة»[1].

---

١ ـ انظر المحاضرة الثالثة. «م».



عندما سألناه... كلا، لحسن الحظ، لسنا نحن من سأل، وإنما أشخاص آخرون، غرباء عن التحليل النفسي، هم الذين سألوه ماذا يقصد بتلك العبارة اللامفهومة، فأجاب أنه كان يقصد أن يقول: «عندئذ انكشفت أمور **شريرة**». لكن هذا القصد كبحه قصد آخر، أكثر اعتدالاً: «عندئذ انكشفت أمور كثيرة». غير أن القصد الأول، المكبوح، جعله يستبدل في عبارته كلمة **انكشفت** بكلمة **انكشرت** التي لا معنى لها، والتي تنمّ مع ذلك عن تقييمه التحقيري «للأمور الكثيرة». وقد شرحت لكم أن هذا التحليل هو بمثابة أنموذج لكل بحث تحليلي نفسي، ولعلكم تدركون الآن لماذا يأخذ التحليل النفسي بالتقنية التي تقتضي أن يقوم الشخص المحلَّل نفسه، بقدر الإمكان، بفكّ ألغازه. وعلى هذا، إنه يتعيَّن على الحالم بدوره أن ينبئنا بما يعنيه حلمه.

بيد أننا نعلم أن الأمور في الحلم ليست بمثل هذه البساطة. ففي الهفوات واجهنا أول الأمر عدد من الحالات البسيطة، ثم واجهتنا حالات أخرى كان فيها الشخص المستجوَب يأبى أن يتفوه بشيء، بل ينكر حانقاً الجواب الذي نقترحه عليه. والحالات الأولى لا وجود لها بتاتاً في الأحلام: فالحالم يقول دوماً إنه لا يعرف شيئاً. كما أنه لا يستطيع أن يردّ تأويلنا، فليس لدينا أصلاً تأويل نعرضه عليه. ألِزام علينا إذاً أن نقلع من جديد عن محاولتنا؟ فإن كان الحالم لا يعرف شيئاً، وإن كنا لا نملك نحن أنفسنا أي معلومات، وإن كان أي شخص ثالث لا يملك من العلم أكثر مما نملك، فهل لنا إذاً من أمل في أن نعرف شيئاً؟ على رسلكم، أقلعوا أنتم، إن شئتم، عن المحاولة. لكن إن كنتم تحرصون على الاستمرار فيها، فما عليكم إلا أن تتبعوني. فأنا أقول لكم إنه من المحتمل جداً، بل من المرجح، أن الحالم يعرف، بالرغم من كل شيء، ما يعنيه حلمه، ولكن بما أنه **لا يعرف أنه يعرف، فإنه يتصور أنه به جاهل.**

ستلفتون نظري بهذا الصدد إلى أني أصوغ هنا فرضاً جديداً، هو الثاني منذ بدء بحوثنا حول الأحلام، وإلى أنني بهذا أنتقص انتقاصاً كبيراً من قيمة منهجي. فقد كان الفرض الأول أن الحلم ظاهرة نفسية. أما الفرض الثاني فأنه تحدث في الإنسان أحداث نفسية لا يعرف أنه يعرفها، إلخ. وستقولون لي: حسب المرء أن



يأخذ بعين الاعتبار بُعدَ احتمالِ هذين الفرضين حتى يفقد كل اهتمام بالنتائج التي يمكن أن تُستخلص منهما.

أجل، سيداتي سادتي، لم أدْعُكم إلى الحضور هنا لأميط لكم اللثام أو لأخفي عنكم شيئاً أياً كان. بل أعلنت فقط عن سلسلة محاضرات بعنوان: **محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي**، الأمر الذي لا يترتب عليه البتة أنه في نيتي أن أقدم لكم عرضاً Ad Usum Delphini[٢]، أي عرضاً رتيباً، متساوياً، يخفي الصعوبات، ويسدّ الثغرات، ويحجب الشكوك والريَب، وكل ذلك لأدخل في أذهانكم أنكم تعلمتم شيئاً جديداً. كلا، فعلى وجه التحديد لأنكم مبتدئون أردت أن أقدِّم لكم علمنا على ما هو عليه، بما فيه من وعورة وفجاجة وادعاء وتردد. وأنا أعلم أن الأمر بالمثل في كل علم. وأعلم أيضاً أن تعليم العلوم الأخرى يسعى في أغلب الأحوال إلى إخفاء الصعوبات وإلى حجب النواقص عن الطلاب في بادئ الأمر. على أن هذا شيء لا يصحّ في تعليم التحليل النفسي. لذا صغت فرضين، واحدهما يتضمن الآخر. فلئن بدا الأمر لكم شاقاً أكثر مما ينبغي أو تحوطه الشكوك والريَب أكثر مما يجب، وإن كنتم قد اعتدتم على درجات أعلى من اليقين وعلى استنتاجات أكثر صقلاً، فليست بكم حاجة إلى المضيّ معي إلى أبعد من ذلك. بل أعتقد أنكم خيراً تفعلون، في هذه الحال، لو تركتم المشكلات السيكولوجية وشأنها، خشية ألا تجدوا هنا تلك السبل المستقيمة والمأمونة التي ألفتم سلوكها. ثم إنه لا ينبغي لأي علم لديه ما يعطيه أن يبحث عن أنصار له ومستمعين، فنتائجه هي التي يجب أن تنطق عنه، وبوسعه أن ينتظر إلى حين تشدّ هذه النتائج انتباه الناس إليها قسراً.

لكني أحرص على أن أحذّر مَنْ ودَّ منكم الاستمرار معي في محاولتي من أن الفرضين اللذين تقدمت بهما ليسا متعادلي قيمة. فأما أولهما، وهو أن الحلم ظاهرة نفسية، فنأمل أن نبرهن عليه بنتيجة عملنا؛ أما الثاني، فقد تمّت البرهنة

---

٢ ـ باللاتينية في النص، ويعني حرفياً: برسم ولي العهد، وهو الاسم الذي أطلق على مؤلفات الكلاسيكيين اللاتين بعد أن حذفت منها بعض العبارات الفجة بحيث تصلح ليطّلع عليها ولي العهد ابن لويس الرابع عشر. وقد بات يطلق من قبيل السخرية على كل طبعة مهذَّبة. «م».



عليه في ميدان آخر، ولست إلا مطلقاً الحرية لنفسي لاستعماله في حلّ المشكلات التي تستأثر باهتمامنا هنا.

أين وفي أي مضمار قام البرهان على وجود معرفة لا نعرف عنها مع ذلك شيئاً، وهو ما نفترضه هنا بالحلم؟ لو صحّت هذه الواقعة لكانت أمراً عَجبًا، مدهشاً، كفيلاً بقلب تصورنا عن الحياة النفسية رأساً على عقب، ولما كانت بها حاجة إلى أن تبقى خفية مستترة. ولكان من شأنها، علاوة على ذلك، أن تعبِّر عن شيء ما واقعي رغم تناقضها من حيث الصفة (Contradictio In Adjecto)[٣]. والحال أن تلك الواقعة ليست بخفيّة ولا مستترة. وليس عليها يقع اللوم إن تكن غير معروفة، أو لا تحظى بالاهتمام الكافي. كذلك ليس علينا يقع اللوم إن تكن الأحكام بصدد جميع هذه المشكلات السيكولوجية تصدر عن أشخاص غرباء عن المشاهدات والتجارب التي لها القول الفصل في هذا الموضوع.

في مضمار ظاهرات التنويم المغنطيسي تمَّت البرهنة التي نتحدث عنها. فقد كنت أحضر في عام ١٨٨٩، في مدينة نانسي، العروض الإثباتية الأخاذة التي كان يقيمها ليبو Liebault وبرنهايم Bernheim[٤]، فكان في جملة ما شهدته التجربة التالية. نُوِّم رجل ووُضع في حالة السرنمة Somnambulisme[٥]، وأوحي إليه بجملة من الأهلاس Hallucinations، فلما استيقظ بدا عليه وكأنه لا يعلم شيئاً مما حدث أثناء نوامه. فردّاً على طلب مباشر من برنهايم بأن يروي تفاصيل تلك الأحداث، صرّح الشخص بادئ الأمر أنه لا يتذكر شيئاً. لكن برنهايم ألحّ عليه، وأكّد له أنه يعرف، وأنه يتعيَّن عليه أن يتذكر. وعندئذ بدأت علائم التردد تظهر على الشخص، فشرع يجمع أفكاره، واستذكر، أول ما استذكر، وكأنه في حلم، أول إحساس أوحي له به، ثم إحساساً آخر، ثم مال تذكره إلى الوضوح

٣ ـ تعبير لاتيني يشار به إلى التناقض بين اسم الموصوف والصفة كقولنا: مربع مستدير. «م».

٤ ـ أمبرواز ليبو (١٨٢٣ ـ ١٩٠٤) وهيبوليت برنهايم (١٨٤٠ ـ ١٩١٩): طبيبان من مؤسسي مدرسة نانسي الفرنسية للمعالجة بواسطة الإيحاء التنويمي. وقد حضر فرويد مع مريضة له بعض عروضهما في صيف ١٨٨٩. «م».

٥ ـ السرنمة: السير أثناء النوم. «م».



والاكتمال، فانبجست ذكرياته بلا فجوات. ونظراً إلى أن ما من أحد قد أبلغ الشخص أثناء ذلك بما حدث، فمن المباح لنا أن نستنتج أنه كان يعرف الأحداث التي حدثت أثناء نومه حتى قبل أن يُحثَّ على التذكر ويُدفع إليه دفعاً. وكل ما هنالك أنها كانت ممتنعة عليه، ولا يعرف أنه يعرفها، ويخال أنه يجهلها. إذاً فنحن أمام حالة شبيهة كل الشبه بتلك التي نشتبه بوجودها لدى الحالم.

أرجح الظن أن الواقعة التي سقتها لكم ستثير دهشتكم، وأنكم ستتوجهون إليّ بالسؤال: لماذا لم تلجأ إلى برهان مماثل بصدد الهفوات، مع أننا عزونا، أثناء بحثنا فيها، إلى الشخص المتورط في فلتة لسان مقاصد لفظية لا يعرف عنها شيئاً، بل ينكرها؟ فإن كان من الممكن أن يعتقد أحد الناس أنه لا يعرف شيئاً عن الأحداث التي يحمل مع ذلك ذكراها في نفسه، فلا يبعد أن يكون جاهلاً أيضاً بسيرورات نفسية أخرى تجري داخل نفسه. وستضيفون قولكم: إن دليلاً كهذا كان من شأنه بكل تأكيد أن يؤثر فينا وأن يساعدنا على فهم الهفوات. ومن المؤكد أنه كان بوسعي اللجوء إليه وقتئذ، غير أني شئت أن أحتفظ به لمناسبة أخرى تبدو فيها الحاجة إليه أمسّ. فالهفوات فسَّرت لكم، إلى حدّ ما، نفسها بنفسها، وقادتكم من جهة أخرى إلى التسليم - باسم وحدة الظاهرات - بوجود سيرورات نفسية مجهولة. أما في الحلم فنحن مضطرون إلى البحث عن تفاسير في مكان آخر، فضلاً عن أنني تأملت، فيما يخصّه، أن تسلِّموا بسهولة أكبر بقابليته للتشبيه بالتنويم المغنطيسي. فالحالة التي نرتكب فيها هفوة من الهفوات ستبدو لكم، ولا بدّ، سوية، عادية، لا شبه بينها وبين حالة التنويم المغنطيسي. وبالمقابل، هناك شَبَه واضح جليّ بين حالة التنويم المغنطيسي وبين حالة النوم التي هي شرط حدوث الحلم. وبالفعل، يسمى التنويم المغنطيسي **بالنوم الاصطناعي**(٦). ونقول للشخص الذي ننوِّمه مغنطيسياً: نم! والإيحاءات

٦ - لا علاقة لفظية في اللغات الأجنبية بين التنويم (المغنطيسي) أو النوام كما نؤثر أن نقول وبين النوم، بعكس الحال في العربية حيث هذه العلاقة واضحة. ومردّ الأمر في اللغات الأجنبية إلى أن المصطلح Hypnotisme (التنويم المغنطيسي) مشتقّ، لا من الفعل نام، بل من اسم إله النوم في اليونانية القديمة Hypnos. «م».



التي نوحي بها إليه يمكن أن تقارن بأحلام النوم الطبيعي. والموقف النفسي في الحالتين كلتيهما متماثل حقاً. ففي النوم الطبيعي نصرف اهتمامنا عن العالم الخارجي بأسره، وكذلك نفعل في النوم المغنطيسي، خلا أننا نبقى مهتمين بالشخص الذي نوّمنا، وبه وحده، ونظل على اتصال وإياه. ثم إن ما يسمى **بنوم المرضع**، أي النوم الذي تبقى فيه المرضع على اتصال بالطفل الرضيع، فلا يستطيع غيره أن يوقظها، ما هو إلا نظير سويٌّ للنوام المغنطيسي. إذاً فليس من الاجتراء والاستهتار أن نسحب على النوم الطبيعي سمة من سمات النوام المغنطيسي. وعلى هذا، فالفرض الذي يقول إن الحالم له بحلمه معرفة، وإن تكن هذه المعرفة ممتنعة عليه مؤقتاً، ليس بالفرض الذي لا يقوم على أساس. ولننوه على كل حال بما ينفتح أمامنا هنا من منفذ ثالث إلى دراسة الحلم: فبعد التنبيهات القاطعة للنوم، وبعد أحلام اليقظة، نجد بين أيدينا الآن الأحلام الموحى بها أثناء الحالة التنويمية.

والآن بوسعنا أن نستأنف بحثنا بثقة أكبر. فإن يكن مرجحاً أن للحالم معرفة بحلمه، لا يبقَ أمامنا إلا أن نهيِّئ له القدرة على الاهتداء إلى هذه المعرفة ومكاشفتنا بها. إننا لا ننتظر منه أن يفصح لنا للحال عن معنى حلمه، بل نريد فقط أن نعينه على الاهتداء إلى أصله، وعلى الرجوع إلى جملة الأفكار والاهتمامات التي انبثق عنها. ولعلكم تذكرون، فيما يتصل بالهفوات، وعلى الأخص بفلتة اللسان **انكشرت**، أننا كنا سألنا صاحب هذه الفلتة كيف زلّ لسانه فنطق بهذه الكلمة، فكان أول خاطر خطر على ذهنه مفتاحنا إلى فهم الفلتة. وسوف نتَّبع، في الأحلام، خطة بسيطة للغاية، نترسم فيها خطى هذا المثال. فسوف نسأل الحالم كيف تأتى له أن يرى هذا الحلم أو ذاك، وسوف نعتبر جوابه الأول تفسيراً. وعليه، لن نقيم وزناً للاختلافات التي يمكن أن تقوم في حال ما إذا كان الحالم يعتقد أنه يعرف أو في حال ما إذا كان يعتقد أنه لا يعرف، وسنعالج كلتا الحالتين على أنهما من باب واحد.

إن هذه الخطة بسيطة جداً بكل تأكيد، لكنني أخشى أن تقابل منكم بمعارضة قوية. فلعلكم قائلون: «هوذا فرض جديد! إنه ثالث الفروض وأبعدها احتمالاً!



كيف؟ أتسأل الحالم ما يتذكره بصدد حلمه وتعتبر أول ذكرى تمرّ بخاطره تفسيراً؟ لكن ليس من المحتم أن يتذكر أي شيء على الإطلاق، أو قد يتذكر أشياء، الله هو أدرى بها! إننا لا نرى ما الأساس الذي تعقد عليه رجاءك وأنت تدلل على ثقة مسرفة حيثما التمسك بأهداب الروح النقدي أوجب. ثم إن الحلم لا يمكن أن يقارن بفلتة لسان يتيمة، فهو يتألف من عناصر عدة. فبأي ذكرى ينبغي ربطه دون سواها من الذكريات؟».

أنتم على حق في جميع اعتراضاتكم الثانوية. فالحلم يتميز بالفعل عن فلتة اللسان بتعدد عناصره، وتقنية التأويل لا بدّ ان تأخذ في حسابها هذا الاختلاف. وعليه، سأقترح عليكم تفكيك الحلم إلى عناصره وفحص كل عنصر على حدة، وبذلك نكون قد ثبّتنا من جديد التشابه مع فلتة اللسان. كما أنكم على حق عندما تقولون إنه حتى لو سئل الحالم عن كل عنصر من عناصر حلمه، فقد يجيب أنه لا يتذكر شيئاً. والحق أن ثمة حالات، وستعرفونها آجلاً، يجوز لنا فيها قبول هذا الجواب واستخدامه، وهذه الحالات هي بالتحديد، على ما في ذلك من غرابة، تلك التي قد تكون لنا بصددها أفكار محددة. لكن حين يقول لنا الحالم إنه ليست لديه أية فكرة، فإننا بوجه عام نردّ عليه قوله، ونلحّ عليه ونلحف، ونؤكد له أنه لا بدّ أن تكون لديه فكرة، وفي آخر الأمر يثبت أننا على حق إذ نراه يكاشفنا بفكرة من الفِكَر، ولا يهمنا أيها تكون. وأول ما يطلعنا عليه في هذه الحال بعض المعلومات التي نستطيع وصفها بأنها تاريخية. سيقول مثلاً: «حدث هذا بالأمس» (كما في الحلمين «البسيطين» اللذين أوردناهما أعلاه)، أو قد يقول: «هذا يذكّرني بشيء حدث منذ عهد قريب». وسوف نلاحظ، إذا ما سرنا على هذا المنوال، أن ارتباط الحلم بانطباعات تلقاها الحالم في النهار السابق للحلم أكثر تواتراً مما كنا نحسب في بادئ الأمر. وأخيراً، وانطلاقاً من الحلم أيضاً، قد يتذكر الشخص أحداثاً أبعد عهداً، بل أحياناً بعيدة العهد جداً.

أما اعتراضاتكم على ما هو أساسي فلستم على حقٍّ فيها. فأنتم تخطئون إن حسبتم أنني أتعسف حين أسلِّم بأن أول خاطر يكاشفني به الحالم لا بدّ أن يأتيني



بما أبحث عنه أو أن يضعني على الطريق المفضي إليه. وتخطئون إذ تقولون إن الخاطر المشار إليه قد يكون أي خاطر بلا تعيين، وبالتالي لا صلة على الإطلاق بينه وبين ما أبحث عنه، وإنني إذ أتوقع منه شيئاً آخر فإنما إسرافاً مني بالثقة. ولقد كنت أبحت لنفسي مرة أن أؤاخذكم على إيمانكم الراسخ الجذور بالحرية والعفوية السيكولوجيتين، وقد ذكرت لكم في تلك المناسبة أن مثل هذا الاعتقاد يتنافى والروح العلمي، ولا بدّ أن يخلي الساح ويضمحل إزاء مطلب الحتمية النفسية. فحين يفصح الشخص الذي نستجوبه عن خاطر بعينه دون سواه، فهذه واقعة لا مناص لنا من أن نصدع بأمرها. وأنا إذ أقول ذلك لا أقصد أن أعارض اعتقاداً بآخر. فمن الممكن أن نثبت أن الخاطر الذي كاشفنا به الشخص المعني ليس اعتباطياً ولم يعرض له اتفاقاً، وأنه غير منقطع الصلة بما نبحث عنه. لقد تناهى إلى علمي مؤخراً، وهذا من دون أن أعلِّق على الأمر أهمية مفرطة، أن علم النفس التجريبي قد جاء هو الآخر بأدلة من هذا القبيل[٧].

نظراً إلى أهمية الموضوع، أرجو أن تعيروني انتباهكم كاملاً. فحين أطلب إلى أحدهم أن يكاشفني بما يرد على خاطره بصدد عنصر محدد من عناصر حلمه، أدعوه إلى إسلاس قياده للتداعي الحرّ انطلاقاً من فكرة أولية. وهذا يتطلب توجهاً خاصاً للانتباه، توجهاً يغاير التوجه الذي يستلزمه التفكير، بل ينفيه أصلاً. ويقتدر بعضهم بسهولة على مثل هذا المسلك، بينما يظهر بعضهم الآخر في هذا الصدد خرقاً بالغاً. والحال أن هناك ضرباً آخر من التداعي على درجة أقل من الحرية: وذلك عندما أتخلى حتى عن تلك الفكرة الأولية وأكتفي بأن أذكر له نوعها وجنسها، كأن أدعوه مثلاً إلى التفكير بملء حريته باسم من أسماء الأعلام أو بعدد من الأعداد. فمثل هذه الفكرة يفترض فيها أنها أكثر اتساماً بالاعتباطية وأبعد عن التوقُّع من تلك التي نستخدمها في تقنيتنا. غير أنه يسعنا أن نبيِّن أنها متعيِّنة تعيُّناً صارماً في كل حالة بجملة من الاستعدادات النفسية الداخلية الهامة التي لا نعرف عنها، لحظة تفعل فعلها، أكثر مما نعرف

٧ ـ الإشارة هنا، وكما سيأتي البيان تواً، إلى التجارب التي قامت بها مدرسة زوريخ بإشراف يونغ وبلولر. «م».



عن الميول المشوِّشة في الهفوات وعن الميول التي تتسبب بحدوث الأفعال العَرَضية[8].

وقد أجريت تجارب عديدة من هذا القبيل على الأسماء والأعداد التي تتوارد إلى الذهن مصادفة واتفاقاً. كما أجرى كثيرون بعدي تجارب مماثلة، ونشروا بعضها. وهذه الطريقة كالآتي: انطلاقاً من اسم يرد إلى الذهن تستثار تداعيات متتالية، أي تداعيات غير حرة كل الحرية، بل مترابطة بعضها ببعض ترابط الأفكار التي تُستحضر بصدد عناصر الحلم. ويتواصل الأمر حتى يُستنفد كل التحريض على تكوين هذه التداعيات. فإذا ما انتهت التجربة وجدنا أمامنا التفسير الذي يعرِّفنا بالأسباب والدوافع التي تحكمت بالاستحضار الحرّ لاسم بعينه، والذي يعيننا على فهم ما قد يكون لهذا الاسم من أهمية بالنسبة إلى الشخص الذي تُجرى عليه التجربة. وتعطي التجارب على الدوام نتائج متماثلة، وتتمخض عن معلومات وفيرة للغاية تقتضي نخلها والتعمق في دراستها. ولعل التداعيات المتولدة عن الأعداد التي ترد عفواً وبحرية إلى الذهن هي أكثر إقناعاً: فهي تتوالى سراعاً وتنزع إلى هدف خفي بوثوق عصيٍّ على الفهم، حتى ليقف المرء مذهولاً وفي حيرة من أمره إزاء تتابعها على هذا النحو. ولن أضرب لكم إلا مثالاً واحداً على تحليل كان مداره على اسم من الأسماء، وهو مثال يفي بالغرض على أحسن وجه، لأن بيانه لا يتطلب تبسطاً وإطالة في العرض.

كنت أتحدث ذات يوم مع واحد من مرضاي الشبان حول هذه المسألة فتقدمتُ برأي مؤداه أن كل اسم يتداعى إلى الذهن عفواً يكون متعيِّناً تعيُّناً صارماً، رغم كل مظاهر المجانية، بظروف الشخص موضوع التجربة وبطباعه وبوضعه الآني. فلما أبدى عن تشككه، اقترحت عليه القيام للحال بتجربة من هذا القبيل. ولما كنت أعرف أنه مغرم بالنساء تراءى لي أنني لو دعوته إلى أن

---

٨ ـ الأفعال العرَضية عند فرويد ظاهرات نفسية تشبه الهفوات، لكنها دونها في الأهمية، وتتميز عنها بعدم وجود قصد ثانٍ متعدٍّ وراءها. ومن عدادها كل ما نفعله من أفعال لا هدف لها في الظاهر: كما عندما نعبث بزرّ في لباسنا أو بجزء من جسمنا، أو عندما نترنَّم بلحن ما، إلخ. انظر المحاضرة الرابعة. «م».



يذكر اسم امرأة عفو الخاطر، لكان يسيراً عليه أن يختار ما يشاء. ولشدّ ما كانت دهشتي، ولشدّ ما كانت دهشته هو بوجه خاص، أنه بدل أن يرميني بسيل من الأسماء المؤنثة ارتجّ عليه هنيهة وكاشفني بعد ذلك باسم واحد خطر بباله دون سواه من الأسماء وهو **ألبينا**. فقلت له: «عجباً! ماذا يرتبط في ذهنك بهذا الاسم؟ وكم تعرف من نساء بهذا الاسم؟». والعجيب في الأمر أنه ما كان يعرف امرأة واحدة تدعى ألبينا، ولم يجد في ذهنه شيئاً يرتبط بهذا الاسم. وقد يتبادر إلى الذهن أن التحليل فشل. أما في الواقع فقد انتهى فحسب، وتفسير نتيجته لا يتطلب أية فكرة جديدة. فقد كان فتاي أشقر شديد الشقرة، وقد مازحته أثناء المعالجة مراراً بتسميته ألبينوس[٩]. أضف إلى ذلك أننا كنا، يوم أجرينا التجربة، نعمل على ترسم أثر الأنوثة في تكوينه وجِبلّته. إذاً، فقد كان هو نفسه تلك الألبينا، تلك «المرأة» التي كانت تستأثر باهتمامه دون سواها في تلك اللحظة.

كذلك، إن الألحان التي ترد إلى ذهننا بلا سبب ظاهر يكشف التحليل عن تعيُّنها بسلسلة من الأفكار وعن اندراجها هي نفسها في عداد هذه السلسلة التي تستوجب أن نوليها اهتمامنا من دون أن نعرف شيئاً على الإطلاق عن نشاطها. وعندئذ لا يشقّ علينا أن نبيِّن أن الاستحضار اللاإرادي في الظاهر لذلك اللحن يرتبط إما بنصه وألفاظ هذا النص، وإما بأصله. غير أني لا أشمل بكلامي هذا الموسيقيين الحقيقيين، فأنا لا خبرة لي بهم، ثم إن المضمون الموسيقي للحن يمكن أن يكون لديهم سبباً كافياً لاستحضاره. ومن المؤكد أن حالات الفئة الأولى هي الأكثر تواتراً. وأنا أعرف فتى تسلط عليه لأمد مديد من الزمن، وبكل ما في كلمة تسلط من معنى، اللحن ـ البديع أصلاً ـ الذي يؤديه باريس في **الحسناء هيلانة**[١٠]. ولم يتحرر منه إلا يوم كشف له التحليل عن الصراع الذي تدور

٩ ـ ألبينوس: الأمهق، أي الشديد البياض. والمهق مرض ولادي يتميز بانعدام المادة الملوِّنة للجلد ولوبره، فيكونان أبيضين، وتكون العينان حمراوين نظراً إلى بياض الأهداب. «م».

١٠ ـ **الحسناء هيلانة:** أوبريت وضع ألحانها جاك أوفنباخ، الألماني المتجنس بالفرنسية، اقتباساً من قصة هيلانة، زوجة مينيلاس، ملك إسبارطة، التي خطفها باريس، ابن ملك طروادة، فكانت حرب طروادة. «م».



رحاه في داخل نفسه بين واحدة تدعى عايدة[١١] وأخرى تدعى هيلانة.

لئن تكن الخواطر التي تتبادر إلى الذهن بحرية، بلا إكراه ولا مجهود، متعيِّنة على هذا النحو، وتنتمي إلى سلسلة محددة، فمن حقنا أن نستنتج أن الخواطر التي ليس لها إلا رابط واحد، هو ذاك الذي يربطها بفكرة أولية، يمكن أن تكون على درجة مماثلة من التعيُّن. ويدل التحليل، بالفعل، أن هذه الخواطر، علاوة على ارتباطها كما بيّنا بالفكرة الأولية، منوطة أيضاً بجملة من الأفكار والاهتمامات المشحونة شحناً عالياً بانفعالات، أي بعقد يكون تأثيرها مجهولاً، أي لاشعورياً، لحظة حدوثه.

إن الخواطر العارضة المحكومة بهذا الطراز من التبعية كانت موضوعاً لأبحاث تجريبية زوّدتنا بمعلومات وفيرة ولعبت في تاريخ التحليل النفسي دوراً مرموقاً. فقد بدأت مدرسة فونت بما أسمته تجربة التداعي، وفيها يُطلب إلى الشخص المفحوص أن يردّ بأسرع ما يمكنه **باستجابة** ما على الكلمة التي تلقى على مسامعه والتي تُسمَّى بالكلمة **الحافزة**. ومن الممكن على هذا الأساس دراسة الفاصل الزمني بين الكلمة الحافزة والاستجابة، وطبيعة الردّ الذي يستجيب به الشخص المفحوص، والأخطاء التي قد تقع عند تكرار التجربة نفسها لاحقاً، إلخ. وقد توصلت مدرسة زوريخ، بإشراف بلولر[١٢] ويونغ[١٣]، إلى تفسير الاستجابات المتجمعة أثناء تجربة التداعي، بطلبها إلى الشخص الذي تُجرى عليه التجربة توضيح استجاباته ـ إن لم تكن على درجة كافية من الوضوح ـ بتداعيات إضافية. وقد تبيَّن عندئذ أن هذه الاستجابات الغريبة، المكتنفة بالإبهام، متعيِّنة صارم التعيُّن **بعقد** الشخص المفحوص. وبفضل هذه الملاحظة أقام بلولر ويونغ أول جسر للعبور من علم النفس التجريبي إلى التحليل النفسي.

١١ ـ معلوم أن عايدة هو أيضاً اسم لأوبرا مشهورة من تلحين فردي. «م».

١٢ ـ يوجين بلولر: طبيب نفسي سويسري (١٨٥٧ ـ ١٩٣٩). اشتهر بدراساته عن الخبل المبكر والفصام (السكيزوفرينيا). وهو أول من أدخل هذا المصطلح إلى التحليل النفسي. «م».

١٣ ـ كارل غوستاف يونغ: طبيب سويسري من المختصين في الأمراض النفسية (١٨٧٥ ـ ١٩٦١). عمل مع جانيه وبلولر، ثم مع فرويد، ثم قاد واحداً من أهم انشقاقين عرفتهما حركة التحليل النفسي. تخصص في دراسة تظاهرات «اللاشعور الجمعي»، وهو مفهوم اعترض عليه فرويد. «م».



قد تقولون بعد أن سمعتم هذا: «إننا نعترف الآن بأن الخواطر التي تتوارد بحرية إلى الذهن متعيِّنة، وليست اعتباطية كما كنا نظنّ. ونعترف أيضاً بتعيُّن الخواطر التي تتداعى بالاتصال مع عناصر الحلم. لكن ليس هذا ما يهمّنا. فأنت تزعم أن الخاطر الذي يخطر على الذهن بالاتصال مع كل عنصر من عناصر الحلم يتعيَّن بالخلفية النفسية ـ المجهولة منا ـ لهذا العنصر. والحال أن هذا بالتحديد ما يبدو لنا أن البرهان لم يقم عليه. ولنفرض أننا نتوقع أن يثبت لاحقاً أن الخاطر الذي يتداعى بالاتصال مع عنصر الحلم متعيِّن بإحدى **عقد** الحالم، فما نفع هذه الملاحظة؟ فبدل أن تعيننا على فهم الحلم، تزوِّدنا فقط، شأنها في ذلك شأن تجربة التداعي، ببعض المعلومات عن تلك **العقد** المزعومة. لكن ما صلة هذه الأخيرة بالأحلام؟».

الحق معكم، لكن إن فاتكم شيء فهو على وجه التحديد السبب الذي منعني من اتخاذ تجربة التداعي نقطة انطلاق لمبحثنا هذا. فنحن الذين نختار في هذه التجربة عسفاً واعتباطاً أحد العوامل المعيِّنة للاستجابة: الكلمة التي تقوم مقام التنبيه. وعلى هذا تكون الاستجابة أشبه بحلقة وسيطة بين الكلمة الحافزة وبين العقد التي توقظها هذه الكلمة لدى الشخص الذي تُجرى عليه التجربة. أما في الحلم فتستبدل الكلمة الحافزة بشيء يأتي من معين الحياة النفسية للحالم، من مصدر يجهله، وقد يكون هذا «الشيء» نفسه من «نتاج» عقدة من العقد. وعليه، ليس من الشطط أن نفترض أن الخواطر العارضة الجديدة والمرتبطة بعناصر الحلم لا تتعين بأي عقدة أخرى غير عقدة هذا العنصر، ويمكن بالتالي أن تعيننا على اكتشاف هذه العقدة.

اسمحوا لي أن أوضح لكم من خلال مثال آخر أن الأمور تحدث فعلاً كما نتكهن في الحالة التي نحن بصددها. فنسيان أسماء الأعلام هو بالفعل مثال ممتاز لما يحدث في تحليل الحلم؛ سوى أنه يكون في حالة النسيان مقتصراً على شخص واحد، بينما يكون في تأويل الحلم موزَّعاً بين شخصين اثنين. فحين أنسى اسماً من أسماء الأعلام نسياناً مؤقتاً، يظل يداخلني اليقين بأنني أعرف هذا الاسم، على حين لا يسعنا الوصول إلى هذا اليقين بالنسبة إلى الحالم إلا بوسيلة غير



مباشرة تقدمها لنا تجربة برنهايم. غير أن الاسم المنسي، والمعروف رغم نسيانه، ممتنع عليّ. ومهما أبذل من جهود لاستحضاره، فلن تعتم التجربة أن تدلني على لاجدوى هذه الجهود. على أنه يسعني أن أستحضر في كل مرة، عوضاً عن الاسم المنسي، اسماً أو جملة من الأسماء البديلة. ومتى وثب أحد هذه الأسماء البديلة إلى خاطري عفواً، أصبح التشابه بين وضعي وبين الوضع الذي يقوم عند تحليل الحلم جلياً بيّناً. وما عنصر الحلم هو الآخر بشيء أصيل: إنما يأتي فقط ليحلّ محلّ ذلك الشيء الذي لا أعرفه والذي يفترض بتحليل الحلم أن يكشفه لي. والفارق الوحيد الذي يقوم بين الوضعين يتمثل في أنني حين أنسى اسماً أعترف للحال وبلا تردد بأن الاسم الذي حضرني ما هو إلا اسم بديل، على حين أننا لا نظفر بهذا اليقين فيما يتصل بعنصر الحلم إلا غبّ أبحاث شاقة طويلة. والحال أنه تتوفر لنا، حتى في حالات نسيان الأسماء، وسيلة للاهتداء إلى الاسم الحقيقي، المنسي والغارق في اللاشعور. فحين نركّز انتباهنا كله على الأسماء البديلة، وندع لها أن تستدعي خواطر أخرى، نتوصل دوماً، بعد لفّ ودوران قد يطول أو يقصر، إلى الاسم المنسي؛ وبذلك يتحقق لنا أن الأسماء البديلة التي انبثقت في ذهننا عفواً، ومثلها الأسماء التي استحضرناها، ترتبط جميعها ارتباطاً وثيقاً بالاسم المنسيّ وتتعيَّن به.

هاكم على كل حال تحليلاً من هذا القبيل: وجدت نفسي ذات مرة وقد أنسيت اسم ذلك البلد الصغير الواقع على ساحل الريفييرا[١٤] والذي أشهر مدنه مونتي كارلو. الأمر مزعج، لكن ليس باليد من حيلة. ورحت أستعرض كل ما أعرفه عن هذا البلد، وذهب فكري إلى الأمير ألبير، من آل ماتينيون ـ غريمالدي[١٥]، وإلى زيجاته، وشغفه بتجواب أعماق البحار، وأشياء أخرى كثيرة تتصل بذلك البلد، لكن بلا جدوى. وعلى هذا فقد أوقفت مسعاي، وتركت

١٤ ـ الريفييرا: الاسم الذي يطلق على الساحل المتوسطي الممتد بين فرنسا وإيطاليا. «م».

١٥ ـ غريمالدي: أسرة جنَوية عريقة كانت تضع يدها على موناكو حتى عام ١٧٧٣، وهو العام الذي تصاهرت فيه مع أسرة غويون ـ ماتينيون الفرنسية، فبات أمراء موناكو من أحفاد ماتينيون ـ غريمالدي. «م».



للأسماء البديلة أن تتوارد إلى ذهني عوضاً عن الاسم المنسي. وتوالت هذه الأسماء بسرعة: مونتي كارلو أولاً، ثم بييمونتي[١٦] وألبانيا ومونتيفيديو[١٧] وكوليكو[١٨]. وفي السلسلة الأخيرة كان اسم **ألبانيا** أول ما استرعى انتباهي، لكن سرعان ما حلّ محله اسم **مونتينغرو**، لما بين **الأبيض والأسود** من تباين[١٩]. وعندئذ فطنت إلى أن أربعة من الأسماء البديلة تشترك في مقطع واحد هو «مون»، فاهتديت للحال إلى الكلمة المنسية وهتفت: **موناكو!** وهكذا كانت الأسماء البديلة مشتقة فعلاً من الاسم المنسي؛ فالأربعة الأولى منها اشتملت على مقطعه الأول، والاسم الأخير[٢٠] منها مثَّل تسلسل مقاطعه ومقطعه الأخير كاملاً. وقد استطعت في الوقت نفسه أن أكتشف السبب الذي جعلني أنسى مؤقتاً اسم موناكو: فاسم **ميونيخ**، وهو المقابل الألماني لموناكو، هو الذي مارس على ذاكرتي تأثيره الكابح.

إن المثال الذي سقته بديع بلا ريب، ولكنه مفرط البساطة. فنحن نضطرّ في حالات أخرى، كيما نوضح وجه الشبه مع ما يجري عند تأويل الأحلام، إلى أن نجمع ونحشد حول الأسماء البديلة الأولى سلسلة أطول من أسماء أخرى. وقد قمت بتجارب من هذا القبيل. فقد دعاني ذات مرة شخص أجنبي إلى أن أحتسي وإياه نبيذاً إيطالياً له في نفسه ذكرى طيبة. فلما دخلنا المقهى عجز عن تذكر اسم النبيذ الذي أراد أن يقدِّمه لي. وبعد أن سرد طائفة من الأسماء البديلة عوضاً عن الاسم المنسي، خيِّل إليّ أنه في مقدوري أن أستنتج أن النسيان حدث تحت تأثير كفٍّ ناجم عن الارتباط بذكرى امرأة تدعى هدفيج. وأطلعت رفيقي على اكتشافي، فإذا به لا يجزم لي بأنه شرب هذا النبيذ لأول مرة مع امرأة تدعى

---

١٦ ـ بييمونتي: منطقة إيطالية تقع عند سفوح جبال الألب. «م».

١٧ ـ مونتيفيديو: عاصمة الأوروغواي. «م».

١٨ ـ كوليكو: قرية اصطيافية إيطالية تقع على ضفاف بحيرة كومو. «م».

١٩ ـ اسم ألبانيا مشتق في الأصل من اللاتينية Albus، أي أبيض (البلاد البيضاء)، كما أن مونتينغرو تعني بالترجمة الجبل الأسود. «م».

٢٠ـ أي كوليكو. «م».



هدفيج فحسب، بل يفلح أيضاً، بفضل هذا الاكتشاف، في الاهتداء إلى الاسم الحقيقي للنبيذ المذكور. لقد كان الرجل يوم تقابلنا متزوجاً، وسعيداً في زواجه، والحال أن علاقته بهدفيج ترجع إلى عهد سابق لا يطيب له أن يتذكره.

إن ما هو ممكن في حال نسيان اسم من الأسماء لا بدّ أن يكون ممكناً أيضاً عندما نسعى إلى تأويل حلم من الأحلام: والمطلوب تحديداً أن نتمكن من إماطة اللثام عن العناصر المستترة والمجهولة، بواسطة التداعيات المرتبطة بالبديل الذي نتخذه في هذه الحال منطلقاً لنا. وقياساً على المثال الذي يمدّنا به نسيان الأسماء، يتوجَّب علينا أن نعترف بأن التداعيات المرتبطة بعنصر من عناصر الحلم تتعيَّن بهذا العنصر كما بركيزته اللاشعورية. فإن صحَّ افتراضنا هذا، كان فيه لتقنيتنا بعض التبرير.




مكتبة
الفكر الجديد

المحاضرة السابعة

مضمون الحلم الظاهر وأفكاره الكامنة

سيداتي وسادتي، رأيتم أن دراستنا الهفوات لم تذهب هباء. فبفضل الجهود التي بذلناها في هذه الدراسة، توصلنا، على أساس الفروض التي تعرفون، إلى نتيجتين: تصور لعنصر الحلم وتقنية لتأويل الحلم. ففيما يتصل بعنصر الحلم بتنا نعلم أنه غير أصيل، وأنه لا يعدو أن يكون بديلاً لشيء يجهله الحالم، مثلما نجهل مقاصد هفواتنا؛ بديلاً لشيء للحالم به معرفة، ولكنها معرفة ممتنعة عليه. ونأمل أن نقتدر أن نسحب هذا التصور على الحلم في جملته، أي بوصفه مجموعة من العناصر. وتقوم خطتنا على أن نطلق الحرية للتداعي، ونستولد تشكيلات بديلة أخرى عن هذه العناصر تكون وسيلتنا إلى التخمين بما هو خفيّ.

أقترح عليكم الآن إجراء تعديل في مصطلحاتنا، يوفِّر لحركتنا هامشاً أكبر من الحرية. فبدلاً من أن نقول: **خفي، ممتنع، بالغ الخصوصية**[1]، سنقول من الآن فصاعداً: ممتنع على شعور الحالم أو لاشعوري. وكما في حالة نسيان كلمة من الكلمات أو حالة القصد المتعدي الذي يتسبب في حدوث الهفوة، فإن اللاشعور الذي نتحدث عنه هنا **لاشعور مؤقت** فحسب. وعلى هذا، إننا سنصف عناصر الحلم والتمثلات البديلة التي تتأتى عن التداعي بأنها **شعورية**، بالتعارض مع ذلك اللاشعور المؤقت. وهذه الاصطلاحات لا تنطوي بعد على أي بناء نظري. وعلى هذا، إن استعمال كلمة **اللاشعور**، على سبيل الوصف المطابق والسهل الفهم، لا غبار عليه.

---

١ ـ يبدو أن هناك خطأ مطبعياً في الأصل الألماني إذ جاء النعت الأخير بصيغة النفي: **غير بالغ الخصوصية** بدلاً من **بالغ الخصوصية**. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.



لو سحبنا رؤيتنا هذه للعنصر المنفرد على مجمل الحلم، لوجدنا أن الحلم في جملته يؤلف بديلاً محرَّفاً لحدث لاشعوري، وأن مهمة تأويل الحلم هي اكتشاف هذا اللاشعور. وتترتب على هذه الملاحظة للحال ثلاثة مبادئ يتعيَّن علينا أن نتقيَّد بها في عملنا التأويلي:

١ ـ إن معرفة ما يعنيه حلم بعينه في ظاهره أمر لا يثير اهتمامنا البتة. فسواء أكان مفهوماً أم لامعقولاً، واضحاً أم مشوشاً، فذلك لا يهمُّنا بكثير أو قليل، على اعتبار أنه لا يمثِّل بصورة من الصور اللاشعور الذي نجدّ في إثره (سنرى لاحقاً أن هذه القاعدة غير مطلقة).

٢ ـ ينبغي أن يقتصر عملنا على إيقاظ تمثلات بديلة بصدد كل عنصر، من غير أن نمحِّصها، ومن غير أن نسعى إلى معرفة ما إذا كانت تنطوي على شيء ما مطابق، ومن غير أن نشغل أنفسنا بمعرفة هل تبعدنا هذه التمثلات البديلة، وإلى أي حدّ، عن عنصر الحلم.

٣ ـ يجب أن ننتظر إلى أن يزيح اللاشعور المستتر، المبحوث عنه، القناع عن نفسه من تلقاء نفسه، كما حدث في حالة كلمة **موناكو** في التجربة التي تقدم بيانها.

إننا ندرك الآن أنه ليس لنا أن نأبه لمعرفة مدى الدقة والأمانة، أكبيراً كان أم صغيراً، في تذكر الحالم لحلمه. فالحلم الذي يتذكره حالمه لا يطابق ما نبحث عنه حصراً، ولا يؤلف سوى بديل محرَّف عنه، وهذا البديل هو الذي سيتيح لنا، بالاعتماد على تشكيلات بديلة أخرى نطلق لها حرية التداعي، أن نقترب من ماهية الحلم، وأن نجعل اللاشعوري شعورياً. فإن ثبت أن ذاكرتنا حادت عن سبيل الأمانة والدقة، فهذا معناه أنها أخضعت هذا البديل لتحريف جديد قد لا يكون له أصلاً من تعليل.

إن عملنا التأويلي يمكن أن يطال أحلامنا وأحلام غيرنا من الناس على حدّ سواء. بل إن أحلامنا أغنى لنا بالفائدة، لأن عملية التأويل هنا تبدو أوضح بياناً وأكثر إقناعاً. غير أننا ما إن نشرع بهذا العمل حتى نلاحظ أنه يرتطم بعقبات. صحيح أن ثمة خواطر تتوارد إلى ذهننا، لكننا لا ندعها تفرض علينا نفسها



جميعاً. فنحن نجري عليها تدقيقاً ونخلاً. نقول بصدد خاطر منها مثلاً: كلا، إنه لا يتفق مع حلمي، لا يناسبه. كما قد نقول بصدد خاطر غيره: إنه لامعقول. ونقول بصدد ثالث: إنه ثانوي. ويسير علينا أن نلاحظ أن هذه الاعتراضات تخنق الخواطر العارضة وتنحِّيها حتى قبل أن يتاح لها الوقت لتتضح وتبين. وعلى هذا، إننا نتشبث تشبثاً شديداً، من جهة أولى، بالفكرة الأولية، بعنصر الحلم، ونشوِّش من جهة ثانية نتيجة التداعي بانحيازنا في الاختيار والانتقاء. فإن لم نتولَّ نحن تأويل حلمنا، بل تركنا لغيرنا أن يؤوِّله، تدخَّل دافع جديد ييسِّر ركوب مركب هذا الاختيار غير المشروع. إذ قد نقول بيننا وبين أنفسنا أحياناً: كلا، هذه فكرة كريهة أكثر مما ينبغي، فلا أريد ولا أستطيع مكاشفته بها.

من الواضح أن هذه الاعتراضات خطرة على نجاح عملنا التأويلي. لذا علينا أن نتوقى منها: فإن كنا نجري التأويل على أحلامنا الخاصة، فبوسعنا أن نتدارك شرَّها بأن نعزم عزماً أكيداً على عدم الانسياق وراءها؛ وإن كنا نؤوِّل حلم شخص آخر، فرضنا عليه قاعدة لا يجوز له أن يحيد عنها، وهي ألا يمسك عن تبليغنا أي خاطر من الخواطر، حتى ولو تراءى له أن هذا الخاطر أو ذاك غفل من الأهمية أو من المعنى، أو لا صلة له بالحلم، أو مما تكره النفس مكاشفة الآخرين به. والمفروض بالشخص الذي نبغي تأويل حلمه أن يعد ويتعهد بالامتثال لهذه القاعدة، لكن ليس لنا أن نغضب ونضيق ذرعاً إن رأيناه يعجز عن الوفاء بوعده هذا. وقد يحسب بعضكم أن مردّ هذا العجز إلى أننا لم نتمكن من إقناع الشخص المعني، بالرغم من كل توكيداتنا الجازمة له، بمشروعية التداعي الحر، وقد يتراءى لكم أنه أجدر بنا أن نقنع بادئ ذي بدء الشخص المعني نظرياً بأن نحمله على مطالعة مؤلفات أو الاستماع إلى محاضرات من شأنها أن تجعل منه نصيراً لمذاهبنا بصدد التداعي الحر. والحق أننا لو فعلنا ذلك نكون من المخطئين؛ وحتى نتحاشى مثل هذا الخطأ، ما علينا إلا أن نأخذ في اعتبارنا أننا لسنا نحن أنفسنا بمنجاة، بالرغم من وثوقنا بما نذهب إليه، من أن نقابل بعض الخواطر باعتراضات نقدية تنبجس في أذهاننا رغماً عنا، ولا نتمكن من تنحيتها إلا بعد فوات الأوان.

والحق أنه بدلاً من أن نضيق ذرعاً بعصيان الحالم، نستطيع أن نستغل هذه



الظاهرة نفسها لنستخلص منها معلومات جديدة، لا يزيدها بعدها عما نتوقع إلا أهمية. فمفهوم أن العمل التأويلي يتمّ رغم ما يعترضه من **مقاومة** تجد تعبيرها في الاعتراضات النقدية التي نتكلم عنها. وهذه المقاومة مستقلة عن الاقتناع النظري للحالم. بل إننا قد نعرف منها ما هو أهمّ. فمن الملاحظ أن هذه الاعتراضات النقدية ليست على الدوام مبررة. بل على العكس: فالخواطر التي قد يريد الحالم أن يقمعها بهذه الصورة تتكشف **على الدوام وبلا استثناء** عن أنها هي أهم الخواطر وأبلغها دلالة من منظور الكشف على اللاشعور. فاعتراض من هذا القبيل إنما ينمّ عن أهمية الخاطر المعترض عليه.

إن هذه المقاومة شيء جديد، ظاهرة اكتشفناها بفضل فرضياتنا، لكنها لم تكن متضمَّنة على الإطلاق في هذه الفرضيات. هذا العامل الجديد يدخِل على حساباتنا مفاجأة لا سبيل إلى وصفها بأنها سارة. فها نحنذا نشتبه من الآن بأنه ليس من شأنه أن يسهِّل عملنا وييسِّره. بل لعله قمين بأن يشلّ كل جهودنا الرامية إلى حلّ مشكلة الحلم. والعجيب أن نتصدى لدراسة مشكلة ضئيلة الأهمية كالحلم، فإذا بنا نرتطم بصعوبات تقنية كبرى! لكن من يدري، فلعل هذه الصعوبات من شأنها أن تحفزنا على العمل وأن تظهر لنا أن هذا العمل يستأهل ما يستأديه منا من جهود. ونحن نرتطم بصعوبات أيضاً عندما نريد أن ننفذ من البديل الذي يتظاهر به عنصر الحلم إلى ركيزته اللاشعورية الخبيئة. لذا يحقّ لنا أن نفترض أن ثمة شيئاً هاماً يختبئ وراء البديل، وإلا فما جدوى هذه الصعوبات التي لا دور لها غير أن تسهم في إبقاء الشيء الخبيء في مخبئه؟ فحين يأبى الطفل أن يفتح قبضة يده ليظهر ما يخبئه فيها، فمعنى ذلك أنه يخفي فيها شيئاً لا يُفترض فيه أن يخفيه.

ونحن، إذ ندخل على مبحثنا تصوراً دينامياً عن وجود مقاومة، يجدر بنا أن ننبّه إلى أن هذا العامل متغيِّر كمياً. فقد تكون المقاومة كبيرة أو قليلة، وعلينا أن نوطِّن النفس على أن اختلافات من هذا القبيل لا بدّ أن تواجهنا في أثناء عملنا. ولعلنا نستطيع أن نربط بهذه الواقعة تجربة أخرى تعرض لنا أيضاً في مجرى عملنا لتأويل الأحلام. ففي أحوال معينة قد يكفي خاطر واحد أو عدد قليل جداً من



الخواطر ليقودنا من عنصر الحلم إلى ركيزته اللاشعورية، بينما نحتاج في أحوال أخرى، كيما نصل إلى هذه النتيجة، إلى أن نعقد سلاسل طويلة من التداعيات ونتغلب على العديد من الاعتراضات النقدية. ولعلنا سنقول بيننا وبين أنفسنا، وعن صواب وحقّ في أرجح الظن، إن مردّ هذه الاختلافات إلى تباين شدة المقاومة. فحين تكون المقاومة طفيفة، تكون طفيفة أيضاً المسافة التي تفصل البديل عن الركيزة اللاشعورية؛ وبالمقابل، تقترن المقاومة الشديدة بتحريفات بالغة في اللاشعور، وهذا من شأنه لا محالة أن يباعد الشقة الفاصلة بين البديل وبين ركيزته اللاشعورية.

ربما آن الأوان لنختبر تقنيتنا بتطبيقها على حلم ما، لنرى أيتحقق ما نرتقبه منها. أجل، ولكن أي حلم نختار لهذا الغرض؟ ليس لكم أن تصدقوا كم يشقّ هذا الاختيار عليّ، ثم إنه لا يزال يتعذر عليّ أن أوضح لكم أين تكمن هذه المشقة. ولا بدّ أن هناك أحلاماً لم يطرأ عليها، في جملتها، تحريف كبير، وقد ترون أن من الخير أن نبدأ بها. لكن أي الأحلام أقلُّها تحريفاً؟ أهي الأحلام المنطقية، غير الملتبسة، التي سقت لكم منها مثالين؟ لا تذهبوا مثل هذا المذهب. فالتحليل يدلّ على أن هذه الأحلام أصابها تحريف كبير إلى حدّ خارق للمألوف. غير أنني لو ضربت صفحاً عن كل شرط خاص واخترت أول حلم يخطر ببالي، لخاب على الأرجح ظنكم. فقد يتعيَّن علينا أن نلاحظ أو أن نسجل، بصدد كل عنصر من عناصر الحلم، قدراً من الخواطر والأفكار ضخماً إلى حدّ يتوسع معه عملنا توسعاً لا يمكن حصره. ولو سجَّلنا الحلم كتابة وسجَّلنا معه كل الخواطر والأفكار التي قد تتوارد إلى ذهننا بصدده، فلربما تجاوز حجم هذه الأخيرة حجم نصّ الحلم بأضعاف مضاعفة. إذاً من الأنسب أن نختار لغرض التحليل أحلاماً مقتضبة، يستطيع كل واحد منها أن يزوِّدنا على الأقل ببعض المعلومات أو أن يؤيِّد فرضاً بعينه. وهذا ما سنعقد العزم على فعله، إلا إذا هدتنا التجربة إلى السبيل الذي يمكن أن يقودنا إلى أحلام لم يطرأ عليها تحريف كبير.

ثمة وسيلة أخرى متاحة لنا وقمينة بتسهيل عملنا. فبدلاً من أن نتطلع إلى



تأويل أحلام بكاملها، سنكتفي بالنظر في عناصر منعزلة منها لنرى، من خلال طائفة من الأمثلة المختارة على هذا الأساس، كيف يمكن تفسيرها بتطبيق تقنيتنا عليها.

أ ـ روت سيدة أنها كثيراً ما كانت تحلم وهي طفلة بأن **الله تعالى يضع على رأسه طاقية مدبَّبة من الورق.** كيف السبيل إلى فهم هذا الحلم بدون معونة حالمته؟ أليس يبدو سخيفاً كل السخف؟ لكن هذا السخف لا يلبث أن يتلاشى عندما نسمع السيدة تروي لنا أنها حين كانت طفلة كان أهلها كثيراً ما يلبسونها طاقية من ذلك النوع لأنها اعتادت، إذا ما جلست إلى المائدة، أن تلقي بنظرات خاطفة إلى صحون إخوتها وأخواتها لتطمئن إلى أنهم ما أصابوا من الطعام حصة أكبر من تلك التي أصابتها. وعلى هذا، فقد كان الغرض من الطاقية أن تقوم لعينيها مقام الكمامة. وهذه معلومة تاريخية صرف، وتمّ الحصول عليها منها بلا أي مشقة. وقد أمكن تأويل هذا العنصر، وبالتالي الحلم بأسره، بلا عناء، بفضل اكتشاف جديد توصلت إليه الحالمة: «بما أني كنت سمعت أن الله تعالى عليم بكل شيء وبصير بكل شيء، فحلمي لا يمكن أن يعني إلا شيئاً واحداً، وهو أني أعلم كل شيء وأرى كل شيء، مثله تعالى، حتى وإن حاولوا منعي من ذلك». غير أن هذا المثال ربما كان أبسط مما ينبغي.

ب ـ حلمت مريضة متشككة حلماً أطول قليلاً، رأت فيه بعض الناس يحدِّثونها عن كتابي عن **النكتة**[٢] ويكيلون له الثناء الكبير ثم ورد ذكر «**قناة**»، **وربما كتاب آخر ذكرتُ فيه كلمة قناة، أو شيء آخر متصل بقناة ما... إنها لا تدري.. فالأمر في منتهى الغموض.**

قد تميلون إلى الاعتقاد بأن عنصر «القناة» عصيّ على كل تأويل ما دام على هذه الدرجة من اللاتعيُّن. ومن المحقق أن التأويل يصطدم بعقبات، لكن هذه العقبات غير متأتية من قلة وضوح العنصر، بل على العكس: فقلة وضوح العنصر وصعوبة تأويله تنبعان كلتاهما من علة واحدة. ولم يتوارد أي خاطر إلى

٢ ـ يقصد **النكتة وصلاتها باللاشعور** الذي أصدره سنة ١٩٠٥. «م».



ذهن صاحبة الحلم بصدد القناة؛ أما فيما يتعلق بي أنا فقد عجزتُ بطبيعة الحال عن إبداء أي رأي بصددها. وبعيد ذلك، وبالتحديد في الغداة، خطر لها خاطر ربما تكون له صلة بهذا العنصر من حلمها، ويتلخص بنكتة رويت لها. فقد كان كاتب معروف[٣] يتجاذب أطراف الحديث مع رجل إنكليزي على ظهر مركب يبحر بين دوفر وكاليه، وفي أثناء الحديث استشهد الإنكليزي بهذه القولة: «ليس بين الرائع والسخيف إلا خطوة واحدة»، فأجابه الكاتب «أجل، خطوة كاليه»[٤]، قاصداً بذلك أن فرنسا هي الرائعة في رأيه، وإنكلترا هي السخيفة. لكن «خطوة كاليه» هي في حقيقتها **قناة**، قناة المانش. ستسألونني إن كنت أرى من صلة بين ذلك الخاطر وبين الحلم. بلى، بكل تأكيد. فالخاطر المشار إليه قدَّم لنا فعلاً مفتاح ذلك العنصر الملغز من عناصر الحلم. أما إذا ماريتم في أن تكون هذه النكتة سابقة في الوجود على الحلم وفي أن تكون قد قامت لعنصر «القناة» مقام الركيزة اللاشعورية، فهل لكم أن تتصوروا أنها لُفِّقت بعد الحلم واُختلقت عن قصد؟ إن ذلك الخاطر يشهد على ما لدى السيدة من ريبية تستتر وراء اندهاش لاإرادي، ومن هنا كانت المقاومة التي تفسر في آن واحد بطء توارد الخاطر والطابع المبهم لعنصر الحلم المناظر له. لاحظوا هنا العلاقات بين عنصر الحلم وبين ركيزته اللاشعورية: فلكأن هذا العنصر كسرة صغيرة من هذه الركيزة أو إشارة إليها. وعنصر الحلم هذا لم يغدُ عصياً على الفهم إلا لما انفصل عن الركيزة اللاشعورية.

ج ـ حلم مريض بحلم على قدر من الطول، رأى فيه **عدة أفراد من أسرته جالسين إلى مائدة ذات شكل خاص**، إلخ. وقد قال بصدد هذه المائدة إنه كان قد رأى قطعة أثاث تشبهها لدى زيارته أسرة معينة. ثم توالت خواطره: فالعلاقات بين الأب والابن في هذه الأسرة لم تكن موصولة الودّ، ثم أضاف

---

٣ ـ هو المؤرخ الفرنسي المشهور جول ميشليه (١٧٨٨ ـ ١٨٧٤). «م».

٤ ـ بالفرنسية في النص. والقولة التي على مدارها النكتة تُنسب إلى نابوليون بونابرت. وكاليه بلدة فرنسية وميناء يقع على بحر المانش، ويمتد أمامه مضيق يعرف باسم «خطوة كاليه» أو «با دي كاليه Pas de Calais» ويصل بين فرنسا وانكلترا، وتحديداً بين بلدتي كاليه ودوفر بعرض ٣١ كم وطول ١٨٥ كم. «م».



للحال قوله إن بينه وبين أبيه صلات مماثلة. وهكذا استعيد مشهد المائدة في الحلم للتنويه بذلك التوازي.

لقد كان صاحب هذا الحلم مطلعاً منذ زمن بعيد على مقتضيات تأويل الحلم. وأي شخص آخر محله كان سيستغرب أن نجعل مثل هذا التفصيل التافه الشأن ـ شكل المائدة ـ موضوعاً لتحرٍ وتقصٍ. وبالفعل، لا ينطوي الحلم في نظرنا على أي شيء عارض لا يؤبه له، بل من توضيح أشباه هذه التفاصيل التافهة الشأن والتي ليس وراءها من حافز سافر نتوقع أن تأتينا المعلومات التي ننشدها. ولعل ما يدهشكم في إخراج ذلك الحلم بعدُ هو أن يكون قد اختار المائدة ليعبِّر عن فكرة أن **الأمور تجري عندنا مجراها في تلك الأسرة**. لكن تفسير ذلك سهل متى ما عرفتم أن الأسرة المشار إليها تكنى باسم تشلر Tischler[٥]. فحين أجلس الحالم أفراد أسرته إلى تلك المائدة، تصرف كما لو أنهم هم أيضاً يُكْنون باسم تشلر. وبالمناسبة، ألفت انتباهكم إلى أننا قد نضطر أحياناً إلى إفشاء الأسرار عندما نطلعكم على تأويل بعض الأحلام: وهذه واحدة من الصعوبات التي يصطدم بها، كما أسلفت القول، اختيار الأمثلة. ولقد كان سهلاً عليّ أن أسوق لكم بدل هذا المثال مثالاً آخر، لكن من المرجح أنني ما كنت لأتحاشى إفشاء ما أفشيته من سرّ بصدد هذا الحلم إلا لقاء إفشاء سرّ آخر بصدد حلم آخر.

هنا يبدو لي الظرف مؤاتياً لإدخال مصطلحين كنا نستطيع، لو شئنا، أن نستخدمهما من قبل. فسنطلق اسم **المضمون الظاهر للحلم** على ما يرويه لنا الحالم، واسم **أفكار الحلم الكامنة** على الخبيء المستتر الذي نبغي كشف الحجب عنه عن طريق تحليل الخواطر التي تتوارد إلى ذهنه بصدد حلمه. فلنفحص إذاً العلاقات، كما تبدو في الأمثلة السابقة، بين المضمون الظاهر والأفكار الكامنة للحلم. والحال أن هذه العلاقات قد تكون أصلاً على درجة كبيرة من التنوع. ففي المثالين أ و **ب** يؤلف العنصر الظاهر جزءاً، وإن طفيفاً، من الأفكار الكامنة. فقد دلف جزء من المنظومة النفسية الكبيرة المتكونة من أفكار الحلم اللاشعورية

---

٥ ـ Tisch بالألمانية تعني مائدة. «م».



إلى الحلم الظاهر، إما بصفته كسرة منها، وإما بصفته، في حالات أخرى، كناية أو تعبيراً رمزياً أو اختزالاً تلغرافياً. ومهمة العمل التـأويلي أن يكمِّل هذه الكسرة أو أن يستجلي تلك الكناية، على نحو ما وُفِّقنا إلى ذلك أتم التوفيق في الحالة **ب**. إذاً، فمن أشكال تحريف الأحلام الاستعاضة عن الشيء بجزئه أو بكنايته. أما المثال ج فينطوي، فضلاً عن ذلك، على خاصية أخرى، قد تبرز للعيان بمزيد من الجلاء والنقاء في الأمثلة التالية:

د ـ رأى الحالم أنه **يسحب من خلف السرير سيدة** (سيدة بعينها يعرفها). فإذا بأول خاطر يعرض له يكشف له عن معنى هذا العنصر من حلمه: فهو يعزّ هذه ويخصّها بإيثاره[٦].

هـ ـ رأى آخر في منامه **أخاه حبيساً في خزنة مال**. وقد استبدل في أول خاطر عرض له كلمة **خزنة مال** بكلمة **خزانة ثياب**. وفي الخاطر الثاني انجلى تأويل الحلم: فأخوه يضيِّق على نفسه ويضغط نفقاته[٧].

و ـ رأى الحالم أنه **يتسلق جبلاً تستجلي العين ما حواليه من منبسط فسيح أخّاذ**. هذا تفصيل طبيعي للغاية ولا يحتاج، على ما هو ظاهر، إلى أي تأويل. كما يبدو وكأن كل المطلوب أن نعرف ما الذكرى التي يرتبط بها هذا الحلم وما السبب الذي أدى إلى استحضارها. ألا كم نخطئ! فهذا الحلم بحاجة إلى تأويل، شأنه في ذلك شأن أي حلم آخر مشوَّش وملتبس. فليس تسلق الجبال هو ما ورد إلى ذهن صاحب الحلم، بل ذهب به الفكر فقط إلى صديق من أصدقائه، يصدر «مجلة» متخصصة في العلاقات مع أنأى أقطار المعمورة. وعليه، إن فكرة الحلم الكامنة تتمثل في هذه الحالة في تقمص الحالم شخصية «من يستجلي ما حواليه»[٨].

---

٦ ـ بين كلمتي سحب وآثر بالألمانية جناس ناقص. «م».

٧ ـ بين خزنة وخزانة جناس بالألمانية كما بالعربية، وبينهما وبين ضيّق على نفسه وضغط نفقاته ضرب من الجناس أيضاً بالألمانية. «م».

٨ ـ العلاقة هنا أيضاً علاقة جناس لفظي في الألمانية كما بالعربية بين مجلة Rundschau وبين استجلى Rundchauer. «م».



هنا نلفي طرازاً جديداً من العلاقات بين عنصر الحلم الظاهر وعنصره الكامن. فالعنصر الأول ليس تحريفاً للثاني بقدر ما هو تمثيل مشخَّص له، أي تشخيص بصور تشكيلية وعينية انطلاقاً من المنطوق اللفظي. والحق أن الأمر في هذه الحالة أيضاً ضرب من التحريف، لأننا حين ننطق بكلمة ما نكون قد نسينا منذ زمن بعيد ذكرى الصورة العينية التي نشأت منها اللفظة أصلاً، فلا نعود نتعرفها حين تحلّ محلها هذه الصورة من جديد. ولو أخذتم بعين الاعتبار أن الحلم الظاهر يتألف في المقام الأول من صور بصرية، وفيما ندر من أفكار وألفاظ، لأدركتم مدى الأهمية التي ينبغي أن نخصّ بها هذا الطراز من العلاقات من وجهة نظر تأويل الحلم. ولرأيتم أيضاً أنه تتاح لنا بذلك إمكانية خلق صور بديلة عن طائفة بكاملها من الأفكار المجردة في الحلم الظاهر، وهذا من دون أن تتناقض هذه الصور البتة مع نية الإخفاء. تلكم هي التقنية المعتمدة في «حزّورة الصور»[٩]. لكن ما مصدر ذلك المظهر التنكيتي الذي يتلبسه هذا النمط من التمثيلات؟ هذه مسألة أخرى ليس الآن مجال بحثها.

وسأضرب صفحاً عن طراز رابع من العلاقات بين العنصر الكامن والعنصر الظاهر. وسأعود لأحدثكم عنه حين ينكشف من تلقاء نفسه في تقنيتنا التأويلية. وبديهي أن تعدادنا، بسبب هذا الإغفال، لن يكون كاملاً، غير أنه يكفينا، بما هو كذلك، حاجتنا.

ألديكم الشجاعة الآن للتنطع لتأويل حلم بكامله؟ لنجرب ذلك لنرى إن كنا قد استعددنا استعداداً كافياً لهذه المهمة. وغني عن القول أن الحلم الذي سأختاره ستكون له، بكل البروز الممكن، جميع خصائص الأحلام، من دون أن يكون من أكثر هذه الأحلام غموضاً واستغلاقاً.

حلمت سيدة شابة أيضاً، متزوجة منذ عدة سنوات، بالحلم التالي: **ألفت نفسها مع زوجها في المسرح، وكان عدد من المقاعد الأمامية خالياً خلواً تاماً. وروى لها زوجها أن إليزا ل.. وخطيبها كانا يريدان الحضور إلى المسرح**

٩ ـ حزّورة الصور: ضرب من لعبة شائعة في بعض بلدان أوروبا، وقوامها حزر بعض الكلمات أو الجمل من خلال رسوم يرمز الواحد منها إلى مقطع من كلمة. «م».



أيضاً، لكنهما لم يجدا إلا مقاعد غير مناسبة (ثلاثة مقاعد بفلوران[١٠] واحد و٥٠ كروزيراً)، فما أمكنهما أن يقبلا بها. وكان رأيها أنهما لم يخسرا من جراء ذلك شيئاً ذا بال.

إن أول ما كاشفتنا به الحالمة بصدد حلمها يدل على أن ذريعة هذا الحلم تكمن سلفاً في مضمونه الظاهر. فقد كان زوجها أنبأها بالفعل أن أليزا ل...، وهي صديقة لها في مثل عمرها، قد خطبت. إذاً فقد جاء الحلم استجابة لهذا النبأ. ونحن نعرف من قبل أنه من السهل في الكثير من الأحوال العثور على ذريعة الحلم في أحداث النهار السابق، وأن الحالمين يشيرون بغير ما عناء إلى هذه الصلة. وقد زوّدتنا صاحبة الحلم بمعلومات مماثلة بالنسبة إلى عناصر أخرى من حلمها الظاهر. فمن أين جاء التفصيل المتعلق بخلوٍّ مقاعد الشطر الأمامي من الصالة من النظارة؟ إن هذا التفصيل لهو بدوره إلماع إلى حدث فعلي حدث في الأسبوع السابق. فقد كانت نوت حضور أحد العروض المسرحية، وابتاعت التذاكر **مقدماً**، واضطرت مقابل ذلك أن تدفع للحجز. ولما وصلت مع زوجها إلى المسرح، أدركت أنها أخطأت بتعجلها، لأن **شطراً من المقاعد الأمامية كان خالياً خلواً شبه تام**. إذاً ما كانت لتخسر شيئاً لو ابتاعت التذاكر يوم العرض بالذات. ثم إن زوجها لم يمسك عن السخرية منها على تعجلها هذا. ـ ومن أين يأتي التفصيل المتعلق بمبلغ الفلوران الواحد والخمسين كروزيراً؟ إنه يرجع في أصله إلى جملة من ملابسات مغايرة، لا صلة لها بالسابقة، وإن كانت تتصل هي الأخرى بنبأ سمعت به في النهار السابق للحلم. فقد تلقت أخت زوجها من زوجها هدية بمبلغ ١٥٠ فلوراناً، فما كان منها (ما أغباها!) إلا أن أسرعت إلى الجواهري لتقايض مالها بقطعة من المجوهرات ـ . وما أصل التفصيل المتعلق بالرقم ٣ (ثلاثة مقاعد)؟ هنا أعجز حالمتنا أن تقول لنا شيئاً، هذا إلا إذا أرجعناه إلى ما كاشفتنا به من أن الخطيبة، إليزا ل...، تصغرها بثلاثة شهور، بينما هي متزوجة منذ عشر سنين.

١٠ ـ الفلوران: العملة الرئيسية التي كانت معتمدة في النمسا والعديد من بلدان أوروبا الوسطى، وكان يساوي مئة كروزيراً. «م».



وكيف نفسر الإحالة المنطقية المتمثلة في شراء ثلاث تذاكر لشخصين اثنين؟ هذا ما لم تفصح عنه الحالمة، وأبت أصلاً أن تبذل أي مجهود آخر للتذكر أو للإفضاء بمزيد من المعلومات.

غير أن القليل الذي كاشفتنا به يكفي كل الكفاية للكشف عن أفكار حلمها الكامنة. فمما يلفت الانتباه أنها، في ما أفضت لنا به عن حلمها، زوَّدتنا غير مرة بتفاصيل من شأنها أن تعقد قاسماً مشتركاً بين أجزاء عدة منه. هذه التفاصيل هي جميعها من طبيعة زمنية. فقد فكرت في حجز المقاعد **قبل الأوان**، واشترت التذاكر **مقدماً بوقت طويل**، فكلَّفتها أغلى مما يجب، كما أسرعت أخت زوجها لتقايض بمالها قطعة من المجوهرات، وكأنما خشيت أن **تفوتها** فرصة ذلك. وإذا أضفنا إلى هذه العبارات الصريحة: «قبل الأوان»، «مقدماً بوقت طويل»، الظرف الذي كان بمثابة ذريعة للحلم، وهو إبلاغها أن صديقتها التي تصغرها بثلاثة أشهر فقط خطبت إلى رجل كريم، وكذلك النقد التأنيبي الذي وجهته إلى أخت زوجها على تعجُلها **البعيد عن المنطق** إلى شراء قطعة المجوهرات، توصّلنا إلى البناء التالي لأفكار الحلم الكامنة التي ما كان الحلم الظاهر إلا بديلاً محرَّفاً ورديئاً عنها:

«لقد كان **بعداً عن المنطق** من جانبي إذ تعجلت إلى هذا الحدّ في زواجي. وهأنذا أرى من مثال ليزا أنني ما كنت لأخسر شيئاً لو انتظرت» (التعجل متمثل هنا في تبكيرها في شراء التذاكر وفي إسراع أخت زوجها إلى شراء قطعة المجوهرات، كما يتمثل الزواج وبديله في ذهابها وزوجها إلى المسرح). تلكم هي في تقديرنا الفكرة الرئيسية، وبوسعنا لو شئنا أن نمضي إلى أبعد من ذلك في التأويل، ولكن بقدر أقل من اليقين في هذه الحال، على اعتبار أن التحليل لن يعود يستند في هذه الحال إلى أقوال الحالمة. من ذلك أن نفترض أنها تقلِّب بينها وبين نفسها الفكرة الآتية: «وبنفس المبلغ من المال كنت أستطيع أن أحصل على زوج أفضل بمئة مرة» (١٥٠ فلوراناً تساوي مئة ضعف فلوران واحد و٥٠ كروزيراً). ولو استبدلنا كلمة **المال** بكلمة **بائنة**، لصار معنى الجملة الأخيرة أن الزوج إنما يُشترى بالبائنة: وعندئذ تكون قطعة المجوهرات وتذاكر المسرح بمثابة تمثيلات



بديلة للزوج. وفي هذه الحال قد يكون أولى بنا أن نعرف إن كان عنصر «التذاكر الثلاث» ذا صلة برجل أيضاً. لكن ليس ثمة ما يبيح لنا المضيّ إلى هذا الحدّ. فكل ما وجدناه أن الحلم المذكور يعبر عن **ازدراء** المرأة لزوجها وعن ندمها على **التبكير في الزواج**.

وعندي أن نتيجة هذا التأويل لأحد الأحلام من شأنها أن تباغتنا وتزيدنا حيرة وبلبلة، بدلاً من أن تقنعنا وترضينا. فكثير من الأشياء تفرض نفسها علينا في آن واحد، وهذا ما يجعل اختيارنا لوجهتنا صعباً للغاية. ولا مناص لنا من التسليم من الآن فصاعداً بأننا لن نستطيع أن نستوعب جميع المعلومات التي يسفر عنها هذا التأويل. فلنبادر إذاً إلى استخلاص ما نعتبره معطيات جديدة وأكيدة.

أولاً: من المدهش أن يكون عنصر التعجل بارزاً بروزاً شديداً في الأفكار الكامنة بينما لا نلفى له من أثر في الحلم الظاهر. ولولا التحليل لما اشتبهنا قط بأن هذا العنصر يلعب دوراً ما. من المحتمل إذاً، على ما هو بادٍ، أن يكون الشيء الرئيسي، مركز الأفكار اللاشعورية بالذات، غائباً عن الأحلام الظاهرة، وهذا من شأنه أن يحدث تغييراً عميقاً في الانطباع الذي يتركه الحلم في جملته. ثانياً: ينطوي الحلم على مقاربة لامعقولة: ٣ مقاعد مقابل فلوران ونصف فلورٍان، ثم نكتشف في أفكار الحلم الفكرة التالية: لقد كان بعداً عن المنطق (إذ بكّرت في الزواج). فهل نستطيع أن ننفي نفياً باتاً أن تكون فكرة: «البعد عن المنطق» قد تمثلت في الحلم الظاهر بالعنصر اللامعقول المقحم عليه؟ ثالثاً: لو ألقينا نظرة مقارنة على العلاقات بين العناصر الظاهرة والعناصر الكامنة لاتضح لنا أنها ليست بحال من الحوال علاقات بسيطة؛ وعلى كل، ليس من المحتم دوماً أن ينوب عنصر ظاهر مناب عنصر كامن. بل هناك بالأحرى بين الطرفين علاقة إجمالية مركبة، إذ قد ينوب عنصر ظاهر مناب عناصر كامنة، كما أن العنصر الكامن قد تقوم مقامه عدة عناصر ظاهرة.

أما عن معنى الحلم وعن موقف الحالمة منه فلا يزال في جعبتنا أشياء كثيرة مدهشة نقولها بصدده. فقد وافقت صاحبة الحلم على تأويلنا له، ولكنها أبدت



دهشة وارتياعاً. فقد كانت تجهل أنها لا تكنّ في نفسها تقديراً كبيراً لزوجها، كما تجهل الأسباب التي تحملها على ازدرائه إلى ذلك الحدّ. والحق أن ثمة نقاطاً أخرى كثيرة غير مفهومة بعد. ويخيَّل إليّ بلا جدال أننا لم نستعدَّ بعدُ الاستعداد الكافي للشروع بتأويل حلم من الأحلام، وأننا لا نزال بحاجة إلى المزيد من الإرشاد والتحضير.



المحاضرة الثامنة

الأحلام الطفلية

سيداتي سادتي، يلوح لي أننا تقدمنا بخطى أسرع مما ينبغي. فلنتراجع إذاً إلى الوراء قليلاً. لقد قلنا بيننا وبين أنفسنا، قبل أن نقدم على محاولتنا الأخيرة للتغلب بواسطة تقنيتنا على الصعوبة المتمثلة بتحريف الأحلام، قلنا: لعلّ خير ما يمكن أن نفعله أن نلتف حول هذه الصعوبة، فنقصر اهتمامنا على الأحلام التي لم يحدث فيها تحريف أو لم يصبها منه إلا قدر طفيف (على فرض أن مثل هذه الأحلام موجودة). والحق أن هذا النهج معاكس لتاريخ تطور معرفتنا، إذ إننا في الواقع لم نفطن إلى وجود أحلام غير محرفة إلا بعد أن طبّقنا تقنيتنا في التأويل تطبيقاً صارماً على أحلام محرَّفة، وإلا بعد أن حلَّلنا هذه الأحلام تحليلاً كاملاً.

إن الأحلام التي ننشدها تُلحظ لدى الأطفال حصراً. فهي مقتضبة، واضحة، متماسكة المنطق، قابلة للفهم بسهولة، لا يكتنفها التباس، ومع ذلك فهي بلا مراء أحلام. ولكن تحريف الأحلام يُلحظ لدى الأطفال أيضاً، وحتى في زمن مبكر جداً. وبين أيدينا أحلام لأطفال تتراوح أعمارهم بين الخامسة والثامنة، ومتسمة بجميع سمات الأحلام في الأعمار المتأخرة. غير أننا لو قصرنا ملاحظاتنا على العمر المحصور بين بدايات النشاط النفسي القابلة للتمييز وبين السنة الرابعة أو الخامسة، لوجدنا أمامنا طائفة من أحلام ذات طابع يمكن أن نسميه بالطابع الطفلي، وهي أحلام قد نجد عينات لها لدى الأطفال الأكبر سناً. وقد نلحظ، في بعض الظروف، حتى لدى الراشدين من الناس، أحلاماً تتسم بهذا الطابع الطفلي عينه.

وعن طريق تحليل هذه الأحلام الطفلية نستطيع أن نظفر بسهولة كبيرة، وبقدر عظيم من اليقين، بمعلومات عن طبيعة الحلم تأمل ـ إذا كان الأمل في هذا المجال



جائزاً ـ أن تكون حاسمة في أهميتها وشاملة في قيمتها.

١ ـ لكي نفهم هذه الأحلام، ليس بنا حاجة إلى تحليلها ولا إلى تطبيق تقنية ما عليها. ولا يتعيَّن علينا أن نستجوب الطفل الذي يروي حلمه. غير أنه ينبغي أن نكمِّل هذا الحلم بتجميع معلومات عن حياة الطفل. وسنجد أن هناك على الدوام حدثاً وقع للطفل في النهار السابق للحلم، وهذا الحدث هو الذي يفسر لنا هذا الحلم. فما الحلم إلا استجابة أثناء النوم للحدث الذي وقع في حالة اليقظة.

لنضرب بعض أمثلة لتكون لنا مرتكزاً لاستنتاجاتنا اللاحقة:

أ ـ كُلِّف غلام له من العمر ٢٢ شهراً بأن يقدم سلّة من الكرز هدية لطفل آخر في مناسبة تهنئة. ففعل ذلك كارهاً، رغم أنه وُعد بأن يحصل هو نفسه على بعض الكرزات. وفي صباح اليوم التالي روى أن «هرمان أكل كل الكرز».

ب ـ قامت فتاة لها من العمر ثلاث سنوات وثلاثة أشهر بأول نزهة لها في عرض البحر. فلما رسا المركب أبت أن تغادره وطفقت تبكي بكاء مراً. فقد بدا لها أن مدة النزهة أقصر مما ينبغي. وفي صباح اليوم التالي روت: «سافرت هذه الليلة في البحر». وينبغي أن نكمِّل هذه القصة بأن نذكر أن تلك النزهة دامت مدة أطول مما ادعته الطفلة.

ج ـ أُخذ غلام له من العمر خمسة أعوام وستة أشهر في رحلة إلى وادي أشرنتال، بالقرب من هالشتات[١]. وكان قد سمع أن هالشتات تقع عند سفح جبل داخشتاين، وهو جبل يثير شديد اهتمامه. فمن مُقامه في آوسي[٢] كان جبل الداخشتاين يُرى بوضوح، وكان يمكن أن يرى بالمنظار ملاذ سيموني[٣]. وقد حاول الطفل عدة مرات أن يعاين بالمنظار هذا الملاذ، ولكن لا أحد يدري ماذا كانت النتيجة. وقد بدأت هذه الرحلة في جو من المرح، وثار فضول الغلام ثورة شديدة. فكلما أبصر بجبل سأل: «أهو الداخشتاين؟». ولكنه من كثرة ما

---

١ ـ هالشتات: بلدة نمسوية، اكتشفت فيها آثار من عصر الحديد ما قبل التاريخي، مما يطلق عليه المؤرخون اسم حضارة هالشتات. «م».

٢ ـ باد آوسي: مدينة نمساوية تقع في جبال الألب وفيها منتجع للمياه المعدنية. «م».

٣ ـ ملاذ سيموني: ملاذ من الثلوج وللتزلج يقع في جبال داخشتاين على ارتفاع ٢٢٠٠ م. «م».



تلقى من أجوبة بالنفي مال إلى التزام الصمت، وفي آخر المطاف أمسك عن الكلام نهائياً ورفض أن يشارك في تسلق تل صغير يطلّ على مسقط من مساقط المياه. فحسبه رفاقه متعباً، لكنه قصّ عليهم في صباح اليوم التالي وهو يطفح بشراً: «لقد رأيت في نومي أننا تسلقنا إلى ملاذ سيموني». إذاً، فالطفل لم يشترك في الرحلة إلا بأمل القيام بهذه الزيارة. أما التفاصيل فلم يدلِ منها إلا بتفصيل واحد كان قد سمعه من قبل وهو أن الوصول إلى الملاذ يقتضي الصعود على أدراج لمدة ست ساعات.

إن هذه الأحلام الثلاثة لقمينة بأن تزودنا بكل ما قد نطلبه من معلومات.

٢ ـ يتضح من هذا أن أحلام الأطفال هذه لا تفتقر إلى المعنى: بل هي **أفعال نفسية مفهومة، كاملة**. تذكروا ما قلته لكم بصدد الحكم الذي يطلقه الأطباء على الأحلام، وعلى الأخص المقارنة مع الأصوات التي تصدر عن الآلة الموسيقية متى ما مرت عليها أصابع يد غير ماهرة. ومن المؤكد أن التباين الصارخ بين أحلام الأطفال وبين هذا التصور لن يفوتكم. لكن أليس من العجب أن يقتدر الطفل على إنجاز أفعال نفسية كاملة في أثناء النوم، على حين أن كل ما يصدر عن الراشد في ظروف مماثلة لا يعدو أن يكون استجابات اختلاجية؟ أضف إلى هذا أن لدينا من الأسباب ما يحملنا على الاعتقاد بأن الطفل ينعم بنوم أحسن وأعمق.

٣ ـ إن هذه الأحلام الطفلية التي لم يطرأ عليها أي تحريف لا تقتضي أي عمل تأويلي. فالحلم الظاهر والحلم الكامن يتداخلان ويتطابقان هنا. وعليه، إن **التحريف ليس صفة طبيعية للحلم**. وآمل أن يخفف هذا القول من بعض ما يجثم على صدوركم من حرج بصدد تأويل بعض الأحلام. غير أنه لا بدّ لي من تنبيهكم إلى أن التأمل عن كثب في هذه الأحلام سيضطرنا إلى التسليم بأنه حتى هذه الأحلام لا تخلو من بعض التحريف، من بعض التباين بين المضمون الظاهر والأفكار الكامنة.

٤ ـ إن الحلم الطفلي استجابة لحدث من أحداث النهار، حدث خلّف وراءه أسفاً أو كرباً أو رغبة غير مشبعة. **والحلم يأتي بتحقيق مباشر، غير مقنَّع، لهذه**



الرغبة. تذكروا الآن ما قلناه بصدد دور التنبيهات الجسمانية الخارجية والداخلية التي اعتبرناها مقلقة للنوم ومحدِثة للأحلام. وقد خرجنا من ذلك ببضع وقائع مؤكدة، غير أن هذا التفسير لم ينطبق إلا على عدد ضئيل من الأحلام. وفي أحلام الأطفال هذه لا شيء يدل على تأثير مثل هذه التنبيهات البدنية، ولا مجال للخطأ بصدد هذه النقطة، على اعتبار أن هذه الأحلام تكون كلها مفهومة تمام الفهم وسهلاً استيعابها بنظرة واحدة. لكن ليس في هذا سبب لنبذ التفسير القائل بأن الأحلام تنشأ عن التنبيه. على أنه بوسعنا أن نتساءل كيف أمكن لنا أن ننسى من البداية أن النوم قد تقلقه لا تنبيهات بدنية فحسب، بل نفسية كذلك؟ وهذا مع أننا نعلم أن التنبيهات النفسية هي التي تقلق في أغلب الأحيان نوم الراشد، لأنها تحول بينه وبين تحقيق الشرط النفسي للنوم، أي التجرد من كل اهتمام بالعالم الخارجي. فالراشد لا ينام لأنه يتردد في وقف حياته النشطة، ولا يبغي أن يتوقف نشاطه في ما يهمه ويشغله. أما لدى الطفل فإن التنبيه النفسي، المقلق للنوم، يصدر عن الرغبة اللامشبعة التي لا يعدو الحلم أن يكون استجابة لها.

٥ ـ انطلاقاً من هذه النقطة سننتهي، بأقصر الطرق، إلى استنتاجات بصدد وظيفة الحلم. فما دام الحلم استجابة للتنبيه النفسي، فلا بدّ أن تكون وظيفته إبعاد هذا التنبيه كيما يتاح للنوم أن يستمر موصولاً. فما الوسيلة الدينامية التي تتيح للحلم أن يقوم بعبء هذه الوظيفة؟ هذا ما نجهله بعد، لكن بوسعنا أن نقول من الآن إن **الحلم ليس معكراً للنوم**، كما يؤخذ عليه عادة، **بل هو حارس للنوم يذود عنه ويحميه من كل ما يمكن أن يقلقه.**

وإننا لنخطئ لو تصورنا أننا بدون الأحلام ننام نوماً أهنأ؛ والواقع أننا لولا مساعدة الحلم لما نمنا على الإطلاق. فله ندين بالنزر اليسير من النوم الذي نعمنا به. على أنه لا سبيل إلى الإنكار بأن الحلم قد يسبِّب لنا بعض الإزعاج، تماماً كما يضطر الحارس الليلي إلى أن يحدث هو نفسه بعض الضوضاء عندما يلاحق من يحدث ضجة ليلية قمينة بأن تعكر نومنا تعكيراً أكبر بما لا يقاس.

٦ ـ إن الرغبة هي منبه الحلم، وتحقيق هذه الرغبة هو مضمون الحلم: تلكم هي إحدى الصفتين الرئيسيتين للحلم. أما الصفة الثانية فلا تقلّ اطراداً عن



الأولى، وهي أن الحلم لا يقنع بالتعبير عن فكرة، بل يصور الرغبة وكأنها أشبعت، في شكل حدث نفسي هلسي Hallucinatoire. **أودّ لو أسافر في البحر**: هذه هي الرغبة المنبِّهة للحلم. **إني أسافر في البحر**: هذا هو مضمون الحلم. إذاً يبقى هناك، حتى في أحلام الأطفال، على بساطتها اللامتناهية، فارق بين الحلم الكامن والحلم الظاهر، فارق يتمثَّل بتحريفٍ لفكرة الحلم الكامنة بحيث **تتحول الفكرة إلى حدث معاش**. وينبغي، عند تأويل الحلم، أن نضرب صفحاً عن هذا التغيير الطفيف. فلو صحّ أن هذه واحدة من أعمّ صفات الحلم، لكان يتعيَّن علينا أن نترجم تلك النبذة من الحلم التي أوردناها أعلاه: **رأيت أخي حبيساً في خزنة**، لا بالقول: **إن أخي يضيِّق على نفسه ويضغط نفقاته**، بل بالقول: أودّ لو يضيِّق أخي على نفسه، ويجب على أخي أن يضغط نفقاته. ولنشر هنا إلى أن الصفة الثانية من الصفتين العامتين للحلم ـ كما تقدم بيانهما ـ أوفر حظاً من الأولى في أن تلقى قبولاً بلا اعتراض. فنحن لا نستطيع أن نثبت أن منبِّه الحلم يتحتم أن يكون على الدوام رغبة من الرغبات، وليس شاغلاً من الشواغل أو مقصداً من المقاصد أو ضرباً من التأنيب والتبكيت، إلا بعد أبحاث مستفيضة تطال كمية وفيرة من المواد؛ لكن هذا لا صلة له بالخاصية الأخرى للحلم والمتمثلة في أن الحلم لا يكتفي بتصوير التنبيه واستنساخه كما هو، بل يلغيه ويبعده ويستنفده عن طريق ضرب من تجربة حياتية.

٧ ـ إذا ما أخذنا صفتي الحلم هاتين بعين الاعتبار، استطعنا أن نعود إلى المقارنة بين الحلم والهفوة. ففي هذه الأخيرة نميِّز ميلاً متعدِّياً وميلاً متعدَّى عليه، ونرى في الهفوة بحدّ ذاتها تسوية بين هذين الميلين. هذا المخطط نفسه ينطبق على الحلم. فالميل المتعدى عليه في الحلم لا يمكن أن يكون سوى الميل إلى النوم. أما الميل المتعدي فنستعيض عنه بالتنبيه النفسي، أي بالرغبة التي تنشد تلبية وإشباعاً: وبالفعل إننا لا نعرف لحدّ الآن أي منبه نفسي آخر حقيق بتعكير النوم. وعلى هذا، يجوز الافتراض بأن الحلم ينجم، هو الآخر، عن تسوية. فنحن إذ ننام، نشعر بإشباع لرغبة؛ وإذ نشبع رغبة، نواصل النوم. إذاً فهناك إشباع جزئي وإلغاء جزئي للميلين كليهما.



٨ ـ تذكروا الأمل الذي راودنا آنفاً بأن نتمكن من أن نتخذ بعض منتجات الخيال الشاقّة بالنسبة إلينا، والتي أطلق عليها اسم أحلام اليقظة، منفذاً إلى فهم معضلات الحلم. وبالفعل، ما أحلام اليقظة هذه إلا إنجاز لرغبات طموحة أو إيروسية معلومة لدينا حقَّ العلم. لكن تحقيق هذه الرغبات، مهما جرى تصويرها بحيوية، لا يخرج من حيِّز الفكر والتصور، ولا يأخذ أبداً شكل أحداث نفسية هلسية. وعلى هذا، إن الصفة الأقل يقيناً وثباتاً من الصفتين الرئيسيتين للأحلام هي التي ترجح كفتها هنا، بينما تتلاشى الصفة الأخرى لأنها رهن بحالة النوم وغير قابلة للتحقق في حياة اليقظة. ويبدو أن اللغة الدارجة نفسها تشتبه في أن الصفة الرئيسية للأحلام تكمن في تحقيق رغبات. ولنقل، عابرين، إن الأحداث المعاشة في الحلم إن صحَّ أنها محض تمثلات وتصورات تتيحها شروط حالة النوم، أي «أحلام يقظة ليلية» إن جاز التعبير، استطعنا أن نفهم على التو أن تكون نتيجة تكوين الحلم إلغاء التنبيه الليلي وإشباع الرغبة، لأن نشاط أحلام اليقظة ينطوي هو الآخر على إشباع للرغبة، والإنسان لا يلجأ إليه إلا بغرض هذا الإشباع.

وثمة تعابير لغوية أخرى تنمّ عن المعنى نفسه. فهل منا من يجهل القول السائر: «الخنزير يحلم بالخرنوب، والأوزة تحلم بالذرة»؟ أو السؤال القائل: «بمَ تحلم الدجاجة؟» والجواب: «بحبوب الذرة البيضاء»؟ هكذا يهبط القول السائر إلى أدنى مما فعلنا، أي من مستوى الطفل إلى مستوى الحيوان، ويقرِّر هو الآخر أن مضمون الحلم إشباع حاجة من الحاجات. وكثيرة هي التعابير التي تشير إلى المعنى نفسه: «جميل كأنه حلم»، «ما كنت لأحلم قط بشيء كهذا»، «هذا شيء ما كان ليخطر لي ببال، ولا حتى في أجرأ أحلامي». وتنمّ اللغة الدارجة هنا عن انحياز واضح. ذلك أن هناك أحلاماً يصاحبها حصر، وأحلاماً ذات مضمون مؤلم أو حيادي، لكن هذه الأحلام لم تحظَ من اللغة الدارجة بضيافة. صحيح أن هذه اللغة تتحدث عن أحلام «مزعجة»، لكن الحلم على إطلاقه عندها هو الحلم الذي ينطوي على تلبية مستطابة لرغبة من الرغبات. وليس ثمة من قول سائر يتحدث عن خنزير أو إوزة يحلمان بأنهما يُذبحان!



لا شك في أننا سنستغرب لو أن الباحثين في الأحلام فاتهم أن يلحظوا أن وظيفتها الرئيسية تكمن في تحقيق رغبات. فهم كثيراً ما أشاروا على العكس إلى هذه الخاصية، لكن ما خطر قط لأحد منهم أن يعترف بعمومية هذه الخاصية وأن يتخذها منطلقاً لتفسير الحلم. ولا يشقّ علينا أن ندرك ما الذي حال بينهم وبين ذلك (ولنا إلى هذه المسألة عودة).

لنتأمل الآن في جميع المعلومات الثمينة التي ظفرنا بها، بلا مشقة تقريباً، من فحص أحلام الأطفال. فقد عرفنا في المقام الأول أن وظيفة الحلم أن يكون حارساً للنوم، وأنه ينشأ عن التقاء ميلين متعاكسين، يظل أحدهما، وهو الحاجة إلى النوم، مستمراً ثابتاً، بينما يسعى الآخر على العكس إلى إشباع تنبيه نفسي. وبتنا نملك الدليل، ثانياً، على أن الحلم فعل نفسي، ذو دلالة، ونعلم أن صفتيه الرئيسيتين هما إشباع الرغبات وعيش تجربة نفسية هلسية. على أننا كدنا ننسى، ونحن نجمع كل هذه المعلومات، أن شاغلنا الأول هو التحليل النفسي. والحال أن عملنا، باستثناء الصلة التي أقمناها بين الأحلام والهفوات، لم يكن ينطوي على طابع نوعي خاص. وقد كان في مقدور أي اختصاصي في علم النفس أن يقدِّم مثل هذا التفسير لأحلام الأطفال، حتى ولو كان جاهلاً جهلاً مطبقاً بمبادئ التحليل النفسي. فلمَ لم يفعل ذلك أحد من الاختصاصيين في علم النفس؟

لو كانت الأحلام كلها أحلاماً طفلية، لحلَّت المعضلة ولانتهت مهمتنا، من دون أن تكون بنا حاجة إلى استجواب الحالم والرجوع إلى اللاشعور واللجوء إلى التداعي الحر. وقد لاحظنا غير مرة أن بعض الخصائص، التي عزونا إليها في بادئ الأمر أهمية عامة، لم تلبث أن تكشَّفت في الواقع عن أنها محصورة بفئة محدودة وبعدد محدود من الأحلام. المطلوب إذاً أن نعرف هل الخصائص العامة التي تتسم بها أحلام الأطفال أكثر ثباتاً وأكثر تكراراً، وهل تصدق أيضاً على الأحلام الأقل شفافية والأحلام التي لا يشفّ مضمونها الظاهر عن أي ارتباط ببقايا رغبة نهارية؟ وبحسب تصورنا، طرأ على هذه الأحلام تحريف كبير، مما لا يبيح لنا أن نصدر عليها حكماً فورياً. ونستشفّ كذلك أننا بحاجة، كيما نفسّر



هذا التحريف، إلى التقنية التحليلية النفسية التي أمكننا، مع ذلك، الاستغناء عنها ونحن نجمع معلوماتنا عن أحلام الأطفال.

ثمة طائفة أخرى من الأحلام غير المحرَّفة تشبه أحلام الأطفال من حيث أنها تبدو وكأنها تحقيق لرغبات. إنها الأحلام التي تنشأ، على مدى الحياة، عن الحاجات العضوية الآسرة: الجوع، العطش، الحاجات الجنسية. هي إذاً تحقيق لرغبات عن طريق الاستجابة لتنبيهات باطنة. من ذلك أن طفلة لها من العمر تسعة عشر شهراً رأت حلماً قوامه لائحة طعام أضافت إليها اسمها (آنا ف.. فريز، توت بري، بيض مقلي، حساء). وكان هذا الحلم استجابة للحِمْية التي فرضت عليها ليوم كامل بسبب عسر هضم أصابها وعزاه أهلها إلى تخمة بالفريز والتوت البري. كذلك إن جدة هذه الطفلة ـ ولو أضيف عمرها إلى عمر حفيدتها لكان المجموع ٧٠ سنة ـ اضطرت إلى الامتناع عن الطعام ليوم كامل أيضاً بسبب اضطرابات أصابتها من كلوتها السائبة، فرأت ليلاً في منامها أنها دعيت إلى العشاء لدى أصدقاء قدَّموا لها أشهى الأطباق. وتدل المشاهدات المتعلقة بالمساجين المحرومين من الغذاء أو بأشخاص يتعرضون، أثناء الأسفار والاستكشافات، لظروف يكابدون فيها الحرمان الشديد، أن جميع الأحلام في هذه الشروط يدور موضوعها على تلبية الرغبات التي لا سبيل إلى إشباعها في الواقع. يتحدث أوتو نوردنسكولد Otto Nordenskjold[٤] في كتابه عن **القطب الجنوبي** (المجلد١، ص ٣٣٦، عام ١٩٠٤) على النحو التالي عن الفريق الذي أمضى معه فترة الشتاء: «كانت أحلامنا، التي لم يسبق لها قط أن كانت بمثل هذا الوضوح وهذه الكثرة، بليغة الدلالة من حيث إشارتها إلى الاتجاه الذي تتحرك فيه أفكارنا. وحتى أولئك من رفاقنا الذين ما كانوا يحلمون في الحياة العادية إلا فيما ندر، صاروا يقصّون علينا قصصاً طويلة كل صباح حين نجتمع لنتبادل آخر ما قبسناه من خبرات من عالم الخيال. وكان مدار جميع تلك الأحلام حول العالم الخارجي الذي نأينا عنه غاية النأي، ولكن كثيراً أيضاً حول

٤ ـ أوتو نوردنسكولد: جيولوجي ومستكشف سويدي (١٨٦٩ ـ ١٩٢٨). اشتهر باستشكافاته في القطبين الشمالي والجنوبي. «م».



وضعنا في ذلك الحين... الطعام والشراب: ذلكم هو المركز الذي كانت تدور حوله أحلامنا في أغلب الأوقات. وكان أحدنا قد اختصَّ برؤية ولائم عظيمة في منامه، وكان يلذّ له أن يروي لنا صباحاً أنه تناول وجبة من ثلاثة أطباق. وكان آخر يحلم بالتبغ، بجبال من التبغ. وكان ثالث يرى في أحلامه المركب يتقدم باسطاً أشرعته فوق المياه الطليقة. وثمة حلم آخر جدير بالذكر: فقد جاء ساعي البريد بالرسائل وشرح لماذا طال تأخره، إذ إنه أخطأ في التوزيع ولم يفلح إلا بعد عناء شديد في استرداد الرسائل. وكانت تشغل أذهاننا أثناء النوم بطبيعة الحال أشياء أكثر بعداً عن المنطق، لكن الخيال في جميع الأحلام التي حلمت بها أنا نفسي أو سمعت قصتها من الآخرين كان فقيراً إلى حدّ مدهش. ولو كان أتيح لنا أن نسجل هذه الأحلام كلها، لكانت بمثابة وثائق ذات فائدة سيكولوجية جلي. لكن ليس من العسير أن يفهم القارئ كم كنا جميعنا نرحب بالنوم ونتلهف إليه، لما يتيحه لنا مما نتوق إليه أحرّ التوق».

وسأقتبس أيضاً بعضاً مما كتبه دي برل Du Prel[٥]: «لما سقط منغو بارك[٦] في شبه غيبوبة من شدة الجوع، وهو في رحلة عبر أفريقيا، راح يحلم باستمرار بالوديان والسهول المخضوضرة في مسقط رأيه. كذلك لما عضَّ الجوع ترنك[٧] بنابه رأى في منامه أنه جالس في حانة في ماغدبورغ[٨] إلى مائدة عامرة بأشهى المآكل. أما جورج باك[٩]، الذي شارك في بعثة فرانكلين[١٠] الاستشكافية

٥ ـ كارل دي برل: فيلسوف ومنجِّم ألماني (١٨٣٩ ـ ١٨٩٩). أشهر مؤلفاته: **فلسفة التصوف**، ومنه يقبس فرويد شاهده. «م».

٦ ـ منغو بارك: طبيب ومستكشف إسكتلندي (١٧٧١ ـ ١٨٠٦). مات غرقاً في نهر النيجر أثناء القتال مع السكان الأصليين. «م».

٧ ـ البارون فريدريش فون دير ترنك: كاتب ومغامر ألماني (١٧٢٦ ـ ١٧٩٤). سُجن، بسبب مغامراته، في ألمانيا والنمسا مراراً. وفي الختام قطع رأسه بالمقصلة في باريس في عهد الإرهاب بتهمة التجسس لصالح ملك بروسيا. له مذكرات عن حياته في ثلاثة مجلدات. «م».

٨ ـ ماغدبورغ: مدينة نمساوية تقع على ضفاف نهر لوبا. «م».

٩ ـ جورج باك: ملاح وأميرال إنكليزي (١٧٩٦ ـ ١٨٧٨). استكشف القطب الشمالي الكندي. «م».

١٠ ـ جون فرانكلين: مستكشف إنكليزي (١٧٨٦ ـ ١٨٤٧). وضع خرائط لثلثي السواحل الأميركية الشمالية. وتولى حكم ولاية تسمانيا في أوستراليا من ١٨٣٦ إلى عام ١٨٤٣. «م».



الأولى، فكان يحلم على الدوام وبانتظام بموفور الطعام، بينما هو يحتضر بكل ما في الكلمة من معنى من شدة تضوُّره من الجوع بعد أن نضب القوت نضوباً رهيباً».

إن من يشعر بالعطش في أثناء نومه، من طعام كثير التوابل أصابه عشية، يحلم بسهولة أنه يشرب. وبديهي أنه يستحيل إلغاء الشعور المبرِّح بالجوع أو العطش بمجرد الحلم، لذا يفيق الإنسان من هذه الأحلام على ظمأ ولا يكون أمامه بدّ من أن يشرب ماء حقيقياً. والخدمة التي تؤديها الأحلام، من وجهة النظر العملية، لا غناء فيها في هذه الحالات، لكن يبقى هدفها مع ذلك حماية النوم من التنبيه الذي يحفز النائم على الاستيقاظ والمبادرة إلى الفعل. أما إذا كانت الحاجات على درجة أقل من الشدة، فكثيراً ما تكون أحلام الترضية ذات أثر ناجع.

كذلك يوفِّر الحلم، تحت تأثير التنبيهات الجنسية، تلبية لهذه التنبيهات، وإن تكن تلبية من نوع خاص جدير بالتنويه به. فالحاجة الجنسية لا ترتبط بموضوعها بمثل الصلة الوثيقة التي تربط الجوع والعطش بموضوعهما، لذا من الممكن أن نظفر بتلبية فعلية لدى القذف اللاإرادي للسائل المنوي. ونظراً إلى بعض الصعاب التي تتصل بالعلاقة الموضوعانية، كثيراً ما يتصف الحلم المقترن بتلبية فعلية بمضمون مبهم أو محرَّف. وكما يلاحظ أ. رانك O.Rank[١١]، إن هذه الخاصية التي تتصف بها أحلام القذف اللاإرادي تجعلها صالحة كل الصلاح لدراستها من منظور تحريف الأحلام. ثم إن جميع أحلام الراشدين التي يدور موضوعها حول حاجات تنطوي أصلاً عن شيء آخر غير التلبية والإشباع، شيء يصدر عن تنبيهات نفسية خالصة ويقتضي تأويلاً كيما يُفهم.

ونحن لا نزعم على كل حال أن أحلام الراشدين المتكونة بحسب طراز الأحلام الطفلية، والمنطوية على إشباع لرغبات، هي محض استجابات للحاجات الآسرة التي تقدَّم بيانها. فنحن نعرف أيضاً أحلام راشدين، مقتضبة وواضحة، تنشأ تحت تأثير بعض المواقف النفسية الغالبة، وتصدر عن تنبيهات نفسية أكيدة.

١١ ـ يقبس فرويد شاهده هنا من مقال أوتو رانك: «الحاثات الجنسية الراهنة كعوامل مسبِّبة للحلم» الذي نشره عام ١٩١٢ في **مجلة التحليل النفسي**. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.



ومن ذلك، على سبيل المثال، أحلام التلهف: فبعد أن نأخذ كامل استعداداتنا لرحلة ما، أو لمشاهدة مسرحية تحظى منا بفائق الاهتمام، أو لحضور محاضرة، أو للقيام بزيارة، نحلم ليلاً أن الهدف الذي نتوق إليه قد تحقق، كأن نجد أنفسنا في المسرح أو قيد التحادث مع الشخص الذي نتلهف لرؤيته. ومن ذلك أيضاً الأحلام التي تسمى بحقٍّ «أحلام الكسل»: فالأشخاص الذين يطيب لهم إطالة نومهم يحلمون بأنهم نهضوا فعلاً، وأنهم بسبيلهم إلى الاغتسال والتزين أو أنهم وصلوا إلى مراكز عملهم، مع أنهم في الواقع ما زالوا غارقين في النوم، مدللين بذلك أنهم يؤثرون النهوض الوهمي على النهوض الفعلي. وفي هذا النوع من الأحلام تتجلى بمنتهى الوضوح الرغبة في النوم التي لها دورها الدائم، كما رأينا، في تكوين الأحلام، وتكون هي العامل الرئيسي فيه. والحق أن الحاجة إلى النوم تحتل مكانها، بلا جدال، إلى جانب الحاجات العضوية الكبرى الأخرى.

سأريكم الآن نسخة من لوحة بريشة شفيند Schwind[١٢]، موجودة في معرض شاك Schack[١٣] للوحات بميونيخ، لأبيِّن لكم كيف استطاع الفنان بقوة حدسه أن يردّ أصل حلم من الأحلام إلى موقف نفسي غالب. إنها **حلم السجين** الذي لا يمكن أن يكون له من مضمون بطبيعة الحال سوى الهرب والفرار. واللقطة في اللوحة تتمثل في أن هذا الفرار لا بدّ أن يتمّ عن طريق النافذة، على اعتبار أن التنبيه الضوئي الذي أيقظ السجين من نومه إنما دلف من النافذة تحديداً. أما العفاريت الأقزام المتراكبون بعضهم فوق بعض فيمثلون الوضعيات المتتالية التي لا بدّ أن يتخذها السجين حتى يبلغ النافذة. ويخيَّل إليَّ، اللهم إلا إذا أخطأت وعزوت إلى الرسام نيات لم تراوده، أن القزم الذي يقف في أعلى الهرم والذي ينشر قضبان الشباك ـ مؤدياً بذلك العمل الذي يتمنى السجين لو كان في مقدوره هو أن يفعله ـ يشبه شبهاً عجيباً هذا الأخير.

١٢ ـ موريتز فون شفيند: رسام نمساوي (١٨٠٤ ـ ١٨٧١). تولى زخرفة عدة قصور ولُقب بالرسام الشاعر. «م».

١٢ ـ معرض خاص للوحات في ميونيخ أنشأه هاوي جمع الرسوم والناقد الفني الكونت أدولف فون شاك (١٨١٥ ـ ١٨٩٩). «م».



قلنا إن التحريف في جميع الأحلام، باستثناء أحلام الأطفال والأحلام من الطراز الطفلي، ينتصب عقبة في طريقنا. ولا يسعنا أن نقطع من بادئ الأمر أن هذه الأحلام غير الطفلية تمثّل، هي الأخرى، تحقيقاً لرغبات، كما نميل إلى افتراض ذلك؛ فمضمونها الظاهر لا يميط لنا اللثام عن التنبيه النفسي الذي تدين له بأصلها، مثلما يتعذر علينا أن نثبت أنها ترمي هي الأخرى إلى إبعاد هذا التنبيه أو إلغائه. فهذه الأحلام لا بدّ أن تؤوَّل، أي أن تترجم، ولا بدّ أن يُصحَّح تحريفها ويُقوَّم، وأن يُستبدل مضمونها الظاهر بمضمونها الكامن، وعندئذ فقط سيكون في مقدورنا أن نحكم ما إذا كانت المعطيات التي تصدق على الأحلام الطفلية تصدق أيضاً على الأحلام كافة بلا استثناء.




مكتبة
الفكر الجديد


مكتبة
الفكر الجديد

المحاضرة التاسعة

رقابة الحلم

سيداتي سادتي، كشفت لنا دراسة أحلام الأطفال عن كيفية نشوء الحلم وماهيته ووظيفته. **فالحلم وسيلة لإلغاء التنبيهات (النفسية) المقلقة للنوم، علماً بأن هذا الإلغاء يتمّ عن طريق إشباع هلسي**. أما فيما يتصل بأحلام الراشدين، فما أمكننا أن نفسر سوى طائفة منها، وهي بالتحديد تلك التي وصفناها بأنها أحلام من الطراز الطفلي. وأما غير هذه، فلا نعرف شيئاً بعد بصددها، بل لن أحجم عن القول إننا لا نفهمها. وقد ظفرنا على كل حال بنتيجة مؤقتة لا يجوز لنا أن نبخسها قيمتها: ففي كل مرة يتأتى لنا أن نفهم حلماً من الأحلام أتمَّ الفهم، يتكشف لنا عن أنه تلبية هلسية لرغبة من الرغبات. وهذا اتفاق لا يمكن أن يكون عارضاً أو مما لا يعتدّ به.

وعندما نلتقي بحلم من نوع آخر نسلِّم، بعد تأملات شتى وبحكم التشابه مع تصورنا للهفوات، بأنه بديل محرَّف لمضمون نجهله وإليه ينبغي أن نردّه. ومهمتنا المباشرة هي تحليل **تحريف الحلم** هذا وفهمه.

إن تحريف الحلم هو ما يجعله يبدو لنا غريباً لامفهوماً. وكثيرة هي الأشياء التي نريد أن نعرفها بصدده: أولاً أصله وديناميته، ثانياً دوره، وأخيراً كيفية أدائه لهذا الدور. وبوسعنا أيضاً أن نقول إن تحريف الحلم هو نتيجة عمل الحلم. وسوف نصف عمل الحلم هذا ونردّه إلى القوى الفاعلة فيه.

استمعوا الآن إلى هذا الحلم. فقد دوَّنته سيدة من حلقتنا[1]. والمرأة التي

---

١ ـ السيدة الدكتورة ف. هوغ ـ هلموت(°).

° هو الاسم المستعار الذي اشتهرت به محللة الأطفال النفسية هرمين فلهلمين هوغ فون === ===



حلمت به، على حدّ ما أنبأتنا، سيدة متقدمة في السن، رفيعة الثقافة، وموضع تقدير عظيم. وقد بقي هذا الحلم بلا تحليل، إذ تزعم راويته أنه ليس بحاجة إلى أي تأويل عند الأشخاص المهتمين بالتحليل النفسي. وصاحبة الحلم نفسها لم تؤوِّله، بل حاكمته وأدانته وكأنها عرفت كيف تؤوِّله. هاكم كيف كان حكمها عليه: «إن هذا الشيء السخيف والفظيع يراود في الحلم امرأة لا همّ لها ليل نهار إلا طفلها!».

إليكم الآن هذا الحلم الذي يدور حول **خدمات الحب**. «قصدت المستشفى العسكري رقم١، وقالت للحارس إنها تودّ أن تراجع كبير الأطباء (ذكرت له اسماً لا تعرفه) لتعرض عليه خدماتها في المستشفى. وقد شددت، وهي تنطق بهذا القول، على كلمة خدمات، بحيث تأكد للعريف من فوره أنها تقصد خدمات الحب. ولما رأى أنها امرأة متقدمة في السن، تركها تدخل بعد شيء من التردد. لكنها بدل أن تصل إلى كبير الأطباء، وجدت نفسها في حجرة واسعة مظلمة، فيها عدد من الضباط والأطباء العسكريين الملتفين جلوساً أو وقوفاً حول مائدة طويلة. وتوجهت بكلامها إلى نقيب طبيب، عارضة عليه اقتراحها، ففهم قصدها من الكلمات الأولى. وهاكم نص الخطاب كما ألقته في حلمها: «إني وكثيرات من نساء فيينا وفتياتها على استعداد.. للجنود والرجال والضباط بلا تمييز...». وما نطقت بهذه الكلمات حتى سمعت (في الحلم طبعاً) لغطاً. غير أن تعبير الارتباك والخبث الذي ارتسم على وجوه الضباط بالتناوب أثبت لها أن الحضور كلهم قد فهموا قصدها. ومضت السيدة تقول: «أعرف أن قرارنا قد يبدو لكم غريباً، لكننا نحمله على محمل الجِدّ العظيم. فالجندي في ساحة القتال لا يسأل إن كان يريد أن يموت أو لا». وتلا ذلك لحظة صمت شاقة. ثم لفّها الطبيب النقيب من خصرها وقال لها: «سيدتي العزيزة، افترضي أننا وصلنا إلى هذا فعلاً.. »(لغط). فانتزعت نفسها من ذراعه، قائلة في نفسها إنه رجل كغيره

هوغوشتاين (١٨٧١ ـ ١٩٢٤). كانت أول من حاول تطبيق المنهج التحليلي النفسي مباشرة على الأطفال. نشرت تحت اسم مستعار عام ١٩١٩ كتاباً أصاب شهرة تحت عنوان **اليوميات التحليلية النفسية لبنت صغيرة**. «م».



من الرجال، ثم أجابت: «رباه، إنني امرأة عجوز، وقد لا أجد نفسي أبداً في هذه الحال. على أنه لا بدّ من مراعاة شرط: فالعمر ينبغي أن يحسب حسابه، وليس يجوز لمرأة مسنة وفتى يافع أن .. (لغط)، فسيكون ذلك فظيعاً». عندئذ قال الطبيب النقيب: «إنني أفهمك تماماً». فانفجر بعض الضباط، ومنهم ضابط كان قد غازلها في شبابه، ضاحكين. وهنا أعربت السيدة عن رغبتها في أن يرشدوها إلى كبير الأطباء الذي تعرفه، ليضع الأمور في نصابها. لكنها لاحظت، على دهشة عظيمة منها، أنها تجهل اسم هذا الطبيب. ومع ذلك دلَّها الطبيب النقيب بكل تهذيب واحترام إلى سلَّم حديدي، ضيِّق وحلزوني، يفضي إلى الطوابق العليا، وأوصاها بأن تصعد إلى الطابق الثاني. وفيما هي تهمّ بالصعود سمعت ضابطاً يقول: «إنه لقرار عظيم، سواء أكانت المرأة صبية أم عجوزاً. كل احترامي لها!». ومضت ترتقي سلماً لا نهاية له، وكلها شعور بأنها تؤدي واجباً.

«وتكرر الحلم نفسه مرتين في غضون بضعة أسابيع، مصحوباً بتعديلات عديمة الأهمية ولا معنى لها على الإطلاق (في تقدير صاحبة الحلم)».

إن هذا الحلم يتوالى مجراه كأنه أخيولة من الأخيولات النهارية، وهو في جملته متصل، لا انقطاع فيه إلا فيما ندر، كما أن الكثير من تفاصيل مضمونه كان يمكن توضيحها في حال الاستعلام عنها، ولكن ذلك، كما تعلمون، لم يحدث. على أن أهمّ ما في هذا الحلم بالنسبة إلينا احتواؤه على بعض الفجوات، لا في تذكره، بل في مضمونه. ففي ثلاثة مواضع يبدو المضمون وكأنه استنفد، إذ يقطع لغط في كل مرة خطاب السيدة. وبالنظر إلى أن هذا الحلم لن يخضع لأي تحليل، فليس يحقّ لنا أن نبدي رأياً في دلالته. غير أن هناك إلماعات وإشارات، كتلك المتضمَّنة في عبارة **خدمات الحب**، تبيح لنا الخلوص إلى بعض الاستنتاجات. ثم إن أجزاء الخطاب التي تسبق اللغط مباشرة تحتاج إلى أن تُكمل، وهذا ما لا يستقيم فعله إلا في اتجاه محدد واحد. فإذا قمنا باستكمال النواقص على نحو ما هو واجب، لاحظنا أن الحالمة تبدي استعدادها، بغية أداء واجبها الوطني، لوضع شخصها في تصرف العساكر والضباط لتلبية حاجاتهم الجنسية. وهذه بلا شك فكرة داعرة، نموذج لخيال شبق جريء، ولكن الحلم لا



يفصح عن هذه الفكرة ولا عن هذا الخيال. وكل ما هنالك أنه حيثما يقتضي السياق الإدلاء بهذا الاعتراف، ينوب منابه في الحلم الظاهر فقط لغط مبهم، فكأنه مُحي أو حُذف.

أنتم تشتبهون في أرجح الظن بأن فحش هذه المقاطع هو ما استدعى حذفها، فأين تجدون شبيهاً لهذا النهج؟ ليس عليكم، في أيامنا هذه[٢]، أن تعمِلوا فكركم كثيراً. حسبكم أن تفتحوا أي جريدة سياسية فتجدوا النص هنا أو هناك مقطوعاً، وقد بدا مكانه بياض الورق. وأنتم تعلمون أن ذلك تمّ تنفيذاً لأمر الرقابة. فهذه المساحات البيض كانت ستملؤها ولا بدّ مقاطع لم تحظَ برضى سلطات الرقابة العليا، فأمرت بحذفها. وستقولون بينكم وبين أنفسكم إن الأمر يدعو إلى الأسف، إذ لا بدّ أن تكون المقاطع المحذوفة أهمها وأفضلها إطلاقاً.

وفي أحوال أخرى لا يظهر أثر الرقابة في حذف مقاطع كاملة: إذ قد يقدِّر الكاتب أن بعض المقاطع ستقابل في الرقابة بـ «فيتو»، فيبادر إلى تخفيفها سلفاً، ويجري فيها تعديلاً طفيفاً، أو يكتفي بالتلميح والإشارة من بعيد إلى ما كان يهمّ بكتابته فعلاً. ولا تصدر الصحيفة هذه المرة وفيها فراغات بيض، غير أن بعض التوريات والجمل التي فيها شيء من الوعورة من شأنها أن تميط لكم المثال بسهولة عن الجهود التي تجشمها الكاتب ليتفادى الرقابة الرسمية، مستعيضاً عنها برقابة ذاتية مسبقة.

فلنتمسك إذاً بهذا التشبيه. قلنا إن المقاطع المغفلة أو المموهة باللغط من خطاب السيدة صاحبة الحلم كانت هي أيضاً ضحية نوع من الرقابة. ونحن نتحدث مباشرة عن **رقابة الحلم** ونعزو إليها دوراً في تحريف الأحلام. وكلما تبدَّت في الحلم الظاهر فجوات، تعيَّن إلقاء التبعة في ذلك على تدخل رقابة الحلم. بل يسعنا أن نذهب إلى أبعد من هذا فنقول إنه كلما التقينا في الحلم بعنصر واهن الضعف، ملتبس، يكتنفه الشك، بينما الذكريات التي يتركها غيره من العناصر واضحة جلية متمايزة، تعيَّن علينا أن نسلِّم بأن هذا العنصر قد

٢ ـ نذكِّر القراء بأن هذه المحاضرات قد ألقيت أثناء الحرب العالمية الأولى. «م».



تعرّض لمفعول الرقابة. لكن يندر أن تتظاهر الرقابة على ذلك النحو السافر، بل الساذج ـ إن جاز القول ـ الذي تظاهرت به في حلم تلك السيدة. فالأغلب أن تمارس دورها بالكيفية الثانية، بأن تفرض على الفكرة الحقيقية تخفيفاً وتحويراً وتلميحاً.

وتمارس رقابة الأحلام دورها بكيفية ثالثة لا أجد شبيهاً لها في مضمار رقابة الصحافة، غير أنه بوسعي التمثيل لكم على هذه الكيفية بمثال مقتبس من الحلم الوحيد الذي قمنا بتحليله حتى الآن. فأنتم تذكرون ولا ريب الحلم الذي ظهرت فيه «ثلاث تذاكر مسرح غير مناسبة بفلوران ونصف». ففي الأفكار الكامنة لهذا الحلم، احتل مكانة الصدارة عنصر «التبكير والتعجل»: فقد كان بُعداً عن المنطق الزواج مبكراً، وكان من الخلف أيضاً ابتياع تذاكر المسرحية **مقدماً** وقبل العرض **بوقت طويل**، وكان من السخف أن **تتعجل** أخت الزوج بإنفاق المال لشراء حلية. على أن هذا العنصر المركزي في أفكار الحلم لم يتسرب منه شيء إلى الحلم الظاهر الذي يتمحور فيه كل شيء حول الذهاب إلى المسرح وقطع التذاكر. وبنتيجة هذه الإزاحة لمركز الثقل، وإعادة التجميع هذه لعناصر المحتوى، بعُد الشبه بين الحلم الظاهر والحلم الكامن بعداً تعذّر معه استشفاف الأفكار الكامنة من خلال المضمون الظاهر. وهذه الإزاحة لمركز الثقل هي واحدة من الوسائل الرئيسية التي تُعتمد في تحريف الأحلام، فهي التي تضفي على الحلم ذلك الطابع الغريب العجيب الذي يجعله يبدو في نظر حالمه بالذات وكأنه ليس من نتاجه.

الإغفال، التحوير، إعادة تجميع المواد، تلكم هي إذاً مفاعيل الرقابة ووسائل تحريف الأحلام. والرقابة نفسها هي العلة الرئيسية أو إحدى العلل الرئيسية لتحريف الأحلام الذي هو موضع اهتمامنا هنا. أما التحوير وإعادة التجميع فقد درجت بنا العادة على اعتبارهما أيضاً وسيلتين من وسائل «الإزاحة».

بعد هذه الملاحظات عن مفاعيل رقابة الأحلام ونتائجها، لننظر الآن في ديناميتها. وأرجو ألا تأخذوا اصطلاح الرقابة على معنى تجسيمي[٣] أكثر مما

٣ ـ التجسيم هنا Anthropomorphisme: خلع صفات جسم الإنسان على شيء من الأشياء، وهو عند الفلاسفة التشبيه، أي خلع الصفات البشرية على الله. «م».



ينبغي، فتتصوروا رقيب الحلم في صورة قزم صارم أو عفريت يسكن في إحدى مقصورات الدماغ، ومنها يمارس وظيفته. كما أرجو ألا تعطوا هذه الكلمة معنى «موضعياً» أكثر مما يجب، فيذهب بكم الفكر إلى مركز مخّي تصدر عنه الأوامر الرقابية، فإذا ما تلف هذا المركز أو أُستؤصل انتفت الرقابة. بل أولى بنا أن نعتبر هذه الكلمة مصطلحاً مناسباً يشير إلى علاقة دينامية. وهذا لا يمنعنا البتة من أن نتساءل عن طبيعة الميول التي تمارس بها الرقابة وظيفتها، وكذلك عن طبيعة الميول التي تمارس عليها نفوذها، ولن يدهشنا أن نعلم أننا التقينا برقابة الأحلام من قبل، وإن لم نفطن إليها من الجائز.

بالفعل، هذا ما حدث. تذكروا تلك المشاهد المدهشة التي عاينّاها حين بدأنا بتطبيق تقنية التداعي الحر. فقد شعرنا آنئذ **بمقاومة** تعترض جهودنا في محاولتنا الاهتداء إلى العنصر اللاشعوري الذي يقوم عنصر الحلم بديلاً له. وقلنا إن هذه المقاومة قد تتفاوت شدة؛ فقد تكون تارة على درجة جامحة من القوة، وطوراً على درجة واهنة كل الوهن. وفي هذه الحالة الأخيرة لا يتعيَّن على عملنا التأويلي إلا أن يقطع بعض الأشواط القليلة. أما إذا كانت شدة المقاومة كبيرة، فلا مفرّ من أن نترسم، بدءاً من عنصر الحلم، سلسلة طويلة من التداعيات تبعدنا عنه كثيراً، ولا مناص لنا، ونحن نسلك هذا السبيل، من أن نذلِّل جميع الصعاب والعقبات التي قد تأخذ شكل اعتراضات نقدية على الأفكار التي تتوارد بصدد الحلم. وما تلَّبس خلال عملنا التأويلي شكل مقاومة يؤلف في الحقيقة جزءاً من عمل صياغة الحلم، على اعتبار أن المقاومة المشار إليها ما هي إلا مفعول الرقابة الفاعلة فعلها في الحلم. وهكذا نرى أن الرقابة لا تحصر وظيفتها بإحداث تحريف في الحلم، بل توالي عملها بصورة دائمة ومتواصلة للحفاظ على التحريف الحادث وصونه. وبالأصل، وكما أن المقاومة التي ارتطمنا بها أثناء التأويل كانت تتفاوت شدة من عنصر إلى آخر، كذلك إن التحريف الذي تحدثه الرقابة يختلف هو أيضاً في الحلم الواحد من عنصر إلى آخر. ولو أجرينا مقارنة بين الحلم الظاهر والحلم الكامن، للاحظنا أن بعض العناصر الكامنة قد نُحِّيت بصورة كاملة، بينما طرأت على غيرها تحويرات



متفاوتة الأهمية، على حين أن بعضها الثالث انتقل إلى مضمون الحلم الظاهر من دون أن يطرأ عليه أي تحوير، هذا إن لم يُعزَّز.

لكن كان قصدنا الأول أن نعرف ما الميول التي تفعل الرقابة بواسطتها فعلها، وما الميول التي تمارس عليها مفعولها. وهذا السؤال، الذي هو جوهري بالنسبة إلى فهم الحلم، وربما أيضاً إلى الحياة الإنسانية بوجه عام، يمكن الإجابة عنه بسهولة إذا ما استعرضنا جملة الأحلام التي أتيح لنا تأويلها. فالميول التي تمارس الرقابة هي تلك التي يعترف الحالم، في معرض تقييمه لها وهو في حالة اليقظة، بأنها ميوله ويشعر بينه وبين نفسه بالرضى عنها. وكونوا على ثقة أنكم حين تأبون المصادقة على تأويل صحيح لحلم من أحلامكم، فإن الدوافع التي تملي عليكم رفضكم هذا هي عينها التي تتحكم بالرقابة وبالتحريف وتجعل التأويل ضرورياً. حسبكم أن تتأملوا حلم تلك السيدة التي ناهزت سنُّها على الخمسين. فهي تجد حلمها بغيضاً حتى من دون أن تؤوله، ولو كانت السيدة الدكتورة ف. هوغ أطلعتها على نزر يسير من المعطيات التي تترتب على تأويل حلمها، لما زادها ذلك إلا امتعاضاً واستنكاراً. أفلا يتعيّن علينا أن نرى في استبدال المقاطع المنافية للحشمة من الحلم بلغط ضرباً من الإدانة لهذه العناصر؟

أما الميول التي تطالها رقابة الأحلام فمن الواجب أن توصف قبل كل شيء من منظور السلطة النقدية المتمثلة بالرقابة. وعندئذ يسعنا القول إنها ميول مستهجنة، غير محتشمة، من وجهة النظر الأخلاقية والجمالية والاجتماعية، وإنها أشياء لا يجرؤ المرء على التفكير بها أو لا يفكر بها إلا مستفظعاً. فهذه الرغبات التي طالتها سلطة الرقابة والتي تتلقى في الحلم تعبيراً محرَّفاً، هي في المقام الأول تظاهرات لأنانية لا حدّ لها ولا رادع. وعلى كل، ليس ثمة من حلم لا يقوم فيه أنا الحالم بالدور الرئيسي، وإن عرف كيف يتنكر جيِّد التنكر في المضمون الظاهر. وهذه الأنوية المقدسة Sacro Egoismo[٤]، المتظاهرة في الأحلام،

٤ ـ الأنوية المقدسة: مصطلح سوسيولوجي اعتمدته المجتمعات الغربية إثر الثورات الليبرالية للإشارة إلى أن الفرد، أو بتعبير أدقّ أنا الفرد، هو وحده المسؤول، وليس الكنيسة، عن التفسير اللاهوتي للدين، وذلك بعكس ما يذهب إليه الكهنوت المقدس. «م».



ليست، بكل تأكيد، منقطعة الصلة بميلنا إلى النوم، وهو الميل الذي يتجلى في فك الارتباط بالعالم الخارجي وبكل اهتمام به.

ومتى ما تحلل **الأنا** من كل قيد أخلاقي أسلس قياده لجميع المطالب الغريزية الجنسية، تلك التي أدانتها تربيتنا الجمالية منذ أمد بعيد، وتلك التي تتعارض مع جميع قواعد التقييد الأخلاقي. ويختار الليبيدو[٥] ـ وهو الاسم الذي نطلقه على طلب اللذة والتماسها ـ مواضيعه من دون أن يلاقي أية مقاومة، ويختار في المقام الأول المواضيع المحرَّمة المحظورة؛ فهو لا يختار امرأة الغير فحسب، بل كذلك المواضيع التي أجمعت الإنسانية على إسباغ طابع حرمي عليها: فالرجل يشتهي أمه وأخته، والمرأة تشتهي أباها وأخاها (إن حلم السيدة الخمسينية ينطوي، هو الآخر، على استباحة للمحارم، إذ إن الليبيدو عندها منصب بلا جدال على ابنها). وحتى الرغبات التي نعدّها مجافية للطبيعة البشرية تدلل على قوة كافية لاستثارة الأحلام. ففي الحلم تنطلق الكراهية من عقالها. كما أن شهوة الانتقام وتمني الموت لأشخاص هم أعزّ الناس علينا وأحَبُّهم إلينا في الحياة، من آباء وأمهات وإخوة وأخوات وأزواج وأبناء، لا يندر تظاهرهما في الأحلام. وهذه الرغبات الخاضعة للرقابة تبدو وكأنها تنبعث من جحيم حقيقي، والتأويل الذي نجريه في حالة اليقظة يثبت أن كل رقابة، مهما اشتدت، لا تكفي لقمع تلك الرغبات.

لكن حذارِ من أن تتخذوا من هذا المضمون الخبيث ذريعة للتشنيع على الحلم بحدّ ذاته. إذ هل لكم الآن أن تنسوا أن الحلم يؤدي وظيفة بريئة، بل نافعة، وهي حماية النوم من كل أسباب الإقلاق والتعكير؟ وهذا الخبث ليس لصيقاً بطبيعة الحلم بالذات، فأنتم لا تجهلون أن هناك أحلاماً تدور على إشباع رغبات مشروعة وحاجات عضوية ملحة. والأحلام الأخيرة لا تتعرض لأي تحريف، فهي ليست

٥ ـ الليبيدو Libido: كلمة لاتينية الأصل، وتعني الرغبة والشهوة والشهية والمتعة والنزوة والهوى والحاجة الطبيعية، إلخ. ويقول فرويد إنه اقتبس هذا المصطلح من آ. مول، وقد استخدمه لأول مرة سنة ١٨٩٤. وقد وسّع يونغ، المنشق عنه، معنى الليبيدو، فصار عنده الطاقة الحيوية أو النفسية بوجه عام. «م».



بحاجة إليه، إذ يسعها أداء وظيفتها دونما مساس على الإطلاق بالنزعات الأخلاقية والميول الجمالية للأنا. واعلموا أيضاً أن تحريف الحلم يتمّ بدالَّة عاملين. فهو يشتدّ كلما كانت الرغبة المطلوب إخضاعها للرقابة أدعى إلى الاستهجان والاستنكار، وكلما كانت متطلبات الرقابة في ظرف معيَّن أشد صرامة. لذا، إن الفتاة الصغيرة الحسنة التربية، الشديدة الخفر، لن تحجم عن تحريف الإغراءات التي تساورها في الحلم، فتفرض عليها رقابة غير مشفقة، مع أن هذه الإغراءات تبدو لنا نحن الأطباء رغبات ليبيدوية غير ضارة، وستتبدى على هذه الصورة للحالمة نفسها بعد أن تكون تقدمت في السن عشر سنوات.

ومهما يكن من أمر، فليس لدينا أي سبب كافٍ لنسخط على هذه النتيجة التي أوصلنا إليها عملنا التأويلي. وأعتقد أننا لم نفهمها بعد حقَّ الفهم، ولكن يتعيَّن علينا مع ذلك أن نذود عنها ونردّ عنها بعض الانتقادات والاعتراضات. وليس من العسير أن نجد فيها نقاط ضعف. فقد أجرينا تأويلنا للأحلام على أساس عدد من الفروض، ومنها أن للحلم بوجه عام معنى، وأن النوم الطبيعي تجري فيه سيرورات نفسية لاشعورية مماثلة لتلك التي تتظاهر في النوم المغنطيسي، وأن جميع الخواطر التي تتوارد إلى الذهن بصدد الأحلام هي مسبقة التعيين. ولو كنا انتهينا، انطلاقاً من هذه الفروض، إلى نتائج مقبولة معقولة في تأويلنا للأحلام، لكان حقَّ لنا أن نستنتج أن الفروض إياها صحيحة وتستجيب لواقع الأشياء. أما وقد انتهينا إلى النتائج التي انتهينا إليها، فقد ينزع أكثر من واحد منا إلى أن يقول: ما دامت هذه النتائج عجيبة، لامعقولة، وعلى كل حال بعيدة الاحتمال، فإن الفروض التي بُنيت على أساسها لا يمكن إلا أن تكون خاطئة. فإما أن الحلم ليس بظاهرة نفسية، وإما أن الحالة الطبيعية لا تنطوي على أية سيرورة لاشعورية، وإما أن تقنيتك أخيراً تشكو من عيب ما. أفليست هذه الاستنتاجات أبسط وأبعث على الرضى من كل تلك البشاعات التي تزعم أنك اكتشفتها انطلاقاً من فرضياتك؟

إنها بالفعل أبسط وأبعث على الرضى، لكن لا يترتب على ذلك أنها أكثر صحة.



صبراً: فالمسألة لما تنضج بعد للحكم عليها. وقبل أن نتصدى لمثل هذه المحاكمة لا يسعنا إلا أن نعزِّز النقد الموجَّه إلى تأويلنا للأحلام ونعضده. أما أن نتائج هذه التآويل لا تقع في النفس موضع رضا واستساغة، فهذا ما لا نأبه له كثيراً. لكن ثمة حجة أرجح وزناً وأوجه، وهي أن الحالمين الذين نكاشفهم بالرغبات والنزعات التي نستخلصها من تأويل أحلامهم ينكرون هذه الرغبات والنزعات بكل ما أوتوا من قوة وبالاستناد إلى أسباب معقولة. فهوذا أحدهم يقول: «كيف؟ أتريد أن تثبت لي من حلمي أنني آسف على ما أنفقته من مال في بائنة أختي وتربية أخي؟ لكن هذا محال، فأنا لا أعمل وأكدّ إلا من أجل أسرتي، ولا همَّ لي في الحياة غير القيام بواجبي نحوها، مثلما كنت وعدت أمي المسكينة بصفتي بكر أولادها». وهاكم أيضاً حالمة تعترض علينا بالقول: «أتجرؤ على الزعم بأنني أتمنى موت زوجي؟ لكن هذا سخف يبعث على الاشمئزاز! لن أقول لك فقط إن حياتنا المشتركة من أسعد ما يمكن أن تكون الحياة بين زوجين، بل سأضيف القول، حتى وإن لم تصدِّقني، أنه لو مات لفقدت كل ما أملك في هذا العالم». وقد يعترض علينا ثالث بقوله: «أتجرؤ أن تعزو إليَّ شهوة جنسية نحو أختي؟ لكن ما أسخف ما تدَّعيه، فهي لا تعني لي شيئاً، وليس بيننا من ودّ موصول، ومنذ سنوات وسنوات لم نتبادل كلمة واحدة». وليت أن هؤلاء الحالمين يقنعون بعدم الاعتراف بالميول التي نعزوها إليهم أو بنفيها وإنكارها، إذ كنا سنقول في هذه الحال إنها بالضبط النزعات التي هم بها جاهلون. لكن الأمر يسقط في أيدينا عندما يزعمون، بالإضافة إلى ذلك، أنه تساورهم رغبات معاكسة تماماً لتلك التي نعزوها إليهم بدالّة أحلامهم، وأنهم قادرون على أن يبرهنوا لنا على غلبة هذه الرغبات المعاكسة في كل مجرى حياتهم. ترى ألم يحن الحين للعزوف مرة واحدة ونهائية عن كل مجهودنا التأويلي بعد أن أسلمتنا نتائجه إلى برهان الخلف هذا Ad Absurdum[٦]؟

---

٦ ـ في المنطق ضرب من الاستدلال يقوم على البرهان على صحة قضية ما عن طريق إثبات خُلف القضية النقيضة لها. «م»



كلا، لم يحن بعد. فهذه الحجة، رغم قوتها الراجحة ظاهرياً، لن تصمد، شأنها في ذلك شأن الحجج الأخرى، أمام نقدنا. فالقول بوجود ميول لاشعورية في الحياة النفسية لا ينقضه وجود ميول معاكسة في الحياة الشعورية. فلربما اتسع مجال الحياة النفسية لميول متضادة، لمتناقضات تقوم جنباً إلى جنب، ومن الممكن أن يكون رجحان ميل من الميول هو الشرط لكبت الميل المضاد له في اللاشعور. لكن يبقى بعدُ الاعتراضُ القائل بأن نتائج تأويل الأحلام ليست بالبسيطة ولا بالمشجعة. وأما فيما يتصل بالبساطة، فسألفت انتباهكم إلى أنها ليست مما يمكن أن يعوَّل عليه في حلّ المشكلات المتعلقة بالأحلام، إذ إن كل مشكلة من هذه المشكلات تضعنا من البدء في مواجهة علاقات معقدة. وأما عن الطابع غير المشجع لنتائجنا، فلا بدّ لي من مصارحتكم بأنكم تخطئون فيما لو اتخذتم من مشاعر التوادّ أو النفور هادياً لكم في أحكامكم العلمية. أتبدو لكم نتائج تأويل الأحلام غير مستساغة، بله مخجلة ومنكرة؟ لكن ما أهمية ذلك؟ لقد سمعت مرة أستاذي شاركو[٧]، وأنا لا أزال طبيباً ناشئاً أحضر عروضه السريرية، يقول في حالة مشابهة: «هذا لا يحول دون وجود الأشياء»[٨]. فلا بدّ أن نلزم جانب التواضع، ونكبح مشاعر التعاطف أو النفور، إن كنا نبغي معرفة واقع أشياء هذا العالم. فلو أثبت لكم أحد علماء الفيزياء أن الحياة العضوية ستنطفئ جذوتها فوق الأرض في أجل غير بعيد، فهل يفكر أحدكم بالردّ عليه: «كلا، هذا غير ممكن، فهذا المنظور ليس مشجعاً كثيراً»؟ أعتقد بالأحرى أنكم ستلزمون الصمت، إلى أن يفلح عالم فيزيائي آخر في إقامة البرهان على أن استنتاج العالم الأول يستند إلى فروض خاطئة أو حسابات مغلوطة. ولو أعرضتم عما لا تستسيغونه، تكونون قد كررتم آلية تكوين الأحلام، بدل أن تسعوا إلى فهمها والسيطرة عليها.

قد تعقدون العزم على التغاضي عن الطابع المستكره للرغبات التي تطالها يد

---

٧ ـ جان مارتن شاركو: طبيب أعصاب فرنسي (١٨٢٥ ـ ١٨٩٣). كان من أوائل من لجأ إلى التنويم المغطيسي والإيحاء في معالجة الأمراض النفسية. درس عليه فرويد سنة ١٨٩٥، وترجم محاضراته. «م».

٨ ـ بالفرنسية في النص. والعبارة بنصها الكامل كما هو منسوب إلى شاركو: «النظرية شيء جيد، ولكنها لا تحول دون وجود الأشياء». «م».



الرقابة في الأحلام لتأخذوا بالمقابل بالحجة القائلة إنه لأمر بعيد الاحتمال أن يشغل الشر مثل هذا الحيّز الواسع في جبلّة الإنسان. لكن هل تبيح لكم تجاربكم وخبراتكم الخاصة اللجوء إلى هذه الحجة؟ أنا لا أتكلم عما يمكن أن يكون لكم من رأي في أنفسكم، ولكن هل أظهر رؤساؤكم ومنافسوكم نحوكم قدراً كبيراً من الرفق وحسن الالتفات، وهل دلل أعداؤكم حيالكم على قدر كافٍ من المروءة والشهامة، وهل لاحظتم لدى من يحيط بكم من الناس محض قدر ضئيل من الغيرة والحسد، حتى يتراءى لكم أنه من واجبكم أن تحتجوا على ما نعزوه إلى الطبيعة البشرية من الشر الأناني؟ أيغيب عنكم كم يعجز سواد البشرية عن كبح جماح أهوائه في كل ما يتصل بالحياة الجنسية؟ أم لعلكم تجهلون أن كل ضروب الشطط وكل أنواع الفجور والفسق التي نراها ليلاً في منامنا ترتكب يومياً (وكثيراً ما تنحطّ إلى جرائم) من قبل الناس وهم في حالة اليقظة؟ وهل يفعل التحليل النفسي من شيء سوى أنه يؤكد تلك الحكمة القديمة التي نطق بها أفلاطون والتي مؤداها أن خيار الناس هم من يقنعون بأن يروا في أحلامهم ما يفعله أشرارهم في الواقع؟[٩].

والآن لندع ما هو فردي ولننظر إلى هذه الحرب الضروس التي اجتاحت أوروبا، ولنستذكر ما جلبته على العالم المتحضر من وحشية وهمجية وفظائع. أتعتقدون أن حفنة من أصحاب المطامح ومن المحرضين والقادة الذين لا يردعهم وازع من ضمير كانت تكفي لإطلاق كل هذه الشرور من قمقمها لولا مشاركة الملايين من المقودين وتواطئهم؟ وهل تجرؤون، حتى في هذه الظروف، أن تحطِّموا ولو حربة واحدة في سبيل طرد الشرّ من جبلّة الإنسان النفسية؟

قد تردّون عليَّ بأنني أصدر على الحرب حكماً من طرف واحد، وأن الحرب قد جلت أيضاً عن كل ما في الإنسان من جمال ونبل: البطولة، روح التضحية، الحس الاجتماعي. لا شكّ في ذلك؛ لكن أرجو ألا تقعوا في خطأ من أجحف بحقّ التحليل النفسي حين عاب عليه أنه ينكر شيئاً لمجرد أنه يؤكد شيئاً آخر.

٩ ـ عبارة مستقاة في أرجح التقدير من الكتاب التاسع من **جمهورية** أفلاطون. هامش الترجمة الفرنسية.



فهيهات أن يكون في نيّتنا أن ننكر النزعات والميول النبيلة للطبيعة البشرية، ونحن لم نأتِ قط شيئاً من شأنه أن يحطّ من قيمتها. بل على العكس: فأنا لا أحدِّثكم فقط عن الرغبات الخبيثة التي تطالها يد الرقابة في الحلم، بل كذلك عن الرقابة نفسها، وهي التي تلجم هذه الرغبات وتنكرها حتى لا يعود في المستطاع تعرّفها. ولئن ألححنا على ما هو شرّ في الإنسان، فذلك فقط لأن غيرنا ينكرونه، وهم بذلك لا يجعلون الطبيعة البشرية أحسن مما هي عليه، بل يحكمون عليها فقط بأن تبقى لامفهومة. وإنما بإعراضنا عن التقييم الأخلاقي الأحادي الجانب تسنح لنا الفرصة لنظفر بالصيغة التي تعبِّر بصحة ودقة عن العلاقات القائمة بين ما هو صالح وما هو طالح في الطبيعة البشرية.

لنكتفِ بهذا القدر هنا. فحتى إن بدت لنا نتائج عملنا في تأويل الأحلام غريبة، فليس يجوز لنا أن نهملها ونغسل أيدينا منها. ولعله سيتاح لنا فيما بعد أن نقترب من فهمها عن طريق آخر. أما الآن فحسبنا أن نتمسك بما يلي: إن تحريف الحلم هو نتيجة للرقابة التي تمارسها ميول الأنا المقبول بها على الميول والرغبات المعيبة التي تستيقظ فينا ليلاً، أثناء نومنا. لمَ تولد هذه الرغبات والميول ليلاً، وما مصدرها؟ هذا السؤال يبقى مفتوحاً وينتظر أبحاثاً جديدة.

لكننا لن نكون من المنصفين إذا لم ننوِّه بلا تأخير بنتيجة أخرى من نتائج بحثنا. فالرغبات التي تنبعث في أحلامنا وترنِّق نومنا مجهولة منا، ولا نعلم بوجودها إلا غبَّ تأويل الحلم. من الممكن إذاً أن نصفها وقتياً بأنها لاواعية بالمعنى المألوف للكلمة. غير أنه يتعيَّن علينا أن نقول إنها أكثر من لاواعية وقتياً. فالحالم ينكرها، كما رأينا في الكثير من الحالات، حتى ولو أماط التأويل اللثام عنها وأظهرها. وهنا يواجهنا موقف مماثل لذاك الذي قام عند تأويلنا فلتة لسان الخطيب: «أدعوكم إلى شرب **شخب** رئيسنا»[١٠]، إذ راح هذا الأخير يؤكد ويجزم لنا حانقاً مستنكراً أنه لا يساوره ولم يساوره قط شعور بالامتهان والكره نحو رئيسه. وقد شككنا وقتئذ في صحة توكيده هذا، واكتفينا بأن نفترض بأن

١٠ ـ انظر المحاضرة الثالثة. «م».



الخطيب قد لا يكون واعياً لوجود هذا الشعور في باطن نفسه. ويتكرر هذا الموقف عينه كلما أوَّلنا حلماً على جانب كبير من التحريف، مما لا يزيده إلا أهمية بالنسبة إلى نظريتنا. وعليه، نحن على أتمّ الاستعداد للتسليم بوجود سيرورات وميول ونزعات في الحياة النفسية نجهل كل شيء عنها عادة، ولا نعرف عنها شيئاً منذ زمن بعيد، بل لعلنا لم نعرف شيئاً ما عنها يوماً على الإطلاق. وترتيباً على ذلك، يكتسي اللاشعور في نظرنا بمعنى جديد: فصفة «الراهنية» أو «الوقتية» لا تعود من صفاته الجوهرية؛ فاللاشعور قد يكون لاشعورياً بصفة **دائمة**، وليس فقط على سبيل «الكمون الوقتي». وغنيٌّ عن البيان أن لنا إلى هذه النقطة عودة، وبمزيد من التفصيل.



المحاضرة العاشرة

الرمزية في الحلم

سيداتي سادتي، رأينا أن التحريف الذي يحول بيننا وبين فهم الحلم هو نتيجة للرقابة التي تمارس نشاطها ضد الرغبات اللامقبولة، اللاشعورية. لكننا لم نؤكد بطبيعة الحال أن الرقابة هي العامل الوحيد المسبِّب للتحريف؛ والتعمق في دراسة الحلم يتيح لنا بالفعل أن نعاين أن ثمة عوامل أخرى تساهم، إلى جانب الرقابة، في إنتاج هذه الظاهرة. ولهذا قلنا إنه حتى على فرض أن الرقابة ألغيت تماماً، فإن ذلك لا يسهِّل البتة فهمنا للحلم، ولا تترتب عليه زيادة في تطابق الحلم الظاهر مع أفكار الحلم الكامنة.

ولن يتسنى لنا أن نكتتشف هذه العوامل الأخرى التي تسهم في تحريف الأحلام وفي زيادة غموضها غموضاً ما لم ننتبه إلى وجود ثغرة في تقنيتنا التأويلية. فقد كنت وافقتكم على أن عناصر بعينها من الحلم قد لا توقظ أحياناً لدى الأشخاص الذين هم قيد التحليل أي خاطر أو فكرة. صحيح أن هذه الواقعة أقل تواتراً مما يدعيه هؤلاء المحلَّلون؛ ففي أحوال كثيرة نستطيع بإلحافنا ومثابرتنا أن نجعل الخواطر والأفكار تتداعى. ولكن هذا لا يمنع أن التداعي ينضب معينه في بعض الأحوال نضوباً تاماً، وإن قسرناه على الاشتغال قسراً لم يعطِ من النتائج ما كنا نتوقعه. فإذا حدث شيء من هذا القبيل أثناء المعالجة التحليلية النفسية، كانت له دلالة خاصة ليس هنا مجال بحثها. لكن ذلك قد يحدث أيضاً عند تأويلنا أحلام الأشخاص الأسوياء أو أحلامنا نحن. وفي مثل هذه الأحوال، وعندما يثبت لنا أن أي إلحاحٍ لا يجدي فتيلاً، ننتهي إلى أن نكتشف أن هذا الحادث غير المرغوب فيه يطَّرد وقوعه وبتواتر متى ما كنا بصدد عناصر معيَّنة من الحلم. وعندئذ ندرك أن مردّ



ذلك ليس إلى نقص عارض أو استثنائي في تقنيتنا، وإنما هي ظاهرة محكومة بقوانين معيَّنة.

وحيال هذه الظاهرة قد يشتدّ بنا الميل إلى أن نقوم بأنفسنا بتأويل هذه العناصر «الخرساء» من الحلم، وأن نحاول ترجمتها بوسائلنا الخاصة. وهنا يساورنا انطباع، كلما لجأنا إلى مثل هذا التأويل، بأننا نظفر بمعنى مقنِع وباعث على الرضى، على حين يبقى الحلم غفلاً من المعنى ومهلهلاً ما لم يقر قرارنا على سلوك هذا النهج. وكلما شمل عملنا عدداً أكبر فأكبر من الحالات، بشرط أن تكون متشابهة، تحررت محاولتنا من التردد والوجل، وازدادت وثوقاً وإقداماً.

إن ما أعرضه عليكم لا يخلو من تبسيط، لكن النهج التعليمي يبيح هذا الأسلوب في العرض ما دام يبسِّط الموضوع من دون أن يحرِّفه.

فإن سلكنا هذا المسلك توفرت لنا، بصدد طائفة من عناصر الأحلام، ترجمات دائمة ثابتة، شبيهة بتلك تعطيها كتب «مفاتيح المنامات» الشعبية لجميع الأشياء التي تُرى في الأحلام. وآمل، بالمناسبة، ألا تكونوا قد نسيتم أننا لا نتوصل أبداً، بالاعتماد على تقنية التداعي، إلى ترجمات دائمة ثابتة لعناصر الأحلام.

ستقولون لي هنا إن طريقة التأويل هذه تبدو لكم أبعد عن اليقين وأكثر عرضة للنقد من طريقة التداعي الحرّ للخواطر والأفكار. لكن هنا يتدخل عنصر آخر. فحين نفلح، بعد تجارب مكررة، في جمع عدد كافٍ من تلك الترجمات الدائمة الثابتة، يتضح لنا أن مثل هذه التأويلات كان يمكن لنا أن نظفر بها بالاستناد فقط إلى ما لدينا من وسائل خاصة، وأننا ما كنا بحاجة، كيما نفهمها، إلى اللجوء إلى ذكريات الحالم وخواطره العارضة. وسنرى في النصف الثاني من محاضرتنا هذه من أين نستقي معرفتنا بدلالتها.

هذه العلاقة الدائمة الثابتة بين عنصر بعينه من الحلم وبين ترجمته نصفها بأنها **رمزية**، كما ننعت هذا العنصر نفسه بأنه رمز لفكرة الحلم اللاشعورية. وأنتم تذكرون ولا ريب أننا حين قمنا آنفاً بفحص العلاقات بين عناصر الحلم وبين ركائزها، قررنا أن علاقة عنصر الحلم بركيزته يمكن أن تكون كعلاقة الجزء



بالكل، كما قد تكون علاقة تلميح وإلماع، أو أخيراً علاقة تمثيل بالصور. وعلاوة على هذه الأنواع الثلاثة من العلاقات، أشرت إذّاك إلى علاقة رابعة من دون أن أسمِّيَها. تلك كانت بالتحديد العلاقة الرمزية التي نحن بصدد البحث فيها الآن. إلا أننا قبل أن نمضي في عرض ملاحظاتنا بصدد الرمزية في الأحلام، لا بدّ أن نتوقف عند بعض نواحي العلاقة الرمزية بحدّ ذاتها، وهي نواح جديرة بالنقاش ومثيرة للاهتمام جداً. والحق أن الرمزية قد تكون أبرز الفصول وألفتها للانتباه في نظرية الحلم.

لنذكر قبل كل شيء أن الرموز، بصفتها ترجمة دائمة ثابتة، تحقق إلى حدّ ما المثل الأعلى للتفسير الشعبي والقديم للأحلام، وهو المثل الأعلى الذي نأت عنه تقنيتنا نأياً كبيراً.

تتيح لنا الرموز في بعض الظروف أن نؤوِّل حلماً من الأحلام من دون أن نستجوب صاحب الحلم الذي لا يملك على كل حال أن يضيف شيئاً إلى الرمز. فحين نكون على معرفة بالرموز المألوفة في الأحلام، وبشخصية صاحب الحلم، وبالظروف التي يعيش في ظلها، وبالانطباعات التي كان الحلم عاقبتها، فكثيراً ما نقتدر على تأويل الحلم بدون أية صعوبة، وعلى ترجمته وكأننا نقرأ في كتاب مفتوح. وبراعة كهذه من شأنها أن تدغدغ غرور المؤوِّل وأن تبهر الحالم، كما أنها تشكل بديلاً مريحاً عن تلك العملية الشاقة التي تتمثل باستجواب الحالم. لكن حذارِ أن تغرَّكم هذه السهولة. فمهمتنا ليست بهر الناس ببراعاتنا. والتقنية التي ترتكز إلى معرفة الرموز لا تنوب مناب التقنية القائمة على التداعي ولا تغني غناءها. بل كل شأنها أن تكمِّل هذه الأخيرة وأن تزوِّدها بمعطيات قابلة للاستعمال. أما فيما يتعلق بمعرفة الوضع النفسي للحالم، فاعلموا أن الأحلام التي قد تُدعَوْن إلى تأويلها ليست هي على الدوام أحلام أشخاص تعرفونهم معرفة جيدة، واذكروا أنه لا اطلاع لكم بصورة عامة على مجرى الأحداث النهارية التي استثارت الحلم، وأن خواطر الشخص المحلَّل وذكرياته هي التي تزوِّدكم بمعرفة ما نسمِّيه بوضعه النفسي.

إنه لمما يلفت النظر فضلاً عن ذلك ـ وهذا حتى من زاوية بعض الارتباطات



التي سنعرض لها لاحقاً ـ أن يكون التصور الرمزي للعلاقات بين الحلم واللاشعور قد ارتطم بمقاومة ضارية. بل إن بعض الأشخاص من ذوي التبصر والمسؤولية، ممن لم يقابلوا التحليل النفسي بأي اعتراض مبدئي، أبوا أن يسايروه في هذا السبيل. ومما يزيد في غرابة هذا الموقف أن الرمزية ليست صفة موقوفة على الحلم وحده، وأن اكتشافها ليس من صنع التحليل النفسي الذي لا يمكن أن يُنكر عليه أصلاً فضله في كشوف كثيرة مدهشة أخرى. وإذا كنا نصرّ مع ذلك على عزو اكتشاف الرمزية في الأحلام إلى العصور الحديثة، فحريّ بنا أن ننسبه إلى الفيلسوف ك. أ. شرنر (١٨٦١)[١]. وكل ما فعله التحليل النفسي أنه أتى بما يؤيِّد رؤية شرنر للأمور، وإن يكن قد أدخل عليها تعديلات جوهرية.

لا ريب في أنكم ترغبون الآن في الاطلاع على شيء من طبيعة الرمزية في الأحلام وعلى بعض أمثلة عليها. وسأطلعكم بطيب خاطر على ما أعرفه في هذا الموضوع، لكنني سأحذِّركم في الوقت نفسه من أن فهمنا لهذه الظاهرة لا يزال دون ما نتمنى.

إن العلاقة الرمزية هي في جوهرها علاقةُ تشابهٍ. لكن لا يكفي أن يقوم أي تشابه حتى تقوم العلاقة الرمزية بدورها. ونحن لا نجهل أن التشابه يتطلب بعض الشروط، ولكننا لا نستطيع أن نحدد نوع هذه الشروط. فكل ما يمكن أن يفيد في التشابه مع موضوع ما أو حدث ما لا يظهر في الحلم إلا كرمز لهذا الموضوع أو لهذا الحدث. ثم إن الحلم، من جهة أخرى، بدل أن يرمز بلا اختيار، لا يختار لهذا الغرض إلا بعض عناصر من أفكار الحلم الكامنة. وبذلك تكون الرمزية محددة من كلتا الجهتين. ويتوجب علينا أن نسلِّم أيضاً بأن تصورنا عن الرمز لم تتعين بعد حدوده بدقة وجلاء، وأنه كثيراً ما يلتبس بمفهوم الإبدال أو التمثيل الكنائي، إلخ، وأنه قد يقترب حتى من مفهوم التلميح. وفي بعض الرموز يكون التشابه الذي تقوم هذه الرموز على أساسه واضحاً جلياً. لكن ثمة رموز أخرى ترغمنا على التساؤل أين ينبغي أن نبحث عن العامل المشترك، عن **وجه الشبه** في

١ ـ انظر الهامش رقم (٢) في المحاضرة السادسة. «م».



التشابه المفترض. وقد يتأتى لنا أحياناً في حال إعمال فكرنا أن نكتشف هذا العامل المشترك الذي قد يبقى في أحوال أخرى خبيئاً مستتراً. أضف إلى ذلك أن الرمز إن كان تشابهاً، فمن العجب ألا يكشف لنا التداعي عن هذا التشابه، وأن يكون الحالم نفسه جاهلاً به، وأن يستخدمه من دون أن يعرف عنه شيئاً، بل الأعجب ألا يبدي الحالم أي استعداد للاعتراف به إذا ما كُشف له. هكذا ترون أن العلاقة الرمزية هي تشابه من نوع خاص لا نزال نجهل أسبابه. وعسى أن نجد فيما بعد بعض دلائل وقرائن فيما يتصل بهذا المجهول.

إن المواضيع والأشياء التي تلقى في الحلم تمثيلاً رمزياً لها ليست كثيرة العدد. ومنها: الجسم البشري في جملته، الوالدان، الأولاد، الإخوة، الأخوات، الولادة، الموت، العري ... وشيء غير ذلك بعدُ! **والبيت** هو ما يؤلف التمثيل النمطي الوحيد، أي المطَّرد، لشخص الإنسان في جملته. وهذا ما سبق أن أقرّ به شرنر، وأراد أن يعلق عليه أهمية كبرى، عن خطأ في نظرنا. وكثيراً ما يرى الإنسان نفسه في الحلم وهو ينزلق فوق واجهات البيوت، فيساوره أثناء هذا الانزلاق شعور يتراوح بين اللذة تارة والحصر طوراً. والبيوت ذات الجدران الملساء ترمز إلى الرجال، بينما البيوت ذات النتوءات والشرفات، مما يمكن التعلق به، ترمز إلى النساء. أما الوالدان فرمزهما الإمبراطور والإمبراطورة، الملك والملكة، أو غيرهما من الشخصيات المبجلة، ولهذا يخيِّم على الأحلام التي يظهر فيها الوالدان جوّ من الورع والوقار. وأقل رقة من ذلك الأحلام التي يظهر فيها الأولاد، أو الإخوة والأخوات، إذ تكون رموزهم في هذه الحال صغار الحيوانات والحشرات. وتتمثَّل الولادة على الدوام تقريباً بحدث عنصره الرئيسي هو الماء: فيرى النائم أنه يلقي بنفسه إلى الماء أو يجهد للخروج منه، أو يرى أنه ينتشل شخصاً من الماء أو أن أحداً غيره ينتشله منه، وبعبارة أخرى تكون العلاقة بين هذا الشخص وبين الحالم علاقة أموية. أما الموت الوشيك فيستبدل في الحلم بالرحيل، أو بسفرة في القطار، كما تمثَّل الوفاة الوشيكة بنذر غامضة من الطيرة والشؤم. أما العري فرمزه الملابس أو البزات. من هذا ترون أن الحدود الفاصلة بين كلا نوعي التمثيل، الرمز والتلميح، تكاد تكون معدومة.



فإذا ما انتهينا من هذا التعداد، الأعجف بالأحرى، طرقنا ميداناً آخر تُمثَّل مواضيعه ومضامينه برمزية فائقة الغنى والتنوع. إنه مضمار الحياة الجنسية والأعضاء التناسلية والأفعال الجنسية والعلاقات الجنسية. فأغلب الرموز في الحلم رموز جنسية. وهذا ما ينشأ عنه اختلال لافت للنظر في التناسب. فعلى حين أن المضامين المطلوب التمثيل عليها قليلة العدد، فإن الرموز التي تمثلها كثيرة العدد للغاية، بحيث أن الموضوع الواحد يمكن التعبير عنه برموز كثيرة، متكافئة جميعها تقريباً في القيمة. وهذا ما يهيء لنا، في أثناء عملية التأويل، مفاجأة غير مستحبة. فخلافاً للأفكار الحلمية التي هي على جانب كبير من التنوع، نجد تآويل الرموز رتيبة إلى أقصى حدود الرتابة. وهذه واقعة لا تبهج كل من سنحت له الفرصة لاختبارها. ولكن ما حيلتنا في ذلك؟

بما أنها المرة الأولى التي نتطرق فيها، في هذه المحاضرة، إلى مضامين الحياة الجنسية، أرى لزاماً عليّ أن أشرح لكم كيف أزمع أن أعالج هذا الموضوع. فالتحليل النفسي لا يرى من داعٍ للكلام بعبارات مستورة، أو للاكتفاء بالإشارة والتلميح، ولا يتحرج من معالجة هذا الموضوع الهام، بل يرى من الصواب والسداد تسمية الأشياء بأسمائها، ويقدِّر أن هذه خير وسيلة لتفادي المقاصد الخفية والأفكار المبيَّتة التي ليس من شأنها إلا البلبلة والتشويش. ولن يغير شيئاً في المسألة كوني أتحدث أمام جمهور من المستمعين مؤلف من ممثلين لكلا الجنسين. فكما أنه لا وجود لعلم **برسم استعمال ولي العهد**، كذلك لا يجوز أن يكون هناك علم برسم استعمال الساذجات من البنات؛ والنساء اللائي ألمحهن هنا شئن بحضورهن بلا ريب أن يظهرن رغبتهن في أن يعاملن، من منظور العلم، معاملة الرجال.

يملك الحلم إذاً أن يمثل عضو الرجل الجنسي في تمثيلات شتى يمكن نعتها بأنها رمزية، ويكون عامل التشابه المشترك فيها واضحاً جلياً في الكثرة الغالبة من الأحوال. وللعدد ٣ المقدس قيمة رمزية مُجَلّى بالنسبة إلى جهاز الرجل التناسلي في جملته. والجزء الرئيسي من جهاز الرجل التناسلي وأهم ما فيه بالنسبة إلى كلا الجنسين، أعني القضيب، يجد أولاً بدائله الرمزية في أشياء تشبهه شكلاً، ومنها:



العصي، المظلات، الجذوع، الأشجار، إلخ. ويجد هذه البدائل ثانياً في الأشياء التي تجمعها والقضيب صفة مشتركة، وهي قدرتها على ولوج الجسم وإحداث جروح فيه نظير **الأسلحة المدببة** بمختلف أنواعها، من **سكاكين وخناجر ونصال وسيوف**، وكذلك **الأسلحة النارية**، من **بنادق وغدارات**، وبوجه خاص **المسدس** الذي هو السلاح الأكثر مواءمة من حيث الشكل لهذه المشابهة. وفي كوابيس الفتيات، يلعب مشهد مطاردتهن من قبل رجل مسلح بمدية أو بسلاح ناري دوراً كبيراً. ولعل هذه أكثر حالات رمزية الأحلام تواتراً، وتأويلها لا يرتطم بأية صعوبة. ومفهوم أيضاً أن يُمثَّل العضو المذكر بأشياء ينفر منها سائل كالصنابير والأباريق ذات العروة والنوافير، أو بأشياء قابلة للتمدد والاستطالة كالمصابيح المطاطة والأقلام الكباسة، الخ. وإذا كانت الأقلام ومسكات الرِيَش ومبارد الأظافر والمطارق وغيرها من الأدوات تقوم للعضو الجنسي المذكر مقام التمثيلات الرمزية التي لا جدال فيها، فمردّ ذلك بدوره إلى تصور عن هذا العضو لا يعسر فهمه.

وبالنظر إلى الخاصية الفريدة التي يتسم بها هذا العضو، وأعني قدرته على الانتشار إلى أعلى وكأنه يتحدى قانون الثقالة ـ وهذه الخاصية جزء من ظاهرة الانتصاب ـ فلا يندر أن يُمثَّل رمزياً بالمناطيد والطائرات، وحتى بمسيَّرات زبلن[٢]. غير أن الحلم تتوفر له وسيلة أخرى ـ أبلغ تعبيراً بكثير ـ في الرمز إلى الانتصاب. فهو يجعل من العضو الجنسي ماهية الشخص بالذات، فيرى نفسه يطير كله. ولا تعجبوا إن ذكرت لكم أن الأحلام التي نعرفها جميعاً والتي غالباً ما تكون جميلة جداً بالنظر إلى ما يلعبه فيها الطيران من دور هام، ينبغي تأويلها على أنها أحلام أساسها تهيج جنسي عام، أي ظاهرة الانتصاب. ومن جملة أنصار التحليل النفسي، فإن ب. فيدرن Federn[٣] هو الذي أيَّد صحة هذا التأويل ببراهين

٢ ـ مسيَّرات زبلن: هي المناطيد الموجَّهة المنسوبة إلى مخترعها الألماني فرديناند فون زبلن (١٨٣٨ ـ ١٩١٧). «م».

٣ ـ بول فيدرن: من أوائل المحللين النفسيين المقربين إلى فرويد (١٨٧١ ـ ١٩٥٠). ترأس **جمعية فيينا للتحليل النفسي**، وهاجر لاحقاً إلى الولايات المتحدة الأمريكية. من مؤلفاته: **علم نفس الأنا والأمراض الذهانية**. «م».



وأدلة لا تقبل دحضاً. لكن حتى باحث معروف بتجرده، وببعده عن التحليل النفسي، بل بجهله به، نظير مورلي ـ فولد، توصل إلى النتائج نفسها، بعد سلسلة من التجارب تعطى فيها للأذرع والسيقان في أثناء النوم وضعيات مصطنعة. ولا تعترضوا عليَّ بأن النساء أيضاً يرين في منامهن أنهن يطرن. بل تذكروا بالأحرى أن أحلامنا غرضها أن تكون تحقيقاً لرغبات، وأن رغبة المرأة، الشعورية أو اللاشعورية، في أن تكون رجلاً متواترة جداً لدى النساء. ومن له منكم اطلاع على التشريح لن يدهشه أن تقتدر المرأة على تحقيق هذه الرغبة عن طريق عين الإحساسات التي تساور الرجل. فجهاز المرأة التناسلي يشتمل بالفعل على عضو صغير شبيه بقضيب الرجل، وهذا العضو الصغير، البظر، يلعب في الطفولة وفي السنوات السابقة للعلاقات الجنسية دوراً مماثلاً لدور عضو الذكورة.

ومن الرموز الجنسية المذكرة الأخرى الأعصى على الفهم، سنخص بالذكر **الزواحف والأسماك**، وفي المقام الأول الرمز الشهير: **الثعبان**. ويشقّ علينا أن نتكهن بالسبب الذي حال دون الاستخدام الواسع في هذا المجال **للقبعة والمعطف**، بيد أن دلالتهما الرمزية لا مراء فيها. وبوسعنا أيضاً أن نتساءل عما إذا كان استبدال العضو الجنسي المذكر بأي عضو آخر من أعضاء الجسم كالقدم أو اليد يمكن اعتباره بدوره رمزياً. واعتقادي أننا لو نظرنا إلى الحلم في جملته وأخذنا بعين الاعتبار أعضاء المرأة المناظرة، فلن يكون أمامنا مفرّ من التسليم بتلك الدلالة.

أما جهاز المرأة التناسلي فيمثَّل رمزياً بجميع الأشياء التي فيها تجويف والتي يمكن بالتالي أن تكون أوعية ومستودعات: **المناجم، الحُفَر، الكهوف، الآنية والقناني، والعلب** من مختلف الأنواع والأشكال، **والخزنات، والصناديق، والجيوب**، إلخ. ومن هذا القبيل أيضاً **المركب**. وبعض الرموز، **كالخزائن والأفران**، وبخاصة **الغرف**، تشير إلى الرحم أكثر مما تشير إلى الجهاز التناسلي بحصر المعنى. ويتصل رمز **الغرفة** هنا برمز **البيت**، فيصبح **الباب والبوابة** بدورهما رمزين يشيران إلى مدخل الفتحات التناسلية. ومن المواد أيضاً ما له دلالة رمزية، **كالخشب والورق**، وكذلك الأشياء التي تصنع منهما **كالطاولة**



والكتاب. أما من الحيوانات، فيمثل **الحلزون والصَدف** رموزاً مؤنثة لا مراء فيها. ولنذكر أيضاً، في عداد أعضاء الجسم، **الفم** كرمز للفتحة التناسلية، وفي عداد المباني، **الكنائس والمعابد**. وكما ترون، لا تستوي هذه الرموز كلها من حيث سهولة فهمها.

وينبغي أن ندرج في عداد الجهاز التناسلي الثديين اللذين يُمثّلان رمزياً، مثلهما مثل نصفي الكرة الكبيرين الآخرين في جسم المرأة[٤]، **بالتفاح، والدراقنة، والفاكهة** بوجه عام. ويصوِّر الحلم شعر العانة لدى الجنسين في صورة غابة أو دغل. وعلى حين أن الطبوغرافيا المعقدة لجهاز المرأة التناسلي تجعله يظهر في الحلم في كثير من الأحيان في مظهر **منظر طبيعي**، بصخوره ومائه وأشجاره، فإن الطريقة المهيبة لعمل جهاز الرجل التناسلي تجعله يُرمز إليه بشتى أنواع **الآلات المعقدة** التي يعسر وصفها.

من الرموز الأخرى اللافتة للنظر لجهاز المرأة التناسلي **علبة الحلي**؛ فكلمتا **الجوهرة** أو **الكنز** هما من المداعبات التي توجه، حتى في الحلم، إلى الشخص المحبوب؛ وكثيراً ما ترمز **السكاكر** أيضاً إلى المتعة الجنسية. أما الإشباع الجنسي الذي يتم الوصول إليه بدون مساعدة شخص من الجنس الآخر، فيرمز إليه بجميع ضروب **اللعب**، بما فيها **عزف البيانو**. ومن رموز الاستمناء **الانزلاق، والتزحلق، واقتلاع أغصان الأشجار**. ومن التمثيلات التي تسترعي الانتباه أيضاً **سقوط سن** أو **قلع ضرس**: فهذا الرمز يعني بكل تأكيد الخصاء باعتباره عقاباً على جلد عميرة. أما الرموز التي يراد بها تمثيل العلاقات الجنسية على وجه التعيين فأقل تعداداً في الأحلام مما قد يتوقع المرء، وذلك على الأقل بموجب ما لدينا من روايات عن الأحلام. وبوسعنا أن نذكر في هذا الباب النشاطات الإيقاعية من **رقص وركوب خيل وتسلق**، وكذلك بعض الحوادث العنيفة **كالاندهاس بالسيارة** مثلاً. ولنضف إلى ذلك أيضاً بعض **الأعمال اليدوية**، وكذلك بطبيعة الحال **التهديد بسلاح**.

---

٤ ـ يقصد الردفين. «م».



إن استخدام هذه الرموز وترجمتها ليسا بالبساطة التي قد تظنون. ففي كلتا الحالتين تفاجئنا تفاصيل غير متوقعة. من ذلك مثلاً ـ وهذا أمر يكاد لا يصدق ـ أن الفروق الجنسية تكاد تكون مطموسة في الكثير من التمثيلات الرمزية. وتشير كثرة من الرموز إلى العضو التناسلي بوجه عام، سواء أكان مذكراً أم مؤنثاً؛ ومن هذه الرموز تلك التي يظهر فيها طفل **صغير** أو ابن **صغير** أو ابنة **صغيرة**. وفي أحيان أخرى، يُستخدم الرمز المذكر في الإشارة إلى جزء من الجهاز التناسلي المؤنث، أو يحدث العكس. وكل ذلك سيبقى عصياً على الفهم ما لم تتوفر لنا بعض المعرفة بصدد تطور التمثيلات الجنسية للكائنات البشرية. على أن التباس الرموز هذا يكون ظاهرياً محضاً في العديد من الأحوال؛ كما أن أكثر الرموز بروزاً، **كالحقائب والأسلحة والعلب**، لا يُستبعد أن تستعمل استعمالاً جنسياً مثنوياً.

الآن، وانطلاقاً من الرمز ذاته لا مما يمثله، سأسعى إلى أن ألقي نظرة إجمالية على المصادر التي تُستعار منها في غالب الأحوال الرموز الجنسية، وسأتبع هذا الاستقصاء ببعض تأملات أتناول فيها بصورة رئيسية الرموز التي يتعذر علينا فهم عنصرها المشترك. ولدينا رمز ملتبس من هذا النوع هو رمز **القبعة**، وربما كل غطاء للرأس: فهو ذو دلالة مذكرة إجمالاً، لكنه قد يكون دالاً دلالة مؤنثة أحياناً. كذلك يفيد **المعطف** في الإشارة إلى الرجل، وإن من غير مرجعية تناسلية دوماً. ولكم أن تسألوا عن السبب في ذلك[٥]. وبديهي أن تكون ربطة العنق التي تتدلى على الصدر ولا تحملها المرأة رمزاً مذكراً. أما **الألبسة الداخلية والبياضات** فرموز مؤنثة بالإجمال؛ وقد رأينا أن **الملابس والبزات** رموز تفيد في التعبير عن العري وأشكال الجسم؛ وتشير **الأحذية والبوابيج** رمزياً إلى الأعضاء التناسلية. وقد أسلفنا القول عن تلك الرموز الملغزة، لكن المؤنثة بكل تأكيد، المتمثلة **بالطاولات والخشب**. ومن المحقق أن **السُلَّم والدرج والدرابزون**، وكذلك ارتقاء سُلَّم أو درج، إلخ، رموز تعبِّر عن العلاقات الجنسية. ولو أمعنا

٥ ـ طبقاً لما أورده فرويد في كتابه **تأويل الحلم**، العلاقة بين الرجل والمعطف تعود إلى القاسم اللفظي المشترك بينهما. فبالألمانية يقال للرجل Man وللمعطف Mantel. «م».



التفكير في الأمر، لوجدنا أن العامل المشترك هنا هو الطابع الإيقاعي للارتقاء، وربما أيضاً تصاعد التهيُّج وضيق التنفس طرداً مع الصعود.

لقد ذكرنا من قبل **المنظر الطبيعي** بوصفه تمثيلاً لجهاز المرأة التناسلي. **والجبل والصخر** رمزان لعضو الذكورة، بينما **البستان** رمز متواتر لأعضاء المرأة التناسلية. وترمز **الفاكهة** إلى الثدي، لا إلى الطفل. وتفيد **الحيوانات المتوحشة** في تمثيل المهتاجين من الرجال أولاً، ثم في تمثيل الغرائز الشريرة والأهواء. أما **البراعم والأزهار** فتشير إلى جهاز المرأة التناسلي، وعلى الأخص إلى البكارة. تذكروا بهذا الصدد أن البراعم هي بالفعل أعضاء التناسل في النباتات. وقد عرفنا من قبل رمز **الغرفة**. فإذا ما تطور هذا التمثيل، اكتسبت النوافذ والمداخل والمخارج، أي أبواب الغرفة، دلالتها كفتحات للجسم. وتندرج في عداد هذه الرمزية **الغرفة المفتوحة والغرفة المقفلة**، ولا جدال في أن المفتاح الذي يفتح رمز مذكر.

تلكم هي المواد التي تدخل في تركيب الرمزية في الأحلام. وبديهي أنها ليست بحال من الأحوال كاملة، ولو أردنا حصرها لطال عرضنا اتساعاً وعمقاً. غير أني أعتقد أن تعدادي قد بدا لكم أكثر من كافٍ. بل قد تقولون لي بسخط واستنكار: «من يسمعك يخيَّل إليه أننا لا نعيش إلا في عالم من الرموز الجنسية. أكل ما يحيط بنا من أشياء، وكل ما نرتديه من ملابس، وكل ما نحمله باليد، أهو كله عندك رموز جنسية، ولاشيء غير ذلك؟». وأنا أقرّ بأن من الأشياء ما يدهش، وأول سؤال ينطرح بطبيعة الحال هو الآتي: كيف نستطيع أن نتعرف دلالة رموز الأحلام، ما دام الحالم لا يزوِّدنا هو نفسه بصددها بأية معلومات، إلا أن تكون معلومات زهيدة غير كافية بالمرة؟

وجوابي أن هذه المعرفة تأتينا من مصادر شتى: من الأساطير والحكايا، من النكات والفكاهات، من الفولكلور، أي من دراسة العادات والأعراف والأمثال والأغاني لدى الشعوب المختلفة، ومن اللغة الشعرية واللغة الدارجة. ففي جميع هذه المجالات نلتقي الرمزية ذاتها ونفهمها في أكثر الأحيان بلا صعوبة. ولو محصنا هذه المصادر واحداً تلو الآخر، لاكتشفنا فيها توازياً مدهشاً مع رمزية الأحلام، فلا نخرج من هذا التمحيص إلا وقد تعاظمت ثقتنا بصحة تأويلنا.



قدَّمنا أن جسم الإنسان كثيراً ما يمثَّل، على ما يرى شرنر، برمز البيت. والحال أنه تندرج في عداد هذا الرمز النوافذ والأبواب والبوابات التي ترمز إلى منافذ التجاويف في الجسم البشري، بينما تقوم لها الواجهات، سواء أكانت ملساء أو ذات نتوءات وشرفات، مقام المرتكزات. هذه الرمزية نلتقيها في لغتنا الدارجة: فنحن نحيِّي مثلاً صديقاً قديماً بوصفنا إياه بـ «البيت العتيق»[٦]، ونقول عن فلان من الناس إن «طابقه العلوي»[٧] ليس على ما يرام. وفي علم التشريح أيضاً تسمى فتحات بالجسم بالأبواب[٨].

قد يدهشكم للوهلة الأولى أن يمثَّل الوالدان في الأحلام في صورة ملك وملكة أو إمبراطور وإمبراطورة. ألا يبدو لكم أنه في الكثير من الحكايا التي تبدأ بجملة: «يحكى أن ملكاً وملكة» لا تعني سوى «يحكى أن أباً وأماً »؟ وكثيراً ما يُداعب الأولاد، ضمن إطار الأسرة، بتسميتهم **بالأمراء**، كما يلقَّب كبيرهم **بولي العهد**. ثم إن الملك نفسه يسمى **بالأب**. كذلك يسمى الأطفال على سبيل المزاح بأسماء صغار الحيوانات، ونقول عنهم بإشفاق: الديدان الصغيرة المسكينة[٩].

لكن لنعد إلى رمز **البيت** ومشتقاته. فحين نتخذ في الحلم من نتوءات البيوت مرتكزاً لنا، أفلا يذكرنا هذا بالفكرة المعروفة التي تجول في ذهن العامة حين يصادفون امرأة كبيرة الثديين: لديها ما يُرتكز عليه؟ كذلك يلجأ العامة من الناس إلى عبارة أخرى يرددونها في مثل تلك المناسبات: «هذه امرأة أمام بيتها خشب كثير»، وكأنهم يؤكدون بذلك تأويلنا الذي يرى في الخشب رمزاً مؤنثاً، أمومياً.

وما دمنا بصدد الخشب، فلنذكر أنه يشقّ علينا أن نفهم السبب الذي جعل منه رمزاً للأنثى، للأم، إن لم نستعن بالألسنية المقارنة. فالكلمة الألمانية **خشب** Holz

---

٦ ـ ترجمة حرفية عن الألمانية. لا مقابل لها في العربية: Altes Haus. «م».

٧ ـ ترجمة حرفية عن الألمانية، وهو تعبير دارج في العربية العامية يقصد به العقل. «م».

٨ ـ في العربية يقال عن الشرج مثلاً باب البدن. «م».

٩ ـ بالألمانية: Das Arme Wurm. «م».



تشترك في الجذر، على ما يقال لنا، مع الكلمة اليونانية «هولي» التي معناها **مادة** أو مادة خام. وهذه حالة غير نادرة على الإطلاق من الحالات التي يطلق فيها إسم النوع العام للدلالة على مادة خاصة. والحال أنه توجد في المحيط الأطلسي جزيرة تسمى ماديرا، وهو اسم أطلقه البرتغاليون عليها يوم اكتشافها لأنها كانت مغطاة آنئذ بغابات كثيفة. وماديرا معناها **الخشب** بالبرتغالية. وأكبر الظن أنكم تتعرفون في كلمة ماديرا هذه اللفظة اللاتينية ماتيريا Materia المحوَّرة بعض التحوير والتي تعني بدورها **مادة** بوجه عام. والحال أن ماتيريا Materia مشتقة من ماتير Mater، أي الأم. والمادة التي يصنع منها الشيء يمكن اعتبارها والدته. إذاً فهذا التصور القديم هو الذي استتبع الاستعمال الرمزي لكلمة **الخشب** في الدلالة على **المرأة والأم**.

وغالباً ما يعبِّر الحلم عن الولادة بالعلاقة بالماء: فيرى النائم أنه يغوص في الماء أو يخرج منه، وهذا معناه على التوالي أنه يلد أو يولد. ولا تنسوا أن هذا الرمز يمكن اعتباره ذا صلة مزدوجة بالحقيقة التي تؤكدها نظرية النشوء والتطور: فمن جهة أولى (وهذه واقعة تعود إلى زمن سحيق القدم) تحدرت جميع الثدييات البرية، بما فيها أسلاف الإنسان، من الحيوانات المائية، ومن جهة ثانية يُمضي كل حيوان ثديي، وكل إنسان، الطور الأول من وجوده في الماء، يوم يكون جنيناً يحيا في السائل المشيمي لرحم أمه، والولادة تعني له خروجه من الماء. أنا لا أؤكد أن الحالم يعرف ذلك كله، لكني أقدِّر أيضاً أنه لا حاجة به إلى معرفته. وأكبر الظن أن الحالم يعرف أشياء مما حُكي له في طفولته، لكني لا أجزم، حتى فيما يتصل بهذه المعرفة، أنها ساهمت بأي قسط في تكوين الرمز. لقد قُصّ عليه في غابر الأيام أن طائر اللقلق هو الذي يأتي بالأطفال. لكن أين يعثر عليهم؟ في النهر، في البئر، إذاً في الماء أيضاً. لما سمع أحد مرضاي، يوم كان طفلاً، بهذه القصة، توارى عن الأنظار عصر يوم بكامله. فلما عثروا عليه أخيراً وجدوه عند حافة مستنقع القصر الذي كان يقيم فيه وقد مدّ وجهه فوق صفحة الماء محاولاً أن يلمح في قاعه الأطفال الصغار.

لقد قام أ. رانك بتحليل مقارن للأساطير المتعلقة بولادة الأبطال (وأقدمها



أسطورة ولادة سرجون[١٠]، ملك أكاد، في سنة ٢٨٠٠ ق.م)، فوجد أن الغطس في الماء والانتشال من الماء يلعبان فيها دوراً راجحاً. وفطن رانك إلى ما في ذلك من تمثيل رمزي للولادة مشابه لما يحدث في الحلم. فحين يحلم واحدنا بأنه ينقذ شخصاً من الماء، يجعل من هذا الشخص أمه أو أي أم على الإطلاق، وكذلك في الأسطورة: فالمرأة التي تنتشل طفلاً من الماء تعترف في خاتمة المطاف بأنها أمه الحقيقية. وثمة فكاهة معروفة يُسأل فيها غلام يهودي ذكي عمن كانت أم موسى فيجيب بلا تردد: الأميرة. فإذا قيل له: كلا، فالأميرة انتشلته من الماء ليس إلا، أجاب: هي التي تزعم ذلك، مظهراً بذلك أنه مدرك الدلالة الصحيحة للأسطورة[١١].

يرمز الرحيل في الحلم إلى الموت. وعلى كل، عندما يسأل طفل عن أخبار شخص مرَّ زمن طويل من دون أن يراه ـ لأن هذا الشخص قد توفي في الواقع ـ جرت العادة على إجابته بالقول: لقد رحل في سفر. وهنا أيضاً أزعم أن الرمز لا صلة له بهذا التفسير الذي يقدَّم للأطفال. فالشاعر يلجأ إلى استخدام الرمز عينه حين يتكلم عن الدار الآخرة وكأنها بلد ذو مجاهل لا يعود منه المسافر أبداً. وحتى في أحاديثنا اليومية، لا يندر أن نتكلم عن «الرحلة الأخيرة»[١٢]. ويعلم كل من له إلمام بالطقوس القديمة أن تمثيل الرحيل إلى موطن الموتى كان من شعائر ديانة مصر القديمة. وقد بقيت لنا نسخ عدة من **كتاب الموتى** الذي كان يعطى للمومياء، كما يعطى المسافرون اليوم الدليل السياحي، ليرافقها في تلك الرحلة. ومنذ أن فُصلت أماكن الدفن عن أماكن السكن، باتت هذه الرحلة الأخيرة للموتى بمثابة حقيقة واقعة.

والأمر بالمثل في الرمزية التناسلية: فهي ليست وقفاً على الحلم. فلعل ما من واحد منا إلا أساء التهذيب، ولو لمرة واحدة في حياته، مع امرأة، فوصفها بأنها

١٠ ـ سرجون الأقدم: مؤسس مملكة أكاد السامية في حوالي العام ٢٣٠٠ ق. م. والإشارة هنا إلى كتاب أوتو رانك: **أسطورة ميلاد البطل**. «م».

١١ ـ سيطوِّر فرويد تحليل هذه الأسطورة مطولاً في كتابه: **موسى والتوحيد**. «م».

١٢ـ وفي العربية نقول عن المتوفى «الراحل». «م».



«علبة قديمة»، من دون أن يعرف أنه بذلك إنما يستخدم رمزاً تناسلياً. وقد جاء في كتاب **العهد القديم** أن المرأة **وعاء** سريع العطب. وكتب اليهود المقدسة، بأسلوبها القريب غاية القرب من الشعر، تزخر بالتعابير المقتبسة من معين الرمزية الجنسية، وهي تعابير لم تفهم دوماً على الوجه الصحيح؛ وقد نجم عن تأويلها، في **نشيد الأنشاد** مثلاً، سوء فهم متعدد الضروب. وفي الأدب العبري المتأخر كثيراً ما نلتقي بالرمز الذي يمثل المرأة في صورة بيت، يكنى ببابه عن الفتحة التناسلية. فالزوج يشتكي، مثلاً، إن وجد زوجته ثيِّباً، من أنه وجد **الباب مفتوحاً**. ومن الرموز التي نلتقيها في هذا الأدب أيضاً تمثيل المرأة **بالطاولة**. فتقول المرأة عن زوجها: رتَّبت له الطاولة، لكنه **قلَبها**. ولأن الزوج **يقلب الطاولة** يولد الأولاد كسحاء[١٣]. وأنوه هنا بأني اقتبست هذه المعلومات من دراسة للسيد ل. ليفي Levy، من مدينة برون، عن **الرمزية الجنسية في التوراة والتلمود**[١٤].

إن علماء الاشتقاق هم الذين رجحوا الفرض الذي قلنا بموجبه إن المركب تمثيل رمزي للمرأة: فكلمة: Schiff (مركب) التي كانت تفيد في البدء في الإشارة إلى **الوعاء** من الآجر، ليست في الواقع، وعلى ما يقوله لنا أولئك العلماء، إلا تحوير لكلمة Schaff (قصعة). وأما أن **الفرن** رمز للمرأة وللرحم، فهذا ما تؤكده لنا الأسطورة الإغريقية عن بورياندرس[١٥] الكورنثي وزوجته ميليسا. فقد روى هيرودوتس[١٦] أن الطاغية، بعد أن قتل زوجته الحبيبة بدافع الغيرة، استحلف طيفها أن يخبره عن أحوالها، فأفصحت القتيلة عندئذ عن حضورها بأن ذكَّرت برياندرس بأنه **وضع خبزه في فرن بارد**، وهذا تعبير مقنَّع أرادت أن تشير به إلى فعل ما كان لأحد آخر أن يعرفه. ونقرأ في موسوعة **النبات**

١٣ ـ أي لأنه يأتيها من الدبر. «م».

١٤ ـ الإحالة هنا إلى كتاب لودفيغ ليفي: **الرمز الجنسي في التوراة والتلمود** (١٩١٤). «م».

١٥ ـ برياندرس: طاغية مدينة كورنثوس (٦٢٧ ـ٥٨٧ ق.م). أحد حكماء اليونان السبعة. «م».

١٦ ـ هيرودوتس: كبير مؤرخي الإغريق ورحّالتهم، لقب بأبي التاريخ. قسم العالم إلى عالم همجي (المصريين، الميديين، الفرس) وإلى عالم متمدين (الإغريق) . «م».



البشري Anthropophyteia التي يصدرها ف.س كراوس Kraus[١٧] ـ وهي منجم ثرّ بمعلومات لا تضاهى في كل ما يتصل بالحياة الجنسية لمختلف الشعوب ـ نقرأ أنه يقال في بعض مناطق ألمانيا عن المرأة حين تضع: **لقد انهار فرنها**. وإيقاد النار، وكل ما يتصل به، مشبع عميق الإشباع بالرمزية الجنسية. ولسان اللهب يرمز على الدوام إلى عضو التناسل عند الرجل، بينما يرمز الموقد إلى رحم المرأة.

لئن عجبتم أن تفيد المناظر الطبيعية على مثل هذا النطاق الواسع في التمثيل الرمزي لجهاز المرأة التناسلي في الأحلام، فما عليكم إلا أن تستفهموا عن ذلك من علماء الميتولوجيا ليخبروكم عن الدور العظيم الذي لعبته في كل آن وزمان **الأرض المرضعة** في تمثلات الشعوب القديمة وعباداتها، وإلى أي حد كان تصورها للزراعة متعيناً بهذه الرمزية. وقد تجدون في أنفسكم ميلاً إلى البحث في اللغة الدارجة عن تمثيل المرأة الرمزي: ألسنا نقول بالألمانية Frauenzimmer (غرفة المرأة) بدل أن نقول Frau (امرأة)، فنكون بذلك قد استبدلنا الشخص الإنساني بالموضع الذي يعمل فيه؟ ثم ألا نقول: «الباب العالي»، لنشير بهذا التعبير إلى السلطان وحكومته؟ كذلك إن كلمة «فرعون» التي كانت تطلق على ملوك مصر القديمة كانت تعني «الفناء الكبير» (كانت الأفنية الواقعة بين الأبواب المزدوجة للمدينة تستخدم في الشرق القديم كأماكن للاجتماع، مثلها مثل ساحات الأسواق في العصر الإغريقي الكلاسيكي). غير أني أعتقد أن هذا الربط سطحي أكثر مما ينبغي. وأميل بالأحرى إلى الافتراض أن **الغرفة** صارت رمزاً **للمرأة** من حيث أنها تشير إلى المكان الذي يحتضن الإنسان بين جنباته. ورمز البيت مألوف عندنا من هذا المنظور، والميتولوجيا واللغة الشعرية تبيحان لنا أن نعتبر **الحصون والقلاع والقصور والمدن** من جملة التمثيلات الرمزية للمرأة. والشك، فيما يتصل بهذا التأويل، غير مباح إلا في حضرة أشخاص لا يتكلمون الألمانية، ويعجزون بالتالي عن فهمنا. والحال أنه سنحت لي الفرصة، في

١٧ ـ فريدريش سالومون كراوس: إثنوغرافي وعالم جنسي كرواتي (١٨٥٩ ـ ١٩٣٨). له كتاب **تفسير المنام**، فضلاً عن موسوعة **النبات البشري** المشار إليها. «م».



السنوات الأخيرة، لمعالجة عدد كبير من المرضى الأجانب، وأذكر أن **الغرفة** كانت تعني في أحلامهم المرأة دوماً، بالرغم من أن لغة قومهم لا تنطوي على أي تشابه بين هاتين الكلمتين. وثمة أسباب أخرى تحمل على الاعتقاد بأن العلاقة الرمزية يمكن أن تتجاوز الحدود اللغوية، وهذه حقيقة سبق أن اعترف بها مفسر الأحلام شوبرت Schubert[١٨] (١٨٦٢). على أنه ينبغي أن أذكر أن ما من أحد من مرضاي كان يجهل اللغة الألمانية جهلاً مطبقاً، بحيث لا يسعني إلا أن أترك الفصل في هذا الموضوع للمحللين النفسيين ممن تتوفر لهم المقدرة على أن يجمعوا من أقطار أخرى ملاحظات تتعلق بأشخاص لا يتكلمون إلا لغة واحدة لا غير.

أما فيما يتعلق بالتمثيلات الرمزية للعضو التناسلي عند الرجل، فليس ثمة تمثيل واحد لا تعبر عنه اللغة الدارجة في صورة هازلة أو سوقية، أو في صورة شعرية كما لدى شعراء العصور القديمة أحياناً. ولا تقتصر هذه التمثيلات على الرموز التي تتبدى في الأحلام، بل تشمل رموزاً أخرى أيضاً، ومنها أدوات شتى على سبيل المثال، وفي المقام الأول المحراث. والحق أن ميدان التمثيل الرمزي للعضو الجنسي المذكر متسع كل الاتساع، وموضع جدل كثير، وسنحرص على تحاشيه اقتصاداً للوقت. لكن بودِّي أن أبدي بضع ملاحظات بصدد رمز واحد لا يندرج في هذه السلسلة: رمز الرقم ٣. وإذا تركنا جانباً مسألة معرفة ما إذا كان هذا الرقم لا يدين لهذه العلاقة الرمزية بطابعه المقدس، وجدنا أنه من الثابت الذي لا ريب فيه أن بعض أشياء الطبيعة المؤلفة من أجزاء ثلاثة (نبات النفل المثلث الأوراق مثلاً) قد أعطت شكلها لبعض الأسلحة والشعارات لما لها من دلالة رمزية تحديداً. كذلك إن زهرة الزنبق الفرنسية المثلثة الشُعَب والتريسكيلا (Triskéla) (زهرة ذات ثلاث سيقان شبه منحنية بدءاً من نقطة مركزية)، اللتين تعتمدانهما كشعار جزيرتان متنائيتان أعظم التنائي: جزيرة صقلية وجزيرة

١٨ ـ غوتليف فون شوبرت: عالم طبيعيات ألماني (١٧٨٠ ـ ١٨٦٠). له مؤلفات عديدة في علم النبات، فضلاً عن كتاب: **في رمزية الأحلام**. «م».



مان[١٩]، ما هما في رأيي إلا صورتان رمزيتان مهذبتان لجهاز الرجل التناسلي. وكانت تصاوير العضو الجنسي المذكر تعتبر في العهود القديمة وسائل دفاع ممتازة (Apotropaea)[٢٠] لاتقاء أذى الأرواح الشريرة؛ ولعل من مخلفات هذا الاعتقاد ما نلاحظه حتى في أيامنا هذه من أن جميع التمائم الجالبة للحظ لا تعدو أن تكون رموزاً تناسلية أو جنسية. تفحصوا مجموعة من هذه التمائم التي توضع في العنق على شكل طوق، تجدوا بينها نفلة ذات أربع أوراق، وخنزيراً، وفطراً، وحدوة فرس، وسُلَّماً، ومنظف مداخن. فأما النفلة الرباعية الأوراق فبديل عن النفلة الرمزية الثلاثية الأوراق، وأما الخنزير فرمز قديم من رموز الخصوبة، والفطر يرمز بلا جدال إلى القضيب، ومن الفطور نوع يدين باسمه لهذا التشابه الصارخ مع عضو الذكورة Fallus Impudicus[٢١]، وحدوة الفرس تحاكي نطاق الفتحة التناسلية عند المرأة، ومنظف المداخن الذي يحمل سلَّمه ينتمي إلى هذه المجموعة لأنه يزاول مهنة من المهن التي درج السوقة على تشبيهها بالعملية الجنسية (انظر موسوعة **النبات البشري** Anthropophyteia). وقد عرفنا من قبل أن السلم يدخل في عداد رمزية الأحلام الجنسية. وهنا يمكن للغة الألمانية أن تعيننا، إذ تبين لنا أن كلمة «يصعد» تستخدم بمعنى جنسي في الجوهر. فيقال بالألمانية: «يصعد خلف النساء» و«صعّاد قديم». وبالفرنسية تحل كلمة Marche محل كلمة Stufe الألمانية، فيقال عن الفاسق العجوز «مشَّاء مسنّ». ولعل هذه المقاربة ليست منقطعة الصلة بكون السفاد لدى الكثير من الحيوانات يتم بفرشحة الذكر فوق الأنثى.

أما اقتلاع الغصن كتمثيل رمزي لجلد عميرة فلا يتمشى مع وصف السوقة لفعل الاستمناء فحسب، بل له أيضاً في الميتولوجيا أوجه شبه كثيرة. غير أن ما يلفت النظر بوجه خاص هو تمثيل جلد عميرة، أو بالأحرى تمثيل الخصاء باعتباره

١٩ ـ صقلية: جزيرة إيطالية كبيرة تقع في البحر الأبيض المتوسط، ومان: جزيرة إنكليزية تقع في بحر إيرلندة. «م».

٢٠ ـ كلمة إغريقية، من معانيها التعويذة. «م».

٢١ ـ باللاتينية بالنص، ومعناها الحرفي القضيب الداعر. «م».



عقاباً على هذه الخطيئة، في صورة سقوط سن أو قلعها: ذلك أن الأنتروبولوجيا تقدم لنا بالفعل نظيراً موازياً لهذا التمثيل، وإن كان أكثر الحالمين لا يعلمون به. فأنا لا أعتقد أنني أجانب الصواب إذ أرى في الختان، الذي تأخذ به شعوب كثيرة، معادلاً للخصاء أو بديلاً عنه. ونحن نعلم فضلاً عن ذلك أن بعض القبائل البدائية في القارة الأفريقية تتخذ من الختان طقساً من طقوس البلوغ (احتفالاً بإدراك الغلام سن الرجولة)، بينما تستعيض قبائل أخرى، مجاورة للأولى، عن الختان باقتلاع سن.

بهذه الأمثلة أختم عرضي. وهي محض أمثلة، فما نعرفه في الموضوع أكثر، ولا يشقّ عليكم أن تتصوروا ما يمكن أن تكون عليه مجموعة كهذه من تنوع وطرافة فيما لو قام بجمعها، لا هواة مثلنا، بل اختصاصيون في الأنتروبولوجيا والميتولوجيا والألسنية والإثنولوجيا. على أن القليل الذي ذكرناه يتيح لنا استخلاص بعض استنتاجات لا تدعي أنها تستنفد الموضوع، ولكنها قمينة بأن تحفز على إعمال الفكر.

وأولاها أن الحالم يكون في متناوله في أثناء النوم نمط تعبير رمزي، وهو به جاهل وله منكر في حالة اليقظة. وقد يفجؤكم ذلك بقدر ما يفجؤكم أن تعلموا أن مدبرة منزلكم تفهم السنسكريتية، مع أنكم تعلمون عن يقين أنها ولدت في قرية من قرى بوهيميا ولم تدرس تلك اللغة قط. وليس من العسير علينا أن نجد لهذه الواقعة تعليلاً بذخيرتنا من التصورات السيكولوجية. وكل ما نملك أن نقول أن معرفة الرمزية لدى الحالم لاواعية، وأنها وجه من حياته النفسية اللاشعورية. غير أن هذا التفسير لا يغنينا غناء يذكر. فحتى الآن ما كنا بحاجة إلا للتسليم بوجود ميول لاشعورية، أي ميول يكون بها الإنسان جاهلاً بصورة وقتية أو لأجل متفاوت الطول. لكن الأمر هذه المرة أكبر وأجلّ شأناً: فنحن نتحدث عن معرفة لاشعورية، وعن علاقات لاشعورية بين بعض الأفكار، وعن مقارنات لاشعورية بين أشياء ومواضيع شتى، مقارنات يكون من نتيجتها أن يحلّ أحد هذه الأشياء بصفة دائمة محلّ آخر. وهذه المقارنات لا تعقد في كل مرة من جديد وبحسب الحاجة، بل تجري مرة واحدة ونهائية، وتكون رهن الإشارة دوماً



وأبداً. وبرهاننا على ذلك أنها متماثلة لدى مختلف الناس، وعلى اختلاف لغاتهم في الغالب.

تُرى من أين يمكن أن نستقي معرفتنا بهذه العلاقات الرمزية؟ إن اللغة الدارجة لا تزوِّدنا إلا بقدر ضئيل من المعلومات. أما المشابهات الكثيرة التي يمكن أن تقدمها الميادين الأخرى، فالحالم جاهل بها في أغلب الأحوال، ونحن أنفسنا لم نتوصل إلا بعد لأي إلى جمع عدد منها.

ثانياً، إن هذه العلاقات الرمزية ليست وقفاً على الحالم، وليست سمة محصورة بعمل الحلم. فقد رأينا أن الأساطير والحكايا، والأمثال والأغاني الشعبية، واللغة الدارجة والمخيِّلة الشعرية تستخدم الرمزية عينها. والحق أن مضمار الرمزية واسع للغاية، وما رمزية الأحلام إلا صقع صغير من أصقاعه، وليس يجوز بحال من الأحوال التنطع لمعالجة المشكلة برمتها انطلاقاً من الأحلام؛ ذلك أن الكثير من الرموز الشائعة في الميادين الأخرى لا يظهر في الأحلام، أو لا يظهر فيها إلا فيما ندر، كما أن الكثير من رموز الأحلام لا نلتقيه في ميدان آخر، وإن التقيناه فشتاتاً مبعثراً كما رأيتم. لذا يتراءى لنا أننا بصدد أسلوب تعبيري قديم، زال واندثر، إلا بقايا قليلة منه تناثرت في ميادين شتى: نثرة هنا، وأخرى هناك، وثالثة في مضامير شتى وقد أصابها قدر من التحوير. وأذكر بهذه المناسبة فكرة خيالية خطرت ببال نزيل طريف من نزلاء مصحات الأمراض العقلية، إذ تصوَّر أن هناك «لغة أصلية» لا تعدو جميع هذه العلاقات الرمزية أن تكون، في رأيه، مخلفات وبواقي منها[٢٢].

ثالثاً، لقد أدهشكم ولا بدّ أن تعلموا أن الرمزية في جميع الميادين الأخرى ليست بالضرورة جنسية، وجنسية خالصة، بينما الرموز في الأحلام لا تعبر حصراً ـ خلا بعض استثناءات ـ إلا عن موضوعات وعلاقات جنسية. وهذا أمر يعسر أن نجد له، هو الآخر، تعليلاً. فهل لنا أن نفترض أن الرموز كانت في البدء

٢٢ ـ الإشارة هنا إلى دانييل شريبر، رئيس محكمة الاستئناف في مدينة درسدن، أصابته نوبة هلسية بعد فشله في الانتخابات، فأقيل من وظيفته وأودع مصحة للأمراض العقلية. وعنه كتب فرويد مقالته: **ملاحظات تحليلية نفسية حول حالة ذهان هذائي**. «م».



جنسية، ثم جرى استعمالها لغير هذا الغرض، فأدى هذا التغيير في الاستعمال إلى أفولها رويداً رويداً، حتى فقدت في نهاية المطاف طابعها الرمزي؟ بديهي أنه يتعذر علينا الجواب عن هذه الأسئلة ما دمنا نحصر اهتمامنا برمزية الأحلام وحدها. وكل ما علينا أن نفعله هنا أن نتمسك بالمبدأ الذي يقول بوجود علاقات وثيقة للغاية بين الرموز الحقيقية والحياة الجنسية.

لقد جاءتنا مؤخراً، بصدد هذه العلاقات، مساهمة ذات شأن. فقد ذهب أحد فقهاء اللغة، هو السيد هـ . سبربر Sperber[٢٣] (من أبسالا)، وهو ممن لا صلة لهم بالتحليل النفسي، ذهب إلى القول إن الحاجات الجنسية لعبت دوراً بالغ الأهمية في نشوء اللغة وتطورها. فأول أصوات نطق بها الإنسان كان الغرض منها التواصل ومناداة الشريك الجنسي، ثم تطورت الجذور اللغوية لاحقاً لتواكب تنظيم العمل في المجتمع البشري البدائي. وكانت الأعمال تؤدى بمصاحبة ألفاظ وتعابير تكرر إيقاعياً. وهكذا حدث تحول في الاهتمام الجنسي، فانصبّ على العمل. فلكأن الإنسان البدائي لم يرضخ لداعي العمل إلا بعد أن جعل منه عديلاً للنشاط الجنسي وبديلاً عنه. وهكذا كان للكلمة التي يُتلفظ بها أثناء العمل المشترك معنيان: واحد يعبر عن الفعل الجنسي، والثاني عن العمل الذي جرت المماثلة بينه وبين هذا الفعل. ورويداً رويداً انفصلت الكلمة عن دلالتها الجنسية لترتبط نهائياً بالعمل. ومثيل ذلك حدث لدى الأجيال التالية التي ما كانت تبتكر كلمة جديدة ذات دلالة جنسية حتى تبادر إلى إطلاقها على نوع جديد من العمل. وعلى هذا المنوال تكونت جذور عديدة، أصلها جميعاً جنسي. غير أنها ما عتمت أن فقدت دلالتها الجنسية. فإن صحّت هذه الفرضية، التي لخّصتها لكم في خطوطها الكبرى، فتحت لنا منفذاً إلى فهم رمزية الأحلام، فنفهم لماذا يشتمل الحلم، وهو ذو صلة ما بتلك الظروف البدائية، على ذلك القدر الكبير من الرموز التي تتصل بالحياة الجنسية، ولماذا يتخذ الحلمُ الأسلحةَ والأدوات بوجه عام رموزاً مذكرة، بينما يتخذ الأقمشة وكل ما هو مشغول يدوياً رموزاً مؤنثة. وعلى

٢٣ ـ هانز سبربر: لغوي سويدي أثار في حينه فضيحة عندما نشر بحثاً في مجلة **إيماغو** عن «تأثير العوامل الجنسية في نشوء اللغة وتطورها». «م».



هذا الأساس تكون العلاقة الرمزية أثراً متبقياً من الهوية القديمة للألفاظ؛ فالأشياء التي كانت تتصل بالحياة والدائرة التناسليتين تعاود ظهورها الآن في الأحلام بصفتها رموزاً لهذه الحياة ولهذه الدائرة.

إن جميع هذه التشابهات التي أثارها موضوع رمزية الأحلام ستتيح لكم أن تكوّنوا فكرة عن التحليل النفسي باعتباره علماً ذا أهمية عامة، خلافاً لما هو عليه الحال في علم النفس وفي طب الأمراض النفسية. فالعمل التحليلي النفسي يضعنا على تماس مع جملة من العلوم المعنوية الأخرى، كعلم الأساطير، وعلم اللغة، وعلم السلالات البشرية، وعلم نفس الشعوب، وعلم الأديان، وكلها علوم قمينة بأن تزوِّدنا مباحثها بأثمن المعطيات. فلا تعجبوا إذاً إن علمتم أن حركة التحليل النفسي قد أفضت إلى إنشاء مجلة دورية، هدفها الأوحد دراسة هذه العلاقات: أعني مجلة **إيماغو** Imago التي أسسها عام ١٩١٢ هانز ساكس Sachs[٢٤] وأوتو رانك. والتحليل النفسي، في جميع صلاته بالعلوم الأخرى، يعطي أكثر مما يأخذ. صحيح أن النتائج الغريبة التي يتمخض عنها التحليل النفسي في كثير من الأحيان تغدو مقبولة ومستساغة أكثر حين تؤيد صحتها الأبحاث التي تُجرى في ميادين أخرى، لكن التحليل النفسي هو الذي يصمم المناهج التقنية ويقرر وجهات النظر التي يفترض فيها أن تثبت خصوبتها في العلوم الأخرى. ويكتشف البحث التحليلي النفسي في الحياة النفسية للفرد البشري وقائع تتيح لنا أن نجد حلاً لأكثر من لغز من ألغاز حياة البشر الجماعية أو أن نضعها على الأقل في إطارها الحقيقي.

لكني لم أحدثكم بعد عن الظروف التي يتأتى لنا فيها أن نظفر بأعمق رؤية لتلك «اللغة الأصلية» المزعومة، ولا عن المضمار الذي احتفظ بالقدر الأكبر من بقاياها. وما دمتم بذلك جاهلين، فلن يكون في مقدوركم أن تقدِّروا كل أهمية الموضوع. والحال أن ذلك المضمار هو مضمار الأعصبة Névroses، ومواده تتألف من الأعراض المرضية ومن تظاهرات أخرى لدى الأشخاص العصبيين،

٢٤ ـ هانز ساكس: محامٍ ومحلل نفسي نمساوي (١٨٨١ ـ ١٩٤٧). كان مقرَّباً إلى فرويد. هاجر إلى الولايات المتحدة عام ١٩٣٢. من مؤلفاته: **فرويد معلمي وصديقي**. «م».



وتفسير هذه الأعراض والتظاهرات ومعالجتها هما على وجه التعيين موضوع التحليل النفسي.

إذاً فوجهة نظري الرابعة تردّنا إلى النقطة التي انطلقنا منها، وتوجِّهنا في الوجهة المرسومة لنا. فقد قلنا إنه حتى وإن لم يكن ثمة وجود لرقابة الأحلام فإن ذلك لن يسهِّل علينا فهم الحلم، لأنه سيتعيَّن علينا في هذه الحال أن نحلّ معضلة أخرى، هي معضلة ترجمة لغة الحلم الرمزية إلى لغة فكرنا الصاحي. إذاً فالرمزية عامل آخر من عوامل تحريف الأحلام، مستقل عن الرقابة. على أنه بوسعنا الافتراض أن الرقابة يناسبها استخدام الرمزية التي تخدم الهدف ذاته: غرابة الحلم وعدم قابليته للفهم.

إن المضي قدماً في دراسة الحلم قد يتيح لنا أن نكتشف عاملاً آخر من عوامل التحريف. لكنني لا أريد أن أترك مسألة الرمزية من دون أن أذكّركم مرة أخرى بالموقف الملغز المحيِّر الذي خيِّل للمثقفين من الناس أنه من واجبهم أن يقفوه منها: موقف المعارضة الشديدة، مع أن وجود الرمزية قد ثبت ثبوتاً قاطعاً لا ريب فيه في الأسطورة والدين واللغة المشبعة كلها بالرموز. ألا ينبغي أن نتحرى عن علة هذا الموقف في العلاقات التي كشفنا عن وجودها بين رمزية الأحلام وبين الجنسية Sexualité؟

المحاضرة الحادية عشرة

عمل الحلم

سيداتي وسادتي، إن أفلحتم في تكوين فكرة لأنفسكم عن آلية الرقابة والتمثيل الرمزي، فستتأتى لكم المقدرة على فهم غالبية الأحلام، ولكن من دون أن تعرفوا جيد المعرفة مع ذلك آلية تحريف الأحلام. فأمامكم بالفعل، كيما تفهموا الأحلام، خطتان تكمّل واحدتهما الأخرى: استحضار ذكريات الحالم وخواطره العارضة حتى يتسنى لكم النفاذ من البديل إلى ماهية الحلم بالذات، واستبدال الرموز بدلالتها بالاعتماد على معلوماتكم الشخصية. وقد تنهض أمامكم، وأنتم تقومون بهذا العمل، نقاط يكتنفها الشك والريبة. ولكن الكلام عنها سيأتي لاحقاً.

بوسعنا الآن أن نستأنف عملاً كنا قد شرعنا به سابقاً بوسائل غير كافية. فقد أردنا جلاء العلاقات القائمة بين عناصر الأحلام وبين ركيزتها الحقيقية، فوجدنا أن هذه العلاقات أربع عدداً: علاقة الجزء بالكل، المقاربة أو التلميح، العلاقة الرمزية، التمثيل اللفظي التشكيلي. وسنحاول الآن القيام بالعمل نفسه على نطاق أوسع، فنقارن المضمون الظاهر للحلم في جملته بالحلم الكامن كما يكشف لنا عنه التأويل.

آمل ألا تعودوا إلى الخلط بين الحلم الظاهر والحلم الكامن. فإن أبقيتم هذا التمييز ماثلاً نصب أعينكم على الدوام، تكونوا قد أصبتم، من منظور تأويل الحلم، نصيباً أوفر مما أصابه معظم قراء كتابي **تأويل الحلم**. واسمحوا لي أن أذكّركم مرة أخرى أن العملية التي تحوّل الحلم الكامن إلى حلم ظاهر تسمى **عمل الحلم**. أما العملية المعاكسة، أي تلك التي تريد أن تنفذ من الحلم الظاهر لتصل إلى الحلم الكامن فهي عملنا **التأويلي**. إذاً فالعمل التأويلي يسعى إلى إلغاء



عمل الحلم. وحتى الأحلام الطفلية النمط، التي نتعرف فيها بيسر وبلا مشقة تحقيقاً لرغبات، يطالها عمل الحلم، ولو ضمن حدود ضيقة، ومن ذلك أن تتحول الرغبة فيها إلى واقع، وأن تتحول الأفكار أيضاً في معظم الحالات إلى صور بصرية. وما نحتاج إليه هنا ليس التأويل بالضرورة، بل نظرة نستشفّ بها ما وراء هذين التحوُّلين. أما في الأحلام الأخرى، فإن عمل الحلم يقترن **بتحريف الحلم**، ولا يكون ثمة من سبيل إلى إلغاء هذا التحريف إلا بالعمل التأويلي.

وبما أنه تسنت لي الفرصة للمقارنة بين عدد كبير من تآويل الأحلام، ففي مقدوري أن أقدم لكم بياناً شاملاً بما يفعله عمل الحلم بمواد الأفكار الحلمية الكامنة. على أني أرجوكم ألا تتسرعوا في استخلاص النتائج مما سأقوله لكم. فأنا لن أزيد على أن أقدم لكم وصفاً يتطلب أن تتتبَّعوه بانتباه هادئ.

إن أول مفعول لعمل الحلم هو **تكثيف** هذا الأخير. نقصد بذلك أن محتوى الحلم الظاهر يكون أصغر حجماً من محتوى الحلم الكامن، وأنه يمثل بالتالي ضرباً من ترجمة مختصرة له. وقد ينعدم التكثيف أحياناً، لكنه في أكثر الأحيان قائم، وكثيراً ما يكون بعيد الأثر. ولا نلاحظ العكس أبداً، أي أنه لا يتفق أبداً أن يكون الحلم الظاهر أوسع مدى من الحلم الكامن وأن يكون ذا محتوى أغنى. ويتم التكثيف بواحد من طرق ثلاث: ١ ـ إما أن تحذف بعض العناصر الكامنة برمتها، ٢ ـ وإما ألا تبدو في الحلم الظاهر إلا نتف من بعض المجموعات التي يتألف منها الحلم الكامن. ٣ ـ وإما أن تنصهر العناصر الكامنة ذات السمات المشتركة مع بعضها بعضاً في الحلم الظاهر.

وإن شئتم، ففي مقدوركم أن تخصوا بمصطلح «التكثيف» هذه الطريقة الأخيرة وحدها. ومن السهل أصلاً بيان نتائجها. فلو استعرضتم في ذاكرتكم أحلامكم الشخصية لوجدتم فيها بلا عناء حالات لتكثيف عدة أشخاص في شخص واحد. وشخص مركب على هذا النحو يكون له مظهر أ، ولباس ب، وطريقة في السلوك تذكرنا بـ ج، وفضلاً عن ذلك كله نحن نعلم أن هذا الشخص هو ك. ويكون القصد من هذا المزيج، بطبيعة الحال، إبراز خاصية أو صفة مشتركة بين الأشخاص الأربعة. ومن الممكن أيضاً تركيب صورة من عدة



أشياء أو منظر من عدة أماكن، بشرط أن يكون للأشياء أو للأماكن المعنية سمة أو عدة سمات مشتركة يبغي الحلم الكامن التشديد عليها تشديداً خاصاً. وهكذا يبدو وكأن فكرة جديدة ومؤقتة قد تكونت، نواتها العنصر المشترك. ومن تراكب عناصر منصهرة في كل واحد تنجم بوجه عام صورة مبهمة المعالم، شبيهة بالصورة التي نظفر بها إذا ما سحبنا عدة صور فوتوغرافية على لوحة واحدة. وعمل الحلم معني كل العناية على ما يظهر بإنتاج هذه التشكيلات المركّبة، إذ يسهل علينا أن نتبين أن السمات المشتركة اللازمة لتكوينها تُختلق عن عمد حيث لا يكون لها من وجود، كما يجري مثلاً عند اختيار تعبير لفظي عن فكرة ما. وقد عرفنا من قبل تكثيفات وتشكيلات مركبة من هذا القبيل، ورأينا بوجه خاص أنها تلعب دوراً ما في بعض حالات فلتات اللسان. تذكروا الفتى الذي أراد أن **يرانق** سيدة في الطريق (وهي كلمة مركبة من **رافق ونافق**). وهناك أيضاً نكات قوامها تكثيف من هذا النوع. لكن بصرف النظر عن هذه الحالات، تبدو هذه الطريقة في التكثيف غريبة، بل مسرفة في الغرابة. صحيح أن تكوين صورة مركبة من عدة أشخاص في الأحلام له ما يناظره في بعض ابتكارات خيالنا الذي كثيراً ما يصهر في كل واحد عناصر لا صلة بينها في الخبرة الواقعية: ومن ذلك السنتورات[1] والحيوانات الخرافية في الميتولوجيا القديمة أو في لوحات بوكلن (Bocklin)[2]. ولكن الخيال «الخلاق» عاجز على كل حال عن اختلاق أي شيء من عدم، وإنما هو يكتفي بالجمع بين عناصر لا صلة بينها. أما الطريقة التي يلجأ إليها عمل الحلم فتتميز بصفة خاصة، وهي أن المواد التي يتصرف بها قوامها أفكار، قد يكون بعضها داعراً وغير مستساغ، لكنها جميعاً مصاغة صوغاً صحيحاً ومعبَّراً عنها تعبيراً صحيحاً. وعمل الحلم يضفي على هذه الأفكار شكلاً آخر؛ ومما يسترعي الانتباه ويعصى على الفهم أن عمل الحلم يستخدم في هذا

١ ـ السنتورات (أو القنطورسات): في الميتولوجيا الإغريقية مخلوق خرافي، نصفه الأعلى إنسان، ونصفه الأسفل حصان. «م».

٢ ـ أرنولد بوكلن: رسام سويسري (١٨٢٧ ـ ١٩٠١). له لوحات عظيمة التركيب ومقتبسة من الموضوعات الميتولوجية. «م».



النسخ أو في شبه الترجمة هذه إلى لغة أخرى طريقة الصهر والدمج أو طريقة التجميع والتركيب. إن الترجمة تحرص عادة على مراعاة خصائص النص وعلى عدم الخلط بين المتشابهات. أما عمل الحلم فيسعى على العكس إلى تكثيف فكرتين مختلفتين بأن يبحث ـ كما في التورية ـ عن لفظة ذات معانٍ يمكن أن تتلاقى فيها الفكرتان كلتاهما. ولا يجوز لنا أن نتعجل في استخلاص استنتاجات من هذه الخاصية التي قد تغدو، على كل حال، ذات شأن وأهمية في تصورنا لعمل الحلم.

إن التكثيف، وإن أحاط الحلم بالغموض، لا يلوح لنا أنه من فعل الرقابة، بل يسعنا بالأحرى أن نعزوه إلى أسباب ميكانيكية واقتصادية؛ غير أن الرقابة تجد فيه مبتغاها على كل حال.

إن مفاعيل التكثيف قد تكون أحياناً خارقة للمألوف. إذ قد تتيح الفرصة لسلسلتين من الأفكار الكامنة متباينتين كل التباين أن تجتمعا في حلم ظاهر واحد، بحيث نظفر بتأويل مرضٍ في الظاهر لحلم من الأحلام من دون أن تكون بنا حاجة إلى تأويل التأويل.

ومن شأن التكثيف أيضاً أن يشوِّش ويعدّد العلاقات بين عناصر الحلم الكامن وعناصر الحلم الظاهر. من ذلك أن عنصراً من الحلم الظاهر قد تناظره عدة عناصر كامنة، كما أن عنصراً من الحلم الكامن قد يسهم في عدة عناصر ظاهرة؛ إذاً فثمة ضرب من التصالب. ونلاحظ أيضاً، في أثناء تأويلنا حلماً من الأحلام، أن الخواطر التي قد تتوارد إلى الذهن بصدد عنصر ظاهر لا يتحتَّم استخدامها بحسب ترتيبها وتعاقبها، بل لا بدّ لنا في كثير من الأحيان أن ننتظر أن يكتمل تأويل الحلم كله.

إذاً فعمل الحلم يتبع أسلوباً لا يخلو من شذوذ في نسخ أفكار الحلم. فلا هو يترجمها كلمة بكلمة أو علامة بعلامة، ولا هو يجري عليها تخيُّراً وانتقاء بمقتضى قاعدة محددة، كما عندما يقرر المرء ألا ينطق إلا بالحروف الساكنة من كلمة من الكلمات، مهملاً حروف العلة، ولا هو يخضعها أخيراً لما يمكن أن نسميه بعملية إحلال وإنابة، كما عندما يقدِّم المرء عنصراً من العناصر ويبرزه على



حساب عدة عناصر أخرى، بل يتبع أسلوباً مغايراً تماماً وأكثر تعقيداً بكثير.

وثاني أساليب عمل الحلم هو **النقل والإزاحة**. وقد سبق لنا العلم به لحسن الحظ، ونحن نعرف أنه بأسره من فعل رقابة الأحلام. وتتم الإزاحة بصورتين: أولاً أن يجري استبدال عنصر كامن لا بعنصر من عناصره الذاتية المكوِّنة، بل بشيء أبعد وأنأى، أي بضرب من التلميح والإلماع، وثانياً أن يحوَّل الانتباه من عنصر هام إلى آخر غير ذي أهمية، بحيث يصير للحلم مركز آخر، فيظهر بمظهر غريب.

والاستبدال عن طريق التلميح والإلماع شائع أيضاً في حالة اليقظة، لكن مع فارق محدَّد. فالتلميح في الفكر الصاحي لا بدّ أن يكون مما لا يشقّ فهمه، كما لا بدّ أن يكون بين التلميح والفكرة الأصلية صلة وعلاقة من حيث المضمون. وكثيراً ما تلجأ النكتة إلى التلميح، من دون أن تتقيد بشرط الارتباط بين المضمونين، وإنما تستعيض عن هذا الارتباط بآخر خارجي غير مألوف ولا دارج، قوامه التشابه الصوتي أو تعدد معاني الكلمة، إلخ. غير أنها تتقيد بدقة بشرط سهولة الفهم؛ فالنكتة لن تؤتي مفعولها على الإطلاق وستفقد نكهتها إن تعذر على سامعها أن يفطن إلى موضوعها من الإلماع إليه. غير أن التلميح عن طريق الإزاحة لا يتقيَّد بأي من هذين الشرطين في الحلم. فالتلميح هنا لا تكون له إلا صلات خارجية ونائية جداً بالعنصر الملمح إليه، ومن ثم فإنه يعزّ فهمه؛ فإذا أردنا أن نقتصّ أثر العنصر، بدا التأويل وكأنه نكتة بائخة أو تفسير قسري مغتصب. ولا تبلغ رقابة الأحلام هدفها إلا إذا أفلحت في تمويه الطريق الذي يقود من التلميح إلى كنه الشيء وركيزته.

أما الإزاحة عن طريق تحويل الانتباه فليست مألوفة في التعبير عن الأفكار ولكن قد نلجأ إليها أحياناً في فكرنا الصاحي طلباً للهزل والتندر. وحتى تأخذوا فكرة عما أعني، سأذكركم بالنكتة التالية: ارتكب بيطار في إحدى القرى جريمة خطيرة، فقررت المحكمة أن هذه الجريمة تستوجب العقوبة القصوى، ولكن بما أنه لم يكن في القرية بيطار غيره، وبالتالي لا غنى عنه، بينما يوجد فيها بالمقابل ثلاثة خياطين، فقد شنق أحدهم بدلاً من البيطار.



أما ثالث الأساليب التي يعتمدها عمل الحلم فأهمها جميعاً من وجهة النظر السيكولوجية. وقوامه تحويل الأفكار إلى صور بصرية. هذا لا يعني أن جميع العناصر المكوِّنة لأفكار الحلم تتعرض لهذا التحويل؛ فكثير من الأفكار تحتفظ بشكلها وتتبدى كما هي أو في صورة معلومات في الحلم الظاهر؛ كما أن الصور البصرية ليست، من جهة أخرى، الشكل الوحيد الذي تتلبسه الأفكار. غير أن الصور البصرية تلعب على كل حال دوراً رئيسياً في تكوين الحلم. وهذا الجانب من عمل الحلم هو أكثر جوانبه ثباتاً واطراداً، وهذا شيء نعرفه من قبل، كما نعرف بوجود «التمثيل التشكيلي للألفاظ» بالنسبة إلى عناصر بعينها من الحلم.

من البديهي أن الحصول على هذا المفعول ليس بالسهل. وحتى تكوّنوا فكرة عن الصعوبات التي تكتنفه، ما عليكم إلا أن تتخيلوا أنكم عقدتم العزم على استبدال افتتاحية سياسية لصحيفة ما بطائفة من الرسوم الإيضاحية، أي استبدال الحروف الطباعية بعلامات مصورة. ففيما يتعلق بالأشخاص والأشياء العينية الذين يدور عنهم الكلام في الافتتاحية المذكورة، سيكون سهلاً عليكم، وربما أنسب لكم، استبدالهم بصور، لكنكم ستصطدمون بعقبات كأداء عندما ستتصدون لتمثيل الكلمات المجردة وأجزاء الكلام التي تعبر عن العلاقات بين الأفكار، كالأدوات، وحروف العطف، إلخ، تمثيلاً عينياً. وسيكون في مقدوركم اصطناع شتى الحيل فيما يتصل بالألفاظ المجردة. فلكم مثلاً أن تنسخوا نص المقال في صيغة لفظية أخرى، قد لا تكون مألوفة ودارجة كالأولى، ولكنها أغنى بالعناصر العينية وأطوع للتمثيل. ولعلكم ستتذكرون عندئذ أن أغلب الألفاظ المجردة كانت ألفاظاً عينية فيما غبر، وستسعون إلى الرجوع إلى معناها العيني البدائي ما وسعكم ذلك. وقد يطيب لكم، مثلاً، أن تتمكنوا من تمثيل «امتلاك» الشيء Besitzen بمدلوله العيني، وهو فعل الجلوس على هذا الشيء Fsitzen. وهذا عين النهج الذي ينهجه عمل الحلم. وليس لنا أن نتطلب دقة كبيرة من الحلم في هذا الضرب من التمثيل. وعلى هذا، لن تتشددوا في محاسبة عمل الحلم إن استبدل عنصراً



يصعب التعبير عنه بصور عينية مثل كسر العهد الزوجي Ehebruch (أي الخيانة الزوجية) بكسر الذراع Armbruch[٣]. فإذا ما عرفتم هذه التفاصيل، تأتى لكم إلى حدّ ما أن تصححوا خَرَق الكتابة التصويرية وقصورها حين تدعى إلى الحلول محل الكتابة اللفظية.

غير أن هذه الوسائل المساعدة لا تعود متاحة لكم عندما تريدون تمثيل تلك الأجزاء من الكلام التي تعبر عن العلاقات بين الأفكار: **لأن، لهذا، غير أن**، إلخ. فهذه العناصر من النص لا يمكن تحويلها إلى صور. وعلى المنوال نفسه يردّ عمل الحلم مضمون أفكار الحلم إلى مادتها الخام المتكونة من أشياء وأفعال. وأنتم سيطيب لكم بلا شك لو تسنت لكم الإمكانية لترجمة هذه العلاقات غير القابلة

٣ ـ بينما كنت أصحح بروفات هذه الصفحات، وقع نظري اتفاقاً على خبر في صحيفة أنقله هنا لما فيه من تعزيز لامتوقع للتأملات التي سبقت:

عقاب الله

«كسر ذراع Armbruch تكفيراً عن زنا Ehebruch.

قدَّمت المرأة آنا م.. زوجة جندي احتياطي، شكوى ضد المرأة كليمانتين ك... بتهمة الزنى، وقالت في شكواها إن المرأة ك أقامت مع م علاقات آثمة، فيما زوجها في الجبهة، حيث كان يرسل إليها منها ٧٠ كوروناً شهرياً. كما سبق للمرأة ك أن تلقت من زوج الشاكية مالاً كثيراً، فيما كانت الشاكية نفسها تعاني وابنها الجوع والعوز. وقد روى زملاء م للشاكية أن زوجها تردد برفقة المرأة ك على الخمارات حيث كان يبقى حتى ساعة متأخرة من الليل. بل إن المرأة ك سألت مرة زوج الشاكية، أمام عدد من العساكر، عما إذا لم يقرّ قراره على هجر «امرأته العجوز» ليعيش وإياها. وقد رأت صاحبة المنزل الذي تقيم فيه ك. زوج الشاكية يتنقل مراراً في حجرة عشيقته وهو شبه عارٍ.

«وبالأمس، وأمام قاض من ليوبولدشتات ادَّعت المرأة ك أنها لا تعرف م، وأنكرت بالتالي أن تكون لها أي صلات حميمة به. لكن الشاهدة ألبرتين م شهدت أنها فاجأت المرأة ك وهي تقبّل زوج الشاكية.

«وكان م، وقد دعي في جلسة سابقة إلى الشهادة، قد أنكر بدوره كل صلة بالمرأة ك. لكن القاضي استلم بالأمس رسالة يتراجع فيها م عن الشهادة التي أدلى بها سابقاً ويقرّ بأن المرأة ك كانت عشيقته حتى شهر حزيران/ يونيو الماضي. ولئن أنكر كل صلة له بهذه المرأة، في الاستجواب السابق، فلأنها جاءته قبل ذلك وتوسلت إليه راكعة أن ينقذها فلا يعترف بشيء. وأضاف الشاهد قوله في خطابه: «أما اليوم فأراني مكرهاً على أن أقول للمحكمة الحقيقة كلها: فقد كسرت ذراعي اليسرى، وأنا أعتبر هذا الحادث قصاصاً أنزله الله بي على جريرتي».

ولما لاحظ القاضي أن الفعلة المستحقة للعقوبة تقادمت إذ ارتكبت قبل أكثر من سنة، سحبت الشاكية دعواها، وأخلي سبيل المتهمة.



للتمثيل العيني إلى صور تتسم بقدر أكبر من الرهافة. وعلى هذا النحو، بالفعل، يفلح عمل الحلم في التعبير عن بعض أجزاء مضمون أفكار الحلم الكامنة بالخواص الشكلية للحلم الظاهر، كأن يضفي عليه قدراً من الوضوح أو الغموض، وكأن يقسمه إلى عدد من الأقسام، إلخ. وعدد الأحلام الجزئية التي ينقسم إليها الحلم الكامن يطابق بوجه عام عدد الموضوعات الرئيسية وسلاسل الأفكار التي يتألف منها هذا الأخير؛ وكثيراً ما يضطلع الحلم التمهيدي المقتضب بالنسبة إلى الحلم الرئيسي التالي له بدور تقديم أو تعليل، كما أن الفكرة الثانوية التي تنضاف إلى الأفكار الرئيسية يستعيض عنها الحلم الظاهر بتغيير في المنظر ضمن السياق الرئيسي الذي تدور فيه أحداث الحلم الكامن. وهكذا دواليك. بل إن شكل هذه الأحلام بالذات لا يكون غفلاً من الدلالة والأهمية، ويتطلب هو الآخر تأويلاً. وإذا ما تعاقبت عدة أحلام في ليلة واحدة فغالباً ما تكون متماثلة الدلالة والأهمية، وتنمّ عن مجهود متعاظم للسيطرة على تنبيه متزايد الشدة. ثم إن العنصر المتميز بصعوبته يمكن أن يمثَّل في الحلم الواحد بعدة رموز أو نظائر.

إذا مضينا في هذه المقارنة بين الأفكار الحلمية وبين الأحلام الظاهرة التي تنوب منابها، طالعتنا من كل صوب أشياء لم نكن نتوقعها. من ذلك، على سبيل المثال، أن نعلم أن لامعقولية الأحلام بالذات لها دلالتها الخاصة. وبوسعنا أن نقول إن الخلاف بين التصور الطبي والتصور التحليلي النفسي للحلم يصل عند هذه النقطة إلى درجة من الحدة يكاد يغدو معها مطلقاً. فبموجب تصور الأطباء يتحتم أن يكون الحلم لامعقولاً لأن النشاط النفسي الذي هو ثمرته فاقد القدرة على إبداء أي حكم نقدي؛ أما بموجب تصورنا نحن فإن الحلم يغدو لامعقولاً، على العكس، حالما تتضمن أفكار الحلم نقداً وتنطوي على حكم مؤداه: «هذا لامعقول». ولديكم مثال جيد على ذلك في الحلم الذي سبق أن سردته لكم، والمتعلق بالرغبة في حضور عرض مسرحي (ثلاث تذاكر بفلوران ونصف فلورٍان). فقد كان الحكم الصادر في هذه المناسبة: «كان **بُعداً عن المنطق** أن أبكر بالزواج».

ونكتشف، أثناء التأويل أيضاً، ما دلالة الشكوك والريب التي كثيراً ما يفصح



عنها الحالم حول ما إذا كان عنصر بعينه هو الذي تظاهر في الحلم فعلاً، وما إذا كان هذا العنصر هو حقاً العنصر الظنين أو المفترض وليس غيره؟ فأفكار الحلم الكامنة لا تنطوي بوجه عام على شيء مناظر لهذه الشكوك والريب؛ فهي محض نتيجة للرقابة، ومن الواجب علينا أن نعتبرها بمثابة محاولة للحذف والقمع لم تصب إلا قدراً مجزوءاً من النجاح.

ومن أعجب المشاهدات ما نلاحظه بصدد الكيفية التي يعامل بها عمل الحلم التعارضات والتناقضات التي تقوم في قلب الحلم الكامن. وقد رأينا من قبل أن العناصر المتشابهة في المواد الكامنة يستعاض عنها في الحلم الظاهر بتكثيفات. والحال أن الأضداد تعامل هنا معاملة الأشباه، ويعبَّر عنها بعنصر واحد تفضيلاً وإيثاراً. وعلى هذا، إن عنصر الحلم الظاهر الذي يكون له نقيضه يمكن أن يشير إلى نفسه، أو إلى هذا النقيض، أو إلى الاثنين معاً، فلا نستطيع أن نقطع بتأويل إلا بحسب المعنى العام. وهذا ما يفسر أننا لا نجد أبداً في الأحلام تمثيلاً لكلمة «لا»، أو على الأقل تمثيلاً لا يحتمل اللبس.

هذا المسلك الغريب الذي يسلكه إخراج الحلم يجد شبيهاً مؤاتياً في تطور اللغة. فقد لاحظ عدد من فقهاء اللغة أن الأضداد في أقدم اللغات يعبر عنها بجذر واحد: قوي ـ ضعيف، مشرق ـ مظلم، كبير ـ صغير (وهذا ما يعرف بـ «طباق المعاني في الكلمات البدائية»)(٤). ففي اللغة المصرية القديمة كانت كلمة كين تعني في الأصل **قوياً وضعيفاً**. وتفادياً لسوء الفهم الذي قد ينجم عن استخدام مثل هذه الألفاظ الملتبسة، كان قدامى المصريين يلجؤون، في لغتهم المنطوقة، إلى قرن الكلام بنبرات وحركات تتنوع بتنوع المعنى الذي يريدون إعطاءه للكلمة. أما في اللغة المكتوبة فكانوا يشفعون الكلمة بصورة تعيينية، أي بصورة ليس الغرض من رسمها النطق بها. فعندما كانوا يكتبون كين بمعنى القوي، كانوا يتبِعون الكلمة بصورة رجل منتصب، وإذا ما أرادوا بكلمة **كين** معنى الضعيف، أشفعوها بصورة رجل في وضع الاسترخاء. وفي طور لاحق

٤ ـ لفرويد مقال بهذا العنوان كتبه سنة ١٩٠٢ تعليقاً على كتاب يحمل العنوان نفسه لكارل آبيل صدر سنة ١٨٨٤. انظر ترجمتنا لهذا المقال في **إبليس في التحليل النفسي**. «م».



فحسب، وبعد ما طرأ على الكلمة الأصلية من تحوير طفيف، ظهرت إلى حيز الوجود لفظة خاصة بكل معنى من المعنيين الطباقيين اللذين كانت تنطوي عليهما الكلمة الأصلية. وهكذا تفرعت كين (القوي/ الضعيف) إلى كلمتين: كين بمعنى القوي، وكان بمعنى الضعيف. وقد احتفظت بعض اللغات الأحدث عهداً، وبعض اللغات الحية في أيامنا هذه، بآثار كثيرة من هذا الطباق البدائي في المعنى. وسأسوق إليكم بعض أمثلة أقتبسها من ك. آبيل (١٨٨٤)(٥).

في اللاتينية نلتقي كلمات مزدوجة المعاني من أمثال:

Altus = (مرتفع وعميق) وSacer (مقدس وملعون)(٦).

وهاكم بعض أمثلة على التحوير الذي يصيب جذر الكلمة الواحد:

Clamare (صرخ) و Clam (صامت، وديع، خفي).

Siccus (جاف) وSuccus (عصير).

ولنضف بالرجوع إلى الألمانية: Stimm (صوت) و Stumm (أخرس).

والمقارنة بين اللغات المتحدرة من أسرة واحدة تزوِّدنا بأمثلة كثيرة من النوع نفسه:

في الإنكليزية Lock (أغلق بالمفتاح)، وفي الألمانية Loch (ثقب) وLucke (فجوة).

في الإنكليزية Cleave (شَقَّ)، وفي الألمانية Kleben (لصق).

والكلمة الإنكليزية Without معناها الأصلي مع / بدون، لكنها لا تستخدم اليوم إلا بمعنى بدون؛ وأما أن اللفظ With أريد به لا الإضافة فقط، بل كذلك الطرح، فهذا ما تبرهنه الكلمتان المركبتان Withdraw و Withold(٧). والأمر

٥ ـ كارل آبيل: فقيه لغوي ألماني (١٨٣٧ ـ ١٩٠٦). له معجم عن الجذور المصرية والسامية للغات الهند ـ أوروبية. ومؤلَّفه الذي يستشهد به فرويد هو: **عن معاني الأضداد للكلمات الأصلية الواحدة**. «م».

٦ ـ في العربية أيضاً، وكمقابل لـ Sacer، نقول: الحرَم، وهو ما يحميه الرجل وما لا يحلّ انتهاكه، ونقول الحرم والحرام وهو ضدّ الحلال، ونقول الحرمة وهو ما وجب القيام به من حقوق الله. إذاً فالمحرَّم هو ما كان مقدساً وملعوناً في آن واحد. «م».

٧ ـ ومعناهما على التوالي: انسحب واستبقى. «م».



بالمثل في الكلمة الألمانية Wieder[٨].

وثمة خاصية أخرى من عمل الحلم لها ما يناظرها في تطور اللغة. ففي المصرية القديمة، وفي لغات أخرى أحدث عهداً، كثيراً ما يقلب ترتيب الحروف في الكلمة ذات المعنى الواحد مع الانتقال من لغة إلى أخرى. وهاكم بعض أمثلة مستقاة من المقارنة بين الإنكليزية والألمانية:

Pot = Topt (قدر).

Tub = Boat (قارب ـ زورق).

Hurry = Ruhe (تعجل ـ استراحة).

Balken = Kloben – Club (عضادة ـ حطبة ـ عصا).

Wait – Tauwen (انتظر).

أما المقارنة بين اللاتينية والألمانية فتعطينا:

Capere - packen (حزم أو أمسك).

Ren – Niere (كلوة).

إن نظير هذا القلب يحدث في الحلم بطرق مختلفة شتى. وقد عرفنا من قبل قلب المعنى أو إبدال المعنى بنقيضه. وفضلاً عن ذلك يحدث في الحلم قلب للمواقف وللعلاقات بين شخصين، فكأن كل شيء يجري في «عالم معكوس». فالأرنب هو الذي يطارد الصياد في كثير من الأحيان في الحلم. وقد يتعرض تسلسل الأحداث أيضاً لقلب، فإذا بالمقدمات أو العلل يأتي ترتيبها بعد النتائج أو المعلولات. وما أشبه ذلك بما يحدث في التمثيليات التي تمثَّل في الأسواق والمعارض الشعبية، حيث يسقط البطل صريعاً حتى قبل أن تدوي من الكواليس طلقة النار المفروض بها أن تقتله. وثمة أيضاً أحلام يُقلب فيها ترتيب العناصر رأساً على عقب، فإذا أردنا الاهتداء إلى معناها كان علينا أن نؤوِّلها بادئين بآخر العناصر، ومنتهين بأولها. وأنتم تذكرون بلا ريب أننا رأينا، في دراستنا رمزية الأحلام، أن الغوص في الماء أو السقوط فيه يعنيان نفس ما يعنيه الخروج منه، أي أن يلد المرء أو يولد، وأن الارتقاء على سلم والصعود على درج يعنيان نفس ما

---

٨ ـ Wider = ضد، وWieder = مع. «م».



يعنيه الهبوط منهما. وبذا يسهل عليكم أن تتبينوا الفوائد التي يمكن أن يجنيها تحريف الأحلام من مثل هذه الحرية في التمثيل.

إن خصائص عمل الحلم هذه يمكن أن توصف بأنها سمات أثرية. فهي قرينة الأساليب القديمة في التعبير واللغات والكتابات القديمة، وتترتب عليها إشكالات مماثلة سنعود إلى الخوض في موضوعها لاحقاً متسلحين ببعض الملاحظات النقدية.

ختاماً، هاكم بعض الملاحظات الإضافية. فالغرض من عمل الحلم هو بالبداهة تحويل الأفكار الكامنة، المدركة بألفاظها، إلى صور عينية، وفي الأغلب إلى صور ذات طبيعة بصرية. والحال أن أفكارنا جميعاً تنشأ أصلاً من صور عينية؛ فموادها الأولى والمراحل التمهيدية من تطورها تتألف من انطباعات حسية، أو على الأصح من صور ذاكرية لهذه الانطباعات. وإنما في طور لاحق فحسب ترتبط بهذه الصور ألفاظ، ومن اقتران هذه الألفاظ بعضها ببعض تنشأ الأفكار. إذاً، فعمل الحلم يخضِع الأفكار لمسار نكوصي، لتطور تراجعي، وأثناء هذا النكوص لا بدّ أن تزول وتختفي كل المكتسبات الجديدة التي تأتّت من تطور الصور الذاكرية وتحوّلها إلى أفكار.

ذلكم هو، على ما نفترض، عمل الحلم. والعمليات التي كشف لنا عنها قلَّصت بالضرورة من اهتمامنا بالحلم الظاهر. لكن بما أن الحلم الظاهر هو الشيء الوحيد الذي نعرفه معرفة مباشرة، فسأخصُّه ببضع ملاحظات أخرى.

فأن يفقد الحلمِ الظاهر بعض أهميته في نظرنا، فهذا أمر طبيعي. فليس يهمنا أن يكون مركَّباً أو أن يكون مفككاً إلى طائفة من صور منفردة، لا صلة تصل بينها. وحتى لو كان له ظاهر دالّ، فإننا نعلم أن هذا الظاهر يدين بمنشئه لتحريف الحلم، وأنه لا تقوم بينه وبين المضمون الداخلي للحلم علاقة عضوية، إلا كما قد تكون العلاقة بين واجهة كنيسة إيطالية وبين مبناها وتصميمها[٩]. وقد يكون حتى لواجهة الحلم هذه في بعض الأحوال دلالة تستقيها من كونها

٩ ـ واجهات الكنائس الإيطالية تزخر عادة باللوحات الفنية بينما جدرانها الخارجية فقيرة الزخرفة. «م».



تنسخ بلا تحريف أو بتحريف طفيف للغاية عنصراً هاماً من العناصر المكوّنة لأفكار الحلم الكامنة. غير أن هذه الواقعة لا يطالها إدراكنا ما لم نقم بتأويل الحلم الذي يتيح لنا أن نقدر مبلغ التحريف. وتقوم مثل هذه الشبهة حين نكون بصدد عنصرين من الحلم يرتبط واحدهما بالآخر في ظاهر الأمر ارتباطاً وثيقاً. فقد يكون لدينا هنا مؤشر ثمين يتيح لنا أن نجمع أيضاً ما يناظر هذين العنصرين في الحلم الكامن، لكن من الممكن في أحوالٍ أخرى أن نتحقق من أن العناصر المتلاحمة في الأفكار الكامنة تكون قد فُككت وفُصلت في الحلم الظاهر.

ينبغي أن نحاذر بوجه عام من محاولة تفسير جزء من الحلم الظاهر بجزء آخر منه، كما لو أن الحلم كل واحد متماسك أو تمثيل متلاحم الأجزاء. إنما الحلم بالأحرى، وفي أغلب الأحوال، أشبه بفسيفساء جمعت من قطع من أحجار شتى رُصف بعضها بجانب بعض، فانقطع الشبه بين الصور الناتجة عن ذلك وبين الأشكال الأصلية للحجارة التي اقتطعت منها هذه القطع. والواقع أن الأحلام تشتمل على صياغة ثانوية تتكفل بتحويل معطيات الحلم المباشر إلى كلٍّ شبهِ متلاحم، ولكنها ترتِّب في الوقت نفسه المواد ترتيباً تستغلق معه على الفهم تماماً، وتكمِّلها حيثما اقتضى الأمر تكملتها.

ومن جهة أخرى لا يجوز لنا أن نسرف في أهمية عمل الحلم، أو أن نوليه ثقة أكبر مما يستأهل. فنشاطه ينحصر بتلك الطرائق التي عدَّدناها: التكثيف، النقل والإزاحة، التمثيل التشكيلي، ثم إخضاع ذلك كله لصياغة ثانوية، وذلكم هو كل ما يستطيعه عمل الحلم، وليس أكثر. أما الأحكام والتقييمات النقدية والاندهاش والاستنتاج وغير ذلك مما يحدث في الأحلام، فليست على الإطلاق من نتيجة عمل الحلم، كما أنها ليست، إلا فيما ندر، نتيجة التأمل في الحلم بعد حدوثه: وإنما هي في أكثر الأحيان نتف من الأفكار الكامنة انتقلت إلى الحلم الظاهر بعد أن طرأ عليها بعض التحوير وحظيت ببعض التكييف المتبادل. كذلك لا يسع عمل الحلم أن يختلق أحاديث ومحاورات. وما خلا بضع حالات استثنائية، فإن الكلام الذي يسمعه الحالم أو ينطق به في الحلم إن هو إلا صدى



أو رصف من كلام سمعه الحالم أو نطق به في النهار السابق للحلم، فاحتل مكانه بين الأفكار الكامنة ليكون من ثم مادة للحلم أو منبهاً له. ولا تدخل الحسابات أيضاً ضمن صلاحيات عمل الحلم؛ والحسابات التي قد يشتمل عليها الحلم الظاهر هي في أغلب الأحوال رصف لأعداد، أو حساب كاذب غير ذي معنى على الإطلاق، أو محض نسخة عن الحساب المضمر في أفكار الحلم الكامنة. وعلى هذا، لا يجوز لنا أن نستغرب إذا ما تحول الاهتمام الذي كنا ركزناه على عمل الحلم إلى الأفكار الكامنة التي تفصح عن نفسها في الحلم الظاهر بقدر أو بآخر من التحريف. غير أننا نخطئ لو شططنا في تغيير اتجاهنا إلى حدّ لا نعود نتكلم معه، في محاكماتنا النظرية، إلا عن أفكار الحلم الكامنة، فنستعيض بها عن الحلم برمته، ونصوغ بصدد هذا الأخير أحكاماً لا تصدق إلا على هذه الأفكار الكامنة وحدها. ومن العجب أن يسيء بعضهم استخدام معطيات التحليل النفسي ليوقع نفسه في مثل هذا الخلط. فلسنا نستطيع أن نطلق اسم «الحلم» إلا على نتيجة عمل الحلم، أي على الشكل الذي يحوِّل إليه هذا العمل الأفكار الكامنة.

إن عمل الحلم سيرورة من طراز خاص، لا نعرف لها نظيراً بعد في الحياة النفسية. فما ضروب التكثيف والإزاحة والنقل، والتحويل النكوصي للأفكار إلى صور، إلا مستحدثات طارفة، في معرفتها خير مكافأة لجهود التحليل النفسي. ثم إنه يسعنا، من جهة أخرى، وقياساً إلى عمل الحلم، أن نتحقق من الروابط التي تربط المباحث التحليلية النفسية بميادين أخرى مثل تطور اللغة والفكر. ولن يتهيأ لكم أن تقدِّروا أهمية هذه الأفكار حق قدرها إلا متى عرفتم أن الآليات التي تتحكم بعمل الحلم نماذج للآليات التي تتحكم بنشوء الأعراض العصابية.

إنني أعرف أيضاً أنه لا يسعنا بعد أن نستوعب بنظرة شاملة واحدة كل المكاسب الجديدة التي يمكن لعلم النفس أن يجنيها من هذه المباحث. إلا أني حريص على أن ألفت انتباهكم إلى البراهين الجديدة التي تأتى لنا أن نظفر بها لتأييد وجود أفعال نفسية لاشعورية (وما أفكار الحلم الكامنة إلا وجه لذلك)،



وكذلك إلى المنفذ اللامتوقع الذي يفتحه تأويل الأحلام لأولئك الذين تساورهم الرغبة في معرفة الحياة النفسية اللاشعورية.

والآن حان الوقت، على ما أعتقد، لأحلِّل أمامكم بعض أمثلة لأحلام مقتضبة، كيما أفصّل لكم ما لم أحدِّثكم عنه حتى الآن إلا بصورة مجملة وعامة، وعلى سبيل الإعداد والتهيئة.




مكتبة
الفكر الجديد

المحاضرة الثانية عشرة
تحليل أمثلة من الأحلام

سيداتي سادتي، لا تأخذكم الخيبة إذا لم أقدِّم لكم هذه المرة أيضاً سوى تأويل نتف من أحلام بدلاً من أن أدعوكم إلى المشاركة في تأويل حلم طويل جميل. وأنتم ترون بلا ريب أن من حقكم بعد طول إعداد وتهيئة أن تُعامَلوا بمزيد من الثقة، وتتساءلون: ألم يكن من الممكن، بعد التوفيق في تأويل آلاف من الأحلام، أن تجمع منذ زمن بعيد طائفة ممتازة من أمثلة الأحلام تكون شاهدة بالدلالة القاطعة على صدق ما ادعيته بصدد عمل الأحلام وأفكارها الكامنة؟ ربما كنتم على حق، لكن لا بدّ لي من أن أحذركم من صعوبات عديدة تعترض سبيل تحقيق رغبتكم.

وفي المقام الأول أحرص على إعلامكم بأنه لا وجود لأشخاص جعلوا من تأويل الأحلام شاغلهم الرئيسي. فمتى تسنح للمرء الفرصة لتأويل الأحلام؟ قد يهتم واحدنا أحياناً، بلا غرض خاص، بأحلام شخص صديق له، أو قد يركز اهتمامه لفترة من الزمن على أحلامه الشخصية كيما يتدرب على التقنية التحليلية النفسية؛ لكننا نتعامل في أغلب الأحيان مع أحلام الأشخاص العصبيين، الخاضعين للمعالجة التحليلية النفسية. هذه الأحلام الأخيرة تؤلف مادة نفيسة، وليست بحال من الأحوال دون أحلام الأسوياء من الناس قيمة، غير أن خطة المعالجة ترغمنا على ربط تأويل الأحلام بمقتضيات العلاج وعلى التوقف عن متابعة تحليل عدد كبير من الأحلام حالما نفلح في أن نستخلص منها معطيات قابلة للاستخدام لأغراض علاجية. وبعض الأحلام، وبخاصة تلك التي يراها الحالم أثناء استشفائه، تستعصي على التأويل الكامل. وبما أنها تصدر عن جملة المواد النفسية التي لا نزال على جهل بها، فلن يتسنى لنا أن نفهمها إلا بعد انتهاء



العلاج. ولو شئت أن أعرض لكم هذه الأحلام لتعيَّن عليَّ أن أزيح أمامكم النقاب عن جميع أسرار الأمراض العصابية، وهذا لا يتفق مع ما عقدنا عليه النية، إذ إننا لا نرى في دراسة الحلم إلا تمهيداً وتحضيراً لدراسة الأعصبة.

وما دام الأمر كذلك، فقد تعزفون بطيبة خاطر عن مثل هذه الأحلام لتسمعوا تفسير أحلام أشخاص أسوياء أو تفسير الأحلام التي ترونها بأمّ أعينكم. لكن هذا أيضاً يكاد أن يكون متعذراً، بالنظر إلى مضمون هذه الأحلام. إذ يكاد يستحيل أن يدلي المرء باعترافاته بنفسه أو أن يحمل من وضع فيه ثقته على الجهر بكل الخفايا التي قد يكشف عنها التأويل الكامل لأحلامه التي تمسّ، كما تعلمون، صميم شخصيته. وعلاوة على صعوبة الظفر هذه بالمواد، فثمة سبب آخر يعترض سبيل الجهر بالأحلام. فالحلم، كما تعلمون، يظهر للحالم نفسه غريباً: فكم سيظهر غريباً بالأحرى لأولئك الذين لا يعرفون شخص الحالم. غير أن أدبيات التحليل النفسي لا تعدم أمثلة جيدة وكاملة لتحليل الأحلام، وقد نشرت بنفسي بعضاً منها في سياق مشاهداتي عن بعض المرضى. ولعل خير مثال على التأويل هو ذاك الذي نشره أوتو رانك[1]. ويتصل المثال المذكور بحلمين حلمت بهما فتاة، وكل منهما ذو صلة بالآخر. ولا يشغل عرضهما أكثر من صفحتين طباعيتين، بينما يستغرق تحليلهما ستاً وسبعين صفحة. ولعلي سأحتاج إلى نصف سنة دراسية لأنجز وإياكم عملاً من هذا القبيل. وعندما نتصدى لتأويل حلم على قدر من الطول، وعلى جانب كبير من التحريف، فإننا نحتاج إلى كثير من الإيضاحات، ويتعيَّن علينا أن نأخذ في اعتبارنا كثيراً من الخواطر والذكريات التي تتوارد إلى ذهن الحالم، وأن نتورط في كثير من الاستطرادات، بحيث لا يمكن لمحاضرة واحدة مهما طالت أن تعطيكم البتة فكرة واضحة عن هذا العمل في جملته. إذاً لا مناص لي من أن أطلب إليكم أن تقنعوا بما يسهل الظفر به، أعني سرد نتف صغيرة من أحلام أشخاص عصابيين ودراسة عناصر منفردة منها. ورموز الحلم وبعض خصائص تقديم الحلم وفق النمط النكوصي هي الأيسر قابلية

---

١ ـ الإشارة هنا إلى المقال الذي نشره أوتو رانك عام ١٩١٠ تحت عنوان: **حلم يفسّر نفسه بنفسه**. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.



للعرض. وسأطلعكم، بصدد كل حلم من الأحلام التي ستلي، على الأسباب التي تجعلها تستأهل برأيي أن تُسرد وتروى.

١ ـ إليكم حلماً يتألف من صورتين موجزتين: **رأى الحالم عمه يدخن سيجارة مع أنه في يوم سبت، ورأى امرأة تعانقه وتداعبه وكأنه طفلها.**

بصدد الصورة الأولى أبلغنا الحالم، وهو يهودي، أن عمه، وهو رجل ورع، لم يرتكب وما كان له قط أن يرتكب خطيئة كهذه[٢]. أما المرأة التي تظهر في الصورة الثانية، فلا يذكر بصددها إلا أمه. ومن المحقق أنه توجد بين هاتين الصورتين أو الفكرتين علاقة ما. ولكن أيها؟ بما أن فعلة عمه لا يمكن أن يكون لها بحال من الأحوال أساس من الواقع، فإننا سنميل إلى الجمع بين الصورتين بعلاقة شرطية زمانية: «إذا كان لعمي، وهو الرجل الورع، أن يقدم على تدخين سيجارة يوم سبت، فلي أن أدع أمي تداعبني». وهذا معناه أن المداعبات المتبادلة مع الأم ليست مما يباح بأكثر مما هو مباح ليهودي تقي أن يدخن يوم سبت. وقد سبق أن أعلمتكم، ولعلكم تذكرون في الأرجح، أن جميع العلاقات والصلات بين أفكار الحلم تزول وتختفي في أثناء عمل الحلم، وأن هذه الأفكار نفسها ترتد إلى حالة المواد الخام، وأن مهمة التأويل هي بالتحديد إرجاع هذه العلاقات والصلات إلى ما كانت عليه قبل زوالها واختفائها.

٢ ـ بعد أن نشرت ما نشرته عن الحلم صرت، إلى حدّ ما، مستشاراً رسمياً في الشؤون المتصلة بالأحلام، وأنا أتلقى منذ سنوات رسائل من كل حدب وصوب، يسرد لي فيها مرسلوها أحلامهم أو يسألونني رأيي في أحلام معينة. وإني لممتن بطبيعة الحال لكل من يبعث إليّ بمواد كافية للتأويل، ولكل من يقترح بنفسه تأويلاً. من هذه الأحلام حلم أبلغني به سنة ١٩١٠ طالب طب في ميونيخ. وسأسرده لكم لأبيِّن لكم كم يصعب بوجه عام فهم الحلم إن لم يردفه حالمه بكل المعلومات اللازمة. وسأجنِّبكم أيضاً الوقوع في خطأ فادح، لأنه يلوح لي أن لكم ميلاً إلى اعتبار تأويل الأحلام بالاستناد إلى الرموز هو التأويل الأمثل،

---

٢ ـ التدخين، وإشعال النار بوجه عام، يوم السبت يُعدّ لدى اليهود خطيئة كبيرة. «م».



وإلى النظر بالتالي بعين الازدراء إلى التقنية القائمة على أساس التداعيات والخواطر التي تتوارد إلى الذهن بصدد الأحلام.

«١٣ تموز/ يوليو ١٩١٠: عند الصباح حلمت بالحلم التالي: **رأيتني أهبط بدراجتي شارعاً في توبنغن**[٣]**، فإذا بكلب أسود ينقضّ ورائي ويمسك بي من عقبي. بعد ذلك بقليل ترجّلت وجلست على درج وأخذت أدافع الحيوان عني وهو ينبح حنقاً** (لا العضة ولا المشهد التالي لهما أشعراني بأي إحساس مستكره). **وكانت تجلس قبالتي سيدتان متقدمتان في السن ترمقانني بنظرات هازئة. عندئذ استيقظت، ولكن في اللحظة التي نفضت فيها عن جفوني أثر النوم تبدى لي حلمي كله جلياً واضحاً، وهذا شيء حصل لي تكراراً**».

إن الرموز لن تسعفنا هنا ولن يكون لنا فيها كبير غناء. لكن الحالم يعلمنا بما يلي: «كنت منذ عهد قريب وقعت في حب فتاة لا صلة لي بها سوى أنني التقيتها مراراً في الطريق من دون أن تسنح لي فرصة للتعرف إليها. ولقد كان يغبطني لو أتاح لي هذه الفرصة كلبها، لأنني أحب الحيوانات حباً جماً. وقد تراءى لي بسرور عظيم أن عاطفة مماثلة تجاه الحيوانات تعتمل في نفس الفتاة». ويضيف بعد ذلك أنه كثيراً ما حدث له أن تدخل ببراعة، وعلى دهش عظيم من الناظرين، ليفصل بين كلاب تتناهش. ويعلمنا كذلك أن الفتاة التي وقعت من نفسه موقعاً حسناً كانت تُرى دوماً برفقة ذلك الكلب الأسود. ولكن هذه الفتاة أُستبعدت من الحلم الظاهر، فلم يبقَ فيه سوى كلبها القرين بها. ومن الجائز أن تكون السيدتان الهازئتان منه قد أُستحضرتا كبديل عنها. والمعلومات اللاحقة التي زوّدنا بها لا تكفي لإيضاح هذه النقطة. أما ركوبه دراجة في حلمه فهو استنساخ مباشر للموقف كما يتذكره، إذ ما كان يلتقي الفتاة وكلبها إلا وهو راكب دراجة.

٣ ـ حين يفقد المرء قريباً عزيزاً عليه، يحلم لمدة طويلة من الزمن بأحلام ذات

٣ ـ توبنغن: من مدن ألمانيا تقع إلى الجنوب من شتوتغارت. «م»



طابع خاص تتجلى فيها تسويات عجيبة بين التيقن من الموت وبين الحاجة إلى ردّ الميت إلى الحياة. فتارة يُرى الفقيد حياً، مع أنه ميت، لأنه (أي الفقيد) لا يعرف أنه ميت، فكأنه لا يموت فعلاً إلا إذا عرف بذلك، وطوراً يُرى بين الموت والحياة؛ وكل حالة من هاتين الحالتين تتميز بعلامات خاصة. ومن الخطأ أن نصم هذه الأحلام بالخلف وانعدام المنطق، إذ إن الارتداد إلى الحياة لا يجوز أن يكون مرفوضاً في الأحلام مع أنه حدث شائع في الحكايات مثلاً. وبقدر ما تسنى لي أن أحلل هذه الأحلام، وجدتها قابلة لتفسير معقول، وإن تكن الرغبة البارة في ردّ الميت إلى الحياة تشقّ طريقها إلى الإشباع بأعجب الوسائل وأغرب الطرق. وسأسرد عليكم حلماً من هذا النوع، وقد يبدو لكم غريباً وشاذاً عن المألوف والمنطق، غير أن تحليله سيكشف لكم عن بعض تفاصيل لا يعسر عليكم توقعها انطلاقاً مما تقدم من مناقشاتنا النظرية. إنه حلم رجل فقد أباه قبل عدة سنوات.

أبي ميت، لكنه نبش من قبره، والمرض على سحنته بادٍ. وهو لا يزال على قيد الحياة منذ نبشه، وقد بذلت كل ما في وسعي لأحول بينه وبين التنبه إلى ذلك (وهنا ينتقل الحلم إلى أشياء أخرى بعيدة الصلة في ظاهرها عن هذا الموضوع).

الأب ميت: هذه واقعة نعرفها. لكن نبشه من القبر لا يطابق الواقع كما لا تطابقه تفاصيل الحلم اللاحقة. غير أن الحالم يروي أنه لدى إيابه من جنازة أبيه أحسّ بوجع في أسنانه. وقد شاء أن يعالج السن المريضة عملاً بسنة الدين اليهودي: «إن أوجعتك سنك، فاقتلعها»، وقصد بالفعل طبيب الأسنان. غير أن هذا قال له: «السن لا تقتلع. عليك بالصبر. سأضع لك شيئاً فيها يميتها. عد بعد ثلاثة أيام، فأستخرجها لك». وعلى حين غرة قال الحالم: هذا «الاستخراج» هو المناظر لنبش الجثة.

أمحقّ صاحبنا في ما ادعاه؟ ليس كل الحق، فليست السن هي المطلوب استخراجها، وإنما الجزء الميت منها. ولكن هذا التفصيل، الذي تعوزه الدقة، كثيراً ما يتكرر نظيره في الأحلام بحسب خبرتنا. وفي هذه الحال يكون الحالم قد قام بتكثيف، فدمج معاً الأب الميت والسن المماتة والمحافظ عليها مع ذلك. ولا



عجب أن ينجم عن ذلك في الحلم الظاهر شيء بعيد عن العقل والمنطق، لأن ما يتصل بالسن لا يمكن أن ينسحب كله على الأب.

فأين يمكن أن يوجد، والحال هذه، ذلك الجامع المشترك بين الأب والسن الذي أتاح إمكانية التكثيف الذي التقيناه في الحلم الظاهر؟

من المحتم مع ذلك أن يكون ثمة علاقة بين الأب والسن، لأن الحالم يخبرنا أنه يعلم أن الإنسان حينما يرى في منامه سناً تقع، فهذا يعني أنه على وشك أن يفقد فرداً من أسرته.

نحن نعلم أن هذا التأويل الشعبي غير صحيح، أو أنه لا يصحّ إلا بمعنى خاص، أي على سبيل المزحة. وعلى هذا، فستكون دهشتنا أعظم عندما نجد هذه الموضوعة كامنة وراء جميع عناصر مضمون الحلم.

وهنا طفق صاحب الحلم، من دون أن نلحّ عليه، يحدِّثنا عن مرض أبيه ووفاته، وكذلك عن موقفه منه. فقد دام مرض الأب طويلاً، وتكلف الابن مالاً كثيراً في معالجته وتوفير العناية له. ومع ذلك لم ينبس الابن ببنت شفة تشكياً، ولم يظهر قط ضيق صبر، ولم يفصح بتاتاً عن رغبة في أن تؤول الأمور إلى نهايتها المحتومة. بل تباهى بأنه ما ساوره إزاء أبيه إلا شعور بالورع صادق في يهوديته، وبأنه راعى على الدوام الشريعة اليهودية أدقَّ مراعاة. أفلم يفجأكم ما في الأفكار المتصلة بالحلم من تناقض؟ لقد أقام صاحبنا مماهاة بين السن والأب. وأراد أن يتصرف حيال السن وفق الشريعة اليهودية التي تنصّ على وجوب اقتلاعها حالما تتحول إلى علة للوجع والتنغيص. وإزاء الأب أيضاً أراد أن يتصرف وفق الشريعة التي تأمر في هذه الحال بألا يضيق الابن ذرعاً بالنفقات وبالمنغصات، وبأن يتحمل صابراً الامتحان، وبأن ينتهي عن كل نية عدوانية إزاء الموضوع الذي هو علة الألم. ولكن أما كان التشابه بين الموقفين يكون أقرب إلى التمام فيما لو ساورت الابن إزاء أبيه مشاعر مماثلة لتلك التي ساورته إزاء السن، أي فيما لو تمنى أن يضع الموت حداً للوجود المؤلم واللامجدي والمكلِف للأب؟

إنني لموقن أن هذه كانت فعلاً مشاعر حالمنا إزاء أبيه في أثناء مرضه المضنك، وأن احتجاجاته الصاخبة المفعمة بالبر البنوي لم يكن الغرض منها إلا صرف



انتباهه عن هذه الذكريات. وفي أمثال هذه المواقف لا يندر أن تفصح الرغبة في أزوف ساعة الموت عن نفسها، وإن تنكرت في إهاب من الرحمة والشفقة كأن يقول المرء: إن الموت سيضع حداً لعذابات المريض الذي يتوجع. على أني أرجو أن تلاحظوا أننا نتخطى هنا حدّ الأفكار الكامنة نفسها. فأول تدخل من جانب هذه الأفكار لم يكن بكل تأكيد لاشعورياً إلا لحين وجيز من الزمن، أي في أثناء صياغة الحلم؛ وبالمقابل، إن المشاعر العدائية تجاه الأب موجودة في أكبر الظن في حالة لاشعورية منذ عهد بعيد، وربما منذ أيام الطفولة، ولم تشقّ طريقها إلى الشعور إلا عرضاً، وعلى وجل وبتنكر، في أثناء المرض. وبوسعنا أن نؤكد بمزيد من اليقين الشيء نفسه فيما يتصل بأفكار كامنة أخرى أسهمت بقسطها في تكوين مضمون الحلم. صحيح أننا لا نعثر في الحلم على أثر لمشاعر العداء حيال الأب. لكن لو نقّبنا عن أصل هذا العداء للأب في طور الطفولة، لتذكرنا أنه يكمن في الخوف الذي يبثّه فينا الأب: فهو يشرع منذ عهد مبكر بكبح النشاط الجنسي للصبي، ولا يفتأ يضرب قيوداً على هذا النشاط، لدواعٍ اجتماعية، حتى في سن ما بعد البلوغ. ويصدق هذا أيضاً على موقف صاحبنا من أبيه: فقد كان حبه مشوباً بقدر عظيم من الاحترام والخوف، مصدرهما الرقابة التي فرضها الأب على النشاط الجنسي للابن في زمن مبكر.

أما تفاصيل الحلم الظاهر الأخرى فتجد تفسيرها في عقدة الاستمناء. فالعبارة التي وردت في سرده للحلم: «المرض على سحنته بادٍ» يمكن أن تكون تلميحاً إلى ما ذكره له طبيب الأسنان من أن فقد سن من ذلك الموضع يمكن أن يكون نذير سوء. لكن هذه العبارة قد تكون أيضاً ذات صلة بالسحنة المعتلة التي تشي أو التي يخشى الفتى الذي أدرك سن البلوغ أن تشي بنشاطه الجنسي المسرف. والأرجح أن الحالم فرّج عن نفسه بعض الشيء بأن حوّل في الحلم الظاهر اعتلال السحنة إلى الأب، وهذا بموجب مبدأ القلب في عمل الحلم كما بتُّم تعرفون. أما عبارة «لا يزال على قيد الحياة» فتناظر الرغبة في ردّ الميت إلى الحياة، كما قد تتمشى مع الوعد الذي قطعه له الطبيب بإمكان الحفاظ على السن. وبالمقابل، إن عبارة: «بذلت كل ما في وسعي لأحول بينه وبين التنبه إلى ذلك» تنمّ عن إرهاف



كبير، إذ الغرض منها أن توحي إلينا أنه يتوجب علينا أن نستنتج منها: إنه قد مات. والحال أن الاستنتاج الوحيد الذي يمكن أن يعطي هذه العبارة معنى ومدلولاً ينبع هنا أيضاً من «عقدة الاستمناء»، إذ من المفهوم أن يفعل الفتى كل ما بوسعه ليخفي عن أبيه حياته الجنسية. واعلموا بهذا الصدد أننا نضطر على الدوام، في مسعانا إلى تأويل الأحلام التي يدور موضوعها على وجع الأسنان، إلى الإحالة إلى واقعة الاستمناء وما يترتب عليها من الخوف من العقاب.

أنتم تدركون الآن كيف أمكن أن يتشكل ذلك الحلم اللامفهوم. فقد استخدمت في صياغته طرق شتى: تكثيف غريب جداً وخدّاع، وحذف لجميع الأفكار المتحكمة بالمسار الكامن للفكر، واختلاق تشكيلات بديلة ومتعددة الدلالات لتنوب مناب أعمق هذه الأفكار وأبعدها إيغالاً في الزمن.

٤ ـ حاولنا أكثر من مرة من قبل أن نتصدى لتلك الأحلام البسيطة المبتذلة التي لا تنطوي على شيء غريب أو لامعقول، والتي ينطرح بصددها مع ذلك السؤال التالي: لمَ يحلم الإنسان بمثل هذه الأشياء التافهة؟ وعليه سأسوق لكم مثالاً جديداً من هذا النوع، قوامه أحلام ثلاثة مترابطة فيما بينها حلمت بها امرأة شابة في ليلة واحدة.

أ ـ **إنها تجتاز بهو شقّتها فيصطدم رأسها بالثريا المتدلية من السقف. فكانت النتيجة شجّاً دامياً.** ولم تتذكر السيدة شيئاً ذا صلة بحادث وقع فعلاً. والمعلومات التي قدمتها تشير إلى اتجاه مغاير تماماً. «أنت تعرف كم يتساقط شعر رأسي. بالأمس قالت لي أمي: إذا استمر الأمر على هذا المنوال، يا ابنتي، فسرعان ما سيصبح رأسك عارياً كمؤخرتك». إذاً فالرأس يظهر هنا كرمز إلى الجزء المعاكس له من الجسم. أما المدلول الرمزي للثريا فجليٌّ ظاهر: فكل الأشياء المدلاة رمز للعضو الجنسي المذكر. إذاً فهو نزيف في القسم السفلي من جذع الجسم نجم عن جرح من إيلاج قضيب. على أن الأمر يقبل معانٍ أخرى؛ فالمعلومات الأخرى التي أدلت بها الحالمة تشير إلى أن الأمر يتصل بالاعتقاد السائد لدى الكثيرات من الفتيات اللائي لم يدركن بعد سن النضج من أن الطمث ينجم عن الاتصال الجنسي بالرجل.



ب ـ **رأت في الكرم حفرة عميقة تعلم أنها نشأت عن اقتلاع شجرة**. وقد لاحظت بهذا الصدد أن الشجرة نفسها **مفقودة**. فهي تعتقد أنها لم ترَ الشجرة في حلمها، لكن جملتها كلها تفيد في التعبير عن فكرة أخرى تنمّ عن المدلول الرمزي للشجرة. فهذا الحلم يتصل بنظرية جنسية أخرى تزعم أن البنات الصغيرات يكون لهن في البداية أعضاء جنسية مماثلة لأعضاء البنين، وأن أعضاء المرأة التناسلية لا تتخذ الشكل المعهود إلا بعد عملية خصاء (اقتلاع الشجرة).

ج ـ **كانت تقف أمام درج مكتبها، وكانت تعلم حق العلم بما فيه، بحيث لا يشقّ عليها أن تفطن إلى أي عبث قد تحدثه فيه يد غريبة**. أما درج المكتب فهو، نظير كل درج أو علبة أو صندوق، تمثيل رمزي لعضو المرأة الجنسي. وهي تعلم أن اثر العلاقات الجنسية (وكذلك الملامسة على ما تعتقد) يبقى ظاهراً للعيان في العضو التناسلي نفسه، وكانت تتوجس خيفة من أن يُضبط أمرها في هذا الحال.

وأنا أعتقد أن أهمية هذه الأحلام الثلاثة تكمن بصورة رئيسية في المعارف الراسخة في ذهن الحالمة: فهي تذكر عهد تنقيباتها الطفلية حول أسرار الحياة الجنسية، وكذلك النتائج التي توصلت إليها والتي كانت لها يومئذ موضع مفاخرة ومباهاة.

٥ ـ هاكم مثلاً آخر من أمثلة الرمزية. لكن يتعيَّن عليّ هذه المرة أن أستبقه بعرض موجز للموقف النفسي. فقد أمضى رجل ليلة بصحبة امرأة، ووصف شريكته بأنها ذات خلق أمومي، أي أنها من أولئك النساء اللائي تقوم لديهن عاطفة الحب على الرغبة في إنجاب طفل ليس غير. لكن الظروف التي تمّ فيها اللقاء المشار إليه حتّمت اتخاذ احتياطات ضد احتمال الحمل، ومعلوم أن في مقدمة هذه الاحتياطات الحؤول دون وصول السائل المنوي إلى عضو المرأة التناسلي. وفي صبيحة اليوم التالي للقاء روت السيدة أنها حلمت بالحلم التالي:

ضابط يرتدي معطفاً أحمر يطاردها في الشارع. راحت تركض وارتقت درج بيتها، وهو لا يزال يتبعها. وصلت لاهثة الأنفاس إلى غرفتها، ودلفت



إليها، وأطبقت الباب وراءها وأغلقته بالمفتاح. بقي الضابط في الخارج، فأطلت من النافذة فرأته جالساً على مقعد يبكي.

لا يعسر عليكم أن تتعرفوا في مطاردة الضابط ذي المعطف الأحمر لها وارتقائها الدرج بتعجل تمثيل الفعل الجنسي. أما احتماؤها بغرفتها وإغلاقها بالمفتاح هرباً من المطاردة فمثال على القلب الكثير التواتر في الأحلام: فهو إشارة إلى إمساك الرجل عن إنجاز الفعل الجنسي. كذلك أخضعت حزنها لعملية نقل، فعزته إلى شريكها: فقد رأت أنه هو الذي يبكي في الحلم، وهذه إشارة في الوقت نفسه إلى قذف السائل المنوي.

لعله تناهى إلى أسماعكم أن التحليل النفسي يرى أن للأحلام جميعاً مدلولاً جنسياً. وها أنتم الآن في وضع يؤهلكم للحكم على مدى بطلان هذا الافتراض. فقد رأيتم معي أن هناك أحلاماً تدور على تحقيق رغبات وعلى إشباع الحاجات الأولية، من جوع وعطش وحاجة إلى الحرية، ورأيتم أيضاً أن ثمة أحلاماً دعوتها بأحلام الكسل والتلهف، وأحلاماً تدور على الشره والطمع، وأحلاماً أنانية. لكن يتعيَّن عليكم أن تأخذوا في اعتباركم أن إحدى النتائج التي انتهى إليها البحث التحليلي النفسي هي التوكيد على أن الأحلام الشديدة التحريف تفيد بصورة رئيسية (وليس جميعها بطبيعة الحال) في التعبير عن رغبات جنسية.

٦ ـ لديّ على كل حال سبب خاص يحملني على الإكثار من أمثلة استخدام الرموز في الحلام. فمنذ لقائنا الأول حدَّثتكم عن مدى ما نواجهه في تعليم التحليل النفسي من عنت في سوق الأدلة والبراهين على مدّعانا، ومن عناء بالتالي في إقناع السامعين. ولقد سنحت لكم منذئذ أكثر من فرصة لتتحققوا من صدق قولي. والحال أن بين مختلف أطروحات التحليل النفسي رابطة وثيقة للغاية، بحيث أن الاقتناع بنقطة من نقاطه يمكن أن ينسحب بسهولة على شطر كبير من مجمل النظرية. ومن الممكن القول عن التحليل النفسي إنه حسبك أن تمدّ إليه أصبعك الصغيرة حتى يقبض على يدك كلها. فمن فهم تفسير الهفوات وأخذ به فلا مناص له، إذا كان منطقياً مع نفسه، من أن يأخذ بكل الباقي.



والحال أن رمزية الأحلام تقدم لنا نقطة أخرى من النقاط التي يمكن الأخذ بها بسهولة. وسأسرد عليكم فيما يلي حلماً، سبق نشره[٤]، حلمت به امرأة من سواد الشعب، زوجها شرطي، ولم تسمع قط ـ هذا محقق ـ برمزية الأحلام أو بالتحليل النفسي. فاحكموا بأنفسكم إن يكن تأويل هذه الأحلام بواسطة الرموز الجنسية ينطوي ـ أو لا ـ على عسف وقسر.

«... دلف أحدهم إلى المسكن، فاستبد بها الفزع ونادت شرطياً. لكن هذا الأخير دخل، بصحبة «لصين»، إلى كنيسة يُرقى إليها بعدة درجات. وكان وراء الكنيسة جبل تغطيه غابة كثيفة. وكان الشرطي يعتمر خوذة ويرتدي واقية عنق ومعطفاً. وكانت لحيته سوداء كثة. أما الأفاقان اللذان يصحبان الشرطي بكل طمأنينة فكانا يرتديان حول الحقوين مئزرين مفتوحين على شكل كيس. وكان ثمة طريق بين الكنيسة والجبل، تغطيه من كلا الجانبين أعشاب وأشواك، وكانت كثافة هذه الأخيرة تتزايد باطراد لتؤلف في أعلى الجبل غابة حقيقية».

إنكم لتدركون بلا عناء الرموز المستخدمة هنا. فالأعضاء التناسلية المذكرة ممثَّلة بثالوث من الأشخاص، والأعضاء المؤنثة ممثَّلة بمنظر طبيعي مؤلف من كنيسة وجبل وغابة. وترون الدرجات هنا ترمز إلى الفعل الجنسي. أما ما يسمى بالجبل في الحلم فيطلق عليه في التشريح الاسم نفسه: جبل فينوس Mons Veneris، أي جبل العانة.

٧ ـ هاكم حلماً آخر يتعيَّن تأويله بالرموز، وهو حلم يسترعي الانتباه ويحمل على الاقتناع من حيث أن الحالم هو الذي تولى ترجمة رموزه جميعاً، من دون أن يكون له أدنى معرفة نظرية بتأويل الأحلام. وهذه حالة فريدة، ولا نملك فكرة دقيقة عن ظروفها:

«كان يتنزه مع أبيه في موضع آخر هو في أكبر الظن حديقة براتر[٥]، إذ

---

٤ ـ كان فرويد قد روى هذا الحلم نفسه في كتابه **تأويل الحلم**، وقد استعاره من الطبيب النمساوي ب. دانتر. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

٥ ـ حديقة واسعة في فيينا. «م».



كان يرى منه الطارمة المقبّبة[٦]، وأمامها طنف صغير ربط به منطاد مقيّد يبدو في حال ظاهرة من التنفيس. وسأله أبوه عن معنى ذلك، فأدهشه السؤال، ولكنه أجاب مع ذلك بالتفسير المطلوب. ووصلا بعد ذلك إلى فناء بسطت فيه صفيحة كبيرة من التنك. فأراد الأب أن يقتطع منها قطعة كبيرة، لكنه نظر حواليه ليطمئن إلى أن أحداً لا يرقبه. فقال له ابنه إنه حسبه أن يُخطِر الحارس بالأمر حتى يستطيع أن يأخذ منها ما يشاء. وكان في ذلك الفناء درج يفضي إلى حفرة مبطنة الجوانب وكأنها، مثلاً، أريكة من الجلد. وفي قرارة هذه الحفرة رصيف طويل تليه حفرة أخرى...»[٧].

وقد أوّل الحالم حلمه بنفسه: «الطارمة المقببة هي أعضائي التناسلية، وما المنطاد المقيد أمامها إلا قضيبي الذي أصاب قدرته على الانتصاب وهن منذ بعض الزمن». وإذا شئتم ترجمة أدقّ قلنا: إن الطارمة المقببة هي الإليتان اللتان يعدّهما الطفل عادة من جملة الجهاز التناسلي، وأما الطنف أمام هذه الطارمة فهو كيس الخصيتين. وحين يسأله أبوه في الحلم عن معنى ذلك، أي عن الغرض من الأعضاء التناسلية ووظيفتها، يسعنا ـ من دون أن نجازف بالوقوع في الخطأ ـ أن نقلب الموقف، فنسلِّم بأن الابن هو الذي يسأل. وبما أن الأب لم يطرح قط في الحياة الواقعية مثل هذا السؤال، فلا مناص لنا من الافتراض بأن هذه الفكرة من أفكار الحلم هي محض رغبة، أو أن نفهمها بصيغة شرطية: «لو سألت أبي أن يزوّدني بمعلومات عن الأعضاء التناسلية...».

وسنرى عما قليل ماذا يمكن أن يكون جواب هذا الشرط.

أما الفناء الذي بسطت فيه صفيحة التنك فلا داعي إلى اعتباره رمزياً في الجوهر: فهو جزء من المكان الذي يزاول فيه الأب تجارته. وقد استبدلتُ، كتماً للسر، السلعة التي يتَّجر بها بالتنك، من دون أن أبدِّل شيئاً في نص الحلم. والحالم، الذي يعين أباه في عمله، صدمه وجرح إحساسه من اليوم الأول التواء

٦ ـ الطارمة: بناء مستدير مقبّب. وقد كانت ترتفع في حديقة براتر في فيينا بين ١٨٧٣ و١٩٣٩ طارمة عملاقة من الحديد والزجاج. «م».

٧ ـ حلم آخر كان فرويد رواه في **تأويل الحلم**. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.



الأساليب التي يعتمدها الأب في تحقيق الربح. لهذا ينبغي أن نجعل تتمة الفكرة التي أوردناها للتو **(لو سألت أبي)** بالفكرة التالية: «لغشَّني كما يغشّ زبائنه». أما رغبة الأب في أن يقتطع قطعة من صحيفة التنك، فبوسعنا أن نرى فيها تمثيلاً لعدم الاستقامة في التجارة، لكن الحالم نفسه يفسرها تفسيراً آخر: فهي تعني في نظره جلد عميرة. وهذا تفسير نعلمه منذ زمن بعيد، علاوة على أنه يتمشى مع واقع التعبير عن سر الاستمناء بنقيضه (قول الابن لأبيه إن عليه، إذا شاء أخذ قطعة من التنك، أن يفعل ذلك علانية، بطلبه الإذن من الحارس). لذا لا نعجب إن وجدنا الابن يعزو إلى الأب ممارسة الاستمناء، مثلما عزا إليه الاستفسار في المشهد الأول من الحلم. أما الحفرة فيؤولها الحالم بالجدران المبطنة الملساء للرحم. وأضيف من عندي أن النزول، كالصعود في أحوال أخرى، يرمز إلى فعل المجامعة.

وبحسب ما قاله لنا الحالم، فإن الحفرة الأولى التي يليها رصيف طويل ينتهي بحفرة أخرى هي إشارة إلى تفاصيل من سيرة حياته. فبعد ما كان للحالم من اتصالات جنسية كثيرة بالنساء، صار يشقّ عليه الآن إتمام الفعل الجنسي، وهو يأمل أن تمكّنه المعالجة من استرداد قوته على الباه.

٨ ـ الحلمان التاليان يعودان إلى رجل أجنبي له ميول سافرة إلى الزواج بأكثر من امرأة واحدة. وأنا أسوقهما لأوضح لكم أن أنا الحالم هو الذي يمثِّل في كل حلم، حتى ولو غاب عن الحلم الظاهر. والحقائب الماثلة في هذين الحلمين رموز نسوية.

أ ـ أزمع صاحبنا على السفر، وحُملت أمتعته إلى المحطة في عربة. وكانت تتألف من عدد كبير من الحقائب، بينها حقيبتان سوداوان كبيرتان من نوع (حقائب المساطر) التي يحملها الوكلاء التجاريون. وقد قال لأحدهم بلهجة مؤاساة: «هاتان الحقيبتان لن تذهبا إلى أبعد من المحطة».

إن من عادة هذا الرجل، بالفعل، السفر مع أمتعة كثيرة، ولكنه يشير أيضاً في أثناء علاجنا له إلى علاقات كثيرة له بالنساء. والحقيبتان السوداوان الكبيرتان تمثلان امرأتين سمراوين كان لهما في ذلك الحين دور بالغ الأهمية في حياته.



وكانت إحداهما قد شاءت أن تتبعه إلى فيينا، لكنه أبرق إليها، بناء على نصيحتي، بأن تمتنع عن ذلك.

ب ـ مشهد في الجمارك: **أحد المسافرين معه يفتح حقيبته ويقول وهو يدخن بلا مبالاة سيجارته: ليس في داخلها شيء. فبدا على الجمركي أنه صدّقه، لكنه عاد إلى التفتيش فوجد فيها شيئاً مما هو محظور أشدَّ الحظر. فقال المسافر عندئذ باستسلام: لا حيلة لي في هذا.**

إنه هو المسافر، أما أنا فرجل الجمارك. ومع أنه صادق أشدَّ الصدق عادة في اعترافاته، فقد شاء أن يخفي عني الصلة التي عقدها حديثاً مع سيدة، لأنه تراءى له ـ بحق ـ أن هذه السيدة ليست عني بغريبة. وقد حوّل إلى شخص آخر الموقف المربك الذي يتورط فيه مَن يُفتضح أمر كذبه، وهكذا بدا وكأن لا حضور له في الحلم.

٩ ـ هاكم مثالاً على رمز لم أذكره لكم حتى الآن:

التقى الحالم بأخته برفقة اثنتين من صديقاتها، وكانتا شقيقتين. فمدَّ يده إليهما، ولكن ليس إلى أخته.

لا يرتبط هذا الحلم بأي حدث يعرفه الحالم، بل ترجعه ذكرياته بالأحرى إلى الزمن الذي لاحظ فيه لأول مرة أن الأثداء تتأخر في النمو لدى البنات. وتساءل عن علة ذلك. إذاً فالشقيقتان تمثلان ثديين كان سيطيب له الإمساك بهما بشرط ألا يكونا ثديي أخته.

١٠ ـ وإليكم مثالاً على رمزية الموت في الحلم:

إنه يسير فوق جسر حديدي شاهق الارتفاع وشديد الانحدار مع شخصين يعرفهما، ولكنه نسي اسميهما عندما استيقظ. وعلى حين غرة اختفى هذان الشخصان، ورأى رجلاً كالشبح يرتدي قبعة وبزة من الكتان. فسأله: أهو موزع البرقيات؟ كلا. أهو الحوذي؟ كلا. فمضى في طريقه، وهو لا يزال يساوره في حلمه قلق عظيم. وحتى بعد أن استيقظ أطال حلمه بأن تخيَّل أن الجسر الحديدي انهار، وأنه سقط في الهاوية.



إن الأشخاص الذين يقول لنا راوي الحلم في العادة إنه لا يعرفهم أو إنه نسي أسماءهم هم في أغلب الأحيان أشخاص تربطه وإياهم رابطة وثيقة. وقد كانت للحالم أخ وأخت، ولو أنه تمنى موتهما، لكان من العدل أن يتولاه هو نفسه ذعر مميت. أما بصدد موزع البرقيات، فقد لاحظ الحالم أن هؤلاء الموزعين هم الذين يحملون على الدوام الأخبار السيئة. لكن بالنظر إلى زيه الرسمي، فربما كان أيضاً عاملاً ممن يوقدون مصابيح الطرق، لكن وقّادي المصابيح مكلفون أيضاً بإطفائها، مثلما يطفئ ملاك الموت شعلة الحياة. أما صورة الحوذي فقد قرنها بقصيدة أوهلاند[٨] L Uhland عن رحلة الملك تشارلز البحرية، واستذكر بهذا الصدد رحلة بحرية خطرة قام بها مع رفيقين له ومثّل فيها دور الملك في القصيدة. كما تذكَّر بصدد الجسر الحديدي حادثة خطيرة وقعت له مؤخراً، وكذلك القولة البلهاء: الحياة جسر معلَّق[٩].

١١ ـ مثال آخر على التمثيل الرمزي للموت: **سيد مجهول يضع برسم الحالم بطاقة زيارة ذات حواشٍ سود.**

١٢ ـ لعل الحلم التالي، الذي يرجع إلى حدّ ما إلى حالة عصابية، سيثير اهتمامكم من أكثر من زاوية:

إنه يسافر بالسكة الحديدية. القطار يتوقف في وسط الريف. يحسب أن هناك حادثة، ويفكر بضرورة النجاة بنفسه، فيجتاز مقصورات القطار جميعها ويقتل كل من يصادفه: السائق والميكانيكي، إلخ..

استذكر الحالم بصدد هذا الحالم قصة قصّها عليه صديق له. فقد اقتيد أحد المجانين في مقصورة خاصة في قطار إيطالي، لكن أحد المسافرين دخل إلى المقصورة خطأً، فقتله المجنون. لقد ماهى الحالم إذاً بين نفسه وبين المجنون، وبرّر فعلته بالفكرة التي تسلّطت عليه ـ والتي تقضّ مضجعه بين الحين والآخر ـ

٨ ـ لودفيغ أوهلاند: شاعر ألماني (١٧٨٧ ـ ١٨٦٢)، له أشعار وطنية وشعبية مستوحاة من الأساطير القديمة. «م».

٩ ـ حرفياً: جسر بسلاسل. وقد كان فرويد استشهد بهذه القولة في كتابه **النكتة وصلاتها باللاشعور** كمثال على نكتة فاشلة. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.



بضرورة «التخلص من الشهود جميعاً». لكنه ما لبث أن وجد تعليلاً أفضل كان بمثابة نقطة انطلاق لحلمه. فقد رأى في المسرح في الليلة السابقة فتاة كان أزمع على الزواج منها، ثم انفصل عنها بعد ذلك لما حركته فيه من مشاعر الغيرة. وبالنظر إلى ضراوة الغيرة التي يمكن أن تشتعل في نفسه، فقد كان سيجنّ فعلاً فيما لو أقدم على الزواج من تلك الفتاة. وهذا يعني أنه يعتقد أنها لا يُركن إليها، وأنه لو تزوجها لاضطر إلى قتل كل من يصادفه في طريقه، لأنه كان من المحتم أن يغار من كل الناس بلا استثناء. وقد سبق أن ذكرنا[١٠] أن اجتياز مجموعة من الغرف (أو المقصورات هنا) رمز للزواج الأحادي.

أما فيما يتصل بتوقف القطار في قلب الريف والتخوّف من وقوع حادث، فقد روى لنا أنه فيما كان يسافر ذات يوم بالسكة الحديدية توقف القطار على حين غرة بين محطتين. فقالت سيدة في مقتبل العمر كانت بجواره إنه ليس من المستبعد أن يقع صدام مع قطار آخر، وإن أحسن احتياط يمكن للمرء أن يتخذه في هذه الحالة أن يرفع ساقيه في الهواء. وهاتان «الساقان المرفوعتان في الهواء» كان لهما أيضاً دور في نزهات وجولات كثيرة قام بها في الريف بصحبة الفتاة في عهد لقاءاتهما الأولى السعيدة. وهذا برهان جديد على أنه لا بدّ أن يكون مجنوناً حتى يتزوجها الآن. ومع ذلك، إن معرفتي بالموقف تبيح لي أن أؤكد أن الرغبة في الإقدام على تلك الفعلة الجنونية كانت تراوده باستمرار.

١٠ ـ في كتابه **تأويل الحلم**. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.



المحاضرة الثالثة عشرة

السمات الأثرية والطفالة في الحلم

سيداتي سادتي، لنعد إلى ما كنا انتهينا إليه من استنتاج بأن عمل الحلم يضفي على أفكار الحلم صيغة تعبيرية جديدة. ومع أن الأفكار الكامنة هي تلك الأفكار الواعية التي تراودنا في حالة اليقظة، إلا أن أسلوب التعبير الجديد يسبغ عليها سمات عديدة يعصى فهمها علينا. وقد ذكرنا أن مردّ هذا الأسلوب إلى مراحل ـ اجتزناها منذ زمن بعيد ـ في تطورنا العقلي، وإلى طور اللغة المصوَّرة والعلاقات الرمزية، وربما إلى ظروف وجدت قبل تطور لغتنا المجردة. لهذا نعتنا الأسلوب التعبيري الذي يعتمده عمل الحلم بأنه أثري أو نكوصي.

يمكنكم، إذا شئتم، أن تستنتجوا من ذلك أن التعمق في دراسة عمل الحلم سيتيح لنا الوصول إلى معطيات ثمينة عن بدايات تطورنا العقلي التي لا نعلم عنها شيئاً كثيراً في الوقت الراهن. وآمل أن يكون كذلك هو الأمر، لكن هذه المهمة لم تجد بعد من يشرع بها. وما قبل التاريخ الذي يردّنا إليه عمل الحلم مزدوج: فهناك أولاً ما قبل التاريخ الفردي: الطفولة، وهناك ثانياً ما قبل التاريخ السلالي، وذلك بقدر ما يكرر كل فرد بشكل مختصر كل تطور الجنس البشري. ولا يبدو لي أنه من المحال أن نتوصل ذات يوم إلى التمييز بين أثر ما قبل التاريخ الفردي في السيرورات النفسية الكامنة وبين دور العناصر المتحدرة من ما قبل التاريخ السلالي في هذه السيرورات. وعلى هذا الأساس أعتقد أنه من المباح لنا أن نفترض أن الترميز، الذي لا يتعلمه ولا يكتسبه الفرد إطلاقاً من حيث هو فرد، هو إرث سلالي.

لكن ليست هذه هي الخاصية الأثرية الوحيدة للحلم. فأنتم تعرفون جميعاً، من خبرتكم، ظاهرة النساية Amnésie الطفلية. فالسنوات الخمس أو الست أو الثماني



الأولى من الحياة لا تترك، خلافاً لأحداث الحياة اللاحقة، من أثر في الذاكرة. صحيح أننا قد نلتقي أشخاصاً يتباهون باستمرارية ذاكرية تمتد على مدى حياتهم بدءاً من بداياتها الأولى، لكن الحالة المعاكسة، أي وجود فجوات وثغرات في الذاكرة، هي الأكثر شيوعاً بما لا يقاس. وأعتقد أن هذه الواقعة لم تستثر ما تستأهله من دهشة وتعجب. ففي الثانية من العمر يكون الطفل قد اقتدر على الكلام، وسرعان ما يظهر بعد ذلك مقدرته على تدبر أمره في مواقف نفسية معقدة، ويفصح عن أفكاره وعواطفه بأقوال وأفعال لو ذكّرناه بها لاحقاً لوجدنا أنه نسيها. وهذا مع أن الذاكرة تكون في السنوات الأولى من العمر أقدر على الأداء لأنها لا تشحن في السنوات الأولى بقدر ما تشحن في السنوات اللاحقة، في السنة الثامنة على سبيل المثال، ويفترض بها بالتالي أن تكون أكثر حساسية ومرونة، ومن ثم أقدر على حفظ الوقائع والانطباعات. ومن جهة أخرى، ليس ثمة ما يأذن لنا أن نعتبر وظيفة الذاكرة وظيفة نفسية سامية ومعقدة، بل قد نجد على العكس ذاكرة جيدة حتى لدى الأشخاص من ذوي المستوى العقلي المتدني.

إلى هذه الخاصية ينبغي أن أضيف أخرى لافتة للنظر، وهي أن الخواء الذاكري الذي ينسحب على السنوات الأولى من الطفولة لا يكون كاملاً: إذ تنبعث بين الحين والآخر ذكريات حظيت بصيانة جيدة، ذكريات ناجمة في أغلب الأحوال عن انطباعات تشكيلية ليس ثمة ما يبرر أصلاً أن تصان على ذلك النحو. أما الانطباعات العائدة إلى أحداث لاحقة فتجري عليها الذاكرة انتخاباً واصطفاء: فتحتفظ بما هو مهمّ منها وتذر الباقي. بيد أن هذا الأمر لا يسري على الذكريات المحفوظة من عهد الطفولة الأولى. إذ إن هذه الذكريات لا تقابلها بالضرورة أحداث مهمة من تلك المرحلة من الحياة، وقد لا تقابلها حتى أحداث يمكن أن تبدو مهمة من وجهة نظر الطفل. بل غالباً ما تكون عادية وتافهة حتى لنتساءل بدهشة لماذا أفلتت هذه التفاصيل من يد النسيان. ولقد حاولت في زمن سابق أن أفكّ، بالاعتماد على التحليل، لغز النساية الطفلية وبقايا الذكريات المصانة رغم هذه النساية، فتوصلت إلى الاستنتاج بأن الذكريات المهمة هي وحدها التي تنجو من النسيان حتى لدى الطفل. وكل ما هنالك أن العناصر المهمة تُستبدل في



الذاكرة، بفعل السيرورات التي بتُّم على علم بها، وعلى الأخص التكثيف والنقل والإزاحة، بعناصر تبدو غير ذات أهمية. ولهذا السبب أطلقت على ذكريات الطفولة اسم **الذكريات الستارية**[1]، والتحليل العميق كفيل بأن يستخلص منها كل ما طوته يد النسيان.

إن سد الثغرات والفجوات في الذكريات الطفلية ضرورة دائمة في المعالجة التحليلية النفسية. وبقدر ما تتمخض المعالجة عن نتائج مُرضية، أي في عدد كبير من الحالات، نفلح في استحضار مضمون سنوات الطفولة الذي طوته يد النسيان. وفي الواقع، إن الانطباعات التي يعاد تكوينها لا تكون قد انتسيت قط، وإنما بقيت فقط عصية المنال، كامنة، مكبوتة في منطقة اللاشعور. لكن قد يتفق أيضاً أن تنبثق عفواً من اللاشعور، وهذا في الأحلام في أغلب الأحيان. وعندئذ يتضح أن حياة الحلم تعرف كيف تجد منفذاً إلى تلك الأحداث الطفلية الكامنة. ويقدم لنا الأدب أمثلة ممتعة على ذلك. وقد تسنى لي أنا نفسي أن أؤيِّد هذه الواقعة بمثال شخصي. فقد حلمت ذات ليلة، في جملة ما حلمت به، بشخص كان قد أسدى لي معروفاً، ورأيته ماثلاً أمام عينيّ بكل وضوح. كان رجلاً قصيراً أعور، بديناً، رأسه غائصة بين كتفيه. وقد استنتجت، من سياق الحلم، أنه طبيب. ومن حسن التوفيق أني استطعت أن أسأل والدتي، وكانت لا تزال على قيد الحياة، كيف كان المظهر الخارجي لطبيب القرية التي رأيت فيها النور والتي غادرتها وأنا في الثالثة من العمر[2]. فعلمت منها أنه كان بالفعل أعور، قصيراً بديناً، رأسه غائصة بين كتفيه؛ وأطلعتني والدتي، فضلاً عن ذلك، على المناسبة التي اقتضت استدعاء الطبيب لمعالجتي، وكنت قد سهوت عنها تماماً. إذاً، إن هذه القدرة على النفاذ إلى المواد المنسية من سنوات الطفولة الأولى هي سمة أخرى من سمات الحلم الأثرية.

١ ـ بالألمانية Deckerinnerung، وقد ترجمت إلى الفرنسية بـ Souvenir - Ecran، وإلى الإنكليزية بـScreen - Memory. «م».

٢ ـ معلوم أن فرويد ولد في بلدة فريبورغ في مورافيا في شرق ألمانيا سنة ١٨٥٦، ثم نزحت أسرته إلى فيينا سنة ١٨٦٠. «م».



والحال أن هذا التفسير يصدق على لغز آخر من الألغاز التي ارتطمنا بها حتى الآن. أنتم تذكرون الدهشة التي اعترتكم حين سقت لكم الدليل على أن الأحلام تستثيرها رغبات جنسية فاسقة في جوهرها، منفلتة من عقالها في كثير من الأحيان، مما استوجب فرض رقابة على الحلم وتحريفاً للحلم. وحينما نؤوِّل للحالم حلماً من هذا النوع، فلن يتخلف في أغلب الأحيان عن رفع صوته بالاحتجاج على تأويلنا. وحتى إذا جرى الأمر بيسر وامتثل الحالم لتأويلنا، نجده يضرب أخماساً بأسداس ليعرف من أين جاءته مثل تلك الرغبات التي يشعر أنها تتنافى وخلقه، وتتخالف مجمل منازعه ومشاعره. ولا يجوز لنا أن نتوانى في الكشف له عن أصل هذه الرغبات. فجذر هذه الرغبات الفاسقة إنما يكمن في الماضي، وفي كثير من الأحيان في ماضٍ ناءٍ كل النأي. ومن الممكن أن نثبت له أنه كان بها عليماً واعياً في ما غبر من الأيام. فالمرأة التي نمَّ حلمها عن أنها ترغب في موت ابنتها الوحيدة، التي لها من العمر سبعة عشر عاماً، فطنت بإرشادنا إلى أن رغبة كهذه قد ساورتها بالفعل في زمن مضى. فقد أنجبت هذه البنت من زواج غير موفق انتهى بالانفصال. وفيما كانت لا تزال حاملاً بها استبدت بها، على إثر مشادّة مع زوجها، سورة حنق مسعور، فأفلت منها زمام نفسها وراحت تضرب بطنها بقبضة يدها بغية قتل الجنين الذي في أحشائها. وكم من أم تحب اليوم أطفالها وتحنو عليهم، بل تسرف في الحنو، كانت قد حملتهم كرهاً ورغبت في موتهم قبل ولادتهم، وكم من أم شرعت فعلاً بتنفيذ رغبتها هذه، ولكن من دون أن يتأتى عنها لحسن الحظ ضرر! بذا ترون أن ما قد يساورنا من رغبة ملغزة محيّرة في أن تخطف يد المنون شخصاًنحبه يرجع إلى بداية علاقتنا بهذا الشخص عينه.

أما ذلك الأب، الذي يأذن لنا حلمه بأن نستنتج أنه يتمنى موت ابنه البكر الأثير لديه، فإنه يتذكر بدوره في خاتمة المطاف أن هذه الأمنية لم تكن بالغريبة عنه في يوم من الأيام. ففيما كان الطفل لا يزال رضيعاً، كان الأب، وقد خاب ظنه بزواجه، يقول بينه وبين نفسه إنه لو قيِّض لهذا المخلوق الصغير، الذي لا يعني له شيئاً، أن يموت، فإنه سيستردّ حريته وسيحسن استعمالها هذه المرة أكثر.



وبوسعنا أن نثبت أن العديد من حالات الكراهية لها أصل كهذا: فهذه الحالات ناشئة عن ذكريات لأحداث وقعت في الماضي وكانت في يوم من الأيام شعورية ولعبت دوراً في الحياة النفسية. قد تعترضون عليّ بأنه إذا لم يطرأ تبدل على الموقف من الشخص المعني، وبأنه إذا كان هذا الموقف على الدوام موقف ود وتعاطف، فإن أمثال تلك الرغبات والأحلام لا يفترض بها أن ترى النور. وأنا على استعداد للتسليم لكم بهذا الاستنتاج، على أن أذكّركم أنه يتعيَّن عليكم أن تأخذوا في اعتباركم لا الصيغة اللفظية للحلم، بل المعنى الذي يغدو له بعد تأويله. فقد يدور موضوع الحلم الظاهر على موت شخص حبيب، ولكن قد يكون ذلك محض قناع مرعب يتنكر به الحلم الذي يعني في الواقع شيئاً مغايراً تماماً، أو الذي يكون قد استخدم الشخص الحبيب بديلاً خادعاً عن شخص آخر.

غير أن هذا الموقف عينه يثير مسألة أخرى أشد خطورة بكثير. إذ ستقولون لي: على فرض أن أمنية الموت تلك وجدت فعلاً، وأن الذكرى المستعادة تؤيد وجودها، فهل يقوم هذا مقام تفسير؟ فهذه الأمنية، المقموعة من زمن بعيد، لا يمكن أن تستمر على قيد الوجود في اللاشعور إلا بصفتها ذكرى عديمة الأهمية، لا بصفتها حاثّة Motion قوية. وبالفعل، لا دليل لدينا على وجود مثل هذا الاحتمال. فلمَ تستحضر هذه الأمنية إذاً في الحلم؟ إنه لسؤال مسوَّغ تماماً. غير أننا لو حاولنا الإجابة عنه لنأت بنا الشقة عن موضوعنا ولاضطررنا إلى تحديد موقف من نقطة هي من أهم نقاط نظرية الحلم. والحال أنني مكره على التزام حدود محاضرتي، وعلى الإمساك عن الخوض في تفاصيل ذلك ولو إلى حين. فلنقنع إذاً بما قدَّمنا من دليل على أن تلك الأمنية المخنوقة هي التي تقوم بدور المحرِّض على الحلم، ولنتابع بحثنا عسانا نكشف هل ثمة رغبات شريرة أخرى يكمن أصلها في ماضي الفرد.

لنقف ملياً عند الرغبة في موت الآخرين، وهي الرغبة التي لا نجد مناصاً من أن نردها في أغلب الأحيان إلى أنانية الحالم التي لا حدود لها. ومن اليسير علينا أن نثبت أن هذه الرغبة هي الخالق الأكثر تواتراً للأحلام. فكلما سدّ أحدهم الدرب علينا في الحياة (ومن يجهل مدى تواتر هذه الحالة في شروط حياتنا



المعاصرة البالغة التعقيد؟)، أبدى الحلم عن استعداد للقضاء عليه، سواء أكان هذا الشخص أباً أم أماً، أخاً أم أختاً، زوجاً أم زوجة، إلخ. وكان هذا الشر الذي تنطوي عليه الطبيعة البشرية قد أدهشنا، فلم نبدِ استعداداً للتسليم بلا تحفظ بصحة هذه النتيجة التي انتهى إليها تأويل الأحلام. لكن ما إن تعيَّن علينا أن نبحث عن أصل هذه الرغبات في الماضي حتى اكتشفنا تلك المرحلة من ماضي الفرد التي لا تبدو فيها هذه الأنانية وهذه الرغبات بالمستغربة، حتى ولو كانت موجهة ضد أقرب الناس إلى الفرد. فالطفل في سنواته الأولى ـ أي السنوات التي تطويها فيما بعد يد النسيان ـ هو الذي يدلل في أغلب الأحيان على تلك الدرجة القصوى من الأنانية، وتصدر عنه في كل آن وحين إشارات أو بالأحرى بقايا سافرة منها. والطفل يحب نفسه أول ما يحب، وفي طور لاحق فحسب يتعلم أن يحب الآخرين وأن يضحي في سبيل الغير بشطر من أناه. وحتى الأشخاص الذين يبدو على الطفل وكأنه يحبهم من البداية، فإنه لايحبهم أول الأمر إلا لأنه يحتاجهم ولا يسعه الاستغناء عنهم. إذاً لأسباب أنانية. وفي زمن متأخر فحسب يفترق الحب عنده عن الأنانية. وفي الواقع، إن **الأنانية هي التي تعلِّمه الحب**.

إنه لمن المفيد جداً أن نقيم من هذا المنظور موازنة بين موقف الطفل من إخوته وأخواته وبين موقفه من والديه. فالطفل الصغير لا يحب إخوته وأخواته بالضرورة، وهو بوجه الإجمال لا يحبهم على الإطلاق. ولا مراء في أنه يرى فيهم منافسين. ومعلوم أن هذا الموقف يدوم بلا انقطاع طوال سنين كثيرة وصولاً إلى سنّ البلوغ، وربما إلى ما بعدها. وكثيراً ما يُستبدل هذا الموقف أو يُحجب بالأحرى بموقف آخر أكثر ودّاً، غير أن الاتجاه العدائي بصورة عامة هو الأقدم عهداً. ومن السهولة بمكان أن نلحظ هذا الاتجاه لدى الأطفال الذين تتراوح سنهم بين الثانية والنصف والخامسة عندما تستقبل الأسرة أخاً جديداً أو أختاً جديدة. فالوليد لا يحظى عندئذ منهم باستقبال ودّي، بل في الغالب بعبارات احتجاج مثل: «لا أريده، فلتأخذه اللقالق»[٣]. ويغتنم الطفل بعد ذلك كل فرصة

٣ ـ جرت العادة عند بعض الأمم الأوروبية أن تعلل واقعة الولادة لصغار السن أو أن تخفيها عنهم بالأحرى بالقول إن اللقالق هي التي تأتي بالمواليد. «م».



تسنح لينتقص من شأن الدخيل، كما لا تندر في هذه الحال محاولات إنزال الأذى به والاعتداء المباشر عليه. فإن لم يكن فارق السن كبيراً يجد الطفل نفسه، حين يشتدّ نشاطه النفسي ويقوى، إزاء منافس مقيم له، ويوطّن نفسه على هذا الأساس. أما إن كان فارق السن كبيراً فقد يبتعث القادم الجديد من البداية مشاعر تعاطف وودّ: إذ يبدو عندئذ وكأنه شيء طريف، ضرب من دمية حية. وإن جاوز الفارق ثمانية أعوام أو أكثر فقد يظهر، لدى البنات الصغيرات بوجه خاص، عطف شبه أموي. لكننا حين نميط اللثام، في حلم من الأحلام، عن رغبة في موت أخ أو أخت، فليس لنا، إذا أردنا الصراحة في القول، أن نستغرب هذه الرغبة، لأننا نستطيع أن نجد مصدرها بلا عناء في الطفولة الأولى، أو حتى في طور متأخر من الحياة المشتركة.

والحق أنه يندر أن نقع على غرفة أولاد لا تنشب فيها منازعات حادة بين المقيمين فيها. وأسباب هذه المنازعات هي التالية: رغبة كل طفل في الاستئثار لصالحه بحبّ الوالدين، والاستحواذ على الأشياء، والتزاحم على المكان الشاغر. والمشاعر العدائية تنصبّ على كبار السن كما على صغارهم من الإخوة والأخوات. وبرنارد شو هو القائل فيما أعتقد: إن تكن الفتاة الإنكليزية تكره أحداً أكثر مما تكره أمها، فمن المحقق أنها أختها الأكبر منها[٤]. وفي هذه الملاحظة شيء يبلبلنا. فنحن نستطيع، عند الاقتضاء، أن نتصور وجود كراهية ومزاحمة بين الإخوة والأخوات، لكن كيف يمكن لمشاعر الكراهية أن تجد منفذاً إلى العلاقات بين البنت والأم، بين الوالدين وأولادهما؟

لا ريب في أن الأطفال أنفسهم يظهرون لوالديهم من المحبة أكثر مما يظهرون لإخوتهم وأخواتهم. وهذا يتفق أصلاً مع ما نتوقع: فنحن نرى في انعدام الحب بين الوالدين وأولادهما ظاهرة تنافي الطبيعة أكثر مما تنافيها ظاهرة العداوة بين الإخوة والأخوات. وبذلك نكون قد أحطنا بهالة من القداسة في الحالة الأولى ما تركناه في حالة من الرجاسة في الحالة الثانية، إن جاز التعبير. غير أن المشاهدات

٤ ـ شاهد يقبسه فرويد من كتاب برنارد شو: **الإنسان والإنسان الأعلى**. «م».



اليومية تظهر لنا كم تقصّر العلاقات العاطفية بين الوالدين وأولادهما في كثير من الأحيان عن بلوغ المثل الأعلى الذي يعيّنه المجتمع، وكم تنطوي على بغضاء مرشَّحة لأن تنفجر لولا التدخل الرادع لعامل البِرّ وبعض النوازع العاطفية الأخرى. وأسباب هذه الواقعة معروفة بوجه العموم: فمردّها الأول إلى قوة تنزع إلى المباعدة بين أفراد الأسرة من الجنس الواحد: البنت عن أمها، والابن عن أبيه. فالبنت ترى في أمها سلطة تحدّ من إرادتها، سلطة أوكل إليها أن تلجم حريتها الجنسية بحسب ما يتطلب المجتمع، وقد لا يخلو الأمر في بعض الحالات من وجود ضرب من المنافسة، من المزاحمة الحقيقية بين الأم والبنت. وهذه العلاقات عينها نلتقيها بين الأب والابن، وإن بدرجة أعلى من الحدة. فالأب يبدو في نظر الابن تجسيداً لكل القسر الاجتماعي الذي يتحمله على مضض، والأب يعارض تفتح إرادة الابن، ويسدّ عليه السبل إلى المتعة الجنسية، وفي حالة وجود أموال عائلية مشتركة يحرمه من التمتع بهذه الأخيرة. ويرقى انتظار موت الأب لدى الابن الذي سيخلفه على العرش إلى ذروة مأساوية حقيقية. وبالمقابل، تتبدى العلاقات بين الآباء والبنات، بين الأمهات والأبناء، أقرب إلى المودة. وفي صلات الأم بابنها، والابن بأمه بوجه خاص، نلقى أنقى الأمثلة على الحنان الذي لا يحول ولا يتبدل ولا تداخله أية اعتبارات أنانية.

ستسألونني بلا ريب عما يدعوني إلى تحديثكم عن هذه الأشياء مع أنها معروفة بوجه عام إلى حدّ الابتذال. أفعل ذلك لأن لدى الناس ميلاً قوياً إلى إنكار أهميتها في الحياة وإلى الافتراض بأن المثل الأعلى الاجتماعي متَّبع وممتثل له على الدوام وفي كل الأحوال. وأن ينطق عالم النفس بالحقيقة خير من أن يترك أمر ذلك للمستهترين. على أنه يحسن بنا التنويه بأن الإنكار المشار إليه لا يطال سوى الحياة الواقعية وحدها، بينما يترك بالمقابل لفن الشعر السردي والتمثيلي ملء الحرية في معالجة المواقف التي تنشأ عن انتهاك ذلك المثل الأعلى.

لذا لا داعي لأن يأخذنا العجب إذا أماط الحلم اللثام، لدى الكثيرين من الناس، عن رغبة في القضاء على الوالدين، ولا سيما على من منهم من جنس واحد. ولا مناص لنا من التسليم بأن هذه الرغبة موجودة أيضاً في حياة اليقظة.



بل قد تغدو أحياناً واعية إن أمكن لها أن تتنكر في إهاب دافع آخر، كما في مثال صاحب الحلم رقم ٣، حيث تقنعت الرغبة في موت الأب بقناع الشفقة المزعومة التي أثارتها آلام هذا الأب اللامجدية وأوجاعه التي لا طائل فيها.

ويندر أن تهيمن العداوة وحدها على الموقف، بل تستتر أغلب الأحيان خلف عواطف رحيمة تلجمها وتقمعها، فلا يبقى أمامها إلا أن تنتظر الحلم كيما يعزلها إن جاز التعبير، وبفضل هذا العزل تأخذ في الحلم حجماً مضخَّماً لا يلبث بدوره أن يتضاءل وينكمش بعد أن يعيده التأويل إلى نصابه ضمن سياق حياة الحالم في جملته (هـ . ساكس)[٥]. على أن الرغبة في موت الآخرين نلتقيها حتى في الحالات التي لا يكون لها فيها من مرتكز في الحياة الواقعية، وفي الحالات التي لا يقبل فيها الإنسان أن يقرّ بها وهو في حال اليقظة. وتفسير ذلك أن العلة الأعمق والأكثر شيوعاً للعداوة، وعلى الأخص بين أشخاص من جنس واحد، تترسخ في الإنسان من عهد طفولته الأولى.

وما هذه العلة إلا التنافس في الحب الذي يجدر بنا أن ننوه تنويهاً خاصاً بطابعه الجنسي. فالابن يبدأ يساوره، وهو لا يزال طفلاً صغيراً، ضرب خاص من الحنوّ حيال أمه، فيعتبرها ملكه الموقوف عليه، ويرى في أبيه خصماً يزاحمه على ملكية هذا الوقف؛ كذلك ترى البنت الصغيرة في أمها شخصاً يعكر صفو علاقاتها العاطفية بأبيها ويشغل مكاناً تتمنى البنت لو يكون حكراً لها. والمشاهدات هي التي هدتنا إلى العمر الذي ينبغي أن نُرجِع إليه هذا الموقف الذي نطلق عليه اسم **عقدة أوديب**، لأن الأسطورة التي بطلها أوديب تحقق، من خلال تحوير طفيف جداً، الرغبتين المشتطتين اللتين تترتبان على موقف الابن: الرغبة في قتل الأب والرغبة في التزوج من الأم. وأنا لا أزعم أن عقدة أوديب تستوعب كل ما يتصل بالعلاقات المتبادلة بين الوالدين وأولادهما، وهي علاقات قابلة لأن تكون على درجة أكبر بكثير من التعقيد. ومن جهة أخرى، إن عقدة أوديب نفسها تكون على درجة متفاوتة من القوة والضعف، بل قد يصيبها أحياناً

---

٥ ـ الإشارة هنا إلى مقال هانز ساكس: **تفسير الحلم ومعرفة الإنسان** (١٩١٢). هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.



ارتكاس، غير أنها تبقى على كل حال عاملاً مطرداً وبالغ الأهمية في حياة الطفل النفسية. وإن يكن ثمة من خطر فهو أن نميل لا إلى التهويل من شأنها وإلى الغلو في تقدير أثر النتائج التي تترتب عليها، بل إلى الاستهانة بها والاستخفاف بأثرها. ولئن جاءت ردود فعل الأولاد مطابقة للموقف في عقدة أوديب، فذلك أيضاً بتحريض واستفزاز من الوالدين نفسيهما، لأنهما يتخذان في أكثر الأحيان فارق الجنس هادياً لهما في إيثارهما أولادهما بعضهم على بعض: فالأب يؤثر البنت، والأم تؤثر الابن، كما يحول الأب إلى البنت، والأم إلى الابن، العاطفة التي قد يفتقدها أي منهما في بيت الزوجية.

وليس في مستطاعنا القول إن الناس أقروا بالجميل للبحث التحليلي النفسي على اكتشافه عقدة أوديب. بل أثار هذا الاكتشاف، على العكس، مقاومة ضارية؛ وأما من تخلف عن الانضمام إلى جوقة منكري هذه العاطفة المحرَّمة والرجيمة فقد كفَّر عن خطيئته بتأويل هذه «العقدة» تأويل تجرِّدها من كل قيمة[6]. أما أنا فثابت عند يقيني بأنه ليس في هذه «العقدة» ما ينكر أو يخفَّف ويلطَّف. ولا مناص لنا من أن نتآلف وهذه الحقيقة الواقعة التي أقرت الأسطورة الإغريقية نفسها بأنها محتومة كالقدر. ومن الطريف، من جهة أخرى، أن نلاحظ أن عقدة أوديب تلك، التي يريد بعضهم استبعادها من الحياة، قد وجدت في الشعر لها ملاذاً، فتصرف بها كما يحلو له. فقد أثبت أ. رانك، في دراسة دقيقة له[7]، أن عقدة أوديب قدمت للأدب التمثيلي فيضاً من الموضوعات الرائعة، فعالجها بأن أسبغ عليها ضروباً شتى من التحوير والتخفيف والتنكير، أي ألواناً من التحريف مشابهة لتلك التي تصدر عن رقابة الأحلام. إذاً فلا مفر لنا من أن نعزو عقدة أوديب حتى إلى الحالمين الذين واتاهم الحظ فتحاشوا لاحقاً الصراع مع والديهم؛ وهذه العقدة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بأخرى نسميها **عقدة**

---

٦ ـ يشير فرويد هنا إلى تخريجات تلميذيه المنشقّين، يونغ وآدلر، لعقدة أوديب، وهو إذ يضع كلمة (عقدة) بين مزدوجين فلأنه قبسها أصلاً من مصطلح اقترحته مدرسة زوريخ التي كان يتزعمها يونغ. «م».

٧ ـ الإشارة هنا إلى كتاب أوتو رانك: **الدافع إلى زنا المحارم في الأدب والأسطورة** (١٩١٢). هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.



الخصاء، وهي رد فعل على القيود التي يفرضها الأب على النشاط الجنسي المبكِّر للابن.

وبما أن أبحاثنا السابقة قادتنا إلى دراسة الحياة النفسية الطفلية، فإننا نأمل الآن أن نخرج بتفسير مماثل لأصل طائفة أخرى من الرغبات المحرمة التي تتظاهر في الأحلام: نقصد الحاثات الجنسية المشتطة. وإن وجدنا في ذلك ما يشجعنا على دراسة حياة الطفل الجنسية أيضاً، طالعتنا مصادر مختلفة بالحقائق التالية: من الخطأ الفادح أن ننكر وجود حياة جنسية لدى الطفل وأن نتصور أن الجنسية لا تبزغ إلا مع البلوغ، حين تدرك الأعضاء التناسلية كامل تطورها. فالأمر بالعكس: فللطفل من البداية حياة جنسية غنية للغاية، تختلف من أكثر من ناحية عن الحياة الجنسية اللاحقة التي تعتبر طبيعية سوية. ذلك أن من نطلق عليه صفة **المنحرف** في الحياة الراشدة هو ذاك الذي يحيد عن الحالة السوية بالخصائص التالية: تجاهل الحاجز النوعي (الهوة التي تفصل الإنسان عن الحيوان)، والحاجز الذي ينصبه حسّ القرف والتقزز، وحاجز زنا المحارم (Inceste) (أي تحريم السعي إلى إشباع الحاجات الجنسية بواسطة أشخاص من قرابة العصب الواحد)، والجنسية المثلية Homosexualité، وأخيراً تحويل الدور التناسلي إلى أعضاء وأجزاء أخرى من الجسم البشري. والحال أن جميع هذه الحواجز لا توجد من أول الأمر، بل تشاد شيئاً فشيئاً في مجرى تطور البشرية وتربيتها المتدرجة. فالطفل الصغير لا يعرفها. فهو يجهل أن بين الإنسان والحيوان هوة سحيقة والكبرياء التي يميز بها الإنسان نفسه عن الحيوان لا تساوره إلا في طور متأخر. كما أنه لا يظهر من البداية أي تقزز من كل ما يتصل بالبراز: بل يكتسب هذا التقزز رويداً رويداً بفعل التربية. وبما أنه لا يفطن إلى ما بين الجنسين من فوارق، فإنه يعتقد أول الأمر أن الأعضاء التناسلية واحدة عند كليهما، لذا فإن رغباته الجنسية الأولى وفضوله الأول تنصب على أقرب الأشخاص إليه أو على أعزهم إليه وإن لم يكونوا من أقاربه: الوالدين، الإخوة، الأخوات، الأشخاص المكلفين بالاعتناء به. وأخيراً، إننا نلفى لديه ظاهرة لا نلفى لها نظيراً إلا في أوج تفتح العلاقات الحبية، إذ إنه



لا يحصر مصدر ما يتوقعه من لذة بالأعضاء التناسلية وحدها، بل يكتشف أن أجزاء أخرى من جسمه تتمتع بالحساسية نفسها، وقادرة على أن تغدق عليه أحاسيس لاذّة مماثلة، ومرشحة بالتالي لأن تقوم بدور الأعضاء التناسلية. من الممكن إذاً أن يتظاهر لدى الطفل **انحراف متعدد الأشكال** إن جازت التسمية؛ ولئن لم تفصح جميع هذه الحاثات عن نفسها لديه إلا في صورة آثار وبقايا، فمردّ ذلك، من جهة أولى، إلى أنها أضعف شدّة مما ستكون عليه في طور متقدم من العمر، ومن الجهة الثانية، إلى أن التربية تقمع بشدة جميع مظاهر النشاط الجنسي لدى الطفل حال تظاهرها. ولا يلبث هذا القمع أن ينتقل من الممارسة إلى النظرية إن جاز التعبير، إذ يتقصد الراشدون أن يتغاضوا عن شطر من التظاهرات الجنسية لدى الطفل، وأن يجردوا الشطر الآخر من هذه التظاهرات من طبيعتها الجنسية بالاستناد إلى تأويل معيَّن لها، فلا يكون أيسر عليهم بعد ذلك من أن ينكروها في جملتها. وهؤلاء المنكرون هم في أكثر الأحيان نفس الأشخاص الذين يستهجنون أشد الاستهجان كل ما يصدر عن الأطفال في مهاجعهم من ألوان الفجور الجنسي؛ ثم إذا مضوا إلى أعمالهم وأشغالهم راحوا يتحدثون وزملاءهم عن طهر الأطفال الجنسي. والحق أنه ما إن يُترك الأطفال لسجيتهم أو يقعوا تحت تأثير غواية مغوٍ، حتى يتظاهر لديهم الانحراف الجنسي بقوة تسترعي الانتباه. ولا ريب في أن الكبار على حق إذ لا يحملون هذا «العبث» أو هذه «الصبينات» على محمل الجِدّ المتزمت، لأن الطفل لا يمكن أن يسأل عن أفعاله هذه أمام محكمة الأخلاق ولا أمام محكمة القانون؛ على أن هذا لا ينفي أن هذه الأشياء موجودة، وأنها على جانب من الأهمية، سواء أبصفتها أعراضاً لجِبِلَّة فطرية أم سوابق وعوامل توجيه وحثّ للتطور اللاحق؛ كما أنه لا شك في أنها تفيدنا أخيراً في معرفة حياة الطفل الجنسية، ومن ثم الحياة الجنسية البشرية بوجه عام. فإن وجدنا بعد هذا جميع تلك الرغبات والحاثات المنحرفة وراء أحلامنا المحرَّفة، فالمعنى الوحيد لذلك أن الحلم أنجز في هذا المضمار أيضاً عملية نكوص وتراجع باتجاه الحالة الطفلية.



ينبغي أن نخص بالذكر، من بين تلك الرغبات المحظورة، اشتهاء المحارم، أي الرغبات الجنسية المتجهة إلى الوالدين، أو إلى الإخوة والأخوات. فأنتم تعلمون كم تستهجن المجتمعات الإنسانية، أو كم تتظاهر على الأقل باستهجان حب المحارم، وكم تتشدد في تحريمه وتحظيره. وقد بذل الباحثون جهوداً جبارة لتفسير رهاب[٨] حب المحارم هذا[٩]. وقد رأى بعضهم في تحظير المحارم ترجمة نفسية للانتخاب الطبيعي، على اعتبار أن العلاقات الجنسية بين الأقارب الأقربين تتسبب في انحطاط خصائص النسل، بينما زعم بعضهم الآخر أن الحياة المشتركة منذ الطفولة الأولى تصدّ الرغبات الجنسية عن الأشخاص الذين يكون الفرد على اتصال دائم بهم. لكن لو صحّ هذا الرأي أو ذاك، لكان حب المحارم انتفى من تلقاء نفسه، من دون أن تكون هناك حاجة إلى اللجوء إلى تدابير حظر صارمة، وهي تدابير إن كانت تشهد على شيء فإنما على وجود ميل قوي إلى حب المحارم. أما الأبحاث التحليلية النفسية فقد أثبتت على نحو لا يرقى إليه الشك أن حب المحارم هو أول ما يرى النور من ألوان الحب، وأن وجوده عام ومطرد، وأنه لا يصطدم بمقاومة إلا في طور لاحق، وهي مقاومة يقف علم النفس الفردي عاجزاً في أرجح الظن عن تفسيرها.

لنجمل الآن المعطيات التي ظفرنا بها من الدراسة المعمقة لسيكولوجيا الطفل، والتي من شأنها أن تسهِّل علينا فهم الحلم. فعلاوة على أننا وجدنا أن المواد التي تتألف منها الأحداث المنسية من حياة الطفولة تشقّ طريقها إلى الحلم وتجد لها منفذاً فيه، رأينا أيضاً أن حياة الأطفال النفسية، بما تتسم به من خصائص وأنانية واشتهاء للمحارم، إلخ، تبقى مستمرة في اللاشعور لينجلي عنها الستار في الحلم، وأن هذا الأخير يردّنا كل ليلة إلى الحياة الطفلية. وهذا ما يؤكد لنا أن **لاشعور الحياة النفسية ما هو إلا طورها الطفلي**. وعلى هذا النحو تخفّ قليلاً حدّة ذلك

---

٨ ـ رهاب Phobie: الخوف الشديد المرَضي. «م».

٩ ـ درجت القواميس على ترجمة Inceste بزنا المحارم. وهي ترجمة صائبة. ولكننا نؤثر هنا أن نتكلم عن حب المحارم بدلاً من زنا المحارم، لأن الزنا هو حالة فعلية للحب، والحال أن التعلق المحرمي لدى الأطفال لا يصل إلى طور التفعيل بملء معنى الكلمة. «م».



الانطباع المؤلم الذي يحدثه في نفوسنا ما لاحظناه من وجود سمات شريرة كثيرة في الطبيعة البشرية. فهذه السمات الشريرة المروِّعة هي بكل بساطة العناصر الأولى، العناصر البدائية، الطفلية، من الحياة النفسية، وهي عناصر يمكننا أن نلقاها ناشطة لدى الطفل، لكنها قد لا تقع تحت إدراكنا لأنها تجري في نطاق ضيق، فضلاً عن أننا لا نحفل بها ولا نحملها على محمل الجدّ في كثير من الأحيان، على اعتبار أن المستوى الخلقي الذي نتطلبه من الطفل ليس بالرفيع. وإذ يعود بنا الحلم القهقرى إلى ذلك الطور الطفلي، يكشف لنا في الظاهر عن شرٍّ ما في طبيعتنا. لكن هذا محض ظاهر خداع لا يفترض فيه أن يخيفنا. فنحن لسنا أشراراً بالقدر الذي قد يوحي به تأويل أحلامنا.

فما دامت الحاثات الأثيمة التي تتظاهر في الأحلام لا تعدو أن تكون بقايا ومخلفات طفلية وردّة إلى بدايات تطورنا الأخلاقي، على اعتبار أن الحلم يردنا أطفالاً ـ إن جاز القول ـ في الفكر والعاطفة، فليس ثمة من سبب معقول لأن نخجل من هذه الأحلام. لكن بما أن العقلاني ليس إلا جانباً من جوانب الحياة النفسية التي تنطوي على عناصر أخرى كثيرة، ما هي على الإطلاق بعقلانية، لذلك نظل نشعر بخجل لاعقلاني من أحلامنا. ولذلك أيضاً نخضعها للرقابة، ونستحي بل نحنق ونسخط إذا ما أفلحت واحدة من تلك الرغبات المحظورة التي تربل بها الأحلام في شقِّ طريقها إلى الشعور في صورة غير مموهة تمويهاً كافياً للحؤول دون تعرفها. وقد نخجل في بعض الأحوال حتى من أحلامنا المحرَّفة، كما لو أننا نفهمها حقاً. حسبكم أن تتذكروا الحكم المفعم بالخيبة والمرارة الذي صدر عن تلك السيدة العجوز الكريمة بصدد حلمها غير المؤوَّل عن «خدمات الحب». إذاً ليس لنا أن نعتبر المشكلة بحكم المحلولة؛ ومن الممكن، فيما لو مضينا في دراستنا للعناصر الشريرة التي تتجلى في الأحلام، أن نجد أنفسنا منقادين إلى صوغ حكم آخر وتقييم آخر بخصوص الطبيعة البشرية.

في ختام بحثنا هذا نجدنا أمام معطيين قد يكونان، مع ذلك، منطلقاً لألغاز جديدة وشكوك جديدة. الأول أن النكوص في عمل الحلم ليس شكلياً فحسب،



بل مادي أيضاً. فهو لا يكتفي بأن يسبغ على أفكارنا شكلاً تعبيرياً بدائياً، بل يوقظ أيضاً خصائص حياتنا النفسية البدائية: كلية قدرة الأنا القديمة والحاثات الأولية لحياتنا الجنسية، بل حتى متاعنا العقلي القديم إذا كان من حقنا أن نعتبر الرموز جزءاً من هذا المتاع. والثانية أن كل هذه الطفالة القديمة، التي كانت غالبة سائدة في يوم مضى، ينبغي أن نضعها اليوم في مكانها من اللاشعور، وهذا ما يعدِّل ويوسِّع تصورنا عنه. فاللاشعوري لا يعود صفة تطلق على ما هو كامن بصورة مؤقتة فحسب، بل يؤلف اللاشعور مضماراً نفسياً خاصاً، له ميوله الذاتية وأسلوبه التعبيري الخاص وآليات نفسية لا يتظاهر نشاطها إلا في هذا المضمار. لكن أفكار الحلم الكامنة التي أماط لنا اللثام عنها تأويل الأحلام لا تدخل في نطاق هذا المضمار: فمثل هذه الأفكار قد تعرض لنا أيضاً في حياة اليقظة، ومع ذلك فهي أفكار لاشعورية. فكيف السبيل إلى حلّ هذا الإشكال؟ هنا يخالجنا شعور بضرورة إجراء تمييز: فثمة شيء يأتي من حياتنا الواعية ـ لنسمِّه «البقايا النهارية» ـ ويشاطرها خصائصها، وهذا الشيء يقترن بشيء آخر يأتي من مملكة اللاشعور، ومن هذا الاقتران ينشأ الحلم. وإنما بين هاتين المجموعتين من العناصر يجري عمل الحلم. وما يمارسه اللاشعور على البقايا النهارية من تأثير هو ما ينطوي على شرط النكوص. وتلكم هي أنسب فكرة يمكن لنا أن نكوّنها عن طبيعة الحلم، بانتظار أن نرود ونستشفّ مضامير نفسية أخرى. لكن سيكون لزاماً علينا عما قليل أن نطلق على الطابع اللاشعوري لأفكار الحلم الكامنة اسماً آخر من شأنه أن يفسح في المجال أمامنا للتمييز بينه وبين العناصر اللاشعورية الآتية من مضمار مملكة الطفالة.

في مقدورنا بطبيعة الحال أن نطرح بعد السؤال التالي: ما الذي يفرض على النشاط النفسي مثل ذلك النكوص أثناء النوم؟ ولماذا لا يلغي هذا النشاط التنبيهات المقلقة للنوم بواسطة أخرى غير النكوص؟ ولئن يكن النشاط النفسي مضطراً، كيما يمارس الرقابة، إلى تنكير تظاهرات الحلم بأن يضفي عليها شكلاً تعبيرياً قديماً، مستعصياً على الفهم اليوم، فما يفيده أن يبعث إلى الحياة الحاثات النفسية والأماني والسمات الطبعية التي تمَّ تجاوزها منذ عهد بعيد؟ وبعبارة



أخرى: ما يفيده أن يضيف إلى النكوص الشكلي النكوص المادي؟ إن الجواب الوحيد الكفيل بأن يقنعنا هو أن تلك هي الطريقة الوحيدة لتكوين الحلم، وأنه من المتعذر من وجهة النظر الدينامية أن نتصور طريقة أخرى لإلغاء التنبيه المعكر لصفو النوم. لكن معلوماتنا الراهنة لا تبيح لنا حق الإجابة بهذا الجواب.

المحاضرة الرابعة عشرة

تحقيق الرغبات

سيداتي وسادتي، أثمة موجب لأن أذكِّركم مرة أخرى بالشوط الذي قطعناه؟ أيتعيَّن عليّ أن أعيد إلى أذهانكم كيف أن تطبيق تقنيتنا في التأويل وضعنا في مواجهة تحريف الأحلام، فخطر لنا أن نتخلى عن تقنيتنا مؤقتاً لنلتمسٍ من الأحلام الطفلية أن تزوِّدنا بمعطيات حاسمة بصدد طبيعة الحلم؟ وهل أذكِّركم أخيراً كيف أننا تصدَّينا مباشرة، حالما ظفرنا بالنتائج التي قادتنا إليها هذه الأبحاث، لتحريف الأحلام فذللنا صعوباته الواحدة تلو الأخرى؟ والآن نرانا مضطرين إلى التسليم بأن ما ظفرنا به باتباع أول هذين الطريقين لا يتفق كل الاتفاق مع النتائج التي تحصَّلت لنا من الأبحاث التي قمنا بها في الاتجاه الثاني. لذا، إن المهمة التي تقع على عاتقنا هي أن نقارن بين هاتين المجموعتين من النتائج وأن نوفِّق بينهما.

لقد تبيَّن لنا من كلتا الناحيتين أن جوهر عمل الحلم هو تحويل أفكار إلى خبرة حياتية هلسية. وهذا التحويل واقعة ملغزة يكتنفها الغموض، لكن هذه المشكلة تدخل ضمن نطاق علم النفس العام، وليس لنا أن نشغل أنفسنا بها. وقد أظهرت لنا الأحلامِ الطفلية أن عمل الحلم يرمي، عن طريق تحقيق رغبة ما، إلى إلغاء التنبيه المعكر لصفو النوم. وما كان يسعنا أن نقول الشيء نفسه عن تحريف الأحلام قبل أن نتعلم كيف نؤوِّلها. لكننا كنا نتوقع من البداية أن نتمكن من إرجاع الأحلام المحرَّفة إلى وجهة النظر عينها التي أرجعنا إليها الأحلام الطفلية. وقد تحقق توقعنا هذا عندما خرجنا بنتيجة مؤداها أن الأحلام كلها هي، والحق يقال، أحلام طفلية، وتستخدم مواد طفلية، وحاثات طفلية، وآليات طفلية. وحالما نعتبر أننا قد ذلَّلنا على هذا النحو المسألة الصعبة المتمثلة بتحريف الأحلام،



يتوجب علينا أن ننظر فيما إذا كان تصورنا للأحلام على أنها تحقيق لرغبات وأماني يسري أيضاً على الأحلام المحرَّفة.

لقد قمنا آنفاً بتأويل طائفة من الأحلام، من دون أن نقيم اعتباراً لتحقيق الرغبات. وإني لموقن أنكم تساءلتم غير مرة: «ماذا إذاً بشأن تحقيق الرغبات الذي زعمت أنه هو الهدف من عمل الحلم؟». وهذا سؤال له مدلوله ومغزاه: لأنه هو على وجه التحديد السؤال الذي يطرحه علينا نقادنا من غير أهل العلم والاختصاص. والبشرية، كما تعلمون، تصدّ غريزياً عن كل جديد على صعيد الفكر. ويتجلى هذا الصدود، في ما يتجلى، في أن كل جديد سرعان ما يُحجَّم وتُقلَّص أبعاده ويُجمَّل في صيغة تُلاك وتعاد (كليشه). وفيما يتعلق بنظرية الحلم الجديدة، فإن تحقيق الرغبات هو الذي أصبح تلك الكليشه. فما إن يسمع الناس بأن الحلم تحقيق لرغبات، حتى يتساءلوا من فورهم: لكن أين هو، هذا التحقيق؟ وهم لا يطرحون هذا السؤال إلا ليجدوا له حلاً بالاتجاه السلبي. إنهم يستذكرون خبرات شخصية كثيرة اقترنت فيها الأحلام التي رأوها بأنفسهم بأحاسيس كدر وتنغيص وصلت أحياناً إلى حدّ الحصَر الشديد، ثم لا يلبثون أن يعلنوا أن ما تؤكده النظرية التحليلية بصدد الأحلام بعيد الاحتمال وغير مطابق للواقع البتة. ومن السهل علينا أن نجيب أن تحقيق الرغبات في الأحلام المحرَّفة قد لا يكون واضحاً سافراً، وأنه يتوجب البحث والتفتيش عنه، إذ يتعذر إثبات وجوده قبل تأويل الحلم. ونعلم أيضاً أن رغبات الأحلام المحرَّفة رغبات محرَّمة، ملجومة من قبل الرقابة، وأن وجود هذه الرغبات هو بالتحديد علة تحريف الحلم وسبب تدخل الرقابة. لكن من الصعب بالمقابل أن ندخل في رأس ناقدنا غير المختص حقيقة أن تحقيق الرغبات لا سبيل إلى تقصيه قبل تأويل الحلم. فهو أبداً ناسٍ لهذه الحقيقة. والواقع أن موقفه السلبي من نظرية تحقيق الرغبات لا يعدو أنّ يكون نتيجة من نتائج رقابة الأحلام: فهذا الرفض يقوم بديلاً لديه عن الرغبات التي تطالها يد الرقابة في الأحلام، وينجم عن إنكار هذه الرغبات.

سيتعيَّن علينا بطبيعة الحال أن نعلل وجود ذلك القدر الكبير من الأحلام ذات المضمون الممض، وعلى الأخص أحلام الحصر والكوابيس. وهنا تواجهنا لأول



مرة مشكلة الانفعالات الوجدانية في الأحلام، وهي مشكلة تستأهل أن تدرس على حدة، وهذا ما لا نستطيع، ويا للأسف، أن نقوم به هنا. فإن يكن الحلم تحقيقاً لرغبات، فيلزم من حيث المبدأ ألا ينطوي الحلم على أحاسيس ممضة: وهنا يبدو أن النقاد من غير أهل الاختصاص محقون في اعتراضهم. لكن هؤلاء النقاد غفلوا عن ثلاث نقاط، فيها ما فيها من التعقيد:

أولاً: قد يحدث ألا يوفق عمل الحلم كامل التوفيق في خلق تحقيق لرغبة، فتنتقل رسابة من الانفعالات المؤلمة من الأفكار الكامنة إلى الحلم الظاهر. وعلى التحليل أن يبين في هذه الحال أن هذه الأفكار الكامنة كانت في الأصل أشد إيلاماً بكثير من تلك التي يصاغ منها الحلم الظاهر. وعندئذ نسلِّم بأن عمل الحلم لم يدرك هدفه، تماماً كما أن المرء لا يطفئ عطشه عندما يرى في الحلم أنه يشرب. فمهما يحلم النائم بأنواع الشراب، فلا مناص له من أن يستيقظ ليشرب إن يكن ظمآناً حقاً. على أن الحلم الذي حلم به يبقى مع ذلك حلماً حقيقياً، حلماً لم يفقِده عدم تحقيق الرغبة شيئاً من طبيعته الحلمية. وعلينا في هذه الحال أن نقول: لئن لم نبلغ المرام، فلقد كان القصد على كل حال حميداً[1]. وحالات عدم التوفيق هذه ليست بالنادرة. ومما يزيد في احتمال وقوعها أن تكون الانفعالات على درجة عالية جداً من المقاومة، فيلاقي عمل الحلم عنتاً شديداً في تغيير معناها. وهكذا يحدث، حتى وإن نجح عمل الحلم في تحويل المضمون المؤلم للأفكار الكامنة إلى تحقيق لرغبة، أن ينتقل الانفعال المؤلم المرافق لهذه الأفكار كما هو إلى الحلم الظاهر. وعلى هذا، إن هذا النوع من الأحلام الظاهرة ينطوي على اختلاف وعدم وئام بين الانفعال والمضمون، وهذا ما يتيح لنقادنا أن يعترضوا بأن الحلم أبعد ما يكون عن تحقيق رغبة، إذ يقترن حتى مضمونه الظاهر البريء بمشاعر أليمة. وردّنا على هذه الملاحظة الخرقاء أن الميل إلى تحقيق الرغبات في عمل الحلم تجلى بأجلى صورة في أشباه هذه الأحلام تحديداً، لأنه يكون فيها في حالة انعزال وانفراد. والخطأ مردّه إلى أن أولئك الذين لا معرفة لهم بالأعصبة

---

١ ـ باللاتينية في النص: Est Laudanda Voluntas Ut Desint Viresk Tamen. والشاهد مأخوذ من **فن الشعر** للشاعر اللاتيني أوفيد أو أوفيدوس. «م».



يتخيلون أنه يوجد بين المحتوى الظاهر والانفعال رباط وثيق غير قابل للانفصام، ولا يفهمون أن هذا المحتوى يمكن أن يتحور ويتبدل من دون أن يطرأ تغيير على التظاهرات الانفعالية المرتبطة به.

ثانياً، ثمة نقطة أخرى أشد خطورة وأبعد غوراً لا يقيم لها الناقد من غير أهل الاختصاص وزناً، وتتمثل في ما يلي: فتحقيق الرغبة يفترض فيه بكل تأكيد أن يكون مصدراً للذة. ولكن لمن؟ بطبيعة الحال لصاحب هذه الرغبة. والحال أننا نعلم أن موقف الحالم من رغباته موقف فريد في نوعه؛ فهو يصدّها، ويخضعها للرقابة، وبكلمة واحدة، يريد أن يجهل كل شيء عنها. إذاً فتحقيقها لا يمكن أن يعود عليه بلذة: بل على النقيض من ذلك. وتدل التجربة أن هذا النقيض ـ الذي لا يزال بحاجة إلى تفسير ـ يتظاهر في صورة حصَر. وهكذا يبدو الحالم، في موقفه من رغبات أحلامه، وكأنه مركّب من شخصين مستقلين، وإن ربطت بينهما صلة وثيقة. على أني، بدلاً من أن أتوسع في هذا الموضوع، سأسرد على مسامعكم حكاية معروفة يتكرر فيها هذا الموقف عينه[٢]. لقد وعدت جنية طيبة زوجين فقيرين بتحقيق رغباتهما الثلاث الأوَل. فطفقا، وقد غمرتهما السعادة، يتخيران هذه الرغبات الثلاث. فقد شمت المرأة رائحة سجق تنبعث من الكوخ المجاور، فاشتهت أن تصيب منه قطعتين. فما هي إلا لحظة حتى حضر السجق، فتحققت الرغبة الأولى. فحنق الرجل وتمنى لو رأى السجق معلقاً على أنف زوجته. فما كاد يفعل حتى كان له ما أراد، فلصق السجق بأنف زوجته واستعصى انفصاله عنه. فتحققت الرغبة الثانية، رغبة الزوج هذه المرة. ولا داعي لأن أقول لكم أن ما جنته المرأة من ذلك كله لم يكن مما يُستحب على الإطلاق. وأنتم تعرفون التتمة. فبما أن الرجل والمرأة يؤلفان على كل حال زوجاً واحداً، الرجل وزوجته، فإن الرغبة الثالثة لا بدّ أن تكون انفصال السجق عن أنف الزوجة. وبوسعنا إذا شئنا، أن نستخدم هذه الحكاية في مناسبات أخرى كثيرة. لكنها تفيدنا هنا في بيان أن تحقيق رغبة

٢ ـ هي قصة **الأمنيات الثلاث** للكاتب السويسري يوهان بيتر هيبل (١٧٦٠ ـ ١٨٢٦). هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.



واحدهما لا يمكن إلا أن يكون مصدر إزعاج كبير للثاني، إذ لم يكن بينهما وفاق وتفاهم.

لن يشقّ علينا الآن أن نفهم فهماً أفضل الكوابيس. ولن نورد بعد الآن سوى ملاحظة واحدة لننتهي بعدها إلى فرضية نملك أن نسوق في تأييدها حججاً شتى. والملاحظة التي أشير إليها تتصل بواقع أن الكوابيس كثيراً ما يكون لها مضمون بريء من أي تحريف، وكأنه أفلت من الرقابة إن جاز القول. فالكابوس هو في الغالب تحقيق غير مقنَّع ولا متنكرٍ لرغبة من الرغبات، ولكن هذه الرغبة ليست مما يرحِّب به الحالم، بل هي على العكس مما ينبذه ويصدّ عنه. والحصر، الذي يرافق تحقيق هذه الرغبة، ينوب مناب الرقابة. وعلى حين أنه يمكننا القول عن الحلم الطفلي إنه تحقيق صريح سافر لرغبة مقبولة مجازة، وعن الحلم المحرَّف العادي إنه تحقيق مقنَّع لرغبة مكبوتة، فلا تعريف ممكن للكابوس إلا على أنه تحقيق صريح سافر لرغبة مشجوبة. والحصر مؤشر إلى أن الرغبة المشجوبة أقوى من الرقابة، وإلى أنها تحققت أو كانت قيد التحقيق بالرغم من الرقابة. ويسير علينا أن ندرك، نحن الذين نقول بوجود الرقابة، أن تحقيق تلك الرغبة لا يمكن أن يظهر إلا وكأنه مصدر لمشاعر مؤلمة، ومناسَبة لاتخاذ موقف دفاعي. وما الشعور بالحصر الذي يراود المرء أثناء الحلم ـ إن شئتم ـ إلا حصر حيال قوة هذه الرغبات التي يكون قد أفلح في قمعها حتى ذلك الحين. غير أن دراسة الأحلام وحدها لا تكفي لتبيِّن لنا لماذا يتبدى هذا الدفاع في صورة حصر. وهذا موضوع سنعالجه في مرة قادمة[٣].

إن ما يصدق على الكوابيس غير المحرَّفة لا بدّ أن يصدق أيضاً على تلك التي أصابها تحريف جزئي، وكذلك على أحلام مزعجة أخرى تقترن بمشاعر مؤلمة شبيهة في أرجح الظن بالحصر. والكابوس غالباً ما تعقبه يقظة: فنومنا ينقطع في أغلب الأحيان قبل أن تصل رغبة الحلم الملجومة إلى تحقُّقها الكامل رغم أنف الرقابة. وفي هذه الحال يكون الحلم قد أخفق في أداء وظيفته، من دون أن تتغير

٣ ـ سيفرد فرويد محاضرة خاصة لموضوع الحصَر، هي الخامسة والعشرون في سلسلة هذه المحاضرات. «م».



طبيعته من جراء ذلك. وكنا قد شبهّنا الحلم بالحارس الليلي، بذاك الذي يوكل إليه أمر حماية نومنا من كل ما من شأنه أن يعكر صفوه. وقد يضطر الحارس إلى إيقاظ النائم إذا ما شعر بأنه أضعف من أن يدرأ وحده الانزعاج أو الخطر. غير أننا قد نفلح أحياناً في مواصلة النوم، حتى ولو شرع الحلم بالتحول إلى حصر وسبَّب لنا ضيقاً، إذ نقول بيننا وبين أنفسنا ونحن نيام: «ما هذا إلا حلم»، ونستمر في النوم.

كيف يتفق أن تكون الرغبة الحلمية قوية بما فيه الكفاية لتظهر على الرقابة وتفلت منها؟ قد يكون مردّ ذلك إلى الرغبة كما إلى الرقابة على حد سواء. فلأسباب مجهولة يمكن للرغبة، في آن من الآونة، أن تكتسب شدة مفرطة، لكن يلوح لنا أن هذا التغير في ميزان القوى المتواجهة مرجعه في أكثر الأحيان إلى الرقابة. وقد رأينا من قبل أن الشدة التي تفصح بها الرقابة عن نفسها تتفاوت من حالة إلى أخرى، فتعامل العناصر المختلفة بصرامة متفاوتة الدرجة أيضاً. وبوسعنا أن نضيف الآن أن هذا التفاوت لا ينحصر بذلك، إذ إن الرقابة لا تعامل حتى العنصر الواحد المستأهل للمنع والحظر بصرامة متساوية. فإن اتفق لها في حالة بعينها أن وجدت نفسها عاجزة حيال رغبة حلمية تسعى إلى خداعها والإفلات من قبضتها، لجأت إلى آخر وسيلة في جعبتها ـ بعد امتناع التحريف عليها ـ واستظهرت عليها بالخروج من حالة النوم تحت ضغط تمخُّض الحصر.

وليس لنا إلا أن نلاحظ في هذا الصدد أننا نجهل لماذا لا تتظاهر هذه الرغبات المرذولة والمقموعة إلا في أثناء النوم تحديداً، فتعكر علينا صفوه. وما من سبيل إلى الإجابة عن هذا السؤال إلا إذا أخذنا طبيعة حالة النوم بعين الاعتبار. ففي أثناء النهار تكون هذه الرغبات خاضعة لرقابة صارمة تحظر عليها بوجه عام كل تظاهر خارجي. لكن هذه الرقابة تنتفي ليلاً، شأنها في ذلك شأن الكثير من اهتمامات الحياة النفسية، أو يصيبها على كل حال وهن شديد لصالح رغبة واحدة هي الرغبة في النوم. وتدين الرغبات المحرمة لتعطل الرقابة هذا أثناء النوم بإمكانية تظاهرها من جديد. وقد أقر لنا عصبيون، ممن يعانون الأرق، بأن أرقهم كان في



أول الأمر مقصوداً مراداً. فخوفهم من الأحلام وخشيتهم من عواقب وهن الرقابة كانا يحولان بينهم وبين الاستسلام لداعي النوم. وأما أن تعطل الرقابة أثناء النوم ليس دليلاً على استهتار وعدم تبصر، فسهل عليكم تبيُّن ذلك وإدراكه. فحالة النوم تشلّ قدرتنا على الحركة، ومن ثم، إن نوازعنا الشريرة لا تستطيع، مهما نشطت، أن تبتعث فينا إلا أحلاماً، والأحلام لا ضرر منها في نهاية المطاف. وهذا الوضع الذي يبعث على الاطمئنان يجد تعبيره في تلك الملاحظة العاقلة التي يلاحظها النائم ـ ملاحظة هي جزء من الحياة الليلية، ولكنها ليست جزءاً من حياة الحلم ـ إذ يقول بينه وبين نفسه: «ما هذا إلا حلم». فبما أن الأمر لا يعدو أن يكون حلماً، فلندعه يفعل ما يشاء، ولنواصل النوم.

ثالثاً، لو تذكرتم التشابه الذي أقمناه بين الحالم المصارع رغباته وبين الشخص الوهمي المركَّب من شخصيتين متميزتين ومترابطتين مع ذلك برباط وثيق، لأدركتم بسهولة أن هناك سبباً آخر يحتِّم أن يكون لتحقيق الرغبات مفعول مستكره للغاية، هو مفعول العقاب. فلنعد إلى حكاية الرغبات الثلاث: فالسجق على طبق تحقيق مباشر لرغبة الشخص الأول، أي الزوجة، والسجق على أنف الزوجة تحقيق لرغبة الشخص الثاني، أي الزوج، لكنه أيضاً عقاب للمرأة على رغبتها الخرقاء. وفي دراساتنا للأعصبة سنهتدي إلى تعليل ثالثة الرغبات التي هي الرغبة الوحيدة التي تبقى معلقة في الحكاية. والحال أن حياة الإنسان النفسية تزخر بمثل هذه النوازع العقابية، وهي نوازع على جانب كبير من القوة، ومسؤولة عن شطر واسع من أحلامنا الممضة. وقد تعترضون عليّ هنا بأن التسليم بهذا كله لا يذر شيئاً يذكر من التحقيق المزعوم للرغبات. لكن لو أنعمتم النظر لأدركتم أنكم على خطأ من أمركم. فصحيح أننا لو وازنّا بين التنوع الذي يمكن أن تكون عليه الأحلام (وسنناقش هذا التنوع لاحقاً) والذي هي كائنة عليه فعلاً بحسب ما يرى بعض الباحثين، فإن تعريفنا للحلم أنه **تحقيق لرغبة أو لنقيضها من خوف أو عقاب** سيبدو بالفعل تعريفاً محدوداً ضيقاً. وهذا فضلاً عن أن الخوف والحصر ضدان للرغبة. ولكن يجب ألا يفوتكم أن الأضداد لصيقة ببعضها بعضاً في تداعي الأفكار، بل قد يتداخل واحدهما بالآخر، كما نعرف، في اللاشعور.



وغني عن البيان أيضاً أن العقاب نفسه تحقيق لرغبة، رغبة شخص آخر، الشخص الذي يراقب ويعاقب.

هكذا ترون أني لم أتراجع قيد أنملة إزاء تحيزكم ضد نظرية تحقيق الرغبات. بل من واجبي ـ ولست أريد أن أتنصل منه ـ أن أريكم أن أي حلم محرَّف، أياً يكن نوعه، لا يعدو أن يكون تحقيقاً لرغبة. تذكَّروا الحلم الذي سبق لنا تأويله والذي خرجنا منه بكثرة من الأشياء الطريفة: الحلم الذي يدور حول ثلاثة مقاعد غير مناسبة في المسرح لقاء فلوران ونصف فلوران. فقد أخبر الزوج زوجته أن صديقتها ليزا، التي تصغرها بثلاثة أشهر فقط، قد خطبت، فرأت الزوجة في المنام أنها ذهبت برفقة زوجها إلى المسرح. وكان قسم من المقاعد الأمامية شبه خاوٍ. فقال لها زوجها إن إليزا وخطيبها كان بودّهما هما أيضاً حضور المسرحية، ولكنهما ما استطاعا ذلك، إذ لم يجدا سوى ثلاثة مقاعد غير مناسبة بفلوران ونصف فلوران، وكان تعليقها على ذلك أنه لم يضع عليهما شيء كثير. وقد علمنا أن أفكار الحلم ذات صلة بندمها على زواجها المبكر وببرمها بزوجها وعدم رضاها عنه. والمفروض أن يدفع بنا الفضول هنا إلى أن نستطلع كيف صيغت هذه الأفكار الكئيبة وحوِّلت إلى تحقيق لرغبة، وأين تكمن آثارها في الحلم الظاهر. والحال أننا نعلم من قبل أن عنصر «التبكير» و«التعجُّل» قد حذفته الرقابة من الحلم. والمقاعد الأمامية الخاوية إشارة إلى ذلك وتلميح. أما لغز «الثلاثة مقاعد بفلوران ونصف فلوران» فهو يتجلى الآن لنا بمزيد من الوضوح والفهم بعد أن عرفنا ما عرفناه عن الرمزية في الأحلام[٤]. فالرقم ٣ يشير فعلاً إلى رجل، والعنصر الظاهر قابل بسهولة للترجمة: شراء زواج بالبائنة («كنت أستطيع ببائنتي أن أشتري زوجاً أفضل بعشر مرات»). والذهاب إلى المسرح بديل بيِّن عن الزواج، و«التذاكر التي بكّرت المرأة بشرائها» هي بمثابة تنكير لفكرة «تعجُّلها بالزواج». لكن هذا الإبدال هو من عمل تحقيق الرغبة. فصاحبة الحلم لم تسخط قط على زواجها المبكر كما سخطت عليه يوم علمت بنبأ خطوبة صديقتها. فقد

٤ ـ لا أورد هنا تأويلاً آخر ممكناً للرقم ٣ في حلم امرأة عاقر، بالنظر إلى افتقارنا للمواد التي كان يمكن أن يقدمها التحليل.



مرَّ عهد من الزمن كانت تتباهى فيه بزواجها وتتفاخر على إليزا. والساذجات من الفتيات كثيراً ما يطيب لهن، متى ما عقدت خطوبتهن، أن يعبِّرن عن فرحهن وابتهاجهن بذلك، إذ يغدو كل شيء مباحاً لهن، فيقبلن على مشاهدة التمثيليات وعلى حضور العروض المسرحية طراً. ولا ريب في أن الفضول إلى رؤية كل شيء، كما يتجلى هنا، كان في بادئ الأمر فضولاً جنسياً ومتركزاً على الحياة الجنسية، ولاسيما الحياة الجنسية للوالدين، ثم تحوَّل بعد ذلك إلى دافع جارف حفز الفتاة على التبكير بالزواج.

هكذا يغدو حضور المسرحية بديلاً يمكننا أن نحدس بما فيه من تلميح إلى واقعة الزواج. فهذه السيدة، التي باتت نادمة في الوقت الحاضر على زواجها المبكر، نكصت إلى العهد الذي كان فيه هذا الزواج يحقق رغبة لها، لما كانت تفترضه من أنه سيتيح لها إمكانية إشباع حبها للعروض المسرحية. وبإيحاء من تلك الرغبة القديمة استبدلت واقعة الزواج بواقعة الذهاب إلى المسرح.

بوسعنا أن نقول إن المثال الذي اخترناه لنثبت وجود تحقيق لرغبة مستترة لم يكن من أكثر الأمثلة توفيقاً. ولكن ليس لنا إلا أن نسلك هذا المسلك عينه في تأويلنا لأي حلم محرَّف آخر. وبما أني لست بمستطيع أن أفعل ذلك أمامكم، فسأكتفي بأن أطمئنكم إلى أن هذا المسلك يكلَّل دوماً بالنجاح. غير أني أودّ أن أتوقف قليلاً عند هذا الجانب التفصيلي من جوانب النظرية. فقد دلتني التجربة على أنه أكثر جوانب نظريتنا عرضة للتهجم والانتقاد، وعليه تنصب أكثر المناقضات وضروب سوء الفهم. وقد يساوركم، فضلاً عن ذلك، انطباع بأنني تراجعت عن بعض توكيداتي، عندما قلت لكم إن الحلم رغبة محققة أو نقيضها، أي حصر أو عقاب متحقق، وقد ترون أن الفرصة سانحة لانتزاع تنازلات أخرى مني. وقد أخذ الآخذون عليّ كذلك أنني أعرض باقتضاب شديد، وبالتالي بطريقة لا تقنع إقناعاً كافياً، أشياء لا تبدو بديهية إلا في نظري أنا.

إن الكثيرين ممن تابعوني في تأويل الحلم وقبلوا بالنتائج التي تمخض عنها يتوقفون في أكثر الأحوال عند النقطة التي تنتهي إليها برهنتي من أن الحلم تحقيق لرغبة، ويتساءلون: «إذا سلَّمنا بأن للحلم على الدوام معنى، وبأن التقنية التحليلية



النفسية قادرة على الكشف عن هذا المعنى، فما الداعي لأن يُصبّ الحلم على الدوام، ورغم أنف البداهة، في قالب تحقيق لرغبة؟ ولماذا لا يكون لأفكارنا في أثناء النوم معانٍ متعددة ومتنوعة نظير تلك التي تراودنا في حالة اليقظة؟ وبعبارة أخرى، ما الذي يمنع أن يكون الحلم تارة تحقيقاً لرغبة، وطوراً لنقيضها، كما تقرّ أنت نفسك، أي تحقيقاً لقلق وتخوف؟ ولمَ لا يكون تعبيراً عن قصد، أو تحذير، أو موازنة لأمر بما له وما عليه، أو كذلك عن ملامة، أو وخز ضمير، أو محاولة للتهيؤ لعمل وشيك، إلخ؟ وما الذي يحتم أن يكون على الدوام محض تعبير عن رغبة، أو عن نقيضها في أحسن تقدير؟».

قد تتصورون أن الخلاف بصدد هذه النقطة عديم الأهمية متى ما اتفقنا على النقاط الأخرى، وأنه يكفينا أن نكون قد اكتشفنا معنى الحلم والسبيل إلى التعرف إليه، ثم لا يعنينا بعد ذلك أن نكون قد جعلنا لهذا المعنى حدوداً أضيق مما ينبغي. لكن ليس كذلك واقع الأمر. فسوء التفاهم بصدد هذه النقطة من شأنه أن ينتقص من قدر جميع المعارف التي تحصلت لنا حول الحلم، وأن يقلل مما يمكن أن يكون لها من قيمة وأهمية عندما سنتصدى لفهم الأمراض العصابية. قد يكون التسامح واللين جائزين في الأعمال التجارية، لكن موقفاً كهذا غير مقبول في المسائل العلمية، بل قد يكون ضاراً أيضاً.

إذاً لمَ لا يجوز أن يكون الحلم شيئاً آخر غير تحقيق لرغبة؟ جوابي الأول عن هذا السؤال سيكون، كما في كل الحالات المماثلة، هو: لست أدري لماذا لا يكون كذلك، وأنا على كل حال لا أمانع في ذلك. لكنه في الواقع ليس كذلك، وهذه هي النقطة التفصيلية الوحيدة التي تناوئ هذا التصور الأوسع والأنسب للحلم. وسيكون جوابي الثاني أنني أنا نفسي أجنح إلى التسليم بأن الحلم يتطابق مع أشكال متعددة من التفكير والعمليات العقلية. وهذه فكرة ليست بجديدة عندي. فقد سجلت ذات يوم ـ أثناء دراستي لحالة مرضية[٥] ـ حلماً تكرر ثلاث ليالٍ على التوالي ثم انقطع، وفسّرت ذلك بأن هذا الحلم كان

٥ ـ الإحالة هنا إلى بحث فرويد **شذرات من تحليل حالة هستيريا: دورا**. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.



صدى لنية كان الحالم قد عقد العزم على وضعها موضع تنفيذ، فلما فعل لم يعد ثمة داعٍ لأن يتكرر الحلم. ونشرت بعد ذلك تفاصيل حلم هو بمثابة اعتراف[٦]. فكيف أستطيع إذاً أن أناقض نفسي، فأجزم بأن الحلم لا يكون أبداً إلا رغبة متحققة؟

أفعل ذلك كي أبعد عنكم سوء فهم ساذج من شأنه أن يذهب بثمرة الجهود التي استأدانا إياها الحلم أدراج الرياح، سوء فهم يخلط الحلم بأفكار الحلم الكامنة ويطبِّق على الأول ما لا يصدق إلا على الثانية. فلا جدال في أن الحلم يستطيع أن يمثِّل كل ما عدَّدناه أعلاه وأن يكون بديلاً عنه: قصد، تحذير، تفكير، تهيؤ، محاولة حلّ مشكلة، إلخ. لكن لو أمعنتم النظر في الأمر، فلن يفوتكم أن تتبينوا أن ذلك لا يصدق إلا على أفكار الحلم الكامنة التي أصابها ما أصابها من تحوُّل فصارت حلماً. فمن تأويل الأحلام تعلمون أن فكر الإنسان اللاشعوري يدور على مقاصد ومشاريع واستعدادات وضروب من التفكير تحوِّلها عملية الصياغة إلى أحلام. فإن صرفتم النظر في لحظة ما عن عمل الحلم، وركَّزتم كل اهتمامكم على تفكير الإنسان اللاشعوري، أسقطتم عمل الحلم من حسابكم وقلتم بحق إن الحلم يطابق نية ما أو تحذيراً ما، إلخ. وهذه حالة متواترة في العمل التحليلي النفسي: فنحن نسعى إلى تفكيك الشكل الظاهر الذي تلبَّسه الحلم لنصل منه إلى الأفكار الكامنة التي عنها نشأ الحلم.

وهكذا يتأتى لنا أن نعلم عرضاً، عندما لا نقيم اعتباراً لغير الأفكار الكامنة، أن جميع تلك الأفعال النفسية البالغة التعقيد التي عدَّدناها لتوِّنا تتمّ خارج نطاق الشعور: وهذه نتيجة عظيمة رائعة بقدر ما هي مربكة!

لكن لنعد إلى تعدد المعاني التي يمكن أن تكون للأحلام. فليس يحقّ لكم الكلام عن هذا التعدد إلا إذا قرّ في أذهانكم عن علم ودراية أنكم تستخدمون تعبيراً مقتضباً ولم يساوركم الاعتقاد بأنه يتعيَّن سحب ذلك التعدد على طبيعة الحلم نفسها. فعندما تتكلمون عن «الحلم»، يجب أن يكون نصب أعينكم إما

---

٦ ـ الإحالة هنا إلى مقال فرويد: **حلم كأداة للبرهان**. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.



الحلم الظاهر، أي نتاج عمل الحلم، وأما هذا العمل نفسه على أكثر تقدير، أي العملية النفسية التي تصوغ الحلم الظاهر من أفكار الحلم الكامنة. وأي استعمال آخر لهذه الكلمة ليس من شأنه إلا أن يزرع اللبس وسوء الفهم. فإن قصدتم بكلامكم الأفكار الكامنة فيما وراء الحلم، فقولوا ذلك مباشرة وصراحة، من دون أن تحجبوا مشكلة الحلم خلف ستار الأسلوب المبهم الذي تعتمدونه في التعبير. إن الأفكار الكامنة هي المادة التي يحوِّلها عمل الحلم إلى حلم ظاهر. فما الداعي لأن تخلطوا بين المادة وبين العملية التي تعطيها شكلاً؟ وبمَ تتميزون حينئذ عن أولئك الذين لا يعرفون سوى نتاج هذه العملية، من دون أن تتوفر لهم المقدرة على أن يفسروا من أين جاء هذا النتاج وكيف تكوّن وتشكّل؟

إن العنصر الجوهري الوحيد في الحلم هو عمل الحلم الذي يفعل في المادة المكوَّنة من أفكار. ولا يحقّ لنا أن نغفل عن ذلك نظرياً، حتى لو اضطررنا إلى التغاضي عنه في بعض المواقف العملية. وتدلنا المشاهدة التحليلية النفسية أيضاً أن عمل الحلم لا يقنع بأن يعطي تلك الأفكار التعبير الأثري أو النكوصي الذي تعلمون، بل يضيف إليها على الدوام شيئاً لا ينتمي إلى الأفكار الكامنة للنهار السابق للحلم، لكنه يشكل إن جاز القول القوة المحركة لصياغة الحلم. وما هذه الإضافة الضرورية إلا الرغبة التي هي بدورها لاشعورية، وما الغرض من التحويل الذي يطرأ على محتوى الحلم إلا تحقيق هذه الرغبة. وبقدر ما ترون إلى الحلم من منظور الأفكار التي يمثّلها، يكون له من المعاني بقدر ما تشاؤون: تحذير، تصميم، تهيؤ، إلخ، لكنه يكون في الوقت نفسه وعلى الدوام تحقيقاً لرغبة لاشعورية، وهو لا يكون إلا كذلك إذا ما رأيتم إليه باعتباره نتاج عمل الحلم. إذاً فالحلم ليس على الإطلاق محض تصميم أو محض تحذير، إلخ، بل هو على الدوام تصميم أو تحذير تلبَّس، بفعل رغبة لاشعورية، شكلاً تعبيرياً أثرياً، وأصابه ما أصابه من تحول وتبدل بغية تحقيق هذه الرغبة. وثانية هاتين الصفتين، أي تحقيق الرغبة، صفة دائمة ثابتة، أما أولاهما فمتغيرة: فقد تكون هي أيضاً رغبة، وعندئذ يمثل الحلم رغبة كامنة من رغبات النهار السابق له تحققت بمعونة رغبة لاشعورية.

إن كل ما سردته على مسامعكم يبدو لي مفهوماً تمام الفهم، لكنني لا أدري



هل وُفِّقت إلى أن أجعله مفهوماً لكم أيضاً. ذلك أنه يعسر عليَّ إقامة البرهان عليه. فهذه البرهنة تقتضي، من جهة أولى، تحليلاً دقيقاً لعدد غفير من الأحلام، وهذه النقطة الشائكة والأبلغ دلالة من نقاط تصورنا للأحلام لا يمكن عرضها، من جهة أخرى، عرضاً مقنِعاً من دون ربطها بما لم نتحدث عنه بعد. فهل لكم أن تتصوروا حقاً، وأنتم على علم بما بين الأشياء من روابط وثيقة، أنه في مقدورنا أن نتعمق ونتبحر في دراسة طبيعة ظاهرة من الظاهرات من دون أن نبالي بالظاهرات الأخرى التي من طبيعة مماثلة؟ وبما أننا لا نعلم شيئاً بعد عن الظاهرات التي تقترب من الأحلام أكثر من غيرها، أعني الأعراض العصابية، فلا معدى لنا عن الاكتفاء بما ظفرنا به مؤقتاً من معلومات. ولن أزيد على أن أسرد لكم مثالاً إيضاحياً آخر، وألفت انتباهكم إلى نقطة جديدة.

لنعد مرة أخرى إلى ذلك الحلم الذي استشهدنا به مراراً، أعني الحلم الذي يدور موضوعه على ٣ مقاعد في المسرح بفلوران ونصف فلوران. وبوسعي أن أؤكد لكم أنني عندما اخترته كمثال للمرة الأولى، لم يكن ذلك عن قصد معيَّن. وأنتم تعرفون أفكار هذا الحلم الكامنة: ندم السيدة على التبكير في الزواج عقب سماعها بنبأ خطوبة صديقتها، شعورها بالازدراء حيال زوجها، تصورها بأنها كانت ستحصل على زوج أفضل لو ارتضت بالانتظار. وأنتم تعرفون أيضاً الرغبة التي جعلت من جميع هذه الأفكار حلماً: حب العروض المسرحية واشتهاء ارتياد المسارح؛ وأكبر الظن أن هذه الرغبة تفرعت عن الفضول القديم إلى معرفة ما يحدث فعلاً بعد أن تتزوج. ومعلوم أن هذا الفضول لدى الأطفال يتجه بصورة عامة نحو حياة الوالدين الجنسية؛ هو إذاً فضول طفلي، وبقدر ما يتأتى له أن يبقى ويدوم لاحقاً، فإنه يشكل حاثة غريزية تتأثل جذورها في الطور الطفلي من الحياة. غير أن النبأ الذي بلغ الزوجة في النهار السابق لحلمها لم يقدم من تعلّة البتة لحبّ المسرح لديها، بل كان كل شأنه أن حرّك ندمها وابتعث حسرتها. إذاً فهذه الحاثة الرغبية لم تكن تندرج في بادئ الأمر في عداد أفكار الحلم الكامنة؛ وقد كان في مقدورنا بالتالي، من دون أن نقيم لها وزناً، أن ندرج في التحليل نتيجة تأويل الحلم. لكن الاستياء كذلك ما كان له أن يستحدث الحلم. فالفكرة



التي راودتها: «كان بعداً عن المنطق إذ تعجلت إلى هذا الحد في زواجي» ما كان لها أن تولِّد حلماً إلا بعد أن أيقظت الرغبة القديمة في معرفة ما يحدث فعلاً بعد الزواج. وعندئذ شكلت هذه الرغبة مضمون الحلم، بأن استبدلت الزواج بالذهاب إلى المسرح، وأعطته شكل تحقيق لحلم قديم: «أجل، في مقدوري أنا أن أذهب إلى المسرح وأن أرى كل ما هو محظور، بينما أنتِ لا تستطيعين ذلك. فأنا متزوجة، أما أنت فعليك أن تنتظري بعد». هنا يكون الموقف الراهن قد قلب إلى ضده، وأُحِلَّ فوز قديم محل إحباط حديث، فكان مزيج من إشباع لحب المسرح ومن إرضاء أناني متأتٍّ من الفوز على مزاحِمة ومنافِسة. وهذا الإرضاء هو الذي حدد مضمون الحلم الظاهر، فإذا بالسيدة ترى نفسها، بحسب هذا المضمون، في المسرح، بينما تعذر على صديقتها الذهاب إليه. وإلى هذا الموقف الباعث على الرضى انضافت، في صورة تعديلات وتحويرات مستغلقة على الفهم ولا صلة لها بالموقف المشار إليه، أجزاء تندرج في عداد مضمون الحلم وتستتر خلفها الأفكار الكامنة. وعلى تأويل الحلم أن يضرب صفحاً عن كل ما يفيد في التمثيل المجازي لإشباع الرغبة وأن يعيد، طبقاً لهذه المؤشرات، بناء أفكار الحلم الكامنة المؤلمة.

أما النقطة التي أردت أن ألفت انتباهكم إليها فالغرض منها أن تركزوا اهتمامكم على الأفكار الكامنة التي باتت تحتل الآن مكانة الصدارة. وإني أرجو ألا تنسوا أموراً ثلاثة: أولاً، إن الحالم لا يعي هذه الأفكار البتة، ثانياً، إنها معقولة ومفهومة ومتلاحمة إلى أقصى حدّ، بحيث يمكن اعتبارها استجابات طبيعية تماماً للحدث الذي استثار الحلم، ثالثاً وأخيراً، إنه قد يكون لها من القيمة ما لأي حالة نفسية أو لأي عملية فكرية. وسأطلق الآن على هذه الأفكار اسم «**البقايا النهارية**»، وهو اصطلاح يعطيها معنى أدق من ذي قبل. ولا يهمّ أصلاً إن اعترف الحالم أو لم يعترف بأن هذه البقايا تعود إليه. وأقيم بعد ذلك تمييزاً بين البقايا النهارية والأفكار الكامنة؛ وطبقاً لما سرنا عليه من استعمال لهذا الاصطلاح الأخير سأشير بالأفكار الكامنة إلى كل ما يعلمنا به تأويل الحلم، على اعتبار أن البقايا النهارية لا تعدو أن تكون جزءاً من الأفكار الكامنة. وعندئذ نقول إن ثمة



شيئاً ينتمي إلى دائرة اللاشعور انضاف إلى البقايا النهارية، وأن هذا الشيء هو رغبة جامحة لكنها ملجومة، وأن هذه الرغبة هي وحدها التي جعلت تكوين الحلم ممكناً. والتأثير الذي كان لهذه الرغبة على البقايا النهارية حتَّم بزوغ أفكار كامنة أخرى لا يمكن اعتبارها هذه المرة معقولة وقابلة للتفسير بحياة اليقظة.

تمثيلاً على العلاقات القائمة بين البقايا النهارية والرغبة اللاشعورية كنت قد استخدمت، في غير هذا المكان، تشبيهاً لا أجد مناصاً من العودة إليه هنا. فكل مشروع يحتاج إلى رأسمالي يتولى الإنفاق، وإلى مقاول تكون لديه عن ذلك فكرة ويعرف كيف ينفِّذها. والرغبة اللاشعورية هي التي تقوم على الدوام بدور الرأسمالي في تكوين الحلم، فهي التي تتولى تقديم الطاقة النفسية اللازمة لهذا التكوين. أما المقاول فتمثِّله هنا البقية النهارية التي تحدِّد كيفية استخدام هذا الرأسمال، هذه الطاقة. والحال أن الرأسمالي نفسه هو الذي يكون في بعض الأحوال صاحب الفكرة ومالك المعارف الخاصة التي يتطلَّبها تنفيذها، كما يكون المقاول نفسه في أحوال أخرى مالك الرساميل اللازمة لإقامة المشروع. وهذا من شأنه أن يبسِّط الموقف العملي وأن ييسِّره، ولكنه يجعل فهمه النظري أكثر صعوبة. وقد درجت العادة في الاقتصاد السياسي على تقسيم هذا الشخص الواحد، وعلى التمييز بين وجه الرأسمالي ووجه المقاول فيه، وفي هذا الفصل والتمييز صورة للموقف الأصلي الذي اتخذناه نقطة انطلاق لمماثلتنا. على أن الاحتمالات والتنوعات عينها قد تنشأ في تكوين الأحلام، وسأترك لكم حرية تتبعها وملاحظتها بأنفسكم.

وليس يسعنا، هنا، أن نمضي إلى أبعد من ذلك، إذ إنني أشتبه في أن ثمة سؤالاً يبلبل أذهانكم ويستأهل أن نأخذه أخيراً في اعتبارنا. فأنتم قائلون ولا ريب: هل البقايا النهارية لاشعورية حقاً بنفس المعنى الذي نفهم به الرغبة اللاشعورية التي لا غنى عن تدخلها لكيما تمتلك تلك البقايا المقدرة على استحداث الحلم؟ هذا سؤال مشروع تماماً. وطرحكم إياه دليل على حصافتكم، إذ تلك هي النقطة البارزة في الموضوع كله. وإني لأوافقكم على أن البقايا النهارية ليست لاشعورية بالمعنى الذي نطلقه على الرغبة اللاشعورية. فالرغبة



تنتمي إلى طراز آخر من اللاشعور، هو ذاك الذي رأينا أنه طفلي الأصل وأن له آلياته الخاصة. ومن المستحسن على كل حال أن نميِّز بين هذين النوعين من اللاشعور بإطلاقنا على كل منهما اسماً خاصاً. لكننا لن نفعل ذلك قبل أن نلمّ بفينومينولوجيا الأمراض العصابية ونألفها. وقد أخذ الآخذون على نظريتنا إغراقها في الخيال لأننا نصادر على وجود لاشعور واحد، فما عساهم يقولون لو اعترفنا بأننا بحاجة إلى لاشعورين اثنين على الأقل لتلبية مطالب بحثنا؟

لنقف عند هذا الحدّ. صحيح أنكم لم تستمعوا بعد إلا إلى تصورات ناقصة غير كاملة، لكن أليس مما يبعث على الاطمئنان أن نفترض أن هذه المعلومات قابلة للتطوير إما عن طريق بحوث قد نقوم بها نحن، أو عن طريق بحوث يقوم بها من يأتون بعدنا؟ ثم ألم يكن ما اكتسبناه جديداً ومدهشاً رائعاً بحدّ ذاته؟



المحاضرة الخامسة عشرة

شكوك وانتقادات

سيداتي وسادتي، لا أريد أن أترك موضوع الأحلام من دون أن أتوقف عند الشكوك والريب الرئيسية التي قد تثيرها التصورات الجديدة التي عرضناها فيما سلف. ومن تتبعني من سامعيّ بشيء من الانتباه، فلا بدّ أن تكون قد اجتمعت لديه طائفة من التساؤلات حول هذا الموضوع.

١ ـ قد يكون ساوركم انطباع بأن النتائج التي خرجنا بها من مجهودنا التأويلي يكتنفها، رغم التطبيق الصحيح لتقنيتنا، قدر كبير من الشكوك، بحيث يستحيل رد الحلم الظاهر إلى أفكاره الكامنة على نحو محقق جازم. وقد تقولون في تأييد رأيكم هذا، أولاً، إن المرء لا يدري إن كان يتعيَّن عليه أن يفهم هذا العنصر أو ذاك على معناه الحرفي أو على معناه الرمزي، لأن الأشياء التي تستخدم كرموز لا تتغير عما هي عليه بحكم ذلك. وبما أننا لا نملك بصدد هذه النقطة أي معيار للحكم الموضوعي، فإن التأويل يكون رهناً، والحالة هذه، بعسف المؤوِّل. ثانياً، وبالنظر إلى أن عمل الحلم يرصف الأضداد بعضها بجانب بعض في الحلم، فإن المرء لا يسعه إطلاقاً أن يعرف على وجه اليقين إن كان يتعيَّن عليه أن يفهم عنصراً بعينه من الحلم على معناه السلبي أو على معناه الإيجابي، وأن يأخذه على ما هو عليه أو على ضده: وهذه فرصة جديدة أمام المؤوِّل كيما يتعسف في التأويل. ثالثاً، بالنظر إلى تواتر عمليات القلب في الحلم، يجد المؤوِّل نفسه في حِلٍ من أن يعتبر أية شذرة من شذرات الحلم منطوية على ضرب من القلب. رابعاً وأخيراً، ستتذرعون بما سمعتموه من أننا لا نستطيع إلا فيما ندر أن نقطع جازمين بأن التأويل الذي وصلنا إليه هو التأويل الوحيد الممكن، ومن أننا نجازف بالتالي بأن نغفل عن التأويل الذي قد يكون



أقرب التآويل إلى وجه الحق. ثم تخرجون من ذلك كله بنتيجة مؤداها أن المؤوِّل يمكنه، في هذه الشروط، أن يمارس عسفه على نطاق واسع للغاية، مما ينفي إمكانية الوصول إلى يقين موضوعي في النتائج. أو قد تفترضون أيضاً أن الخطأ ليس مردّه إلى الحلم ذاته، وأن نواقص تأويلنا وعيوبه ترجع بالأحرى إلى خطأ في تصوراتنا ومقدماتنا.

هذه الاعتراضات كلها لا غبار عليها، لكنني لا أظنها تسوِّغ ما خرجتم به من استنتاج بأن التأويل، كما نمارسه، عسفي خالص، وبأن ما يشوب نتائجنا من عيوب يرسم علامة استفهام حول مشروعية منهجنا. فلو أنكم قلتم، بدلاً من الكلام عن عسف المؤوِّل، إن التأويل يتوقف على مهارة هذا الأخير وخبرته وذكائه، لما كان لي إلا أن آخذ برأيكم هذا. فالعامل الشخصي له دوره الذي لا ينكر، وبخاصة عندما تواجهنا وقائع عسيرة التأويل. وأما أن بعضهم قد يكون أحذق من غيره في استخدام تقنية بعينها، فهذا أمر لا حيلة لنا فيه. وهو على كل حال شائع في المجال التطبيقي للتقنيات العملية الأخرى. ثم إن ما قد يبدو ضرباً من العسف في تأويل الأحلام لا يلبث أن ينقشع متى ما تأكد لنا أن الارتباط القائم بين أفكار الحلم، وكذلك الارتباط بين الحلم نفسه وحياة الحالم، وأخيراً مجمل الموقف النفسي الذي يحدث الحلم في نطاقه، يتيح لنا بصفة عامة أن نخصّ باختيارنا، بين جملة التآويل المتاحة، تأويلاً واحداً نركن إليه ونذر سائر التآويل الأخرى باعتبارها لا تتفق والحالة التي نحن بصددها. أما استنتاجكم بأن شوائب التأويل ونواقصه ترجع إلى خطأ ما في استدلالاتنا فيكفينا دحضاً له وتفنيداً أن نلاحظ أن إبهام الحلم والتباسه واحتماله كثرة من المعاني خاصية لازمة من خواصه.

لقد أسلفت القول، ولعلكم تذكرون، أن عمل الحلم يعطي الأفكار الكامنة نمطاً تعبيرياً بدائياً، شبيهاً بالكتابة التي تعتمد الصورة بدل الحروف. والحال أن جميع أساليب التعبير البدائية تتسم بمثل ذلك الإبهام والالتباس وازدواج المعاني، من دون أن يبيح ذلك لنا التشكيك في إمكانية استخدامها العملي. وأنتم تعلمون أن تلاقي الأضداد في إخراج الحلم يشابه ما يسمى بـ «طباق المعاني»



في جذور الكلمات في اللغات الأقدم عهداً. وقد حذَّرنا فقيه اللغة ر. آبيل[1] (١٨٨٤) ـ وله ندين بوجهة نظرنا هذه ـ من الاعتقاد بأن الكلام الذي يوجهه شخص إلى آخر ويستخدم فيه ألفاظاً مزدوجة المعاني لا بدّ أن يوقع سامعه في اللبس وسوء الفهم. فالنبرة والحركة التي تصاحب الكلام من شأنهما أن يوضحا، على نحو لا يقبل لبساً، أي المعنيين المتضادين يريد المتكلم إبلاغه للسامع. وأما في الكتابة، حيث لا مجال للإشارة بالحركة، فإن المعنى المراد إثباته تضاف إليه علامة مصورة خاصة ترسم ولا تنطق، كأن تقرن كلمة كين، ذات المعنى المزدوج في الكتابة الهيروغليفية، بصورة رجل يجلس القرفصاء بكسل وتراخٍ أو ينتصب في وقفة شامخة للدلالة على معنيي «الضعف» و«القوة» على التوالي. وبذلك كان يُتحاشى سوء التفاهم، بالرغم من تعدد معاني المقاطع والعلامات.

إن أساليب التعبير القديمة، ومنها مثلاً خطوط اللغات الأقدم عهداً، تشيع فيها ضروب شتى من الغموض واللبس مما لا نطيقه في لغاتنا الراهنة. ففي بعض اللغات السامية لا ترسم، مثلاً، سوى الحروف الساكنة. أما حروف العلة والحركات المحذوفة فالقارئ هو المطالب بتعيينها بحسب خبرته ووفقاً لسياق الجملة. ولأن الكتابة الهيروغليفية تسير على هذا المنوال، أو على شبيهه على الأقل، فإننا نجهل اليوم كيف كانت تنطق اللغة المصرية القديمة. وكتابة قدامى المصريين المقدسة تتسم أيضاً بضروب أخرى من اللبس والإبهام. ومن ذلك أنها تترك لاختيار الكاتب أن يرسم الصور من اليمين إلى اليسار، أو من اليسار إلى اليمين. وحتى يتمكن القارئ من القراءة فلا بدّ له أن يسترشد باتجاه وجوه الأشكال المصوَّرة والطيور، إلخ. لكن كان للكاتب أيضاً أن يرصف العلامات المصوَّرة عمودياً، كما كان لاعتبارات الجمال والتناظر أن تفرض عليه ترتيباً آخر للعلامات إذا كان عليه أن يدوِّن على رقع صغيرة. وعامل التشويش الأول في الخطّ الهيروغليفي هو عدم الفصل بين الكلمات. فالعلامات تتتابع على الطرس على مسافة متعادلة، ويكاد يتعذر على المرء أن يعرف هل تتبع هذه العلامة أو

١ ـ انظر المحاضرة الحادية عشرة. «م».



تلك الكلمة السابقة أو هي بداية كلمة جديدة. وبالمقابل، يفصل الخط المسماري الفارسي بين الكلمات بعلامة مائلة.

إن ثمة ٤٠٠ مليون إنسان يتكلمون اليوم الصينية ويكتبونها، مع أنها من أقدم اللغات طراً. ولا تحسبوا أنني أفقه فيها شيئاً. غير أني رجعت إلى بعض مراجعها على أمل أن أجد فيها أوجه شبه مع لبس الأحلام وعدم تعيُّنها، فما خاب ظني. فاللغة الصينية تزخر بضروب شتى من اللبس وعدم التعيين حتى ليرتج على المرء حيالها. فمعلوم أنها تتألف من عدد هائل من المقاطع التي قد تلفظ فرادى أو أزواجاً. وتشتمل إحدى لهجاتها الرئيسية على زهاء ٤٠٠ مقطع. وبما أن قاموس هذه اللهجة يضم زهاء ٤٠٠٠ كلمة، يترتب على ذلك أن لكل مقطع عشرة معان في المتوسط: فلبعضها أقل من هذا العدد ولبعضها أكثر. وبما أن السياق لا يسمح وحده بالتكهن بأي من المعاني العشرة يرمي الناطق بالمقطع إلى إبلاغه سامعه، فقد ابتكرت طائفة من الحيل والوسائل لتدارك هذا القصور. ونخصّ بالذكر من هذه الوسائل الجمع بين مقطعين في كلمة واحدة، والنطق بالمقطع الواحد بأربع «نبرات» مختلفة. وثمة واقعة أبلغ دلالة بعد فيما يتصل بالمقارنة التي نعقدها: إذ ليس لهذه اللغة من قواعد بحصر المعنى[٢]. فليس فيها كلمة واحدة من الكلمات الوحيدة المقطع يمكننا أن نحدِّد هل هي اسم أو نعت أو فعل، كما ليس فيها كلمة متصرفة واحدة لنستدل من تصريفها على جنسها وعددها وزمنها وصيغتها. وعلى هذا، هي لغة تتألف من مواد خام، شأنها في ذلك شأن لغتنا المجردة حين يفكّكها عمل الحلم إلى موادها الخام باستبعاده التعبير عما بينها من علائق وصلات. وحيثما قام في اللغة الصينية لبس وإبهام، ارتهن الفهم والتمييز بذكاء السامع الذي يسترشد بسياق الكلام. وقد دوَّنت مثالاً على ذلك قولاً سائراً صينياً، ترجمته الحرفية كالآتي:

قليل ما يرى، كثير ما عجب.

وليس من العسير فهم هذه الحكمة. فقد تعني: كلما قلّ ما نراه كثر عجبنا.

٢ ـ كتب فرويد هذا الكلام في منتصف العقد الثاني من القرن العشرين، وبالتالي ما كان له أن يأخذ بعين الاعتبار الإصلاح الجذري الذي أُدخل على الكتابة الصينية عام ١٩٥٨. «م».



أو قد تعني: ما أكثر ما نُعجب إن قلّ ما نراه. ولا مجال بطبيعة الحال للمفاضلة بين هاتين الترجمتين اللتين لا تختلفان إلا من حيث الصرف والنحو. غير أن أهل الاختصاص يؤكدون لنا مع ذلك أن اللغة الصينية، رغم هذا اللبس والإبهام، أداة ممتازة لتبادل الأفكار. إذاً فعدم التعيُّن لا يستتبعه بالضرورة التباس المعاني.

على أنه يتعيَّن علينا أن نقرّ بأن الموقف فيما يتصل بأسلوب التعبير في الحلم أقل ملاءمة بكثير مما في حالة اللغات والكتابات القديمة. فالغرض من هذه الأخيرة أصلاً أن تقوم بدور وسيلة اتصال، أي أن تكون مفهومة بطريقة أو بأخرى. والحال أن هذه الخاصية هي بالتحديد ما يفتقر إليه الحلم. فالحلم لا يرمي إلى إبلاغ شيء إلى أحد، وهو ليس بأداة اتصال، بل إنه ما وجد أصلاً إلا ليكون غير مفهوم. لذا ليس لنا أن ندهش أو أن نضلّ عن سواء السبيل إذا ما وجدنا عدداً كبيراً من ضروب الالتباس واللاتعين وتعدد المعاني يستعصي على فهمنا وتمييزنا. والنتيجة الأكيدة الوحيدة التي نخرج بها من المقارنة التي عقدناها هي أن عدم التعيين، الذي أراد بعضهم الاحتجاج به لإنكار صحة تأويلنا للأحلام ومصداقيته، صفة ملازمة لجميع أساليب التعبير البدائية.

إن درجة مفهومية الحلم الفعلية لا يمكن تحديدها إلا بالممارسة والخبرة. وفي رأيي أنه من الممكن المضيّ إلى مدى بعيد في هذا التحديد، والنتائج التي يظفر بها المحللون من ذوي الخبرة لا يمكن إلا أن تعزز رأيي هذا. أما الجمهور من غير أهل الاختصاص فيطيب له، حتى ولو كان ذا نزعات علمية، أن يقابل بريبية ساخرة وبازدراء الصعاب ومواطن الشك التي لا مناص من أن تواكب كل مساهمة علمية. وهذا عن ظلم وبهتان في رأيي. فلربما جهل الكثيرون منكم أن وضعا مماثلاً نشأ عند فك لغز النقوش البابلية. بل مرّ حين من الدهر لم يتوانَ فيه الرأي العام عن اتهام العلماء الذين انكبوا على حلّ رموز النقوش المسمارية بأنهم من أهل الهزل والتهريج، وعن دمغ هذا الفرع من فروع العلم بـ «الشعوذة». لكن الجمعية الآسيوية الملكية Royal Asiatic Society أجرت سنة ١٨٥٧ اختباراً فاصلاً. فقد دعت أربعة من أبرز المختصين، وهم راولنسن Rawlinson وهنكس Hincks



وفوكس تالبوت Fox Talbot وأوبيرت Oppert[٣]، أن يرسلوا إليها في مغلفات مختومة أربع ترجمات مستقلة لنقش مسماري اكتشف حديثاً. وبعد المقارنة بين الترجمات الأربع أمكن لها أن تعلن أن بينها من الاتفاق ما يبرر الثقة بالنتائج المتحصلة من قبل، والاطمئنان إلى مزيد من التقدم مستقبلاً. عندئذ خفتت شيئاً فشيئاً سخرية المتعلمين من غير أهل الاختصاص، وتتابع فك رموز الوثائق المسمارية بيقين متعاظم.

٢ ـ ثمة سلسلة أخرى من الاعتراضات ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالانطباع الذي لا بدّ أن يكون ساوركم أنتم أنفسكم، إذ بدا لكم الكثير من الحلول التي قادتنا تأويلنا للأحلام إلى القبول بها مصطنعاً، متكلفاً، مقسوراً، وبالتالي في غير محله، بل ربما مضحكاً أيضاً. وهذا النوع من الاعتراضات شائع بكثرة حتى إني سأقف محتاراً بين أيها أختار لأسوقها لكم مثلاً، ولذا أكتفي بآخر ما تناهى إلى سمعي منها. فاستمعوا إذاً: فقد أقيل مؤخراً مدرِّس في دار للمعلمين في سويسرا ـ ذلك القطر الحر ـ من وظيفته لأنه اهتم بالتحليل النفسي. وقد احتج بطبيعة الحال على هذا الإجراء، ونشرت صحيفة تصدر في بيرن نص الحكم الذي أصدرته بحقّه السلطات المدرسية. ولن أقتطف لكم من هذا الحكم سوى بضع فقرات تتصل بالتحليل النفسي. فمما جاء فيه: «ناهيك عن ذلك، فإن الكثير من الأمثلة التي تضمنها كتاب الدكتور بفستر[٤] Pfister المستشهد به تثير الدهشة بطابعها المتكلف والمصطنع.. وإنه لمن العجب حقاً أن يقبل مدرِّس في دار للمعلمين بلا نقد جميع تلك المزاعم وجميع أشباه الأدلة تلك». ويراد لنا بعد ذلك أن نقبل

٣ ـ هم على التوالي هنري راولنسن: العسكري والدبلوماسي والخبير البريطاني باللغة الآشورية (١٨١٠ ـ ١٨٩٥)؛ وإدوارد هنكس: قسّ إرلندي وعالم بالقبطيات والآشوريات (١٧٩٢ ـ ١٨٦٦)؛ ووليم فوكس تالبوت: عالم بريطاني مختص بالآثار والتصوير (١٨٠٠ ـ ١٨٧٧)؛ وجول أوبرت: عالم فرنسي ألماني الأصل مختص بالآشوريات (١٨٢٥ ـ ١٩٠٥). «م».

٤ ـ أوسكار بفستر: قس ولاهوتي وفيلسوف سويسري (١٨٧٣ ـ ١٩٥٦). كان أول من طبّق التحليل النفسي على علم التربية، وكان بينه وبين فرويد تعاطف وتراسل، وكان فرويد يلقبه بـ «خادم الله الحقيقي» و«رجل الله الطيب». وعندما نشر كتابه **مستقبل وهم** الذي حلل فيه الدين بوصفه عصاباً جماعياً، ردّ عليه بفستر بكتاب مضاد بعنوان **وهم مستقبل**. «م».



بهذه العبارات على أنها قرار «قاضٍ غير متحيِّز». والأصح عندي أن هذا «اللاتحيُّز» هو «المصطنع». ولننعم النظر عن كثب في هذه الأحكام، توسماً منا بأن قدراً من التفكير والتضلع لا يمكن أن ينجم عنه ضرر، حتى لعقل غير متحيِّز.

إنه لمما يبعث على الابتسام حقاً أن نرى بأية سرعة وثقة بالنفس يصدر الناس أحكامهم على مسألة شائكة من مسائل علم نفس اللاشعور، وكل عدّتهم محض انطباعات أولى. فالتآويل تبدو لهم متكلفة مبتسرة، فلا تقع منهم موقعاً حسناً، فهي بالتالي خاطئة، وكل الجهد الذي بذل فيها لا يساوي شيئاً. ولا يخطر لهم في بال، ولو لهنيهة، أنه من المحتمل أن تكون هناك أسباب وجيهة تحتِّم ظهور التآويل بذلك المظهر، وأن التماس هذه الأسباب والبحث عنها عناء له ما يبرره.

إن موضوع الحكم هنا هو في المقام الأول نتائج عملية الإزاحة والنقل التي هي، كما تعلمون، أقوى وسيلة في متناول رقابة الأحلام. فبمعونة هذه الوسيلة تخلق الرقابة تشكيلات بديلة حددناها بأنها بمثابة تلميحات. غير أنها تلميحات يعسر تعرُّفها بما هي كذلك؛ تلميحات يصعب الاهتداء إلى ركيزتها الأصلية، إذ لا تربطها بهذه الركيزة سوى تداعيات خارجية على درجة كبيرة من الغرابة وغير مألوفة بالمرة في كثير من الأحيان. غير أنها في كل الأحوال أشياء ما وجدت إلا لتبقى مستترة خافية، وهذا هو الهدف الذي تبغي الرقابة الوصول إليه. والحال أنه عندما يخفى شيء من الأشياء، فليس لنا أن نتوقع العثور عليه في الموضع الذي يفترض أن يوجد فيه عادة. والحق أن الهيئات المكلَّفة بمراقبة الحدود في أيامنا هذه[٥] تبدو أكثر دهاء ومكراً من هذا المنظور من السلطات المدرسية السويسرية. فهي لا تكتفي بتفتيش المحافظ والجيوب بحثاً عن وثائق وتصاوير، بل تفترض أن الجواسيس والمهربين قد يخفون هذه الأشياء المحظورة، أملاً منهم بالاحتيال على الرقابة، في مواضع لا يمكن أن تخطر في بال، كأن يضعوها مثلاً بين طبقتين من نعال أحذيتهم. فإن كُشفت الأشياء المخبوءة حقَّ

٥ ـ يقصد: في أيام الحرب. «م».



القول بأن خافيها قد تجشم عناء كثيراً في إخفائها، وأن جهود المفتشين مع ذلك لم تذهب أدراج الرياح.

لئن سلَّمنا بأنه يمكن أن تقوم بين عنصر كامن من عناصر الحلم وبين بديله الظاهر روابط غير متوقعة، وعلى درجة كبيرة من الغرابة، هزلية في الظاهر تارة، ولبيبة أريبة طوراً، فامتثالاً منا للخبرات الكثيرة التي تمدنا بها أمثلة لم نكن نحن بوجه عام من وجد لها حلاً. والحق أنه يندر أن نصل بجهدنا الخاص إلى تأويل من هذا النوع؛ فليس يسع أي إنسان عاقل ان يكشف عن الصلة التي تربط عنصراً بعينه من العناصر الكامنة ببديله الظاهر. وإنما الحالم هو الذي يزوِّدنا تارة بترجمة فورية لحلمه، بفضل ما قد يطرأ على ذهنه مباشرة من تداعيات وخواطر بصدد هذا الحلم (وهذا شيء هو مستطيعه لأن التشكيل البديل قد تكوّن داخل نفسه)، أو يقدم لنا تارة أخرى مواد كافية تغنينا عن مزيد من التعمق بحثاً عن الحل الذي يفرض نفسه في هذه الحال من تلقاء نفسه وكأنه ضرب من الضرورة. فإن لم يساعدنا الحالم بإحدى هاتين الوسيلتين، استغلق علينا أبداً فهم العنصر الظاهر. اسمحوا لي بأن أضرب لكم بهذا الصدد مثالاً آخر تسنى لي مؤخراً أن ألحظه بنفسي. فقد فقدت واحدة من مرضاي أباها، وهي قيد العلاج. ومنذئذ صارت تتذرع بكل ذريعة لتردّ أباها إلى الحياة في المنام. وفي واحد من أحلامها ظهر لها والدها وقال لها: «**الساعة الحادية عشرة والربع، الحادية عشرة والنصف، الثانية عشرة إلا الربع**». أما تفاصيل الحلم الأخرى فلم يكن فيها من غناء. وقد استطاعت أن تؤوِّل هذا الجانب الباعث على الاستغراب من الحلم بأن تذكَّرت أن أباها كان يحبّ أن يرى أولاده وقد جلسوا إلى مائدة الطعام في الميقات المحدد ظهراً. وكان من المحقق أن ثمة صلة بين هذه الذكرى وبين عنصر الحلم المشار إليه، ولكن ما كانت هذه الذكرى بكافية للوصول إلى نتيجة قاطعة بصدد أصل هذا الحلم. غير أن سير العلاج كان يبيح لي أن أشتبه في أن الحالمة كانت تضمر في نفسها تجاه أبيها، الذي تحبه وتجلّ قدره، موقفاً نقدياً بعض الشيء، ومكبوتاً في آن واحد، وأن هذا الموقف ليس منقطع الصلة باستحداث الحلم. ولما مضت الحالمة في استحضار



ذكرياتها، والشقة لا تني تتباعد في الظاهر بينها وبين الحلم، روت أنها استمعت البارحة إلى مناقشة حول علم النفس، وأن أحد أقاربها قال أثناء هذه المناقشة: «إن الإنسان البدائي Der Urmensch باقٍ حياً في أعماق كل واحد منا». وهكذا تهيأ لنا أننا بتنا نفهمها. فقد وجدت في هذا القول فرصة ممتازة لإحياء أبيها من جديد، إذ حوَّلته في منامها إلى **معلن الساعة** Uhrmensch وجعلته يعلن عن أرباع الساعات في وقت الظهيرة[٦].

بديهي أن في ذلك ما يذكرنا بالجناس، وكثيراً ما اتهم المؤوِّل بالتلاعب بالألفاظ مع أن المسؤول عن هذا التلاعب في الواقع هو الحالم نفسه. وثمة أمثلة أخرى يصعب فيها أن نقطع هل الأمر أمر جناس ولعب بالألفاظ أم حلم من الأحلام. وقد خامرنا مثل هذا الشك إزاء بعض فلتات اللسان. فقد روى رجل أنه رأى في منامه عمَّه يقبِّله وهما جالسان في أوتو (موبيل) هذا الأخير. ثم لم يلبث أن أوَّل بنفسه هذا الحلم. فهو يعني **إيروسية ذاتية** Autoérotisme[٧] (اصطلاح مأخوذ من نظرية الليبيدو يشير إلى الإشباع الإيروسي بدون مشاركة شخص آخر). ترى أكان الرجل يمزح، فصوَّر لنا تلاعبه بالألفاظ على أنه حلم رآه في منامه؟ لست أدري. وعندي أنه رأى ذلك في منامه حقاً. لكن ما مصدر هذا التشابه العجيب؟ لقد ألجأني هذا السؤال في غير هذا الموضع إلى استطراد طويل، وأرغمني على أن أخص النكتة بحد ذاتها بدراسة مستفيضة[٨]. وقد انتهيت إلى نتيجة مؤداها أن النكتة تنشأ عن إخضاع سلسلة من الأفكار القبشعورية[٩] بصورة مؤقتة لعملية صياغة لاشعورية. فهذه الأفكار القبشعورية تخضع، وهي

---

٦ ـ معلن الساعة: موظف كانت تعتمده البلدية في المدن الصغيرة للإعلان عن الوقت للناس. وواضح ما بين الإنسان البدائي Urmensch ومعلن الساعة Uhrmensch من جناس شبه تام. «م».

٧ ـ ثمة علاقة لفظية واضحة بين السيارة (أوتوموبيل) وبين الإيروسية الذاتية (أوتو إيروتيسم)، وهي اشتراكهما بلفظ (أوتو) . «م».

٨ ـ يشير فرويد هنا إلى دراسته عن **النكتة وصلاتها باللاشعور** التي أصدرها سنة ١٩٠٥. «م».

٩ ـ نسبة إلى ما قبل اللاشعور: وهو عند فرويد جهاز نفسي يقع بين الشعور واللاشعور، ومواده تكون لاواعية، أي غير ماثلة في حقل الوعي الراهن، لكنها قابلة للاستحضار إليه إرادياً، وهذا ما يميِّزها عن المادة اللاشعورية بحصر المعنى. «م».



في قبضة اللاشعور، لتأثير الآليات المتحكمة به، وأعني التكثيف والإزاحة والنقل، أي لنفس السيرورات التي رأيناها فاعلة في عمل الحلم: وهذه الواقعة هي وحدها التي تفسر التشابه (إذا ما وجد) بين النكتة والحلم. لكن «الحلم النكتي»، وهو ظاهرة لاقصدية، لا يبهجنا كما تبهجنا النكتة الموفقة. لماذا؟ هذا ما سيتأتى لكم أن تعرفوه لو سنحت لكم الفرصة لدراسة النكتة دراسة معمقة. والحق أن «الحلم النكتي» لا نكتة فيه، فبدلاً من أن يضحكنا يتركنا على فتورنا.

عند هذه النقطة تضيق الشقّة بيننا وبين تفسير المنامات على الطريقة القديمة؛ فبصرف النظر عما كانت تزخر به هذه الطريقة من مواد لا فائدة تجتنى منها، تركت لنا أمثلة تأويلية ممتازة لسنا نملك نحن أنفسنا تجاوزاً لها. ولن أسرد عليكم سوى حلم واحد من هذا النوع، لما له من دلالة تاريخية. وقد روى لنا هذا الحلم ـ الذي حلم به الإسكندر الأكبر ـ كل من **فلوطرخوس وأرتميدورس الأفسسي** بشيء من الاختلاف في الرواية[١٠]. ففيما كان الملك يحاصر مدينة صور التي واجهته بمقاومة ضارية (سنة ٣٢٢ ق.م)، رأى في منامه ساتيروساً يرقص. وقام المنجّم **أرسطاندرس**[١١]، الذي كان يرافق الجيش، بتأويل هذا الحلم بأن فكّ كلمة «ساتيروس» إلى كلمتين هما: **صور لك**[١٢]، ومن ثم أباح لنفسه أن يعد الملك بالاستيلاء على المدينة. وبنتيجة هذا التفسير، عزم الإسكندر على مواصلة الحصار وتمكن في خاتمة المطاف من فتح صور. ولئن بدا هذا التفسير متكلفاً مصطنعاً، فقد كان هو التأويل الصحيح بلا جدال.

٣ ـ لا ريب في أنكم ستذهلون لو علمتم أن في جملة الذين اعترضوا على تصورنا للحلم أشخاصاً اشتغلوا طويلاً في تأويل الأحلام بصفتهم محللين نفسيين. والحق أننا ما كنا إلا لنعجب أشدَّ العجب لو أن منهجاً كهذا من شأنه

---

١٠ ـ انظر المحاضرة الخامسة. «م».

١١ ـ أرسطاندرس التلمسي: ينسب إليه كتاب عن **تفسير الأحلام**. وقد رافق الإسكندر الأكبر في حملته الآسيوية. «م».

١٢ ـ إن كلِمة ساتيروس، التي تعني في الأصل كائناً خرافياً نصفه الأعلى إنسان ونصفه الأسفل ماعز، يمكن فكها بالفعل إلى كلمتين: «سا» وتعني لك، و«تيروس» وهي صور باليونانية. «م».



أن يغري بارتكاب أخطاء جديدة بقي بلا استعمال؛ وهكذا تولدت عن التخليطات المفهومية والتعميمات غير المبرّرة أطروحات قريبة، في ابتعادها عن الصحة، من التصور الطبي للأحلام. ولقد سبق لكم الاطلاع على واحدة من هذه الأطروحات، تزعم أن قوام الحلم محاولات للتكيُّف مع الحاضر ولحلّ مشكلات مقبلة، وأنه ينطوي بالتالي على «ميل إلى استشفاف المستقبل» (أ. مايدر)[١٣]. وكنا أوضحنا أن هذه الدعوى تقوم على الخلط بين الحلم وأفكار الحلم الكامنة، وأنها لا تقيم وزناً بالتالي لعمل الحلم. أما من حيث ادعاؤها بأنها تصف الحياة النفسية اللاشعورية التي تنتمي إليها أفكار الحلم الكامنة، فإن هذا الوصف ليس بالجديد ولا بالكامل، لأن النشاط النفسي اللاشعوري يهتم، إلى جانب الإعداد للمستقبل، بأشياء أخرى كثيرة. وثمة دعوى أخرى ترتكز إلى خلط أسوأ بعد، مؤداها أن «بند الموت» كامن وراء كل حلم[١٤]. ولست أدري على وجه الدقة ما تعنيه هذه الصيغة، لكني أخمِّن أنها تنجم عن الخلط بين الحلم وبين شخصية الحالم بأسرها.

وكعينة على التعميم اللامسوغ بالاعتماد على بعض الأمثلة الجيدة، سأخص بالذكر الأطروحة القائلة أن كل حلم قابل لتأويلين: التأويل المسمى بالتحليلي النفسي، كما تقدم بياننا له، والتأويل المسمى بالباطني الذي يضرب صفحاً عن الرغبات ويرمي إلى تمثيل الوظائف النفسية العليا (ف. سلبرر)[١٥]. والحق أن هذا النوع من الأحلام موجود، لكن عبثاً قد تحاولون تعميم هذا التصور ليشمل ولو غالبية الأحلام. وبعد كل الذي سمعتموه، لن تستقيم عندكم دعوى من يقول إن الأحلام جميعها ثنائية الجنسية ويجب تأويلها من منظور التلاقي بين ميول

---

١٣ ـ الإشارة هنا إلى مقالة مايدر: **عن وظيفة الحلم** (١٩١٢). هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

١٤ ـ تلك هي فرضية فلهلم شتيكل في كتابه **لغة الحلم** (١٩١١). هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

١٥ ـ هربرت سلبرر: محلل نفسي عصامي نمساوي (١٨٨٢ ـ ١٩٢٣). انضمّ إلى **جمعية فيينا للتحليل النفسي** واشتهر بدراساته حول الرمزية. ولكنه اختلف مع فرويد وتحوّل رويداً رويداً نحو التصوف والروحانيات ومات منتحراً. من أشهر كتبه: **مشكلات التصوف ورموزه**، وإليه يلمع فرويد في المتن أعلاه. «م»



مذكرة وأخرى مؤنثة (أ. آدلر)[١٦]. وهناك بطبيعة الحال بضعة أحلام منفردة من هذا النوع، وربما أتيح لنا فيما بعد أن نرى أنها تشابه في بنيتها بعض الأعراض الهستيرية. وأنا أذكر لكم كل هذه الاكتشافات لخصائص عامة جديدة للأحلام كيما أحذركم منها، أو على الأقل كيلا أترك في نفوسكم أي أثر للشك بصدد رأيي فيها.

٤ ـ شاء بعضهم أن يغضّ من القيمة الموضوعية لمبحث الأحلام متذرعاً بأن الأشخاص الذين يخضعون للمعالجة التحليلية النفسية يلفقون أحلامهم طبقاً للنظريات الأثيرة لدى أطبائهم، فيزعم بعضهم أنه يرى أحلاماً جنسية في المقام الأول، ويدعي بعضهم الآخر أنه يرى أحلام قوة وسيطرة، بينما يعلن بعضهم الثالث أنه يرى أحلاماً حول التناسخ والولادة الثانية (ف. شتيكل)[١٧]. لكن هذه الملاحظة تفقد بدورها قيمتها وتتهافت متى ما استذكرنا أن الناس كانوا يحلمون قبل ابتكار العلاج التحليلي النفسي الذي من شأنه أن يؤثر في أحلامهم وأن يوجهها، وأن الأشخاص الذين يخضعون في الوقت الحاضر للعلاج اعتادوا أن يحلموا قبل أن يخضعوا للعلاج. والوقائع التي يستند إليها هذا الاعتراض مفهومة تماماً وليس من شأنها بحال من الأحوال الانتقاص من قدر نظرية الحلم. فالبقايا النهارية التي تستثير الحلم تتأتى من اهتماماتنا الطاغية

١٦ ـ ألفرد آدلر: طبيب ومعالج نفسي نمساوي (١٨٧٠ ـ ١٩٣٧). يهودي الأصل ولكنه اعتنق البروتستانتية عام ١٩٠٤ وبقي عليها إلى مماته. ابتداء من عام ١٩٠٢ شارك في حلقات النقاش التي كان فرويد يعقدها كل مساء أربعاء. بدأ منذ عام ١٩٠٧ يصوغ تصوراته الخاصة حول علم النفس الفردي لينتهي إلى القطيعة مع الفرويدية و**جمعية فيينا للتحليل النفسي** عام ١٩١١. عرض تصوراته النظرية في كتابه: **حول الطبع العصابي** (١٩٠٠). وفي عام ١٩١٤ أصدر **المجلة الدولية لعلم النفس الفردي**. وقد لاقى مذهبه التفاؤلي المنزع شعبية واسعة في الولايات المتحدة الأمريكية حيث استقرّ به المطاف ابتداء من عام ١٩٣٤. أقام مذهبه النفسي الفردي على أساس عقدة النقص التي من شأنها أن تُطوَّر إلى عقدة تفوُّق ضارباً على ذلك مثال نابليون. من أشهر مؤلفاته: **معرفة الإنسان**، و **فهم الطبيعة الإنسانية**، و **معنى الحياة**. «م».

١٧ ـ فلهلم شتيكل: طبيب ومحلل نفسي نمساوي (١٨٦٨ ـ ١٩٤٠). تولى فرويد نفسه تحليله، فصار من أوفى أتباعه. ولكنه شرع بالافتراق عنه ابتداء من عام ١٩١٢. وقد انتقده فرويد بدوره في كتابه: **الأنا والهذا**. ومن أقواله التي اشتهر بها: «في كل طفل يتناوم فنان مبدع». من أشهر مؤلفاته: **الأونانية والجنسية المثلية**، و **لغة الحلم**، و **المرأة الباردة**، و **رسائل إلى أمي**. «م».



في حياة اليقظة. فإن ارتدت أقوال الطبيب واقتراحاته وإيحاءاته بعض الأهمية في نظر الشخص المحلَّل، احتلت مكانها في جملة البقايا النهارية وصارت قادرة، مثلها مثل سائر الاهتمامات والانفعالات الوجدانية التي تستثار في النهار السابق للحلم ومن دون أن يتأتى لها بعد أن تُلبى وتشبع، على إمداد الحلم بتنبيهات نفسية وعلى التأثير فيه بمثل ما تؤثر التنبيهات البدنية على النائم أثناء النوم. ومن الممكن للأفكار التي يبتعثها الطبيب، شأنها شأن سائر العوامل التي تستثير الأحلام، أن تتجلى في الحلم الظاهر أو أن يجري اكتشافها في أفكار الحلم الكامنة. ونحن نعرف أنه يمكن استحداث الأحلام تجريبياً، أو بالأصح إقحام جزء من مواد الحالم على الحلم بهذه الطريقة. والمحلِّل، في ما يمارسه على هذا النحو من تأثير على المرضى، يلعب دوراً مماثلاً لدور المجرِّب الذي يجعل أعضاء الأشخاص الذين يُجري عليهم تجاربه تتخذ أوضاعاً محددة، نظير ما كان يفعل مورلي ـ فولد على ما تذكرون(١٨).

من الممكن أن نوحي للحالم بموضوع حلمه، لكن من المستحيل التأثير على ما سيحلم به. فآلية إخراج الحلم والرغبة اللاشعورية المتحكمة بالحلم لا تقعان تحت تأثير أي عامل خارجي. وقد اتضح لنا من فحص المنبهات البدنية للأحلام أن خصوصية حياة الحلم واستقلالها الذاتي يتجليان في استجابة الحالم للتنبيهات البدنية والنفسية التي تصله. وهكذا نجد أن الاعتراض الذي ناقشناه هنا والذي يرمي إلى التشكيك في موضوعية البحث في الأحلام يقوم بدوره على ضرب من الخلط: الخلط بين الحلم ومواد الحلم.

هذا كل ما أردت أن أقوله لكم بصدد المشكلات المتصلة بموضوع الحلم. ولا ريب في أنكم حزرتم أنني أغفلت أشياء كثيرة ولاحظتم أنني اضطررت إلى معالجة الكثير من النقاط معالجة بتراء غير كاملة. لكن هذه العيوب التي تشوب عرضي ترجع إلى ما بين ظاهرات الحلم والأمراض العصابية من وشائج وصلات. فقد درسنا الحلم كمدخل إلى دراسة الأعصبة، وكان ذلك أصحَّ وأسلم بكثير مما

---

١٨ ـ راجع المحاضرة الخامسة. «م».



لو فعلنا العكس. لكن كما أن الحلم يمهد الطريق لفهم الأعصبة، كذلك فإنه يغدو بدوره قابلاً لأن يفهم في جميع تفاصيله متى ما ألممنا إلماماً كافياً بالظاهرات العصابية.

إنني أجهل ما سيكون حكمكم، لكن بوسعي أن أجزم لكم أنني غير نادم البتة على إثارتي اهتمامكم بمشكلات الحلم وعلى ما كرّسته لدراسة هذه المشكلات من شطر كبير من الوقت المتاح لنا. فليس ثمة مسألة أخرى يمكن أن تقنعكم دراساتها بصحة أطروحات التحليل النفسي بمثل السرعة التي تقنعكم بها دراسة الحلم. فقد نحتاج إلى شهور عديدة، بل إلى سنوات مديدة من العمل الدؤوب، إذا اردنا أن نبيِّن أن الأعراض في حالة من حالات المرض العصابي ذات معنى ودلالة، وتخدم غرضاً وقصداً، ويمكن أن تفسَّر بتاريخ الشخص المريض. وبالمقابل لا يلزمنا إلا بضع ساعات من الجهد حتى نظفر بالنتيجة نفسها من تحليل حلم يبدو في بادئ الأمر مبهماً ملتبساً غير مفهوم، وحتى نخرج أيضاً بتوكيد لجميع مقدمات التحليل النفسي ومفترضاته فيما يتصل بوجود السيرورات النفسية اللاشعورية، والآليات التي تتحكم بها، والدوافع الغريزية التي تتظاهر في ثنايا هذه السيرورات. وإذا ما أضفنا إلى التشابه الكبير القائم بين تكوين الحلم وتكوين العرض العصابي السرعة التي يتحول بها الحالم إلى شخص يقظ عاقل، تعزز لدينا اليقين بأن العصاب يرجع هو الآخر إلى خلل في العلاقات التي تقوم في الحالات السوية بين مختلف قوى الحياة النفسية.



القسم الثالث

النظرية العامة

للأمراض العصابية


مكتبة
الفكر الجديد

المحاضرة السادسة عشرة

التحليل النفسي والطب النفسي

سيداتي سادتي، يطيب لي أن أستأنف وإياكم سلسلة أحاديثنا. فقد حدَّثتكم في العام الماضي عن تصور التحليل النفسي للهفوات والأحلام، وأودّ اليوم أن أعرّفكم بالظاهرات العصابية التي تشترك، كما سترون لاحقاً، بأكثر من سمة مع ظاهرتي الهفوات والأحلام. غير أني أقول لكم للحال إني لا أستطيع هذه المرة أن أقبل منكم موقفاً مني مماثلاً لموقفكم في العام الماضي. فقد ألزمت نفسي يومئذ ألا أخطو خطوة قبل أن أتفق وإياكم مسبقاً؛ وقد ناقشتكم كثيراً، وأخذت اعتراضاتكم بعين الاعتبار، بل أسرفت في ذلك حتى رأيت فيكم وفي «حسّكم السليم» مرجع القرار الأخير. غير أن ذلك لم يعد ممكناً الآن، وذلك لسبب بسيط جداً. فالهفوات والأحلام ظاهرات مألوفة لكم، بل ربما جاز القول بأن خبرتكم بها لا تقلّ عن خبرتي. لكن مضمار الظاهرات العصابية غريب عنكم؛ فإن لم تكونوا من الأطباء، فلن يكون لكم من منفذ إلى هذا المضمار غير ذاك الذي يمكن أن تفتحه لكم معلوماتي وبياناتي، وأكثر الأحكام سداداً في الظاهر يكون في الواقع عديم القيمة إذا كان من يصدره على غير ألفة بالموضوع المطلوب الحكم عليه.

لكن لا تحسبوا، من جهة أخرى، أني أزمع أن ألقي عليكم محاضرات جازمة قاطعة أو أن أطلب منكم أن تأخذوا بما أعطيكم بلا قيد أو شرط. ولو كان هذا تصوركم فعلاً، فسينشأ عنه سوء تفاهم من شأنه أن يلحق بي أفدح الضرر والإساءة. فليس في نيتي أن أفرض الاقتناع عليكم فرضاً، بل حسبي أن أحفزكم على التفكير وأن أزعزع أحكامكم المسبقة. فإن كان الجهل المادي بالموضوع لا يهيئ لكم قدرة للحكم، فليس يجوز لكم أن تؤمنوا أو أن تنكروا. بل ما عليكم



في هذه الحال إلا أن تصغوا وأن تدعوا ما يلقى على مسامعكم يفعل فيكم فعله. فليس الوصول إلى اقتناع أمراً هيناً، والاقتناع الذي نصل إليه بلا جهد ولا عناء لا يلبث في أغلب الأحوال أن يثبت تهافته وعدم صلابته. ولا يحقّ للمرء أن ينتهي إلى تكوين اقتناع إلا بعد أن يكون أمضى مثلي سنوات طويلة منكباً على مادة بعينها وحضر شخصياً تكرار تلك التجارب الجديدة المدهشة الأخاذة التي سأحدِّثكم عنها. فما الجدوى، في مضمار الفكر، من ذلك الاقتناع السريع، أو من ذلك الاهتداء الذي يتم بمثل لمع البرق، أو من ذلك الرفض الفوري القاطع؟ ألا ترون أن «الحب من أول نظرة» ينتمي إلى دائرة مغايرة تماماً، وبالتحديد إلى المضمار العاطفي؟ إننا لا نسأل حتى مرضانا أن يقتنعوا بجدوى التحليل النفسي أو أن يجهروا بتأييدهم له. ولو فعلوا، لاشتبهنا في أمرهم. وأقصى ما نتوخاه منهم أن يصدروا في حكمهم على علمنا عن موقف قائم على ريبية سمحة. فحاولوا إذاً، أنتم أيضاً، أن تدعوا التصور التحليلي النفسي يختمر فيكم على مهل، جنباً إلى جنب مع التصور الشعبي أو السيكولوجي، إلى أن تتهيأ الفرصة للتصورين كليهما كيما تنعقد بينهما صلات ووشائج متبادلة، ويوضع واحدها على محكّ الآخر، ليتأتى عن اجتماعهما وتواجههما في خاتمة المطاف تصور فاصل حاسم.

ولن تكونوا إلا مخطئين، من ناحية أخرى، إن اعتقدتم، ولو للحظة واحدة، أن التصور التحليلي النفسي الذي سأعرضه لكم هو مذهب نظري تأملي. فهو بالأحرى ثمرة خبرة وتجربة، تعبير مباشر عن الملاحظة والمشاهدة، أو بالأحرى نتيجة لصياغة الملاحظة والمشاهدة. وتقدم العلم هو وحده الكفيل بتمكيننا من أن نحكم هل كانت هذه الصياغة كافية ومبررة. ومن غير أن أحاول التباهي والتفاخر يسعني أن أقول كم، بما ورائي من حياة مديدة ومن مهنة أمضيت فيها زهاء عقدين ونصف العقد من السنين، إن استخلاص النتائج من التجارب التي بنيت عليها تصوري استأداني مجهوداً شاقاً مكثفاً. وقد تراءى لي في كثير من الأحيان أن أخصامنا لا يريدون أن يقيموا وزناً البتة لمصدر توكيداتنا، فكأنها عندهم أفكار ذاتية خالصة يمكن للمرء، متى ما شاء، أن يعارضها بغيرها. وأنا لم أتمكن من فهم موقف أخصامنا هذا حقَّ الفهم. وربما كان مردّه إلى أن الأطباء



ينفرون من الدخول في صلات أوثق مما ينبغي مع مرضاهم المعانين من أمراض عصبية، ولا يعيرون ما يخبرهم به هؤلاء اهتماماً كافياً، فيعجزون بالتالي عن استخلاص أية معلومات ثمينة من الأقوال التي يدلون بها، ولا يتأتى لهم أن يجروا على مرضاهم تشخيصات قمينة بأن تقدِّم لهم منطلقات لاستنتاجات ذات فائدة عامة. وأعدكم بهذه المناسبة أن أتحاشى قدر الإمكان، في المحاضرات التي ستلي، المناقشات الجدالية، وبخاصة منها ما قد يدور مع باحث أو مؤلف بعينه. فأنا لا أؤمن بصحة الحكمة القائلة إن الصراع هو أبو الأشياء طراً[١]. فهذه الحكمة تبدو لي من نتاج السفسطة الإغريقية، وخطؤها أنها تعزو، نظير هذه السفسطة، قيمة مسرفة إلى الجدل. ويخيَّل إليّ على العكس أن ما يسمى بالجدال العلمي عمل عقيم كل العقم، وبخاصة أنه ينزع على الدوام إلى تلبّس طابع شخصي. ولقد كان يسعني أن أباهي، حتى لسنوات خلت، بأني لم أخض في جدال علمي إلا مع باحث واحد (لوفنفيلد Lowenfeld[٢] من ميونيخ). وقد كانت النتيجة أننا تحولنا من خصمين إلى صديقين، وصداقتنا لا تزال قائمة إلى اليوم. وبما أنني كنت لا أثق بالوصول إلى نتيجة مماثلة على الدوام، فقد أمسكت لفترة طويلة من الزمن عن معاودة التجربة.

قد يتراءى لكم أن مثل هذا النفور من كل نقاش عن طريق الكتابة ينمّ إما عن عجز وتخاذل إزاء الاعتراضات، وإما عن عناد مسرف، أو عن «تزمُّت» بحسب التعبير اللطيف للغة العلمية الدارجة. وسيكون ردي عليكم في هذه الحال أنه إذا توصل المرء إلى تكوين يقين ما بعد جهود شاقة مضنية، فمن حقه أيضاً إلى حدّ ما أن يحرص على التمسك به والذود عنه بكل ما أوتيه من سبل. على أني أحرص أن أضيف أنني كنت، أثناء عملي هذا، أجري تعديلاً أو تحويراً أو تبديلاً على بعض آرائي، وأنني ما توانيت قط عن التصريح بهذه التعديلات علانية. وماذا كانت نتيجة صراحتي؟ لقد فات بعضهم الاطلاع على التصحيحات التي أخذت

١ ـ قائل هذا القول هو هراقليطس. «م».

٢ ـ ليوبولد لوفنفيلد: طبيب نفسي نمساوي (١٨٥٧ ـ ١٩٢٣). دخل مع فرويد في مناقشات حول الأصول الوراثية للنورستانيا والهستيريا. من مؤلفاته: **آرائي حول دور الجنس في نشوء الأعصبة**. «م».



بها، فما ونى ينتقدني إلى اليوم على قضايا لم يعد لها عندي ما كان لها بالأمس من معنى. بينما يلومني آخرون على هذه التعديلات بالذات ويعلنون أني لست ممن يُركن إليهم أو ممن يمكن أن تحمل آراؤهم على محمل الجدّ. فلكأن من يعدِّل أفكاره بين الحين والآخر لا يستأهل ثقة الناس، إذ يوحي إليهم بأن أطروحاته الأخيرة قد لا تقلّ خطأ عن سابقتها. لكن من يتمسك بأفكاره الأولى ولا يقبل بسهولة أن يحيد عنها يُعدّ، من جهة أخرى، عنيداً متزمتاً. وإزاء هذين الحكمين المتضادين اللذين يصدران عن المنتقدين لا يبقى أمام المرء سوى اختيار واحد، وهو أن يبقى على ما هو عليه وألا يصدع إلا لحكمه الشخصي. وهذا ما قرّ عليه بالفعل قراري، ولن أمنع نفسي من إدخال تعديلات وتصحيحات على نظرياتي طرداً مع تقدم خبرتي وتجربتي. أما فيما يتصل باكتشافاتي الأساسية، فلم أرَ إلى اليوم داعياً لإحداث أي تغيير فيها، وآمل أن يكون كذلك الأمر في المستقبل.

عليّ إذاً أن أعرض لكم التصور التحليلي النفسي للظاهرات العصابية. ويسير عليّ أن أربط هذا العرض بعرض الظاهرات التي حدَّثتكم عنها من قبل[٣]، لما بين هذه وتلك من أوجه تشابه وتباين على حد سواء. وسأسوق لكم كمثال واحداً من الأفعال العَرَضية[٤] مما اعتاد الكثيرون من الناس إتيانه أثناء استشارتهم لي. إن المحلل النفسي لا يستطيع أن يفعل شيئاً للناس الذين يأتون إليه في عيادته الطبية ليعرضوا في ربع ساعة كل صنوف البؤس والشقاء التي لاقوها طول حياتهم المديدة. كما أن معرفته المعمقة لا تسمح له بأن يتخلص من المريض بأن يهوّن عليه ما به ويصف له، كما قد يفعل ذلك طبيب آخر، فترة وجيزة من المعالجة بالمياه المعدنية. وقد سئل أحد زملائنا عما يفعله مع المرضى الذين يقدمون لاستشارته، فأجاب وهو يهز كتفيه: أوقع عليه غرامة بكذا أو بكذا كوروناً[٥]. لا تعجبوا إذاً إن قلت لكم إن عدد من يطلبون استشارة المحلل النفسي، حتى ولو كانت عيادته مطروقة أكثر من غيرها، ليس بالكبير بوجه عام. ولقد جعلت بين

٣ ـ أي الهفوات والحلم التي عرض لها في المحاضرات الخمس عشرة التي تقدمت. «م».

٤ ـ نسبة إلى العرَض بالمعنى النفسي للكلمة SYMPTOME. «م».

٥ ـ الكورون: الوحدة النقدية الرئيسية للعملة في عدد من بلدان أوروبا، بما فيها النمسا سابقاً. «م».



غرفة الانتظار وبين غرفة الاستشارة باباً مزدوجاً ومبطَّناً باللباد. وهذا احتياط لا يعسر فهم معناه. والحال أنه كثيراً ما ينسى الأشخاص عند انتقالهم من غرفة الانتظار إلى غرفة الاستشارة أن يغلقوا البابين وراءهم. فما إن أنتبه إلى ذلك حتى أبادر، أياً تكن الصفة الاجتماعية للشخص الداخل عليّ، إلى لفت انتباهه إلى ذلك، في نبرة لا تخلو من حنق، وإلى الطلب إليه أن يتدارك ما سها عنه. قد تقولون إن في ذلك إسرافاً في التحذلق وشططاً في التكلُّف. وقد لمت نفسي بنفسي أحياناً على هذا الطلب، إذ إن زواري هم في بعض الأحوال أشخاص يعجزون حتى عن الإمساك بأكرة الباب ويطيب لهم أن يقوم عنهم بهذا المجهود سواهم. لكنني كنت على حقّ في أغلب الحالات، لأن من يسلك هذا المسلك ويذر الأبواب الفاصلة بين غرفة الانتظار وغرفة الاستشارة في عيادة الطبيب مفتوحة لهو بكل تأكيد إنسان غير مهذب ولا يستأهل أن يلاقى لقاءً ودياً. لكن لا تتسرعوا بالحكم قبل أن تعرفوا تتمة القصة. فهذا الإهمال لا يصدر عن المريض إلا إذا وجد نفسه وحيداً في غرفة الانتظار وغادرها وهو مطمئن إلى أنه ليس فيها أحد. وبالمقابل، يحرص المريض على إغلاق البابين إذا ما ترك في غرفة الانتظار أشخاصاً ينتظرون مثله الإذن بالدخول إلى غرفة الاستشارة. فهو يفهم حق الفهم في هذه الحالة الأخيرة أنه ليس من صالحه أن يتيح للآخرين الاستماع إلى محادثته مع الطبيب.

هكذا لا يكون إهمال المريض، وقد تحدد على هذا النحو، وليد المصادفة والاتفاق، أو غفلاً من المعنى، وحتى من الأهمية، لأنه ينمّ، كما سنرى، عن موقفه من الطبيب. فالمريض ينتمي إلى تلك الفئة الواسعة من الناس الذين لا يقصدون سوى مشاهير الأطباء، والذين يلتمسون ما يبهرهم ويهزّهم هزاً. وربما يكون اتصل هاتفياً قبل مجيئه ليعرف ما أنسب الأوقات لمقابلة الطبيب، وقد يتصور أنه سيجد أمام عيادة هذا الأخير صفاً طويلاً من الزبائن كذاك الذي يشاهد أمام فرع من فروع بقالية يوليوس ماينل[٦]. والحال، ها هوذا يلج

٦ ـ بقالية ذائعة الصيت في فيينا كانت تقف أمام بابها أرتال الزبائن إبان الحرب العالمية الأولى. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.



إلى غرفة الانتظار، فيجدها فارغة، فضلاً عن أنها متواضعة الأثاث. ويخيب ظنه، وتأخذه رغبة في الانتقام من الطبيب لما كان يزمع أن يبديه نحوه من احترام زائد، فيهمل إغلاق البابين الفاصلين بين غرفة الانتظار وغرفة الاستشارة. فكأنه يريد بإهماله هذا أن يقول للطبيب: «ما الداعي إلى إغلاق الباب، ما دام ليس في غرفة الانتظار أحد، وما دام من غير المحتمل أن يدخل أحد وأنا في مكتبك؟». بل لا يندر أن يدلل، أثناء الاستشارة، عن قدر كبير من عدم التحرج وعدم الاحترام، إن لم يوضع فوراً عند حدّه.

إن تحليل هذا الفعل العَرَضي البسيط لا يضيف شيئاً إلى ما كنا نعلمه من قبل، من حيث أنه ليس فعلاً عارضاً، وأن له على العكس دافعاً ومعنى وقصداً، وأنه جزء من سياق نفسي محدد، وأنه مؤشر صغير إلى حالة نفسية لها أهميتها. غير أن هذا الفعل العَرَضي يتيح لنا على الأخص أن ندرك أن السيرورة النفسية التي يعبِّر عنها تجري خارج نطاق معرفة الشخص الذي يقوم بها، إذ ليس بين جميع المرضى الذين يتركون البابين مفتوحين واحد يقرّ ويعترف بأنه أراد بهذا الإهمال أن يبدي لي عن ازدرائه. ومن المحتمل أن يسلِّم أكثر من واحد بأن شعوراً بالخيبة قد ساوره وهو يدلف إلى غرفة الانتظار، لكن من المحقق أن الرابط بين هذا الشعور وبين الفعل العَرَضي الذي أعقبه لا يقع تحت متناول وعيه.

والآن سأجري موازنة بين هذا الفعل العَرَضي البسيط وبين ملاحظة لاحظتها على مريضة من مرضاي. وقد اخترت هذه الملاحظة لأنها لا تزال طرية في ذاكرتي، ولأنها تصلح لعَرْض مقتضب. على أني أحذِّركم مسبقاً من أن بعض الإطالة أمر محتَّم لا مهرب منه في أي عرض لحالة كهذه.

سألني ضابط شاب، وهو في إجازة له، أن أتولى علاج حماته: فهي، وإن كانت تعيش في شروط من السعادة القصوى، تنغِّص حياتها وحياة ذويها جميعاً بفكرة سخيفة. وقد وجدتها سيدة تناهز الثالثة والخمسين من العمر، ولكنها تبدو أصغر من ذلك، فضلاً عن أنها أنيسة، لطيفة المعشر، بسيطة في التعامل؛ وقد أطلعتني بكل طواعية على ما يلي: إنها تعيش عيشة سعيدة للغاية في الريف مع زوجها الذي يدير مصنعاً كبيراً، وهي لا تملك إلا أن تغبط نفسها على كل ما



يحيطها به من رعاية وعناية. وكانا قد تزوجا عن حب قبل ثلاثين عاماً، ولم يعكر منذ يوم زواجهما صفو حياتهما المشتركة شقاق أو دافع من دوافع الغيرة. وقد أنجبت منه ولدين تزوَّجا زواجاً موفقاً. لكن زوجها، الذي يريد أن يؤدي واجباته كربّ أسرة حتى النهاية، لا يزال يصرّ على المضي في العمل. وقبل سنة وقع حادث لا يصدَّق، ولا تملك هي نفسها له فهماً: فقد تسلمت رسالة غفلاً من الإمضاء تتهم زوجها الممتاز بأنه على علاقة غرامية بإحدى الصبايا، ومنذ أن استلمت تلك الرسالة تحطمت سعادتها تحطيماً. وقد تبين بنتيجة التقصي أن خادمة هذه السيدة ـ وكانت هذه الأخيرة تطلعها على الحميم من أمور حياتها الخاصة ـ كانت تضمر حقداً دفيناً لفتاة أخرى أصابت حظاً أوفر من النجاح في الحياة، مع أنهما من أصل اجتماعي واحد: فبدلاً من أن تمتهن الخدمة في بيوت الآخرين واصلت الدراسة حتى تمكنت من دخول المصنع كمستخدمة. ولما تقلص جهاز العاملين في المصنع بفعل التعبئة العامة[7]، أتيح لتلك الفتاة أن تشغل في نهاية المطاف مركزاً تحسد عليه: فقد صارت تسكن في المصنع نفسه، ولا تعاشر إلا «السادة»، ويدعوها الجميع بـ «الآنسة». وقد دبت الغيرة في نفس الخادمة لما أصابته زميلتها القديمة في المدرسة من توفيق، وصارت على استعداد لأن تتقول عليها بكل الشرّ الممكن. وذات يوم حدَّثت سيدتنا خادمتها عن رجل عجوز قدم لزيارة المنزل، ويُعرف عنه أنه منفصل عن حليلته ويعيش مع خليلة. ولا تدري مريضتنا ما دفع بها إلى أن تقول لخادمتها على نحو مفاجئ إنها لا تستفظع شيئاً كأن يتناهى إلى علمها أن زوجها الطيب له هو أيضاً علاقة كتلك. وفي الغداة تلقت بالبريد الرسالة الغفل المكتوبة بخط مزوّر والمتضمِّنة الخبر المشؤوم. وقد اشتبهت للحال بأن الرسالة من تلفيق خادمتها الشريرة، لأن الفتاة المتهمة فيها بأنها خليلة الزوج هي عين الفتاة التي تكنّ لها الخادمة حقداً دفيناً. لكن بالرغم من أن المريضة لم تتأخر في تخمين الدسيسة، و بالرغم من أنه كان لها من الخبرة والتجربة ما يؤهِّلها لأن تدرك أن مثل هذه الوشاية الدنيئة غير جديرة بالتصديق، فإن تلك الرسالة قد هزّتها هزاً عنيفاً. واستحوذت عليها سورة

٧ ـ لدى اندلاع الحرب العالمية الأولى. «م».



من الهياج الشديد، وبعثت في طلب زوجها، فما كاد يحضر حتى انهالت عليه بمرّ اللوم ولاذع القول. غير أن الزوج تقبّل التهمة ضاحكاً وبذل كل ما في وسعه لتهدئة زوجته. وفي النهاية استدعى طبيب الأسرة والمصنع ليعاضده بجهوده. وجاء موقف الزوج والزوجة لاحقاً كما يجب أن يجيء: فقد فُصلت الخادمة، وبقيت الخليلة المزعومة في وظيفتها. ومنذ ذلك اليوم صارت المريضة تزعم وتكرر الزعم أنها استردَّت هدوءها، وأنها لم تعد تصدق ما جاء في الرسالة الغفل. لكن هدوءها كان ضحلاً ومؤقتاً. إذ ما كان اسم الفتاة يلفظ أمامها أو ما كانت تلتقيها في الطريق حتى تجتاحها نوبة جديدة من الشك والألم وتبكيت الضمير.

هذه هي قصة تلك السيدة الطيبة. ولا يحتاج المرء إلى خبرة كبيرة بالطب النفسي ليفهم أنها تميل، خلافاً لغيرها من المرضى العصبيين، إلى التخفيف من حالتها، أو ـ كما نقول ـ إلى التكتم، وأنها لم تفلح قط في الواقع في التغلب على تصديقها للتهمة التي جاءت في الرسالة الغفل.

ما الموقف الذي يمكن أن يتخذه طبيب الأمراض النفسية حيال حالة كهذه؟ لقد عرفنا من قبل كيف يمكن أن يكون موقفه من الفعل العَرَضي للمريض الذي لا يغلق بابيْ غرفة الانتظار. فهو يرى في هذا الفعل الأخير حادثاً عارضاً عادم الأهمية من وجهة النظر النفسية. لكنه لا يستطيع أن يقف الموقف نفسه حيال تلك السيدة الغيور إلى حدّ مرضي. فلئن بدا الفعل العَرَضي شيئاً لا يعتدّ به، فإن العَرَض النفسي يفرض نفسه علينا بالمقابل كظاهرة ذات دلالة. فمن وجهة النظر الذاتية يتواكب هذه العَرَض بـألم ممضّ، ومن وجهة النظر الموضوعية يهدد سعادة أسرة. من هنا فإنه جدير بلا جدال بإثارة اهتمام الطبيب النفسي. وهذا الأخير يسعى أولاً إلى تحديد العرض بخاصة جوهرية من خصائصه. فليس بالإمكان القول إن الفكرة التي تعذّب تلك المرأة وتقضّ مضجعها بعيدة عن المنطق بحدّ ذاتها، إذ قد يحدث بالفعل أن يتخذ المتزوجون من الرجال، بمن فيهم المتقدمون في السن، خليلات لهم من الصبايا. لكن ثمة شيء آخر بعيد عن المنطق ومستغلق على التصور. فباستثناء المزاعم التي تضمّنتها الرسالة الغفل، ليس لدى المريضة من مبرر البتة للاعتقاد بأن زوجها المحب والوفي ينتمي إلى تلك الفئة من



الأزواج غير المخلصين. وهي تعلم أيضاً أن الرسالة ليست جديرة بالتصديق على الإطلاق، كما تعلم بمصدرها. إذاً فالمفروض بها أن تقول لنفسها إن غيرتها ليس لها ما يبررها، وهذا بالفعل ما تقوله لنفسها؛ لكنها بالرغم من ذلك تتألم، كما لو أن بحوزتها أدلة لا تدحض على خيانة زوجها. وقد جرى الاتفاق على توصيف هذا النوع من الأفكار، أي الأفكار التي تستعصي على الحجج المنطقية وتمتنع عن الحجج المستمدة من الواقع، بأنها أفكار **هذائية**. إذاً فالسيدة الطيبة تعاني من **هذاء الغيرة**. وتلك هي في أغلب الظن السمة المميزة الرئيسية للحالة المَرَضية التي نحن بصددها.

إن تقرير هذه الواقعة الأولى من شأنه أن يزيدنا اهتماماً من منظور الطب النفسي. فلئن صمدت فكرة هذائية إزاء امتحان الواقع، فذلك لأن مصدرها هي الأخرى في أرجح الظن لا يكمن في هذا الواقع. فمن أين جاءت إذاً؟ إن الأفكار الهذائية تتنوع من حيث المحتوى إلى ما لا نهاية، فلِمَ كانت الغيرة دون سواها هي محتوى الهذاء في الحالة التي نحن بصددها؟ هنا يطيب لنا أن نستمع إلى طبيب الأمراض النفسية، لكن هذا ليس لديه ما يقوله لنا، ومن بين جميع أسئلتنا تلك، لا يهمه سوى سؤال واحد. فهو سينقِّب في السوابق الوراثية لتلك السيدة، وربما أعطانا الجواب التالي: تحدث الأفكار الهذائية لدى الأشخاص الذين تتكشف سوابقهم الوراثية العائلية عن اضطرابات مماثلة أو غيرها من الاضطرابات النفسية. وبعبارة أخرى، لئن تمخضت فكرة هذائية لدى تلك المرأة، فذلك لأنها مهيّأة لها وراثياً. ولا ريب في أن هذه المعلومة مفيدة، لكن أهذا كل ما نريد أن نعرفه؟ أليس هناك أسباب أخرى نشأت عنها الحالة المَرَضية التي نحن بصددها؟ لقد لاحظنا أن الغيرة كانت هي، دون سواها، مضمون الهذاء الذي انبنى لدى تلك السيدة: فهل هذه واقعة عديمة الأهمية، أو اعتباطية، أو عصية على التفسير؟ والأطروحة القائلة بكلية قدرة التأثير الوراثي: أينبغي أن نفهمها أيضاً بالمعنى السلبي، أي هل يتعيَّن علينا أن نسلِّم بأنه متى ما كان لدى إنسان من الناس استعداد مسبق للوقوع ضحية هذاء ما، فإن الأحداث والتجارب التي يمكن أن يمرّ بها تكون مما لا يعتّد به؟ وأكبر الظن أنكم راغبون في أن تعرفوا لماذا



لا يريد الطب النفسي العلمي أن يزوِّدنا بمزيد من المفاتيح. وجوابي عن هذا أن من يعطي أكثر مما لديه غشاش لا يؤتمن. والطبيب النفسي لا يملك من وسيلة ينفذ بها إلى أبعد من ذلك في تفسير حالة مَرَضية من هذا النوع. فهو مضطر إلى الاكتفاء بتشخيص الحالة، وبالرغم من خبرته الغنية فإنه لا يملك أن يتنبأ على وجه اليقين بمسار المرض لاحقاً.

هل نستطيع أن ننتظر من التحليل النفسي شيئاً أكثر؟ بكل تأكيد، وآمل أن أتمكن من أن أبرهن لكم أن في مقدوره، حتى في حالة عصيَّة المتناول كتلك التي نحن بصددها، أن يسلِّط الضوء على وقائع من شأنها أن تذلِّلها للفهم. أرجوكم أولاً أن تتذكروا تلك النقطة التفصيلية العديمة الأهمية في الظاهر، وهي أن المريضة نفسها هي التي كانت في الحقيقة وراء تلفيق الرسالة الغفل التي كانت منطلق فكرتها الهذائية: أفلم تقل في الليلة السابقة للخادمة الدساسة أنها لا تستفظع شيئاً كأن يتناهى إلى علمها أن لزوجها خليلة؟ فقد أوحت بقولها هذا للخادمة بفكرة إرسال الرسالة الغفل. وهكذا تغدو الفكرة الهذائية مستقلة، إلى حدّ ما، عن الرسالة، وقد كان لها وجودها المسبق لدى المريضة في صورة توجس (أو رغبة؟). أضف إلى ذلك بعض الوقائع البسيطة التي أمكن لي استخلاصها خلال ساعتين من التحليل. فقد أبدت المريضة عن عدم استعداد للاستجابة حين طلبت إليها، بعد أن انتهت من سرد قصتها، مكاشفتي بأفكار وذكريات أخرى يمكن أن تكون ذات صلة بها. فقد زعمت أنه ليس لديها ما تضيفه، ولم يكن مفرّ، بعد مضيّ زهاء ساعتين، من وقف التجربة بعد أن صرَّحت المريضة أنها تشعر بأنها على أحسن ما يرام وأنها متيقِّنة من أنها تحررت من فكرتها المَرَضية. وغني عن البيان أن ما أملى عليها هذا التصريح خوفها من أن أمضي في التحليل قدماً. غير أن لسانها أفلت خلال تينك الساعتين ببضع ملاحظات أتاحت لي، بل فرضت عليَّ تأويلاً معيَّناً يلقي باهر الضوء على نشأة فكرتها الهذائية. فقد كانت تكنّ هي نفسها عاطفة عميقة لشاب بعينه، هو ذلك الصهر الذي بناءً على إلحاحه قصدتها لأعالجها. وهي ما كانت تفطن لهذه العاطفة، أو ما كانت تعيها إلا وعياً باهتاً: فنظراً إلى أواصر القربى التي كانت تشدّها إلى ذلك الشاب،



لم يكن من الصعب على شعورها الحبّي أن يلبس قناع ودّ بريء. والحال أنه تتوفر لنا بصدد هذه المواقف خبرة كافية لننفذ بلا مشقة إلى الحياة النفسية لتلك المرأة المستقيمة والأم الممتازة ذات الثلاثة والخمسين عاماً. لقد كانت العاطفة التي تعتمل في نفسها أفظع وأحرج من أن تكون واعية، غير أنها ظلت، وهي في حالة اللاشعور، تمارس ضغطاً شديداً. وكانت المرأة بحاجة إلى شيء يحرِّرها من هذا الضغط، فوجدت الفرج في آلية النقل والإزاحة التي تلعب في غالب الأحيان دوراً في نشوء الغيرة الهذائية. فلو أنها، وهي المرأة المسنَّة، ليست وحدها التي تحبّ شاباً فتى، بل لزوجها أيضاً خليلة صغيرة السن، لشعرت بتحرر من وخز الضمير الذي لا بدّ أن تسبِّبه لها خيانتها تلك. وبذلك تكون الفكرة الثابتة لديها عن خيانة زوجها بمثابة بلسم مهدئ يطفئ لهب جرحها الحارق. ولئن لم تكن واعية لحبّها، فقد كانت تعي بالمقابل وعياً حاداً، يصل إلى حدّ الهوس، الانعكاس الوسواسي، الهذائي، الشعوري، لهذا الحب ـ وهو انعكاس تجني منه أعظم الفائدة. وما كان لجميع الحجج التي يمكن أن يُعترض بها على فكرتها الثابتة أن تجدي فتيلاً، لأن مثل تلك الحجج لم تكن موجهة إلا ضد الصورة المنعكسة، لا ضد الصورة الأصلية التي كانت هذه الصورة الأخيرة تدين لها بقوتها، والتي بقيت مختبئة في اللاشعور، في حرز منيع.

لنلخص المعطيات التي أمكن لنا أن نظفر بها من ذلك المجهود التحليلي النفسي المقتضب والعويص. فلعلها تتيح لنا أن نفهم تلك الحالة المَرَضية، وهذا بطبيعة الحال على فرض أننا نهجنا النهج الصحيح، وهو ما ليس لكم أن تحكموا عليه هنا. المعطى الأول: إن الفكرة الهذائية ليست شيئاً بعيداً عن المنطق ومستغلقاً على الفهم، بل إن لها معنى وحافزاً، وتحتلّ مكانها في سياق تجربة وجدانية مشحونة انفعالياً عاشتها المريضة. المعطى الثاني: هذه الفكرة الهذائية لازمة وضرورية من حيث أنها ردّ فعل على سيرورة نفسية لاشعورية أمكن لنا أن نحدس بها انطلاقاً من دلائل أخرى؛ وإنما بحكم الرابط الذي يربطها بهذه السيرورة النفسية اللاشعورية اكتسبت طابعها الهذائي ومقاومتها ضد جميع الحجج المستمدة من المنطق والواقع. بل إن هذه الفكرة الهذائية هي بحدّ ذاتها



شيء مؤاتٍ وضرب من العزاء. المعطى الثالث: إن التجربة المعاشة الكامنة خلف نشوء المرض هي التي تأدت بلا التباس إلى تحولها إلى فكرة هذائيةٍ دافعُها الغيرة وليس أي سبب آخر. وأنتم تذكرون في أرجح الظن أنها كانت صارحت الفتاة الدساسة بأن أكثر ما يخيفها هو أن يخونها زوجها. ولن يفوتكم أيضاً أن تتنبهوا إلى نقطتي التشابه الهامتين مع الفعل العرَضي الذي تقدم بنا تحليله[8]: فقد أفلحنا في كلتا الحالين في استخلاص معنى الظاهرة النفسية أو قصدها، وفي إماطة اللثام عن صلة هذا المعنى أو القصد بعنصر لاشعوري مرتبط بالموقف.

غني عن القول أننا لم نجب عن جميع الأسئلة ذات الصلة بالحالة التي نحن بصددها والتي هي مثقلة في الحقيقة بمعضلات، بعضها غير قابل للحلّ بعد، وبعضها الآخر تعذّر حلّه بسبب الظروف غير المؤاتية، الخاصة بهذه الحالة. فلماذا مثلاً وقعت هذه السيدة، السعيدة بزواجها، في حب صهرها، ولماذا أخذ الخلاص لديها شكل انعكاس في مرآة، شكل إسقاط لحالتها على زوجها، مع أنه كان من الممكن أن يتلبس أشكالاً مغايرة؟ لا تحسبوا أن هذه أسئلة باطلة ومجانية. بل هي تحتمل أجوبة نملك من الآن عناصر عدة منها. فمريضتنا بلغت تلك السن الحرجة التي تتأجج فيها الحاجة الجنسية لدى المرأة تأججاً مباغتاً وغير مساغ. وهذه الواقعة كافية بحدّ ذاتها، عند الاقتضاء، لتفسير كل الباقي. لكن من المحتمل أيضاً أن يكون الزوج الطيب والوفي قد افتقد منذ بضع سنوات القدرة الجنسية الكفيلة بمجاراة حاجة زوجته التي حافظت أكثر منه على عنفوانها. ونحن نعلم بالخبرة أن هؤلاء الأزواج، الذين لا يحتاج إخلاصهم إلى تفسير آخر أصلاً، يعاملون زوجاتهم بحنان خالص ويتقبلون بحلم وتسامح كبيرين اضطراباتهن العصبية. أضف إلى ذلك أنه أمر له أهميته أن يكون حب تلك السيدة ذو الطابع المَرَضي قد انصبّ على زوج ابنتها الشاب تحديداً. فالتعلق الإيروسي بالابنة، وهو تعلق يمكن رده في التحليل الأخير إلى جِبِلّة الأم الجنسية، كثيراً ما يجد سبيله إلى البقاء والاستمرار عن طريق مثل هذا التحويل. وهنا أحتاج إلى أن أذكّركم بهذا

٨ ـ عدم إغلاق المريض للبابين الفاصلين بين غرفة الانتظار وغرفة الاستشارة. «م».



الصدد بأن العلاقات الجنسية بين الحماة والصهر عُدّت منذ أقدم الأزمنة مستهجنة أشد الاستهجان، وقد أحاطتها الأقوام البدائية بضروب شتى من التحريم (التابو) والتدنيس الصارمين[٩]؟ وكثيراً ما تتجاوز هذه العلاقات، إن بالمعنى الإيجابي وإن بالمعنى السلبي، الحدّ المستساغ حضارياً. وبما أنه تعذر عليَّ أن أتابع تحليل هذه الحالة أكثر من ساعتين من الزمن، فلست مستطيعاً أن أقول لكم أياً من تلك العوامل الثلاثة هو المسؤول عن حالة مريضتنا: أهو واحد منها، أم اثنان، أم ثلاثتها مجتمعة؟

إني أنتبه الآن إلى أنني حدثتكم، سادتي، فقط عن أشياء لم تتهيأوا بعد لفهمها. وقد فعلت ذلك لأقيم موازاة ومقابلة بين طب الأمراض النفسية والتحليل النفسي. لكني أبيح لنفسي أن أطرح عليكم الآن هذا السؤال: هل سبق لكم أن انتبهتم إلى وجود تعارض بينهما في مضمار ما؟ إن الطب النفسي لا يستخدم الطرائق التقنية للتحليل النفسي، ولا يأبه لربط أي شيء كان بمضمون الفكرة الهذائية، ويكتفي بأن يدلّنا على الوراثة بصفتها عاملاً إتيولوجياً[١٠] عاماً وبعيداً، بدل أن يعكف على تقصي أسبابٍ أخصّ وعللٍ أقرب. لكن هل ثمة هنا من تناقض أو تعارض؟ ألا ترون أن الطب النفسي والتحليل النفسي لا يتنافيان، بل يتكاملان؟ وهل يتدخل هنا العامل الوراثي ليناقض ما للتجربة المعاشة من دلالة، أم أنهما يتضافران تضافراً فعالاً للوصول إلى نتيجة أوثق؟ وستوافقونني هنا على أن عمل الطب النفسي لا ينطوي في طبيعته على شيء يمكن اتخاذه حجة ضد البحث التحليلي النفسي. وإنما طبيب الأمراض النفسية، لا الطب النفسي، هو الذي يقف موقف معارضة من التحليل النفسي. وموقع هذا الأخير من الطب النفسي كموقع علم الأنسجة من علم التشريح: فأحدهما يدرس الأشكال الخارجية للأعضاء، وثانيهما يدرس الأنسجة والخلايا التي تتألف منها هذه الأعضاء. فمما لا يُتصور إذاً أن يقوم تناقض بين هذين المستويين من الدراسة اللذين يتمّم واحدهما الآخر. إن علم

٩ ـ انظر **الطوطم والتابو**، ١٩١٣.

١٠ ـ الإتيولوجيا: مبحث الأسباب، وتحديداً مبحث أسباب نشوء الأمراض. «م».



التشريح ينهض اليوم كما تعلمون أساساً لطبٍّ علمي، غير أنه مرّ حين من الزمن كان تشريح الجثث البشرية، الرامي إلى معرفة البنية الباطنة للجسم، من المحرمات، تماماً كما يدين بعضهم اليوم ممارسة التحليل النفسي الرامية إلى معرفة طريقة الاشتغال الداخلي للحياة النفسية. على أن كل ما حولنا يحملنا على الاعتقاد بأنه لم يعد بعيداً اليوم الذي يتضح فيه ويتأكد أن الطب النفسي العلمي حقاً يفترض معرفة جيدة بالسيرورات الدفينة واللاشعورية للحياة النفسية.

قد يكون لهذا التحليل النفسي، الذي حورب حرباً عواناً، بعض أنصار بينكم يطيب لهم أن يروه وقد ثبَّت موقع قدميه أيضاً كطريقة علاجية. وأنتم تعلمون أن المعالجة الطبية النفسية تقف عاجزة عن التأثير على الأفكار الهذائية. فهل يكون التحليل النفسي، العارف بآلية هذه الأعراض، أوفر حظاً وأكثر توفيقاً في هذا المضمار؟ كلا يا سادتي، فهو ليس أكثر فعالية، في الوقت الحاضر على الأقل، من أية طريقة علاجية أخرى في السيطرة على هذه الأمراض. صحيح أنه بوسعنا، بفضل التحليل النفسي، أن نفهم ما يجري في نفس المريض، لكن لا تتوفر لنا أي وسيلة لنجعل المريض يفهم ذلك هو نفسه. وقد أسلفت لكم القول إنني ما تمكنت، في الحالة التي عرضتها لكم في هذه المحاضرة، أن أنفذ بالتحليل إلى ما وراء الطبقات السطحية الأولى. فهل ينبغي أن نستنتج من ذلك أن تحليل هذا النوع من الحالات لا بدّ أن يهمل ويذر، لأنه عقيم لا يجدي فتيلاً؟ لا أعتقد ذلك. فمن حقِّنا، بل من واجبنا أن نواصل أبحاثنا، من دون أن نبالي بجدواها المباشرة. ثم إننا لا ندري أين ومتى يمكن للمعرفة الزهيدة التي تحصلت لنا أن تتحول إلى قدرة علاجية. وحتى لو دلل التحليل النفسي إزاء سائر الأمراض العصبية والنفسية عن عجز مماثل لذاك الذي أبداه حيال الأفكار الهذائية، فإنه يبقى مشروعاً ومبرراً تماماً كوسيلة لا بديل عنها للبحث العلمي. صحيح أننا لن نكون قادرين في هذه الحال على مزاولته، إذ إن الناس الذين نريد أن نتعلم عليهم، الناس الذين هم أحياء ومحبوون بإرادة خاصة ومحتاجون إلى حوافز شخصية كيما يمدّوا إلينا يد العون، سيمسكون عندئذ عن التعاون معنا. وعليه لا

أريد أن أختم اليوم هذه المحاضرة من دون أن أخبركم أن هناك طائفة واسعة من الاضطرابات العصبية يمكن فيها لتفهم أفضل أن يتحول بسهولة إلى قدرة علاجية، وأن التحليل النفسي يتيح لنا، في بعض الشروط، أن نصل في هذه الضروب من المرض التي يعسر النفاذ إليها إلى نتائج لا تقلّ أهمية البتة عن تلك التي يتمّ التوصل إليها في أي فرع آخر من فروع العلاج الطبي الداخلي.



المحاضرة السابعة عشرة

معنى الأعراض

سيداتي سادتي، أوضحت لكم في المحاضرة السابقة أنه على حين أن الطب النفسي السريري لا يولي كبير اهتمام لشكل تظاهر كل عرض من الأعراض ولمضمون هذا العرض، فإن تلك كانت بالضبط نقطة انطلاق التحليل النفسي الذي ركّز اهتمامه الرئيسي على هذا الشكل وهذا المضمون تحديداً، والذي أفلح بادئ ذي بدء في أن يثبت أن لكل عرض معنى وصلة وثيقة بالتجربة الحياتية للمريض. وأول من اكتشف معنى الأعراض العصابية هو ج. بروير (BREUER)[1] في دراسته وإعادة بنائه الناجحة لحالة هستيريا أضحت من الحالات المشهورة التي يشار إليها بالبنان منذئذ (١٨٨٠ ـ ١٨٨٢)[2]. صحيح أن ب. جانيه JANET[3] اكتشف الاكتشاف نفسه، مستقلاً عن بروير؛ بل إن

١ ـ جوزيف بروير: طبيب وعالم نفس نمساوي (١٨٤٢ ـ ١٩٢٥). عمل معه فرويد في بداية حياته العلمية في مختبر الدكتور بيركه واشترك معه في عام ١٨٩٥ في تأليف كتاب بعنوان **دراسات في الهستيريا**. وكان بروير يكبره بأربعة عشر عاماً، وكان يستخدم التنويم المغناطيسي في علاج المرضى النفسانيين، ثم ما لبث أن استعاض عنه بمنهج التطهير (كاثارسيس) الذي يقوم على انتزاع الأسرار التي ترهق المريض من أفكار وعواطف مكبوتة. ولكن فرويد لم يقف عند الحدّ الذي كان وصل إليه بروير، فانفصمت عرى التعاون بين الاثنين، ومضى فرويد في طريق التحليل النفسي وحيداً. وقد كتب عن بروير في **حياتي والتحليل النفسي** يقول: «لقد كلّفني نمو التحليل النفسي صداقته. لم يكن من السهل عليّ دفع هذا الثمن، لكن لم يكن في مقدوري أن أتفادى ما كان». «م»

٢ ـ تُعرف في تاريخ التحليل النفسي باسم آنا أو، واسمها الحقيقي مارتا بابنهايم، وقد نشر بروير تفاصيل حالتها في كتابه المشترك مع فرويد **دراسات في الهستيريا** (١٨٩٥). «م».

٣ ـ بيير جانيه: من رواد علم النفس التجريبي في فرنسا (١٨٥٩ ـ ١٩٤٧). جمع بين الطب والفلسفة، وله نحو من ثلاثين مؤلفاً من جملتها عدة دراسات عن العصاب والذاكرة والذكاء والفكر الانطوائي. «م».



هذا العالم الفرنسي تعود إليه أسبقية النشر، على اعتبار أن بروير لم ينشر دراسته إلا بعد مضيّ عشر سنوات (١٨٩٣ ـ ١٨٩٥)، يوم كنا نتعاون معاً. ولا يهمنا أصلاً أن نعلم لمن يعود الفضل في الاكتشاف، فكل اكتشاف يُكتشف أكثر من مرة، ولا وجود لاكتشاف يتم دفعة واحدة، كما أن النجاح لا يعزى دوماً إلى صاحب الاستحقاق. فأميركا لم تُسمَّ باسم كولومبوس. وقبل بروير وجانيه كان الطبيب النفسي العظيم لوريه LEURET[٤] قد أعرب عن رأي مفاده أنه لا يتعذَّر أن نجد معنى حتى لهذيان المرضى العقليين إذا عرفنا كيف نترجمه. وأُقرّ بأني كنت لفترة طويلة من الزمن أميل إلى أن أعزو إلى ب. جانيه فضلاً خاصاً في تفسيره للأعراض العصابية التي رأى فيها تعابير عن «أفكار لاشعورية»[٥] تهيمن على المرضى. لكن جانيه دلَّل فيما بعد على تحفظ مغالى فيه، وصرح بما من شأنه أن يوحي وكأن اللاشعور لا يعدو أن يكون في نظره «صيغة مجازية»، وأنه محض «طريقة في الكلام»[٦]، وأن هذا المصطلح لا يقابله في تصوره شيء في الواقع. ومنذئذ لم أعد أفهم استنتاجات جانيه، لكني أعتقد أنه أساء إلى نفسه إساءة فادحة، مع أن فضله كان يمكن أن يكون كبيراً.

للأعراض العصابية إذاً معناها، مثلها مثل الهفوات والأحلام، كما أنها ترتبط، نظيرها، بحياة الأشخاص الذين تتظاهر لديهم. وأريدكم أن تستوعبوا هذه الفكرة الهامة بمعونة بعض الأمثلة. وأنا أؤكد لكم أن هذا هو واقع الحال دوماً وفي كل الحالات، وإن لم يكن في مقدوري أن أبرهن عليه. ومن يبحث بنفسه عن تجارب، فسينتهي به الأمر لا محالة إلى الاقتناع بما أقوله. لكني، لأسباب خاصة، سأستعير أمثلتي، لا من الهستيريا، بل من عصاب آخر، ملفت للنظر هو

---

٤ ـ فرانسوا لوريه: عالم نفس وتشريح فرنسي (١٧٧٢ ـ ١٨٤٠). اشتهر بدراسته التشريحية المقارنة عن المخ، ووضع خريطة طبوغرافية لتجاويف القشرة الدماغية وثناياها. وفي مضمار علم النفس كان سبّاقاً إلى التأكيد بأن الأمراض العقلية لا تعود إلى أسباب بدنية حصراً. من مؤلفاته: **المعالجة المعنوية للجنون والتشريح المقارن للنظام العصبي**. «م».

٥ ـ بالفرنسية في النص. «م».

٦ ـ بالفرنسية أيضاً في النص.«م».



الآخر، وقريب الصلة في الواقع بالهستيريا، وسأقدِّم له بكلمة تمهيدية مقتضبة. إن هذا العصاب يسمَّى بالعصاب الوسواسي[٧]، ولكنه لم يصب من الشهرة ما أصابته الهستيريا التي يعرفها الناس جميعاً. وإن جاز لي القول، فهو أقل صخباً وجلبة، وأدنى إلى أن يكون شأناً خاصاً من شؤون المريض، ويكاد يستغني استغناء شبه تام عن التظاهرات البدنية ويركز كل أعراضه في المضمار النفسي. والعصاب الوسواسي والهستيريا شكلان عصابيان قدَّما للتحليل النفسي أول ركيزة للدراسة، وفي علاجهما أحرزت تقنيتنا العلاجية أروع نجاحاتها. لكن العصاب الوسواسي، الذي يفتقر إلى ذلك الامتداد الغامض من النفسي إلى الجسمي، أمكن للتحليل النفسي أن يجلوه وأن ينفذ إلى أسراره بوضوح أكبر مما في الهستيريا، وتهيأ لنا أن نلاحظ أنه يشفّ بقدر أكبر من الجلاء عن بعض السمات والخصائص المتطرفة للأمراض العصابية.

يتظاهر العصاب الوسواسي بكون المرضى تشغل بالهم أفكار لا تهمُّهم في الواقع، وتعتمل في أنفسهم نزوات اندفاعية تبدو لهم غريبة شاذة، ويجدون أنفسهم مدفوعين إلى أعمال لا يعود عليهم الإتيان بها بأي متعة، لكنهم لا يستطيعون منها فكاكاً البتة. وقد تكون الأفكار (التمثلات الوسواسية) عارية من المعنى بحدّ ذاتها، أو عديمة الأهمية بالنسبة إلى الشخص المعني، وغالباً ما تكون عبثية غير ذات معنى، وتستثير في كل الأحوال نشاطاً عقلياً مكثَّفاً ينهك المريض ولا يقوم به إلا على كره ومضض. فهو مضطر، رغماً عنه، إلى التفحص والتقصي وإعمال الفكر، كما لو أن القضية أهم قضاياه وأكثرها حيوية. كذلك إن النزوات الاندفاعية التي تعتمل في نفس المريض قد تبدو هي الأخرى صبيانية وعابثة، لكنها تنطوي في أغلب الأحيان على مضمون مرعب، فيشعر المريض وكأنه مدفوع إلى اقتراف جرائم خطيرة؛ فهو بالتالي لا يكتفي بأن يدفع عنه تلك

---

٧ ـ اختلف المترجمون الفرنسيون في ترجمة هذا المفهوم الأساسي في التحليل النفسي الفرويدي؛ فمنهم من ترجم المصطلح الألماني Zwangneurose بالعصاب الوسواسي Névrose obsessionelle ومنهم من ترجمه بالعصاب القهري Névrose de contrainte. وبما أن الترجمة الأولى هي التي ذاعت في العربية فقد أخذنا بها بدون أن يمنعنا هذا من اللجوء إلى نعت «القهري» عندما يطلق على الفعل العصابي لا على العصاب. (م).



النزوات الاندفاعية باعتبارها غريبة دخيلة، بل يهرب منها أيضاً مذعوراً ويذبّ عنه إغراءها بشتى ضروب التحظير والتحرز وتقييد حريته. والجدير بالذكر أن هذه الجرائم والفعال الشريرة لا تشقّ طريقها أبداً ولو إلى بداية تنفيذ: فالهرب والتعقل يظهران عليها دوماً في نهاية المطاف. أما الأفعال التي ينفِّذها المريض فعلاً، وهي تلك التي تسمَّى بالأفعال القهرية، فلا تعدو أن تكون أفعالاً بريئة، غير ضارة، غير ذات شأن في الحقيقة، وفي أغلب الأحيان مجرد تكرار وتنميق احتفالي للأفعال العادية في الحياة الجارية، فتكون النتيجة من ثم أن الأفعال اليومية التي لا مفرّ من القيام بها، كالرقود في الفراش والاغتسال وارتداء الثياب والخروج للتنزه، تغدو مشكلات شاقة، عويصة، شبه مستعصية على الحل. ولا تكون الأفكار والنزوات الاندفاعية والأفعال المَرَضية ممزوجة بنسبة واحدة في كل شكل من أشكال العصاب الوسواسي وفي كل حالة من حالاته: فغالباً ما ترجح كفة أحد هذه العوامل على ما سواه، فيطبع المرض بطابعه ويعيِّن له اسمه، لكن جميع الأشكال وجميع الحالات تشترك بسمات مشتركة يستحيل أن يخطئها التقدير.

إنه بكل تأكيد مرض غريب عجيب، وأعتقد أن طبيب الأمراض النفسية مهما أوتي من خيال مسرف فلن يفلح أبداً في ابتداع شيء يماثله. ولو كانت الفرصة لا تسنح لنا يومياً لمعاينة أشباه هذه الحالات، لشقَّ علينا أن نؤمن بوجودها. لكن لا تحسبوا أنكم تسدون للمريض خدمة لو نصحتموه بأن يتسلى ويسرّي عن نفسه، وألا يستسلم لأفكاره العابثة، وأن يستبدلها بأخرى أكثر تعقُّلاً. فهو يودّ من تلقاء نفسه لو يفعل ما تنصحونه به، لأنه واعٍ بحاله، ومشاطركم رأيكم في أعراضه القهرية، بل مكاشفكم به قبل أن تتلفظ به شفاهكم. ومع ذلك، إنه لا يملك من أمر نفسه شيئاً: فالفعل الذي يصدر عنه وهو تحت سطوة عصابه الوسواسي مشحون بطاقة ليس لها في أغلب الظن من نظير في الحياة السوية. فكل ما يستطيعه شيء واحد: أن ينقل ويقايض ويستبدل فكرة عابثة بأخرى تماثلها أو قد تكون أخفّ منها عبثاً، وأن يستعيض عن احتراس بآخر، وعن حظر بآخر، وأن ينجز فعلاً طقسياً محل فعل آخر. في مقدوره إذاً أن يجري تنقلاً في حافزه القهري، لكنه عاجز عن إبطاله. ونقل الأعراض، بحيث تبتعد كثيراً عن



شكلها البدائي، هو إحدى السمات الرئيسية لمرضه؛ ومما يسترعي الانتباه، فضلاً عن ذلك، أن التعارضات (الاستقطابات الثنائية) التي تتسم بها الحياة النفسية عادة تتجلى في حالته منفصمة انفصاماً جلياً للغاية. فإلى جانب الوسواس ذي المضمون الموجب والسالب، يظهر في المجال العقلي الشك الذي يتأكّل شيئاً فشيئاً الأشياء الأكثر ثباتاً بوجه عام. وتكون نتيجة ذلك كله تزايداً مطرداً في التردد والحيرة ونقصاً في النشاط وانحداداً للحرية. وهذا مع أن مريضنا كان فيما سلف رجلاً قوي الشكيمة، جلداً صبوراً، ذا ذكاء أعلى من المتوسط. كما أنه يكون في غالب من الأحيان ذا مستوى خلقي رفيع وضمير حيّ، وعلى درجة نادرة من الاستقامة. ولعلكم تحدسون بالمجهود الذي لا بدّ من بذله لنتمكن من الاهتداء إلى طريقنا وسط هذه الشبكة المتناقضة من السمات الطبعية والأعراض المَرَضية. ولذا لا نطمح في الوقت الحاضر إلا في القليل اليسير: أن نقتدر على فهم بعض هذه الأعراض وأن نتمكن من تأويلها.

قد ترغبون في أن تعرفوا سلفاً، وتمهيداً للمناقشة التي ستلي، كيف يتصرف الطب النفسي الراهن حيال مشكلات العصاب الوسواسي. والحق أن المادة التي تتصل بهذا الموضوع هزيلة ضئيلة. فالطب النفسي يخلع أسماء على مختلف ضروب الوسواس، ولكنه لا يقول شيئاً أكثر من ذلك بخصوصها. وبالمقابل، إنه يلحّ على كون حاملي هذه الأعراض من «المنحطّين». وهذا توكيد لا يقنع ولا يشفي غليلاً: فهو ليس تفسيراً، بل حكم قيمة، إدانة. صحيح أن الأشخاص الذين يشذّون عن المألوف يمكن أن تصدر عنهم أغرب الأفعال، ونحن لا نماري في أن الأفراد الذين تظهر عليهم أعراض من نوع أعراض العصاب الوسواسي لا بدّ أن تكون الطبيعة قد حبتهم بجبلّة مغايرة لجبلّة سائر الناس. لكننا سنتساءل: هل هم أكثر «انحطاطاً» من غيرهم من العصبيين، كالمهسترين مثلاً والمرضى المصابين بضروب الذهان PSYCHOSES؟ إن هذا التوصيف مسرف بلا مراء في عموميته. بل ربما كان جائزاً لنا أن نتساءل إن كان له ما يبرره، متى ما علمنا أن هذه الأعراض يمكن أن تظهر لدى أشخاص ممتازين، لهم مكانة اجتماعية رفيعة. وبوجه عام، نحن لا نعرف إلا النزر اليسير عن الحياة الحميمة لرجالنا



العظام: ومردّ ذلك إلى تكتُّمهم كما إلى حيدان كتاب سيَرهم عن جادة الصدق. لكن قد يحدث أحياناً أن يبادر أحد المهووسيين بالحقيقة، نظير إميل زولا[٨]، إلى تعرية حياته أمام أنظارنا، وعندئذ نعلم ما أكثر العادات القهرية التي كانت تصليه بنارها[٩].

لقد أوجد الطب النفسي، برسم هؤلاء المتميزين المعصوبين المتفوقين، صنف «المنحطِّين المتميِّزين». وما كان بوسعه أن يفعل خيراً من ذلك. لكن التحليل النفسي أبان لنا أن في قدرته إزالة هذه الأعراض الوسواسية الغريبة بصورة نهائية، مثلما تزال أعراض أخرى كثيرة، وهذا لدى المنحطِّين وغير المنحطِّين من الناس على حدّ سواء. وقد أفلحت أنا نفسي في ذلك أكثر من مرة.

سأسوق لكم مثالين عن تحليل عرض وسواسي. أحد هذين المثالين أقبسه من معاينة مضى عليها حين من الزمن، لأنني لا أجد خيراً منه[١٠]. وثانيهما أحدث عهداً. وسأكتفي بهذين المثالين، لأن هذا النوع من الحالات يقتضي إسهاباً في العرض وعدم إغفال لأي تفصيل.

سيدة في الثلاثين في العمر كانت تعاني من ظاهرات وسواسية على جانب كبير من الخطورة، وربما كنت وُفِّقت إلى تفريج كربها لولا حادث طارئ غادر حكَم بالبطلان على كل ما بذلته من جهد (قد أحدثّكم عنه يوماً ما). فمن جملة الأفعال القهرية التي كانت تكررها مراراً في اليوم الواحد فعل يسترعي

---

٨ ـ إميل زولا: من أشهر كتاب فرنسا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر «١٨٤٠ ـ ١٩٠٢». رائد المدرسة الطبيعية في الرواية. من أشهر مؤلفاته **آل روجون ماكار**، وهي عبارة عن فسيفساء روائية في عشرين مجلداً تصوِّر المجتمع الفرنسي في عهد الإمبراطورية الثانية. وقد خاض في السنوات الأخيرة من حياته معركة الدفاع عن ألفريد دريفوس وكتب في ذلك بيانه الشهير: **إني أتهم**. «م».

٩ ـ إ. تولوز(*): إميل زولا، تحقيق طبي ـ نفسي، باريس ١٨٩٦.

* إدوارد تولوز: طبيب نفسي وصحفي فرنسي (١٨٦٥ ـ ١٩٤٧). والعنوان الكامل لكتابه: **إميل زولا، تحقيق طبي ـ نفسي حول علاقة التفوق العقلي بالمرض العصبي**. «م».

١٠ ـ سرد فرويد هذا المثال الأول عن العصاب الوسواسي لأول مرة سنة ١٩٠٧ في مقال بعنوان **الأفعال القهرية والشعائر الدينية** نشر في مجلة **علم النفس الديني**. وانظر ترجمتنا لهذا المقال في **إبليس في التحليل النفسي**. «م».



الانتباه حقاً. فقد كانت تهرع من غرفتها إلى غرفة أخرى ملاصقة لها، وتقف في موضع محدد أمام المائدة التي تشغل وسط الغرفة، وتنادي خادمتها، وتصدر إليها أمراً ما أو تصرفها من حيث أتت بلا أمر، ثم تكرّ عائدة إلى غرفتها على عجل. صحيح أن هذا العرَض المرَضي لم يكن خطيراً، لكن كان من شأنه أن يثير الفضول. وقد أمكن الوصول إلى تفسيره من طريق موثوق لا يحتمل الشك، وبدون أدنى تدخل من قبل الطبيب. بل لست أرى كيف كان يمكن، لولا ذلك، أن أحدس بمعنى ذلك الفعل القهري أو أن أستشفّ أية إمكانية لتأويله. فكلما سألت المريضة: «لماذا تفعلين ذلك؟»، كانت تجيبني: «لا أدري». ولكن بعدما نجحتْ ذات يوم في التغلب على وخز حادّ للضمير لديها، اهتدت من تلقاء نفسها إلى التفسير على حين غَرَّة وسردت لي تفاصيل الواقعة التي تتصل بهذا الفعل القهري. فقبل أكثر من عشر سنوات كانت تزوَّجت من رجل يكبرها في السن كثيراً، وفي ليلة الزفاف أصابته عنَّة. فأمضى الليل وهو يجري من غرفته إلى غرفة زوجته ليجدِّد المحاولة، لكن في غير طائل. وفي صبيحة اليوم التالي قال لها مغيظاً: «إني سأخجل من الخادمة التي ستقوم بترتيب السرير». وعلى الأثر تناول قارورة من الحبر الأحمر، اتفق وجودها في الغرفة، وصبّ محتواها على ملاءة السرير، لكن ليس في المكان المحدد الذي يفترض أن توجد فيه بقع الدم. وفي بادئ الأمر لم أفهم الصلة ما بين هذه الذكرى وبين الفعل القهري لدى مريضتي، فقد كان تكرار الانتقال من غرفة إلى أخرى وظهور الخادمة هما الواقعتين اليتيمتين اللتين تمتّان بصلة إلى الموقف الأصلي. لكن المريضة اقتادتني إلى الغرفة الثانية وأوقفتني أمام المائدة، فرأيت على غطائها بقعة حمراء كبيرة. وشرحت لي أنها تقف أمام المائدة في وضع محدد بحيث لا يمكن أن يفوت الخادمة، عندما تناديها، أن ترى هذه البقعة. وعندئذ زال كل شك لديّ بصدد الوشائج الوثيقة بين مشهد ليلة الزفاف وبين الفعل القهري الراهن. لكن هذه الحالة كانت تتضمن معطيات أخرى كثيرة. فمن الواضح بادئ ذي بدء أن المريضة تتماهى مع زوجها، فتؤدي دوره مقلِّدة جريه من غرفة إلى أخرى. لكن حتى يكون هذا التماهي تاماً، يتعيَّن أن نسلِّم بأنها تستبدل السرير وملاءته بالمائدة وغطائها. وقد



يبدو لكم ذلك اعتباطياً، لكننا لم ندرس رمزية الأحلام عبثاً. ففي الأحلام أيضاً ينبغي تأويل المائدة التي يكثر ظهورها فيها على أنها بديل عن السرير. وما الزواج إلا اجتماع المائدة والسرير. فليس من العسير أن ينوب واحدهما مناب الآخر.

هكذا يكون قد قام الدليل على أن للفعل القهري معنى؛ فهو يبدو تمثيلاً، تكراراً للمشهد البليغ الدلالة الذي تقدَّم وصفه. لكن ليس ثمة ما يرغمنا على أن نقنع بهذا الظاهر؛ فلو أخضعنا الصلات بين ذلك المشهد وبين الفعل القهري لتحليل معمَّق فلربما ظفرنا بمعلومات عن وقائع أبعد غوراً، وعن القصد الكامن وراء الفعل القهري بالذات. فنواة هذا القصد تكمن، على ما هو بادٍ للعيان، في استدعاء الخادمة وتوجيه نظرها إلى البقعة، خلافاً للعبارة التي فاه بها الزوج: «إنني سأخجل من الخادمة». إذاً، فهي إذ تؤدي دور الزوج تصوِّره لنا وكأنه لا يخجل من الخادمة، على اعتبار أن البقعة موجودة في مكانها الصحيح. هكذا نرى أن المريضة لم تقنع بمحاكاة المشهد، بل كمَّلته وصحَّحته، وجعلته بادي النجاح. لكنها، بعملها هذا، صحَّحت الحدث المؤلم الآخر في الليلة المشهودة، أي الحدث الذي أوجب اللجوء إلى الحبر الأحمر: عنّة الزوج. إذاً، فمعنى الفعل القهري هو كالآتي: «كلا، ليس ذلك صحيحاً، وما كان له أن يخجل، فهو لم يكن ذا عنّة». وكما الحال في الأحلام صوَّرت هذه الرغبة وكأنها تحققت في فعل راهن، وامتثلت لأمنيتها في أن ترى زوجها وقد تغلَّب على فشله السابق.

تأييداً لما ذكرته لكم أستطيع أن أسوق لكم كل ما أعلمه بعد عن تلك المرأة. وبعبارة أدقّ: إن كل ما نعرفه أيضاً بشأنها يؤيّد تأويلنا هذا لفعلها القهري الذي هو بحدّ ذاته مستغلق على الفهم. فهذه المرأة تعيش منفصلة منذ أعوام عن زوجها، وتقاوم نيتها في أن تطلب فسخاً شرعياً للزواج. لكن ليس ثمة من مجال بالنسبة إليها لتنعتق من زوجها، فهي تشعر أنها مكرهة على أن تقيم على وفائها له، وتحيا معتكفة حتى لا تقع في التجربة، ومن ثم إنها تجد العذر لزوجها وتعظم شأنه في خيالها. بل أكثر من ذلك، فسرّ مرضها الدفين والأبعد غوراً يكمن في أنه يتيح لها أن تحمي زوجها من أقاويل الناس، ويبرر عدم معيشتهما تحت سقف واحد، ويمكّنها من أن تحيا حياة رغدة وهي منفصلة عنه. هكذا يقودنا تحليل فعل



قهري غير ذي بال مباشرة إلى النواة الخبيئة لحالة مرَضية ويميط لنا اللثام في الوقت نفسه عن جزء لا يستهان به من سرّ العصاب الوسواسي. وقد أطلت الوقوف عن عمد عند هذا المثال لأنه تتوفر فيه شروط ليس لنا أن نتوقع اجتماعها في سائر الحالات. وقد اهتدت المريضة هنا دفعة واحدة إلى تأويل أعراضها، بعيداً عن تدخل التحليل وتوجيهه، وبالارتباط بحادث وقع لا في عهد بعيد من عهود الطفولة، بل في طور كانت فيه المريضة قد أدركت أوج النضج، ثم استقرّ في ذاكرتها لا يبرحها. والحق أن جميع الاعتراضات التي يوجهها النقد عادة إلى تأويلاتنا للأعراض تتحطم على صخرة هذه الحالة وحدها. وغني عن البيان أنه لا تتاح لنا على الدوام فرصة الوقوع على أشباه هذه الحالات.

كلمة أخرى قبل أن أنتقل إلى الحالة التالية. ألم يسترعِ انتباهكم أن ذلك الفعل القهري البريء في الظاهر قد زجّ بنا في صميم حياة المريضة؟ وهل من شيء أكثر صميمية في حياة المرأة من قصة ليلة زفافها؟ وهل هو مجرد اتفاق عادم الأهمية أن يكون تحليلنا قد زجّ بنا في صميم حياة المريضة الجنسية؟ من الممكن، بطبيعة الحال، أن أكون قد وُفِّقت توفيقاً كبيراً في اختياري. لكن لنحاذر المسارعة إلى القطع برأي، ولننتقل إلى مثالنا الثاني، وهو من نوع مغاير تماماً، وعينة من طراز كثير الشيوع: الطقس المصاحب لفعل الرقاد.

فتاة جميلة في التاسعة عشرة من العمر، موهوبة كثيراً، ووحيدة لوالديها ومتفوقة عليهما بتعليمها وحدّة ذكائها. كانت في طفولتها فظّة الطباع ومتكبرة، وأضحت في السنوات الأخيرة، ودونما سبب ظاهر، عصبية إلى حدّ مرضي. وصارت تبدي أشد سخطها واغتياظها إزاء أمها؛ ثم إنها دائمة التبرم، مكتئبة، ميالة إلى التردد والشك، وانتهى بها الأمر إلى الإقرار بأنها ما عادت تجرؤ على اجتياز المساحات والشوارع الفسيحة بمفردها. وحالتها هذه حالة مَرَضية معقدة تحتمل تشخيصين اثنين على الأقل: رهاب الأماكن المفتوحة AGORAPHOBIE والعصاب الوسواسي. ولن نتوقف مطولاً عند هذه النقطة: فالشيء الوحيد الذي يعنينا في حالة هذه المريضة الطقس الذي تؤديه ساعة تهمّ بالنوم والذي هو مصدر حزن وكرب لوالديها. من الممكن القول، بمعنى من المعاني، إن كل شخص سويّ



له طقسه الخاص للنوم أو إنه يحرص على أداء بعض الأفعال التي لا يستطيع نوماً إذا لم ينفّذها؛ إذاً، فهو يحيط الانتقال من حالة اليقظة إلى حالة النوم ببعض الشكليات التي يكررها حرفياً كل ليلة. غير أن كل الشروط التي يحيط بها الإنسان السوي النوم تبقى قابلة للفهم عقلانياً، وإذا ما فرضت عليه الظروف الخارجية تغييراً ما، تكيَّف معه بيسر وسهولة ومن دون تضييع للوقت. لكن الطقس المَرَضي المنشأ تعوزه المرونة، وهو يفرض نفسه فرضاً ولو لقاء تضحيات باهظة، ويعرف كيف يحتمي خلف أسباب معقولة في الظاهر، ولا يبدو عند الفحص السطحي أنه يتميز عن الطقس السوي إلا بالدقة المسرفة في أدائه. لكن إذا تعمَّقنا في الفحص لاحظنا أن الطقس المَرَضي ينطوي على شروط لا يبررها أي سبب، وعلى شروط أخرى مجانبة، بمنتهى الجلاء، للعقل. إن مريضتنا تبرر الاحتياطات التي تتخذها ليلاً بأنها تحتاج إلى الهدوء كيما يمكنها النوم، ومن ثم لا بدّ أن تستبعد كل ما من شأنه أن تصدر عنه ضوضاء. وتحقيقاً لهذه الغاية تتخذ كل ليلة، قبيل الرقاد، الاحتياطين التاليين: توقف أولاً ساعة الحائط الكبيرة الموجودة في غرفتها عن العمل وتبعد جميع الساعات الأخرى عن غرفتها حتى من دون أن تستثني ساعة يدها الصغيرة الموضوعة في حقٍّ من الجلد، وتجمع ثانياً على مكتبها جميع أصص الزهر والأوعية وترتِّبها بعناية حتى لا يقع أي منها ليلاً فيوقظها من نومها. وهي تعلم حقَّ العلم أن الحاجة إلى الرقاد لا تبرر هذه التدابير إلا ظاهرياً، وتدرك أن ساعة اليد الصغيرة الموجودة في حُقِّها لا يمكن أن تعكّر صفو نومها بتكتكتها؛ ونحن نعرف جميعاً بالتجربة أن التكتكة الرتيبة والمنتظمة لساعة الحائط لا تعكّر صفو النوم، بل على العكس تيسِّره. وهي تسلِّم، علاوة على ذلك، بأن الخوف من وقوع أصص الزهر والأوعية من تلقاء نفسها ليس له ما يبرره في الواقع. أما شروط الطقس الأخرى فلا تمتّ بصلة إلى الحاجة إلى الرقاد. بل على النقيض من ذلك: فالمريضة تتطلب مثلاً أن يبقى الباب الذي يفصل غرفتها عن غرفة والديها منفرجاً، وتوصلاً إلى ذلك تثبّت الباب المفتوح بأغراض شتى، وهو احتياط من شأنه أن يصدر ضوضاء، ولولاه لما كان ثمة من احتمال في حدوث هذه الضوضاء. لكن أهم الاحتياطات هي تلك التي تتعلق بالسرير ذاته. فالوسادة



الموجودة في رأس السرير لا يجوز أن تلتصق بعارضته الخشبية. ومخدّة الرأس الصغيرة يجب أن توضع فوق الوسادة الكبيرة على شكلٍ معيَّنٍ، والمريضة تضع رأسها في اتجاه المنصِّف الطولاني لهذا المعيَّن. أما اللحاف المحشو بالريش فلا بدّ أن يُنفض مسبقاً بحيث يغدو طرفه السفلي الذي يلامس قدميها أسمك من طرفه العلوي. غير أنها لا تكاد تنتهي من فعل ذلك حتى تفعل عكسه وتسوِّي اللحاف بحيث لا يعود فيه طرف أسمك من طرف.

سأعفيكم من التفاصيل الأخرى في هذا الفعل الطقسي، فهي في أغلبها ذات دقة مسرفة ولا تضيف إلى علمنا شيئاً جديداً، هذا إن لم تباعد الشقَّة بيننا وبين الهدف الذي نضعه نصب أعيننا. لكن أودّكم أن تعلموا أن ذلك كله لا يتم بالسهولة والبساطة التي قد تتصورون. فمريضتنا تتخوف على الدوام من ألا تفعل كل شيء بعناية كافية: فكل فعل ينبغي أن يضبط ضبطاً محكماً وأن يكرر مراراً، وكل تدبير احتياطي يبقى أسير الشك والارتياب، وجميع هذه الأفعال تستغرق ساعة أو ساعتين لا يتأتى فيهما النوم للفتاة ولا لوالديها المرتاعَيْن.

إن تحليل جميع ضروب الإزعاج والتنغيص هذه لم يكن سهلاً سهولة تحليل الفعل القهري لدى مريضتنا السابقة. فقد وجدتني مكرهاً على أن آخذ بيد الفتاة وأن أقترح عليها مشاريع للتأويل كانت ترفضها كلها بنفي قاطع أو لا تستقبلها إلا بشكّ وازدراء. غير أن رد الفعل الرفضي الأول هذا أعقبه طور أولت فيه الفتاة نفسها اهتماماً للاحتمالات التي اقترحتها عليها، فراحت تسعى إلى استحضار ما يمكن استحضاره من خواطر ومتداعيات بصدد هذه الاحتمالات، وتسترجع ذكريات، وتعيد بناء وقائع وأحداث، وفي نهاية الأمر قبلت بجميع تآويلنا، ولكن بعد أن أعادت صياغتها بنفسها. وطرداً مع تقدم هذا العمل، كان إسرافها في التدقيق في تنفيذ أفعالها القهرية يخفّ رويداً رويداً، وتخلّت عن جملة طقوسها حتى قبيل انتهاء المعالجة. وينبغي أن تعلموا أيضاً أن العمل التحليلي، كما نزاوله اليوم، لا يتوقف عند كل عرض على حدة إلى أن ينجلي تمام الانجلاء. بل نضطر في كل لحظة وآن إلى أن نغضّ الطرف مؤقتاً عن موضوع أو آخر، لثقتنا بأننا سنلتقيه ثانية عند تطرُّقنا لموضوعات أخرى. وعلى هذا، إن تأويل الأعراض الذي



سأقدِّمه إليكم اليوم هو تركيب لجملة من النتائج التي اقتضانا جمعها أسابيع وشهوراً بالنظر إلى أنه كان يتعيَّن علينا أن نقوم أثناء ذلك بأعمال أخرى.

لقد أخذت مريضتنا تفهم رويداً رويداً أنها إن كانت لا تطيق وجود ساعة الحائط في غرفتها ليلاً، فذلك من حيث هي رمز تناسلي مؤنث. فساعة الحائط، التي نعرف لها تأويلات رمزية أخرى أيضاً، تؤدي دور الرمز التناسلي المؤنث بالنظر إلى انتظامية عملها وتوقيته الدوري على فترات متساوية[١١]. وكثيراً ما قد تتباهى المرأة بالقول إن طمثها منتظم كالساعة. لكن ما كانت تخشاه مريضتنا في المقام الأول هو أن تعكِّر عليها تكتكة الساعة نومها. فهذه التكتكة يمكن أن تعدّ تمثيلاً رمزياً لنبض البظر أثناء التهيج الجنسي. وبالفعل، كثيراً ما كان أيقظها من نومها هذا الإحساس الممضّ؛ والخوف من انتعاظ البظر هو الذي جعلها تستبعد من جوارها في الليل جميع الساعات التي تعمل، علاوة على إيقاف ساعة الحائط. وأصص الزهر والأوعية، مثلها مثل سائر الآنية، رموز مؤنثة هي الأخرى. وعلى هذا، إن الخوف من احتمال سقوطها ليلاً وتحطُّمها ليس خلواً من كل معنى. وأنتم تعرفون تلك العادة الشائعة: عادة كسر وعاء أو صحن عند عقد الخطوبة، واستحواذ كل رجل من الحضور على شظية منه، وهذا ما يتعيَّن علينا تفسيره، بالرجوع إلى مرحلة الزواج ما قبل الأحادي، على أنه عزوف عن الحقوق التي يمكن أن تكون لكل رجل، أو التي يتصور أنها له، على المخطوبة. وكانت الفتاة تربط هذا الجزء من فعلها الطقسي بذكرى محددة وبعدد من الخواطر. فقد وقعت أرضاً في طفولتها، وهي تمسك بيدها وعاء من زجاج أو من خزف، فجرح أصبعها ونزف منه دم كثير. فلما شبّت عن الطوق وأحاطت علماً بحقائق العلاقات الجنسية، استبدّ بها خوف وقلق من أن لا تنزف ليلة زفافها، فيتولَّد شك في ذهن زوجها في عذريتها وبكارتها. إذاً فالاحتياطات التي تتخذها للحؤول دون انكسار الأوعية هي وسيلة لتدفع عن نفسها كل العقدة المتصلة بالبكارة وبالنزيف الذي لا بدّ أن يعقب المعاشرة الجنسية الأولى؛ وسيلة للتخلص من خوفها من أن تنزف كما من خوفها ـ على العكس ـ من ألا تنزف. أما

١١ ـ معلوم أن ساعات الجيل الأول كانت ذات نابض يُرضّ ويعاد رضّه كل أربع وعشرين ساعة. «م».



احتياطاتها من الضوضاء فليس لها إلا صلة بعيدة بمسعاها إلى اتقاء الأصوات، وإن عزتها إليها أصلاً.

لقد كشفت عن المعنى المركزي لطقسها يوم فهمت على حين بغتة ما السبب الذي يحملها على ألا تريد أن تتصل الوسادة بعارضة السرير الخشبية، إذ قالت: إن الوسادة هي على الدوام امرأة، بينما عارضة السرير القائمة رجل. وعلى هذا فهي تريد، بعمل من أعمال السحر ـ إن جاز لنا إدراج هذه الملاحظة ـ أن تفصل بين الرجل والمرأة، أي أن تمنع والديها من الاتصال الجنسي. وكانت قد سعت، قبل أن يستحوذ عليها طقسها بزمن طويل، إلى بلوغ الهدف نفسه بطريقة مباشرة أكثر. فقد كانت تتظاهر بالخوف أو تتذرع بخوف فعلي كيما ترغم والديها على أن يتركا الباب الذي يفصل غرفة نومهما عن غرفتها مفتوحاً أثناء الليل. وقد حافظت على هذا الإجراء في طقسها الراهن. وبذا أتاحت لنفسها الفرصة لمراقبة والديها، ومن شدة توقها إلى الاستفادة من هذه الفرصة جلبت على نفسها أرَقاً دام عدة أشهر. وما كفاها أن تزعج والديها على هذا النحو، بل توصَّلت أيضاً إلى الفوز بالحقّ في أن تدسّ نفسها بين الحين والآخر في سريرهما، بين الأم والأب. وعندئذ ما كان يمكن فعلاً لـ «الوسادة» و«عارضة السرير» أن تلتقيا. ولما شبّت أخيراً عن الطوق، وبات متعذراً عليها أن تنام مع والديها من دون أن تضايقهما وتضايق نفسها، صارت تتفنن في اصطناع الخوف لتجبر أمها على أن تخلي لها مكانها بجوار الأب وتأتي لتنام في سريرها هي. وهذا الموقف كان بكل تأكيد منطلقاً لبعض الأخاييل التي نلمس أثرها اللاحق في طقسها.

فإن تكن الوسادة رمزاً مؤنثاً، فإن فعل نفض اللحاف إلى أن يتكدس كل الريش في قسمه السفلي ويحدِث فيه انتفاخاً له بدوره معنى: فهو يشير إلى إحبال المرأة. غير أن مريضتنا كانت لا تلبث، بتسويتها ريش اللحاف، أن تبطل هذا الحبَل، لأنها عاشت سنوات عديدة في خوف من أن يتمخض الاتصال بين والديها عن طفل جديد يكون منافساً لها ومزاحماً. وبالمقابل، إن تكن الوسادة الكبيرة كرمز مؤنث تمثل الأم، فإن مخدة الرأس الصغيرة لا يمكن أن تمثل إلا الابنة. فلمَ كان يتوجب أن توضع المخدة على الوسادة بحيث ترسم عليها شكلَ



معيّنٍ، ولمَ كان يتعيَّن أن تضع مريضتنا رأسها باتجاه القطر المنصِّف لهذا المعيِّن؟ لأن المعيِّن يمثل شكل الجهاز التناسلي عند المرأة حين يكون منفرجاً. إذاً فهي التي تقوم بأداء دور الذكر، مستبدلة الجهاز التناسلي المذكَّر برأسها (انظر: «قطع الرأس كتمثيل رمزي للخصاء»)[١٢].

قد تقولون لي: ما أبأسها من أفكار تلك التي بزغت في رأس هذه الفتاة العذراء! أنا أوافقكم على ذلك، لكن لا تنسوا أنني لم أخترع هذه الأفكار من عندي، بل اكتفيت بتأويلها. والطقس الذي وصفته لكم غريب هو الآخر في نوعه، وثمة تطابق لا أظنه خفِي عليكم بين هذا الطقس وبين الأخاييل التي كشف لنا التأويل النقاب عنها. لكن الأهم من ذلك كله أن تفهموا أن الطقس المشار إليه قد استوحته الفتاة لا من أخيولة واحدة يتيمة، وإنما من عدد كبير من الأخاييل التي تتلاقى جميعها في نقطة العقدة. وأرجح الظن أنكم انتبهتم أيضاً إلى أن تفاصيل هذا الطقس تترجم الرغبات الجنسية تارة باتجاه إيجابي وطوراً باتجاه سلبي، إذ تفيد من جهة في تمثيلها ومن جهة أخرى في حماية الذات منها.

كان من الممكن لتحليل هذا الطقس أن يمدنا بعد بنتائج أخرى لو أخذنا بعين الاعتبار الكامل سائر الأعراض التي تتظاهر لدى المريضة. لكن ذلك يتجاوز الهدف الذي رسمناه لأنفسنا هنا. حسبكم إذاً أن تعلموا أن تلك الفتاة كانت تشعر نحو أبيها بانجذاب إيروسي ترجع بداياته إلى طفولتها، وربما كان علينا أن نرى في هذه الواقعة علّة موقفها، الذي لا يتميز بودّ كثير، من أمها. وهكذا يكون تحليل هذا العرض قد زجّ بنا أيضاً في حياة المريضة الجنسية، وهو شيء سيتضاءل استغرابنا له كلما تسنى لنا أن نزداد معرفة بمعنى الأعراض العصابية وقصدها.

لقد بيّنت لكم من خلال مثالين مختارين أن الأعراض العصابية، مثلها مثل الهفوات والأحلام، ذات معنى وأنها وثيقة الارتباط بحياة المرضى الحميمة. ومن المحقق أني لا أستطيع أن أطلب إليكم تبني أطروحتي هذه بناء على ذينك المثالين

١٢ ـ يحيل فرويد هنا ضمنياً إلى مقاله: **علاقة بين رمز وعرَض**. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.



وحدهما. لكنكم لا تستطيعون، من جانبكم، أن تطلبوا إليّ أن أسوق إليكم عدداً غير محدود من الأمثلة إلى أن يكتمل اقتناعكم. وبالفعل، ونظراً إلى اضطراري إلى عرض كل حالة بكامل تفاصيلها، فسأجدني محتاجاً إلى خمس ساعات أسبوعياً على مدار السنة الدراسية لكي أجلو لكم هذه النقطة وحدها من نظرية الأعصبة. إذاً فحسبي هذان المثالان إثباتاً لأطروحتي، وأحيلكم، إذا طلبتم المزيد، إلى الكتابات التي نشرت حول هذا الموضوع، وأخص بالذكر التأويل الكلاسيكية للأعراض في الحالة الأولى التي عالجها د. بروير (الهستيريا)[١٣]، والتفاسير الأخاذة للأعراض الشديدة الإبهام لما يُسمى بالخبل المبكر[١٤]، وهي تفاسير نشرها ك.غ. يونغ يوم كان هذا المؤلِّف مجرد محلل نفسي، لا يتطلع إلى أداء دور نبيّ[١٥]. وأحيلكم، علاوة على ذلك، إلى سائر المقالات التي حفلت بها مذّاك مجلاتنا ودورياتنا. والحق أن هذا النوع من الأبحاث لا يشكو من القلة. فتحليل الأعراض العصابية وتأويلها وترجمتها استأثر باهتمام المحللين النفسيين، حتى أهملوا سائر المشكلات الأخرى المتصلة بالأعصبة.

ومن شاء منكم أن يجشِّم نفسه عناء الرجوع إلى هذه المراجع، فسيذهل ولا بدّ لوفرة المواد التي جمعت عن هذه المسألة ولمتانتها. لكنه سيصطدم أيضاً بإشكال. فنحن نعلم أن معنى العرض يكمن في صلاته بحياة المرضى الحميمة. فكلما مال العرض إلى أن يكون متفرداً، تعيَّن علينا أن نجدّ أكثر في تحديد تلك الصلات. والمهمة التي تقع على عاتقنا، حين تواجهنا فكرة بلا معنى وفعلة بلا هدف، أن نهتدي إلى الموقف الماضي حيث كان لهذه الفكرة ما يبررها وحيث كانت تلك الفعلة تخدم هدفاً. إن الفعل القهري لمريضتنا، حين تثب إلى المائدة

١٣ ـ الإحالة هنا إلى **دراسات في الهستيريا**. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

١٤ ـ الإحالة هنا إلى **حول علم نفس الخبل المبكر**. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

١٥ ـ المرارة التي يهاجم فرويد بها كارل غوستاف يونغ (١٨٧٥ ـ ١٩٦١) تتناسب طرداً مع عمق الصداقة التي كانت تجمع بينهما في أول الأمر والتي رشّحت يونغ لأن يكون خليفة فرويد. لكن ابتداء من عام ١٩١٢ تكرست القطيعة بينهما، وأعاد يونغ، في ما أعاد مراجعته، النظر في مفهوم الليبيدو (الطاقة الحبوية عنده بدلاً من الطاقة الجنسية) وقال بمفهوم اللاشعور الجمعي في مقابل اللاشعور الفردي المتحدد بالخبرات الحياتية للطفولة. «م».



وتنادي خادمتها، نموذج مباشر لهذا النوع من الأعراض. لكن غالباً ما نلحظ أيضاً أعراضاً ذات طابع مغاير تماماً. ويتعيَّن علينا أن ننعتها بأنها أعراض «نمطية» للمرض، لأنها تكاد تكون واحدة في الحالات طراً، إذ تختفي الفروق الفردية أو تمَّحي حتى ليغدو من الصعوبة بمكان ربط هذه الأعراض بحياة المرضى الحميمة أو الاهتداء إلى ما بينها وبين التجربة الفردية المعاشة للأفراد من صلات. والطقس الذي تؤديه مريضتنا الثانية ينطوي على كثير من تلك السمات النمطية، لكنه يشتمل أيضاً على قدر لا يستهان به من السمات الفردية التي تفسح في المجال أمام تأويل **تاريخي** ـ إن جاز القول ـ لهذه الحالة. على أن جميع المرضى بالعصاب الوسواسي يميلون إلى تكرار أفعال بعينها، وإلى توقيتها بحيث يكون لها إيقاع معلوم، وإلى عزلها بعضها عن بعض. فالكثيرون منهم مصابون بهوس الاغتسال. أما المرضى المصابون برهاب الأماكن المكشوفة AGORAPHOBIE (أو الطوبوفوبيا TOPOPHOBIE، أي رهاب الخلاء)، وهو مرض يتجاوز نطاق العصاب الوسواسي ونطلق عليه اسم الهستيريا الحَصَرية، فإنهم يكررون برتابة متعبة في الغالب سمات بعينها بحسب تصنيف أمراضهم: خوف الأماكن المنحصرة، خوف الميادين الفسيحة المكشوفة، خوف الشوارع والطرق المترامية على مدّ النظر. ويتراءى لهم أن الحماية تكون متوفرة لهم متى ما صاحبهم شخص من معارفهم أو سمعوا عربة تسير خلفهم. لكن كل مريض منهم ينفرد، من خلال هذه اللوحة المشتركة المتماثلة، بسمات خاصة به، أو بنزوات إن صحّ التعبير تتباين من حالة إلى أخرى أشد التباين. ففلان يتوجَّس من الشوارع الضيقة، وعلان من الشوارع العريضة. وأحدهما لا يستطيع أن يسير في الشارع إلا إذا كان شبه خاوٍ من السابلة، وثانيهما لا يطمئن له بال إلا إذا كان الشارع يعجّ بالمارّة. والأمر بالمثل في الهستيريا: فعلى الرغم مما تحفل به من سمات فردية، فإنها تزخر أيضاً بخصائص عامة ونمطية كثيرة تجعل من الصعوبة بمكان، فيما يبدو، إرجاعها إلى تاريخها. لكن لا يغرب عن بالنا أن هذه الأعراض النمطية هي ما نسترشد به في تشخيصنا. فإن وفِّقنا فعلاً في حالة بعينها من حالات الهستيريا إلى ردّ عرض نمطي إلى تجربة معاشة شخصية أو إلى سلسلة من تجارب



وخبرات شخصية مماثلة، كأن نردّ مثلاً القيء الهستيري إلى سلسلة من انطباعات باعثة على الغثيان، فإن الأمر يسقط في أيدينا بالمقابل ويرتج علينا حين يكشف لنا التحليل في حالة أخرى من حالات القيء عن دور مفترض لسلسلة أخرى من التجارب والخبرات الشخصية مغايرة تماماً في طبيعتها. وعندئذ نجدنا ميالين إلى التسليم بأن ظاهرات التقيؤ لدى الهستيريين ترجع إلى علل نجهلها، على اعتبار أن المعطيات التاريخية التي يكشف عنها التحليل لا تعدو أن تكون محض ذرائع وتعلاّت تستغلها، متى ما سنحت الفرصة، تلك الضرورة النفسية الباطنة.

هكذا ننتهي إلى النتيجة المثبِّطة التالية وهي أنه إذا أتيح لنا أن نظفر بتفسير مقنع لمعنى الأعراض العصابية الفردية على ضوء صلتها بالتجربة الحياتية للمريض، فإن فنّنا لا يسعفنا بالمقابل في الاهتداء إلى معنى الأعراض النمطية، وهي الأكثر تواتراً وشيوعاً بكثير. فضلاً عن ذلك، إني لم أطلعكم على كل الصعوبات التي نصطدم بها إن أردنا مواصلة التأويل التاريخي للأعراض إلى نهايته. وسأمتنع عن تعداد هذه الصعوبات، لا رغبة مني في تجميل الأشياء أو في إخفاء ما هو غير مستحبّ منها عنكم، وإنما لأني لا أريد تثبيط هممكم أو إيقاعكم في بلبلة وتشويش من بدء دراستنا المشتركة هذه. صحيح أننا لم نخطُ بعد إلا الخطوات الأولى في طريق تفهم ما تعنيه الأعراض، لكن علينا أن نقنع مؤقتاً بما ظفرنا به من نتائج، فلا نتقدم إلا على مهل في اتجاه المجهول. إذاً سأحاول أن أسرِّي عنكم بإنبائكم أنه من العسير التسليم بوجود فارق أساسي بين هذين النوعين من الأعراض. فإن تكن الأعراض الفردية مرتهنة بلا جدال بالتجارب التي عاشها المريض، فمن المباح لنا الافتراض بأن الأعراض النمطية قابلة لأن تُردّ إلى تجارب حياتية نمطية هي الأخرى، أي مشتركة بين الناس كافة. كما أن السمات الأخرى التي تلحظ باطِّراد في الأعصبة يمكن أن تكون استجابات عامة تفرضها قهرياً على المرضى طبيعة التشوُّهات المرَضية بالذات، كالتكرار والشك على سبيل المثال في حالة العصاب الوسواسي. زبدة القول، ليس ثمة من داعٍ للاستسلام للقنوط قبل أن نعرف النتائج التي يمكن أن نظفر بها لاحقاً.

لقد واجهنا في نظرية الحلم إشكال مماثل، وإن لم يتسنَّ لي أن أتكلم عنه في



أحاديثنا السابقة عن الحلم. فالمضمون الظاهري للأحلام ينطوي على تنوعات وفروق فردية كبيرة، وقد أسهبنا في بيان ما يمكن أن نستخلصه بواسطة التحليل من هذا المضمون. لكن إلى جانب هذه الأحلام توجد أحلام أخرى بوسعنا أن نصفها بدورها بأنها «نمطية»، وهي تحدث على نحو متماثل لدى الناس قاطبة. إنها أحلام ذات مضمون أحادي الشكل، والصعوبات التي تنصبها في وجه التأويل واحدة: أحلام يرى فيها النائم أنه يسقط أو يطير أو يحلّق أو يسبح، وأحلام يشعر فيها بأن ثمة ما يكبّله ويعيقه أو يرى فيها نفسه عارياً، وغير ذلك من أحلام حَصَرية تحتمل تأويلات مختلفة باختلاف الأشخاص، من دون أن نهتدي في الوقت نفسه إلى سرّ رتابتها ونمطية حدوثها. لكننا نلحظ أن الأساس المشترك لهذه الأحلام يُبعث من جديد كل مرة من خلال إضافات متغيِّرة تبعاً للأفراد. ومن المرجَّح أننا لو توسّعنا في تصوراتنا لأفلحنا في إدراجها، دون قسر أو غصب، في فهمنا للحياةالحلمية كما تحصَّل لنا من خلال دراستنا الأحلام الأخرى.

المحاضرة الثامنة عشرة

التثبيت على فعل رَضِّيّ ـ اللاشعور

سيداتي سادتي، قلت لكم في ما تقدم إني أريد الانطلاق، كيما نوالي بحثنا، لا من شكوكنا، بل من معطياتنا المكتسبة. والحال أننا لم نتحدث بعد البتة عن أهم نتيجتين يمكن استخلاصهما من التحليلين اللذين سقتهما لكم في المحاضرة السابقة كنموذجين.

أولاً: تترك كلتا المريضتين لدينا انطباعاً بأنهما **مثَّبتتان**، إن جاز القول، على شطر محدَّد من ماضيهما، لا تستطيعان منه فكاكاً، وأنهما غريبتان بالتالي عن الحاضر والمستقبل. إنهما معتصمتان بمرضهما مثلما كان الناس يلوذون بالأديرة هرباً من مصير تعس. فلدى مريضتنا الأولى كان الزواج الذي لم يستكمل جنسياً علة كل شقائها. وعن طريق أعراضها تواصل علاقتها مع زوجها، وفيها نسمع الأصوات التي تنتصر له وتنافح عنه وتقيله من كبوته وتتحسر على فقده. وبالرغم من أنها لا تزال شابة وقابلة لأن تكون مشتهاة من رجال آخرين، فإنها تلجأ إلى كل الاحتياطات الواقعية والخيالية (السحرية) لتحفظ عهده وتبقى على وفائها له. فهي لا تظهر للغرباء، وتهمل مظهرها، وتجد عناء في النهوض عن المقعد الذي تجلس عليه، وتتردد في توقيع شيء باسمها، وتعجز عن تقديم هدية لأحد، بحجة أنه لا يجوز لأحد أن يحوز منها شيئاً.

أما مريضتنا الثانية، الصبية، فإن التعلق الإيروسي بأبيها، الذي أفصح عن نفسه في سنوات ما قبل بلوغها، هو ما كان له حاسم الأثر في حياتها اللاحقة. وقد استخلصتْ من حالتها نتيجة مؤداها أنها لن تستطيع أن تتزوج ما دامت مريضة. لكن لدينا من الأسباب ما يحملنا على الاشتباه بأنها لم تمرض إلا لكيلا تتزوج ولكي تبقى بجوار أبيها.



ولا يجوز لنا أن نهمل سؤالاً محدداً، وهو أن نعرف كيف وبأي وسائل ولأي دوافع يمكن للإنسان أن يقف مثل هذا الموقف الغريب والخاسر من الحياة؟ وهذا على فرض أن هذا الموقف صفة عامة للعصاب، وليس صفة خاصة بمريضتينا. وبالفعل، إن هذه سمة مشتركة بين جميع الأعصبة، ولها دلالتها الكبيرة من وجهة النظر العملية. ولقد كانت مريضة بروير المهسترة الأولى مثبَّتة هي الأخرى على الزمن الذي كانت تعتني فيه بوالدها عقب إصابته بمرض خطير. ومنذئذ، وبالرغم من شفائها، صفَّت حسابها إن جاز التعبير مع الحياة . وصحيح أنها استردت عافيتها والقدرة على القيام بجميع وظائفها بصورة طبيعية، إلا أنها أعرضت عن المصير الطبيعي لكل امرأة. ونستطيع أن نلاحظ، عندما نحلل كل واحد من مرضانا، أن أعراضه المَرضية والعواقب التي تنجم عنها تردّه إلى طور محدّد من ماضيه. وفي غالبية الحالات يختار المريض لهذا الغرض مرحلة مبكرة جداً من حياته، وبالتحديد طفولته الأولى، بل حتى المرحلة التي كان فيها رضيعاً، مهما بدا لكم ذلك باعثاً على الاستغراب.

إن الأعصبة المسماة بالرضِّية TRAUMATIQUES، التي تواتر ظهورها في أثناء الحرب الدائرة في أيامنا هذه، تقدِّم لنا أول مماثلة مع الأعصبة التي نتحدث عنها هنا. ومن المؤكد أننا كنا نلتقي قبل الحرب حالات من هذا القبيل إثر كوارث السكك الحديدية وغيرها من الفواجع المريعة. لكن الأعصبة الرضِّية لا يمكن في الواقع أن تماثل تمام المماثلة الأعصبة التلقائية التي نخضعها عادة للفحص وللعلاج التحليلي، والتي لم يتسنَّ لنا بعد أن نصنفها وفق معاييرنا، وآمل أن أتمكن من تعليل ذلك لكم ذات يوم. بيد أن بين هذين النوعين من الأعصبة تشابهاً تاماً بصدد نقطة واحدة: فالأعصبة الرضّية تتثبت على اللحظة التي وقع فيها الحادث الراضّ. فهؤلاء المرضى يسترجعون في أحلامهم باطراد الموقف الراضّ؛ والحال أننا نلاحظ في الحالات التي تصحبها نوبات ذات شكل هستيري وقابلة للتحليل أن كل نوبة تعادل استعادة كاملة لذلك الموقف. فلكأن المرضى ما زالوا يواجهون الموقف الراضّ إياه، ولكأن هذا الموقف يطرح نفسه عليهم كمشكلة راهنة، ملِحّة. ونحن ننظر بعين الجِدّ إلى تصورهم هذا: فهو يدلنا إلى



الطريق إلى تصور **اقتصادي**، إن جاز القول، للسيرورات النفسية. بل إن لفظ الرضّة نفسه ليس له من معنى غير المعنى الاقتصادي. فنحن نطلق هذا الاسم على حدث معاش يتسبب، في هنيهة من الزمن، في إحداث تنبيه فائق الشدة في الحياة النفسية بحيث يغدو من المستحيل إلغاؤه أو امتصاصه بالطرق السوية، مما يترتب عليه خلل دائم في الاشتغال الوظيفي للطاقة النفسية.

إن هذا التشابه يحدونا إلى إطلاق الصفة الرضّية على الأحداث والخبرات المعاشة التي يبدو مرضانا العصبيون مثبَّتين عليها. وهكذا نظفر بشرط في منتهى البساطة للإصابة العصابية: فالعصاب يمكن أن يُشبَّه بإصابة رضّية، وقابل لأن يُفسَّر على هذا الأساس بعجز المريض عن الاستجابة بكيفية سوية لتجربة معاشة ذات شحنة انفعالية عالية. وهذا شبيه بما قلناه بالفعل في أول صيغة لخَّصنا فيها بروير وأنا في ١٨٩٣ ـ ١٨٩٥ نتائج ملاحظاتنا الجديدة[١]. وإن حالة كحالة مريضتنا الأولى، أي المرأة العصبية المنفصلة عن زوجها، تتمشى تماماً مع هذه النظرة. فالجرح المعنوي الذي أصابها من جراء عدم استكمال زواجها لم يلتئم قط، فبقيت مغلولة إلى هذه الرضة. لكن حالتنا الثانية، حالة الفتاة المتعلقة إيروسياً بأبيها، تدل أن صيغتنا ليست على درجة كافية من الاستيعاب. فحبّ بنت صغيرة لأبيها حدث شائع جداً وشعور يسهل جداً الظهور عليه، بحيث أن إطلاق صفة «الرضّية» على هذه الحالة قد يبدو عادم المعنى. هذا من جهة، أما من الجهة الأخرى فإنه يتضح لنا من تاريخ المريضة أن ذلك التثبيت الإيروسي الأول كان في بادئ الأمر ذا طابع بريء لا ضير منه، ولم يفصح عن نفسه في أعراض العصاب الوسواسي إلا في زمن متأخر جداً. إذاً فنحن نتوقع أن تواجهنا هنا تعقيدات، إذ إن شروط الحالة الرضية أكثر تعداداً وتنوعاً مما كنا نفترض، لكن يقيننا يبقى راسخاً بأن وجهة النظر الرضية لا يجوز أن تُنحَّى جانباً كما لو أنها مغلوطة: وكل ما هنالك أنها قد تشغل موقعاً آخر وتحتل مرتبة أخرى.

---

١ ـ الإشارة هنا إلى كتاب: **دراسات في الهستيريا** الذي كتبه بروير بالتعاون مع فرويد والذي كان مداره على تحليل حالة مريضة بروير آنا أو، وهو الاسم المستعار لبرتا بابنهايم المناضلة النسوية مؤسسة «رابطة النساء اليهوديات». «م».



إذاً سننتكّب من جديد عن الطريق الذي كنا نسلكه. فهو أولاً لا يمضي بنا إلى أبعد مما وصلنا إليه، وعلينا ثانياً أن نلمّ بأشياء أخرى كثيرة قبل أن نتمكن من مواصلة سيرنا فيه إلى نهايته الصحيحة. وقبل أن نترك موضوع التثبيت عند مرحلة محددة من الماضي، لنلاحظ أيضاً أن هذه الواقعة تتخطى حدود العصاب. فصحيح أن كل عصاب يشتمل على تثبيت من هذا النوع، لكن لا يفضي كل تثبيت بالضرورة إلى العصاب، ولا يلتبس بالعصاب، ولا يشقّ طريقه خلسة في مجرى العصاب. ويقدم لنا الحِداد مثالاً أخاذاً على تثبيت وجداني على جانب ما من الماضي، فضلاً عن الإشاحة عن الحاضر والمستقبل. لكن الحِداد يتميَّز، حتى في نظر عامة الناس، تميُّزاً جلياً عن العصاب. وبالمقابل، هناك أعصبة يمكن اعتبارها شكلاً مَرَضياً من أشكال الحِداد.

قد يتفق أيضاً أن يصيب الناس، من جراء حادث راضّ يزعزع أسس حياتهم بالذات، هبوط شديد، فيعزفوا عن كل اهتمام بالحاضر والمستقبل وتتثبت كل ملكات كيانهم النفسي على الماضي. لكن هؤلاء المنكودين لا يتحولون بالضرورة إلى عصابيين. لذا لن نغلو في قيمة هذه السمة في معرض توصيفنا للعصاب، مهما تكن أهميتها ومهما يطّرد تظاهر العصاب بها.

ثانياً: لننتقل الآن إلى النتيجة الأخرى لتحليلنا، وهي نتيجة لا نجد داعياً لنحيطها، كما فعلنا مع الأولى، بأي تقييد لاحق. لقد قلنا عن مريضتنا الأولى إن فعلها القهري كان مجرداً في الظاهر من المعنى، ثم لما رأينا ما الذكريات الحميمة التي استرجعتها من حياتها بصدده وفحصنا الصلات التي قد تكون قائمة بين هذا الفعل وهذه الذكريات، اكتشفنا من طبيعة هذه الأخيرة غرض الفعل القهري وقصده. غير أننا أغفلنا آنذاك إغفالاً تاماً نقطة تفصيلية تستأهل منا أن نعيرها أوفى الانتباه. فلقد كانت المريضة تجهل، وهي تنجز فعلها القهري، أن مرجعها فيه كان إلى ذلك الحادث الذي وقع لها. وما كان الرابط بين هذا الفعل وذلك الحادث يقع في متناول إدراكها، وكانت تنطق بالحقّ حين تجزم أنها تجهل الدوافع التي تحضّها على فعل ما تفعله. لكن ها هو ذا الرابط ينكشف لها على حين غرة تحت تأثير المعالجة، فتقتدر على إطلاعنا عليه. غير أنها ظلت تجهل القصد الذي



من أجله كانت تؤدي فعلها القهري: فقد كانت غايتها أن تصحّح حادثة ماضية مؤلمة وأن ترفع زوجها الذي تحبه إلى مستوى أعلى. ولم تتمكن إلا بعد جهد شاق وطويل من أن تفهم وتعترف لي بأن ذلك الدافع قد يكون هو فعلاً السبب الموجب الأوحد لفعلها القهري.

إن ما أسميناه بـ «معنى» الفعل القهري قد استنبطناه من صلته بالمشهد الذي أعقب ليلة الزفاف البئِسة ومن دافع الحب الذي كانت المريضة تكنّه لزوجها. لكن هذا المعنى كان خافياً على المريضة وهي تؤدي فعلها، فلا تفقه أصل هذا الأخير ولا هدفه. إذاً ثمة سيرورات نفسية كانت تعتمل فيها، ولم يكن الفعل القهري إلا من نتاج هذه السيرورات. وكانت تفطن إلى هذا النتاج في مظهره العادي، لكن شروطه النفسية كانت غائبة كلياً عن معرفتها الواعية. وكان مسلكها يشبه كل الشبه مسلك ذلك الرجل الذي نوَّمه برنهايم[٢] مغنطيسياً وأمره بأن يفتح مظلة في قاعة البيان العملي بعد خمس دقائق من استيقاظه، فلما أفاق نفّذ ذلك الأمر من دون أن يتمكن من تعليل فعله. إلى أشباه هذه المواقف يذهب بنا الفكر حين نتكلم عن **سيرورات نفسية لاشعورية**. ونحن نتحدى كائناً من كان أن يجد لهذا الموقف تعليلاً علمياً أصحَّ من تعليلنا، فإن استطاع غسلنا أيدينا بطيبة خاطر من فرضية السيرورات النفسية اللاشعورية. لكننا بانتظار ذلك سنتمسك بها، وسنكتفي بأن نهزّ كتفينا رداً على اعتراض من يعترض علينا بأن اللاشعور ليس له من وجود بالمعنى العلمي للكلمة، وأنه لا يعدو أن يكون باباً للنجاة وصورة مجازية من صور الكلام. والحق أن هذا الاعتراض ينقض نفسه بنفسه في الحالة التي نحن بصددها، وذلك ما دام اللاشعور الذي يريد المنكرون أن ينكروا عليه كل وجود واقعي يتسبب في حدوث ظاهرات لها من الواقعية الملموسة ما للفعل القهري.

إن هذا الموقف عينه يتكرر في جوهره في حالة مريضتنا الثانية. فقد استنّت لنفسها قاعدة لا تخالفها ألا تدع الوسادة تمسّ عارضة السرير، وهي تجد نفسها

٢ ـ برنهايم (ومعه ليبو): من أطباء مدينة نانسي، كان يعالج مرضاه بالتنويم المغنطيسي، وقد حضر فرويد سنة ١٨٨٩ بعض عروض له كما روى في **حياتي والتحليل النفسي**.



مكرهة على الامتثال لهذه القاعدة من دون أن تعرف أصلها أو تعلم ما تعنيه أو تدرك ما الدوافع التي منها تستمد قوتها. وسواء أعدَّت هذه القاعدة مما لا يؤبه له، أو ازدرتها وثارت عليها، أم عقدت العزم على مخالفتها وعدم الانصياع لها، فذلك كله لا يجدي فتيلاً من منظور تنفيذ الفعل. فهي تشعر بنفسها مدفوعة دفعاً إلى الإذعان والامتثال، وعبثاً تسائل نفسها عن السبب. فكيف لنا والحال هذه ألا نتعرف في هذه الأعراض العصابية الوسواسية، في هذه الأخاييل والاندفاعات التي لا يُعلم ما المصدر الذي تنبعث منه والتي تمتنع بشراسة على كل مؤثرات الحياة السوية والتي تظهر للمريض نفسه وكأنها ضيوف قادرون على كل شيء وآتون من عالم غريب، أو كأنها كائنات خالدة جاءت لتزجّ بنفسها في غمار حياة الكائنات البشرية الفانية، أقول: كيف لا نتعرف فيها دليلاً على وجود منطقة نفسية خاصة، معزولة عن كل ما عداها وعن سائر أوجه نشاط الحياة الداخلية وتظاهراتها؟ إن هذه الأعراض والأخاييل والاندفاعات تقودنا لا محالة إلى الاقتناع بوجود اللاشعور النفسي، ولهذا لا يسع الطب النفسي السريري، الذي لا يقرّ إلا بسيكولوجيا الشعور، أن يجد سبيلاً آخر للخروج من هذا المأزق غير أن يعلن أن جميع تلك التظاهرات ليست إلا من نتاج التبلّه والعتاهة. وغني عن البيان أن الأخاييل والاندفاعات الوسواسية ليست بحدّ ذاتها لاشعورية، مثلما أن أداء الأفعال القهرية لا يتمّ خارج نطاق الإدراك الواعي. وما كان لهذه الأخاييل والاندفاعات أن تتحوَّل إلى أعراض لو لم تشقّ طريقها إلى دائرة الشعور. غير أن الشروط النفسية المسبقة التي تصدع بأمرها بحسب ما يدلّنا التحليل، وكذلك الأسيقة التي يتيح لنا تأويلنا أن ندرجها فيها، تكون لاشعورية، أو هي تبقى كذلك إلى أن نجعل المريض يعيها عن طريق عملنا التحليلي.

فإن أضفتم إلى ذلك أن الوضعية التي لاحظناها لدى مريضتينا تتكرر في جميع أعراض الإصابات العصابية، وأن معنى الأعراض يخفى على المريض في الأحوال طراً، وأن التحليل يميط اللثام دوماً عن أن هذه الأعراض نتاج لسيرورات لاشعورية وقابلة مع ذلك لأن تصبح شعورية في ظروف مؤاتية متنوعة، أدركتم بلا مشقة أن التحليل النفسي لا يسعه أن يستغني عن فرضية اللاشعور وفهمتم



لماذا درجنا على التعامل وإياه وكأنه شيء ملموس يقع تحت الإدراك الحسّي. وقد تدركون أيضاً أن كل من لا معرفة له باللاشعور إلا باللفظ، ومن لم يمارس التحليل قط، ولم يؤوِّل حلماً قط، ولم يبحث عن معنى الأعراض العصابية ومقصدها قط، ليس مؤهلاً للخوض في هذه المسألة. ولنكرر القول مرة أخرى: إن مجرد اقتدارنا على أن نعزو، بالاستناد إلى التأويل التحليلي، معنى إلى الأعراض العصابية لينهض دليلاً لا يدحض على وجود سيرورات نفسية لاشعورية، أو بالأحرى على ضرورة التسليم بوجود هذه السيرورات.

لكن ليس هذا كل شيء بعد. فثمة اكتشاف ثانٍ لبروير، أجده أعظم خطراً وأهمية من الأول - وقد توصل إليه وحده بدون تعاون مع أحد - يزيد من علمنا بالصلات بين اللاشعور والأعراض العصابية. فليس معنى الأعراض هو وحده اللاشعوري بصورة عامة، بل توجد بين هذا الوجود اللاشعوري وبين إمكانية وجود الأعراض علاقة تمثيل متبادل أيضاً. وستفهمون عما قليل ما أرمي إليه. أنا أؤكد إذاً مع بروير: كلما التقينا بعرض من الأعراض تعيَّن علينا أن نستنتج وجود سيرورات لاشعورية لدى المريض تنطوي تحديداً على معنى هذا العرض. لكن لا بدّ أن يكون هذا المعنى لاشعورياً بدوره كيما يتظاهر العرض. فالسيرورات الشعورية لا تولِّد أعراضاً عصابية، ثم إنه ما إن تنقلب السيرورات اللاشعورية إلى سيرورات شعورية حتى تزول الأعراض وتختفي. وبذلك ينفتح أمامنا منفذ إلى العلاج، وتتوفر لنا وسيلة لإزالة الأعراض. وعن طريق هذه الوسيلة بالفعل توصَّل بروير إلى شفاء مريضته المهسترة، أي إلى تحريرها من أعراضها؛ وقد وقع على تقنية أتاحت له أن يستدرج إلى الوعي السيرورات اللاشعورية التي كانت تنطوي على معنى الأعراض، ومن ثم أن يتوصل إلى إزالة هذه الأخيرة.

لم يأتِ اكتشاف بروير هذا نتيجة لتأمل منطقي، بل لملاحظة سديدة ظفر بها بفضل تعاون المريضة. ولا تسعوا إلى فهم هذا الاكتشاف بإرجاعه إلى واقعة أخرى معروفة من قبل: بل اقبلوه على أنه واقعة أساسية تفسح في المجال أمام تفسير وقائع كثيرة غيرها. لذا أستأذنكم في أن أعرضه لكم في صيغة أخرى.

يتكون العرض كبديل عن شيء لم يفلح في التعبير عن نفسه. فبعض



السيرورات النفسية كان يُفترض بها أن تتطور بصورة سوية إلى حدٍّ كافٍ كيما تصل إلى الشعور. ولكن بما أن ذلك لم يحدث، فقد تولّد العرض كنتاج لسيرورات توقف جريانها واختلّ بصورة أو أخرى تطورها فبات مآلها لا محالة إلى اللاشعور. وعلى هذا يكون قد حدث هنا ضرب من التبادل؛ فإن أفلح العلاج في تفكيك عملية التبادل هذه، يكن قد أوفى بما هو مطلوب منه من حيث معالجة الأعراض العصابية.

إن اكتشاف بروير لا يزال إلى اليوم أساس المعالجة التحليلية النفسية. وقد أيّدت جميع البحوث اللاحقة الأطروحة القائلة بأن الأعراض تزول حالما تغدو شروطها اللاشعورية المسبقة واعية، وهذا على الرغم من التعقيدات الغريبة اللامرتقبة التي يصطدم بها وضع هذه الأطروحة موضع التطبيق العملي. وتقنيتنا العلاجية إنما تقوم على تحويل اللاشعور إلى شعور، وهي لا تصل إلى مبتغاها إلا بقدر ما يتأتى لها فرض هذا التحويل.

اسمحوا لي هنا باستطراد طفيف، الغرض منه أن أحذِّركم من خطورة تصوّر هذا العمل العلاجي على أنه عملية بالغة السهولة. فالعصاب بحسب ما قلناه حتى الآن هو عقبى لضرب من الجهل، من عدم المعرفة بسيرورات نفسية كان ينبغي أن تكون معروفة. وهذه الأطروحة تذكِّرنا كثيراً بالنظرية السقراطية المعروفة التي تقول بأن الرذيلة ذاتها ما هي إلا نتيجة للجهل. والحال أن الطبيب الذي أِلف التحليل وتمرَّس به لن يشقّ عليه بوجه عام على أساس هذا الفرض أن يميط اللثام عن الخلجات والحاثّات النفسية التي بقيت لاشعورية لدى مريض بعينه. ومن ثم سيكون في مستطاعه بسهولة، على أساس الفرض عينه، أن يبرئ مريضه بأن يحرِّره من جهله بإطلاعه على ما يعرفه هو. ومن المفروض في هذه الحال أن يكون الطبيب قد تمكن بسهولة من تصفية الشطر الأول من المعنى اللاشعوري للأعراض؛ أما فيما يتعلق بالشطر الثاني المتعلق بالصلات بين الأعراض وخبرات المريض المعاشة فإن الطبيب، الذي لا يعرف هذه الأخيرة، لا يستطيع بطبيعة الحال أن يحدس بها، ولا مناص له من أن ينتظر أن يتذكرها المريض ويتكلم عنها. لكن من الممكن بصدد هذه النقطة أيضاً الحصول، في بعض الحالات،



على معلومات من مصدر غير مباشر عن طريق استخبار أقارب المريض: فاطلاع هؤلاء على مجرى حياته يتيح لهم في كثير من الأحيان أن يميزوا في الأحداث التي عرَضت له في حياته ما كان منها ذا طابع رضِّي، بل قد يكون في مكنتهم أن يكاشفونا بأحداث يجهلها هو نفسه لوقوعها في طور مبكر جداً من طفولته. وبالجمع بين هاتين الطريقتين قد يكون مباحاً للطبيب أن يأمل بالتوصل، في أجل قصير من الزمن وبأدنى قدر من الجهد، إلى النتيجة المنشودة، أي إلى وضع حدّ للجهل الذي عنه نشأ المرض لدى المريض.

لو صحّ ذلك كله لكان في منتهى الروعة! فقد حصَّلنا تجارب وخبرات لم نكن على أهبة لها من بادئ الأمر. وكما قال موليير إن هناك حطباً وحطباً[٣]، كذلك إن هناك علماً وعلماً، وضروباً شتى من المعرفة لا تتعادل جميعها في القيمة السيكولوجية. فمعرفة الطبيب ليست معرفة المريض، ولا يمكن أن تتأتى عنها نتائج واحدة. فحين ينقل الطبيب إلى المريض المعرفة التي حصَّلها لا يصيب أي حظ من النجاح. كلا، فليس يصحّ على هذا النحو أن تقال الأشياء. ذلك أن النجاح المحرز لا يتمثل بإزالة الأعراض بل بإطلاق عملية التحليل والتقدم به، وأولى أمارات هذا النجاح هي في غالب من الأحيان الإنكار من جانب المريض. فقد بات المريض يعلم شيئاً كان يجهله من قبل، وهو معنى عرضه، ومع ذلك فهو ما بات يعلمه أكثر مما كان يعلمه قبلاً. وهكذا يتأكد لنا أن هناك ضروباً شتى من عدم المعرفة. ولا بدّ أن يكون المرء طويل الباع في المسائل السيكولوجية حتى يتسنى له تفهم الفروق. غير أن الأطروحة التي تقدمنا بها من أن الأعراض تزول حالما يغدو معناها معلوماً تبقى على كل حال صحيحة. هذا بشرط أن يكون أساس العلم تغيُّراً داخلياً في نفس المريض، وهو تغير لا يمكن إحداثه إلا بمجهود نفسي متواصل برسم هدف معين. وهنا تواجهنا مشكلات سيتبين لنا عما قليل أن تركيبها يمثل المظهر الدينامي لتكوين الأعراض.

والآن أتوجه إليكم، سادتي، بالسؤال: ألم تجدوا ما ذكرته لكم غامضاً ومعقَّداً

---

٣ ـ كلمة لموليير في مسرحيته **طبيب بالرغم عنه** ذهبت مذهب القول السائر. ويقصد بها أن التباين ممكن حتى بين أفراد الجماعة الواحدة، أو بين الأشياء المتشابهة. «م».



أكثر مما ينبغي؟ ألم يحيِّركم إذ رأيتموني أسحب في أكثر الأحيان ما تقدمت به، وأحيط طروحاتي بضروب شتى من التقييد، ولا أكاد أسلك سبيلاً حتى أتنكّب عنه؟ يؤسفني أن يكون كذلك هو واقع الحال. لكنني لا أحبِّذ على الإطلاق التبسيط على حساب الحقيقة، ولست أرى من محذور أن تعلموا أن الموضوع الذي نعالجه متشعب الجوانب وبالغ التعقيد، ولا أرى علاوة على ذلك بأساً في أن أزوِّدكم بصدد كل نقطة بمعلومات تزيد عما يمكنكم الانتفاع به مؤقتاً. وأنا أعرف حق المعرفة أن كل مستمع أو كل قارئ يرتِّب الموضوع المعروض عليه في أفكار، ويعمل فيه مبضع الاختصار والتبسيط، ويستخلص منه ما يريد أن يحتفظ به منه. ومن الثابت، إلى حدّ ما، أنه كلما كثرت الأشياء بقي منها قدر كثير أيضاً. فمن المباح لي إذاً أن آمل أن تكونوا قد أفلحتم في تكوين فكرة واضحة عن جوهر ما عرضته لكم، وإن أثقلته بالتفاصيل، أي عن معنى الأعراض، واللاشعور، والصلات ما بين تلك وهذا. وأكبر الظن أنكم حدستم أيضاً بأن جهودنا التالية ستتوزع في وجهتين: أن نعرف من جهة أولى كيف يصبح الناس مرضى ويقعون ضحايا عصاب قد يدوم مدى حياتهم، وهذه مشكلة سريرية، وأن نرى من جهة ثانية كيف تتطور الأعراض المرضية بدءاً من شروط العصاب ومقدماته، وهذه مشكلة تتعلق بالدينامية النفسية. ولا بدّ أن تكون هناك على كل حال نقطة تلتقي عندها هاتان المشكلتان.

لا أودّ أن أمضي معكم اليوم إلى أبعد من هذا، لكن بما أنه لا يزال أمامنا متسع طفيف من الوقت فسأنتهزه لأوجِّه انتباهكم إلى خاصية أخرى في تحليلنا للحالتين المَرَضيتين الآنفتي الذكر، وهي خاصية لن تدركوا كامل أهميتها إلا لاحقاً: أقصد **فجوات الذاكرة أو النسايات** AMNÉSIES. فقد أوضحت لكم أن كل مهمة المعالجة التحليلية النفسية يمكن تلخيصها في الصيغة التالية: تحويل كل المادة اللاشعورية المسبِّبة للمرض إلى مادة شعورية. والحال أنه قد يدهشكم أن تعلموا أن هذه الصيغة يمكن الاستعاضة عنها بأخرى: سدّ الفجوات جميعاً في ذاكرة المرضى وتحريرهم من نساياتهم. وهذا مؤداه واحد. إذاً، قد يكون مباحاً لنا أن نفترض أن نسايات العصابيين لها دور كبير في تكوين أعراضهم.



لكن لو أمعنتم التفكير في الحالة التي كانت موضوع تحليلنا الأول، لوجدتم أن هذا الدور المعزو إلى النساية غير مبرر. فالمريضة لم تنسَ المشهد الذي يرتبط به فعلها القهري، بل حافظت على ذكراه ناصعة، ولم يكن لأي نسيان آخر من دور في نشوء عرضها. وإن يكن الموقف في حالة مريضتنا الثانية، الفتاة صاحبة الطقس الوسواسي، أقل وضوحاً، فإنه يبقى مع ذلك مشابهاً للموقف الأول إلى أقصى حدّ. إنها تتذكر هي الأخرى بجلاء، وإن بشيء من التردد ومن التمنع، مسلكها في ماضي الأيام، حين كانت تلحّ كيما يبقى الباب الذي يفصل غرفة نوم والديها عن غرفتها منفرجاً ليلاً وكيما تتنازل لها أمها عن مكانها في فراش الزوجية. والشيء الوحيد الذي قد يثير استغرابنا هو أن المريضة الأولى قامت بفعلها القهري عدداً لا يحصى من المرات من دون أن يتبادر إلى ذهنها قط مع ذلك ما يمكن أن يكون بينه وبين حادثة ليلة زفافها من صلة، وأن ذاكرتها لم تسترجع هذه الحادثة حتى بعد أن وجدت نفسها مكرهة، باستجواب مباشر، على التنقيب عن دوافع عملها. وبوسعنا أن نقول الشيء ذاته عن مريضتنا الفتاة الصبية التي تعزو طقسها والظروف التي تستثيره إلى عين الموقف الذي يتكرر ليلياً كما هو. إذاً فالأمر في كلتا الحالتين ليس أمر نساية بحصر المعنى، أمر غياب الذكريات من الذاكرة، وإنما هنالك فقط انقطاع في الرابطة التي كان يفترض بها أن تتيح للذاكرة أن تسترجع الحادثة وأن تعيد إحياءها. ولكن إن يكن هذا الاضطراب في الذاكرة كافياً لتفسير العصاب الوسواسي، فالأمر ليس بالمثل في الهستيريا. فهذا العصاب الأخير يتميّز في أغلب الأحيان بنسايات واسعة النطاق. فعند تحليل كل عرض من الأعراض الهستيرية نكتشف بصفة عامة سلسلة كاملة من خبرات حياتية ماضية يجزم المريض بصريح القول أنه نسِيَها. وتمتدّ هذه السلسلة إلى السنوات الأولى من الحياة، بحيث يمكننا اعتبار النساية الهستيرية نتيجة مباشرة للنساية الطفلية التي تحجب الأطوار الأولى من الحياة النفسية حتى عن الأسوياء من الناس. هذا من جهة، أما من الجهة الثانية فنرى بدهشة واستغراب أن النسيان يمكن أن يطال أيضاً حتى الأحداث القريبة العهد في حياة المرضى، وأن الظروف التي يسَّرت ظهور المرض أو زادت من حدَّته هي بعينها



على وجه التخصيص التي تغيب بصورة كاملة أو جزئية في لجّة النسيان. والأغلب وقوعاً أن تختفي التفاصيل الهامة من اللوحة الإجمالية لذكرى قريبة العهد من هذا النوع أو أن تحلّ محلها ذكريات كاذبة. بل قد يحدث أحياناً، إن لم نقل دوماً، أن تبزغ قبيل انتهاء التحليل ذكريات معيَّنة مرتبطة بتجربة معاشة قريبة العهد، وهي ذكريات يمكن أن يكون قد مضى زمن طويل على كبتها مع ما يصاحب ذلك بالإجمال من فجوات واسعة في السياق التاريخي.

قلنا إن هذه الاضطرابات الذاكرية سمة مميزة للهستيريا التي من جملة أعراضها أيضاً حالات (نوبات هستيرية) ليس من شأنها أن تترك أي أثر في الذاكرة. وبما أن الأمر غير هذا في العصاب الوسواسي، فلا تثريب عليكم إن استنتجتم من ذلك أن هذه النسايات تؤلف خاصية سيكولوجية للإصابة الهستيرية، وليس سمة مشتركة بين الأعصبة طراً. غير أن أهمية هذا الاختلاف لن تعتم أن تتضاءل على ضوء الاعتبار التالي. فـ «معنى» العرض يمكن أن يُفهم بكيفيتين اثنتين: من منظور أصله (من أين؟)، ومن منظور هدفه (إلى أين؟). وبعبارة أخرى، أولاً على ضوء الانطباعات والتجارب المعاشة التي تولّد عنها، وثانياً على ضوء القصد الذي يخدمه. إذاً، فأصل العرض يرتدّ إلى انطباعات جاءت من الخارج، وكانت في وقت من الأوقات شعورية بالضرورة، ثم ما لبثت أن أمست لاشعورية بفعل النسيان الذي سقطت في لجّته. أما هدف العرض (لماذا؟) أو مرماه فهو على العكس، وفي جميع الحالات، سيرورة نفسية باطنة قد يجوز أنها كانت في أول الأمر شعورية، ولكن قد يجوز أيضاً أنها ما كانت قط شعورية وأنها بقيت على الدوام أسيرة اللاشعور. إذاً ليس من المهم غاية الأهمية أن نعرف ما إذا كانت النساية قد طالت أيضاً الأصل الأول للعرض (من أين؟)، أي التجارب المعاشة التي يرتكز إليها هذا العرض، كما الحال في الهستيريا، إذ إن هدف العرض وقصده (إلى أين؟) ـ وقد يكونان لاشعوريين من البداية ـ هما اللذان يعيّنان تبعية العرض للاشعور، وهذا في العصاب الوسواسي كما في الهستيريا سواء بسواء.

وإنما لأننا عزونا مثل هذه الأهمية إلى اللاشعور في الحياة النفسية ألَّبنا على



التحليل النفسي أصحاب أخبث العقول النقدية وأسلطهم لساناً. ولا تعجبوا لهذا ولا تحسبوا أن المقاومة التي نقابل بها ترجع إلى صعوبة تصور اللاشعور وإلى استغلاق التجارب ذات الصلة به. فعلى مرّ الأجيال أنزل العلم بكبرياء البشر الساذجة طعنتين نجلاوين. المرة الأولى عندما أثبت أن الأرض ليست مركز الكون، بل لا تؤلف إلا جزيئة زهيدة في المنظومة الكونية التي يكاد يتعذر علينا أن نتصور ضخامتها. وتقترن هذه البرهنة الأولى في أذهاننا باسم كوبرنيكوس[٤]، بالرغم من أن العلم الإسكندراني كان قد قال بشيء شبيه بهذا[٥]. أما الطعنة الثانية فقد أصيبت بها البشرية على يد المبحث البيولوجي حين حكم بالبطلان على ادعاء الإنسان بأنه يحتل مكاناً متميزاً في تسلسل الخلق، وأثبت تحدُّره من السلالة الحيوانية وأماط اللثام عن ثبات طبيعته الحيوانية وعدم قابليتها للفناء. وقد حدثت الثورة الأخيرة هذه في أيامنا، على إثر مباحث ش. داروين[٦] ووالاس[٧] ومن سبقهما، وهي مباحث لاقت أضرى المقاومة من المعاصرين. ويسدد المبحث السيكولوجي في أيامنا هذه طعنة ثالثة إلى الصنف البشري، إذ أخذ على عاتقه أن يثبت **للأنا** أنه ليس السيد المطلق في بيته، وأنه لا

٤ ـ نيقولاوس كوبرنيكوس: راهب وطبيب وعالم رياضي وفيلسوف فلكي (١٤٧٣ ـ ١٥٤٣). من كبار ممثلي عصر النهضة الأوروبي. أحدث قطيعة معرفية كبرى بتوكيده على مركزية الشمس للكون وعلى دوران جرم الأرض في فلكها. «م».

٥ ـ يشير فرويد هنا إلى المدرسة الفيثاغورثية الإسكندرانية، وعلى رأسها أرسطارخوس الساموسي الذي أظهرت له قياساته الهندسية للمسافات بين الأرض والشمس والقمر بطلان نظرية أرسطو القائلة بأن الأرض هي مركز الكون، وأفضت به إلى المناداة بنظرية تعدّ الشمس مركز الكون. لكن مذهبه لم يلق قبولاً في العصور القديمة واعتبر لاحقاً مخالفاً للمعتقد الديني السائد. «م».

٦ ـ تشارلز روبرت داروين: عالم وطبيب بريطاني(١٨٠٩ ـ ١٨٨٢). أحدث ثاني أكبر قطيعة معرفية في الثقافة الأورروبية بعد كوبرنيكوس بإرجاعه أصل جميع الكائنات الحية، وفي مقدمتها الإنسان، إلى سلف بدائي مشترك نافياً بذلك قصة خلق آدم وحواء، مما ألّب عليه عداء الأوساط اللاهوتية. أشهر مؤلفاته بإطلاق **حول أصل الأنواع**. «م».

٧ ـ ألفريد راسل والاس: جغرافي وأنتروبولوجي وبيولوجي بريطاني (١٨٢٣ ـ ١٩١٣). كان أول من صاغ نظرية الانتخاب الطبيعي التي سيطوّرها تشارلز داروين في كتاب عن **أصل الأنواع**. ولكن نزعته الروحانية تسببت في قطيعة بينه وبين أهل العلم في عصره. من أشهر مؤلفاته **مساهمات في نظرية الانتخاب الطبيعي**، وكذلك عن المعجزات والروحانية الحديثة. «م».



خيار له إلا بأن يقنع بمعلومات طفيفة وجزئية عما يجري في حياته النفسية خارج نطاق وعيه(٨). وليس أصحاب التحليل النفسي هم أول من دعا البشرية إلى التواضع، وإلى التفكر والتـأمل، ولا هم وحدهم الذين وجّهوا مثل هذه الدعوة، لكن يبدو أنه على عاتقهم وقعت مهمة الترويج لهذه النظرة بأعظم الدأب والاندفاع، وتأييدها بمواد وأدلة مستقاة من التجربة وفي متناول فهم الجميع. ومن هنا كانت تلك الثورة العامة على علمنا، وتخطّي المعارضة لكل قواعد الأدب والتهذيب الأكاديمي، وانفلاتها من كل القيود التي يفرضها المنطق اللامتحيّز. أضف إلى ذلك كله أن نظرياتنا تهدد بتعكير صفو العالم بكيفية أخرى أيضاً، كما سترون في محاضرة تالية.

٨ ـ هذه الإذلالات الثلاثة التي ألحقها العلم الحديث بالكبرياء البشري سيستوفي فرويد معالجتها في مقالة منفردة، نشرت في مجلة **إيماغو**، المجلد ٥، سنة ١٩١٧، وقد ترجمناها إلى العربية في **إبليس في التحليل النفسي** بعنوان **صعوبة أمام التحليل النفسي**. والجدير بالذكر أن نجيب محفوظ اتخذ من هذه الإذلالات الثلاثة موضوعاً لقصته الرائعة: **حكاية بلا بداية ولا نهاية**. انظر تحليلنا لهذه القصة في كتابنا: **الله في رحلة نجيب محفوظ**، **الأعمال النقدية الكاملة**، دار مدارك، ج١، ص ٢٧٣ـ ٣٦٧. «م».



المحاضرة التاسعة عشرة

المقاومة والكبت

سيداتي وسادتي، إذا شئنا أن نكوّن لأنفسنا عن الأعصبة فكرة أقرب إلى واقع الأشياء، فإننا سنحتاج إلى دراسة وقائع جديدة. والحال أن بين أيدينا واقعتين لافتتين للنظر، وكانتا مدهشتين للغاية يوم اكتشافهما. ولا أشك في أنكم بتّم مهيئين لفهمهما كلتيهما بعد ما دار بيننا من أحاديث في العام الماضي.

أولاً: إننا حين نتصدى لعلاج مريض بقصد شفائه وتحريره من أعراضه المؤلمة، يواجهنا بمقاومة عنيفة، عنيدة، تدوم طوال فترة المعالجة. وهذه واقعة على درجة من الغرابة تجعلنا نتوقع ألا تحظى من الناس بالقبول والتصديق. ونحن نتحاشى بالفعل أن نذكر شيئاً عنها لأقارب المريض، خشية أن يروا فيها من جانبنا ذريعة نتعلل بها لتبرير طول فترة العلاج أو إخفاقه. والمريض نفسه يبدي جميع مظاهر هذه المقاومة من دون أن يفطن لها، وحين نفلح في حمله على الاعتراف بالمقاومة التي يبديها وعلى أخذها في حسابه نكون قد قطعنا شوطاً غير هيِّن على طريق النجاح. ولكم أنتم أن تتصوروا الأمر: فهذا المريض الذي يعاني أشد المعاناة من أعراضه، والذي يسبِّب ما يسبِّبه من ألم لأهله، والذي يحمِّل نفسه قدراً كبيراً من التضحية، إن بوقته وإن بماله وإن بجهده وعنائه، ليتخلص من أعراضه، كيف لنا أن نتهمه بأنه يعاضد مرضه ويؤازره بما يبديه من مقاومة حيال مَن أخذ على عاتقه أن يشفيه منه؟ ولو جهرنا بهذه الحقيقة فكم ستبدو له ولذويه مغربة، بعيدة الاحتمال! ومع ذلك، إن الأمر ثابت لا مرية فيه، وحين يعترض علينا أحدهم ببعد الاحتمال هذا، فما علينا إلا أن نجيبه بأن مثل هذا الموقف ليس منعدم النظير: فمثلاً، ما أكثر الأشخاص الذين يأتون إلى طبيب الأسنان



ليخلصهم من ألم لا يطاق في أسنانهم، فإذا ما همّ بآلته ليعالج السنّ المريضة واجهوه بأعنف المقاومة؟

تتظاهر مقاومة المريض في أشكال بالغة التنوع، وعلى جانب كبير من الرهافة والمكر، وغالباً ما يصعب تعرفها. وهي ما يسمّيه الناس الارتياب بالطبيب والحذر منه. ونحن نعمد في المعالجة التحليلية النفسية إلى تطبيق نفس الخطة التي رأيتموني أطبّقها على تأويل الأحلام. إذ ندعو المريض إلى أن يضع نفسه في حالة يتسنى به فيها أن يلاحظ نفسه بنفسه بدون أفكار مبيّتة، ونحثّه على مكاشفتنا بجميع ما يعتمل في نفسه أو يتوارد إلى ذهنه من مشاعر وأفكار وذكريات، بالترتيب نفسه الذي تتوارد به. وننهاه نهياً صريحاً عن الانسياق وراء أي دافع قد يملي عليه اختياراً أو استبعاداً لبعض هذه المتداعيات، ونحذّره من الإمساك عن مكاشفتنا بها بحجّة أنها **قبيحة** أو **مقززة** أو **غير مساغة** أو **عادمة الأهمية** أو **سخيفة** لا معنى لها. ونشدّد عليه ألا يلتفت إلا إلى ما يجري على سطح وعيه، وأن يعرض عن كل نقد، كائناً ما كان، قد يعنّ له أن يوجهه إلى ما يتبادر إلى ذهنه، ونؤكد له ونجزم أن نجاح العلاج، وعلى الأخص مدته، رهن بصدقه في الامتثال لهذه القاعدة التحليلية الأساسية. وقد عرفنا من قبل، بفضل ما ظفرنا به من نتائج من تطبيقنا لهذه الخطة في تأويل الأحلام، أن الخواطر والذكريات التي تستثير أكبر قدر من الشكوك والاعتراضات هي عينها التي تحتوي في العادة على المواد القمينة بأن تعيننا على استكشاف اللاشعور.

النتيجة الأولى التي نتوصل إليها بصياغتنا هذه القاعدة الأساسية من قواعد تقنيتنا هي أن المريض يقابلها بالمقاومة. فهذا الأخير يسعى إلى التملص مما تلزمه به تقنيتنا بكل الوسائل المتاحة له. فتارة يزعم أنه لا يستشفّ أي خاطر أو شعور أو ذكرى، وطوراً يدّعي أن ما يتبادر إلى ذهنه منها كثير حتى ليعجز عن الإمساك بها والاهتداء إلى مبتغاه منها. وعندئذ نلاحظ، بدهشة غير مستحبة، أنه يتراجع أمام هذا الاعتراض النقدي أو ذاك: تنمّ عن ذلك وقفاته المطولة التي تتخلل كلامه. وفي نهاية المطاف يقرّ بأنه يعرف أشياء كثيرة لا يسعه التصريح بها، وأنه يخجله الاعتراف بها، وأنه يمتثل لهذا الدافع خلافاً للوعد الذي كان قد قطعه



بألا يمسك شيئاً ويكتمه. أو قد يعترف أيضاً بأنه وجد شيئاً ما، ولكنه شيء يتصل بشخص آخر، فليس يسعه إفشاؤه. أو قد يدعي أيضاً أن ما وجده تافه وغير ذي بال وسخيف حقاً، فليس من المعقول أن نطالبه بأن يحمل أشباه هذه الخواطر على محمل الجدّ. ويتابع على هذا المنوال، وينوِّع اعتراضاته إلى ما لا نهاية، فلا يبقى لنا إلا أن نفهِمه أن البوح بكل شيء، كما كان تعهَّد، يقتضي فعلاً البوح بكل شيء.

ويندر أن نلتقي مريضاً لا يحاول أن يخفي شقّاً من نفسه حتى يبقيه بمنأى عن التحليل والعلاج. وهكذا أخفى عني أحد مرضاي، وهو من أذكى من قُيِّض لي أن ألتقيهم من الناس، علاقة غرامية له، وحبسها عني لبضعة أسابيع، ولما أنحيت عليه باللائمة لانتهاكه القاعدة «المقدسة» انبرى يدافع عن نفسه بقوله إنه كان يعتقد أن هذا أمر خاص من أموره الشخصية. وغني عن البيان أن المعالجة التحليلية النفسية لا تقرّ بحقّ اللجوء هذا. تصوروا، مثلاً، أن يصدر في مدينة كفيينا قرار بعدم جواز اعتقال أي إنسان في أماكن من أشباه السوق الكبيرة أو كاتدرائية سان إتيين[1]، ثم تتصدى السلطات بعد ذلك للقبض على مجرم بعينه! بوسعنا أن نجزم سلفاً أنه لن يختار ملجأ له سوى أحد هذين الموضعين. ولقد تهيَّأ لي مرة أن بوسعي أن أمنح حق الاستثناء هذا لأحد المرضى لما بدا لي منه من قدرة على الوفاء بوعده ولأنه كان موثقاً بسرّ المهنة الذي لا يبيح له البوح بأشياء معيَّنة لشخص آخر. وأشير علاوة على ذلك إلى أنه ذهب وهو راضٍ عن نجاح العلاج، لكنني لم أغتبط بقدر اغتباطه، وعاهدت نفسي ألا أعيد الكرة أبداً في مثل هذه الظروف.

إن المعصوبين الوسواسيين بارعون في شلّ تطبيق هذه القاعدة من قواعد تقنيتنا بمغالاتهم في شكوكهم ووخز ضميرهم. وقد يفلح المرضى المصابون بالهستيريا الحَصَرية أحياناً في إبطال فعاليتها عندما لا يكاشفوننا إلا بخواطر ومشاعر وذكريات بعيدة غاية البعد عما نسعى وراءه، فيضلّ التحليل عن مرماه. لكنني لا

١ ـ كنيسة سان إتيين (القديس إسطفانوس): أشهر كنائس فيينا وأقدمها، بنيت في القرن الثاني عشر. «م».



أنوي الإثقال عليكم بجميع تفاصيل هذه الصعوبات التقنية. وحسبي أن اذكر لكم أننا حين نفلح أخيراً، بعد لأي ودأب، في حمل المريض على شيء من الامتثال للقاعدة التقنية الأساسية، فإن مقاومته سرعان ما تتحول ـ وقد تغلبنا عليها في ناحية ـ إلى ناحية أخرى. إذ تبرز عندئذ بالفعل مقاومة من طبيعة عقلية، تتخذ من الحجج سلاحاً لها، وتتذرع بالصعوبات والإشكالات التي يكتشفها الذهن العادي في النظريات التحليلية إذا لم تتوفر له معرفة ضليعة بها. وعندئذ نسمع من فم هذا المريض وحده كل الانتقادات والاعتراضات التي تحاصرنا بها جوقة المشنِّعين علينا في مضمار الأدبيات العلمية. وهكذا ترون أن الأصوات التي تصلنا من الخارج لا تأتينا بشيء لم يسبق لنا سماعه من أفواه مرضانا. زوبعة حقيقية، ولكن في فنجان. على أن المريض، والحق يقال، لا يضيق ذرعاً بما نلقيه على مسامعه؛ فهو يتوق إلى أن نزوِّده بالمعلومات، وأن نثقِّفه، وأن نفنِّد حججه، وأن نشير إليه بالمصادر التي يمكنه الرجوع إليها ليستزيد منها علماً. وهو مستعد أتم الاستعداد لأن يغدو نصيراً للتحليل النفسي، لكن بشرط أن يستثنيه التحليل، هو شخصياً. غير أننا نستشفّ في حب الاطلاع هذا مقاومة، رغبة في صرفنا عن مهمتنا الخاصة، ولذلك نصدّها. أما لدى المعصوبين الوسواسيين فتصطنع المقاومة تكتيكاً خاصاً. فالمريض يدعنا بلا معارضة نتابع تحليلنا الذي يتاح له على هذا النحو التباهي بما يسلِّطه من ضوء متزايد السطوع على أسرار الحالة المرضية المطلوب علاجها. غير أننا نفاجأ في خاتمة المطاف إذ نلاحظ أن هذا الإيضاح لم يتمخض عن أي تقدم عملي وعن أي تخفيف لحدَّة الأعراض. وعندئذ يتأتى لنا أن نكتشف أن المقاومة اعتصمت بالشكّ الذي هو مظهر رئيسي من مظاهر العصاب الوسواسي، وأنها من هذا الموقع المحصن تسدد إلينا رأس حربتها. فكأن المريض قال بينه وبين نفسه: «هذا جميل جداً ومثير للاهتمام، وجلّ مناي المضيّ في ما نحن فيه. ومن المؤكد أن التحليل سيغيِّر ما بي من مرض لو كان صحيحاً. لكني لا أعتقد البتة بأنه صحيح، وما دمت لا أؤمن بصحته فلن يكون له من تأثير على مرضي». وقد يدوم هذا الموقف طويلاً، إلى أن نتصدى للمقاومة في معقلها بالذات، وعندئذ يبدأ الصراع الفاصل.



ليست المقاومات العقلية أخطر أنواع المقاومة، ولا يتعذر علينا التغلب عليها. لكن المريض، من دون أن يتخطى إطار التحليل، يفلح في اصطناع مقاومات يعسر كل العسر التصدي لها. فبدلاً من أن يتذكر مواقف حياته الماضية ونوازعه العاطفية نراه يلجأ، عن طريق ما نسمِّيه بـ«التحويل»[٢]، إلى أن يحييها من جديد وليستخدمها كوسائل لمقاومة الطبيب والعلاج معاً. فإن كان المريض رجلاً استعار بوجه عام هذه المواد من علاقاته بأبيه الذي ينوب منابه في هذه الحال الطبيب: فإذا به يحوِّل طموحاته إلى الاستقلال بنفسه وبأحكامه، وعزة نفسه وكبرياءه التي حدت به في الماضي إلى محاولة معادلة أبيه أو التفوق عليه، ونفوره من أن يتحمل مرة ثانية في حياته عبء العرفان بالجميل، إذا به يحوِّل ذلك كله إلى مقاومة لتأثير الطبيب عليه، فتمّر لحظات يشعر فيها الطبيب بأن رغبة المريض في إحباط مسعاه وفي إشعاره بعجزه وفي الظهور عليه تبزّ لديه رغبته الأخرى والفضلى في الخلاص من مرضه. وتبرع النساء أعظم البراعة في توظيف «التحويل» لصالح المقاومة، إذ يصبغنه بصبغة من عاطفة رقيقة، مشحونة بالإيروسية، إزاء الطبيب. وإذا ما بلغ ها الميل درجة معيَّنة من الشدَّة، تلاشى كل اهتمام بالموقف الراهن، وأمسكت المريضة عن التفكير بمرضها، ونسيت جميع التعهدات التي كانت التزمت بها ساعة بدء العلاج. ومن جهة أخرى، إن الغيرة التي لا بدّ أن تعلن عن ظهورها هنا، وكذلك الخيبة التي يسبِّبها للمريضة الفتور الذي يقابلها به الطبيب من هذا المنظور، لا يمكن إلا أن يسهما في تعكير التفاهم الشخصي مع الطبيب، وهذا ما يبطل مفعول دافع من أقوى دوافع التحليل.

إن المقاومات التي من هذا النوع لا تجوز إدانتها بلا تحفظ. فهي تشتمل، بما هي كذلك، على مواد شتى بالغة الأهمية وذات صلة بحياة المريض الذي يفصح عنها باقتناع عظيم، مما يوفر للتحليل سنداً ممتازاً إذا ما عرف المحلِّل، بتقنيته البارعة، كيف يوجِّهها في الوجهة المناسبة. وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذه المواد

---

٢ ـ التحويل Transfert: مفهوم مركزي في التحليل النفسي، وهو إسقاط الشخص المحلَّل لمشاعره الودية أو العدائية على الطبيب المعالج أو المحلِّل، تكراراً لموقف طفلي كان فيه الطفل يحوِّل فيه مشاعره تجاه والديه نحو أشخاص آخرين أو نحو حيوانات أو دمى، إلخ. «م».



توضع على الدوام في بادئ الأمر في خدمة المقاومة، فلا يتبدى منها للعيان سوى واجهتها المناوئة للعلاج. ومن الممكن أيضاً أن نقول إن هذه المقاومات سمات طبعية وخلقية، ميول للأنا يعبئها المريض ليكافح التغييرات التي يسعى الطبيب إلى الوصول إليها عن طريق العلاج. وعندما ندرس هذه السمات الطبعية يتضح لنا أن ظهورها كان تحت تأثير ظروف العصاب وكردّ فعل على مطالبه. إذاً، بوسعنا أن نصفها بأنها كامنة، بمعنى أنها ما كانت لتتظاهر، أو ما كانت لتتظاهر بنفس الدرجة من الشدة والاتساع، خارج نطاق العصاب. ومع ذلك لا يذهب بكم الظن أن ظهور هذه المقاومات من شأنه المساس بنجع المعالجة التحليلية. فليس في هذه المقاومات شيء لا يتوقعه المحلِّل. فنحن نعلم أنها لا بدّ أن تتظاهر، ونستاء حين لا نفلح في استثارتها بوضوح كافٍ وفي إفهام المريض طبيعتها. كما ندرك أخيراً أن التغلب على هذه المقاومات هو المهمة الرئيسية للتحليل، وأنه الشطر الوحيد من عملنا الذي يمكن أن يجعلنا على يقين من أننا أسدينا خدمة ما إلى المريض، وهذا بطبيعة الحال إذا عرفنا كيف نؤديه على الوجه المرام.

أضف إلى ذلك أن المريض ينتهز كل مناسبة ليخفِّف ما يبذله من جهد، سواء أكانت حادثة عارضة طرأت أثناء العلاج، أم حدثاً خارجياً من شأنه أن يصرف انتباهه ويشتِّته، أم ملاحظة عدائية يبديها حيال التحليل شخص من أقرباء المريض، أم مرضاً عضوياً طارئاً أو ناجماً عن مضاعفات العصاب أو حتى تحسناً يطرأ على حالته، أقول: إن أضفتم ذلك كله تكوَّنت لديكم صورة، لا أزعم أنها كاملة، وإنما هي تقريبية، عن أشكال المقاومة ووسائلها التي نواجهها أثناء التحليل. ولئن عالجتُ هذه النقطة بتفصيل كبير، فلكي أقول لكم إن ما اكتسبناه من تجارب وخبرات بالمقاومة التي يعارض بها المريض محاولة إلغاء أعراضه كان هو الأساس الذي شدنا عليه تصورنا الدينامي للأعصبة. فقد اعتمدنا، بروير وأنا، في المعالجة النفسية على التنويم المغنطيسي في بادئ الأمر، وبروير لم يعالج أصلاً مريضته الأولى إلا وهي في حالة من الإيحاء التنويمي، ولم أعتم بدوري أن حذوت حذوه. وأقرّ بأن العمل كان آنئذ أسهل وأحبَّ إلى النفس، وكان يستغرق زمناً أقل. غير أن النتائج التي كنا نصل إليها كانت قُلَّباً وغير مستديمة.



لذا سرعان ما هجرت التنويم المغنطيسي. وعندئذ فقط فهمت أنه كان يستحيل عليّ، ما دمت أعتمد التنويم، أن أفهم دينامية تلك الحالات المَرَضية. وبالفعل، كان التنويم يحول دون إدراك الطبيب لوجود المقاومة. وكان التنويم، بكبحه المقاومة، يترك بعض المجال حراً للقيام بالتحليل، وخلف هذا المجال كانت تختبئ المقاومة، فيصعب بالتالي النفاذ إلى كنهها، شأنها في ذلك شأن الشك في العصاب الوسواسي. يحقّ لي إذاً أن أقول إن التحليل النفسي بحصر المعنى لم يرَ النور إلا يوم أقلعنا عن اللجوء إلى التنويم المغنطيسي.

لكن إن يكن إثبات وجود المقاومة على هذه الدرجة من الأهمية، فإنه يتعيَّن علينا، من قبيل الاحتياط، أن ندع مكاناً للشك وأن نتساءل عمَّ إذا لم نكن تسرَّعنا في التسليم بوجودها، وعمَّ إذا لم نكن نصدر في عملنا هذا عن شيء من الخفّة في بعض الأحيان؟ فمن الممكن أن تواجهنا حالات عصابية لا تحقق فيها التداعيات نجاحاً لأسباب أخرى، ومن الممكن أن تكون الحجج التي يُردّ بها علينا بصدد هذه النقطة جديرة بأن تؤخذ بعين الاعتبار ونكون نحن من المخطئين إذ نسقط من حسابنا النقد العقلي لمن نحلِّلهم بإطلاقنا عليه اسم المقاومة، وهي تسمية تخدم مآربنا. غير أنه يتعيَّن عليّ أن أصارحكم، سادتي، بأننا لم نتوصل إلى هذا الحكم بخفة ولا تروٍّ. وقد تسنى لنا أن نلاحظ كل مريض من أولئك المرضى الناقدين لحظة ظهور المقاومة وبعد زوالها. والواقع أن المقاومة تتفاوت شدة في أثناء العلاج؛ فهذه الشدة تزداد كلما طرقنا فكرة جديدة، وتدرك أقصى مبلغها أثناء صياغة هذه الفكرة، وتعود فتفتر حين تُستنفد هذه الأخيرة. وفضلاً عن ذلك، وما لم نكن ارتكبنا خطأً تقنياً أخرق، فإننا لا نكون قد استثرنا لدى المريض أقصى ما يقتدر عليه من مقاومة. وقد تهيأ لنا على هذا النحو أن نلاحظ أن المريض نفسه يتخلى عن موقفه النقدي ثم يعود إلى التشبث به مراراً وتكراراً أثناء التحليل. فإذا ما أوشكنا أن نستدرج إلى وعيه شطراً جديداً وشديد الإيلام من المواد اللاشعورية، اتخذ منا موقفاً نقدياً مشتطاً؛ وحتى لو سبق له أن فهم وقبل أشياء كثيرة، فإن كل مكتسباته تضيع لحظتئذ أدراج الريح؛ والصورة التي قد يعرضها لأنظارنا، وهو متشبث ذلك التشبث العنيد بالمقاومة والمعارضة بأي



ثمن، هي صورة مكتملة للبلاهة العاطفية. لكن لو أمكننا أن نساعده على التغلب على هذه المقاومة، لارتدت إليه أفكاره ولاستعاد قدرته على الفهم. إذاً، فنقده ليس وظيفة مستقلة وجديرة منا بصفتها هذه بالاحترام؛ بل هو حيلة يصطنعها في خدمة نوازعه العاطفية، ومقاومته هي التي تتحكم بها. فإن لم يستسغ شيئاً، فبوسعه أن يدفعه عنه بأرابة كبيرة وروح نقدية مسرفة؛ أما إذا طاب له فيتقبَّله بسذاجة وسرعة تصديق. ولعلنا جميعاً نفعل ما يفعله؛ ولئن دلّل من نحلّله على مثل هذا القدر من الوضوح في تبعية العقل عنده للحياة العاطفية فإنما ذلك فقط لأننا نخضعه في تحليلنا لضغط متواصل بالغ الشدّة.

ولكن كيف لنا الآن أن نفسّر ما نلاحظه من نزوع المريض إلى أن يدفع عن نفسه بمثل تلك القوة كل محاولة لإزالة أعراضه ولإعادة سيروراته النفسية إلى نصابها الصحيح ؟ إننا نقول لأنفسنا إنه يتاح لنا هنا أن نستشعر وجود قوى فعالة تعارض أي تعديل للحالة المَرَضية، ولا بدّ أن تكون هي نفسها التي أدّت في وقت من الأوقات إلى نشوء هذه الحالة. فلا مناص من أن يكون قد حدث، عند تكوين الأعراض، شيء يسعنا الآن أن نعيد بناءه بدءاً مما اكتسبناه من خبرة في مجال تفكيك الأعراض. ونحن نعرف من قبل، من ملاحظات بروير، أن وجود العرَض مشروط بسيرورة نفسية تعذّر عليها الوصول إلى نهايتها الطبيعية، وما تسنى لها بالتالي أن تغدو شعورية، ومن ثم يأتي العرض لينوب مناب ما لم يكتمل. وهكذا نجد أنه في مستطاعنا الآن أن نحدِّد موضع فاعلية القوى المفترضة. إذ لا بدّ أن تكون معارضة عنيفة قد حالت دون وصول السيرورة النفسية إلى الشعور، وبذلك بقيت هذه السيرورة لاشعورية، ومن حيث أنها لاشعورية كانت لها القدرة على تشكيل العرض. وهذه المعارضة نفسها تتظاهر في أثناء العلاج في محاولة لإحباط الجهود الرامية إلى تحويل اللاشعور إلى شعور. وهذا ما ندركه حسياً في صورة مقاومة. ونحن نطلق على السيرورة المسبِّبة للمرض كما تتجلى لنا من خلال المقاومة اسم الكبت.

علينا الآن أن نحاول تصور سيرورة الكبت هذه على نحو أكثر وضوحاً. فهي الشرط التمهيدي لتكوين العرض، لكنها أيضاً شيء لا نعرف له شبيهاً أو نظيراً.



تمثيلاً على ذلك لنأخذ مثالَ حفزةٍ ما IMPULSION، أي سيرورة نفسية محبوّة بميل إلى التحول إلى فعل. فنحن نعلم أن هذه الحفزة يمكن أن تنحّى وتلجم وتدان. ومن ثم، إن الطاقة التي كانت في متناولها تُسحب منها فيؤول بها الحال إلى شلل، بيد أنها قد تبقى على قيد الوجود كذكرى. وجميع القرارات التي مدارها على تلك الحفزة تبرم تحت الإشراف الواعي للأنا. غير أن الأمور لا بدّ أن تجري غير هذا المجرى لو تخيّلنا أن هذه الحفزة عينها قد تعرضت للكبت. ففي هذه الحال تحتفظ ولا بدّ بطاقتها، ولكنها لا تترك وراءها أي ذكرى؛ بل إن سيرورة الكبت بالذات تتمّ خارج نطاق وعي الأنا. وهكذا يستبين لنا أن هذه المقارنة لا تقرّبنا البتة من فهم ماهية الكبت.

سأعرض عليكم التصورات النظرية التي ظهر أنها الأعظم فائدة من غيرها من هذا المنظور، أي الأقدر على ربط فكرة الكبت بشكل أو بصورة محدَّدة. لكن كيما يأتي عرضي هذا واضحاً، فلا بدّ قبل كل شيء أن نستبدل المعنى الوصفي لكلمة «اللاشعور» بمعناها النسقي؛ وبعبارة أخرى، يتعيَّن علينا أن نحزم أمرنا على الاعتراف بأن الوعي أو عدم الوعي بسيرورةٍ نفسيةٍ ما لا يعدو أن يكون خاصية من خصائصها، وليس من الضروري أن تكون هذه الخاصية ذات معنى واحد لا يتغير في جميع الأحوال[٣]. فحين تبقى سيرورة من السيرورات النفسية لاشعورية، فإن بقاءها بمنأى عن الوعي قد يكون مؤشراً إلى المصير الذي حاق بها، ولكنه لا يكون هو هذا المصير نفسه. وكيما نكوّن لأنفسنا فكرة واضحة عن هذا المصير، نفترض أن كل سيرورة نفسية، ربما باستثناء سيرورة واحدة سنتكلم عنها عما قليل، توجد أول الأمر في مرحلة أو في طور لاشعوري، ثم

٣ ـ تيسيراً لفهم القارئ لهذه المحاكمة التي يجريها فرويد لا بدّ أن نأخذ في اعتبارنا أن اللغة الألمانية، وكذلك اللغات اللاتينية، لا تميّز في اللفظ بين الوعي والشعور، أو بين اللاوعي واللاشعور. ولكن مثل هذا الالتباس لا وجود له بالعربية (إلا ضمن حدود)، منذ أن آثر المترجمون والمدرِّسون الأوائل لعلم النفس وللتحليل النفسي عندنا أن يفرّقوا بين المعنيين الوصفي والنسقي لكلمة الوعي (أو اللاوعي) باصطناعهم كلمة الشعور (أو اللاشعور). ونحن بدورنا نتقيّد بهذا التقليد. فإذا كان المقصود بكلمة «الوعي» (أو اللاوعي) معناها الوصفي أبقينا على هذا اللفظ، أما إذا كان المقصود بها انتسابها إلى النسق النفسي الذي قامت شهرة مدرسة التحليل النفسي على اكتشافه، فإننا نقول: «الشعور» و«اللاشعور»، أو «الشعوري» و«اللاشعوري»، وكذلك «القبشعور» و«القبشعوري» إلخ. «م».



تنتقل بعد ذلك إلى الطور الشعوري، مثلها في ذلك مثل الصورة الفوتوغرافية التي تكون أول الأمر سالبة ولا تصير هي الصورة النهائية إلا بعد أن يتمّ تظهيرها إيجابياً. ولكن كما أن كل صورة سالبة لا تصير حتماً وبالضرورة صورة موجبة، كذلك لا يتحتم أن تتحول كل سيرورة نفسية لاشعورية إلى سيرورة شعورية. ونعتقد أنه من الأصوب لنا أن نقول: إن كل سيرورة تنتمي أول الأمر إلى النسق النفسي للاشعور، ولا يتأتى لها أن تنتقل لاحقاً إلى نسق الشعور إلا في ظروف محدَّدة.

والتمثيل الأبسط لهذين النسقين هو الأكثر ملاءمة لنا: أقصد به التمثيل المكاني. فلنشّبه إذاً نسق اللاشعور بقاعة انتظار واسعة، تزدحم فيها الحاثات (Motions) النفسية، كما لو أنها مخلوقات بشرية. وتتصل بقاعة الانتظار هذه غرفة أخرى، أصغر منها، أشبه ما تكون بردهة استقبال، فيها يقيم الشعور. لكن عند الرواق الفاصل بينهما يقيم حارس يسهر على تفتيش كل حاثة نفسية، ويخضعها للرقابة، ويمنعها من دخول قاعة الاستقبال إن لم يرضَ عنها. وسواء أردّ الحارس حاثة بعينها من عتبة الباب أم أجبرها على التراجع القهقرى بعد أن تكون قد دلفت إلى ردهة الانتظار، فليس في الأمر فارق كبير، وتكاد النتيجة أن تكون واحدة. وكل شيء رهن بدرجة يقظة الحارس وثقوب نظره. ومن مزايا هذه الصورة أنها تتيح لنا أن نطور مدوَّنة مصطلحاتنا. فالحاثات المتواجدة في قاعة الانتظار المخصصة للاشعور لا تقع تحت نظر الشعور المقيم في الغرفة المجاورة. وبذلك تظلّ في أول الأمر لاشعورية. فإذا ما وصلت بعد ذلك إلى العتبة وردّها الحارس على أعقابها، فمعنى ذلك أنها عاجزة عن أن تصير شعورية، فنقول عنها في هذه الحال إنها **مكبوتة**. غير أن الحاثات التي سمح لها الحارس باجتياز العتبة لا تغدو بالضرورة شعورية، بل بوسعها أن تصبح كذلك إذا ما أفلحت في لفت نظر الشعور إليها، وعليه، سنطلق على هذه الغرفة الثانية اسم النسق **القبشعوري**(٤). وهكذا، إن تحول سيرورة ما إلى سيرورة شعورية يحتفظ بمعناه الوصفي المحض. أما الكبت فمعناه أن يمنع الحارس حاثة بعينها من الولوج

٤ ـ اختصاراً لـ «ما قبل الشعوري». «م».



من اللاشعور إلى القبشعور. وهذا الحارس هو الذي يتبدى لنا في صورة مقاومة، عندما نحاول أن نضع حداً للكبت عن طريق المعالجة التحليلية.

ستقولون لي في أرجح الظن إن هذه التمثيلات، البسيطة والمغربة في آن معاً، لا مجال لها في عرض علمي. وإنكم لعلى حق، وأنا نفسي أعلم أنها، فضلاً عن ذلك، غير صحيحة. وإذا لم أخطئ التقدير كثيراً فإنه سيتاح لنا عما قليل أن نستبدلها بشيء آخر خيراً منها. ولا أعلم هل سأبدو لكم، في حال تصحيحها وتكميلها، أقل إغراباً. ومهما يكن من أمر فإن هذه التمثيلات المساعدة، التي لها نظيرها في الشخص الذي تصوَّره آمبير Ampère سابحاً في مجال التيار الكهربائي[٥]، لا تستأهل منا أن نرى إليها بعين الازدراء ما دامت تعيننا، في محصلة الحساب، على فهم بعض الحالات. وبوسعي أن أجزم لكم أن هذه الفرضية الفجّة: الغرفتين والحارس الواقف عند العتبة الفاصلة بينهما والشعور الذي لا دور له سوى دور المتفرج الناظر في صدر الغرفة الثانية، تزوِّدنا بصورة قريبة جداً من الحقيقة الفعلية للأشياء. ويطيب لي، فضلاً عن ذلك، أن أسمعكم توافقون على أن تسمياتنا: **الشعور واللاشعور والقبشعور**، أبعد ما تكون عن الانحياز في الحكم وأدنى إلى التسويغ والتبرير من كثير غيرها من التسميات الدارجة أو المقترحة: تحت الشعور، شبه الشعور، ضمن الشعور، إلخ.

ثمة ملاحظة أعلِّق عليها قدراً أكبر بكثير من الأهمية، وهي تلك التي قد تبدونها فيما لو قلتم إن تنظيم الجهاز النفسي، كما أصادر عليه هنا لحاجتي إليه في المهمة التي أخذتها على عاتقي لتفسير الأعراض العصابية، لا بدّ له، كيما يكون صحيحاً، أن يكون ذا فاعلية عامة وأن يجلو لنا سير الوظيفة السوية أيضاً. وملاحظة كهذه هي الحقّ بعينه، غير أنه لا يسعني في الوقت الحاضر أن أتابعها إلى نهايتها. ومن المؤكد أن اهتمامنا بسيكولوجيا تكوين الأعراض سيزداد ازدياداً هائلاً لو أمكن لنا أن نأمل حقاً بإمكانية الظفر، عن طريق دراسة الوقائع

٥ ـ أندرية آمبير: عالم فيزياء ورياضيات فرنسي (١٧٧٥ ـ ١٨٣٦). واضع نظرية الطاقة الكهرطيسية، ومخترع التلغراف الكهربائي. و«شخصه» المشار إليه هو مراقب افتراضي متمدد في مجال التيار الكهربائي، وبالإحالة إليه يتحدَّد اتجاه الإبرة الممغنطة. «م».



الباتولوجية، بمعلومات عن الصيرورة النفسية السوية التي لا تزال خفية خفاء كبيراً.

هذا العرض الذي قدمته لكم عن النسقين النفسيين، وعن العلاقات فيما بينهما، وعن روابطهما بالشعور، ألا يذكركم إذاً بشيء ما؟ لو أمعنتم في التفكير لبان لكم أن الخفير القائم على الحراسة بين اللاشعور والقبشعور إن هو إلا تشخيص **للرقابة** التي تتولى، كما كنا رأينا، إعطاء الحلم الظاهر شكله النهائي. فالبقايا النهارية، التي تعرَّفنا فيها منبِّهات الحلم، كانت في تصورنا مواد قبشعورية تعرضت ليلاً لتأثير رغبات لاشعورية ومكبوتة، فاقترنت بها وشكّلت بالتعاون معها، وبفضل ما هي مشحونة به من طاقة، الحلم الكامن. وقد قلنا أيضاً إن المواد القبشعورية تتعرض، تحت تأثير النسق اللاشعوري، لعملية إعداد وصياغة ـ من تكثيف ونقل وإزاحة ـ على نحو مجهول أو غير معهود، إلا بصفة استثنائية، في الحياة النفسية السوية، أي في النسق القبشعوري. وقد ميَّزنا بين كل من هذين النسقين بطريقة أدائه لعمله. فانتماء ظاهرة من الظاهرات إلى هذا وذاك من كلا النسقين إنما تحدده علاقتها بالشعور، الذي هو نفسه امتداد للقبشعور. والحال أن الحلم، بموجب هذه النظرة، ليس بظاهرة مرَضية: فقد يحدث لدى أي إنسان سليم معافى بشرط أن يكون في حالة النوم. وهذه الفرضية عن بنية الجهاز النفسي ـ وهي فرضية تشمل بتفسير واحد تكوين الحلم وتكوين الأعراض العصابية معاً ـ تتوفر لها كل الفرص لأن تصدق أيضاً على الحياة النفسية السوية.

هكذا ينبغي أن نفهم، حتى إشعار آخر، طبيعة الكبت. فما الكبت إلا شرط مسبق لتكوين الأعراض. ونحن نعلم أن العرض يأتي ليحلّ محلّ شيء آخر يحول الكبت بينه وبين الإعلان عن نفسه. لكن علمنا بكنه الكبت لا يعني أننا فهمنا هذا التكوين البديل. ففي الجانب المقابل من المعضلة تنهض الأسئلة التالية ذات الصلة بإقرارنا بوجود الكبت: ما الحاثات النفسية التي تتعرض للكبت؟ وما القوى التي تفرض الكبت؟ وما الدوافع التي ينصاع لها؟ ولا يتوفر لدينا في الوقت الراهن سوى عنصر واحد للإجابة عن هذه الأسئلة. فعندما درسنا



المقاومة، علمنا أنها نتاج لقوى الأنا، نتاج لخصائص ظاهرة وكامنة في خلقه وطبعه. وعليه، لا بدّ أن تكون هذه القوى وهذه الخصائص هي التي سبَّبت الكبت أو ساهمت، على الأقل، في استحداثه. أما ما عدا ذلك فلا يزال مجهولاً منا في الوقت الحاضر.

لكن هنا يأتينا العون من جانب ثانية الواقعتين اللتين أعلنت عنهما في مطلع محاضرتي هذه. فبدءاً من التحليل نستطيع أن نحدد بصورة عامة للغاية الغرض الذي تخدمه الأعراض العصابية. ولكن ليس هذا بجديد عليكم. فقد سبق أن أوضحت لكم ذلك من خلال حالتين من حالات العصاب. بلى، لكن ماذا تعني، في المحصلة الأخيرة، حالتان فقط؟ من حقكم أن تطلبوا أن أبرهن لكم على مدّعاي بمئتين من الحالات، بما لا عدّ له من الحالات. ويؤسفني أنني عن ذلك عاجز. ولا مناص لي من أن أحيلكم من جديد إلى تجربتكم الخاصة أو أن أتذرع بانعقاد إجماع أصحاب التحليل النفسي على توكيد صحة هذه النقطة.

تذكرون ولا ريب أن التحليل زجّ بنا، في كلتا الحالتين اللتين أخضعنا أعراضهما لفحص مفصَّل، في صميم حياة المرضى الجنسية. وعلاوة على ذلك تعرَّفنا في الحالة الأولى، بجلاء لا مزيد عليه، غرض الأعراض المدروسة أو قصدها، ومن الممكن أن يكون هذا الغرض أو القصد قد حجبه في الحالة الثانية شيء سيتسنى لنا أن نتكلم عنه لاحقاً. والحال أن أية حالة أخرى قد نجري عليها التحليل ستكشف لنا عن تفاصيل مطابقة لما لاحظناه في الحالتين الآنفتين. ففي جميع الحالات لا بدّ للتحليل من أن يقتحم مسرح الأحداث الجنسية وأن يزيح لنا النقاب عن رغبات المرضى الجنسية، ولا بدّ من أن يتأكد لنا بالمشاهدة في كل مرة أن أعراضهم تخدم الغرض نفسه. وما هذا الغرض إلا إشباع الرغبات الجنسية. فالأعراض تفيد في إشباع المرضى جنسياً، وهي تنوب مناب هذا الإشباع إن كان المرضى محرومين منه في الحياة السوية.

تذكروا الفعل القهري الذي كانت تؤديه مريضتنا الأولى. فالمرأة محرومة من زوجها الذي تحبّه حباً جماً، وإن كانت لا تستطيع مشاطرته الحياة لقصوره وضعفه. فعليها أن تقيم على وفائها له، وألا تسعى إلى الاستعاضة عنه بأي رجل



آخر. وعرضها الوسواسي يوفر لها ما تصبو إليه: فهو يعلي من شأن زوجها، وينفي ويصحِّح ضعفه، وفي المقام الأول عنَّته. وما هذا العرض في صميمه إلا إشباع لرغبة، تماماً كما في الأحلام، بل ما هو إلا إشباع لرغبة إيروسية، وهذا ليس شأن الحلم دوماً. أما عن مريضتنا الثانية فقد تسنى لكم على الأقل أن تروا أن الهدف الذي ترمي إليه من فعلها الطقسي هو الحؤول دون الاتصال الجنسي بين والديها تفادياً لولادة طفل جديد. وقد رأيتم أيضاً أن مريضتنا تنزع في صميمها، بطقسها هذا، إلى الحلول محلّ أمها. إذاً، فالهدف هنا، كما في الحالة الأولى، إزالة العوائق التي تعترض سبيل الإشباع الجنسي وتحقيق الرغبات الإيروسية. أما التعقيدات التي ألمعت إليها في حالة هذه المريضة، فلي إليها عودة عما قليل.

سادتي، توضيحاً وتبريراً لما سأفرضه لاحقاً من تقييد على عمومية أطروحاتي، ألفت نظركم من الآن إلى أن كل ما قلته هنا عن الكبت وتكوين الأعراض ومدلولها قد استخلصته من تحليل ثلاثة أشكال من العصاب: الهستيريا الحَصَرية، والهستيريا الاستبدالية[٦] والعصاب الوسواسي، ولا ينطبق إلا على هذه الأشكال الثلاثة في المقام الأول. هذه الأمراض الثلاثة، التي درجت بنا العادة على جمعها في فئة واحدة تحت اسم عام هو «**الأعصبة التحويلية**»[٧]، تعيِّن أيضاً حدود المجال الذي يمكن للتحليل النفسي أن ينشط فيه؛ أما الأعصبة الأخرى فلم تحظَ من جانب التحليل النفسي بمثل هذه الدراسة المعمَّقة. واستعصاء طائفة منها على كل تدخل علاجي كان هو السبب في تنحيتها وإهمالها. ولا تنسوا أن التحليل النفسي لا يزال علماً فتيّاً، وأن التمكن منه يقتضي جهداً كبيراً ووقتاً كثيراً، وأنه منذ فترة غير بعيدة لم تكن قد قامت له قائمة إلا على كتفيْ شخصين اثنين[٨].

٦ ـ الهستيريا الاستبدالية: هي في نظر فرويد الهستيريا التي تحوّل الأعراض النفسية إلى أعراض بدنية. ولذا جاز لنا أن نسمِّيها أيضاً بالهستيريا الاستبدانية. «م».

٧ ـ الأعصبة التحويلية هي في نظر فرويد الأعصبة التي يبحث فيها الليبيدو عن موضوعه في الخارج، على عكس الحالات الذهانية التي يبحث فيها الليبيدو عن موضوعه في الأنا. وأكثر ما يميِّزها ـ ومن هنا تسميتها ـ أن المصاب بها يحوّل، أو بالأحرى يسقط على شخص الطبيب النفسي الذي يعالجه مشاعره الحبيّة أو العدائية. «م».

٨ ـ هما فرويد نفسه وجوزيف بروير الذي اشترك وإياه في كتابة **دراسات في الهستيريا**. «م».



غير أن المحاولات جارية على قدم وساق في كل مكان للولوج إلى كنه الأمراض الأخرى التي لا تندرج في فئة الأعصبة التحويلية بغية فهم طبيعتها. وآمل أيضاً أن أتمكن من أن أعرض لكم ما طرأ على فرضياتنا ونتائجها من تطور بحكم تطبيقها على هذه المواد الجديدة، إذ أفضت هذه الدراسات الجديدة لا إلى دحض مكتسباتنا الأولى، بل إلى تكوين رؤية أعمّ وأرقى. وبما أن كل الذي ذكرناه هنا ينطبق على الأعصبة الثلاثة في المقام الأول، فسأسمح لنفسي بأن أرفع من شأن الأعراض ومدلولها بإطلاعكم على تفصيل جديد. فالدراسة المقارنة للعلل المسبِّبة لهذه الأمراض الثلاثة تتمخض عن نتيجة محددة يمكن أن تلخِّصها الصيغة التالية: إن هؤلاء المرضى يكابدون **حرماناً**، إذ يضنّ عليهم الواقع بإشباع رغباتهم الجنسية. وكما ترون، فإن التوافق كامل بين هاتين النتيجتين. وأجدى طريقة لفهم الأعراض أن نعدَّها إشباعاً بديلاً، الغرض منه أن ينوب مناب الإشباع الذي تضنّ به الحياة الطبيعية.

من الممكن بعد بلا ريب توجيه اعتراضات كثيرة إلى الأطروحة القائلة بأن الأعراض العصابية أعراض بديلة. وسأنكبّ الآن على مناقشة اثنين من هذه الاعتراضات. فلو أنكم أخضعتم بأنفسكم للفحص التحليلي النفسي عدداً من المرضى، فلربما قلتم لي بشيء من اللوم: ثمة طائفة بكاملها من الحالات لا تصدق عليها أطروحتك، وهي حالات يبدو أن للأعراض فيها غرضاً معاكساً، هو بالتحديد استبعاد الإشباع الجنسي أو إبطاله. ولن أماري في صحة تأويلكم. فالأشياء تتكشف في كثير من الأحيان في التحليل النفسي عن أنها على درجة من التعقيد أكبر مما كنا نودّ. ولو كانت بسيطة، فلربما ما احتجنا أصلاً إلى التحليل النفسي لاكتناه سرّها. وبالفعل، إن بعض أجزاء الفعل الطقسي الذي تؤديه مريضتنا الثانية تنمّ عن ذلك الطابع الزهدي، المناوئ للإشباع الجنسي، وعلى سبيل المثال عندما تستبعد الساعات بمختلف أنواعها، وهذا فعل سحري تحسب أنه يعفيها من الانتعاظ الليلي، أو عندما تريد الحؤول دون سقوط الأوعية وتحطمها، آملة بذلك أن تحفظ بكارتها. وكان هذا الطابع السالب أشدّ بروزاً أيضاً في حالات أخرى من الطقوس التي تسبق الرقاد تسنى لي تحليلها؛ ففي



بعضها كان الطقس برمته يتألف من تدابير وإجراءات وقائية لدفع الذكريات والإغراءات الجنسية. بيد أن التحليل النفسي أبان لنا غير مرة أن التعارض ليس على الدوام تناقضاً. وبوسعنا إذا شئنا أن نوسع من نطاق أطروحتنا بأن نقول إن هدف الأعراض إما تأمين إشباع جنسي وإما تحاشيه وصدّه، علماً بأن الطابع الموجب باتجاه الإشباع هو الغالب في الهستيريا، بينما الغالب في العصاب الوسواسي هو الطابع السالب، الزهدي. ولئن صحّ أن الأعراض يمكن أن تفيد سواء أفي الإشباع الجنسي أم في نقيضه، فإن هذا الغرض المزدوج أو هذه القطبية تجد تفسيرها في آلية لم يتسّن لنا بعد الكلام عنها من آليات تكوين الأعراض. فالأعراض، كما سنرى، هي نتيجة لتسوية بين ميلين متعارضين، وهي تعبر عما كُبت كما عما كان السبب في الكبت وعما ساهم بالتالي في ظهور الأعراض. ومن الممكن أن يتم الإبدال لصالح أحد هذين الميلين أكثر منه لصالح الآخر، ولكن من النادر أن يتم لصالح أحدهما دون الآخر؛ وفي الهستيريا يفصح القصدان عن نفسيهما في أغلب الأحيان بعرض واحد، بينما يحدث في العصاب الوسواسي انفصال بين كلا القصدين، فيكون ظهور العرض على مرحلتين، ويتألف من فعلين متعاقبين، واحدهما يبطل الآخر.

ولن يكون سهلاً علينا بالمقدار نفسه أن نبدِّد شكاً آخر. فلو استعرضتم عدداً من تأويل الأعراض، لملتم في أرجح الظن إلى القول إنه من الشطط والغلوّ التطلع إلى تفسيرها جميعها بالإشباع البديل للرغبات الجنسية. ولن تتوانوا عن الإشارة إلى أن هذه الأعراض لا تقدِّم للإشباع أي عنصر فعلي، وأنها تقتصر في أغلب الأحيان على تنشيط إحساس ما أو تمثيل صورة تتسم بقدر غير قليل من الغرابة وشاذَّة في الوقت نفسه عن عقدة جنسية. وسترون فضلاً عن ذلك أن الإشباع الجنسي المزعوم يتَّسم في كثير من الأحيان بطابع صبياني وشائن، فيشابه مثلاً فعل استمناء، أو يذكِّر بتلك العادات المستكرهة التي ننهى عنها الأولاد ونسعى إلى حملهم على الإقلاع عنها. وعلاوة على ذلك ستبدون عن عجبكم إذ ترونا ندرج في عداد الإشباع الجنسي ما لا يصحّ وصفه إلا بأنه إشباع لرغبات فظة أو مستفظعة، بله رغبات مجافية للطبيعة. وسيكون من المتعذر علينا، سادتي، أن



نتوافق على النقاط الأخيرة ما لم نخضِع حياة الإنسان الجنسية لفحص معمَّق، وما لم نحدِّد ما هو مباح لنا أن نعدّه جنسياً من دون أن نجازف بالوقوع في الخطأ.


مكتبة
الفكر الجديد

المحاضرة العشرون

الحياة الجنسية للكائن الإنساني

سيداتي سادتي، قد يحسب الواحد منا أن الناس جميعاً متفقون على المعنى الذي ينبغي أن يعطى لكلمة «الجنسي». أفليس الجنسي في المقام الأول ما هو غير محتشم، وما لا يجوز الكلام عنه؟ وقد سمعت، في ما سمعت، أن تلاميذ طبيب مشهور للأمراض النفسية أرادوا مرة أن يقنعوا معلّمهم بأن أعراض المهسترين لها في أغلب الأحيان طابع جنسي، فاقتادوه إلى سرير مريضة بالهستيريا كانت نوباتها تحاكي بلا مراء عملية الولادة. فلما رأى الأستاذ ذلك قال بازدراء: «على كل حال ليس للولادة طابع جنسي». ولا جدال في أن الولادة ليست على الدوام وبالضرورة فعلاً غير محتشم.

ستلومونني في أرجح الظن على ركوبي مركب المزاح والتفكه بصدد أشياء هي من الجِدّ في منتهاه. لكن ما ذكرته لكم يبعد عن أن يكون مزاحاً وتفكهاً. إذ إن مضمون كلمة «الجنسي» غير قابل بسهولة للتعريف. وقد يقول أحدكم إن كل ما له صلة بالفوارق التي تفصل بين الجنسين هو جنسي، لكن هذا تعريف مبهم بقدر ما هو فضفاض. ولو أخذتم بعين الاعتبار الفعل الجنسي في المقام الأول، فلربما قلتم إن الجنس هو كل ما يتصل بطلب اللذة من جسم الإنسان الآخر، وعلى الأخص من أعضائه التناسلية؛ وبالاختصار، كل ما يتصل بالرغبة في المجامعة وإتمام الفعل الجنسي. وبهذا التعريف تقتربون من أولئك الذين يماثلون بين ما هو جنسي وبين ما هو غير محتشم، وسيكون من حقكم أن تقولوا إن الولادة لا تنطوي على شيء جنسي. لكن لو جعلتم من الإنجاب نواة الجنسية، لجازفتم بأن تستبعدوا من تعريفكم طائفة من الأفعال لا جدال في طبيعتها الجنسية وإن لم يكن الإنجاب هدفها، ومنها مثلاً الاستمناء أو حتى القبلة. لكننا



نعرف من قبل أن كل محاولة للتعريف لا مفرّ من أن تترتب عليها إشكالات، وليس لنا أن نأمل أن الحال ستختلف في ما نحن بصدده. ولنا أن نشتبه بأنه حدث، في مجرى تطور مفهوم «الجنسي»، شيء كان من نتيجته، على حدّ تعبير هـ. سلبرر البديع، «خطأ بالإخفاء والكتمان». على أننا لو أخذنا لكل شيء حسابه لما وجدنا أنفسنا في حيرة تامة إزاء ما يعنيه الناس بقولهم «جنسي».

إن تعريفاً يأخذ في اعتباره الفارق بين الجنسين، والمتعة الجنسية، ووظيفة الإنجاب، والطابع اللامحتشم لطائفة من الأفعال والموضوعات الواجبة الإخفاء ـ نقول: إن تعريفاً كهذا قد يكون كافياً لسدّ الحاجات العملية في الحياة الجارية. لكن العلم لا يسعه أن يقنع به. فقد أمكن لنا، بفضل الأبحاث الدقيقة التي اقتضت من الأفراد الذين أجريت عليهم قدراً عظيماً من التجرد ومن السيطرة على النفس، أن نعاين وجود فئات بأسرها من الأشخاص تختلف «حياتهم الجنسية» اختلافاً لافتاً للنظر عن التصور الدارج المألوف. فبعض هؤلاء «المنحرفين» قد شطبوا من برنامجهم، إن جاز القول، الفارق بين الجنسين: فليس إلا لأفراد من جنسهم أن يثيروا رغباتهم الجنسية، أما أفراد الجنس الآخر ـ وأحياناً الأعضاء التناسلية للجنس الآخر ـ فلا يتسمون في نظرهم بأية سمة جنسية، بل قد يكونون، في بعض الحالات المشتطة، مثاراً لتقززهم. وغني عن البيان أن هؤلاء المنحرفين قد عزفوا عزوفاً تاماً عن المشاركة في عملية الإنجاب. ونحن نطلق على هؤلاء الأشخاص اسم الجنسيين المثليين HOMOSEXUELS أو المرتكسين INVERTIS. وهم رجال ونساء تلقوا في أكثر الأحيان ـ لا دائماً ـ تعليماً وتربية لا غبار عليهما، ومستواهم الأخلاقي والفكري رفيع، وليس بهم سوى هذا الشذوذ المؤسف لا غير. وهم يصوِّرون أنفسهم، بلسان ممثليهم العلميين، على أنهم نوع خاص من البشر، «جنس ثالث» له ما للجنسين الآخرين من حقوق. وربما سنحت لنا الفرصة لوضع ادعاءاتهم هذه على محك التمحيص النقدي. وهم لا يؤلفون بطبيعة الحال، كما قد يميلون إلى الإيحاء لنا بذلك، «صفوة» البشرية؛ ففي عدادهم أفراد تافهون وعديمو الفائدة مثلما في عداد أصحاب الحياة الجنسية السوية.



إن سلوك هؤلاء المنحرفين إزاء موضوعهم الجنسي لا يكاد يختلف عن سلوك الأسوياء من الناس إزاء مواضيعهم الجنسية. غير أنه تلي هؤلاء طائفة من غير الأسوياء ينأى نشاطهم الجنسي بتزايد مطَّرد عما يعدّه الإنسان العاقل مقبولاً ومرغوباً. ولا يسعنا أن نقارن هؤلاء، بتنوعهم وفرادتهم، إلا بالمسوخ الشائهة البشعة التي قدِمت لإغواء القديس أنطونيوس[1] في لوحة ب. بروغل[2]، أو بالآلهة والمؤمنين الذين طوتهم يد النسيان من أحقاب بعيدة والذين صوَّرهم غ. فلوبير[3] وهم يمرون في موكب طويل أمام عيني ناسكه الورع. وخليطهم هذا يستدعي تصنيفاً، وإلا لتعذّر علينا أن نهتدي إلى سواء السبيل. وإننا لنقسمهم إلى فئتين: فئة يختلفون عن أسوياء الناس بموضوعهم الجنسي، ومنهم الجنسيون المثليون، وفئة ينشدون هدفاً جنسياً مغايراً للهدف الذي ينشده الأسوياء. وينتمي إلى الفئة الأولى من عزف عن المزاوجة بين الأعضاء التناسلية المتقابلة واستبدل العضو التناسلي لشريكه في الفعل الجنسي بجزء آخر أو منطقة أخرى من جسمه. ولا يهمّ أن يكون هذا الجزء أو المنطقة غير مؤاتٍ، من حيث بنيته، للفعل المشار إليه: فأفراد هذه الفئة يضربون صفحاً عن هذا الاعتبار، وكذلك عن العائق الذي قد ينشأ عن الإحساس بالتقزز (فهم يستبدلون المهبل بالفم أو بالشرج). وينتمي إلى هذه الفئة أيضاً من يلتمس تلبيته من الأعضاء التناسلية، لا لوظائفها الجنسية، وإنما لوظائف أخرى تشارك هذه الأعضاء في أدائها لأسباب تشريحية أو بحكم الجوار. فوظائف التبرُّز EXCRÉTION، التي تسعى التربية إلى أن تدخل في روع الطفل أنها غير محتشمة، تحتكر لدى هؤلاء الأفراد الاهتمام الجنسي بأسره.

---

١ ـ أنطونيوس الكبير: من عظماء النساك (٢٥١ ـ ٣٥٦). من مواليد صعيد مصر، تنسّك وصار له أتباع كثيرون وقاوم، حسبما جاء في سيرة حياته، عدداً لا يحصى من التجارب. لُقِّب بأبي الرهبان. «م».

٢ ـ بطرس بروغل: الملقب بالجهنمي (نحو ١٥٦٤ ـ ١٦٣٨) رسام فلمنكي من أسرة من مشاهير الرسامين، صوّر حرائق ومشاهد مأساوية وجحيمية. **وتجربة القديس أنطونيوس** واحدة من أشهر لوحاته، وتصوِّر ناسك الصحراء المصرية وهو قيد إغراء من قبل الشيطان برؤى اللذات الأرضية. «م».

٣ ـ غوستاف فلوبير: أديب فرنسي (١٨٢١ ـ ١٨٨٠). مؤلف **مدام بوفاري** ذات الاتجاه الواقعي، وله قصيدة نثرية مطوّلة بعنوان **تجربة القديس أنطونيوس** (١٨٧٤) استوحاها من حياة ناسك طابا المصرية وهو يحاور الرؤى الجهنمية المتعاقبة. «م».



ويضاف إلى هؤلاء من عزف عزوفاً تاماً عن الأعضاء التناسلية كمواضيع للإشباع الجنسي ورفع إلى هذه المنزلة أجزاء أخرى من الجسم لا صلة لها بها: كثدي المرأة أو قدمها أو ضفيرتها. بل ثمة أفراد آخرون لا يسعون حتى إلى إشباع رغبتهم الجنسية عن طريق أي جزء من أجزاء الجسم، وإنما يكفيهم شيء مما تستعمله المرأة في لباسها وزينتها: حذاؤها، قطعة من ملابسها الداخلية، إلخ. إنهم التميميون FÉTICHISTES[٤]. ولنذكر أخيراً طائفة من يشتهي فعلاً الموضوع الجنسي الكامل والسوي، لكنه يتطلب منه أشياء محددة، غريبةَ أو مستفظعة، حتى ليودّ لو يتحول حامل الموضوع الجنسي المشتهى إلى جثة هامدة، ولا يقدر على الاستمتاع به ما لم يضع دافعه الإجرامي هذا موضع تنفيذ. لكن كفانا هذا القدر من المقابح!

تتألف الفئة الكبيرة الأخرى من المنحرفين من أفراد جعلوا هدف رغباتهم الجنسية ما لا يعدو أن يكون لدى الأسوياء فعل إعداد وتمهيد. فهم يجسّون ويلمسون الشخص من الجنس الآخر، ويحاولون اختلاس النظر إلى الأجزاء الخفية والحميمة من جسمه، أو يكشفون عن الأجزاء الخفية من أجسامهم، على أمل أن يقابلهم الآخرون بالمثل. وتلي هؤلاء زمرة الساديين[٥] الذين يحتار الناس في أمرهم والذين لا يعرفون من لذة سوى لذة إنزال الألم والعذاب بموضوعهم، بدءاً من الإذلال البسيط وانتهاء بالأضرار الجسمانية الفادحة؛ ويناظرهم المازوخيون[٦]، وهؤلاء لا لذة لهم إلا في أن ينالهم من الموضوع المحبوب شتى

---

٤ ـ التميمية (وحرفياً الفيتيشية): مصطلح اقتبسه التحليل النفسي عن الإثنولوجيا، وهو مشتقّ من التميمة (أو الفيتيشو باللغة البرتغالية)، وهي الشيء المسحور المعبود لدى قبائل البدائيين. وقد وظّفها علم النفس الجنسي لتسمية عشق الأشياء أو التمائم أو أجزاء بعينها من الجسم مثل القدمين أو الأذنين وما يستر أحد أعضاء الجسم مثل القفاز أو الجورب أو الحذاء. والتميمة كما يرى فرويد بديل لقضيب المرأة المتوهَّم من قبل الصبي الصغير الذي يحدث عنده تثبيت على هذا التوهم. «م».

٥ ـ نسبة إلى المركيز دي ساد، الكاتب الفرنسي (١٧٤٠ ـ ١٨١٤) الذي كتب روايات (**جوستين**، **جوليت**) التي تستحوذ على أبطالها رغبة جهنمية في تعذيب الآخرين. «م».

٦ ـ نسبة إلى الفارس ليوبولد فون ساشر مازوخ، الكاتب النمساوي (١٨٣٦ ـ ١٨٩٥) الذي كتب قصصاً وروايات (**السيدة ذات الفرو**) تنضح بالرغبة في تعذيب الذات. «م».



صنوف الإذلال وضروب التعذيب، سواء أفي شكل رمزي أم واقعي. وقد يجمع نفر آخر ويركّب بين عدد من هذه الميول اللاسوية. لكن يتعيَّن علينا أن نضيف، على سبيل ختام التعداد، أن كل فئة من هاتين الفئتين الكبيرتين اللتين استعرضناهما تنقسم إلى فرعين كبيرين: فرع يضمّ الأفراد الذين يلتمسون إشباعهم الجنسي في الواقع، وآخر يضمّ أولئك الذين تكفيهم من هذا الإشباع صورته، فبدلاً من أن يلتمسوا موضوعاً فعلياً يركِّزون اهتمامهم كله على بديل من نسج خيالهم.

أما أن هذه الحماقات والغرائب والقبائح تمثل فعلاً النشاط الجنسي للأفراد المشار إليهم، فهذه نقطة لا يمكن أن يرقى إليها الشك. وعلى هذا النحو أصلاً يتصور هؤلاء الأفراد مشاربهم وميولهم. قد يدركون أحياناً أنها بدائل، لكن لا بدّ لنا من أن نضيف، من جهتنا، أن حماقاتهم وغرائبهم وفظائعهم تلعب في حياتهم عين الدور الذي يلعبه في حياتنا الإشباع الجنسي السوي، وأنهم يبذلون، في سبيل الوصول إلى إشباعهم، تضحيات مماثلة ـ وكبيرة جداً في الغالب ـ لما نبذله نحن. وإننا لو تقصينا جميع تفاصيل حياتهم الجنسية لأمكننا أن نكتشف النواحي التي تقترب فيها هذه الانحرافات من الحالة السوية، وتلك التي تبتعد فيها عنها وتنأى. ولعلكم لاحظتم أن طابع اللاحشمة، اللصيق بالنشاط الجنسي، يشتطّ في هذه الانحرافات إلى أقصى درجة، إلى نقطة تتحول عندها اللاحشمة إلى خسّة ودناءة.

والآن، سيداتي سادتي، ما الموقف الذي يتعيَّن علينا أن نقفه من هذه الطرق الخارقة للمألوف في الإشباع الجنسي؟ إن الإعلان عن استنكارنا لها، والإعراب عن تقززنا الشخصي منها، والتوكيد بأننا بمنجاة من هذه الرذائل، كل ذلك لا يغني شيئاً، وهو على كل حال غير مطلوب منا. فما هذه، آخر الأمر، إلا طائفة من ظاهرات تستدعي أن نحيطها بانتباهنا كغيرها من الظاهرات الأخرى. ولو احتمينا خلف التوكيد بأنها وقائع نادرة، غرائب مثيرة للفضول، لعرّضنا أنفسنا لتكذيب عاجل. ذلك أن الظاهرات التي هي موضع اهتمامنا هنا هي، على العكس، متواترة جداً، وشائعة جداً. لكن لو قيل لنا إن تصوراتنا عن الحياة



الجنسية لا يجوز أن تبلبلها وتعكِّر صفوها وقائع كتلك لأن جميع أمثال هذه الوقائع لا تعدو أن تمثِّل حيدانات وانحرافات للدافع الغريزي الجنسي، فلن يكون أمامنا من مناص من الردّ بمنتهى الرصانة. إذ ما لم نفهم هذه الأشكال المَرَضية من الجنسية، وما لم نستطع أن نربطها بالحياة الجنسية السوية، فسيكون متعذراً علينا أيضاً أن نفهم هذه الأخيرة. زبدة القول: تواجهنا هنا مهمة نظرية عاجلة، وهي أن نجد تعليلاً للانحرافات التي تكلمنا عنها ولصلاتها بالجنسية التي توصف بالسوية.

سنستعين على مهمتنا هذه بوجهة نظر وبتجربتين جديدتين. فأما وجهة النظر فهي لإيفان بلوخ[٧] IWAN BLOCH الذي صحَّح التصور الذي يرى في هذه الانحرافات «علائم انحطاط» بأن أضاف القول إن مثل هذه الانحرافات عن الهدف الجنسي ومثل هذا التراخي في العلاقة بالموضوع الجنسي كانت شائعة في جميع العصور المعروفة لدينا، ولدى جميع الأقوام والشعوب، سواء أكانت في المراحل الأولى من البدائية أم في أطوار متقدمة من الحضارة، وكانت تحظى أحياناً، ولو بعد صراع طويل، بتسامح واعتراف عامين. أما التجربتان فقد تسنى لنا أن نتوصل إليهما في أثناء مباحثنا التحليلية النفسية التي كان مدارها على المعصوبين، ومن شأنهما أن تحددا لتصورنا عن الانحرافات الجنسية وجهته النهائية.

قلنا إن الأعراض العصابية إشباعات جنسية بديلة، وقد ألمحت إلى أن إثبات صحة هذه الأطروحة عن طريق تحليل الأعراض سيصطدم بصعوبات شتى. وبالفعل، لا مبرر لأطروحتنا أساساً ما لم نشمل بـ«الإشباع الجنسي» الحاجات الجنسية المسماة بالمنحرفة أيضاً، لأن مثل هذا التأويل للأعراض يفرض نفسه علينا بتواتر مثير للدهشة. أما ادعاء الجنسيين المثليين أو المرتكسين أنهم كائنات خارقة للمألوف فيتهافت ويتداعى من تلقاء نفسه حيال ما نشاهده من أنه لا يوجد

٧ ـ إيفان بلوخ: طبيب أمراض جلدية ألماني (١٨٧٢ ـ ١٩٢٢). انضم إلى **الجمعية البرلينية للتحليل النفسي** عام ١٩٠٨. له مؤلفات عن البغاء والجنسية المثلية وموسوعة بعنوان: **حياة عصرنا الجنسية**. «م».



معصوب واحد لا نستطيع أن نبرهن على وجود ميول وحاثات جنسية مثلية لديه، وأن عدداً لا يستهان به من الأعراض العصابية ليس إلا تعبيراً عن هذا الارتكاس الكامن. وأولئك الذين يسمّون أنفسهم بأنفسهم جنسيين مثليين ما هم إلا مرتكسون واعون لارتكاسهم الظاهر للعيان، وعددهم ضئيل بالقياس إلى عدد الجنسيين المثليين الكامنين. ونحن لا نجد بدأ من أن نرى في الجنسية المثلية استطالة شبه مطردة للحياة الحبية، وأهميتها تتعاظم في نظرنا كلما تعمقنا في دراسة هذه الحياة. وأرجح الظن أن الفوارق بين الجنسية المثلية الظاهرة والحياة الجنسية السوية لا تنتفي بنتيجة ذلك. فلئن نقصت القيمة النظرية للجنسية المثلية الظاهرة نقصاناً كبيراً بحكم ذلك، فإن قيمتها العملية تبقى كما هي. بل لقد ثبت لنا أن البارانويا، التي لا يسعنا تصنيفها في فئة الأعصبة التحويلية، تنشأ في الأغلب عن محاولة دفاعية للتغلب على حاثات جنسية مثلية بالغة العنف. ولعلكم تذكرون أن إحدى مريضتينا كانت تتقمص، عند أدائها فعلها القهري، شخصية زوجها الذي انفصلت عنه؛ ومثل هذا التمخّض لأعراض يُؤدى فيها دور الرجل حالة كثيرة التواتر لدى النساء العصابيات. ومع أننا لا نستطيع أن نتحدث هنا عن جنسية مثلية بملء معنى الكلمة، إلا أن هذه الحالات تنطوي بكل تأكيد على بعض شروطها.

إن العصاب الهستيري، كما تعلمون في الأرجح، يستطيع أن يفصح عن أعراضه في جميع أجهزة الجسم، وأن يشوِّش بالتالي الوظائف كافة. ويكشف لنا التحليل في هذه الحالات عن تظاهر لجميع الحاثات المسماة بالمنحرفة والساعية إلى استبدال الأعضاء التناسلية بأعضاء أخرى لتقوم بدور أعضاء تناسلية بديلة. ودراسة الأعراض الهستيرية تحديداً هي التي أتاحت لنا الوصول إلى تصورنا القائل إن جميع أعضاء الجسم تؤدي، علاوة على وظيفتها السوية، دوراً جنسياً، دوراً شهوياً EROGENE، قد يغدو في بعض الأحيان غالباً فيحدِث خللاً في الاشتغال الوظيفي السوي. والكثرة الكثيرة من الأحاسيس والتعصيبات INNERVATIONS التي تتمركز، بصفتها أعراضاً هستيرية، في أعضاء لا صلة لها في الظاهر بالجنسية، تميط لنا اللثام على هذا النحو عن



طبيعتها الحقيقية: فهي بمثابة إشباع لرغبات جنسية منحرفة، إشباع قامت فيه بدور الأعضاء الجنسية أعضاء أخرى. وهنا تسنح لنا الفرصة لنعاين كثرة الحالات التي تصبح فيها أعضاء امتصاص الأغذية وأعضاء التبرّز حاملة لإثارات جنسية. وهذه هي عين الملاحظة التي كنا لاحظناها بصدد الانحرافات، مع فارق وحيد وهو أن الظاهرة التي هي موضع اهتمامنا تتجلى في الانحرافات بلا عناء ومن دون أن يخطئها التقدير، بينما يتوجب علينا في الهستيريا أن نبدأ أول الأمر بتأويل الأعراض، ثم أن نردّ الحاجات الجنسية المنحرفة إلى اللاشعور، بدل أن نعزوها إلى شعور الفرد.

إن أهم الأعراض الكثيرة التي يتظاهر بها العصاب الوسواسي هي تلك التي تنجم عن ضغط حاثات جنسية سادية عاتية، وبالتالي منحرفة من حيث الهدف؛ وبالفعل، وبالتوافق مع بنية العصاب الوسواسي، تقوم هذه الأعراض في المقام الأول بدور وسيلة دفاعية لتحاشي هذه الرغبات، أو تعبر عن الصراع بين إرادة الإشباع وإرادة الدفاع. لكن الإشباع نفسه، بدل أن يسلك أقصر طريق، يتمكن من الإفصاح عن نفسه في سلوك المرضى بطرق شديدة الالتواء، بل إنه يؤثر أن يرتدّ على شخص المريض بالذات، فإذا بهذا ينزِل بنفسه صنوفاً شتى من التعذيب. ومن الأشكال الأخرى لهذا العصاب تلك التي نستطيع أن نصفها بالتنقيبية، وتتميز بتجنيس SEXUALISATION مسرف لأفعال ما هي في الحالات السوية إلا تمهيد للإشباع الجنسي: فالمرضى يطيب لهم أن ينظروا ويلمسوا ويتفحّصوا ويتحرّوا. وفي هذا ما يفسر لنا الأهمية البالغة التي يتلبسها أحياناً لدى هؤلاء المرضى الخوف من كل ملامسة أو كذلك هوس الاغتسال. وليس لكم أن تشتبهوا في مدى كثرة الأفعال القهرية التي تمثل تكراراً أو تحويراً مقنَّعاً للاستمناء الذي يصاحب، كما نعلم، بوصفه فعلاً أحادياً وأحادي الشكل، مختلف أشكال التخيُّل الجنسي.

من السهل عليّ، لو شئت، تعداد الوشائج التي تربط الانحراف بالعصاب، لكن ما ذكرته لكم كافٍ لما نرمي إليه. على أنه يتعيَّن علينا أن نحاذر المبالغة في أهمية الأعراض المعبِّرة عن الميول المنحرفة وفي وجود هذه الميول وشدَّتها لدى



الإنسان. لقد سمعتم أن الحرمان من الإشباع الجنسي السوي يمكن أن يفضي إلى تكوين عصاب. فالحاجة تسلك في هذه الحال طريق الإشباع غير السوي. وسوف ترون فيما بعد كيف تجري الأمور في هذه الحالات. لكنكم تفهمون من الآن أن الميول، التي صارت منحرفة من جراء هذا الكبت «الجانبي»، لا بدّ أن تظهر أشدَّ عنفاً مما لو لم تعترض أية عقبة فعلية سبيل الإشباع الجنسي السوي. ونحن نلحظ على كل حال تأثيراً مماثلاً فيما يتصل بالانحرافات المجهور بها. فهذه الانحرافات تستثار أو تنشَّط في الحالات التي يرتطم فيها الإشباع الجنسي السوي بعقبات كأداء غير قابلة للتذليل بحكم ظروف طارئة أو شروط اجتماعية مستديمة. وغني عن البيان أن الميول المنحرفة تكون في حالات أخرى مستقلة عن الظروف أو الشروط القمينة بأن تيسِّر ظهورها، وتؤلف بالنسبة إلى الأفراد الذين تظهر عندهم النمط الطبيعي لحياتهم الجنسية.

ربما ساوركم انطباع بأنه، بدلاً من أن نجلو العلاقات بين الجنسية السوية والجنسية المنحرفة، لم نزدها إلا خلطاً وتشويشاً. لكن ليقرّ في أذهانكم ما يلي: لئن صحّ أن الميول المنحرفة تظهر لدى الأشخاص المحرومين من إمكانية الظفر بإشباع جنسي سوي، وأنها لولا هذا الحرمان لما كنت ظهرت قط، فلا مناص لنا من التسليم بأنه يوجد لدى هؤلاء الأشخاص على كل حال شيء كان يهيّئهم مقدَّماً لهذه الانحرافات، أو إن شئتم فلنقل إن هذه الانحرافات كانت موجودة لديهم في حالة كمون. فإن سلَّمنا بذلك نصل إلى ثانية الواقعتين الجديدتين اللتين كنت حدثتكم عنهما. فقد وجد المبحث التحليلي النفسي نفسه مكرهاً على توجيه اهتمامه إلى حياة الطفل الجنسية أيضاً، وقد قسره على ذلك كون الذكريات والخواطر التي تتوارد إلى أذهان الأفراد أثناء تحليل أعراضهم ترتدّ بالتحليل دوماً وأبداً إلى الأعوام الأولى من طفولة هؤلاء الأفراد. وجميع الاستنتاجات التي صغناها بصدد هذه الواقعة قد أثبتت صحتها بنداً بنداً المشاهدات والمعاينات المباشرة على الأطفال. وقد ثبت لنا أن جميع الميول المنحرفة تؤثِّل جذورها في الطفولة، وأن الأطفال يحملون في أنفسهم الاستعدادات المسبقة لهذه الميول التي يفصحون عنها بالقدر الذي يتمشى مع



عدم نضجهم، وبالاختصار، أن الجنسية المنحرفة ليست شيئاً آخر سوى الجنسية الطفلية وقد تضخمت وتفككت إلى حاثاتها الجزئية.

هذه المرة سترون إلى الانحرافات من زاوية أخرى، ولن يسعكم بعد الآن أن تتجاهلوا صلاتها بحياة الإنسان الجنسية. لكن كم يستأديكم ذلك من مفاجآت وخيبات مؤلمة! ستنزعون بادئ الأمر إلى إنكار كل شيء: ستنكرون أن يكون لدى الأطفال شيء يستأهل اسم الحياة الجنسية، وستنكرون صحة ملاحظاتي وحقي في أن أرى في سلوك الأطفال صلة قربى بما نصِمُه لدى الأشخاص الأكبر سناً بأنه انحراف. اسمحوا لي إذاً أولاً بأن أفسِّر لكم أسباب مقاومتكم، قبل أن أنتقل في مرحلة ثانية إلى عرض مجمل ملاحظاتي عليكم. فأما الزعم بأن الأطفال لا حياة جنسية لهم ـ لا إثارات جنسية ولا حاجات جنسية ولا أي ضرب من الإشباع الجنسي ـ وبأن هذه الحياة تستيقظ لديهم على نحو مباغت في ما بين الثانية عشرة والرابعة عشرة من العمر، فزعم لا يعدله في بعد الاحتمال، بل في التهافت والسخف من وجهة النظر البيولوجية ـ وهذا بصرف النظر عن كل ملاحظة أخرى ـ سوى الزعم بأن الأطفال يولدون بلا أعضاء تناسلية، وبأن هذه الأعضاء لا تظهر لديهم إلا في سن البلوغ. والحق أن ما يستيقظ لدى الأولاد في تلك السن هي وظيفة التناسل التي تستخدم، لتحقيق أهدافها، جهازاً جسمانياً ونفسانياً موجوداً من قبل. وإنكم لتقعون في الخطأ إذ تخلطون بين الجنسية والتناسل، وبهذا الخطأ تسدُّون على أنفسكم المنفذ إلى فهم الجنسية والانحرافات والأعصبة. بيد أن هذا الخطأ ذو دلالة ومغزى. والعجيب أن مصدره يكمن في أنكم كنتم بدوركم أطفالاً، فتعرَّضتم بهذه الصفة لتأثير التربية. فالمجتمع يرى أن من مهامه الرئيسة، من وجهة نظر التربية، أن يلجم الدافع الغريزي[٨] الجنسي حين يتظاهر كحاجة إلى الإنجاب، وأن يحدّه، وأن يخضعه

٨ ـ يؤثر فرويد أن يستخدم في جميع نصوصه مفهوم الدافع الغريزي Pulsion بدل الغريزة Instinct بالنظر إلى أن هذه الأخيرة أجدر بأن تنسب إلى الحيوان من حيث أنها لا تقبل المقاومة وتنزع نزوعاً جبرياً إلى الإشباع، بينما الدافع الغريزي أجدر بأن يُنسب إلى الإنسان من حيث قابليته للمقاومة وللامتثال لروادع أخلاقية وقانونية وحتى جمالية. «م».



لإرادة فردية ممتثلة للقسر الاجتماعي. والمجتمع معنيّ أيضاً بتأخير التطور الكامل للحاجة الجنسية إلى حين بلوغ الطفل درجة معيَّنة من النضج الاجتماعي، إذ إن سلطان التربية على الطفل يتلاشى حالما يكتمل هذا التطور. ولو تظاهرت الجنسية في سن مبكرة أكثر مما ينبغي، لحطّمت الحواجز كافة ولطوّحت بجميع النتائج التي ما أمكن للحضارة الوصول إليها إلا بعد طول لأي وعناء. ومهمة لجم الحاجة الجنسية ليست بحال من الأحوال سهلة؛ فتارة تكبح كبحاً مجاوز الحدّ، وطوراً يكون لجمها يسيراً فلا يفي بالمطلوب. والأساس الذي يقوم عليه المجتمع البشري هو، في التحليل الأخير، من طبيعة اقتصادية: فنظراً إلى أن هذا المجتمع لا تتوفر له الوسائل الكافية لإعاشة أعضائه من دون أن يعملوا ويكدحوا، يجد نفسه مضطراً إلى تحديد عدد أعضائه وإلى تحويل اتجاه طاقاتهم من النشاط الجنسي إلى العمل. وتلكم هي بالتحديد الضرورة الحيوية الخالدة، هذه الضرورة التي ولدت مع الإنسان ولا تزال إلى اليوم قائمة.

لقد علَّمت التجربة المربِّين، ولا بدّ، أن مهمة تطويع الإرادة الجنسية للجيل الناشئ غير قابلة للتحقيق إلا إذا حملوا الأطفال منذ نعومة أظفارهم، وبدون انتظار هبوب عاصفة البلوغ، على إخضاع حياتهم الجنسية لانضباط يكون بمثابة تمهيد لانضباط سن الرشد. ولهذا حظَّروا على الأطفال جميع النشاطات الجنسية الطفلية، وصرفوهم عنها، يراودهم في ذلك أمل مثالي في أن يجعلوا حياتهم لاجنسية. وقد انتهى بهم الأمر رويداً رويداً إلى الاعتقاد بأن حياة الأطفال لاجنسية فعلاً، وهو اعتقاد أيَّده العلم الرسمي وثبَّته. وتحاشياً لمخالفة المعتقدات الراسخة في أذهانهم والمرامي التي ينشدونها، غضُّوا النظر عن نشاط الطفل الجنسي وأهملوه ـ وهذه تجلية ليست مما لا يُعتدّ به ـ أو اكتفوا على صعيد العلم بتصوره تصوراً مغايراً لما هو عليه حقاً. فقد افترضوا الطهر والبراءة بالطفل، ومن وصفه بغير هذا الوصف اتهموه بانتهاك المحرمات وبالتطاول المدنس على أرقّ عواطف الإنسانية وأقدسها.

والأطفال هم وحدهم الذين لم ينخدعوا بهذه المواصفات، فهم يجهرون بكل سذاجة بحقوقهم الشهوانية، ويدللون في كل لحظة وآن على أن طريق



الطهر لا يزال بالنسبة إليهم في أوله لم يقطعوا منه شوطاً. والعجيب أن أولئك الذين ينكرون الجنسية الطفلية لا يتخلون، رغم هذا الإنكار، عن سلاح التربية، ولا يتوانون عن إدانة تظاهرات ما ينكرونه أصرم الإدانة دامغين إياها بأنها «عادات طفلية سيئة». والأمر الذي له أهميته البالغة من الناحية النظرية، علاوة على ذلك، أن السنوات الخمس أو الست الأولى من الحياة، وهي المرحلة التي لا يصدق عليها بحال من الأحوال الحكم المسبق عن لاجنسية الطفولة، يلفّها لدى أكثر الناس ضباب من النسيان لا يفلح في قشعه سوى التنقيب التحليلي، وإن كان يشفّ عن نفسه، كما ثبت ذلك من قبل، في بعض تشكيلات الأحلام.

والآن سأعرض عليكم أوضح ما يمكن أن يتجلى لنا حين ندرس حياة الطفل الجنسية. ولمزيد من الإيضاح سأستأذنكم بأن أشرح هنا مفهوم **الليبيدو**. فالليبيدو يشير، مثله مثل الجوع بوجه عام، إلى القوة التي يتظاهر بها الدافع الغريزي الجنسي على نحو ما يتظاهر به في حالة الجوع الدافع الغريزي إلى طلب الغذاء. وثمة مفاهيم أخرى، كالإثارة الجنسية والإشباع، لا تحتاج إلى شرح وتفسير. وسوف ترون، وقد تقلبون هذه الحجة عليّ، أن نشاطات الرضيع الجنسية تفتح للتأويل حقلاً لا نهاية له، ويكون الوصول إلى هذه التآويل عن طريق إخضاع الأعراض لتحليل ارتجاعي. فأولى تظاهرات الجنسية التي تتجلى لدى الرضيع ترتبط بوظائف حيوية أخرى. فاهتمامه الرئيسي ينصبّ، كما تعلمون، على امتصاص الغذاء. فحين ينام على صدر أمه وقد أصاب حظاً موفوراً من ثديها، بدت عليه أمارات الرضى والارتياح نظير ما سيبدو منها لاحقاً حين سيفوز بالإشباع الجنسي. غير أن هذا وحده لا يكفي لنخلص منه إلى نتيجة محددة. لكننا نشاهد أن الرضيع ينزع على الدوام إلى معاودة امتصاص الغذاء، لا لأنه لا تزال به حاجة إليه، بل لمجرد تكرار حركات الرضاعة. فنقول عنه حينئذ إنه «يمصمص». ويتابع على هذا المنوال إلى أن يأخذه النوم من جديد وقد بدا عليه الاغتباط، مما يدلنا أن فعل المصمصة وفرّ له بذاته لذة ومتعة. وينتهي به الأمر في العادة إلى ألا يستطيع النوم من دون أن



يمصمص. وكان الدكتور د. لندنر LINDNER[٩]، طبيب الأطفال من بودابست، هو أول من أكد الطبيعة الجنسية لهذا الفعل. ويبدو أن الأشخاص الذين يبذلون العناية للطفل، ولا يتكلفون الأخذ بموقف نظري مسبق، يصدرون على هذا الفعل حكماً مشابهاً. فهم يدركون حق الإدراك أنه لا غرض له سوى تأمين لذة ومتعة، ويعدّونه من قبيل «العادات السيئة»؛ فإذا أبى الطفل أن يقلع بطوع نفسه عن هذه العادة عملوا على تحريره منها بأن يقرنوها بانطباعات مستكرهة. هكذا نرى أن الرضيع يؤدي أفعالاً لا يرمي منها إلى غرض آخر غير الظفر بلذّة. ونحن نعتقد أنه يشعر بهذه اللذة لأول مرة وهو يرضع الحليب، لكنه سرعان ما يتعلم أن يفصلها عن هذا الشرط. ونرجِع هذا الإحساس اللّذي إلى منطقة الفم والشفتين، ونسمّي هذه المنطقة **منطقة شهوية**، ونعدّ اللذة المتأتية عن فعل المصّ لذة **جنسية**. ولنا عودة بكل تأكيد إلى مناقشة مشروعية هاتين التسميتين.

لو كان الرضيع يملك أن يفصح عما يشعر به، لصرّح بلا شكّ أن مصّ ثدي الأم هو الفعل الأهمّ في الحياة. ولن يكون مخطئاً كل الخطأ في قوله هذا، لأنه يلبي عن طريق هذا الفعل حاجتين كبريين من حاجات الحياة. وليس لنا إلا أن نفجأ بعض الشيء حين يكشف لنا التحليل النفسي عن عمق الأهمية النفسية لهذا الفعل الذي تبقى آثاره مدى الحياة. ففعل مصّ ثدي الأم يغدو نقطة الانطلاق للحياة الجنسية بأسرها، والمثل الأعلى الذي يعزّ إدراكه في كل إشباع جنسي لاحق والذي يصبو إليه الخيال في ساعات إلحاح الحاجة واشتداد الحرمان. هكذا يؤلف ثدي الأم الموضوع الأول للدافع الغريزي الجنسي. ولست مستطيعاً ـ ولو حاولت ـ أن أعطيكم فكرة كافية عن أهمية هذا الموضوع الأول في كل نشدان لاحق للمواضيع الجنسية، وعن عمق ما له من تأثير، بكل تحولاته واستبدالاته، في أقصى مضامير حياتنا النفسية وأنأى مناطقها. لكن الطفل لا

٩ ـ صمويل لندنر: طبيب أطفال مجري سبق لفرويد أن استشهد به في كتابه **ثلاثة مباحث في نظرية الجنسية** (١٩٠٥). والإحالة هنا كما من قبل إلى محاضرته عام ١٨٧٩ أمام أعضاء جمعية بودابست الملكية: **مصّ الأصابع والشفتين، إلخ، لدى الأطفال**. «م».



يعتم أن يذر مصّ ثدي الأم ليستعيض عنه بجزء من جسمه بالذات. فيطفق يمصّ إبهامه أو لسانه. وبذلك يتدبر لنفسه لذة، من دون أن تكون به حاجة إلى موافقة العالم الخارجي، فضلاً عن أن التجاءه إلى منطقة ثانية من جسمه يزيد من شدة تهيُّجه. والمناطق الشهوية لا تتساوى جميعاً في فعاليتها؛ وعليه، إنها لتجربة بالغة الأهمية في حياة الرضيع، على نحو ما يروي لندنر، حين يكتشف، لدأبه على تحسُّس جسمه، تلك المواضع القابلة للتهيُّج أكثر من غيرها، أي أعضاءه التناسلية؛ وهكذا يهتدي إلى الطريق الذي لا بدّ أن يقوده يوماً إلى الاستمناء.

لقد وقفنا، في معرض تنويهنا بأهمية فعل المصّ، على خاصتين رئيسيتين للجنسية الطفلية. فهذه الجنسية ترتبط بإشباع الحاجات العضوية الكبرى، كما أن مسلكها **إيروسي ذاتي**، أي أن الرضيع يلتقي مواضيعها في جسمه بالذات. وما ظهر بأجلى الوضوح في فعل امتصاص الغذاء يتكرر جزئياً في فعل التبرُّز. ونستنتج من ذلك أن اطِّراح البول ومحتوى الأمعاء هو عند الطفل مصدر لذة ومتعة، وأنه سرعان ما يعمل على تنظيم هذه الأفعال بحيث يتأتى له منها أكبر قدر من اللذة، بفضل ما يصاحبها من تهييج للمناطق الشهوية في الأغشية المخاطية. فإذا ما وصل إلى هذا الطور بدا له العالم الخارجي، بحسب ملاحظة لو أندرياس Lou Andreas[١٠] الثاقبة، أشبه بعقبة، بقوة مناوئة لالتماسه اللذة والمتعة، تكون له بمثابة إشارة إلى ما ينتظره في المستقبل من صراعات خارجية وداخلية. فهذا العالم يمنعه من التخلص من فضلاته كيف ومتى شاء، ويرغمه على التقيُّد بتعليمات غيره من الأشخاص. ولحمله على العزوف عن مصادر المتعة هذه يُلقى في ذهنه أن كل ما له صلة بوظيفتي التبول والتغوط غير محتشم، وينبغي أن يحتجب عن الأنظار. وبذا يضطر إلى التخلي عن اللذة باسم الوقار الاجتماعي. والحق أن الطفل لا يشعر في بادئ الأمر بأي قرف من فضلاته، بل يعدُّها جزءاً من جسمه، ولا يفترق عنها إلا كارهاً، ويودّ لو يستخدمها كـ«هدية»

١٠ ـ لو أندرياس ـ سالومي: كاتبة ألمانية من أصل روسي (١٨٦١ ـ ١٩٣٧). صديقة لفرويد ولابنته آنا، وبينهما تراسل. والإحالة هنا إلى مقالها «الشرجي والجنسي» المنشور في مجلة «**إيماغو**» (١٩١٦). «م».



أولى يخصّ بها من يحبّهم من الأشخاص ويقدِّمهم على غيرهم. وحتى بعد أن تفلح التربية في تحريره من هذه النوازع، يصب على «هداياه» و«نقوده» القيمة التي كان يضفيها على فضلاته. ثم إنه يظل يتباهى بوجه خاص بتجلياته في مضمار فعل التبول.

أشعر أنكم تغضبون أنفسكم حتى لا تقاطعوني وتصيحوا بي: «بحسبنا هذه المقابح! كيف لك أن تزعم أن التغوط مصدر للإشباع الجنسي يَرِدُهُ حتى الرضيع! وأن البراز مادة ثمينة، والشرج ضرب من الأعضاء التناسلية! هذا ما لا نملك أن نصدِّقه أبداً، وإننا لنفهم على كل حال لماذا لا يريد المربون وأطباء الأطفال أن يسمعوا بالتحليل النفسي أو بنتائجه». كلا يا سادتي! فقد نسيتم فقط أني ما حدَّثتكم عن حقائق الحياة الجنسية الطفلية إلا من حيث صلتها بوقائع الانحرافات الجنسية. فما الداعي لأن لا تعلموا أن الشرج ينوب مناب المهبل في العلاقات الجنسية لدى كثرة من الراشدين، سواء أكانوا من ذوي الجنسية المثلية أم الغيرية؟ وما الداعي لأن لا تعلموا أن هناك أشخاصاً يبقى فعل التغوُّط لديهم، على مدى حياتهم، مصدراً للذة لا يستهينون به؟ أما إذا شئتم أن تعلموا ما يثيره فعل التغوط من اهتمام لدى الآخرين وما يمكن أن يبتعثه من متعة لدى الناظرين منهم إليه، فما عليكم إلا أن تتوجهوا بالسؤال إلى الأطفال أنفسهم حين يتقدم بهم العمر قليلاً ويقتدرون على الكلام عن هذه الأشياء. وغنيٌّ عن البيان أنه يتعيَّن عليكم أن تحاذروا تخويف هؤلاء الأطفال، لأنكم لو فعلتم فلن تظفروا منهم بشيء. أما فيما يتصل بالأشياء الأخرى التي لا تريدون أن تصدقوها، فأحيلكم إلى نتائج تحليل الأطفال وإخضاعهم للملاحظة المباشرة، وأؤكد لكم أنه لا بدّ أن يصدر المرء عن سوء نية حتى لا يرى هذه الأشياء، أو حتى يراها على غير ما هي عليه. ولست أرى من محذور إن أدهشكم ما أصادر عليه من صلة القربى بين النشاط الجنسي الطفلي والانحرافات الجنسية، مع العلم أن هذه صلة طبيعية تماماً: فإن تكن للطفل حياة جنسية، فلا مناص من أن تكون من طبيعة منحرفة، على اعتبار أنها تفتقر، خلا بعض الإشارات المبهمة، إلى كل ما من شأنه أن يحيل الجنسية إلى وظيفة إنجابية. ومن جهة أخرى، إن السمة



المميزة للانحرافات جميعاً جهلها بالهدف الأول للجنسية، أي التناسل. وبالفعل، إن صفة الانحراف تطلق على كل نشاط جنسي يعزف عن الإنجاب ويطلب اللذة كهدف مستقل عن التناسل. ومن هذا تفهمون أن يكون درَج العُرف على اعتبار خط الفصل ونقطة الانعطاف في تطور الحياة الجنسية مرهونين بتبعية هذه الأخيرة لغايات التناسل. فكل ما يحدث قبل هذا الانعطاف، وكل ما لا يقع في إطاره، وكل ما يفيد في طلب اللذة مفصولة عنه، يُسمَّى بذلك الاسم غير المحبَّذ: «الانحراف»، ويحاط بهذه الصفة بالازدراء.

دعوني إذاً أمضي في عرضي السريع للجنسية الطفلية. فكل ما قلته بصدد جهازين من أعضاء الجسم يمكن أن يُكمَّل بسحبه على أجهزة أخرى. فحياة الطفل الجنسية تشتمل على مجموعة من الميول الجزئية، كل ميل منها يعمل مستقلاً عن سواه ويستخدم، بغرض الوصول إلى المتعة، إما جسم الطفل ذاته وأما مواضيع خارجية. ولا تلبث الأعضاء الجنسية أن تحتل مكانة الصدارة لا بين جملة الأعضاء التي يدور عليها النشاط الجنسي للطفل: فثمة أشخاص لا يعرفون مصدراً آخر للمتعة الجنسية غير أعضائهم التناسلية الخاصة، وذلك منذ طور الاستمناء اللاواعي في طفولتهم الأولى إلى الاستمناء القصدي في بلوغهم، وقد يمتدّ هذا الموقف عند بعضهم إلى ما بعد البلوغ بزمن طويل. وعلى كل، ليس الاستمناء واحداً من الموضوعات التي يمكن استيعابها بسهولة، بل يفسح في المجال على العكس لتأملات وتأويلات شتى.

بالرغم من حرصي على اختصار عرضي إلى أقصى حدّ مستطاع، أراني مضطراً إلى أن أحدِّثكم قليلاً عن **فضول الأطفال الجنسي** أيضاً. فهذا الفضول صفة مميَّزة بارزة للجنسية الطفلية، وينطوي على أهمية بالغة من منظور علم أعراض الأعصبة. يبدأ الفضول الجنسي لدى الطفل في زمن مبكر، وربما قبل السنة الثالثة أحياناً. ولا تكون نقطة انطلاقه الفروق الفاصلة بين الجنسين، إذ لا وجود لهذه الفروق في نظر الأطفال، وبخاصة الذكور منهم: فهم يعزون إلى كلا الجنسين أعضاء تناسلية واحدة، هي أعضاء الجنس المذكر. فإذا اكتشف صبي لدى أخته أو لدى زميلة له في اللعب وجود المهبل، بادر أول الأمر إلى



إنكار شهادة حواسه، لأنه لا يستطيع أن يتصور مخلوقاً إنسانياً محروماً من ذلك العضو الذي يعلِّق عليه رفيع القيمة. ولا يلبث، في طور لاحق، أن يتراجع مذعوراً أمام الاحتمال الذي يتكشف له، ويبدأ بالإحساس بتأثير بعض التهديدات التي كانت توجَّه إليه على إسرافه بالاهتمام بعضوه الصغير. وهنا يقع تحت سلطان ما أسميناه بـ «عقدة الخصاء»، التي يؤثِّر تشكلها على طباعه إذا ظل سليماً سوياً، وعلى عصابه إذا ما ألمّ به المرض، وعلى مقاوماته حين يخضع لمعالجة تحليلية. أما فيما يتعلق بالبنت الصغيرة، فنعلم أنها تعتبر حرمانها من قضيب طويل منظور علامة من علائم دونيتها، وأنها تحسد الصبي على امتلاكه هذا العضو، وأنه تنبعث لديها من جراء ذلك رغبة في أن تكون ذكراً، وأن هذه الرغبة ذات دور في العصاب الذي قد تقع ضحية له لاحقاً بنتيجة إخفاقها في أداء رسالتها كأنثى. ويلعب البظر بالأصل لدى البنت الصغيرة دور القضيب، ويكون محطًّاً لقابلية كبيرة للتهيُّج، والعضو الذي منه تظفر البنت بالإشباع الإيروسي الذاتي. فإذا ما تحولت البنت الصغيرة إلى امرأة كانت العلامة الفارقة لهذا التحول انتقال تلك الحساسية برمتها وفي الوقت المرام من البظر إلى باب المهبل. وفي حالات الخدار الجنسي لدى المرأة يحافظ البظر على حساسيته كاملة.

ينصب اهتمام الطفل الجنسي في المقام الأول على معضلة معرفة المصدر الذي منه يأتي الأولاد، أي على المعضلة التي تختفي وراء اللغز الذي يطرحه أبو الهول الطيبي[١١]. وغالباً ما يستيقظ هذا الاهتمام من جراء الخوف الأناني الذي يبتعثه مقدم طفل جديد. والجواب الذي درجت العادة على إجابة الصغار به ـ وهو أن اللقلق هو الذي يأتي بالأطفال[١٢] ـ لا يستقبله هؤلاء في أغلب الظن، بمن فيهم صغارهم، إلا بالارتياب والشك. وشعور الطفل بأن الأشخاص الكبار يخدعونه

١١ ـ نسبة إلى مدينة طيبة أو ثيبة الإغريقية حيث كان موضع أبي الهول الذي يطرح على أوديب في مسرحية سوفوكلس سؤاله المشهور. «م».

١٢ ـ جرت التقاليد الشعبية في العديد من البلدان الأوروبية على تفسير واقعة الإنجاب لصغار الأطفال بأن اللقلق هو الذي يأتي بالطفل الجديد. «م».



يسهم بقسط موفور في انعزاله وفي تنمية استقلاله. غير أن الطفل ليس يقدر على أن يجد حلاً لهذه المعضلة بوسائله الخاصة. فتكوينه الجنسي غير المتطور بعد بما فيه الكفاية يرسم حدوداً لقدرته على المعرفة. فهو يسلّم أول الأمر بأن الأطفال يأتون إلى الحياة من جراء تناول الطعام ممزوجاً بمواد خاصة، ويكون جاهلاً بعد بأن النساء هنّ وحدهن القادرات على الإنجاب. وعندما يعلم بهذه الحقيقة في زمن لاحق، يطرح جانباً التفسير الذي يعزو ولادة الأطفال إلى تناول أطعمة خاصة ويعدّه ضرباً من الحكايات الخرافية. ثم لا يلبث الطفل أن يدرك، متى ما كبر قليلاً، أن الأب يلعب دوراً ما في ظهور أطفال جدد، لكنه يظل عاجزاً عن تحديد هذا الدور. وإذا اتفق له أن ضبط مشهد فعل جنسي، رأى فيه محاولة غصب وصراعاً وحشياً: وذلك هو التصور السادي الخاطئ عن الجماع. بيد أنه لا يقيم صلة ارتباط مباشر بين هذا الفعل وبين قدوم أطفال جدد. وإن وقع نظره على أثر دم في فراش أمه أو على لباسها الداخلي، اكتفى بأن يرى فيه دليلاً على العنف الذي مارسه الأب معها. وفي طور لاحق يأخذ بالاشتباه بأن عضو الرجل التناسلي يلعب دوراً رئيسياً في ولادة أطفال جدد، لكنه يبقى عاجزاً عن أن يعزو إلى هذا العضو وظيفة أخرى غير إفراغ البول.

يجمع الأطفال في البداية على الاعتقاد بأن ولادة الطفل تكون عن طريق الشرج. ولا يتخلون عن هذه النظرية ويستعيضون عنها بأخرى تتوهم أن الطفل يولد من السرّة التي تنفتح لهذا الغرض إلا بعد أن ينصرف اهتمامهم عن ذلك العضو. أو قد يجعلون من منطقة القصّ، أي ما بين الثديين، الموضع الذي يكون منه ظهور الوليد. هكذا يقترب الطفل، في تقصياته، من الحقائق الجنسية، أو يضلّه جهله فيسها عنها ويغفل إلى أن يأتيه تفسيرها في السنوات السابقة للبلوغ مباشرة، فيصحو من غفلته الأولى. لكن هذا التفسير غالباً ما يكون ناقصاً، إحباطياً، فيكون له فيه أثر كأثر الرضة.

سادتي، لقد تناهى إلى أسماعكم في أرجح الظن قول من يقول إن التحليل النفسي توسّع توسعاً مسرفاً في مفهوم الجنسية كيما تستقيم أطروحاته عن العلية الجنسية للأعصبة وعن الأهمية الجنسية للأعراض. وقد تهيأت لكم الآن القدرة



لتحكموا بأنفسكم إن كان هذا التوسع له ما يبرره أم لا. والحق أننا لم نتوسع في مفهوم الجنسية إلا بالقدر الذي يكفي ليستوعب أيضاً الحياة الجنسية للمنحرفين وللأطفال. وبعبارة أخرى، إننا لم نزد على أن رددنا إليه سعته الحقيقية. أما ما يُقصد بالجنسية خارج نطاق التحليل النفسي فهو الجنسية التي ضُيِّق عليها الخناق، الجنسية التي لا غرض لها سوى خدمة التناسل، وبالاختصار، ما يسمى بالحياة الجنسية السوية.

المحاضرة الحادية والعشرون

تطور الليبيدو والتنظيمات الجنسية

يتراءى لي، سادتي، أني لم أفلح في إقناعكم إلى الحدّ الذي كنت أتمنى بما للانحرافات من أهمية في تصورنا للجنسية. وعليه سأعمد هنا إلى تشذيب ما ذكرته لكم بصدد هذا الموضوع وتحسينه واستكماله بقدر الإمكان.

لا يذهبنَّ بكم الظن إلى أن الانحرافات وحدها هي التي حدت بنا إلى تعديل مفهوم الجنسية على ذلك النحو الذي عاد علينا بأعنف معارضة. فدراسة الجنسية الطفلية كان لها في هذا التعديل قسط أوفر أيضاً، ولقد كان اتفاق النتائج التي تحصلت لنا من دراسة الانحرافات ودراسة الجنسية الطفلية حاسماً بالنسبة إلينا. غير أن تظاهرات الجنسية الطفلية، مهما تكن صريحة سافرة لدى الأطفال المتقدمين في مدارج الطفولة قليلاً، تبدو في بادئ الأمر محاطة بضباب الإبهام واللاتعيُّن. وأولئك الذين لا يقيمون وزناً لتاريخ التطور وللسياق التحليلي سينكرون على تلك الظاهرات لا محالة كل طابع جنسي، وسيعزون إليها بالأحرى طبيعة غير متمايزة. ولا تنسوا أنه ليس بحوزتنا بعد قرينة معترف بها من الجميع تتيح لنا التحقق من الطبيعة الجنسية لسيرورة من السيرورات، ونحن لا نعرف من هذا المنظور إلا وظيفة التناسل التي تقدَّم قولنا إن التعريف الذي تسلم إليه أضيق مما ينبغي. أما المعايير البيولوجية كتلك الدورات التي تتكرر بمعدل ٢٣ و٢٨ يوماً على ما يذهب إليه ث. فليس[1] FLIESS، فلا تزال موضع خلاف

١ ـ فلهلم فليس: طبيب وبيولوجي برليني (١٨٥٨ ـ ١٩٢٨). ارتبط منذ عام ١٨٨٥ بصداقة حميمة مع فرويد، وامتد التراسل بينهما من ١٨٨٧ إلى ١٩٠٤، والرسائل المتبادلة بينهما ذات أهمية بالغة في فهم المذهب الفرويدي وتحليل فرويد لنفسه. وقد وضع فليس نظرية روحانية المنزع في الحياة الجنسية، سمّاها بنظرية الدورات، وبناها على دورية الطمث لدى المرأة، وتصور أن الدورية هي القانون الأساسي للنشاطات الحيوية لدى الإنسان والحيوان، وحتى للكون قاطبة. «م».



شديد، كما لا تزال الخصائص الكيميائية للسيرورات الجنسية، وهي خصائص من حقنا أن نتكهن بوجودها، تنتظر من يميط اللثام عنها. أما انحرافات الراشدين الجنسية فهي، على العكس، شيء ملموس، ولا يكتنفها أي لبس أو إبهام. وكما تدل تسميتها المقبول بها من الجميع، فإنها تنتمي بلا مراء إلى الجنسية. وسواء أوصفت بأنها علائم انحطاط وانحلال أم لم توصف بهذا، فلم يجرؤ أحد بعد على تصنيفها في غير عداد ظاهرات الحياة الجنسية. ولو لم يكن ثمة وجود إلا للانحرافات وحدها، لكانت كافية إلى حدّ بعيد لتسوّغ لنا التوكيد بأن الجنسية والتناسل لا يتطابقان، إذ من المعلوم أن الانحرافات بجملتها هي بمثابة نفي للهدف التناسلي.

هنا أرى منفذاً إلى موازنة لا تخلو من طرافة وفائدة. ففيما يخلط أغلب الناس بين «الشعوري» و«النفسي»، وجدنا أنفسنا مضطرين إلى التوسع بمفهوم «النفسي» وإلى الاعتراف بوجود نفس لاشعورية. كذلك يطابق بعض الناس بين «الجنسي» و«ما يتصل بالإنجاب»، أو «التناسلي» بمختصر العبارة، بينما لا نملك نحن إلا أن نسلِّم بوجود «جنسي» غير «تناسلي» ولا صلة له بالإنجاب. والحال أن المطابقة المشار إليها شكلية صرف ولا ترتكز إلى علل أعمق وأبعد غوراً.

لكن إن كان وجود الانحرافات الجنسية ينهض حجة دامغة في هذه المسألة، فكيف غفل الناس عن قوة هذه الحجة، فبقيت المسألة منذ طويل الآماد بلا حل؟ لست أملك جواباً عن هذا السؤال، لكن يتراءى لي أن علة ذلك ينبغي أن نبحث عنها في ما أحيطت به الانحرافات الجنسية من استهجان واستبعاد انعكس على النظرية وحال دون دراسة تلك الانحرافات علمياً. فلكأن الناس لا يرون في هذه الأخيرة شيئاً يبعث على التقزز فحسب، بل شيئاً فظيعاً وخطراً أيضاً، فكأنهم يخافون أن يقعوا في حبال إغرائها أو كأنهم مضطرون في حقيقة الأمر إلى أن يقمعوا في داخل أنفسهم، وإزاء حمَلة تلك الانحرافات، غيرة دفينة من النوع الذي يصرح به القاضي الإقطاعي في المحاكاة الساخرة المشهورة الموضوعة على لسان تانهاوزر[٢]:

٢ ـ تانهاوزر: شاعر ألماني (نحو ١٢٠٥ ـ ١٢٦٨). منشد جوال، له أغان وأشعار غنائية، صار بطلاً خرافياً للقصص الشعبي، ومنها الأوبرا المعروفة باسم **تانهاوزر** والتي وضع كلماتها وألحانها فاغنر سنة ١٨٤٥. «م».



«في فينوسبرغ نسي شرفه وواجبه!

ـ وأسفاه! لم يكتب لي قط أن يقع لي شيء من هذا!!».

والواقع أن المنحرفين أناس مساكين بالأحرى، يكفِّرون بأبهظ الثمن عن الإشباع الذي يلقون من العسر ما يلقونه في الظفر به.

إن ما يجعل من النشاط المنحرف نشاطاً جنسياً لا مراء فيه، بالرغم من غرابة موضوعه وهدفه، هو أن فعل الإشباع الجنسي ينتهي في أغلب الأحيان برعشة ORGASME كاملة وبقذف للسائل المنوي. وهذا لا يصدق بطبيعة الحال إلا على الراشدين من الأشخاص، أما لدى الأطفال فلا تكون الرعشة وقذف السائل المنوي بممكنين إلا فيما ندر، بل تنوب منابهما ظاهرات يتعذر أن نعزو إليها على الدوام، وعلى وجه اليقين، طابعاً جنسياً.

استكمالاً لما قلته بصدد أهمية الانحرافات الجنسية، أحرص على أن أضيف ما يلي أيضاً. فبالرغم من الاستهجان الذي تحاط به، وبالرغم من عمق الهوة التي يراد فصلها بها عن النشاط الجنسي السوي، فليس لأحد أن يتعامى عن المشاهدة العيانية التي يندر ألا تظهر لنا أن الحياة الجنسية لدى الأسوياء مشوبة بهذه السمة أو تلك من سمات الانحراف. فالقبلة يمكن أن تنعت بأنها فعل منحرف، لأنها تتلخص في اتصال منطقتين فمويتين شهويتين، بدلاً من عضوين تناسليين من الجنسين المتقابلين. ومع ذلك لا يصدّ أحد عن القبلة باعتبارها منحرفة، بل هي، على العكس، مباحة على خشبة التمثيل المسرحي كتعبير مقنَّع عن الفعل الجنسي. والحال أن القبلة تنقلب بسهولة إلى فعل منحرف تام إذا بلغت من الشدة حداً تصحبه رعشة وقذف للسائل المنوي، وهذا شيء غير نادر الحدوث. ومن السهل أيضاً أن نلاحظ أن تملي الموضوع الجنسي بالنظر وتقرِّيه باليد هو عند بعض الأشخاص شرط لازم للإشباع الجنسي، بينما لا يتمالك غيرهم أنفسهم، وهم في ذروة التهيج الجنسي، عن قرص شريكهم وعضّه. ثم إن التهيج لدى العشاق بصفة عامة لا يبلغ أقصى مداه عن طريق الأعضاء التناسلية، بل عن طريق منطقة أخرى، أياً كانت، من جسم الموضوع. وبوسعنا، لو شئنا، أن نطيل لائحة هذه المشاهدات إلى ما لا نهاية. وليس من المنطق في شيء أن نستبعد من



فئة الأسوياء هؤلاء الأشخاص وأن ندرجهم في عداد المنحرفين لمجرد تظاهر هذه الميول بصفة جزئية لديهم. بل بات من الأمور المسلّم بها بجلاء متعاظم أن الطابع الرئيسي للانحرافات يكمن لا في تجاوزها الهدف الجنسي، أو في الاستعاضة عن الأعضاء التناسلية بأعضاء غيرها، أو في تنويعها للموضوع، بل بالأحرى في ثبات هذه الحيدانات وفي حصريتها، مما يجعلها منافية للفعل الجنسي الذي هو شرط التناسل. أما إذا لم تتدخل الأفعال المنحرفة في إنجاز الفعل الجنسي إلا على سبيل التمهيد أو التعضيد له، فمن الظلم والجور أن نطلق عليها اسم الانحرافات. وغني عن البيان أن هذه الوقائع قمينة بأن تردم إلى حدّ ما الهوة التي تفصل الجنسية السوية عن الجنسية المنحرفة. ومن هذه الوقائع يتأكد لنا على نحو لا مماراة فيه أن الجنسية السوية هي من نتاج شيء وجد قبلها، وأنها لم يتسن لها أن تتكون إلا بعد أن أزاحت بعض هذه المواد السابقة الوجود باعتبارها مواد غير قابلة للاستعمال وحافظت بالمقابل على المواد الباقية واستلحقتها بهدف التناسل.

قبل أن نستخدم المعلومات التي حصّلناها بصدد الانحرافات لنشرع على ضوئها بدراسة جديدة معمّقة للجنسية الطفلية، أودّ أن ألفت انتباهكم إلى فارق هام بين تلك وهذه. فالجنسية المنحرفة متمركزة في العادة أشدّ التمركز، وجميع تظاهرات نشاطها تنزع نحو الهدف نفسه ـ وهو في غالب الأحيان واحد لا يتغيَّر ـ وفي العادة يتغلب أحد الميول الجزئية على ما عداه فيتظاهر إما منفرداً دون سائر الميول، وإما بعد أن يستلحق سائر الميول بمراميه الخاصة. ولا يوجد، من هذا المنظور، من فارق آخر بين الجنسية السوية والجنسية المنحرفة سوى ذاك الذي يتمثل في الاختلاف بين ميولهما الجزئية الغالبة، وبالتالي بين أهدافهما الجنسية. وبوسعنا القول إنه ثمة في كل منهما حكومة مستبدة محكمة التنظيم، ولا اختلاف بينهما إلا اختلاف الحزب الذي أفلح في الإمساك بزمام السلطة. وبالمقابل، إن الجنسية الطفلية لا وجود فيها، منظوراً إليها في جملتها، لمركزة ولا لتنظيم، إذ إن جميع الميول الجزئية تتمتع بحقوق متماثلة، وكل منها ينشد المتعة لحسابه الخاص. وغياب المركزة من جهة ووجودها من جهة أخرى يتمشيان بطبيعة الحال مع واقع أن الجنسيتين كلتيهما، المنحرفة والسوية، مشتقتان من

الجنسية الطفلية. وثمة بالأصل حالات من الجنسية المنحرفة تشبه الجنسية الطفلية شبهاً أكبر بكثير، بمعنى أن العديد من الميول الجزئية فيها تسعى إلى أهدافها بصورة مستقلة عن الميول الأخرى وبلا اكتراث بها. غير أن هذه الحالات أدنى إلى الطفالة INFANTILISME الجنسية منها إلى الانحرافات.

في مقدورنا الآن، وقد تهيأنا التهيؤ الكافي، أن نتصدى لمناقشة اعتراض لا مناص من أن يوجَّه إلينا. فسوف يقال لنا: «لمَ تعاند في إطلاق اسم الجنسية على تظاهرات الطفولة هذه التي تقرّ أنت نفسك بأنها غير قابلة للتحديد والتي لا تغدو جنسية إلا في زمن لاحق؟ لمَ لا تكتفي بالوصف الفيزيولوجي وحده، فتقول بكل بساطة إنه تُلحظ لدى الرضيع نشاطات كالمصّ وإمساك الفضلات تنمّ فقط عن أن الطفل يلتمس اللذة التي يمكن له أن يستمتع بها عن طريق أعضاء معيَّنة من جسمه؟ فلو قلت ذلك لتحاشيت استفزاز مشاعر سامعيك وقرائك بما تعزوه من حياة جنسية إلى الأطفال الذين لم يتجاوزوا الطور الأول من عمرهم». من المؤكد أنه ليس عندي أي اعتراض على احتمال أن تُلتمس اللذات عن طريق هذا العضو أو ذاك من أعضاء الجسم، وأنا أعلم أن اللذة الكبرى، اللذة التي تتأتى من المجامعة، ما هي إلا لذة مصاحبة لنشاط الأعضاء الجنسية. لكن هل لكم أن تقولوا لي كيف ولماذا تتلبس هذه «اللذة العضوانية»، اللامتمايزة في البداية، ذلك الطابع الجنسي الذي تتبدى به بلا مراء في أطوار النمو اللاحقة؟ وهل معرفتنا بـ «اللذة العضوانية» أوسع وأفضل من معرفتنا بالجنسية؟ ستجيبونني بأن الطابع الجنسي يتبدى تحديداً يوم تطفق الأعضاء التناسلية تؤدي دورها، ويوم يتطابق الجنسي مع التناسلي ويختلط به، وستدحضون الاعتراض الذي قد أستمدُّه من وجود الانحرافات بأن تقولوا لي إن هدف أغلب الانحرافات هو، في خاتمة المطاف، الظفر بالرعشة التناسلية ولو بطريق آخر غير طريق تزاوج الأعضاء التناسلية. وبالفعل، إنكم تحسِّنون موقفكم تحسيناً ملموساً باستبعادكم من خصائص الجنسية صلتها بالتناسل، وهي صلة تنفي الانحرافات وجودها. وبذلك تنزلون بالتناسل إلى مرتبة دنيا لتفسحوا مكانة الصدارة للنشاط الجنسي الصرف. لكن هنا يتضح أن الخلافات التي تباعد بيننا



أضأل نطاقاً مما تظنون: فنحن نضع فقط الأعضاء التناسلية بجانب غيرها من الأعضاء. فترى ماذا أنتم فاعلون بالتجارب والمشاهدات العديدة التي تدل على أن الأعضاء التناسلية يمكن استبدالها، كمصدر للذة، بأعضاء أخرى، كما في القبلة العادية على سبيل المثال، أو كما في الممارسات المنحرفة عند بعض الداعرين، أو كما في أعراض الهستيريا؟ وفي الهستيريا تحديداً كثيراً ما يحدث أن تنتقل ظاهرات التهيج والإحساسات والتعصيبات INNERVATIONS، وحتى سيرورات الانتعاظ، من الأعضاء التناسلية إلى مناطق أخرى من الجسم، غالباً ما تكون بعيدة عن الأولى (الرأس والوجه على سبيل المثال). فإذا ما قرّ في أذهانكم على هذا النحو أنه لم يبقَ لديكم شيء مما يمكن أن تتشبثوا به في تحديدكم خصائص ما تسمّونه بالجنسي، وجدتم أنفسكم مكرهين على حذو حذوي وعلى توسيع مفهوم «الجنسي» ليشمل أيضاً نشاطات الطفولة الأولى الملتمسة للذة العضوانية.

ولسوف ترون أني محق تماماً في ما أذهب إليه لو أخذتم في حسابكم الاعتبارين التاليين. فنحن نطلق، كما تعلمون، صفة الجنسية على النشاطات المبهمة غير القابلة للتحديد والساعية وراء اللذة في الطفولة الأولى. وقد أرغمتنا على الأخذ بهذه النظرة المواد التي زوَّدنا بها تحليل الأعراض والتي لا مراء في طبيعتها الجنسية. غير أنكم قد تعترضون بالقول بأنه إذا كانت هذه المواد ذات طبيعة جنسية لا مراء فيها، فليس يترتب على ذلك أن النشاطات الطفلية المتجهة نحو نشدان اللذة هي بدورها جنسية. أوافقكم. لكن لننظر في حالة مشابهة. افرضوا أننا لا نملك أية وسيلة لمراقبة نمو نباتين من ذوات الفلقتين، كالتفاح واللوبياء مثلاً، ابتداء من نواة كل منهما، وأنه في وسعنا بالمقابل في كلتا الحالتين أن نتتبع نموهما بالطريق المعاكس، أي ابتداء من الفرد النباتي المكتمل النمو وانتهاء بالجنين النباتي الأول الذي ليس له سوى فلقتين. فهاتان الأخيرتان تبدوان متماثلتين في كلتا الحالتين حتى ليصعب التمييز بينهما. فهل يتعيَّن علينا أن نستنتج من ذلك أن هناك تطابقاً فعلياً، وأن الفارق النوعي القائم بين التفاح واللوبياء لا يظهر إلى حيِّز الوجود إلا في وقت لاحق أثناء النمو؟ أليس من



الأصحّ، من وجهة النظر البيولوجية، التسليم بأن هذا الفارق موجود في الجنينين، رغم التطابق الظاهر في الفلقات؟ هذا بالضبط ما نفعله إذ نطلق صفة الجنسية على اللذة التي تتأتى من نشاطات الرضيع. أما معرفة ما إذا كان يتعيَّن وصف كل لذة عضوانية بأنها جنسية أو ما إذا كان هناك، إلى جانب اللذة الجنسية، لذة أخرى من طبيعة مغايرة، فتلك مسألة لا يسعني أن أناقشها هنا. وأنا لا أعلم إلا النزر اليسير عن اللذة العضوانية وعن شروطها، ولا عجب إن قادنا تحليلنا التراجعي في خاتمة المطاف إلى عوامل غير قابلة للتحديد في الوقت الحاضر.

ثمة ملاحظة أخرى! إنكم لن تجتدوا، في خاتمة الحساب، فائدة تذكر لصالح مدّعاكم عن طهر الطفل الجنسي، حتى على فرض أنكم أفلحتم في إقناعي بأن هناك أسباباً وجيهة تحملنا على ألا نعتبر نشاطات الرضيع جنسية. ذلك أن حياة الطفل الجنسية لا تعود، منذ السنة الثالثة، موضعاً لأدنى شك. فابتداء من تلك السن تغدو الأعضاء التناسلية قابلة للانتعاظ، بل كثيراً ما تلاحظ في ذلك العمر مرحلة استمناء طفلي، أي إشباع جنسي. وتقطع التظاهرات النفسية والاجتماعية للحياة الجنسية دابر كل شك: اختيار الموضوع، إيثار أشخاص معيَّنين عاطفياً، بل انحياز لصالح أحد الجنسين واستثناء الآخر، وغيرة، وغير هذه من الوقائع التي لاحظها مراقبون غير متحيِّزين من خارج نطاق التحليل النفسي وقبل ظهوره، والتي يمكن أن يتحقق من صحتها كل من به رغبةٌ في رؤية الأشياء على حقيقتها. ستقولون لي إنكم لم تماروا قط في الظهور المبكِّر للمحبة لدى الطفل، غير أنكم تشكّون فقط في طابعها «الجنسي». ومن المؤكد أن الأطفال في ما بين الثالثة والثامنة يكونون قد تعلموا كيف يخفون هذا الطابع ويموهونه، لكنكم لو دققتم النظر لاكتشفتم قرائن كثيرة على المرامي «الحسِّية» لتلك المحبة، وما قد لا يقع أيضاً تحت ملاحظتكم المباشرة سيتضح بسهولة عقب استقصاء تحليلي. وترتبط أهداف الجنسية في هذه المرحلة من الحياة ارتباطاً وثيقاً بحبّ الاستطلاع الجنسي الذي يشغل بال الأطفال في ذلك الطور نفسه والذي سقت لكم بضعة أمثلة منه. أما الطابع المنحرف لبعض هذه الأهداف فيجد تفسيره الطبيعي في عدم نضج تكوين الطفل الذي لا يكون قد اكتشف بعد الغاية التي يخدمها فعل التزاوج والمجامعة.



بين السادسة والثامنة من العمر يتوقف النمو الجنسي لفترة من الوقت أو ينتكس، وهذا الطور جدير بأن يُسمَّى طور الكمون في الحالات الموائمة حضارياً. وطور الكمون هذا ليس محتماً، غير أن ظهوره لا يستتبع بالضرورة توقفاً تاماً للنشاطات وللاهتمامات الجنسية. وعندئذ تطوي يد النساية الطفلية أغلب الخبرات المعاشة والحاثات النفسية السابقة لطور الكمون، فتسقط في لجة ذلك النسيان الذي تكلمنا عنه والذي يخفي عنا حداثتنا الأولى ويجعلنا عنها كالغرباء. ومهمة كل تحليل نفسي أن يحيي من جديد ذكرى ذلك الطور المنسي من الحياة؛ ولا يسعنا أن نمسك عن الاشتباه بأن علة هذا النسيان إنما تكمن في بدايات الحياة الجنسية العائدة إلى ذلك الطور، وبأن النسيان بالتالي ناجم عن الكبت.

بدءاً من السنة الثالثة تغدو حياة الطفل الجنسية مشابهة في كثير من وجوهها لحياة الراشد الجنسية، ولا تتميز عن هذه الأخيرة إلا بعدم وجود تنظيم محكم تحت زعامة الأعضاء التناسلية، وإلا بطابعها المنحرف الذي لا مرية فيه، وبضعف شدة الدافع الغريزي إجمالاً بطبيعة الحال. لكن الأطوار الأكثر إثارة للاهتمام، من الناحية النظرية، من النمو الجنسي، أو من تطور الليبيدو كما نؤثر أن نقول، هي الأطوار السابقة لتلك المرحلة. فهذا التطور يتم بسرعة كبيرة، مما لا يتيح للملاحظة المباشرة في الأرجح أن توفَّق إلى تثبيت صوره السريعة الزوال. وإنما الدراسة التحليلية النفسية للأعصبة هي وحدها التي أتاحت لنا القدرة على اكتشاف أطوار أكثر إيغالاً في الزمن بعد في تطور الليبيدو. وصحيح أن هذه محض إنشاءات نظرية، غير أن الممارسة العملية للتحليل النفسي ستظهر لكم أن هذه الإنشاءات ضرورية ونافعة. وسترون عما قليل لماذا يتأتى لعلم الحالات المرضية أن يكتشف هنا وقائع لا مجال لأن تقع تحت إدراكنا في الحالات السوية.

بوسعنا الآن أن نوضح المظهر الذي تتلبسه حياة الطفل الجنسية قبل أن تتوطد زعامة الأعضاء التناسلية، تلك الزعامة التي يتم تمهيد السبيل أمامها في المرحلة الطفلية الأولى السابقة لطور الكمون والتي تعكف على تنظيم نفسها بمتانة وإحكام ابتداء من سن البلوغ. وعلى امتداد تلك الحقبة الأولى كلها يقوم ضرب من تنظيم رخو نسميه **بالتنظيم القبتناسلي**. غير أن مكانة الصدارة في هذه الحقبة



تشغلها، لا الدوافع الغريزية التناسلية الجزئية، بل الدوافع الغريزية السادية والشرجية. ولا يلعب التعارض بين **المذكر والمؤنث** أي دور بعد، بل نجد في مكانه التعارض بين **الموجب والسالب**، وهو تعارض يمكننا اعتباره باكورة القطبية الجنسية التي لن يلبث أصلاً أن يندمج بها في وقت لاحق. وكل ما يتبدى لنا من نشاطات تلك الفترة مذكراً، ما دمنا ننظر إليه من منظور المرحلة التناسلية، يتكشف عن أنه تعبير عن دافع غريزي إلى السيطرة سرعان ما ينحطّ إلى قسوة. وترتبط تلك الميول السالبة الهدف بمنطقة الشرج الشهوية التي تلعب في ذلك الطور دوراً هاماً. وتتأكد بقوة الرغبة في النظر والاستطلاع، بينما لا يشارك العضو التناسلي في الحياة الجنسية واقعياً إلا بوصفه عضواً مفرزاً للبول. وليست المواضيع هي ما تفتقر إليه الدوافع الغريزية الجزئية في تلك الحقبة، غير أن هذه المواضيع لا يلتئم شملها بالضرورة لتؤلف موضوعاً واحداً. ويشكل التنظيم السادي ـ الشرجي آخر طور تمهيدي يسبق الطور الذي تتأكد فيه زعامة الأعضاء التناسلية. والتعمق في الدراسة من شأنه أن يظهر لنا كم من عناصر هذا الطور التمهيدي تدخل في تكوين البنيان النهائي اللاحق، وما الوسائل التي تقاد بها الدوافع الغريزية الجزئية إلى احتلال مكانها في التنظيم التناسلي الجديد. ونستشف خلف المرحلة السادية ـ الشرجية من تطور الليبيدو طوراً تنظيمياً أدنى إلى البدائية أيضاً، تلعب فيه المنطقة الفموية الشهوية الدور الرئيسي. وفي مقدوركم أن تلاحظوا أن من جملة السمات المميزة الأخرى لتلك المرحلة النشاط الجنسي كما يتجلى في فعل المصّ، وليس لنا إلا أن نعجب بحصافة إدراك المصريين القدماء وبقوة ملاحظتهم إذ كان فنّهم يصوِّر الطفل، بما فيه الطفل الإلهي حورس، وهو يضع إصبعه في فمه. وقد أوضح لنا أبراهام[٣] مدى عمق آثار هذا الطور البدائي الفموي في الحياة الجنسية اللاحقة برمتها.

٣) كارل أبراهام: طبيب ومحلل نفسي ألماني (١٨٧٧ ـ ١٩٢٥). من تلاميذ فرويد المخلصين. نظَّم أول جمعية للتحليل النفسي في برلين سنة ١٩١٠. راسل فرويد بين ١٩٠٧ و١٩٢٥، وتولى تحليل العديد من المحللين النفسيين، وترأس **الرابطة الأممية للتحليل النفسي**، واهتم بدراسة الجنسية الطفلية. وله مؤلفات شتى. والإحالة هنا إلى مقاله: **حول مرحلة التطور القبتناسلي الأبكر لليبيدو** المنشور في **المجلة الدولية للتحليل النفسي**، العدد ٤، ١٩١٦. «م».



سادتي، إني أخشى أن يكون كل ما ذكرته لكم عن التنظيمات الجنسية قد أتعبكم بدلاً من أن ينوّركم ويزيدكم علماً بالموضوع. ومن الجائز أن أكون قد أغرقت في التفاصيل أكثر مما ينبغي. لكني أسألكم صبراً، فستتسنى لكم الفرصة للتحقق من أهمية ما سمعتموه حين سنضعه موضع تطبيق لاحقاً. وبانتظار ذلك ليقرّ في أذهانكم أن الحياة الجنسية، أو وظيفة الليبيدو كما نقول، لا تبزغ مكتملة التكوين، بل لا تتطور تطوراً تبقى فيه مشابهة لنفسها، وإنما تجتاز سلسلة من أطوار متلاحقة لا يقوم بينها أي شبه، ومن ثم فإنها تتغير في تطورها عدة مرات، على منوال ما يحدث لليرقة في تطورها لتصير فراشة. ونقطة الانعطاف في هذا التطور تكمن في وضع جميع الدوافع الغريزية الجنسية الجزئية تحت زعامة الأعضاء التناسلية، وبالتالي إخضاع الجنسية لوظيفة الإنجاب. ففي بادئ الأمر تكون الحياة الجنسية مفككة، مؤلفة من عدد كبير من دوافع غريزية جزئية ينشط كل دافع منها مستقلاً عن سائر الدوافع ابتغاء للذة العضوانية. غير أن هذه الفوضى تخفف من غلوائها البدايات الأولى للتنظيمات «القبتناسلية» التي تفضي إلى الطور السادي ـ الشرجي عبر الطور الفموي الذي ربما كان هو الطور الأكثر بدائية. يضاف إلى ذلك سيرورات شتى، لا نعرفها معرفة كافية، تتكفل بالانتقال من طور تنظيمي إلى طور تالٍ وأعلى. وسنرى عما قريب ما لهذا التطور الطويل الأمد والمتفاوت الأطوار لليبيدو من أهمية في فهم الأعصبة.

أما اليوم فسنتناول أيضاً جانباً آخر من هذا التطور، وأعني الصلات بين الدوافع الغريزية الجزئية والموضوع، أو أننا سنلقي بالأحرى نظرة خاطفة على هذا التطور لنتوقف من ثم ملياً عند نتيجة من نتائجه المتأخرة. قلنا إن بعض العناصر المكونة للدافع الغريزي الجنسي تتجه من أول الأمر إلى موضوع تتشبث به بقوة، ومن قبيل ذلك الدافع الغريزي إلى السيطرة (السادية)، والدافع الغريزي إلى النظر والاستطلاع، بينما لا يكون للمقوّمات الأخرى، المرتبطة ارتباطاً أوضح ببعض مناطق الجسم الشهوية، من موضوع إلا من البداية فحسب، وذلك ما دامت تعتمد بعد على الوظائف غير الجنسية، ثم لا تلبث أن تعزف عن هذا الموضوع متى ما انفصلت عن هذه الوظائف. وهكذا يكون الموضوع الأول للعنصر



الفموي في الدافع الغريزي الجنسي هو ثدي الأم الذي يشبع حاجة التغذية لدى الطفل. فالعنصر الإيروسي، الذي يستمدّ إشباعه من ثدي الأم، في نفس الوقت الذي يشبع فيه الطفل جوعه، يفوز باستقلاله من خلال فعل المصّ الذي يتيح له أن ينسلخ عن الموضوع الخارجي وأن يستعيض عنه بعضو أو بمنطقة من جسم الطفل نفسه. ويغدو الميل الفموي **إيروسياً ذاتياً**، على نحو ما تكون كذلك في البداية الدوافع الغريزية الشرجية وغيرها من الدوافع الغريزية الشهوية. أما التطور اللاحق فينشد، بمختصر القول، هدفين: ١ ـ العزوف عن الإيروسية الذاتية، أي استبدال الموضوع الذي هو جزء من جسم الفرد ذاته بموضوع آخر خارجي وغريب. ٢ ـ توحيد المواضيع المختلفة للدوافع الغريزية المتعددة والاستعاضة عنها بموضوع واحد أوحد. وطبيعي أن مثل هذا التطور لا يُقيَّض له النجاح إلا إذا عاد هذا الموضوع من جديد جسماً كاملاً، مماثلاً لجسم الطفل نفسه. كذلك لا سبيل إلى أن يتمّ هذا التطور ما لم يُستبعد عدد من الحاثات الغريزية باعتبارها غير قابلة للاستعمال.

إن السيرورات التي تفضي إلى اختيار هذا الموضوع أو ذاك لعلى درجة من التعقيد، ولم توصف بعد وصفاً جامعاً يبعث على الرضى. وحسبنا أن نجلو الواقعة التالية: فحين تدرك الدورة الطفلية، التي تسبق طور الكمون، حداً معيَّناً من الاكتمال، يكون الموضوع المختار شبه مطابق للموضوع الأول، أي موضوع الدافع الغريزي المتمركز على اللذة الفموية في الطور السابق. فلئن لم يعد هذا الموضوع هو ثدي الأم، فإنه يكون الأم نفسها على الدوام. وعلى هذا نقول عن الأم إنها الموضوع **الحبي** الأول. ونحن نتكلم عن الحب تحديداً متى ما احتل الجانب النفسي من الميول الجنسية مكانة الصدارة، ومتى ما كُبتت بالمقابل أو نُسيت مؤقتاً المطالب الغريزية الجسمانية أو «الحسِّية» التي هي الأساس الذي تنهض عليه تلك الميول الجنسية. ويوم تصير الأم موضوعاً للحب، تكون عملية الكبت قد بدأت لدى الطفل، ويكون من نتيجة هذه العملية حجب جزء من أهدافه الجنسية عن وعيه. ويرتبط بهذا الاختيار، الذي يتخذ من الأم موضوعاً جنسياً، كل ما اكتسب، تحت اسم «عقدة أوديب»، أهمية عظيمة في التفسير



التحليلي النفسي للأعصبة، وما ربما كان من أهم أسباب المقاومة التي قوبل بها التحليل النفسي.

استمعوا إلى هذه الحادثة الصغيرة التي وقعت أثناء الحرب. فقد جُنِّد أحد الأنصار المتحمسين للتحليل النفسي ليؤدي خدمته كطبيب في مكان ما في بولونيا، وقد لفت إليه انتباه زملائه بما ظفر من نتائج لامتوقعة في معالجته أحد المرضى[٤]. فلما سئل عن ذلك أقرّ بأنه يستخدم طرائق التحليل النفسي، وأبدى عن استعداده لتدريب زملائه عليها. فصار أطباء الفرقة، من رؤسائه وزملائه، يجتمعون كل مساء ليطلعهم على غوامض نظرية التحليل النفسي. وسارت الأمور على أحسن ما يرام لحين من الزمن، ولكن لما شرع صاحبنا نصير التحليل النفسي يحدّث سامعيه عن عقدة أوديب، نهض أحد رؤسائه وأعلن أنه لا يصدِّق حرفاً مما قاله، وأنه لا يجوز أن تسرد مثل هذه الأشياء على مسامع رجال شجعان، هم أرباب أسر يقاتلون في سبيل وطنهم. وأردف يعلن أنه يحظر مذ ذاك أية محاضرة عن التحليل النفسي. كانت هذه خاتمة القصة، ولم يجد صاحبنا نصير التحليل النفسي مناصاً من أن يطلب نقله إلى قطاع آخر. وفيما يتعلق بي، فإني أرى أنه لخطب عظيم لو كان الانتصار الألماني مرهوناً بمثل هذا «التنظيم» للعلم[٥]، وإني لعلى يقين أن العلم الألماني لن يطيق على مثل هذا التنظيم صبراً.

لا ريب أنكم تتوقون إلى معرفة ما كنه عقدة أوديب الرهيبة تلك. إن اسمها وحده يتيح لكم تخمينها. فأنتم جميعاً تعرفون الخرافة الإغريقية عن الملك أوديب الذي كتبت عليه الأقدار أن يقتل أباه ويتزوج أمه، والذي فعل كل ما بوسعه فعله ليتفادى نبوءة العراف، فلما لم يفلح عاقب نفسه بأن فقأ عينيه حالما أدرك أنه ارتكب، من غير علمه، الجريمتين المتنبَّأ له بهما. وأرجح الظن أن الكثيرين منكم قد هزّهم انفعال عنيف لدى مطالعتهم المأساة التي عالج فيها سوفوكلس[٦] هذا

٤ ـ يرجّح انه أوتو رانك. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

٥ ـ لا يغيب عنا أن فرويد ألقى محاضراته هذه في سياق الحرب العالمية الأولى. «م».

٦ ـ سوفوكلس: كبير التراجيديين اليونانيين المشهور بالأتيكي نسبة إلى مسقط رأسه في أتيكا، وهي المنطقة المحيطة بأثينا(٤٩٥ ـ ٤٠٦ ق.م). والإحالة هنا إلى أشهر مسرحياته: **أوديب ملكاً**. «م».



الموضوع. وتصور لنا تمثيلية الشاعر الأتيكي كيف أميط اللثام رويداً رويداً عن الجريمة التي اقترفها أوديب، بعد تقصٍّ تعمَّد المؤلف إطالته وبثّ الحياة فيه ببيّنات متجددة باستمرار: ومن هذا المنظور جاء العرض يشبه بعض الشبه طرائق التحليل النفسي. ومما ورد في الحوار أن جوكاستا، الأم/ الزوجة التي أعماها الحب، عارضت متابعة التحقيق والتقصي، وعللت معارضتها بأن كثيرين من الرجال يرون في أحلامهم أنهم يعاشرون أمهاتهم، لكن الأحلام لا تستأهل أي اعتبار(٧). أما نحن فلا نزدري الأحلام، وعلى الأخص النمطية منها، أي تلك التي يراها كثرة من الناس، ولا يخالجنا شك أن الحلم الذي أشارت إليه جوكاستا يرتبط وثيق الارتباط بمضمون الأسطورة الغريب والمروِّع.

إنه لما يبعث على العجب ألا تثير مأساة سوفوكليس لدى القارئ أو المُشاهد أي بادرة سخط واستنكار، على حين قوبلت نظريات صاحبنا الطبيب العسكري التي لا يترتب عليها من ضرر باستهجان أقل قابلية للتبرير بكثير. فهذه المأساة مسرحية لاأخلاقية في حقيقتها، لأنها تلغي مسؤولية الإنسان، وتعزو إلى القوى الإلهية الحضّ على الجريمة، وتظهر للعيان عجز دوافع الإنسان الأخلاقية عن مقاومة النوازع الإجرامية وردّها. ولو أن شاعراً مثل يوريبيدس(٨)، ليس بينه وبين الآلهة ودّ موصول، هو الذي عالج مأساة أوديب، لتحوَّلت بسهولة بين يديه إلى ذريعة للتشنيع على الآلهة وعلى الأقدار. لكن لا مجال لتشنيع كهذا لدى شاعر مؤمن مثل سوفوكلس؛ فهو يتخلص من المأزق ببراعة ورعة، بإعلانه أن الأخلاقية السامية تقتضي الصدوع لمشيئة الآلهة، حتى ولو أمرت بالجريمة. وأنا لا أرى أن مثل هذه الأخلاق هي مصدر من مصادر قوة المسرحية، إذ لا دور لها في ما لها من مفعول. وليست هذه الأخلاق هي ما يستجيب له القارئ أو المشاهد. بل هو

٧ ـ جوكاستا: والدة أوديب وزوجته لاحقاً. والإحالة هنا إلى قولة لها في مسرحية سوفوكلس مخاطبة أوديب: «ليس لخطر زنا المحارم أن يلقي الرعب في نفسك؛ فكم من بني الإنسان مَن نام مع أمه في منامه. ولو كان لمثل هذه الترهات أن تشغل البال لما وسع أحداً أن يعيش في سلام!». «م».

٨ ـ يوريبيدس: ثاني أشهر التراجيديين اليونانيين بعد سوفوكلس (٤٨٠ ـ ٤٠٦ ق.م). كتب أكثر من تسعين مأساة ولم يصلنا منها سوى ١٩، ومن أشهرها **ميديا**، و**الطرواديات**، و**إلكترا**، و**الفينيقيات**. وكان نصيراً للمرأة، واشتهر بالهرطقات التي وضعها على لسان أبطاله. «م».



يستجيب لمغزى الخرافة الخفي ولمضمونها الغامض. يستجيب لهما كما لو أنه يهتدي في داخل نفسه، عن طريق التحليل الذاتي، إلى عقدة أوديب: فلكأنه يستشف في إرادة الآلهة وفي نبوءة العراف تنكيراً مثالي المظهر للاشعوره الخاص، ولكأنه يتذكر باستفظاع أنه راودته هو نفسه رغبة في إزاحة أبيه والزواج من أمه، ولكـأن صوت الشاعر يهيب به: «عبثاً تتنكر لمسؤوليتك، وعبثاً تتذرع بكل ما فعلت وجاهدت لتلجم تلك المآرب الأثيمة. فخطيئتك تبقى خطيئتك، لأنك عجزت عن خنق تلك المآرب: فهي مقيمة في لاشعورك لم يخفت لها صوت». وهذه حقيقة سيكولوجية. فالإنسان، حتى ولو كبت نزعاته الشريرة في لاشعوره وتهيأ له أنه مستطيع أن يقول إنه ليس مسؤولاً عنها، يظل يراوده الشعور بهذه المسؤولية في صورة شعور بالخطيئة يجهل دوافعه.

لا جدال في أن عقدة أوديب ينبغي أن تُعدّ مصدراً رئيسياً لهذا اللاشعور بالتبكيت الذي يقضّ مضاجع المعصوبين في غالب من الأحيان. بل أكثر من هذا. ففي دراسة لي عن بدايات الدين والأخلاق البشرية نشرتها سنة ١٩١٣ بعنوان **الطوطم والتابو**، صغت فرضية مؤداها أن عقدة أوديب هي التي بثّت في البشرية في جملتها، في مستهلّ تاريخها، شعورها بالذنب، الذي هو المصدر الرئيسي للدين والأخلاق. وكنت أودّ لو أطيل في الحديث وإياكم حول هذا الموضوع، لكنني أؤثر ألا أفعل. فمن العسير أن نترك هذا الموضوع إلى غيره لو بدأنا به، وأنا أتعجل العودة إلى علم النفس الفردي.

ترى ماذا تكشفه لنا عن عقدة أوديب الملاحظةُ المباشرة للطفل في طور الاختيار الموضوعاني[٩] قبل مرحلة الكمون؟ لا يعسر علينا أن ندرك أن الغلام يريد أن يستأثر بأمه وحده، وأن حضور الأب يضايقه، وإنه يحرد حين يبدي الأب نحو الأم تودداً، وأنه لا يخفي سروره حين يكون الأب غائباً أو مسافراً. وكثيراً ما يعرب عن مشاعره باللفظ والتصريح، ويعد أمه بالزواج منها. ورب قائل يقول إن هذه صبينات بالقياس إلى أفاعيل أوديب، لكنها كافية من حيث

٩ ـ الموضوعاني: نسبة إلى الموضوع ObJECT بالمعنى الذي يعطيه التحليل النفسي لهذه الكلمة. وقد قلنا موضوعاني ObJECTAL بإضافة نون النسبة تمييزاً عن الموضوعي OBJECTIF. «م».



هي وقائع، وهي لتلك الأفاعيل بمثابة نواتها الأولى. وقد يثير الحيرة في كثير من الأحيان ما يبديه الطفل في مناسبات أخرى من مودة كبيرة لأبيه، لكن هذه الاتجاهات العاطفية المتعاكسة أو بالأحرى المزدوجة وجدانياً (AMBIVALENTES)، التي لا مناص من أن تتنازع فيما بينها فيما لو وجدت لدى الراشد، تتعايش بسهولة، ولأمد طويل من الزمن، لدى الطفل، مثلما تتساكن جنباً إلى جنب لاحقاً، وعلى نحو مستديم، في اللاشعور. وقد يعترض بعضهم بأن موقف الصبي الصغير تفسِّره دوافع أنانية، ولا يبرر البتة فرضية وجود عقدة إيروسية. فالأم هي التي ترعى حاجات الطفل جميعاً، ومن صالحه ألا ينوب شخص آخر منابها في ذلك. وهذا بكل تأكيد صحيح؛ غير أنه سرعان ما يتضح أن الاهتمام الأناني في هذا الموقف، كما في كثير من المواقف المشابهة، لا يعدو أن يكون نقطة ارتكاز للميل الإيروسي. فحين يبدي الطفل تجاه أمه فضولاً جنسياً غير مستتر، وحين يلحّ لينام بجانبها ليلاً، وحين يريد أن يفرض وجوده وهي تغتسل، بل حين يحاول إغراءها بوسائل لا تغيب عن إدراكها، فتتحدث عنها للناس ضاحكة، فإن الطبيعة الإيروسية للتعلق بالأم تبدو هنا سافرة لا مريّة فيها. ولا يجوز أن ننسى أن الأم تحيط بالرعاية نفسها بنتها الصغيرة من دون أن تستثير لديها مفعولاً مماثلاً، وأن الأب ينافسها في كثير من الأحيان بما يبذله من عناية ورعاية للصبي الصغير، من دون أن يفلح مع ذلك في أن يحظى في عينيه بأهمية مماثلة. خلاصة القول: إنه لا وجود لحجة نقدية يمكن التوسل بها لنفي الإيثار الجنسي عن الموقف. وحتى من منظور المصلحة الأنانية، لا يكون الصبي الصغير قد دلل على ذكاء عندما يتعلق بشخص واحد، هو الأم، مع أنه كان يستطيع بسهولة ويسر أن ينعم بتفاني شخصين اثنين في سبيله: الأم والأب.

لعلكم لاحظتم أني لم أعرض سوى موقف الصبي الصغير من الأب والأم. والحال أن موقف البنت الصغيرة مماثل له تماماً، على أن نأخذ في اعتبارنا التعديلات التي لا مناص منها. فالودّ الرقيق تجاه الأب، والحاجة إلى إبعاد الأم التي يكون وجودها مصدر ضيق، والغنج الذي يصطنع في وقت مبكر ما تصطنعه النساء من وسائل وفنون، كل ذلك يرتسم لدى البنت الصغيرة على



شكل صورة لطيفة، أخاذة، تنسينا ما قد يترتب على هذا الموقف الطفلي من عواقب جدية، بل وخيمة. ولنضف بلا توانٍ أن الوالدين نفسيهما غالباً ما يكون لهما تأثير حاسم في إذكاء عقدة أوديب في نفوس أطفالهما، باستسلامهما من جانبهما للانجذاب الجنسي، وذلك عندما يجهر الأب، في الأسر التي يكثر فيها عدد الأطفال، بإيثاره البنت الصغيرة، بينما ينصبّ كل حنوّ الأم على الصبي الصغير. غير أن هذا العامل، على أهميته، لا ينهض حجة مضادة على الطبيعة العفوية لعقدة أوديب لدى الطفل. وهذه العقدة تتوسع لتغدو «عقدة عائلية» عندما تكبر الأسرة بولادة أطفال آخرين. فالأطفال الأوائل يرون في هذه الولادة تهديداً لمراكزهم المكتسبة، فلا يلاقون إخوتهم وأخواتهم الجدد إلا بازورار وبرغبة جامحة في التخلص منهم. بل إن الأطفال يفصحون عن مشاعر الكره هذه ويجهرون بها لفظاً أكثر بكثير مما يعبرون عن المشاعر التي توحي بها إليهم «العقدة الوالدية». فإن اتفق أن تحققت رغبة الطفل الشريرة، فاختطفت يد المنون بسرعة الوليد الدخيل، أذكراً كان أم أنثى، أمكن لنا أن نعاين، عن طريق التحليل اللاحق، كم كانت عظيمة أهمية هذا الموت في نفس الطفل، حتى وإن لم يحتفظ من هذه الحادثة بأي ذكرى. فالطفل، الذي تنزل به ولادة أخ أو أخت إلى المقام الثاني، والذي يجد نفسه بالتالي شبه مهجور، لا ينسى بسهولة هذا الهجران الذي يولِّد في نفسه مشاعر لو وجدت لدى الراشد لقيل عنه إنه مرّ النفس، ولا يعسر أن تغدو هذه المشاعر منطلقاً لنفور دائم من الأم. وقد أسلفنا القول إن التحري الجنسي عند الطفل، بكل ما يترتب عليه من نتائج، يرتبط تحديداً بهذه التجربة الحياتية المبكرة. فإذا ما شبّ الإخوة والأخوات عن الطوق، طرأت على موقف الطفل منهم تغيرات بليغة الدلالة. فالصبي قد يحوِّل إلى أخته الحب الذي كان قد ساوره تجاه أمه التي ساءه منها، كل السوء، عدم إخلاصها له. ومنذ عهد الحضانة يدبّ بين الأخوة في التفافهم حول الأخت الصغيرة لكسب رضاها تنافس عدائي يكون له دور خطير في حياتهم اللاحقة. كما أن البنت الصغيرة تُحِلّ أكبر إخوتها سناً محل أبيها الذي ما عاد يبدي لها من ضروب المحبة والعطف ما كان يبديه آنفاً، أو قد تتخذ من أختها الأصغر منها



بديلاً عن الطفل الذي كانت قد تاقت بلا جدوى إلى أن تنجبه من والدها.

تلك هي بعض الوقائع، وبوسعي أن أسوق منها أمثلة أخرى كثيرة تزوِّدنا بها الملاحظة المباشرة للأطفال أو يكشف لنا عنها التأويل اللاامتحيز لذكرياتهم التي تكون على درجة كبيرة من الوضوح والجلاء من دون أن تكون قد تأثّرت بالتحليل. ويمكنكم أن تخرجوا من هذه الوقائع بنتائج كثيرة، منها أن المكانة التي يشغلها الطفل في أسرة تضم عدة أطفال يكون لها أثر كبير في مسار حياته اللاحقة، ولا بدّ أن تؤخذ بعين الاعتبار في كل سيرة حياة. غير أن الأهم من ذلك بكثير أننا، حيال هذه التفاسير التي نظفر بها بلا مشقة، لا نملك إلا أن نبتسم عندما نتذكر كل الجهود التي بذلها العلم لتعليل حظر زنا المحارم. أفما قيل لنا إن الحياة المشتركة منذ عهد الطفولة من شأنها أن تصرف الانجذاب الجنسي للطفل عن أعضاء أسرته من الجنس المقابل؟ أوَما قيل لنا أيضاً إن الميل البيولوجي إلى تجنُّب الزواج بين ذوي قرابة العصب الواحد يجد تكملته النفسية في الاستفظاع الفطري لحبّ المحارم؟ والحال أن من قال هذا الكلام قد غاب عنه فقط أنه لو صحَّ أن الطبيعة تقيم في وجه إغراء المحارم حواجز منيعة ومأمونة، لانتفت أية حاجة إلى تحظيره بواسطة قوانين صارمة وأعراف. والواقع أن العكس هو الصحيح. فأول موضوع تتركز عليه رغبة الإنسان الجنسية هو موضوع يتصل بالمحارم ـ الأم أو الأخت ـ وهذا التنازع الطفلي لا يُقمع ويُكبح إلا بضروب بالغة الصرامة من الحظر. والحظر المفروض على حبّ المحارم لدى البدائيين الذين لا يزالون يعيشون إلى اليوم، ولدى الأقوام المتوحشة، أشد صرامة مما هو عليه لدينا. وقد بيَّن ث. رايك TH. REIK[١٠]، في دراسة بديعة، أن طقوس البلوغ التي تقام لدى المتوحشين والتي تمثل إعادة البعث إلى الحياة، إنما ترمي إلى فصم الصلة المحرمية التي تربط الغلام بالأم وإلى إصلاح ذات البين بينه وبين أبيه.

١٠ ـ ثيودور رايك: محلل نفسي نمساوي (١٨٨٨ ـ ١٩٦٩). تلميذ مباشر لفرويد، تولى أمانة سر **جمعية فيينا للتحليل النفسي**. من أشهر كتبه: **المازوخية لدى الإنسان المعاصر**، **والسماع بالأذن الثالثة**. والإحالة هنا إلى مقاله: **طقوس البلوغ لدى المتوحشين**، المنشور في مجلة **إيماغو**، العدد ٤، ١٩١٥ ـ ١٩١٦. «م».



تظهر لنا الميتولوجيا أن بني البشر لا يترددون في عزو زنا المحارم إلى الآلهة على الرغم من استفظاعهم له، ويفيدنا التاريخ القديم أن الزواج المحرمي بالأخت كان واجباً مقدساً (لدى الفراعنة القدامى، ولدى الإنكا[١١] في البيرو). فهو إذاً امتياز محظور على عامة الناس.

إن زنا المحارم مع الأم هو إحدى جريمتي أوديب، وقتل الأب جريمته الثانية. ولنشر عرضاً إلى أن هاتين الجريمتين هما أكبر الكبائر التي أدانتها أول مؤسسة دينية واجتماعية عرفها البشر: الطوطمية[١٢]. ولننتقل الآن من الملاحظة المباشرة للطفل إلى الفحص التحليلي للراشد الذي صار معصوباً. فما مدى ما يساهم به هذا الفحص في تعميق معرفتنا بعقدة أوديب؟ من الممكن تحديد ذلك بمنتهى الإيجاز. فالتحليل يكشف لنا عن هذه العقدة كما تعرضها لنا الأسطورة، ويبيِّن لنا أن كل واحد من أولئك المعصوبين كان هو نفسه قريناً لأوديب بمعنى من المعاني، أو ـ وهذا سواء ـ صار قريناً لهملت باستجابته العكسية لهذه العقدة[١٣]. وغني عن البيان أن الصورة التحليلية لعقدة أوديب تكبير وتضخيم للصورة الطفلية الأولية. فكره الأب وتمني موته لا تنمّ عنهما هذه المرة محض إشارات وإلماعات، كما أن محبة الأم تتخذ هدفاً سافراً لها الاستحواذ عليها كزوجة. فهل يحقّ لنا أن نعزو إلى الطفولة الرقيقة هذه العواطف الفجّة والمشتطّة، أم أن التحليل يوردنا موارد الخطأ بفعل تدخل عامل جديد؟ الحق أنه ليس من العسير كشف

١١ ـ الإنكا: إثنية بانية للحضارة في أميركا الجنوبية ما قبل الكولومبية، تعود بداياتها إلى القرن الثالث عشر وامتد تأثيرها إلى البيرو والأرجنتين وبوليفيا وكولومبيا والتشيلي على طول سواحل المحيط الهادي. «م».

١٢ ـ الطوطمية: نسبة إلى الطوطم، وهو مصطلح أدخله إلى اللغة الإنكليزية الرحالة ج. لونك في كتابه **رحلات مترجم هندي وأسفاره** نقلاً عن هنود البحيرات الكبرى في أميركا الشمالية. ثم عمَّم استعمالَ كلمة الطوطمية في الدراسات الأنثروبولوجية الباحثُ الإسكتلندي ج. ماك لينان في بحث له بعنوان **الطوطمية** (١٨٧٠). وتُستخدم كلمة الطوطم للدلالة على الانتماء العشائري الأبوي إذ تتخذ كل قبيلة لقباً لها مستمداً من إحدى فصائل الحيوان كالدبّ مثلاً. «م».

١٣ ـ معلوم أن هملت في مسرحية شكسبير، بعكس أوديب في مسرحية سوفوكلس، هو من يقتل قاتل أبيه بعد أن تراءى له هذا الأخير في المنام ليبلغه أن قاتله هو أخوه بالذات، أي عم هملت، وأنه ما قتله إلا ليستولي على عرشه وزوجته (أي أم هملت) معاً. «م».



هذا العامل الجديد. فكلما تحدث إنسان من الناس عن الماضي، حتى ولو كان المتحدث مؤرخاً، يتعيَّن علينا أن نحسب حساباً لكل ما يقحمه، عن غير قصد منه، من الحاضر أو من الحقبة الفاصلة بين الماضي والحاضر، على الفترة التي يتحدث عنها والتي يحرّف بالتالي صورتها. بل إنه من المباح لنا، في حالة العصابي، أن نتساءل عما إذا كان هذا الخلط بين الماضي والحاضر لاإرادياً فعلاً، وسوف نرى لاحقاً أن لهذا الخلط دوافعه، وسوف يتعيَّن علينا بوجه عام أن نجد تعليلاً للعبة الخيال هذه في التعامل مع أحداث الماضي البعيد ووقائعه. كذلك لا يشقّ علينا أن نرى أن كراهية الأب تعززها دوافع شتى تتأتى من آونة وظروف لاحقة، وأن الرغبات الجنسية التي تتخذ الأم موضوعاً لها تتلبس أشكالاً كان الطفل يجهلها ولا بدّ. لكن سيضيع مجهودنا سدى فيما لو شئنا أن نفسِّر عقدة أوديب برمَّتها بلعبة الخيال الاسترجاعي حينما يقحم على الماضي عناصر مقتبسة من الحاضر. فالمعصوب الراشد يحتفظ بالنواة الطفلية لهذه العقدة مع بعض من لواحقها ومستتبعاتها، على نحو ما تكشفه لنا الملاحظة المباشرة للطفل.

إن الواقعة السريرية، التي تتكشف لنا خلف الشكل الذي يحدِّده التحليل لعقدة أوديب، تنطوي على دلالة عملية كبيرة. فنحن نعلم أن المواضيع العائلية والمحرمية القديمة تعاود ظهورها ويعاد توظيفها ليبيدوياً وقت البلوغ، أي حين يشهِر الدافع الغريزي الجنسي لأول مرة مطالبه بكامل قوتها. وما كان اختيار الطفل للموضوع سوى تمهيدٍ وجِلٍ، ولكن حاسم، لاتجاه الاختيار في طور البلوغ. ففي هذا الطور تتم سيرورات عاطفية ووجدانية بالغة الشدة، متجهة إما نحو عقدة أوديب، وإما نحو ردّ فعل على هذه العقدة. ولكن بما أن مقدمات هذه السيرورات قد أضحت مما لا يطاق، فمن المحتم أن تبقى في غالب الأحيان بعيدة عن متناول الوعي. وابتداء من ذلك الوقت يجد الفرد الإنساني نفسه أمام مهمة كبرى، هي الانفصال عن والديه؛ وإما بعد أن ينجز هذه المهمة يتأتى له أن ينضو عنه ثوب الطفولة ليصير عضواً في الجماعة الاجتماعية. ومهمة الابن في هذه الحال أن يفصل عن أمه رغباته الليبيدوية ليتجه بها نحو موضوع واقعي أجنبي، وأن يتصالح مع الأب إن كان يضمر له عداء، أو أن يتحرر من طغيانه إن



كان قد صار عبده المطيع كردّ فعل على تمرده الطفلي عليه. هذه المهام تفرض نفسها على كل واحد؛ ومما تجدر الإشارة إليه أن إنجازها نادراً ما يتمّ بنجاح أمثل، أي على وجه يبعث على الرضى التام من الناحيتين النفسية والاجتماعية. أما المعصوبون فيخفقون إخفاقاً تاماً في هذه المهام، فيبقى الابن طول حياته رازحاً تحت سلطان الأب وعاجزاً عن تحويل طاقته الليبيدوية نحو موضوع جنسي أجنبي. وكذلك قد يكون أيضاً، مع التعديلات اللازمة، مصير البنت. وبهذا المعنى يحقّ لنا اعتبار عقدة أوديب نواة الأمراض العصابية.

لقد لاحظتم، سادتي، في أرجح الظن أني أمرّ مرّاً سريعاً بكثير من التفاصيل التي تتصل بعقدة أوديب، والتي لها مع ذلك أهميتها العملية والنظرية على حدّ سواء. كما أني لن ألحّ أكثر مما فعلت على تنويعاتها وعلى احتمال انقلابها إلى عكسها. أما فيما يتصل بآثارها البعيدة، فسأقول لكم فقط إنها كانت مصدراً ثراً للإبداع الشعري. وقد بيّن أوتو رانك في كتاب قيّم له[١٤] أن كتّاب المسرحيات في جميع العصور قد اقتبسوا مادتهم في المقام الأول من معين عقدة أوديب وعقدة المحارم، ومن تنويعاتهما المقنَّعة بقدر أو بآخر. ولنذكر أيضاً أن الرغبتين الآثمتين اللتين تدخلان في تركيب هذه العقدة وجدتا من يتعرف فيهما، قبل زمن طويل من عهد التحليل النفسي، مظهرين صادقين للحياة الغريزية التي لا يردعها رادع. ففي حوارية الموسوعي الشهير ديدرو التي جعل عنوانها **ابن أخي رامو**[١٥]، والتي نقلها غوته نفسه إلى الألمانية، تقعون على المقطع التالي اللافت للنظر: «لو تُرك المتوحش الصغير وشأنه، فاحتفظ بكل غباوته وجمع إلى قلة عقل الطفل في مهده عنف أهواء الرجل الذي في الثلاثين من العمر، لدقّ عنق أبيه ولضاجع أمه».

١٤ ـ الإحالة هنا إلى كتاب أوتو رانك الذي سبق لفرويد أن استشهد به في المحاضرة الثالثة عشرة: **موضوعة زنا المحارم في الإبداع الأدبي والأسطورة**. «م».

١٥ ـ **ابن أخي رامو أو الأهجية الثانية**: حوارية كتبها ديدرو سنة ١٧٦٢، على الأرجح، وهي عبارة عن حوار بين **أنا**، الفيلسوف الراوي، وبين **هو**، جان فرانسوا رامو، ابن أخي الموسيقار المشهور جان فيليب رامو. وقد نشرت لأول مرة بالألمانية سنة ١٨٠٦ بترجمة غوته، ولم تنشر بالفرنسية إلا سنة ١٨٢١. «م».



بيد أن ثمة تفصيلاً لا يجوز لي أن أتجاوز عن ذكره. فليس من العبث أن تكون الزوجة ـ الأم لأوديب قد لفتت انتباهنا إلى الأحلام. وأنتم تذكرون أيضاً ولا بدّ النتيجة التي أفضى إليها تحليلنا للأحلام من أن الرغبات المثيرة للحلم تكون من طبيعة منحرفة، محرمية، في كثير من الأحيان، أو تنمّ عن عداء غير متوقع حيال أشخاص من الأقارب المقرَّبين والمحبوبين جداً. ونحن لم نفسر في حينه أصل هذه النوازع الشريرة. أما الآن فإن هذا التفسير يثب إلى أعيننا من تلقاء نفسه من دون أن نجشِّم أنفسنا عناء البحث عنه. فهي لا تعدو أن تكون منتجات لليبيدو وتوظيفات موضوعانية يرجع تاريخها إلى السنوات الأولى من الطفولة، وقد اختفت من الشعور منذ زمن بعيد، لكنها لا تزال تنمّ عن وجودها أثناء النوم وتدلل على بعض القدرة على ممارسة تأثير ما. لكن بما أن الناس جميعهم يحلمون مثل هذه الأحلام المنحرفة، المحرمية، الآثمة، المشحونة بحنق قاتل، وبما أن هذه الأحلام ليست بالتالي وقفاً على المعصوبين وحدهم، فمن المباح لنا أن نستنتج أن تطور الأسوياء أيضاً قد تمّ عبر الانحرافات والتوظيفات الموضوعانية لعقدة أوديب، وأن هذا الطريق هو طريق التطور السوي، وأن المعصوبين يقدمون صورة مكبَّرة ومنمطَّة، ليس إلا، عما يكشفه لنا تحليل الأحلام عند أسوياء الناس أيضاً. وهذا واحد من الأسباب التي حملتنا على التمهيد لدراسة الأعراض العصابية بدراسة الأحلام.



المحاضرة الثانية والعشرون

مظهران: التطور والنكوص

وفي أسباب نشوء الأعصبة

سيداتي سادتي، علمنا أن وظيفة الليبيدو تمر بتطور طويل الأمد قبل أن تبلغ الطور الذي يعرف بالطور السوي، حيث تغدو عاملة في خدمة التناسل. وأودّ أن أعرض لكم اليوم الدور الذي تلعبه هذه الواقعة في تسبيب الأعصبة.

أعتقد أنني لا أخالف تعاليم علم الأمراض العام إذا قلت إن ذلك التطور عرضة لخطرين: خطر **الكفّ** وخطر **النكوص**. وهذا يعني أنه بالنظر إلى ميل السيرورات البيولوجية بوجه عام إلى التنوع فقد يحدث ألا يتم اجتياز جميع الأطوار التمهيدية وتخطيها على الوجه الصحيح والكامل، كأن تتوقف بعض مقومات الوظيفة عند طور بعينه من تلك الأطوار الأولى، فتكون النتيجة انضياف قدر من الكفّ للتطور إلى مجمل لوحة التطور.

لنبحث عن أشباه لهذه الواقعة في بعض الميادين الأخرى. فحين يبارح شعب بكامله منطقة سكناه بحثاً عن بقعة جديدة، وهذه واقعة متواترة في الأزمنة البدائية من التاريخ البشري، فمن المؤكد أنه لا يصل برمّته إلى الديار الجديدة؛ فكثيراً ما تنفصل عنه جماعات وزمر صغيرة من النازحين لتستقر في مواضع بعينها، بينما يتابع سواد القوم طريقه ومسيرته، وهذا بصرف النظر عن أية أسباب أخرى لتناقص أعداده. ولنأخذ تشبيهاً أقرب من هذا بعد: فأنتم تعلمون أن الغدتين الرُشَيْميتين لدى الثدييات العليا تقعان أصلاً في أعماق التجويف البطني، لكنهما لا تلبثان، في لحظة محددة من الحياة داخل الرحم، أن تنتقلا لتأخذا مكانهما بصورة مباشرة تقريباً تحت جلد القسم الأخير من الحوض.



ونتيجة لهذه الهجرة نلحظ أن أحد هذين العضوين المزدوجين يبقى لدى عدد كبير من الأفراد الذكور، حتى بعد ذلك النزوح، في التجويف البطني أو يستقر نهائياً في القناة المعروفة باسم القناة الأربية[١]، وهي القناة التي يفترض أن تجتازها الغدتان أثناء هجرتهما، أو أن إحدى هاتين القناتين تبقى مفتوحة، بينما المفروض فيها في الأحوال الطبيعية أن تنغلق بعد مرور الغدتين الرُشَيْميتين. وأذكر أني يوم كنت لا أزال طالباً فتياً قمت بأول بحث علمي لي تحت إشراف فون بروكه BRUCKE[٢]، وكان المطلوب مني تحديد أصول الجذور العصبية الخلفية في النخاع الشوكي لسمكة من طراز بدائي سحيق القدم. وقد وجدت أن الألياف العصبية لهذه الجذور تنبت من خلايا ضخمة تقع في البوق الخلفي، وهذا ما لا نعود نشاهده لدى فقريات أخرى. غير أني لم ألبث أن اكتشفت كذلك أن هذه الخلايا العصبية توجد أيضاً خارج المادة السنجابية، وتشغل كل المسار إلى العقدة المعروفة بالعقدة الشوكية للجذر الخلفي، فاستنتجت من ذلك أن خلايا هذه العقد المتجمعة قد نزحت من النخاع الشوكي لتستقر على طول مسار جذور الأعصاب. وهذا ما يؤكده تاريخ التطور، لكن مسار النزوح لدى السمكة الصغيرة التي أجريت عليها أبحاثي كان موسوماً بخلايا متخلفة في الطريق. ومن المؤكد أنكم لو دققتم النظر لما شقّ عليكم أن تهتدوا إلى نقاط الضعف في هذه المقارنات. لذا سأقول لكم للحال إنه من الممكن في رأيي، فيما يتعلق بكل ميل جنسي على حدة، أن تتخلف بعض عناصره المكوِّنة عند مراحل سابقة من التطور، بينما تصل عناصر أخرى إلى الهدف النهائي. ونحن، بطبيعة الحال، ننظر إلى كل ميل من هذه الميول على أنه تيار يتدفق بلا انقطاع من ابتداء الحياة؛ وعندما نقسِّم هذا التيار إلى دفقات متعاقبة، فإن تقسيمنا هذا يكون اصطناعياً إلى حدّ ما. ولن تكونوا إلا محقين لو ارتأيتم أن هذه التصورات بحاجة إلى مزيد من الإيضاح، لكن مثل هذا العمل قد يشطّ بنا إلى

---

١ ـ أي قناة الحالب.

٢ ـ إرنست فون بروكه: عالم ألماني (١٨١٩ ـ ١٨٩٢). أحد مؤسسي التشريح المجهري. كان أول من شجّع فرويد على المضيّ في طريقه العلمي. «م».



أبعد مما نريد. حسبي إذاً أن أقول لكم إنني أطلقت اسم **التثبيت** (أي تثبيت الدافع الغريزي والحالة هذه) على توقف ميل جزئي عند مرحلة سالفة من التطور.

أما الخطر الثاني الذي يتعرض له هذا التطور على مراحل فيتمثل في احتمال ارتداد العناصر الأكثر تقدماً، من خلال حركة ارتجاعية، إلى واحدة من تلك المراحل السالفة، وهذا ما نسميه **بالنكوص**. ويحدث النكوص حينما يصطدم الميل، في شكله الأكثر تقدماً، وفي أثناء أدائه لوظيفته، أي في أثناء تحقيقه لإشباعه، بعقبات خارجية كأداء. ويحملنا كل شيء على الاعتقاد بأن التثبيت والنكوص غير مستقلين واحدهما عن الآخر. فكلما كانت التثبيتات قوية أثناء التطور، سهل على الوظيفة أن تتملص من العقبات الخارجية عن طريق النكوص إلى هذه التثبيتات، وتضاءلت قدرة الوظيفة المتطورة على مقاومة العقبات الخارجية التي ستلتقيها في طريقها. فحين تتخلف في الطريق عن القوم النازحين فصائل ذات شأن، فإن الأقسام المتقدمة منهم ستجنح بقوة، فيما لو اصطدمت بعدو لا قبل لها به أو انهزمت أمامه، إلى الانكفاء على أعقابها واللواذ بتلك الفصائل. غير أن احتمال هزيمة هذه الأقسام المتقدمة سيكون أكبر كلما كان تعداد العناصر المتخلفة أكثر.

وحتى تفهموا الأعصبة فهماً جيداً، فمن الأهمية بمكان ألا تغيب عن أنظاركم هذه العلاقة بين التثبيت والنكوص. فهي توفر لنا نقطة ارتكاز متينة نتطرق منها ـ وهذا ما سنفعله عما قليل ـ لدراسة منشأ الأعصبة وأسبابها.

وكبداية، لنولِ مسألة النكوص مزيداً من الاهتمام. فما علمتموه عن تطور وظيفة اللبيبدو يأذن لكم أن تتوقعوا أن يكون النكوص على نوعين: ارتداد إلى المواضيع الأولى التي توقف عندها اللبيبدو والتي لها، كما نعلم، طابع محرمي، وارتداد التنظيم الجنسي برمته إلى مراحل سابقة. وكلا هذين النوعين من النكوص نلتقيه في الأعصبة التحويلية، وهما يقومان بدور هام في آليتها. والارتداد إلى مواضيع اللبيبدو الأولى على وجه التخصيص هو ما نلاقيه لدى العصابيين باطراد يبعث على الملل. ولو أخذنا في اعتبارنا طائفة أخرى من



الأعصبة، وعلى الأخص تلك المعروفة منها باسم الأعصبة النرجسية، لكان علينا أن نفصلٍّ في الكلام عنها تفصيلاً مستفيضاً. لكننا لا نزمع أن نشغل أنفسنا بها هنا. ذلك أن هذه الأمراض تضعنا بمواجهة أنماط أخرى من التطور، لم نأتِ بذكرها بعد، وتكشف لنا أيضاً عن أشكال جديدة من النكوص. غير أنه يخيَّل إلي أنه يتعيَّن عليّ الآن أن أحذِّركم من احتمال الخلط بين **النكوص والكبت**، وأن أساعدكم على تكوين فكرة واضحة عن الصلات بين هاتين السيرورتين. فالكبت، إذا كنتم تذكرون، هو السيرورة التي بنتيجتها يغدو لاشعورياً الفعل الذي كان يمكن أن يكون شعورياً، أي منتمياً إلى القبشعور. ويكون هناك كبت أيضاً حينما لا يُسمح للفعل الجنسي اللاشعوري بالولوج إلى النسق القبشعوري المجاور، إذ تعترض الرقابة سبيله وتكرهه على الارتداد على عقبيه. وليس ثمة من صلة البتة بين مفهوم الكبت ومفهوم الجنسية. وإني لألفت انتباهكم بوجه خاص إلى هذه الحقيقة. فالكبت سيرورة سيكولوجية خالصة، نحسن صنعاً لو وصفناها أيضاً بأنها طبوغرافية. ونقصد بذلك أن مفهوم الكبت مفهوم مكاني، ذو صلة بفرضيتنا عن المقصورات أو الحجرات النفسية، أو إذا شئنا ألا نأخذ بهذا التمثيل المساعد الفجّ قلنا إن هذا المفهوم ينشأ عن تكوين الجهاز النفسي من عدة أنسقة متمايزة.

يتضح من المقارنة التي أجريناها أننا ما استخدمنا حتى الآن كلمة «النكوص» بمعناها الشائع، بل بمعنى خاص جداً. ولو أخذتموها بمعناها العام، معنى الارتداد من مرحلة عليا إلى مرحلة دنيا من التطور، لأمكنٍ أن يُفهم الكبت هو الآخر على أنه نكوص، أي ارتداد إلى مرحلة سابقة ومبكرة من التطور. غير أننا عندما نتحدث، نحن، عن الكبت، لا يذهب بنا الفكر إلى هذا الاتجاه الارتجاعي، لأننا نقول أيضاً بوجود كبت، بالمعنى الدينامي للكلمة، حتى عندما يُعتقل الفعل النفسي قبل أن يبارح مرحلة الشعور الدنيا. الكبت إذاً مفهوم طبوغرافي ودينامي، بينما النكوص مفهوم وصفي خالص. أما ما كنا نعنيه بالنكوص، كما وصفناه حتى الآن من خلال ربطه بالتثبيت، فهو فقط ارتداد الليبيدو إلى مراحل سابقة من تطوره، أي شيء يختلف كل الاختلاف عن الكبت، مثلما أنه مستقل عنه



كل الاستقلال. بل لا يسعنا أن نجزم بأن نكوص الليبيدو سيرورة سيكولوجية خالصة، وليس في مقدورنا أن نحدد لها موضعاً في الجهاز النفسي. وعلى الرغم من عميق تأثيره في الحياة النفسية، فإن العامل العضوي يكون هو الغالب عليه.

لا ريب، سادتي، في أن هذه المناقشات تبدو لكم عويصة. غير أن الطب السريري قمين بأن يقدم لنا عنها تطبيقات من شأنها أن تجعلها أوضح وأسهل متناولاً. تعلمون أن الهستيريا والعصاب الوسواسي هما الممثلان الرئيسيان لزمرة الأعصبة التحويلية. صحيح أنه يحدث في الهستيريا نكوص لليبيدو نحو المواضيع الجنسية الأولى، ذات الطبيعة المحرمية، ومن الممكن التأكيد بأنه مطَّرد الوجود في كل حالة من حالاتها، بينما لا نلحظ فيها أثراً للنكوص نحو مرحلة سابقة من التنظيم الجنسي. لكن الكبت بالمقابل هو الذي يلعب الدور الرئيسي في آلية الهستيريا. ولو كان مباحاً لي أن أكمِّل بإنشاء افتراضي جميع المعلومات الأكيدة التي حصَّلناها حتى الآن بصدد الهستيريا، لوصفت الموقف على النحو التالي: إن الميول الجزئية تجتمع وتلتحم تحت إمرة الأعضاء التناسلية، لكن العواقب التي تنشأ عن ذلك تصطدم بمقاومة النسق القبشعوري المرتبط بالشعور. إذاً فالتنظيم التناسلي يرتبط باللاشعور، لكن القبشعور لا يقبل به، ومن هنا تنشأ لوحة سريرية تنطوي على بعض وجوه الشبه مع الحالة التي كانت قائمة قبل أيلولة الزعامة إلى الأعضاء التناسلية، لكنها في الواقع مغايرة لها تماماً. والحق أن النكوص نحو مرحلة سابقة من التنظيم الجنسي هو الألفت للنظر بين كلا نوعي نكوص الليبيدو. وبما أن النكوص الأخير هذا لا وجود له في الهستيريا، وبما أن كل تصورنا للأعصبة لا يزال متأثراً بدراستنا ـ المتقدمة زمنياً ـ للهستيريا، فإن أهمية نكوص الليبيدو لم تظهر لنا إلا بعد زمن طويل من ظهور أهمية الكبت. ولكم أن تتوقعوا أن وجهات نظرنا سيطرأ عليها توسيع وتعديل كثير متى ما نظرنا أيضاً في الأعصبة النرجسية، بالإضافة إلى الهستيريا والعصاب الوسواسي.

وبالمقابل، يشكل نكوص الليبيدو في العصاب الوسواسي نحو الطور التمهيدي من التنظيم السادي ـ الشرجي الواقعة الألفت للنظر والمتحكمة بجميع تظاهرات الأعراض. وعندئذ تتنكر النزعة الحبية في إهاب النزعة السادية،



والفكرة المتسلطة التي مؤداها: **أود لو أقتلك** تعني في حقيقتها، متى ما جرَّدناها من لواحقها واستطالاتها التي هي مع ذلك ضرورية وغير عارضة، ما يلي: **أود لو أتمتع بك في الحب.** فإذا افترضتم أنه حدث في الوقت نفسه نكوص بخصوص الموضوع، أي نكوص يتحتم معه أن تنصبّ الحفزات المشار إليها على أقرب الأشخاص وأحبّهم إلى الشخص المعني، تكوَّنت لديكم فكرة عن الاستفظاع الذي يمكن أن تستثيره لدى المريض هذه التصورات المتسلطة التي تظهر لوعيه وكأنها غريبة عنه كل الغربة. غير أن الكبت يلعب أيضاً في هذه الأعصبة دوراً هاماً يعسر علينا تحديده في مدخل سريع كهذا. وإن لم يقترن نكوص الليبيدو بكبت فقد يؤدي إلى انحراف جنسي، لكنه لن يقود أبداً إلى عصاب. ومن هذا ترون أن الكبت هو السيرورة الأشد لصوقاً بالعصاب والأكثر اختصاصاً به وتمييزاً له. وربما سنحت لي فرصة لأحدثكم أيضاً عما نعرفه عن آلية الانحرافات، فترون عندئذ أن الأمور تجري على نحو أبعد عن البساطة بما لا يقاس مما يتصور الناس عادة.

سادتي، آمل أن لا تلوموني على استرسالي في الكلام عن تثبيت الليبيدو ونكوصه إذا ما قلت لكم إني لم أحدثكم عنهما إلا تمهيداً لدراسة أسباب نشوء الأعصبة. وهذا الموضوع الأخير لم أذكر لكم عنه سوى شيء واحد، وهو أن الناس يغدون معصوبين متى حيل بينهم وبين إمكانية إشباع الليبيدو عندهم، أي من جراء «الحرمان» كما أسميته من قبل[٣]، وأن أعراضهم تحلّ لديهم محل الإشباع المضنون به عليهم. ولا يجوز بطبيعة الحال أن نستنتج من ذلك أن كل حرمان من الإشباع الليبيدوي من شأنه أن يجعل ضحيته معصوباً. بل كل ما أريد قوله أن عامل الحرمان قائم في جميع الحالات العصابية التي تسنى لنا فحصها. إذاً فأطروحتي غير قابلة لأن تعكس. ولا ريب في أنكم تدركون أيضاً أنها لا تكشف عن كل سر أسباب نشوء الأعصبة، بل فقط عن شرط واحد هام وأساسي من شروط هذا النشوء.

٣ ـ انظر المحاضرة التاسعة عشرة. «م».



ولا ندري بعد، إن شئنا المضيّ في مناقشة هذه الأطروحة، أينبغي أن نلحّ في المقام الأول على طبيعة الحرمان أم على طبع الشخص المحروم وخُلقه. ذلك أن الحرمان نادراً ما يكون تاماً مطلقاً، وهو لا يغدو مسبِّباً للمرض إلا متى ما انصب على الإشباع الوحيد الذي يتطلبه الشخص، وعلى الإشباع الوحيد الذي يقدر عليه هذا الشخص. وكثيرة هي، بصفة عامة، الوسائل التي تتيح للفرد أن يتحمل الحرمان من الإشباع اللييبيدوي من دون أن يسقط مريضاً. ونحن نعرف أشخاصاً يسعهم أن ينزِلوا بأنفسهم هذا الحرمان من غير أن يلحقهم ضرّ أو أذى. صحيح أنهم ليسوا بسعداء، وأنهم يكابدون دنفاً وسقاماً، لكنهم لا يقعون صرعى المرض. وعلينا أن نأخذ في اعتبارنا، علاوة على ذلك، أن الحاثات الغريزية الجنسية ذات قابلية **تشكيلية** خارقة، إن جاز لي التعبير. فهي قادرة على أن تنوب مناب بعضها بعضاً، وقد تتلبس حاثة منها كل قوة الحاثات الأخرى؛ وإذا ما ضنّ الواقع بإشباع حاثة منها، تولت حاثة أخرى التعويض عن هذا الحرمان. فهي أشبه ما تكون، في صلاتها ببعضها بعضاً، بشبكة من أقنية مستطرقة مليئة بالماء، وذلك على الرغم من خضوعها لزعامة الأعضاء التناسلية: وهاتان خاصيتان يصعب التوفيق بينهما. أضف إلى ذلك أن الحاثات الجنسية الجزئية، وكذلك النزوع الجنسي الذي هو بمثابة تركيب لها، تمتلك مقدرة كبيرة على تغيير مواضيعها، وعلى مقايضة كل موضوع من مواضيعها بموضوع غيره يكون أسهل منالاً؛ وهذه القدرة على الإزاحة والنقل وهذه السهولة في الأخذ بالبدائل من شأنها أن تجابه التأثير الإمراضي للحرمان بمقاومة عنيدة. ومن بين هذه العوامل التي لها مفعول وقائي، إن جاز القول، ضد التأثير الضارّ للحرمان، ثمة عامل اكتسب أهمية اجتماعية خاصة في تقدم الحضارة، ويتمثل في عزوف النزوع الجنسي عن اللذة الجزئية أو عن اللذة المتأتية عن فعل الإنجاب، واستبداله هذه اللذة بهدف آخر بينه وبين الهدف الأول صلات تكوينية، لكنه صار اجتماعياً بدلاً من أن يبقى جنسياً. نحن نطلق على هذه السيرورة اسم الإسماء Sublimation، وبذلك نتفق مع الرأي العام الذي يضفي على الأهداف الاجتماعية قيمة أكبر من تلك التي ينيطها بالأهداف الجنسية التي هي، في واقع الأمر، أهداف أنانية. وما



الإسماء أصلاً إلا حالة خاصة من حالات ربط الميول الجنسية بأخرى لاجنسية. ولنا عودة إلى هذا الموضوع في سياق آخر(٤).

أرجح الظن أنكم تميلون الآن إلى الافتراض بأن جميع هذه الوسائل المتاحة للفرد لتحمُّل الحرمان من شأنها أن تفقِد هذا الأخير خطورته. لكن الواقع غير هذا، إذ إن الحرمان يحافظ على قوته الإمراضية كاملة. والوسائل التي يجابَه بها ليست بوجه عام كافية. ودرجة عدم إشباع الليبيدو، التي يمكن للإنسان العادي أن يتحملها، محدودة. وهيهات أن تكون حركة الليبيدو وقابليته للتشكيل كاملتين لدى الأفراد قاطبة؛ وليس يسع الإسماء أن يلغي سوى جزء من الليبيدو، وهذا من دون أن نذكر أن الكثيرين من الناس لا يملكون إلا مقدرة طفيفة للغاية على الإسماء. وفي طليعة هذه التقييدات كما هو ظاهر للعيان ما يتصل منها بحركية الليبيدو، وهذا التقييد من شأنه أن يرهن إشباع الفرد بعدد ضئيل للغاية من المواضيع والأهداف. حسبكم أن تتذكروا أن التطور غير المكتمل لليبيدو ينطوي على تثبيتات ليبيدوية متنوعة شتى على أطوار سالفة من التنظيم وعلى مواضيع سابقة، وهي أطوار ومواضيع ما عادت قادرة في أغلب الأحيان على تأمين إشباع حقيقي. حسبكم أن تتذكروا ذلك لتدركوا أن تثبيت الليبيدو هو العامل الثاني من حيث القوة، بعد الحرمان، لنشوء الأعصبة. وبوسعنا التعبير عن هذه الواقعة بإيجاز بياني بقولنا إن تثبيت الليبيدو يشكِّل، في مبحث أسباب نشوء الأعصبة، العامل الداخلي المهيِّئ للمرض، بينما يؤلِّف الحرمان العامل الخارجي، العارض.

أغتنم هنا الفرصة لأدعوكم إلى الامتناع عن الخوض في غمار مناقشة عديمة الجدوى. فما أشدّ ما يطيب للأوساط العلمية أن تمسك بجزء من الحقيقة، وأن تعلن أن هذا الجزء من الحقيقة هو الحقيقة كلها، وأن تماري بالتالي، لصالح هذا الجزء، في صحة كل الباقي مع أنه بدوره حق. واعتماداً على نهج كهذا انفصلت تيارات عدة عن الحركة التحليلية النفسية، فما اعترف بعضها إلا بالدوافع الغريزية الأنوية وأنكر الدوافع الغريزية الجنسية(٥)، ولم يأخذ بعضها

٤ ـ انظر خاتمة المحاضرة الرابعة والعشرين. «م».

٥ ـ نقدة لمدرسة يونغ. «م».



الآخر بعين الاعتبار سوى التأثير الذي تمارسه الأعباء التي تفرضها الحياة الواقعية وضرب صفحاً عن التأثير الذي يمارسه ماضي الفرد، إلخ[٦]. وبوسعنا بدورنا أن نقيم مقابلة بين كل من التثبيت والحرمان وأن نصطنع مساجلة بتساؤلنا: هل الأعصبة أمراض **خارجية المنشأ** أو **داخلية المنشأ**، وهل هي نتيجة محتومة لجبلّة معينة أم هي نتاج بعض أفعال ضارة (رضِّيَّة)؟ وهل تنجم، على الأخص، عن تثبيت الليبيدو (وباقي الجبِلَّة الجنسية)، أم عن الضغط الذي يحدثه الحرمان؟ وأنا أرى، في محصلة الحساب، أن هذا الإشكال يعادل في سقمه وعدم جدواه ذلك الإشكال الآخر الذي أستطيع، فيما لو شئت، أن أطرحه عليكم: هل يولد الطفل لأن الأب أنجبه أم لأن الأم حملت به؟ ستقولون لي: إن الشرطين كليهما لازمان، ولن تكونوا إلا مصيبين. وإن لم تكن الحال في مبحث أسباب نشوء الأعصبة مماثلة، فهي على الأقل مشابهة. فالأمراض العصابية يمكن أن تصنّف، من وجهة نظر مبحث الأسباب، في سلسلة يتحكم بحدَّيها عاملان: الجبِلَّة الجنسية والمؤثرات الخارجية، أو إذا شئتم تثبيت الليبيدو والحرمان، فمتى زادت حصة أحد العاملين نقصت حصة العامل الآخر. وتقع في أحد طرفي هذه السلسلة الحالات القصوى التي يمكنكم أن تقولوا عنها بيقين: إن هؤلاء الأفراد، بالنظر إلى التطور اللاسويّ لليبيدو عندهم، ما كان لهم إلا أن يسقطوا مرضى، مهما يكن مجرى الأحداث الخارجية في حياتهم، وحتى لو برئت هذه الحياة إلى أقصى حدّ ممكن من الخطوب. وفي الطرف الآخر تقع الحالات التي بوسعكم أن تقولوا عنها، على العكس من ذلك، إن هؤلاء المرضى كانوا سينجون بكل تأكيد من الوقوع في قبضة العصاب لو لم يرزحوا تحت عبء هذا الموقف أو ذاك. أما في الحالات المتوسطة فتقوم تركيبات مختلطة: فإن لم تكن حصة الجبِلَّة المهيِّئة للمرض كبيرة فيها ضؤلت بالمقابل حصة المؤثِّرات الضارة التي يتعرض لها الفرد في مجرى حياته، والعكس بالعكس. وفي هذه الحالة الأخيرة، ما كان للجبِلَّة الجنسية أن تسلم الفرد إلى العصاب لولا تدخل المؤثرات الضارة، وما كان ليعقب هذه المؤثرات مفعول رضِّي لو اختلفت شروط الليبيدو. وبوسعي، عند

٦ ـ نقدة لمدرسةآدلر. «م».



الاقتضاء، أن أسلّم ببعض الغلبة في هذه السلسلة للدور الذي تلعبه العوامل المهيِّئة، غير أن تسليمي هذا مرتهن بالحدود التي ترسمونها للحالة العصبية.

سادتي، أقترح عليكم أن نسمِّي مثل هذه السلاسل **بالسلاسل المتتامة، وأخطركم مسبقاً أنه ستتسنى لنا فرصة لبناء سلاسل أخرى مماثلة.**

إن إصرار الليبيدو على سلوك اتجاهات معينة والتشبث بمواضيع معينة، أو **لزوجة** الليبيدو إن جاز القول، تبدو لنا عاملاً مستقلاً بذاته، يختلف من فرد إلى آخر، ونجهل بأسبابه جهلاً مطبقاً. وإذا كان يتعيَّن علينا ألا نستخفّ بدوره في نشوء الأعصبة، فعلينا بالمقابل ألا نبالغ في مدى وثوق صلته بأسباب نشوء هذه الأمراض. فمثل هذه «اللزوجة» الليبيدوية، المجهولة العلة بدورها، نلحظها أيضاً لدى الإنسان السوي في ظروف شتى، كما نلحظها بصفتها عاملاً حاسماً لدى الأشخاص الذين يشكلون، بمعنى ما، فصيلة مناقضة لفصيلة العصبيين: أي لدى المنحرفين. وقد كان معروفاً قبل التحليل النفسي (بينه BINET[٧]) أنه من الممكن في أحوال كثيرة أن تكشف حياة المنحرفين الماضية عن انطباع قديم جداً، خلَّفه توجُّه شاذّ للدافع الغريزي أو اختيار شاذّ للموضوع، ولبث ليبيدو الفرد المنحرف متعلِّقاً به بعد ذلك طوال حياته. ومن المتعذر في كثرة من الأحيان أن نحدد المصدر الذي يستمدّ منه هذا الانطباع قدرته على ممارسة مثل هذا الجذب الذي لا يقاوم على الليبيدو. وسأسرد عليكم تفاصيل حالة عاينتها بنفسي. إنها حالة رجل فقد اليوم اهتمامه بأعضاء المرأة التناسلية وبسائر محاسنها ومفاتنها، لكنه يشعر بالمقابل باهتياج جنسي لا يقاوم إذا ما وقع نظره على قدم تنتعل حذاء على شكل معيَّن؛ وهو يذكر حادثة وقعت له حين كان في السادسة من العمر، فلعبت دوراً حاسماً في تثبيت الليبيدو عنده. فقد كان يجلس على مقعد قرب مربيته التي كان عليها أن تعطيه درساً في الإنكليزية. وكانت المربية فتاة ضامرة، قبيحة، عيناها زرقاوان بلون الماء وأنفها أقنى، وكانت تشكو في ذلك اليوم من

---

٧ ـ ألفريد بينه: عالم فرنسي (١٨٥٧ ـ ١٩٢١). درَّس علم النفس الفيزيوبوجي وعلم النفس التجريبي، وله دور ريادي في اختراع روائز الذكاء. من أشهر مؤلفاته: **علم نفس التفكير و مدخل إلى علم النفس التجريبي**. «م».



وجع في قدميها، فانتعلت خفّاً من المخمل، ومدت قدمها على وسادة. بيد أن ساقها كانت مستورة باحتشام تام. فلما بلغ فتانا صار موضوعه الجنسي الوحيد، بعد محاولة وجلة لنشاط جنسي سوي، قدماً هزيلة، بادية الأوتار، كقدم المربِّية، وكان يشعر بانجذاب لا يقاوم إذا ما انضافت إلى هذه القدم ملامح أخرى تذكّره بشكل المربية الإنكليزية. ولم يجعل تثبيت الليبيدو هذا من رجلنا معصوباً، بل تميمياً مولهاً بالقدم. وكما ترون، إذا كان التثبيت المشتط ـ والمبكر بالإضافة إلى ذلك ـ لليبيدو يشكّل عاملاً لا غنى عنه في نشوء العصاب، فإن تأثيره يتجاوز نطاق الأعصبة مع ذلك. ومن ثم، إن التثبيت ليس في ذاته شرطاً حاسماً، شأنه في ذلك شأن الحرمان الذي تقدَّم الكلام عنه.

هكذا تبدو مشكلة تعيين علل الأعصبة وكأنها تتعقد. وفي الواقع، يكشف لنا البحث التحليلي النفسي عن عامل آخر لم يظهر في السلسلة التي وضعناها لأسباب نشوء الأعصبة، وهو عامل يتجلى بملء الوضوح عند المعافين من الأشخاص الذين يقعون على نحو مفاجئ صرعى المرض العصابي. فنحن نجد عند هؤلاء الأشخاص بصورة مطردة مؤشرات على وجود صراع لديهم بين حاثات رغبية، أو صراع نفسي كما اعتدنا أن نقول. فشطر من الشخصية يمثِّل رغبات معينة، وشطر آخر منها يعترض على هذه الرغبات ويرفضها. وبدون صراع من هذا النوع، لا يكون ثمة وجود لعصاب. وليس في ذلك أصلاً ما يبعث على الاستغراب. فأنتم تعلمون أن حياتنا النفسية عرضة دائماً لصراعات يقع على عاتقنا أن نجد لها حلاً. وحتى يصبح مثل هذا الصراع إمراضياً، لا بدّ إذاً أن تتوفر في الأرجح شروط خاصة. وبوسعنا أن نتساءل: ما هذه الشروط، وما القوة النفسية التي تدور بينها تلك الصراعات الممرضة، وما العلاقة التي يعقدها الصراع مع العوامل المسبِّبة الأخرى؟

آمل أن أتمكن من أن أجد لهذه الأسئلة أجوبة مقنعة، وإن تكن مختصرة وخُطاطية. فالصراع ينشأ عن الحرمان، إذ يضطر الليبيدو المضنون عليه بالإشباع السوي إلى البحث عن مواضيع وسبل أخرى. ومن شروط هذا الصراع أن تقابل هذه السبل والمواضيع الأخرى بالاستهجان والاستنكار من قبل شطر بعينه من



الشخصية: فينتج عن ذلك نوع من الفيتو يجعل في أول الأمر النمط الجديد في الإشباع مستحيلاً. وابتداء من هذه اللحظة يسلك تكوّن الأعراض طريقاً سنتأثّره فيما بعد. وعندئذ تسعى الميول الليبيدوية المصدودة إلى التظاهر والتعبير عن نفسها بطرق ملتوية، ولكن من دون أن تقلع عن محاولة تبرير مطالبها باعتماد أشكال محوَّرة ومخفَّفة. هذه الطرق الملتوية هي طرق تكوّن الأعراض: فهذه الأخيرة تمثِّل الإشباع الجديد أو البديل الذي فرض ضرورته الحرمان.

ونستطيع أيضاً أن نبرز أهمية الصراع النفسي بقولنا: «كيما يتحول الحرمان **الخارجي** إلى حرمان ممرِض، فلا بدّ أن يقترن بحرمان **داخلي**». وغني عن البيان أن الحرمان الخارجي والحرمان الداخلي يطالان مواضيع متباينة ويسلكان طرقاً مختلفة. فالحرمان الخارجي يستبعد إمكانية بعينها للإشباع، والحرمان الداخلي يحبِّذ أن يقصي إمكانية أخرى، وإنما بصدد هذه الإمكانية الأخيرة ينشب عندئذ الصراع. ولقد آثرتُ هذه الطريقة في العرض لما تنطوي عليه من مضمون مضمر. وبالفعل، إنها توحي باحتمال أن تكون الموانع الداخلية قد نشأت في الأزمنة البدائية من التطور البشري عن عقبات خارجية فعلية.

لكن ما القوى التي يصدر عنها الاعتراض على النزوع الليبيدوي، وما الطرف الآخر في الصراع الممرِض؟ إنها، إذا شئنا تعبيراً بالغ العمومية، القوى الغريزية غير الجنسية. ونحن نعيد تجميعها تحت اسم «الدوافع الغريزية الأنوية»؛ والحال أن التحليل النفسي للأعصبة التحويلية لا يقدم لنا أية وسيلة مفيدة لنخضعها لمزيد من التفكيك، وأقصى ما في استطاعتنا في هذه الحال أن نتعرّفها إلى حدّ ما من خلال المقاومات التي تعترض سبيل التحليل. إن الصراع الممرِض هو إذاً صراع بين الدوافع الغريزية الأنوية والدوافع الغريزية الجنسية. وفي سلسلة بكاملها من الحالات يساورنا انطباع بأن هذا الصراع قد يكون أيضاً صراعاً بين نوازع جنسية خالصة شتى؛ غير أن الأمر واحد في واقع الحال، إذ إن أحد الدافعين الجنسيين المتصارعين هو على الدوام موافق، إن جاز القول، للأنا، بينما يستثير الثاني الدفاع من جانب الأنا. وهذا ما يرجع بنا إلى الصراع بين الأنا والجنسية.

سادتي، لقد كان التحليل النفسي كلما نظر إلى حدث نفسي بعينه على أنه



نتاج للدوافع الغريزية الجنسية يقابَل باعتراض غاضب مؤداه أن الإنسان لا يتألف من جنسية فقط، وأن الحياة النفسية تنطوي على دوافع غريزية واهتمامات أخرى غير الدوافع والاهتمامات ذات الطبيعة الجنسية، وأنه لا يجوز بحال من الأحوال اشتقاق «كل شيء» من الجنسية، إلخ. والحق أني لا أعرف شيئاً أدعى إلى الغبطة من أن يجد المرء نفسه على وفاق مع خصومه ولو لمرة واحدة يتيمة. فالتحليل النفسي لم ينسَ قط أنه توجد قوى غريزية غير جنسية، بل شاد صرحه كله على مبدأ الانفصال الواضح والحاسم بين الدوافع الغريزية الجنسية و الدوافع الغريزية الأنوية، ولم ينتظر اعتراضات المعترضين ليؤكد أن الأعصبة نتاج لا للجنسية، بل للصراع بين الأنا والجنسية. وليس لديه أي سبب معقول للمماراة في وجود الدوافع الغريزية الأنوية أو أهميتها في سياق مسعاه إلى تحديد دور الدوافع الغريزية الجنسية في المرض وفي الحياة. ولئن وجد نفسه مدفوعاً إلى أن يخصّ الدوافع الغريزية الجنسية باهتمامه الأول، فذلك لأن الأعصبة التحويلية كشفت عن هذه الدوافع بجلاء لا مستزاد عليه، وأتاحت للتحليل النفسي بالتالي أن يدرس ميداناً غفل عنه الآخرون وأهملوه.

كذلك ليس من الحق أن يقال إن التحليل النفسي لا يهتم بالجانب غير الجنسي من الشخصية. فالفصل بين الأنا والجنسية هو بعينه الذي أماط اللثام بأجلى ما يكون عن أن الدوافع الغريزية الأنوية تمرّ هي الأخرى بتطور هام، وأن هذا التطور ليس مستقلاً كل الاستقلال عن الليبيدو وليس خلواً من كل ردّ فعل عليه. والحق أنه لا مناص لنا من القول إن معرفتنا بتطور الأنا أوهى بكثير من معرفتنا بتطور الليبيدو، وعلّة ذلك تكمن في أننا لا نستطيع أن نأمل في النفاذ إلى بنية الأنا إلا بعد دراستنا الأعصبة النرجسية. ومع ذلك، فقد بُذلتْ في هذا السبيل محاولة مثيرة فعلاً للاهتمام، نقصد بها محاولة فيرنزي FERENCZI[٨]

٨ ـ ساندور فيرنزي: محلل نفسي مجري (١٨٧٣ ـ ١٩٢٣). كان من أوفى تلاميذ فرويد، وقد قال عنه هذا الأخير: «إنه يعدل وحده جمعية بأسرها». لكن فيرنزي أعرب ابتداء من ١٩٢٠ عن بعض الشك في النجع العلاجي للتقنية التحليلية النفسية. من أهم مؤلفاته: **الرضة، الطفل الراشد، حول الأعصبة الحربية، طالاسا: التحليل النفسي لأصول الحياة الجنسية**. والإحالة هنا إلى مقاله **مراحل تطور حسّ الواقع** المنشور في **المجلة الدولية للتحليل النفسي**، العدد١، ١٩١٣«م».



الذي سعى إلى أن يحدد نظرياً مراحل تطور الأنا. وتتوفر لدينا اليوم نقطتا ارتكاز مكينتان، على الأقل، للحكم على هذا التطور. فليست الاهتمامات الليبيدوية لدى شخص من الأشخاص متعارضة من البداية، وبالضرورة، مع اهتمامه بحفظ ذاته وصونها، بل نستطيع القول بالأحرى إن الأنا يسعى، في كل مرحلة من مراحل تطوره، إلى أن ينسجم مع تنظيمه الجنسي وأن يتكيَّف معه. وتعاقب مختلف مراحل تطور الليبيدو يتمّ في أرجح الظن وفق برنامج مرسوم من قبل؛ غير أنه لا مجال للمماراة في أن هذا التعاقب يمكن أن يخضع لتأثير الأنا، كما لا مجال للشك في وجود نوع من التوازي والتوافق بين مراحل تطور الأنا ومراحل تطور الليبيدو، وفي أن اختلال هذا التوافق يمكن أن ينشأ عنه عامل إمراضي. وثمة نقطة لها أهميتها الكبرى بالنسبة إلينا، وهي أن نعرف كيف يتصرف الأنا في الحالات التي يكون فيها الليبيدو قد تثبَّت على طور محدَّد من تطوره. فقد يتكيَّف الأنا مع هذا التثبيت، وفي هذه الحال يغدو منحرفاً أو ـ والأمر سيان ـ طفلياً، وذلك بدرجة تناظر مقدار التثبيت. لكنه قد يثور أيضاً على هذا التثبيت لليبيدو، وعندئذ يعاني الأنا **كبتاً** حيثما عانى الليبيدو **تثبيتاً**.

بمضيِّنا في هذا السبيل نعلم أن العامل الثالث في مبحث أسباب الأعصبة، وأعني به **الجنوح إلى الصراع**، يرتهن بتطور الأنا وبتطور الليبيدو على حدّ سواء. وبذلك يكتمل نصاب أفكارنا حول تعليل نشوء الأعصبة. فلدينا أولاً الشرط الأعمّ، ويتمثل بالحرمان، ثم يليه تثبيت الليبيدو الذي يدفع بهذا الليبيدو في اتجاهات محددة، ويتدخل ثالثاً الجنوح إلى الصراع الناجم عن تطور الأنا الذي يكون قد أشاح عن ميول الليبيدو تلك. إذاً فالموقف ليس على تلك الدرجة من التعقيد ولا على ذلك القدر من صعوبة الفهم على ما قد يكون تبدى لكم وأنا أعرض عليكم استنتاجاتي. غير أننا، في الحق، لم نقل كل شيء عن هذه المسألة. فلا يزال علينا أن نضيف إلى ما ذكرناه شيئاً جديداً، كما لا يزال علينا أن نخضع لتحليل أكثر تعمقاً أشياء تقدمت بنا معرفتها.

كيما أبيِّن لكم أثر تطور الأنا في نشوب الصراع، وبالتالي في تسبيب الأعصبة، سأضرب لكم مثالاً غير بعيد الاحتمال على الإطلاق وإن يكن خيالياً.



لقد استوحيت هذا المثال من عنوان تمثيلية نستروي NESTROY[٩] الهازلة: **في الطابق الأرضي وفي الطابق الأول**. ففي الطابق الأرضي يسكن البواب، وفي الطابق الأول يقيم مالك البيت، وهو رجل غني وذو اعتبار. ولكل منهما أولاد، وإننا لنفترض أن ابنة المالك الصغيرة تتهيأ لها كل الفرص لتلعب، بعيداً عن عين الرقيب، مع طفلة الرجل الفقير. وقد يحدث أن يتخذ لعب الطفلتين طابعاً «لامحتشماً»، أي جنسياً، فتلعبان لعبة «البابا والماما»، وقد تحاول كل منهما أن تسترق النظر إلى الأجزاء الحميمية من جسم الأخرى وأن تهيِّج أعضاءها التناسلية. ولعل ابنة البواب، التي أتيحت لها، رغم أنها لا تتجاوز الخامسة أو السادسة من العمر، فرص لمشاهدة بعض مظاهر الحياة الجنسية لدى الراشدين، هي التي ستلعب دور المغوية. وهذه «الألعاب»، حتى وإن لم تدم طويلاً، تكفي لتنشيط بعض الحاثات الجنسية لدى الفتاتين، وهذه الحاثات تفصح عن نفسها، بعد الإمساك عن تلك الألعاب، في فعل الاستمناء على مدى بضع سنوات. هذا ما يكون مشتركاً بين الطفلتين، غير أن النتيجة النهائية تختلف بينهما اختلافاً بيِّناً. فابنة البواب ستمارس الاستمناء إلى حين ظهور الطمث تقريباً، ثم ستمتنع عنه بلا جهد، وستتخذ لها بعد بضع سنوات عشيقاً، وقد تنجب طفلاً وتمتهن مهنة ما، وربما غدت فنانة مشهورة واحتلت مكانها في نهاية المطاف في مصاف الأرستقراطيين. ومن المحتمل أن يكون مصيرها أقل سطوعاً، لكنها ستحيا على كل حال بقية حياتها من دون أن تتأذى من ممارستها المبكرة لجنسيتها، وستكون بمنجى من العصاب. وغير هذا المصير سيكون مصير ابنة المالك. ذلك أنها ستشعر من وقت مبكر، وهي بعد طفلة، بشعور من أتى أمراً إدًّاً، وستقلع بلا تأخير، لكن بعد صراع رهيب، عن الإشباع الاستمنائي، وإن كانت ستحتفظ منه بذكرى وانطباع موهنين، قابضين للنفس. فإذا ما شبّت عن الطوق وصارت فتاة وتعيّن عليها أن تطَّلع على الحقائق المتصلة بالعلاقات الجنسية، أشاحت عنها بنفور لا تفسير له وآثرت أن تبقى على جهلها. ومن المحتمل أن تتعرض عندئذ من

---

٩ ـ يوهان نستروي: ممثل وكاتب مسرحي نمساوي (١٨٠١ ـ ١٨٦١). عرف نجاحاً كبيراً في عصره، وكتب أكثر من ثمانين مسرحية جمع فيها بين الهجاء والنقد الاجتماعي. «م».



جديد لضغط لا يقاوم لممارسة الاستمناء، من دون أن تجرؤ على مكاشفة أحد بالأمر. حتى إذا ما أدركت السنّ التي تبدأ فيها الفتيات بمداعبة أحلام الزواج، وقعت فريسة العصاب، وساورتها إزاء الزواج خيبة مريرة، ورأت إلى الحياة بنظارات سود قاتمة. فإذا ما وُفِّقنا عن طريق التحليل إلى تفكيك هذا العصاب إلى عناصره، وجدنا أن تلك الفتاة المهذبة، الذكية، المثالية، قد كبتت نوازعها الجنسية كبتاً تاماً، وأن هذه النوازع، التي لا تعيها على الإطلاق، ترتبط بالألعاب البائسة التي كانت لعبتها مع صديقة طفولتها.

إن الاختلاف بين هذين المصيرين، بالرغم من تماثل الخبرات الأولى، مردّه إلى أن أنا إحدى بطلتينا قُدِّر له أن يمرّ بتطور لم تعرف نظيره الأخرى. فالنشاط الجنسي تبدّى لابنة البواب في زمن لاحق في صورة طبيعية، بريئة من الظنون والأفكار المبطَّنة، على مثل ما كان عليه في طفولتها. أما ابنة المالك فقد تعرضت لتأثير التربية ومطالبها. ومع الإيحاءات التي تلقتها من تربيتها، كوّنت عن طهارة المرأة وعفّتها مثلاً أعلى لا يتفق والنشاط الجنسي؛ وقد أوهنت تربيتها العقلية من اهتمامها بالدور الذي كان مفترضاً بها أن تؤديه كامرأة. وإنما بنتيجة هذا التطور الأخلاقي والعقلي الأعلى من تطور صديقتها دخلت في صراع مع مقتضيات جنسيتها.

أودّ الإلحاح بعد على نقطة أخرى تتصل بتطور الأنا، وذلك لما تفتحه أمامنا من آفاق فسيحة، وكذلك لأن النتائج التي سنستخلصها في هذا الصدد سيكون من شأنها أن تبرِّر التمييز الذي أقمناه بين الدوافع الغريزية الأنوية والدوافع الغريزية الجنسية، وهو تمييز فاصل وإن كان لا يثب إلى العين وثباً. وحتى نصدر حكماً على هذين التطورين، يتعيَّن علينا أن نسلِّم بمقدمة لم نولِها حتى الآن ما هي خليقة به من الاهتمام والاعتبار. فكل من التطورين، تطور الليبيدو وتطور الأنا، لا يعدو في الواقع أن يكون ميراثاً، تكراراً مختصراً للتطور الذي مرت به البشرية قاطبة منذ بداية تاريخها وعلى امتداد أحقاب طويلة. وفيما يتصل بتطور الليبيدو، نرانا نعترف له بيسر وعن طواعية بهذا الأصل السلالي PHYLOGÉNIQUE. حسبكم أن تتذكروا أن الجهاز التناسلي لدى بعض الحيوانات يتصل اتصالاً وثيقاً



بالفم، بينما يتعذر تمييزه عن جهاز الإخراج لدى بعضها الآخر، أو يرتبط لدى بعضها الثالث بأعضاء الحركة، إلى غير ذلك من الوقائع التي تجدون عرضاً مشوِّقاً لها في كتاب ف. بولشه BOLSCHE الثمين[١٠]. وهكذا نلاحظ لدى الحيوانات كل صنوف الانحراف والتنظيم الجنسي في حالة متحجِّرة إن صحّ التعبير. والحال أن الجانب السلالي لدى الإنسان يحجبه عن النظر كون الخصائص، الموروثة أصلاً، يعاد اكتسابها من قبل الفرد من جديد في مجرى تطوره، وربما كان السبب في ذلك أن الشروط التي أوجبت فيما غبر اكتساب خصيصة بعينها لا تزال قائمة ولا تزال تمارس تأثيرها على جميع الأفراد الذين يعقب بعضهم بعضاً. بل يسعني القول إن هذه الشروط بعد أن كانت خلاقة في الماضي أضحت اليوم ماضوية المنزع. ثم إنه مما لا يمارى فيه أن مسيرة التطور المسبق التعيين يمكن أن تضطرب أو أن تتعدَّل لدى كل فرد بفعل مؤثرات خارجية حديثة العهد. أما القوة التي فرضت على البشرية هذا التطور، والتي لا تزال تفعل فعلها في الاتجاه عينه، فهي معروفة لدينا جميعاً: إنها هي هي الحرمان الذي يفرضه الواقع، أو إذا شئتم أن نسمِّيها باسمها الحقيقي الكبير قلنا إنها **الضرورة** التي تفرضها الحياة: **الأنانكيه**[١١]. والعصابيون هم أولئك الناس الذين كان لهذه الضرورة عواقب وخيمة عليهم؛ غير أن كل إنسان عرضة لهذا الخطر عينه أياً تكن التربية التي تلقاها. ونحن إذ نقول إن الضرورة الحيوية هي محرك التطور، فإننا لا ننتقص البتة من أهمية «الميول التطورية المباطنة»، حينما يثبت وجود هذه الميول.

والحال أنه يخلق بنا أن نشير إلى أن الدوافع الغريزية الجنسية والدوافع الغريزية التي تهدف إلى صون البقاء لا تسلك مسلكاً واحداً إزاء الضرورة الواقعية. فهذه الدوافع الأخيرة وكل ما يتصل بها أكثر امتثالاً للتربية: فهي تتعلم منذ وقت مبكر

١٠ ـ فلهلم بولشه: مؤلف وناشر ألماني (١٨٦١ ـ ١٩٣٩). كان من أتباع المدرسة الطبيعية. تحمس للداروينية وللنزعة الحتمية وللمذهب الوضعي. ورغم افتقاره إلى العمق العلمي كان لكتاباته تأثير كبير على أهل عصره. أما الكتاب الذي يشيد به فرويد فهو **الحياة الحبّية في الطبيعة**. «م».

١١ ـ الأنانكيه: باليونانية في النص، وهي في الميتولوجيا الإغريقية تشخيص القدر. وهنا بمعنى الضرورة ومبدأ الواقع بالمقابلة مع الإيروس، أي مبدأ اللذة. «م».



كيف ترضخ للضرورة وكيف تكيِّف تطورها مع مقتضيات الواقع. وهذا أمر مفهوم، على اعتبار أنها لا تستطيع بطريقة أخرى أن تظفر بالمواضيع التي تحتاج إليها والتي بدونها يتعرض الفرد للهلاك. أما الدوافع الغريزية الجنسية، التي لا تحتاج إلى موضوع في بادئ الأمر وتجهل هذه الحاجة، فأعصى على التربية. فوجودها وجود طفيلي إن صحّ التعبير، ومرتبط بأعضاء الجسم الأخرى، وهي قادرة على تأمين إشباع ذاتي لها من دون أن تتجاوز جسم الفرد المعني، ولذا فإنها تفلت من التأثير التربوي للضرورة الواقعية، وتحتفظ لدى أغلب الناس، ومن بعض النواحي، بهذا الطابع العسفي، النزوي، الجامح، «الأخرق» مدى الحياة. أضف إلى ذلك أن الشخص اليافع لا يعود يتأثر بالتربية متى ما بلغت حاجاته الجنسية الدرجة النهائية من قوتها. والمربون يعرفون ذلك ويتصرفون وفق هذه الحقيقة؛ فعساهم يدعون نتائج التحليل النفسي تقنعهم، فيعترفوا بأن التربية التي يتلقاها المرء في طفولته الأولى هي التي تترك فيه أعمق الأثر. ذلك أن الكائن البشري ينتهي تكوينه بتمامه منذ السنة الرابعة أو الخامسة، ثم لا يلبث في زمن لاحق أن يظهر للعيان ما بات متهيئاً له منذ تلك السن.

وتوضيحاً لكامل دلالة الفارق الذي أقمناه بين هاتين المجموعتين من الدوافع الغريزية، نرانا مضطرين إلى أن نطيل الاستطراد وإلى أن ندخل في حسابنا واحداً من الاعتبارات الجديرة بأن توصف بأنها **اقتصادية**. هنا نطرق ميداناً هو من أهم ميادين التحليل النفسي، ولكنه، ويا للأسف، من أكثرها غموضاً. وعلى هذا الأساس نتساءل عما إذا كان لعمل جهازنا النفسي غرض رئيسي لصيق به، ونجيب عن هذا السؤال بمقاربة أولى فنقول إن نشاطنا النفسي له بأسره، في ما تشير الدلائل، هدف محدد، وهو توفير اللذة لنا وتجنيبنا الألم، وإنه محكوم آلياً **بمبدأ اللذة**. والحال أننا لا نتوق إلى شيء كتوقنا إلى معرفة شروط اللذة والألم، لكن عناصر هذه المعرفة هي بالضبط التي ليست متاحة لنا. والشيء الوحيد الذي نملك أن نؤكده هو أن اللذة ترتبط بتناقص التنبيهات المتراكمة في الجهاز النفسي أو بتخفيفها أو بزوالها أو بانطفائها، بينما يرتبط الألم بتزايد هذه التنبيهات أو باشتدادها. وتمحيص أكثف أنواع اللذة المتاحة للإنسان، أي اللذة التي يظفر بها



أثناء أداء الفعل الجنسي، يقطع دابر كل شك حول هذه النقطة. وبما أن هذه الأفعال المقترنة باللذة تتصرف بكميات هائلة من التنبيه أو الطاقة النفسية، فإننا نصف الاعتبارات التي تتصل بها بأنها **اقتصادية**. وننوه هنا أن المهمة التي تقع على عاتق الجهاز النفسي والنشاط الذي يؤديه يمكن أن يوصفا بطريقة أخرى وعلى نحو أعمّ من محض الإلحاح على الظفر باللذة. فمن الممكن القول إن الجهاز النفسي يُستخدم بهدف ضبط الإثارات والتهيُّجات التي تأتيه من الخارج أو من الداخل والسيطرة عليها وتصفيتها. ومن الواضح، فيما يتصل بالدوافع الغريزية الجنسية، أنها من بداية تطورها إلى نهايته وسيلة للظفر باللذة الجنسية، وأنها تؤدي هذه الوظيفة بغير ما وهن. وذلكم هو أيضاً، في البداية، هدف الدوافع الغريزية الأنوية. لكن تحت ضغط تلك المربِّية الكبرى التي هي الضرورة، لا تعتم الدوافع الغريزية الأنوية أن تستبدل مبدأ اللذة ببديل محوَّر عنه، فتفرض مهمة تفادي الألم نفسها عليها بإلحاح يعادل إلحاح مهمة التماس اللذة، ويتعلم الأنا من ثم أنه لا معدى له عن الاستنكاف عن الإشباع المباشر، وعن إرجاء طلب اللذة، وعن تحمل بعض المشاقّ، وعن العزوف بوجه عام عن بعض مصادر اللذة. فإذا ما تربى الأنا على هذا النحو صار «عاقلاً»، فلا يعود يأتمر بمبدأ اللذة، بل يصدع بأمر **مبدأ الواقع** الذي يرمي هو الآخر، في باطن الأمر، إلى اجتناء اللذة، لكنها لذة مرجأة ومخففة، وفي الوقت نفسه مضمونة بحكم الاتصال بالواقع والامتثال لمطالبه.

إن الانتقال من مبدأ اللذة إلى مبدأ الواقع يشكِّل مظهراً من أهم مظاهر التقدم في تطور الأنا. وقد علمنا من قبل أن الدوافع الغريزية الجنسية لا تجتاز إلا بعد طول تأخير، وكما لو بالإكراه والغصب، هذه المرحلة من تطور الأنا. وسوف نرى فيما بعد العواقب التي تترتب بالنسبة إلى الإنسان على رخاوة الوشائج بين جنسيته وبين الواقع الخارجي. فإن كان أنا الإنسان يمرّ بتطور، وله تاريخ، مثله مثل الليبيدو تماماً، فلن يدهشكم أن تعلموا أنه من الممكن أن يكون هناك أيضاً «نكوص أنوي»، وربما ثار فضولكم لمعرفة الدور الذي يمكن أن يلعبه في الأمراض العصابية ارتداد الأنا هذا إلى مراحل سابقة من تطوره.



المحاضرة الثالثة والعشرون

طُرُق تكوُّن العرَض

سيداتي سادتي، الأعراض في نظر غير أهل الاختصاص هي جوهر المرض، وبزوالها يكون الشفاء منه. أما الطبيب فيسعى على العكس إلى التمييز بين الأعراض والمرض، وبزعم أن زوال الأعراض لا يعني البرء من المرض. إذ إن ما يبقى من المرض بعد زوال الأعراض هو الاقتدار على تكوين أعراض جديدة. وعليه، سنأخذ مؤقتاً بوجهة نظر العامة، فنسلِّم بأن استكشاف الأعراض وسبر غورها يعدلان فهم المرض.

إن الأعراض ـ ونحن لا نتكلم بطبيعة الحال هنا إلا عن الأعراض النفسية (أو النفسية المنشأ) وعن الحالة المرضية النفسية ـ هي، بالإحالة إلى حياة الفرد في مجملها، أفعال ضارة أو على الأقل غير مجدية، أفعال يؤديها هذا الفرد كارهاً وتقترن بشعور ممضّ أو موجع. ويكمن ضررها الأول في المجهود النفسي الذي يستلزمه تظاهرها، وفي المجهود النفسي الذي يحتاج إليه الفرد ليقاومها. وقد يؤدي هذان المجهودان، إذا ما كانت الأعراض المتكونة مشتطّة، إلى تناقص شديد في الطاقة النفسية المتاحة، حتى ليغدو الشخص المعني عاجزاً عن التصدي لمهام الحياة ذات الشأن والأهمية. وبما أن هذه النتيجة تعبِّر بوجه خاص عن كمية الطاقة المصروفة، فليس يشقّ عليكم أن تدركوا أن تصورنا للمرض تصور عملي في المقام الأول. لكنكم لو أخذتم، مع ذلك، بوجهة نظر نظرية، وضربتم صفحاً عن تلك الكميات، لأمكنكم القول، بلا خوف الخطأ، إننا جميعاً مرضى، أي معصوبون، على اعتبار أن الشروط التي تتحكم بتكوين الأعراض تتواجد أيضاً لدى الإنسان السوي.

أما فيما يتصل بالأعراض العصابية، فقد رأينا من قبل أنها نتيجة صراع ينشب



بصدد نمط جديد للإشباع الليبيدوي. فالقوتان اللتان كانتا قد انفصلتا تجتمعان من جديد في العرض، وتتصالحان إن صحّ التعبير وتتراضيان على حلٍّ وسط هو بالتحديد تكوّن الأعراض. وذلك ما يفسر قدرة العرض على المقاومة: فهو معضّد من الجانبين كليهما. ونحن نعلم كذلك أن أحد طرفي الصراع يمثل الليبيدو غير المشبع، الذي نحّاه الواقع وأرغمه على التماس أنماط جديدة للإشباع. وإذا ما أصرّ الواقع على تشدُّده وتصلّبه، أرغم الليبيدو، وحتى لو أظهر هذا استعداده للأخذ بموضوع آخر بدلاً من الموضوع المضنون به عليه، على سلوك طريق النكوص والبحث عن إشباع له إما في تنظيم من التنظيمات التي تمّ له تجاوزها سابقاً، وإما في موضوع من المواضيع التي كان قد هجرها من قبل. وما يجتذب الليبيدو إلى طريق النكوص هي التثبيتات التي خلَّفها وراءه في تلك الأطوار من تطوره.

والحال أن طريق النكوص يفترق افتراقاً بيّناً عن طريق العصاب. فإن لم تلقَ أشكال النكوص أية مقاومة من الأنا، جرى كل شيء بلا عصاب، وفاز الليبيدو بإشباع واقعي. ولكن عندما لا يقبل الأنا بأشكال النكوص هذه، هذا الأنا الذي يتحكم لا بالوعي والشعور فحسب، بل كذلك بمنافذ التعصيب الحركي، وبالتالي بإمكانية التحقيق الفعلي للنوازع النفسية، فمن المحتم أن ينشب عندئذ صراع. فالليبيدو، عندما يعاود تدفُّقه، يجد الطريق أمامه مسدوداً إن جاز القول، فيتعيَّن عليه أن يحاول إيجاد مخرج يتأتَّى له فيه أن ينفق احتياطيّه من الطاقة وفق مقتضيات مبدأ اللذة. وهكذا يتوجَّب عليه أن ينفصل عن الأنا. ومما يسهِّل عليه مهمته تلك التثبيتات التي خلَّفها على امتداد طريق تطوره والتي كان الأنا يتحاماها في كل مرة بواسطة الكبت. وإذ يحتل الليبيدو في مسيرته النكوصية هذه المواقع المكبوتة، ينعتق من ربقة الأنا وقوانينه، وينفض عنه في الوقت نفسه غبار كل التربية التي تلقاها تحت تأثيره. لقد كان الليبيدو سلس القياد ما دام يطمع في إشباع ما، لكنه يشمس ويجمح تحت الضغط المزدوج للإحباط الخارجي والداخلي، ويستذكر بحسرة نعيم الأيام الغابرة. ذلكم هو طبعه، وهو ثابت لا يتغير في واقع الأمر. أما التمثلات التي يصبّ عليها الليبيدو من الآن فصاعداً طاقته فتنتمي إلى نسق اللاشعور، وتخضع للسيرورات التي تتمّ داخل



هذا النسق، وفي المقام الأول التكثيف والإزاحة والنقل. وهنا يواجهنا موقف مطابق للموقف المميِّز لتشكيل الأحلام. فنحن نعلم أن الحلم بحصر المعنى، أي الحلم الذي تشكَّل في اللاشعور كتحقيق لرغبة خيالية لاشعورية، يصطدم بنشاط ما شعوري. وهذا النشاط يفرض على الحلم اللاشعوري رقابته، فتكون النتيجة حلاً وسطاً يتمثل بتكوين حلم ظاهر. والحال أن ذلك هو أيضاً شأن الليبيدو الذي لا بدّ لموضوعه، القابع في اللاشعور، أن يحسب حساب قوة الأنا القبشعوري. فالمعارضة التي تجابه هذا الموضوع في داخل الأنا تمثل بالنسبة إلى الليبيدو نوعاً من «هجوم مضاد» موجَّه ضد موقعه الجديد وترغمه على اختيار نمط تعبير قابل لأن يصبح نمط تعبير الأنا أيضاً. هكذا يتولد العرض الذي هو نتاج محرَّف مراراً وتكراراً للإشباع اللاشعوري لرغبة ليبيدوية، نتاج ملتبس جرى اختياره ببراعة وله دلالتان متعارضتان كل التعارض. إلا أن بين الحلم والعرض فارقاً بصدد النقطة الأخيرة هذه، إذ إن القصد القبشعوري في الحلم يرمي فقط إلى صون النوم، وإلى سدّ المنفذ إلى الشعور على كل ما من شأنه تعكير صفوه؛ فهو لا يواجه الرغبة اللاشعورية بفيتو جازم باتر، ولا يصيح بها: كلا! العكس هو المطلوب! بل لا بدّ للقصد القبشعوري، عندما يكون له دور في الحلم، من أن يكون أكثر تسامحاً، لأن وضع الإنسان النائم أقل عرضة للخطر، على اعتبار أن حالة النوم تؤلف بحدّ ذاتها حاجزاً يحول دون أي اتصال مع الواقع.

هكذا ترون أنه إذا كان في مستطاع الليبيدو أن يتملص من الشروط التي يخلقها الصراع، فإنما يدين بذلك لوجود التثبيتات. فالليبيدو، إذ يرتدّ إلى التثبيتات، يلغي مفعول الكبت ويظفر بنوع من التصريف أو الإشباع، على أن يراعي شروط التسوية والحل الوسط. وعن طريق لفِّه ودورانه عبر اللاشعور والتثبيتات القديمة يفلح في خاتمة المطاف في الوصول إلى إشباع فعلي وإن يكن محدوداً غاية المحدودية حتى ليكاد يتعذر تعرفه على أنه إشباع حقاً. ولي بصدد هذه النتيجة النهائية ملاحظتان: أولاً، إني ألفت انتباهكم إلى الوشائج الوثيقة التي تقوم هنا بين الليبيدو واللاشعور، ثم بين الشعور والواقع، وهذا على الرغم من أن كل زوج من هذين الزوجين لا يكون مرتبطاً أول الأمر ببعضه بعضاً بأي رابط؛ ثانياً، أودّ أن أنبِّهكم، مؤكداً على



ضرورة عدم تناسي ذلك، إلى أن كل ما ذكرته لكم وكل ما سأقوله لكم لاحقاً يتصل فقط بتكوين الأعراض في العصاب الهستيري.

أين يجد الليبيدو التثبيتات التي يحتاج إليها ليشقّ لنفسه طريقاً عبر ضروب الكبت؟ يجدها في نشاطات الجنسية الطفلية وخبراتها، في ميول الطفولة الجزئية ومواضيعها المهجورة. إذاً، إلى هذا كله يرتدّ الليبيدو. وأهمية هذه الحقبة الطفولية مزدوجة: فالطفل يفصح، من جهة أولى، لأول مرة عن توجهات غريزية يحملها معه إلى العالم في شكل استعدادات فطرية، ويتعرض، من الجهة الثانية، لمؤثرات خارجية وخبرات وأحداث عارضة تنشِّط لديه دوافع غريزية أخرى. وأعتقد أن من حقنا الذي لا جدال فيه أن نأخذ بهذا التقسيم الثنائي. وأما أن الاستعداد الفطري المسبق يتظاهر فهذا ما لا يحتمل أي تحفُّظ نقدي، غير أن التجربة التحليلية ترغمنا صراحة على التسليم بأن بعض الخبرات العارضة المحضة التي تقع في عهد الطفولة قادرة على أن تترك نقاط ارتكاز لتثبيتات الليبيدو. ولست أرى في ذلك أصلاً أية صعوبة نظرية. فالاستعدادات الجبلِّية هي بلا مراء آثار وبقايا خلَّفها لنا أسلافنا الأقدمون، وقد كانت بدورها صفات وطبائع جرى اكتسابها في زمن من الأزمان، إذ بدون اكتساب لا تكون هناك وراثة. فهل من المعقول أنه، مع الجيل الذي نحن بصدد دراسته اليوم حصراً، ينقطع دابر تلك القدرة على اكتساب ما هو قابل للتناقل وراثياً؟ إن الخبرات الحياتية لدى الطفل لا يجوز إسقاطها من الحساب بكليتها، كما يحلو للناس أن يفعلوا ذلك، لصالح الخبرات الحياتية لدى الأسلاف أو لدى الفرد وهو في طور النضج والرشد، بل على العكس من ذلك تماماً: فالوقائع التي تزخر بها حياة الطفولة تستأهل اعتباراً خاصاً، إذ تتمخض عن عواقب يزيد في خطورتها كونها تقع في عهد لا يكون فيه النمو قد اكتمل بعد، وهذا بالتحديد ما يجعل لها أثراً رضِّياً. وقد بيَّنت أبحاث روكس ROUX[1] وغيره حول آلية النمو أن أبسط جرح، ولو كان

١ ـ فلهلم روكس: عالم ألماني مختصّ بعلم الحيوان ومؤسس علم الأجنة التجريبي (١٨٥٠ ـ ١٩٢٤). حاول من خلال تجاربه على بيوض السمك إثبات صحة نظرية داروين عن التطور بتطبيقها على مستوى الخلايا. «م».



وخزة إبرة مثلاً، يصيب الجنين في طور الانقسام الخلوي يمكن أن يتسبَّب في اضطرابات خطيرة للغاية في النمو. ولكن إذا ما أصاب جرح مماثل اليرقانة أو الحيوان المكتمل النضج، لم يترك أي أثر ضارّ.

إن تثبيت الليبيدو هذا لدى الراشد ـ وقد أدخلناه في معادلة مبحث أسباب نشوء الأعصبة بصفته ممثلاً للعامل الجبلِّي ـ يغدو قابلاً الآن للردّ إلى عاملين جديدين: الاستعداد الوراثي المسبق والاستعداد المكتسب في الطفولة الأولى. وأنا أعلم أن الرسم البياني يحظى على الدوام بقبول طالبي العلم. وعلى هذا، سنلخِّص العلاقات بين مختلف العوامل في الرسم البياني التالي:

تشتمل الجبِلَّة الجنسية الوراثية على تشكيلة كبيرة من الاستعدادات المسبقة، تبعاً لارتكاز الاستعداد على هذا الدافع الغريزي الجزئي أو ذاك بوجه الخصوص، منفرداً أو مقترناً بغيره من الدوافع الغريزية الجزئية الأخرى. وتؤلف الجبِلَّة، بالارتباط مع الخبرات الحياتية الطفلية، «سلسلة متتامة» جديدة، مشابهة كل المشابهة للسلسلة التي أكدنا وجودها كنتيجة للارتباط بين الاستعداد وبين الخبرات الحياتية العارضة لدى الراشد . وبوسعنا في هذا الصدد أن نتساءل عما إذا لم يكن ألفت أشكال نكوص الليبيدو للنظر، أعني نكوصه إلى طور سابق من أطوار التنظيم الجنسي، لا يتعيَّن في المقام الأول بالشروط الجبلِّية الوراثية. لكن



حسناً نفعل لو أرجأنا الإجابة عن هذا السؤال إلى أن يغدو في متناولنا طائفة أوفر عدداً من ضروب الإصابات العصابية.

لنتوقف الآن عند هذه النتيجة التي أفضى إليها البحث التحليلي، إذ بيَّن لنا أن ليبيدو المعصوبين مرتبط بخبراتهم الحياتية الجنسية الطفلية. فهو يخلع عليها على هذا النحو ظاهراً من دلالة كبيرة من منظور حياة الفرد المعني ووقوعه في المرض. ولا جدال في أن مثل هذه الدلالة تعود إليها كاملة ما دمنا ننظر إليها من وجهة النظر العلاجية ليس إلا. لكن لو ضربنا صفحاً عن المجهود العلاجي، لأدركنا بسهولة أننا نجازف بالوقوع في شرك سوء الفهم، إذ نكوّن عن الحياة تصوراً أحادي الجانب، لا أساس له يقوم عليه سوى الموقف العصابي وحده. والحق أنه يتعيّن علينا أن نأخذ في اعتبارنا هنا أن دلالة الخبرات الحياتية الطفلية تتناقص بحكم من أن الليبيدو ما ارتدّ إليها نكوصياً إلا بعد أن طُرد من مواقعه اللاحقة. ومن ثمّ نجد في أنفسنا ميلاً إلى الأخذ بالاستنتاج المعاكس لنقول إن الخبرات الحياتية الطفلية ما كان لها، يوم حدثت، أية دلالة، ولم تصبح ذات شأن وأهمية إلا نكوصياً. وتذكروا أننا وقفنا شبيه هذا الموقف في أثناء مناقشتنا عقدة أوديب[٢].

وهذه المرة أيضاً لن يشقّ علينا أن نبرم قرارنا. فالرأي القائل إن التوظيف الليبيدوي، وبالتالي الدلالة الباتولوجية للخبرات الحياتية الطفلية، يجدان ما يعززهما إلى حدّ كبير في نكوص الليبيدو، رأي له ما يبرره بكل تأكيد، لكن من شأنه مع ذلك أن يوردنا موارد الخطأ لو أخذنا به بلا تحفظ. فلا بدّ لاعتبارات أخرى أن تدخل في الحسبان. فالمشاهدة، أولاً، تثبت بصورة لا يرقى إليها الشك أن الخبرات الحياتية الطفلية لها دلالتها الخاصة، وهي تدلل على ذلك منذ نعومة أظفار الفرد. وبالفعل، ثمة أعصبة طفلية أيضاً، والنكوص الزمني لا يلعب في هذه الأعصبة دوراً يذكر أو هو لا يحدث على الإطلاق، إذ يظهر المرض مباشرة في أعقاب حادثة رضّية. ومن شأن دراسة هذه الأعصبة الطفلية أن تعصمنا من أشكال عديدة

٢ ـ انظر خاتمة المحاضرة الحادية والعشرين. «م».



وخطيرة من سوء الفهم لأعصبة الراشدين، تماماً كما أن دراسة الأحلام الطفلية قد هدتنا إلى الطريق الذي يمكن أن يقودنا إلى فهم أحلام الراشدين. والحال أن الأعصبة الطفلية شائعة جداً، بل أكثر شيوعاً بكثير مما نتصور. لكن الناس لا يلتفتون إليها في كثير من الأحيان، ويعدّونها مظاهر للخبث أو لسوء التربية، وكثيراً ما تقمعها السلطات المشرفة على حضانة الأطفال، ولكن من السهل مع ذلك تعرُّفها من خلال آثارها اللاحقة وعن طريق الفحص الارتجاعي. وهي تتجلى في أغلب الأحيان في شكل **هستيريا حصَرية**. ولسوف تعلمون ما المقصود بذلك في مناسبة أخرى. وحين يثور عصاب من الأعصبة في طور لاحق من أطوار الحياة، يكشف لنا التحليل باطراد عن أنه عقبى مباشرة لعصاب طفلي ما تسنى له في حينه أن يتظاهر إلا في شكل مقنَّع وعلى نحو بدائي. غير أن هناك، كما ذكرنا، حالات تستمر فيها هذه العصبية الطفلية بلا انقطاع حتى لتؤول إلى مرض يلازم الفرد طوال حياته. وثمة بعض أمثلة نادرة على أعصبة تأتّى لنا أن نحللها، لدى الأطفال بالذات، في حينها الراهن[٣]. لكن تعيَّن علينا في أغلب الأحوال أن نكتفي بما يتيحه لنا المريض الراشد من فرصة للنفاذ بعدياً إلى عصابه الطفلي، الأمر الذي ما كان يجيز لنا ألا نأخذ في حسباننا تصويبات واحتياطات معيَّنة.

ثانياً، إننا مكرهون على الإقرار بأن نكوص الليبيدو على هذا النحو المطَّرد إلى مرحلة الطفولة ما كان له إلا أن يثير عجبنا واستغرابنا لولا أن هذه المرحلة تنطوي على شيء يمارس على الليبيدو إغراءً وجذباً. والتثبيت، الذي نسلِّم بوجوده في أطوار بعينها من المسار الذي يسلكه التطور، ما كان ليكون له من مضمون لو كنا لا نتصوره على أنه تجميد لمقدار محدَّد من الطاقة الليبيدوية. ويتعيَّن عليَّ أخيراً أن أذكِّركم بأنه تقوم بين الخبرات الحياتية الطفلية وبين خبرات المرحلة التالية من الحياة علاقة تتامّ مماثلة، من حيث الشدة والدور الإمراضي، للعلاقة التي تحقَّقنا من وجودها في السلاسل التي تقدمت بنا دراستها. وثمة حالات يتألف فيها العامل الأوحد المسبِّب للمرض من الخبرات الجنسية المعاشة في طور الطفولة،

٣ ـ الإحالة هنا إلى حالة «هانز الصغير» (١٩٠٥) الذي تسنى لفرويد أن يتتبع تمخُّض عصابه مباشرة يوماً بعد يوم. «م».



وهي خبرات ذات أصل رضّي بكل تأكيد وآثارها لا تتطلب، كيما تفصح عن نفسها، من شروط أخرى غير تلك الشروط التي تقدمها الجِبِلَّة الجنسية المتوسِّطة غير الناضجة بعد. لكن ثمة حالات بالمقابل توجب علينا أن نبحث عن أسباب نشوء العصاب في صراعات لاحقة، يتبدّى فيها دور الانطباعات الطفلية، الذي يكشف عنه التحليل، كأنه نتيجة للنكوص. هكذا يكون لدينا قطبان: «كفّ التطور» و«النكوص»، وبين هذين القطبين جميع درجات الفاعلية المتضافرة لهذين العاملين.

لجميع هذه الوقائع قدر من الأهمية بالنسبة إلى علم التربية الذي يتطلع إلى اتقاء شر الأعصبة عن طريق التدخل المبكر في حياة الطفل الجنسية. إذ ما دام الاهتمام كله منصباً على الخبرات الحياتية الجنسية الطفلية، فقد يحسب المربي أنه فعل كل ما هو مطلوب لاتقاء شر الأمراض العصبية متى ما عمل على تأخير هذا التطور الجنسي وعلى وقاية الطفل من التجارب ذات الصفة الجنسية. لكننا نعرف من قبل أن الشروط المسبِّبة للأعصبة أشدّ تعقيداً بكثير، ولا تخضع لتأثير عامل واحد أحد. وفرض رقابة صارمة علي الطفل أمر لا يجدي فتيلاً، لأن مثل هذه الرقابة لا حيلة لها إزاء العامل الجبلّي، ثم إن تطبيقها أعسر مما يعتقد المربون وينطوي على أمرين لا يجوز الغضّ من شأنهما: فهي تتجاوز من جهة أولى هدفها إذ تشجِّع كبتاً جنسياً مشتطاً، وهو كبت قد تترتب عليه عواقب وخيمة، وتلقي بالطفل من جهة ثانية في خضم الحياة دونما وسيلة دفاع يتصدى بها لدفق المطالب الجنسية الذي لا بدّ أن يأتي مع البلوغ. إذاً ففوائد الحماية والوقاية الجنسية للطفولة هي في نظرنا موضوع شبهة كبيرة، ومباح لنا أن نتساءل عما إذا لم يكن يجدر بنا أن نبحث في غير هذا الموقف من وقائع الحياة الجارية عن نقطة ارتكاز للحماية والوقاية من الأعصبة.

لكن لنعد الآن أدراجنا إلى الأعراض. فهذه الأعراض تخلق إذاً بديلاً عن الإشباع الذي ضنّ به الواقع، وذلك بحمل الليبيدو على التراجع إلى أزمان سابقة، مما يعني الارتداد إلى أطوار سابقة أيضاً من الاختيار الموضوعاني أو من التنظيم. وقد علمنا من قبل أن المعصوب شخص موثق الرباط إلى فترة معينة من



ماضيه؛ ونحن نعلم الآن أنها هي الفترة التي لم يكن فيها ليبيدواه محروماً من الإشباع، بل كان فيها هذا الشخص في حال من السعادة. ومن ثمّ نراه ينقّب في ماضي حياته إلي أن يهتدي إلى مثل تلك الفترة، ولو اضطره ذلك إلى التراجع القهقرى وصولاً إلى طفولته الأولى المبكرة يوم كان رضيعاً على نحو ما ترسمها له ذاكرته أو تصوِّرها له قرائن لاحقة. والعرَض يكرر بصورة أو بأخرى ذلك النمط من الإشباع المظفور به في الطفولة الأولى، ولكنه إشباع تحرِّفه الرقابة التي تتولد من النزاع ويصحبه في العادة إحساس بالكدر، وتختلط به عناصر متحدرة من العامل الذي تسبّب في الوقوع في المرض. والحق أن الإشباع الذي يتأتى عن العرض لهو من طبيعة غريبة. ونحن لا نتكلم هنا عما يشعر به الشخص المعني من أن هذا الإشباع أقرب إلى أن يكون مصدراً للكدر وللشكوى: فالتحول الذي نتحدث عنه هو نتيجة الصراع النفسي الذي تحت ضغطه تكوَّن العرض أصلاً. فما كان في الماضي إشباعاً للفرد، لا مفرّ من أن يقابل منه اليوم بالمقاومة أو النفور. ولدينا على تحول المشاعر والأحاسيس هذا مثال لا يلفت الأنظار في العادة، ولكنه بليغ الدلالة. فالطفل الذي كان يمصّ بنهم في ماضي الأيام اللبن من ثدي أمه لا يلبث بعد بضع سنوات أن ينفر من اللبن نفوراً شديداً تلقى التربية العنت في التغلب عليه. وقد يستفحل هذا النفور أحياناً فينقلب قرفاً وتقززاً، إذا ما كان اللبن أو الشراب الممزوج باللبن مغطى بقشرة رقيقة. ومن المباح لنا أن نتكهن بأن هذه القشرة توقظ في نفسه ذكرى الثدي الأموي الذي كان يشتهيه أحرّ الاشتهاء في السابق. وعلينا أن نضيف على كل حال أنه في أثناء تلك الفترة تكون قد حدثت تلك التجربة المعاشة ذات المفعول الرضّي كما تتمثّل بالفطام.

غير أن هناك سبباً آخر يجعل الأعراض تبدو لنا غريبة، وغير مفهومة من حيث هي وسيلة للإشباع الليبيدوي. فهي لا تذكرنا من قريب أو بعيد بما ننتظر منه في العادة وفي الأحوال السوية إشباعاً. فهي تضرب صفحاً في أغلب الأحيان عن الموضوع وتعزف بالتالي عن كل صلة بالواقع الخارجي. ونحن نقول إن هذه نتيجة لنبذ مبدأ الواقع وللارتداد إلى مبدأ اللذة. غير أن هذا الارتداد هو في الوقت نفسه ارتداد إلى ضرب من الإيروسية الذاتية الموسعة، إلى تلك الإيروسية



التي أمَّنت للدافع الغريزي الجنسي إشباعه الأول. فالأعراض تستعيض عن تغيير العالم الخارجي بتغيير في الجسم نفسه، وبالتالي عن نشاط خارجي بنشاط داخلي، وعن الفعل بتكيّف، وهذا ما يقابله، من وجهة النظر السلالية، نكوص له دلالته الكبيرة هو الآخر. ولن يتأتى لنا أن نفهم كل ما تقدم حسن الفهم إلا على ضوء معطى جديد ستكشف لنا عنه لاحقاً أبحاثنا التحليلية بصدد تكوّن الأعراض. ولنتذكر علاوة على ذلك أن تكوّن الأعراض تتضافر عليه السيرورات اللاشعورية عينها التي رأينا دورها في تشكيل الأحلام، أعني التكثيف والإزاحة والنقل. فالعرَض، نظير الحلم، يمثِّل الشيء وكأنه تحقق، ويرأرئ بإشباع على الطريقة الطفلية؛ غير أن هذا الإشباع قد يتركز، بفعل تكثيف شديد إلى أقصى درجاته، في إحساس واحد أو تعصيب واحد، كما أنه قد يقتصر، بفعل إزاحة متطرفة، على جزء يسير من المركب الليبيدوي بأسره. فلا غرو أن يعسر علينا، نحن أيضاً، أن نتعرف في العرَض الإشباع الليبيدوي الذي نشتبه في وجوده والذي ننتهي دوماً إلى التحقق منه.

لقد ذكرت لكم أنكم ستطَّلعون بعد على شيء جديد. وبالفعل، ما هذا الشيء بجديد فحسب، بل يبعث أيضاً على الدهش والاستغراب. فأنتم تعلمون أننا إذ نجعل من تحليل الأعراض منطلقاً لنا نصل إلى معرفة الخبرات الحياتية الطفلية التي تتثبَّت عليها الليبيدو والتي منها تصاغ الأعراض. والعجيب في الأمر أن هذه المشاهد الطفلية ليست على الدوام بحقيقية. أجل، إنها ليست حقيقية في غالب من الأحيان، بل إنها في بعض الأحوال مجافية بصورة مباشرة للحقيقة التاريخية. أليس من شأن هذا الاكتشاف أن يجعلنا، أكثر من أية حجة أخرى، نفقد الثقة إما بالتحليل الذي يفضي إلى نتيجة كهذه، وإما بالمريض الذي على أقواله ينهض صرح التحليل وفهم الأعصبة؟ ثم إن هذا الاكتشاف يزرع في النفس بلبلة شديدة. فلو كانت الخبرات الحياتية الطفلية التي يميط التحليل اللثام عنها واقعية دوماً وفي الحالات جميعاً، لساورنا شعور بأننا نتحرك فوق أرض ثابتة؛ أما لو كانت كاذبة على الدوام، ولا تعدو في جميع الأحوال أن تكون من نسج خيال المريض، فلن يبقى أمامنا من خيار غير أن نبرح هذه الأرض المتقلقلة



لنلوذ بأخرى. لكن أياً من هذين الخيارين غير متاح لنا: فالخبرات الحياتية الطفلية، التي يستحضرها التحليل أو يعيد بناءها، تكون تارة كاذبة بلا جدال، وطوراً صادقة بلا جدال أيضاً، وفي غالب الأحوال مزيجاً من الحق والباطل. إذاً فالأعراض تمثِّل تارة تجارب معاشة وقعت حقاً ولا مندوحة لنا من الاعتراف بتأثيرها في تثبيت الليبيدو، وطوراً تخييلات من نسج المرضى، فلا يسعنا أن نعترف لها بأي دور في نشوء المرض. ومن شأن هذا الموقف أن يزجّ بنا في ارتباك شديد. غير أني أذكّركم بهذا الصدد أن بعض ذكريات الطفولة التي يحتفظ بها الناس ماثلةً في واعيتهم دوماً، خارج نطاق أي تحليل وبصورة مستقلة عنه، قد تكون هي الأخرى باطلة أو قد تؤلف مزيجاً من الحق والباطل. والحال أنه نادراً ما يستعصي علينا في مثل هذه الأحوال أن نسوق الدليل على البطلان والزيف، وقد يكون لنا في هذا، على الأقل، عزاء يطمئننا إلى أن التبعة في هذه البلبلة اللامتوقعة تقع على عاتق المريض، لا على عاتق التحليل.

حسبنا أن نعمِل فكرنا قليلاً لنتبين ما الذي يحيِّرنا ويبلبلنا في هذا الموقف: إنه ازدراء المريض للواقع، وعدم اكتراثه المطلق بالفارق بين الواقع والخيال. وقد نميل إلى مؤاخذة المريض على ما يبدِّده من وقتنا بقصصه المختلقة. فنحن نرى الواقع منفصلاً عن الخيال بهُوَّة لا قرار لها، ونثمِّنه تثميناً مغايراً تماماً. وتلكم هي أصلاً وجهة نظر المريض أيضاً عندما يفكر تفكيراً سليماً سوياً. فحينما يشرع بأن يستحضر لنا المواد المستترة خلف الأعراض، والكاشفة عن مواقف متقولبة بقالب الخبرات الحياتية الطفلية، والمتألفة نواتها من رغبة تلوب على إشباع لها، نتساءل دوماً في أول الأمر عما إذا كانت هذه الأشياء حقيقية أو خيالية. ثم لا تلبث، في وقت لاحق، أن تتجلى لنا علامات معيَّنة تأذن لنا بأن نقطع في المسألة باتجاه أو بآخر، فنبادر إلى إطلاع المريض على النتيجة التي انتهينا إليها. لكن مساررة المريض هذه لا تتمّ بدون عناء. فلو صارحناه من أول الأمر بأنه يسرد على مسامعنا أحداثاً خيالية يموِّه بها تاريخ طفولته، مثلما تستعيض الشعوب بالأساطير عن تاريخ ماضيها المنسي، للاحظنا أن اهتمامه بمتابعة السرد يخفت فجأة، وهذه نتيجة ما كنا بحال لنتمناها. فهو يريد، هو أيضاً، ألا يتعامل إلا مع الأشياء



الواقعية، ويبدي عن عميق ازدرائه لـ«التخيُّلات». لكن لو حدانا حرصنا على نجاح عملنا التحليلي إلى الإيحاء للمريض بأن ما يسرده علينا يمثِّل الأحداث الواقعية في طفولته فعلاً، لعرَّضنا أنفسنا لملامته لاحقاً ولآخذنا على خطئنا ولسخر من سذاجتنا وسرعة تصديقنا. ويشقّ عليه أن يفهمنا حين نحثّه على أن يساوي في النظر بين الواقع والخيال، وحين نطلب إليه ألا يشغل نفسه، في أثناء سرده لأحداث طفولته التي نبغي تقصيها، بمعرفة هل هي صادقة أو كاذبة. لكن من الواضح مع ذلك أن هذا هو الموقف الوحيد الذي يتوجب علينا أن نوصي به حيال هذه المبتدعات النفسية. ذلك أن هذه المبتدعات واقعية، هي الأخرى، بمعنى ما: صحيح أن المريض هو الذي اختلق تلك الأحداث الخيالية، لكن هذه الواقعة لا تقلّ أهمية، من منظور العصاب، مما لو كان المريض عاش فعلاً الأحداث التي يتكلم عنها. فالتخيلات لها واقعها **النفسي** بالتعارض مع الواقع المادي، وبذلك نستوعب تدريجياً الحقيقة التالية وهي أن **الواقع النفسي هو الذي يلعب في عالم الأعصبة الدور الفاصل**.

من بين الأحداث التي تطالعنا في قصص طفولة المعصوبين، جميعهم تقريباً، وقائع تستأهل اهتماماً خاصاً لما لها من أهمية خطيرة. ومنها: مشاهدة الطفل لعملية الاتصال الجنسي بين الوالدين، أو تغرير شخص راشد به، أو تهديده بالخصاء. ومن الخطأ أن نعتقد أن هذه محض تخيلات، لا أساس لها من الواقع. بل من الممكن، على العكس، إثبات حقيقة هذه الوقائع على نحو لا يرقى إليه الشك، وذلك باستجواب أقرباء المريض الأكبر منه سناً. ولا يندر أن نعلم، مثلاً، أن صبياً صغيراً طفق يلعب بعضوه التناسلي على نحو غير محتشم، ومن دون أن يدري بعد أن هذا عمل يجب أن يتم في الخفاء وأن يُستر عن الأعين، فإذا بوالديه أو القائمين على تربيته يتوعدونه ببتر قضيبه أو يده الآثمة. وإذا ما استجوبنا الوالدين لم يترددا في الاعتراف بذلك، لأنهما يرتئيان أنهما كانا على حق إذ زجرا الطفل على ذلك النحو؛ والحال أن بعض المرضى يحتفظون بذكرى كاملة وواعية عن هذا التهديد، وعلى الأخص إذا وُجِّه إليهم في طور متأخر من طفولتهم. وحينما يصدر هذا الوعيد عن الأم أو أي شخص آخر من الجنس



المؤنث، فإنه يرتفق غالباً بالتنويه بأن الأب أو الطبيب هو الذي سيتولى التنفيذ. وفي الكتاب الشهير Struwwelpeter[٤] الذي وضعه طبيب الأطفال الفرانكفورتي هوفمان، والذي يشعّ بسحر فهمه العميق للعقد الجنسية وعقد الطفولة الأخرى، نرى الخصاء قد استبدل بالتهديد ببتر الإبهام عقاباً للطفل على عناده بمصّه. غير أنه يبعد في الواقع أن يتعرض الأطفال للتهديد بالخصاء بمثل ذلك التواتر الذي يوحي به تحليل المعصوبين. بل لدينا أسباب وجيهة للافتراض بأن الطفل يعيد في خياله بناء هذا التهديد بالاستناد إلى بعض المؤشرات، انطلاقاً من معرفته بأن الإشباع الإيروسي الذاتي محظور، وتحت وقع اكتشافه للجهاز التناسلي المؤنث. كذلك ليس من المستبعد إطلاقاً، حتى في الأسر غير البروليتارية، أن يكون الطفل، الذي يحسبه الراشدون عاجزاً عن الفهم والتذكر، قد شهد فعل الاتصال الجنسي بين والديه أو غيرهما من الراشدين، فلما فهم فيما بعد ما رآه حدث لديه ردّ فعل على الانطباع الذي تلقاه. لكنه حين يصف العلاقات الجنسية، التي يمكن أن يكون شاهدها، بتفاصيل بالغة الدقة يتعذر أن يكون قد رصدها بنفسه، أو حينما يصفها، كما هي الحال في الكثرة الغالبة من الأحيان، وكأن الجماع يحدث فيها من خلف، لا يعود ثمة من شك في أن هذا التخيّل يرتبط بمرأى فعل النزاء بين الحيوانات (الكلاب)، وفي أن علته هي حالة الحرمان التي يعانيها الطفل من لذة النظر والرغبة في النظر في زمن البلوغ. لكن أغرب حالات هذا النوع من الحالات وأشدّها تطرفاً أن يزعم الطفل أنه رأى بأم عينه الجماع بين والديه وهو لما يزل جنيناً في بطن أمه. أما استيهام التغرير فله أهمية خاصة، لأنه لا يكون في أغلب الأحيان واقعة مختلقة، بل ذكرى حادثة فعلية. غير أن هذه الحادثة الفعلية، على اطرادها، ليست بذلك القدر من التواتر الذي يمكن أن توحي به نتائج التحليل. والتغرير بالأطفال من قبل أطفال

---

٤ ـ حرفياً: «**بطرس ذو الشعر المنكوش**»، وهو عنوان كتاب رسوم متحركة برسم الأطفال وضعه الطبيب والشاعر الحكواتي الألماني هنريخ هوفمان (١٨٠٩ ـ ١٨٩٤) الذي كان أدار، على مدى ثمانية وثلاثين عاماً، مستشفى للمجانين. وقد نال هذا الكتاب شهرة عالمية وطبع مئات المرات. وهو يتضمن حكايات مسلية وصوراً مضحكة، وقد بات مرجعاً معتمداً لدى أطباء الأطفال النفسيين. وفرويد يحيل هنا إلى واحدة من قصصه التسع تحمل كعنوان «**قصة ماصّ الأصبع**». «م».



يكبرونهم أو يعادلونهم سناً أكثر تواتراً من التغرير بهم من قبل راشدين؛ وحينما يقوم الأب بدور المغوي (كما هي القاعدة شبه المستديمة) في القصص التي ترويها البنات الصغيرات، فإن الطابع الخيالي لهذا الاتهام لا يعود موضع شك، كذلك ينتفي كل شك بصدد الدافع إلى اختلاقه. فعن طريق استيهام التغرير، مع أنه ما من شيء يشبه التغرير قد وقع، يبرر الطفل في العادة المرحلة الإيروسية الذاتية من نشاطه الجنسي. فهو إذ يرجِع في خياله موضوع رغبته الجنسية إلى تلك الفترة الباكرة من طفولته، يعفي نفسه من شعور الخجل الذي لا بدّ أن يساوره على تعاطيه الاستمناء. ومع هذا لا تحسبوا أن التعدي الجنسي على الأطفال من قبل أقرب أقاربهم الذكور فعلة لا وجود لها إلا في عالم الخيال. ولا بدّ أن يكون معظم المحللين قد عالجوا حالات وقع فيها هذا التعدي فعلاً، وأمكن إثباته على نحو لا يرقى إليه الشك، وكل ما هنالك أن هذا التعدي وقع في عهد متأخر بكثير عن العهد الذي يرجعه الطفل إليه.

إن الانطباع الوحيد الذي نخرج به مما تقدم هو أن أشباه تلك الأحداث من زمن الطفولة هي، بكيفية أو أخرى، مطلوبة بالضرورة ولا غنى عنها كعنصر من المخزون الثابت للعصاب. فإن تكن تلك الأحداث لها ما يناظرها في الواقع فذلك أيسر، وأما إن أنكرها الواقع وطعن فيها فإنها تتشكل طبقاً لقرائن وشواهد محددة، ثم يتولى الخيال تكميلها. والنتيجة واحدة، إذ لم يتح لنا إلى اليوم أن نلحظ فارقاً في المفعول تبعاً لكون أحداث الحياة الطفلية من نتاج الواقع أو من نسج الخيال. هنا نلتقي مرة أخرى بواحدة من تلك العلاقات المتتامة التي تقدم بنا الكلام عنها تكراراً، غير أن العلاقة الأخيرة هذه هي أغرب ما عرفناه قط. فمن أين تنبع الحاجة إلى هذه الاختلاقات، ومن أيٍّ معين يقتبس الطفل مادتها؟ أما فيما يتعلق بمصادرها الغريزية فلا يمكن بكل تأكيد أن يخالجنا شكّ، لكن يبقى علينا أن نفسر لماذا تتكرر التخييلات عينها في كل مرة، ولماذا يُختلق لها دوماً مضمون واحد لا يتغير. أعلم أن الجواب الذي في مكنتي أن أعطيه عن هذا السؤال سيبدو لكم مسرفاً في الجرأة. فأنا أعتقد أن هذه **التخييلات البدائية** ـ فذلك هو الاسم الذي يناسبها هي وبعض تخييلات أخرى ـ تؤلف



ميراثاً سلالياً. فعن طريق هذه التخييلات يتعدّى الفرد تجربته الحياتية الذاتية إذا ما اشتد عليه شظفها ليلوذ من جديد بحمى التجربة الحياتية لحقبة ما قبل التاريخ. ومن المحتمل، في رأيي، أن كل ما يروى لنا في أثناء التحليل من تخييلات، كالتغرير في زمن الطفولة، والتهيج الجنسي لمرأى الاتصال الجنسي بين الوالدين، والتهديد بالخصاء ـ أو الخصاء نفسه بالأحرى ـ من المحتمل أن كل هذه الاختلاقات كانت في ما سلف من الزمن، في الأحقاب البدائية للأسرة البشرية، حقائق ووقائع، وأن الطفل، بإطلاقه العنان لخياله، يسدّ ثغرات الحقيقة الفردية بالاعتماد على الحقيقة ما قبل التاريخية. وكثيراً ما تراءى لي أن علم نفس الأعصبة أقدر من أي مصدر آخر على تزويدنا بالمعلومات عن الأطوار البدائية من التطور البشري.

سادتي، إن المسائل التي عالجناها هنا ترغمنا على أن نتفحص عن كثب مشكلة أصل ذلك النشاط الذهني المسمى بـ «التخيُّل» ودلالته. فالتخيُّل له اعتبار عظيم مُجمعٌ عليه، كما تعلمون، وإن لم يُسلَّط قط الضوء على المكانة التي يشغلها في الحياة النفسية. وهاكم ما أستطيع أن أذكره لكم حول هذا الموضوع. فتحت ضغط الضرورة الخارجية يجد الإنسان نفسه منقاداً رويداً رويداً إلى تقييم الواقع تقييماً صحيحاً مطابقاً، مما يتيح له أن يتعلم كيف يكيِّف سلوكه مع ما أسميناه بـ «مبدأ الواقع»، وأن يعزف، بصورة مؤقتة أو دائمة، عن مواضيع وأهداف شتى لنوازعه إلى اللذة عموماً، وليس إلى اللذة الجنسية وحدها. ولقد كان هذا العزوف عن اللذة أمراً شاقاً على الإنسان على الدوام، وهو لا يصدع بأمره إلا مقابل ضرب من ضروب التعويض. لذا اختصّ الإنسان نفسه بنشاط نفسي يتيح لجميع مصادر اللذة ولجميع وسائل اجتناء اللذة التي هجرها أن تواصل وجودها في شكل يحميها من مقتضيات الواقع ويعفيها مما نسميه بامتحان الواقع. وهكذا يتلبس كل ميل اللبوس الذي يبدو فيه وكأنه قد أشبع، وليس من شكٍ في أن تعليل النفس بالإشباع الخيالي للرغبات يجلب للفرد شعوراً بالرضى لا يعكره إدراكه لعدم واقعيته. إذاً فالإنسان، بإطلاقه العنان لخياله، ينعم من جديد، إزاء الإكراه الخارجي، بتلك الحرية التي اضطر منذ زمن بعيد إلى



التنازل عنها في الحياة الواقعية. وبذلك ينجز مناورة بارعة تتيح له أن يكون بالتناوب حيواناً يسعى وراء المتعة وكائناً عاقلاً. فالإشباع الهزيل الذي قد يتسنى له أن ينتزعه من الواقع لا يروي غليله. وقد قال ث. فونتان FONTANE[٥] ذات يوم: «من المحال أن يستغني الإنسان عن إنشاءات تخييلية إضافية». وبناء مملكة الخيال النفسية له ما يناظره ويماثله في إنشاء «حظائر طبيعية محمية» حيثما تهدد مقتضياتُ الزراعة والصناعة والمواصلات بتغيير منظر الأرض الأصلي إلى حدّ لا يعود معه الإنسان يتعرفه. فـ «الحظيرة الطبيعية» تديم تلك الحالة البدائية التي اضطر الإنسان إلى التضحية بها، آسفاً في كثير من الأحيان، نزولاً عند أمر الضرورة. وفي هذه «الحظائر الطبيعية» ينبغي أن ينبت كل شيء وينمو ويتفتح بلا إكراه، بما في ذلك ما لا ينفع وما قد يضرّ. ومملكة الخيال النفسية حظيرة من هذا النوع، لا تخضع لسلطان مبدأ الواقع.

إن أشهر منتجات الخيال هي «أحلام اليقظة» التي سبق لنا الكلام عنها، وهي بمثابة إشباعات وهمية لرغبات في الطموح والعظمة أو لرغبات إيروسية، وتكون هذه التلبيات الوهمية أدنى إلى التمام، أو أكثر اتساماً بالشهوانية، كلما تشدد الواقع الفعلي في طلب التواضع أو الصبر. وإننا لنتعرف بجلاء باهر في أحلام اليقظة هذه جوهر تلك السعادة الخيالية التي تجعل اجتناء اللذة مستقلاً عن مصادقة الواقع. ونحن نعلم أن أحلام اليقظة هذه تؤلف نواة الأحلام الليلية ونموذجها المحتذى. فما الحلم الليلي، في حقيقته، إلا حلم يقظة اكتسب مزيداً من المرونة بفضل الحرية التي تتاح للحاثات الغريزية في أثناء النوم، وتغيَّر شكله نتيجة للمظهر الليلي للنشاط النفسي. وقد تآلفنا من قبل مع الفكرة التي مؤداها أن حلم اليقظة لا يكون بالضرورة شعورياً، وأن ثمة أحلام يقظة لاشعورية. إذاً فمن الممكن أن تكون أحلام اليقظة اللاشعورية هذه هي مصدر الأحلام الليلية والأعراض العصابية على حدّ سواء.

٥ ـ ثيودور فونتان: طبيب وكاتب ألماني (١٨١٩ ـ ١٨٩٨). يعدّ من أبرز ممثلي الواقعية الشعرية. من أشهر دواوينه: **الغرابان ومأساة أفغانستان**. ومن أشهر رواياته: **قبل العاصفة**، **والطرق المتصالبة**، **وإفّي برست**. وفرويد يقتبس الشاهد من الرواية الأخيرة التي تحمل اسم بطلتها. «م».



وهاكم ما من شأنه أن يفهمكم دور الخيال في تكوين الأمراض. فقد سبق أن ذكرت لكم أن الليبيدو يعود، في مسيرته النكوصية في حالات الحرمان، إلى توظيف المواقع التي كان قد تجاوزها وتخطاها، وإن ترك عندها بعضاً من نفسه. ولست أريد أن أحذف شيئاً من هذا التوكيد، ولا أن أجري عليه تصحيحاً ما، غير أني أودّ أن أدخل عليه حلقة رابطة. إذ كيف يهتدي الليبيدو إلى الطريق التي يفترض فيها أن تقوده إلى نقاط التثبيت تلك؟ واقع الحال أن المواضيع والاتجاهات التي هجرها الليبيدو لا تكون قد هُجرت هجراناً تاماً مطلقاً. فهذه المواضيع والاتجاهات، أو مشتقاتها، تبقى محفوظة بدرجة ما من الشدة في تصورات الخيال. لذا فحسب الليبيدو أن يرتد إلى هذه التصورات لكي يهتدي إلى الطريق القمينة بأن تقوده إلى جميع تلك التثبيتات المكبوتة. ولقد نعمت هذه التصورات الخيالية بقدر من التسامح، فلم ينشب صراع بينها وبين الأنا، مهما بلغت قوة تعارضها معه. ولقد كان لها ذلك ما دامت تراعي شرطاً محدداً من طبيعة **كمية**، وهو شرط لا يخلّ به سوى ارتداد الليبيدو إلى المواضيع الخيالية. فعلى إثر هذه الارتداد تزداد كمية الطاقة المشحونة بها هذه المواضيع، فيشتدّ إلحاح هذه الأخيرة، وتبدي عن اندفاع نحو التحقق. وبذلك ينشب صراع بينها وبين الأنا. ولئن كانت في السابق شعورية أو قبشعورية، فإنها تتعرض الآن لكبت من جانب الأنا، وتقع في مدار جاذبية اللاشعور. وبدءاً من هذه الأخاييل التي أضحت الآن لاشعورية يسلك الليبيدو الطريق المعاكس ارتداداً إلى أصوله في اللاشعور، ووصولاً إلى نقاط تثبيته الخاصة به.

إن نكوص الليبيدو نحو الأخاييل مرحلة تتوسط الطريق الذي يفضي إلى تكوين الأعراض. وهذه المرحلة تستأهل، على كل حال، تسمية خاصة. وكان ك.غ.يونغ قد اقترح تسمية موفقة لها هي **الانطواء**[٦]، لكنه أساء استعمالها بأن

٦ ـ ابتدع يونغ هذا المفهوم سنة ١٩١٠ في مقال له بعنوان «**صراعات النفس الطفلية**» ليشير به إلى انصراف الطاقة الليبيدوية عن الواقع الخارجي وانصبابها على الواقع الداخلي. ولكنه وسَّع هذا المفهوم ليشمل نوعاً من الطباع يتَّسم بالانغلاق عن العالم الخارجي وباعتماد الذات مرجعاً أولاً وأخيراً؛ ويقابله الطبع الانبساطي، أي المنفتح على العالم الخارجي. ولكن فرويد يستخدم الانطواء INTROVERSION بمعنى ضيِّق، هو انكفاء الليبيدو باتجاه التشكيلات الخيالية أو الاستيهامية. «م».



أطلقها على أشياء أخرى أيضاً. أما نحن فنحتفظ بالمعنى الأصلي **للانطواء** لنشير به إلى انصراف الليبيدو عن إمكانيات الإشباع الفعلي وانزياحه نحو أخاييل كانت تعتبر حتى ذلك الحين غير ضارة. فالانطوائي يتخبط في وضع غير مستقر، ولكن من دون أن يصل به الأمر بعد إلى حدود العصاب؛ فإن لم يجد من منفذ آخر لليبيدواه المكبوت، ظهرت عليه، عند أول تغير في ميزان القوى، الأعراض العصابية. وبالمقابل، إن الطابع اللاواقعي للإشباع العصابي وامّحاء الفارق بين الخيال والواقع الفعلي يتواجدان لديه ابتداء من مرحلة الانطواء.

لقد لاحظتم بلا شكّ أنني أدخلت، في شروحي الأخيرة، عاملاً جديداً في سلسلة أسباب نشوء الأمراض، هو كمّ أو مقدار الطاقات ذات العلاقة. وهذا عامل يتعيَّن علينا أن نحسب حسابه على الدوام وفي جميع الحالات. فالتحليل الكيفي المحض للشروط المسبِّبة للأمراض لا يفي بالحاجة ولا يستوعب المسألة كلها. وبعبارة أخرى، إن التصور **الدينامي** المحض للسيرورات النفسية التي نحن بصددها ليس بكافٍ، بل نحتاج أيضاً إلى النظر إليها من منظار **اقتصادي**. فعلينا أن نعلم أن الصراع بين ميلين لا ينشب إلا متى ما بلغ التوظيف درجة معينة من الشدّة، حتى وإن تكن الشروط ذات العلاقة بالمحتوى موجودة منذ زمن بعيد. كذلك، إن الأهمية الإمراضية للعوامل الجِبِلِّية ترتهن بالغلبة الكمِّية لأحد الدافعين الغريزيين الجزئيين على الآخر تبعاً للاستعداد المسبق. بل يسعنا القول إن جميع الاستعدادات البشرية متماثلة كيفاً، ولا تختلف فيما بينها إلا بنِسَبها الكمية. ولا يقلّ هذا العامل الكمِّي أهمية من منظور القدرة على مقاومة الوقوع في المرض العصابي. فكل شيء يرتهن **بكمية** الليبيدو غير المستخدمة التي يقتدر الفرد أن يحتفظ بها في حالة معلَّقة، **وبمقدار** ما يستطيع أن يحوّله من هذا الليبيدو عن الطريق الجنسي ليوجِّهه نحو الهدف الإسمائي. والهدف الأخير للنشاط النفسي، وهو الهدف الذي يمكن وصفه، من وجهة النظر الكيفية، بأنه نزوع إلى اجتناء اللذة وتحاشي الألم، يتبدى لنا، إن نظرنا إليه من وجهة النظر الاقتصادية، كأنه مجهود للتحكم بكتلة (أو كمية) التنبيهات الفاعلة في الجهاز النفسي، وللحؤول دون ركودها وما قد ينتج عنه من كدر.



هذا كل ما كان بودّي أن أقوله لكم بصدد تكوين الأعراض في الأعصبة. غير أني أحرص على أن أكرر على مسامعكم، على نحو لا يقبل أي لبس، أن كل ما ذكرته لكم لا يصدق إلا على تكوين الأعراض في الهستيريا. فحتى في العصاب الوسواسي يختلف الموقف، وإن لم تتغير الوقائع الأساسية. فالتوظيفات المضادة التي يجابه بها الأنا المطالب الغريزية ـ وقد كنا تكلمنا عن هذه المقاومات أيضاً في معرض حديثنا عن الهستيريا ـ تحتل في العصاب الوسواسي مكانة الصدارة وتهيمن على الصورة السريرية لهذا العصاب في صورة «تشكيلات ارتجاعية» كما نسميها[٧]. وإننا لنلتقي هذه الفروق، وأخرى أعمق منها أيضاً، في الأعصبة الأخرى التي لا تزال تنتظر أن تكتمل الأبحاث بصدد آلية تكوين أعراضها.

قبل أن أختم هذه المحاضرة، أودّ أن ألفت انتباهكم بعد إلى جانب في حياة الخيال جدير منا بكل الاهتمام. فثمة بالفعل طريق للإياب من مملكة الخيال إلى عالم الواقع: إنه ..الفن. والفنان هو في نوعه انطوائي أيضاً ويقف عند تخوم العصاب. إنه إنسان تحفزه اندفاعات وحاجات غريزية بالغة القوة، فيصبو إلى الفوز بالتكريم والعظمة والغنى والمجد وحبّ النساء. غير أنه تعوزه الوسائل لبلوغ هذا الإشباع. لذا يشيح، مثله مثل أي إنسان لم تُلبَّ رغباته، عن الواقع الفعلي، ويركّز كل اهتمامه، وكل ليبدواه أيضاً، على الرغبات التي تخلقها حياته الخيالية، مما قد يقوده بسهولة إلى العصاب. ولا بدّ أن تتوفر له ظروف مؤاتية كثيرة كيلا يؤول تطوره إلى هذه العاقبة، ومعلوم كم هو كثير عدد الفنانين الذين يعانون تعطلاً جزئياً في نشاطهم من جراء إصابتهم بعصاب. ومن المحتمل أن تكون جبلّتهم منطوية على قابلية عظيمة للإسماء، وعلى بعض التراخي في الكبوتات التي من شأنها أن تقرر مصير الصراع. والحال أن الفنان يعرف كيف يهتدي من

٧ ـ التشكيل الارتجاعي: سمة طبعية ثابتة أو نمط تكراري من السلوك بهدف معارضة رغبة لاشعورية. ويمكن تعرّفه سريرياً بمظهره المتصلّب والقهري الذي يسم بميسمه شخصية المُعاني منه. وقد وصف فرويد التشكيل الارتجاعي بالإحالة إلى العصابيين الوسواسيين الذين يدلّلون على صرامة مفرطة في سلوكهم الأخلاقي كستار لما يعتمل في نفوسهم من حاثّات سادية ذات أصل شرجي طفلي. «م».



جديد إلى طريق الواقع. وليس بي حاجة إلى أن أقول لكم إنه ليس الوحيد الذي يحيا حياته في الخيال. فمملكة الخيال الوسيطة تحظى بمحاباة البشرية قاطبة، وكل من عانى حرماناً من شيء ما طرق بابها طلباً للتعويض والعزاء. غير أن عامة الناس لا ينهلون من ينابيع الخيال سوى لذة محدودة. فالطابع الصارم لكبتهم يرغمهم على الاكتفاء بأحلام يقظة ضئيلة العدد، هذا إذا تأتّى لهم أن يعوها. لكن من كان من الناس فناناً حقيقياً فإن إمكانيات أكثر بكثير تتوفَّر له. فهو يعرف أولاً كيف يلبس أحلام يقظته شكلاً يحرِّرها من طابعها الشخصي الذي قد يثير نفور الغير فتصبح على هذا النحو مصدر متعة للآخرين. كما إنه يعرف كيف يجمّلها، بحيث يخفي عن الأنظار أصلها المشبوه. ثم إنه يملك، فضلاً عن ذلك، مقدرة عجيبة على صياغة مواد معينة ليجعل منها صورة أمينة عن التصور الذي يعتمل في خياله، وعلى ربط هذا التصور الصادر عن خياله اللاشعوري بمقدار كافٍ من المتعة ليموِّه أو ليلغي الكبت بصورة مؤقتة على الأقل. فإذا ما أفلح في تحقيق هذا كله، وفَّر للآخرين وسيلة لينهلوا بدورهم التفريج والعزاء من ينابيع المتعة في لاشعورهم بالذات، بعد أن كانت أضحت منيعة عزيزة المنال، وبذلك يظفر بعرفانهم وإعجابهم، ويكون في نهاية المطاف قد ظفر عن طريق خياله بما لم يوجد من قبل إلا في خياله: التكريم والعظمة وحبّ النساء.



المحاضرة الرابعة والعشرون

العصبية الشائعة

سيداتي سادتي، بعد أن قطعنا في محاضراتنا السابقة شوطاً غير هيِّن، أدع الموضوع مؤقتاً وأتوجه بالخطاب إليكم.

أنا أعلم أنكم غير راضين. فقد كانت لديكم فكرة مغايرة عما ينبغي أن يكونه «مدخل إلى التحليل النفسي». كنتم تتوقعون أمثلة مستمدة من معين الحياة، لا عرضاً لنظرية. وقد تقولون لي إني حين رويت لكم القصة الموازية لمسرحية **في الطابق الأرضي وفي الطابق الأول** تسنى لكم أن تطلعوا على شيء مما يدخل في باب أسباب الأمراض، ولكن يؤسفكم أن أكون سردت على مسامعكم قصة متخيَّلة بدل أن أسوق إليكم مشاهدات من صميم الحياة. أو قد تقولون لي أيضاً إني حين حدَّثتكم في بادئ الأمر عن عرضين ـ آمل ألا أكون اختلقتهما اختلاقاً ـ وعرضت لكم كيف آلا إلى زوال، وأوضحت لكم صلاتهما بحياة المريض، أتحتُ لكم استشفاف «معنى» الأعراض، فأملتم لو أني أمضي على هذا المنوال. لكني، بدلاً من ذلك، طفقت أعرض أمامكم نظريات مستفيضة، لا تكتمل أبداً، ولا أنقطع عن إضافة شيء ما إليها، متسلحاً بمفاهيم لم أعرِّفكم بها مسبقاً، ومنتقلاً من العرض الوصفي إلى التصور الدينامي، ومن هذا التصور إلى ذاك الذي أسميته بـ «الاقتصادي». وكان من حقكم أن تتساءلوا إن لم يكن بين المفردات التي استعملتها كلمات لها مدلول واحد، فلا أنيب بعضها مناب بعض إلا طلباً لتفخيم اللفظ. وأنا لم أفعل شيئاً لأفسّر لكم هذه النقاط، بل جعلت، بدلاً من ذلك، أعرض عليكم تصورات فسيحة وسيعة نظير مبدأ اللذة ومبدأ الواقع والموروث السلالي؛ وعوضاً عن التقديم والتمهيد لمثل هذه المواضيع، رحت أستعرض أمامكم أشياء لا أكاد آتي بذكرها حتى تكون قد غابت عن أنظاركم.



لمَ لمْ أبدأ المدخل إلى نظرية الأعصبة بعرض ما تعرفونه أنتم بصدد العصبية وما أثار اهتمامكم منذ عهد بعيد؟ لمَ لمْ أبدأ بالحديث عن الطبيعة الخاصة للعصبيين، وعن استجاباتهم غير المفهومة للعلاقات مع الغير وللمؤثرات الخارجية، وعن نزقهم وسرعة غضبهم، وعن معاناتهم من نقص القدرة على التوقُّع والتكيُّف؟ لمَ لمْ أنتقل بكم رويداً رويداً من فهم الأشكال البسيطة، التي نلحظها يومياً، إلى فهم المشكلات المتصلة بالتظاهرات الخارجية والملغزة للعصبية؟

إني لا أماري، سادتي، في صحة شكواكم. ولست أخدع نفسي بصدد فني في العرض، فأعزو إلى كل عيب من عيوبه سحراً خاصاً. بل أسلّم بأنه كان من الأجدى لكم لو سلكت غير السبيل الذي سلكت، وهذا ما كنت عقدت عليه العزم أصلاً. لكن ليس من اليسير على الإنسان دوماً أن يحقق مقاصده، حتى ولو كانت خيرها وأدناها إلى العقل. فالمادة التي نعالجها بالذات تنطوي على شيء يفرض علينا إمرته ويصرفنا عن مقاصدنا الأولى. وحتى ذلك العمل العادي الذي يتمثل بترتيب المواد لا يخضع دواماً وبتمامه لمشيئة الباحث: فهو يتمّ من تلقاء نفسه، وإنما بعد أن يكون الذي كان يمكن للمرء أن يتساءل لماذا رُتِّبت المواد على هذا النحو لا على نحو غيره.

لعل أحد أسباب ذلك أن العنوان: **مدخل إلى التحليل النفسي** لا يعود موائماً لهذا القسم الذي يُفترض فيه أن يتناول الأعصبة. فدراسة الهفوات والأحلام كانت تمهيداً للتحليل النفسي، غير أن نظرية الأعصبة هي التحليل النفسي بعينه. ولا أعتقد أني استطعت أن أزوِّدكم في مثل هذا الوقت الوجيز وفي مثل هذا الشكل المكثَّف بمعرفة كافية بنظرية الأعصبة. وقد كنت أحرص في المقام الأول على إعطائكم فكرة مجملة عن معنى الأعراض وأهميتها، وعن آلية تكوين الأعراض، وعن شروطها الخارجية والداخلية. هذا على الأقل ما حاولت أن أفعله، وهذا على وجه التقريب جوهر ما يمكن للتحليل النفسي أن ينوّرنا به اليوم. ولقد كان في المجال متسع لذكر أشياء كثيرة بصدد الليبيدو وتطوره، وكذلك بصدد تطور الأنا. أما المقدمات التي بنينا عليها تقنيتنا، والمعالم العريضة لمفهومي اللاشعور والكبت (المقاومة)، فقد تهيأتم لها في المدخل. وسترون في واحدة من



المحاضرات التالية ما النقاط التي يمكن للتحليل النفسي أن يوالي فيها مسيرته الصاعدة. وأنا لم أخفِ عنكم أصلاً أن جميع استنتاجاتنا لم نستخلصها إلا من فئة واحدة من الإصابات العصبية: الأعصبة المسماة بـ «التحويلية». بل لم أكن أتمثل في ذهني، وأنا أحلِّل آلية تكوين الأعراض، سوى العصاب الهستيري وحده. وحتى على فرض أنكم لم تظفروا على هذا النحو بأي معرفة متينة ولم تستوعبوا التفاصيل كافة، فإني آمل مع ذلك أن تكونوا قد كوَّنتم فكرة عن الوسائل التي يعتمدها التحليل النفسي في عمله، وعن المسائل التي يتصدى لها، وعن النتائج التي توصل إليها.

أفترض إذاً أنكم تحبذون لو أني بدأت عرض الأعصبة بوصف مسلك العصبيين، وكيف يعانون من العصاب، وكيف يحاولون أن يدرؤوه عن أنفسهم أو أن يتكيَّفوا معه. وهذا بكل تأكيد موضوع مفيد ومثير للاهتمام، ولا تعسر معالجته، ولكن قد يكون من المجازفة البدء به. فلربما كان سيتعذَّر علينا في هذه الحال اكتشاف اللاشعور، وإدراك الأهمية الكبيرة لليبيدو، ولربما كنا وقعنا في حكمنا على الوقائع وتقييمنا لها تحت تأثير الكيفية التي تتبدى بها لأنا الإنسان العصبي. والحال أن هذا الأنا، وهذا غنيٌّ عن البيان، ليس بالحكَم المنزَّه عن الغرض والذي يمكن أن يُركن إليه. وكيف لنا أن نتوقع من الأنا، الذي يملك القدرة على إنكار اللاشعور وعلى كبته، حكماً عادلاً منصفاً بصدد هذا اللاشعور؟ إن المتطلبات المستهجنة للجنسية هي أول ما يطاله الكبت، ومن ثم لن يتأتى لنا البتة أن نكوّن فكرة عن أهميتها ودورها من النظرة التي ينظر بها إليها الأنا. فحالما تأخذ سيرورة الكبت بالانجلاء لنا، يكون قد بات لزاماً علينا أن نحتاط، فلا نتخذ حَكَماً أياً من الخصمين المتنازعين، وعلى الأخص الخصم الظافر منهما. ونحن نعلم من الآن فصاعداً أن كل ما يمكن أن يخبرنا به الأنا من شأنه أن يُضِلَّنا ويوردنا موارد الخطأ. ولقد كنا نستطيع بعد أن نمحض الأنا ثقتنا لو كنا نعلم أنه هو العامل الفعال في جميع تظاهراته، أي أنه هو الذي أراد أعراضه وأنتجها. غير أن الأنا يبقى سلبياً في عدد كبير من تظاهراته، وهذه السلبية بالتحديد هي ما يحاول إخفاءه وإلباسه غير لبوسه. وعلى كل حال، لا يجرؤ



الأنا دواماً على المضيّ في هذه المحاولة، بل يجد نفسه مكرهاً على الإقرار بما يساوره من شعور، في سياق أعراض العصاب الوسواسي، بأن ثمة قوى غريبة تتألب عليه وتناهضه، فليس يملك أن يتحاماها إلا بعناء ومشقة.

أما أولئك الذين لا يأبهون لهذا التحذير، بل يحملون بيانات الأنا على محمل الصدق ولا يقيمون اعتباراً لما فيها من كذب وتزوير، فلا شك في أنهم سيضربون عرض الحائط بجميع طروحات التحليل النفسي بخصوص دور كل من اللاشعور والجنسية وسلبية الأنا. وسيكون في وسع هؤلاء أن يؤكدوا، بلسان ألفريد آدلر، أن «الطبع العصبي» هو علة العصاب[1]، بدلاً من أن يكون معلوله، لكن سيعجزهم في الوقت نفسه أن يفسروا أي تفصيل من تفاصيل تكوين الأعراض، أو أي حلم مهما يكن عادياً ليس بذي بال.

ستسألونني: «أليس في الإمكان إذاً أن نقدِّر دور الأنا في العصبية وتكوين الأعراض حقَّ قدره، من دون أن نغفل إغفالاً فظاً العوامل التي اكتشفها التحليل النفسي؟». وجوابي عن هذا السؤال: «بلى، الأمر لا بدّ أن يكون ممكناً، وسيأتي يوم يتمّ فيه؛ لكن ليس في منظور البرنامج الذي اختطّه التحليل النفسي لنفسه أن يبدأ بذلك حصراً». ومن الممكن لنا التنبؤ بالوقت الذي ستفرض فيه هذه المهمة نفسها على التحليل النفسي. فثمة أعصبة يكون فيها دور الأنا أظهر بكثير مما في الأعصبة التي درسناها حتى الآن: وهذه الأعصبة نسمِّيها بـ «النرجسية». ولسوف يتيح لنا الفحص التحليلي لهذه الإصابات أن نحدِّد تحديداً دقيقاً غير منحاز مدى مساهمة الأنا في الإصابة العصابية.

على أن هناك موقفاً يقفه الأنا من عصابه كان يوجب، لشدة بروزه وظهوره، أن يؤخذ بعين الاعتبار من البداية. وهذا الموقف لا تخلو منه، على ما يبدو، أية حالة، غير أنه يتبدى بجلاء خاص في إصابة لا نزال بعيدين عن معرفتها: هي **العصاب الرضّي**. وينبغي أن تعلموا أننا نلتقي، حين نبحث في تعليل جميع الأشكال الممكنة للأعصبة وفي تحديد آليتها، بالعوامل الفاعلة نفسها دوماً، لكن

١ ـ الإحالة الضمنية هنا إلى كتاب ألفريد آدلر: **عن الطبع العصبي** (١٩١٢). «م».



مع فارق وحيد وهو أن الدور الرئيسي، من منظور تكوين الأعراض، يقوم به، بحسب الإصابة، تارة هذا العامل وطوراً ذاك. فلكأننا أمام فريق مسرحي: فكل ممثل يختار، علاوة على دوره الذي اختصّ به - بطل، صديق حميم، دساس، إلخ - دوراً آخر، في مسرحية أخرى، تعود فيه البطولة إليه. ففي الهستيريا تظهر بجلاء لا مزيد عليه الأخاييل التي تتحول إلى أعراض؛ وبالمقابل، تهيمن التوظيفات المضادة أو التشكيلات الارتجاعية على الصورة السريرية للعصاب الوسواسي؛ أما في البارانويا **فالصياغة الثانوية**، كما كنا أسميناها في معرض كلامنا عن الحلم، هي التي تضطلع بالدور الرئيسي في شكل هذاء، إلخ.

هكذا نكتشف في الأعصبة الرضية، وعلى الأخص تلك التي تنشأ عن أهوال الحرب، دافعاً أنوياً، أنانياً، نفعياً، دفاعياً؛ ولئن كان هذا الدافع يعجز وحده عن تسبيب المرض، فإنه يمحضه موافقته، ويعضده ويديمه حالما يتكون. ويسعى هذا الدافع إلى حماية الأنا من الأخطار التي كان وعيدها العلة العارضة للمرض، وهو سيحول دون الشفاء ما لم يطمئن المريض إلى أن هذه الأخطار عينها لن تدهمه مرة أخرى، أو ما لم يتلقَّ تعويضاً عن الأخطار التي تعرَّض لها فعلاً.

غير أن الأنا يبدي، في جميع الحالات الأخرى، اهتماماً مماثلاً بتكوين العصاب ودوامه. وقد أسلفنا القول بأن الأنا يسهم بقسط ما في تكوين العرض، لأن للعرض جانباً يوفِّر من خلاله تلبية لميل الأنا إلى إحداث كبت. زد على ذلك أن حلّ الصراع عن طريق تكوين العرض هو الحل الأيسر والأكثر تمشياً مع مبدأ اللذة، إذ لا جدال بالفعل في أنه يوفِّر على الأنا مجهوداً داخلياً شاقاً مضنياً. وثمة حالات يضطر فيها الطبيب نفسه إلى التسليم بأن العصاب هو الحل الأقل ضرراً للصراع، والأكثر فائدة ونفعاً من وجهة النظر الاجتماعية. ولا تعجبوا إن قيل لكم إن الطبيب نفسه يأخذ أحياناً بناصر المرض الذي يكافحه. فهو لا يناسبه أن يقتصر دوره في جميع المواقف على التعصب للصحة والانحياز إلى جانبها، إذ إنه يعلم أن في العالم ضروباً أخرى من البؤس غير البؤس العصابي، وأن فيه ألواناً من العذاب أكثر واقعية وأعصى على البرء بعد، وأن الضرورة قد ترغم الإنسان على التضحية بصحته لأن التضحية بشخص واحد قد تدرأ فاجعة كبرى يمكن



أن يتأذى منها أشخاص كثيرون. فلئن أمكن لنا إذاً أن نقول إن المعصوب **يلوذ بحمى المرض** تملصاً من الصراع، فلا مناص لنا من التسليم بأن هذا الهرب له ما يبرره في بعض الحالات، وعلى الطبيب، عندما يدرك حقيقة الموقف، أن ينسحب بكل الكياسة الممكنة ومن دون أن ينبس ببنت شفة.

لكن لنضرب صفحاً عن هذه الحالات الاستثنائية. فإذا انتقلنا إلى الحالات المتواترة وجدنا الاعتصام بالعصاب يوفّر للأنا نوعاً من **الغنم المرَضي** الداخلي. وإلى هذا الغنم ينضاف في بعض المواقف غنم خارجي بيّن، لكن متفاوت القيمة في الواقع بين حالة وأخرى. ولنأخذ أكثر أمثلة هذه الحالة تواتراً. فالمرأة، التي يسيء زوجها معاملتها ويستغلها بفظاظة وبلا تحرز، تجد ملجأ لها وملاذاً في العصاب بصورة شبه مطردة إذا ما ساعدتها على ذلك استعداداتها المسبقة، وإذا كانت أجبن أو أعفّ من أن تقيم علاقة سرية مع رجل آخر، وإذا لم تكن على قدر كافٍ من القوة لتتحدى المواضعات الخارجية كلها ولتنفصل عن زوجها، وإذا كانت حاجتها الجنسية، فوق هذا كله، تدفع بها، بالرغم من كل شيء، نحو ذلك الرجل الفظ. فعندئذ يغدو مرضها سلاحاً لها في صراعها مع هذا الرجل الذي تسحقها قوته، سلاحاً في مقدورها أن تستخدمه للدفاع عن نفسها، كما في مقدورها أن تسيء استعماله بغية الثأر والانتقام. فمن المباح لها أن تشتكي من مرضها، بينما ما كان في مستطاعها في الأرجح أن تتشكى من زواجها. وهي تجد في شخص الطبيب مساعداً لها، فترغم زوجها على مداراتها ـ وهو الذي كان لا يترفق بها في الظروف العادية ـ وعلى الإنفاق من أجلها، وعلى السماح لها بالتغيُّب عن البيت، والإفلات بالتالي لبضع ساعات من ربقة الاضطهاد الذي يحاصرها به. وفي الحالات التي يكون فيها الغنم الخارجي أو العارض الذي يوفره المرض للأنا كبيراً ومتعذراً استبداله بغنم آخر أكثر واقعية، يكون حظ معالجة العصاب كبيراً في أن تبقى عديمة الجدوى.

ستعترضون عليَّ بأن ما أقوله لكم هنا عن الفوائد التي يجنيها المريض من مرضه أدنى إلى أن يكون حجة تعزز التصور الذي كنت نبذته، والذي يقول إن الأنا هو الذي يريد العصاب وهو الذي يخلقه. رويدكم: فالوقائع التي رويتها



لكم قد لا تعني بكل بساطة سوى أن الأنا يطيب له العصاب ويحلو في عينيه، وأنه ما دام لا يملك أن يتحاشاه فإنه يستغله على خير وجه ممكن، وهذا إذا كان مؤاتياً بطبيعة الحال لمقاصده. فعلى قدر ما يكون للعصاب من فوائد، يقابله الأنا بالترحاب، ولكنه لا يكون في الأحوال جميعها ذا نفع وغنم. وإننا لنلحظ بوجه عام أن الأنا، إذ ينساق وراء العصاب، يعقد صفقة خاسرة. فقد دفع ثمناً باهظاً لقاء تخفيف حدّة الصراع، وكل الدلائل تشير إلى أن مشاعر الألم، المواكبة للأعراض، تعادل في الأرجح عذابات الصراع الذي تحلّ محله، فضلاً عن أنها تتسبب في تفاقم الحالة المرضية. وصحيح أن الأنا قد يرنو إلى التخلص مما هو ممضّ في الأعراض، من دون أن يتخلى عن الفوائد التي يجنيها من المرض، لكنه عاجز عن بلوغ هذه النتيجة تحديداً. وهكذا يثبت لنا، وهذه نقطة يجب أن تقرّ في أذهاننا، أن الأنا ليس فعالاً كبير الفعالية إلى الحدّ الذي كان يظنّه.

سادتي، لن يفوتكم أن تلاحظوا، متى ما دعيتم بوصفكم أطباء إلى معالجة المعصوبين، أن ليس الذين يشتكون مرّ الشكوى من مرضهم ويتبرمون أشد التبرم بأوصابهم هم الذين يتقبلون العلاج بأكبر الطواعية وبأقل قدر ممكن من المقاومة. بل العكس هو الصحيح. غير أنه لن يشقّ عليكم أن تدركوا أن كل ما من شأنه أن يزيد في حجم الفوائد المجتناة من الحالة المرضية سيعزز في الوقت نفسه المقاومة وسيعضدها بالكبت وسيزيد من صعوبات العلاج. والحال أنه ينبغي أن نضيف إلى المكسب المرَضي الذي تولد ـ إن جاز القول ـ في آن واحد مع العرض، فائدة أخرى لا ينجلي أمرها إلا في زمن لاحق. فحين يدوم تنظيم نفسي كالمرض ردحاً من الزمن، ينتهي به الأمر إلى أن يسلك مسلك الكيان المستقل بذاته، فيبدي عن دافع أشبه ما يكون بالدافع الغريزي إلى البقاء، ويعقد تسوية ودية للتعايش مع العناصر الأخرى من الحياة النفسية، بما فيها تلك التي تناصبه العداء منها؛ ويندر ألا يجد فرصة ليدلل على نفعه وجدواه في نواحٍ أخرى، وبذلك تصير للمرض **وظيفة ثانوية** تطيل في أمد وجوده وتعزِّزه. لنأخذ، بدلاً من مثل نستقيه من معين علم أسباب نشوء الأمراض، حالة نستمدها من معين الحياة اليومية الجارية. تلكم حالة عامل مستقيم، كان يكسب رزقه بعمله، ووقعت له



حادثة مهنية فأورثته عاهة دائمة. ولما صار قعيداً عن العمل، جُعلت له جراية صغيرة على سبيل التعويض، وتعلم علاوة على ذلك كيف يستغل عاهته في تعاطي التسول. وهكذا صار الأساس الذي يقوم عليه وجوده الراهن، المتردي، هو عين الحادثة التي حطّمت وجوده الأول. ولو جرَّدتموه من عاهته، لانتزعتم منه أولاً وسيلة معاشه، إذ من المشكوك فيه أن يكون لا يزال قادراً على استئناف عمله الأول. وما يناظر، في العصاب، مثل هذا الاستخدام الثانوي للمرض يمكن اعتباره ربحاً ثانوياً من المرض ينضاف إلى الربح الأول.

لكن لزام عليّ أن أصارحكم القول بوجه عام أنه إن كان عليكم ألا تستهينوا بالأهمية العملية للفائدة المجتناة من الحالة المرضية، فليس يجوز لكم بالمقابل أن تنخدعوا بها من الناحية النظرية. فبغضّ النظر عن الاستثناءات التي تقدَّم بيانها، فإن تلك الفائدة تذكرنا بأمثلة «ذكاء الحيوانات» التي أوردها أوبرلاندر OBERLANDER[٢] في **الأوراق الطائرة**. فقد سلك أعرابي على ظهر بعير درباً ضيقاً شُقّ عبر جبل وعر، شديد الانحدار. فلما أدرك منعطفاً من الدرب، إذا به أمام أسد قد تهيأ للانقضاض عليه. ولم يكن أمامه من منفذ: فالجبل قائم عن يمينه بزاوية شبه عمودية، والهاوية فاغرة فاها عن يساره. وأيقن الأعرابي، وقد تعذر عليه الارتداد على عقبيه واللواذ بالفرار، أنه هالك لا محالة. ولكن لم يكن كذلك رأي البعير. بل قفز وراكبه في الهاوية... ولم يصب الأسد مغنماً. والعون الذي يستمده المريض من عصابه أشبه ما يكون بتلك القفزة في الهاوية. ولعل مردّ ذلك إلى أن حلّ الصراع عن طريق تكوين الأعراض لا يعدو أن يكون محض سيرورة آلية غير قمينة بالاستجابة لمتطلبات الحياة وقد لا يدلّل الإنسان، بلجوئه إليها، إلا على عجزه وعزوفه عن استخدام خير ما فيه من قوى وأسماها. ولو كان ثمة إمكان للاختيار، لكان أحرى بالإنسان أن يفضل الهزيمة البطولية، أي تلك التي يلقى فيها حتفه عقب مجابهة نبيلة مع القدر.

٢ ـ أدولف أوبرلاندر: رسام كاريكاتوري ألماني (١٨٤٥ ـ ١٩٢٣). اشتهر برسومه الساخرة عن حيوانات ذات شبه بالإنسان، التي نشرها في مجلة **الأوراق الطائرة** الأسبوعية التي كانت تصدر في ميونيخ. «م».



غير أنه يتعيَّن عليّ أن أبيِّن لكم، سادتي، الأسباب التي حملتني على ألا أبدأ عرضي هذا لنظرية الأعصبة بنظرية العصبية الشائعة. وربما اعتقدتم أني ما نهجت هذا النهج إلا لأني لو كنت سلكت الطريق المضاد لارتطمت بمزيد من الصعاب في بيان المنشأ الجنسي للأعصبة. لكنكم تخطئون. ففي الأعصبة التحويلية يتعيَّن علينا، حتى نصل إلى هذا التصور، أن ننجز أولاً على الوجه المرام عملية تأويل الأعراض. أما في الأشكال الشائعة من الأعصبة المسماة **بالأعصبة الراهنة**[٣]، فإن دور الحياة الجنسية في تسبيب المرض هو بمثابة واقعة خام تثب من تلقاء نفسها لعين الراصد. وقد جابهت هذه الواقعة منذ أكثر من عشرين سنة حينما تساءلت ذات يوم لماذا يصرّ الأطباء على ألا يقيموا اعتباراً، في أثناء فحص العصبيين، لنشاطهم الجنسي. وقد ضحيت يومئذ، في سبيل هذه البحوث، بالتعاطف الذي كنت أنعم به لدى مرضاي، لكنني لم أتجشم جهداً كثيراً كيما أصل إلى الملاحظة التالية وهي أنه لا وجود لعصاب ـ أقصد: عصاب راهن ـ مع حياة جنسية سوية[٤]. صحيح أن هذا الفرض يستخفّ أكثر مما ينبغي بالفروق الفردية بين الناس، وأنه مشوب بعيب عدم التحديد الدقيق لكلمة «سوية»، لكنه لا يزال يحتفظ إلى اليوم بقيمته كاملة من حيث الاتجاه العام. وقد أمكنني يومئذ أن أكشف عن صلات نوعية بين بعض أشكال العصبية وبعض الاضطرابات الجنسية الخاصة، وإني لعلى يقين أني لو أوتيت المادة نفسها والمجموعة نفسها من المرضى لانتهيت اليوم أيضاً إلى إبداء ملاحظات مماثلة. وكثيراً ما أتيح لي أن أعاين أن الإنسان، الذي يقنع بضرب من الإشباع الجنسي الناقص، كالاستمناء باليد مثلاً، يصاب بنوع محدد من العصاب الراهن، وأن هذا النوع سرعان ما يخلي مكانه لنوع آخر من العصاب متى ما أخذ الشخص بنظام جنسي آخر ليس

٣ ـ الأعصبة الراهنة هي الأعصبة التي ينبغي البحث عن سرّها وأصلها في حاضر المريض، لا في تاريخه الماضي، والعرض فيها ليس تعبيراً رمزياً كما في الأعصبة التحويلية، بل هو ناجم مباشرة عن عدم الإشباع الجنسي أو عن ممارسةٍ لنشاط جنسي مكفوف مثل الاستمناء أو الجماع المبتور. وقد أدرج فرويد في عداد الأعصبة الراهنة العصاب الحصَري والنورستانيا وهجاس المرض. «م».

٤ ـ يحيل فرويد هنا ضمنياً إلى مقال كان نشره عام ١٩٠٦ تحت عنوان: **آرائي حول دور الجنسية في نشوء الأعصبة**. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.



مقبولاً هو الآخر. وهكذا تسنى لي أن أتكهن بحدوث تغير في نمط الحياة الجنسية تبعاً لتغير حالة المريض. ومن ثم درجت على عادة لا أحيد عنها، وهي ألا أتراجع عن افتراضاتي وظنوني ما لم أفلح في التغلب على مراوغة المريض وانتزاع الاعترافات منه. ولست أماري في أن المرضى كانوا يفضلون في مثل هذه الحال أن يقصدوا أطباء غيري يكونون أقل مني إلحاحاً في الاستعلام عن حياتهم الجنسية.

كذلك لم يغب عني يومئذ أن أسباب الحالة المرضية لا يمكن ردّها على الدوام إلى الحياة الجنسية. فلئن يكن أحدهم قد تعرَّض مباشرة للمرض من جراء مضرَّة جنسية، فإن غيره من الناس لم يسقط مريضاً إلا في أعقاب خسارة مالية فادحة أو إصابة عضوية منهكة. وتفسير هذا التباين لم يتضح لنا إلا في زمن لاحق، حين بدأنا نستشفّ الصلات المتبادلة ـ وقد كانت إلى ذلك الحين ظنِّية فقط ـ بين الأنا والليبيدو، وكان تفسيرنا يتدانى إلى الاكتمال طرداً مع توفُّر المزيد من الأدلة على هذه الصلات. فالمرء لا يغدو معصوباً إلا حين يفقد أناه القدرة على قمع ليبيدواه بطريقة أو بأخرى. وكلما كان الأنا أقوى، كان من الأسهل عليه أن يقوم بهذه المهمة؛ وكل وهن يطرأ على الأنا، مهما يكن سببه، يعقبه مفعول مماثل لذاك الذي ينشأ عن اشتطاط متطلبات الليبيدو، ومن شأنه بالتالي أن يفتح الطريق إلى المرض العصابي. وهناك أيضاً علاقات أكثر حميمية بين الأنا والليبيدو، لكن بما أن هذه العلاقات لا تعنينا هنا، فلن نشغل بها أنفسنا الآن. على أن ما يبقى أساسياً وغنياً بالفائدة بالنسبة إلينا في جميع الحالات هو أن أعراض العصاب تتظاهر دوماً، أياً يكن الطريق الذي جاءت منه الإصابة، على حساب الليبيدو، وتنمّ بالتالي عن استخدام غير سويٍّ له.

والآن يتعيَّن عليَّ أن ألفت انتباهكم إلى الفارق الجوهري بين الأعصبة الراهنة والأعصبة النفسية التي شغلت الطائفة الأولى منها، وهي الأعصبة التحويلية، حيِّزاً كبيراً من اهتمامنا. ففي الحالين كلتيهما تمتح الأعراض من معين الليبيدو، وتقتضي في الحالين كلتيهما إنفاقاً شاذاً في الليبيدو، وهي في الحالين كلتيهما بدائل عن الإشباع. غير أن أعراض الأعصبة الراهنة، من ثقل في الرأس وإحساس



بالألم وتهيُّج في أحد الأعضاء وضعف أو كفّ لإحدى الوظائف، ليس لها أي «معنى»، أو أي مدلول نفسي. إن هذه الأعراض جسمانية، لا في تظاهراتها فحسب (فتلكم هي أيضاً حال الأعراض الهستيرية مثلاً)، بل كذلك من حيث السيرورات التي تنتجها: فهي تتكون بدون مساهمة أي آلية من تلك الآليات النفسية المعقدة التي تعلَّمنا كيف نعرفها. إنها، إذاً، فعلاً بدنية، فكيف يمكنها، في هذه الشروط، أن تكون مناظرة لاستهلاك ليبيدوي مع أن الليبيدو، كما كنا رأينا، قوة فاعلة في المجال النفسي؟ الجواب عن هذا السؤال ليس أبسط منه شيء. اسمحوا لي، سادتي، بتذكيركم بواحد من أولى الاعتراضات التي وُوجه بها التحليل النفسي. فقد قيل يومئذ إن التحليل النفسي يهدر وقته هباء بإصراره على وضع نظرية سيكولوجية خالصة للظاهرات العصابية مع أن ذلك هو العقم بعينه باعتبار أن النظريات السيكولوجية لا تصلح بتاتاً لأن تعلِّل مرضاً من الأمراض. لكن شاهري هذه الحجة حلا لهم أن يتناسوا أن الوظيفة الجنسية ليست نفسية خالصة، ولا كذلك بدنية خالصة. فهي تؤثر في الحياة النفسية وفي الحياة الجسمية على حدّ سواء. ولئن تعلمنا كيف نتعرف في أعراض الأعصبة النفسية على تظاهرات نفسية للاضطرابات الجنسية، فلن يدهشنا أن نلقى في الأعصبة الراهنة العواقب البدنية المباشرة لهذه الاضطرابات.

يزوِّدنا الطب السريري بمؤشر ثمين ـ يقول به عدد جمّ من الباحثين أصلاً ـ من شأنه أن يعيننا على فهم الأعصبة الراهنة. فهذه الأعصبة تشبه، إن في تفاصيل أعراضها وإن في قدرتها على التأثير على جميع الأجهزة العضوية وعلى جميع الوظائف، شبهاً لا مراء فيه الحالات المرضية الناشئة عن المفعول المستديم لمواد سمِّية خارجية أو عن الإقلاع المفاجئ عن استعمالها، أي حالات التسمم بالإدمان وحالات الحِمْية. وصلة القربى بين هاتين الطائفتين من الآفات تتوثق وتتعمق في الحالات المرضية التي نعزوها، كما في داء بزدوف[٥]، إلى تأثير مواد

٥ ـ داء بزدوف أو التسلّمة: مرض يتميز بجحوظ العينين والارتجاف العضلي وسرعة النبض، ويعزى إلى نشاط مفرط في الغدة الدرقية. وهو منسوب إلى اسم مكتشفه كارل فون بزدوف (١٧٩٩ ـ ١٨٥٤). «م».



سامة تتكون داخل الجسم بفعل عملية الأيض[٦] بدلاً من أن تلجه من الخارج. هذه المماثلة تفرض علينا، في تقديري، استنتاجاً مؤداه أن الأعصبة الراهنة تنجم عن اضطرابات في الأيض الجنسي، سواء أتمثلت هذه الاضطرابات في إفراز مفرط للسموم لا يتحمله الفرد، أم في إساءة استعمال هذه المواد بفعل شروط داخلية أو حتى نفسية. وقد انطوت الحكمة الشعبية منذ القدم على أفكار كهذه بصدد طبيعة الحاجة الجنسية بقولها عن الحب إنه «سُكْر» يحدثه تناول شراب معين[٧]، وإن عزت إلى هذا الشراب أصلاً خارجياً. وهذا ما يذكرنا بالمناطق الشهوية ويدعونا إلى إعمال الفكر في الأطروحة القائلة إن التهيج الجنسي يمكن أن يحدث في أعضاء مختلفة من الجسم. لكن مهما يكن من أمر، فإن اصطلاح «الأيض الجنسي» أو «كيمياء الجنسية» هو في نظرنا قالب بلا محتوى؛ فنحن لا نعلم شيئاً عن هذا الموضوع، ولا يسعنا حتى أن نقول إن ثمة مادتين، أحداهما «مذكرة» والأخرى «مؤنثة»، ولا ندري إن كان يتعيَّن علينا أن نكتفي بالتسليم بوجود سُمِّين[٨] جنسي واحد يكون هو السبب في كل إثارات الليبيدو. والحق أن الصرح النظري الذي شدناه للتحليل النفسي لا يعدو في الواقع أن يكون بنياناً فوقياً لا بدّ من تركيزه يوماً ما على قاعدته العضوية. ولكن ليس لنا علم بعد بطبيعة هذه القاعدة.

إن ما يميز التحليل النفسي، بصفته علماً، ليس المادة التي يعمل فيها، بل التقنية التي يستخدمها. ومن الممكن تطبيق هذه التقنية، من دون أن نجور على طبيعتها، على التاريخ والحضارة، وعلى علم الأديان والميتولوجيا، كما على نظرية الأعصبة. والهدف الأوحد للتحليل النفسي ومساهمته الوحيدة استكشاف اللاشعور في الحياة النفسية. والمشكلات التي تتصل بالأعصبة الراهنة، وهي الأعصبة التي تنشأ أعراضها في أغلب الظن عن إصابات تسممية مباشرة، تكاد لا تصلح للدراسة التحليلية النفسية. وما دامت هذه الدراسة تعجز عن إلقاء أي

---

٦ ـ الأيض Métabolisme: عملية التحول الغذائي، أي البناء والهدم داخل جسم الكائن الحي. «م».

٧ ـ يعرف في القصص الشعبي باسم «شراب الحب». «م».

٨ ـ السُمِّين أو الذيفان أو التوكسين: سمّ بروتيني تفرزه العضويات الحية. «م».



ضوء جديد على هذا الموضوع، فلا خيار لها إلا أن تدع هذه المهمة للبحوث الطبية/ البيولوجية. ولعلكم تدركون الآن لماذا رتَّبتُ مادة البحث التي عرضتها لكم على النحو الذي رتَّبتها عليه. فلو كنت وعدتكم بـ «مدخل إلى نظرية الأعصبة» لكان عليَّ أن أبدأ من الأشكال البسيطة للأعصبة الراهنة لأنتهي إلى الإصابات النفسية الأشد تعقيداً والناجمة عن اضطرابات الليبيدو: فذلك هو بلا جدال الترتيب الأدنى إلى طبيعة الأشياء. وكان يتعيَّن عليّ من ثم أن أعرض عليكم كل ما عرفناه، من مناحٍ شتى، عن الأعصبة الراهنة؛ فإذا ما انتهيت بعد ذلك إلى الأعصبة النفسية تعيَّن عليّ أن أحدِّثكم عن التحليل النفسي باعتباره أهم الوسائل التقنية المساعدة التي في متناولنا لاستكناه هذه الحالات. لكني كنت عزمت على أن أقدم إليكم «مدخلاً إلى التحليل النفسي»، وهذا ما أعلنت عنه لكم. وكان يهمني من ثم أن أعطيكم فكرة عن التحليل النفسي أكثر مما كان يهمني أن أزوِّدكم بمعلومات عن الأعصبة، وهذا ما أعفاني من تقديم الأعصبة الراهنة على غيرها في الدراسة، لأن موضوعها مطلق العقم من وجهة نظر التحليل النفسي. وأعتقد أن ما وقعت عليه من اختيار كان في صالحكم، لأن التحليل النفسي يستأهل العناية والاهتمام من كل شخص مثقف بالنظر إلى عمق مقدماته وتعدد علائقه وصلاته. أما نظرية الأعصبة فباب من الطب، شبيه بأبواب كثيرة غيره.

ومع ذلك، من حقّكم أن تتوقعوا أن نولي الأعصبة الراهنة بعض اهتمامنا. ونحن بالأصل ملزمون بذلك لما بين هذه الأعصبة وبين الأعصبة النفسية من صلات سريرية وثيقة. وعليه أقول لكم إننا نميِّز ثلاثة أشكال خالصة من الأعصبة الراهنة: **النوراستانيا**، و**العصاب الحصري**، و**هجاس المرض**. ولكن حتى هذا التقسيم لم يسلم من الاعتراضات. فصحيح أن هذه الأسماء شائعة الاستعمال، لكن مسمياتها غير محددة وغير مؤكدة. بل ثمة أطباء يعترضون على كل تصنيف في العالم السديمي للظاهرات العصابية، وعلى كل تمييز بين وحدات سريرية وفرديات مرضية، ولا يقرون حتى قِسْمة الأعصبة إلى أعصبة راهنة وأعصبة نفسية. وعندي أن هؤلاء الأطباء يغلون ويشطون، ولا يسلكون الطريق



الذي يفضي إلى التقدم. فتلك الأشكال الثلاثة من العصاب تتبدى أحياناً في صورة نقية خالصة، لكنها تتراكب في أكثر الأحيان فيما بينها أو تندمج مع آفة عصبية نفسية. غير أن هذه الحالة الأخيرة لا تبيح لنا أن نمتنع عن تصنيف تلك الأشكال. وحسبكم أن تتذكروا التمييز الذي يقيمه علم العدانة بين المعادن والفلزات. فالمعادن توصف فرادى، وذلك في أرجح الظن لأنها تأخذ شكل بلورات متمايزة المعالم عما يحيطها ومنفصلة عنه. أما الفلزات فتتألف من كتل مجتمعة من المعادن، واجتماعها يبعد أن يكون عارضاً، بل يتعيَّن بلا ريب بشروط ظهورها. أما فيما يتصل بنظرية الأعصبة فنحن لا نعلم بعد بخصوص مجرى تطورها إلا أشياء زهيدة لا تسمح لنا بأن نشيد بصدد هذا الموضوع نظرية مشابهة لنظرية الفلزات. لكن لا مرية في أننا نسلك الطريق الصحيح حين نبدأ، أول ما نبدأ، بفرز كتلة العناصر السريرية التي لنا بها معرفة، والتي يصحّ أن نقارنها، هي، بالمعادن.

تقوم بين أعراض الأعصبة الراهنة وأعراض الأعصبة النفسية علاقة مثيرة وذات شأن غير هيِّن في معرفتنا بتكوّن الأعراض في الأعصبة الأخيرة: فعرض العصاب الراهن غالباً ما يكون نواة العرض العصابي النفسي اللاحق وطوره التمهيدي. ونلحظ هذه العلاقة بوجه خاص بين النوراستانيا والعصاب التحويلي المعروف بالهستيريا الاستبدالية، وكذلك بين العصاب الحصري والهستيريا الحصَرية، وأخيراً بين هجاس المرض والأشكال التي سنتكلم عنها لاحقاً والتي نسمِّيها بـ«البارافرينيا» (الخبل المبكر والبارانويا). ولنأخذ مثالاً لذلك صداع الرأس أو الأوجاع القطنية الهستيرية. فالتحليل يظهر لنا أن هذه الأوجاع تغدو، عن طريق التكثيف والإزاحة والنقل، إشباعاً بديلاً عن مجموعة بكاملها من الأخاييل أو الذكريات الليبيدوية. لكن هذا لا ينفي أن يكون مرَّ حين من الزمن كانت فيه هذه الأوجاع حقيقية، إذ كانت عرَضاً مباشراً لتسمم جنسي، وتعبيراً جسمانياً عن تنبيه ليبيدوي. ونحن لا نزعم أن جميع الأعراض الهستيرية تشتمل على نواة من هذا النوع، لكن يبقى أن هذه الحالة كثيرة التواتر، وأن الهستيريا يحلو لها أن تستخدم، في تكوين أعراضها، جميع التأثيرات، السوية والمرضية، التي يحدثها



التنبيه الليبيدوي في الجسم. ويكون دور هذه المؤثرات عندئذ شبيهاً بدور حبات الرمل التي تهيج حيوان المحار فيحتمي منها بتغليفها بالمادة الصدفية. وعلى النحو نفسه نجد أن العلامات العابرة للتهيج الجنسي، التي ترافق الفعل الجنسي، تُستخدم من قبل العصاب النفسي كأنسب مادة وأيسرها لتكوين الأعراض.

ثمة سيرورة أخرى من النوع نفسه تتسم بأهمية خاصة من منظور التشخيص والعلاج. فكثيراً ما يحدث لبعض الأشخاص، المهيئين للإصابة بالعصاب والذين لا يعانون بعد من أي عصاب سافر، أن يتأدى لديهم تغيُّر ما يطرأ على الجسم من جراء المرض ـ وعلى سبيل المثال جرح أو التهاب ـ إلى بدء تشغيل آلية تكوين العرض بحيث أن هذا العرض المستمد من الواقع يغدو للحال ممثلاً لجميع تلك الأخاييل اللاشعورية التي كانت تترقب أول فرصة تسنح لتعلن عن نفسها. وفي مثل هذه الحالات يقرر الطبيب تارة علاجاً، وطوراً علاجاً آخر، في مسعى منه إما إلى إلغاء الأساس العضوي، من دون أن يكترث بالصرح العصابي الصاخب الذي يقوم على هذا الأساس، وإما إلى مكافحة العصاب الطارئ، من غير أن يلقي بالاً إلى العامل العضوي الذي تسبَّب في نشوئه. والنتائج المتحصلة هي وحدها التي يمكن أن يكون لها القول الفصل في نجع هذه الطريقة أو تلك، لكن من العسير وضع قواعد عامة لهذه الحالات الخليطة.




مكتبة
الفكر الجديد

المحاضرة الخامسة والعشرون

الحصَر

سيداتي سادتي، إن ما ذكرته لكم في المحاضرة السابقة عن العصبية العامة من شأنه أن يبدو لكم عَرْضاً ناقصاً وغير كافٍ بالمرة. وأنا أعلم ذلك وأعتقد أن أكثر ما أدهشكم، ولا بدّ، هو أني لم أشر بكلمة واحدة إلى الحصر، مع أنه عرض يشكو منه معظم العصبيين ويتحدثون عنه على أنه أرهب عذاباتهم. ذلك الحصر الذي قد يبلغ عندهم درجة قصوى من الشدة ويدفع بهم إلى أغرب الأفعال وأبعدها عن العقل. والحق أني لا أريد التملص من المسألة، بل أنوي على العكس أن أطرح مشكلة الحصر لدى العصبيين بمنتهى الجلاء وأن أعالجها أمامكم تفصيلياً.

لست بحاجة في أغلب الظن إلى وصف الحصر؛ فكل واحد منكم قد ساوره، ولو لمرة واحدة في حياته، هذا الإحساس أو بالأحرى هذه الحالة الانفعالية. غير أنه يخيَّل إليَّ أن الناس لم يتساءلوا بقدر كافٍ من الجِدّ عن السبب في أن العصبيين هم، تحديداً، الأكثر معاناة من غيرهم من الحصر، ومن أشد ضروبه ضراوة. ولعلهم وجدوا أن هذا شيء طبيعي: أفلا تراهم يخلطون في الاستعمال بين كلمتي «العصبي» و«القلِق»[1] ولا يميِّزون بينهما، كما لو أنهما تعنيان شيئاً واحداً؟ وهذا مسلك خاطئ، لأن هناك أناساً قلقين من دون أن

---

١ ـ درج في العربية قول الناس «قلَق» و«قلِق» بدلاً من «حصَر» وحصِر». ولكن بما أن الأوساط العلمية والاختصاصية درجت على ترجمة كلمة ANGOISSE الفرنسية وAngst الألمانية وAnxiety الإنكليزية «بالحصر» فقد أخذنا بدورنا بهذه «الترجمة» بالرغم من أن لفظة «الحصر» مسحوبة من التداول لصالح لفظة «القلق». إلا أنه تجدر الإشارة إلى أن بعض العامة تقول في لبنان: شخص «حاصر» أو عنده «احتصار» ـ «م».



يكونوا عصبيين، كما أن هناك عصبيين تتبدى لديهم أعراض كثيرة عدا الميل إلى الحصر.

مهما يكن من أمر، فمن المؤكد أن مشكلة الحصر هي النقطة التي تلتقي عندها مختلف المسائل وأكثرها أهمية، أو هي اللغز الذي يفترض بحلِّه أن يلقي ضوءاً باهراً على حياتنا النفسية. أنا لا أزعم أني سأقدِّم حلاً كاملاً له، لكنكم تحدسون ولا ريب بأن التحليل النفسي سيتصدى لهذه المشكلة، كما لمشكلات كثيرة غيرها، بوسائل تختلف عن تلك التي يعتمدها الطب التقليدي. فهذا الأخير يصبّ اهتمامه الأول على معرفة ما الطرق التشريحية التي سلكها الحصر، فيعلن أن مردّ الأمر إلى تهيُّج في البصلة السيسائية، ولا يلبث المريض أن يعلم أنه يشكو من عصاب في العصب المبهم. والحق أن البصلة السيسائية موضوع جديّ للغاية وجميل. وإني لأذكر كم كلَّفتني دراستها من وقت وعناء. لكن لزام عليّ أن أقرّ أمامكم اليوم بأن معرفة المسار العصبي الذي تسلكه التنبيهات الصادرة عن البصلة السيسائية لا تعنيني في شيء من منظور الفهم السيكولوجي للحصر.

وبوسعنا، بادئ ذي بدء، أن نتكلم عن الحصر، وأن نطيل الكلام عنه، من دون أن يذهب بنا الفكر إلى العصبية بوجه عام. ولن تحتاجوا إلى أي شرح لتفهموا ما أعنيه حين أشير إلى هذا الحصر باسم الحصر **الواقعي** المنشأ بالتعارض مع الحصر **العصابي**. والحال أن الحصر الواقعي المنشأ يبدو لنا شيئاً معقولاً ومفهوماً للغاية. وسنقول إنه استجابة لإدراك خطر خارجي، أي لضرر مرتقب وأذى متوقع، وإنه مرتبط بالهرب كفعل منعكس، ومن ثم يتوجب اعتباره تظاهراً لغريزة البقاء. فإزاء أي المواضيع، وفي أي المواقف، ينشأ الحصر؟ الأمر مرهون بطبيعة الحال إلى حدّ كبير بمستوى معرفتنا وبمدى شعورنا بالقوة في مواجهة العالم الخارجي. فنحن نرى أنه من الطبيعي أن يستبد الخوف بالإنسان المتوحش لدى مرآه مدفعاً، وأن يعتصره القلق لدى كسوف الشمس، بينما لا يساور الإنسان الأبيض، الذي يعرف كيف يعالج المدفع ويتنبأ بالكسوف، أي قلق في الحالين كليهما. وقد يكون فرط المعرفة أحياناً هو علّة القلق، إذ يتوقع الإنسان الخطر في وقت مبكر. وهكذا يدبّ الخوف في فرائص الإنسان المتوحش إذا ما



وقع نظره في الغابة على آثار أقدام لأنه يعلم من ذلك أن في الجوار حيواناً كاسراً، بينما لا يكترث الغريب لمثل تلك الآثار لجهله بما تدلّ عليه. كذلك، إن البحّار المحنَّك ينظر بفزع إلى سحابة صغيرة تشكلت في أديم السماء لأنها تنذر عنده باقتراب إعصار، بينما لا يأبه المسافر على السفينة للسحابة نفسها.

على أننا لو أمعنَّا في التفكير لرأينا لزاماً علينا أن نقول إنه لا بدّ من إعادة النظر في الرأي القائل إن الحصر الواقعي المنشأ حصر معقول ومتكيِّف مع هدف معين. فالموقف المعقول الوحيد الذي يمكن أن يقفه الفرد إزاء خطر داهم هو أن يقيس قواه الخاصة إلى جسامة الخطر، وأن يقرر بعد ذلك ما أنجع وسيلة للإفلات منه: أهي الهرب أم الدفاع أم حتى الهجوم. لكن ليس ثمة مجال في هذا الموقف للقلق، فكل ما سيحدث سيحدث أيضاً من دونه، وربما على نحو أفضل مما إذا تدخل القلق. وهكذا ترون أن القلق متى ما زاد عن حدّه تحول إلى عقبة تشلّ العمل، بل تشلّ حتى الهرب. وفي الأعمّ الغالب يكون رد الفعل على الخطر مزيجاً من الشعور بالقلق والمسلك الدفاعي. فالحيوان المذعور يشعر بالذعر ثم يهرب، ولكن المخرج المناسب في هذه الحال هو «الهرب» وليس «الذعر».

هكذا نرانا ميالين إلى التوكيد بأن الحصر لا يكون البتة مؤاتياً لغاية منشودة بعينها. لكن ربما كوّنا فكرة أصحّ عن الحصر لو حللنا الموقف الذي ينشأ عنه. وأول ما نجده في هذه الحال أن الفرد يتهيأ للخطر ويتأهب له، وهذا ما يتبدى في إرهاف انتباهه الحواسي وتوتره الحركي. وحالة التأهب والترقب هذه حالة مؤاتية بلا أدنى مراء، ولولاها لتعرَّض الفرد المعني لعواقب وخيمة. ويتفرع من هذه الحالة، من جهة أولى، الفعل الحركي: إما في شكل هرب في بادئ الأمر، وإما في شكل دفاع فعال في مرحلة تالية وعليا؛ ويتفرع منها، من الجهة الثانية، ما نسميه بالحالة الحصرية. وكلما كان تظاهر الحصر محدوداً، وكلما تبدى على أنه محض استطالة أو إشارة، تمّت بسرعة أكبر وبصورة أكثر عقلانية عملية الانتقال من حالة التأهب القلق إلى الفعل. هكذا يبدو لي أن حالة التأهب في ما نسمِّيه بالحصر هي العنصر الوحيد النافع برسم غاية ما، بينما يلوح لي أن تمخُّض الحصر معاكس لكل غاية.



إني أدع جانباً مسألة معرفة ما إذا كانت اللغة الدارجة تعني بكلمات **الحصر والخوف والذعر** ما نعنيه نحن، أم تشير بها إلى شيء آخر. ويتراءى لي أن الحصر يتصل بالحالة النفسية ولا يلقي بالاً إلى الموضوع، بينما يتركز الانتباه في حالة الخوف على الموضوع على وجه التحديد. وبالمقابل، يلوح لي أن للفظ الذعر مدلولاً خاصاً، إذ يشير إلى الأثر الذي يستثيره الخطر في نفس الفرد حينما لا يكون متأهباً له بحالة من الحصر المسبق. وإنه ليمكن القول إن الإنسان يدرأ الذعر عن نفسه بالحصر.

مهما يكن من أمر، فلن يفوتكم أن تلحظوا أن كلمة حصر تستخدم بمعانٍ شتى، وهذا ما يضفي عليها طابعاً مبهماً لامتعيناً. ويُقصد بالحصر في أغلب الأحيان تلك الحالة الذاتية التي تنشأ من إدراك الشخص المعني لـ «تمخُّض الحصر»، ويُطلق على هذه الحالة اسم «الانفعال». والحال، ما الانفعال من وجهة النظر الدينامية؟ إنه، على كل حال، شيء بالغ التعقيد. فالانفعال ينطوي أولاً على بعض تعصيبات INNERVATIONS أو تصريفات حركية، ومن ثم على بعض أحاسيس. وهذه الأخيرة على نوعين: أحاسيس تنشأ عن إدراك الأفعال الحركية المؤداة، وأحاسيس مباشرة باللذة والكدر تضفي على الانفعال ما نسمِّيه بنبرته الأساسية. غير أني لا أعتقد أن تعداداً كهذا يستوعب كل ما يمكن قوله بصدد طبيعة الانفعال. ففي بعض الانفعالات نستطيع، على ما يتراءى لنا، أن ننفذ إلى ما وراء هذه العناصر وأن نرى أن النواة التي يتبلور حولها البنيان بمجمله قوامها تكرار خبرة هامة وبعيدة الدلالة عاشها الفرد في ماضيه. وقد لا تعدو هذه الخبرة أن تكون انطباعاً سحيق القدم، من نوع بالغ العمومية، أي انطباعاً ينتمي إلى ما قبل تاريخ النوع، لا الفرد. وتيسيراً للفهم عليكم، سأقول إن الحالة الانفعالية ذات بنية مماثلة لبنية النوبة الهستيرية، إذ إن قوامها، مثلها، رسابةُ ذكرى. وعلى هذا تكون النوبة الهستيرية قابلة للتشبيه بحالة انفعالية فردية حديثة التكوين، كما تكون الحالة الانفعالية السوية قابلة للتشبيه بتمخُّض هستيريا سلالية صارت وراثية.

لا تحسبوا أن ما أقوله لكم هنا بصدد الانفعالات يؤلف مكتسباً معترفاً به من



قبل علم النفس العادي. بل ولدت هذه التصورات، على العكس، على أرض التحليل النفسي، ولا تربة غيره تصلح لأن تعيش فيها. فما يقوله علم النفس عن الانفعالات، كنظرية جيمس ـ لانج[٢] مثلاً، هو عندنا، نحن أنصار التحليل النفسي، شيء غير مفهوم ومتعذر نقاشه. لكننا نحن أنفسنا لا نعتبر ما نعرفه عن الانفعالات بحكم الثابت الأكيد. ورجائي ألا تروا في ما سأقوله لكم حول الموضوع سوى محاولة أولية لتلمُّس طريقنا في هذا الميدان الغامض. وعليه، سأواصل ما انقطع من حديثي بصدد الانفعال الحصَري فأقول: إننا نعتقد أننا نعرف ما هو ذلك الانطباع السحيق القدم الذي يبتعثه هذا الانفعال بشكل تكرار. إننا نزعم أنه لا يمكن أن يكون سوى واقعة الميلاد؛ ففي أثناء الميلاد يحدث ذلك التجمع لجميع أحاسيس العناء والكدر، ولجميع الحاثات التصريفية وجميع الأحاسيس الجسمانية التي تؤلف في مجموعها نموذجاً للأثر الذي يحدثه في النفس خطر داهم يتهدد الحياة والذي لا بدّ أن يكون ساورنا مراراً وتكراراً منذئذ في صورة حالة حصر. وعلة التجربة الحياتية الحصَرية ساعة الميلاد هي التزايد الهائل في التهيج بفعل توقف تجديد الدم (أي توقُّف التنفس الداخلي)؛ وعليه، إن أول حصر في حياة الفرد يكون من طبيعة سُمِّية. وكلمة حصر (باللاتينية ANGUSTIAE وبالألمانية ENGE) تشفّ تحديداً عن ذلك العسر أو الضيق في التنفس الذي ينجم في ساعة الميلاد عن موقف واقعي والذي يتكرر بعد ذلك باطراد في الحالة الانفعالية. وإنه لأمر له دلالته أيضاً في نظرنا أن تكون تلك الحالة الحصرية الأولى ناشئة عن انفصال الجنين عن أمه. ونحن نعتقد بطبيعة الحال أن الاستعداد لتكرار هذه الحالة الحصرية الأولى التحم، عبر عدد لا يقع تحت حصر من الأجيال، بالجسم البشري التحاماً لا فكاك فيه بحيث بات متعذراً على أي فرد الإفلات من إسار هذه الحالة الانفعالية حتى ولو «أُنتزع انتزاعاً من

٢ ـ كارل جورج لانج: طبيب نفسي دانمركي (١٨٣٤ ـ ١٩٠٠). توصل بصورة مستقلة إلى نفس النظرية التي توصل إليها الفيلسوف الأميركي وليم جيمس (١٨٤٢ ـ ١٩١٠) والتي تقول إن الانفعال هو شعور ثانوي ناجم عن إحساس أولي يرتبط باستجابة فيزيولوجية مثل التوتر العضلي أو تسارع نبض القلب أو جفاف الفم. فعُرفت هذه النظرية باسميهما معاً. «م».



أحشاء أمه» نظير «ماكدوف»[٣] الخرافي، أي جاء إلى العالم عن طريق آخر غير الولادة الطبيعية. ونحن نجهل ما كانه النموذج الأول للحالة الحصرية لدى غير الثدييات من الحيوانات. ولهذا نجهل أيضاً جملة الأحاسيس التي تناظر لدى هذه الحيوانات حصَرَنا.

ربما ثار بكم الفضول لمعرفة الكيفية التي توصلنا بها إلى فكرة أن واقعة الميلاد هي المصدر والنموذج الأول لانفعال الحصر. الحق أن هذه الفكرة بعيدة أقصى ما يمكن أن يكونه البعد عن التأمل والنظر المجرد؛ وقد اقتبستها بالأولى من معين الحكمة الساذجة لعامة الناس. فذات يوم ـ قبل سنوات كثيرة خلت ـ كنا نفراً من الأطباء الناشئين مجتمعين حول مائدة في المطعم، فروى لي طبيب مساعد في عيادة التوليد واقعة طريفة حدثت خلال الامتحان الأخير للقابلات القانونيات. فقد سئلت إحدى المرشحات عما يعني وجود العقبي[٤] في ماء الولادة، فأجابت بلا تردد: «يعني أن الطفل مذعور». وقد أضحك هذا الجواب الفاحصين، فما أجازوا المرشحة. أما أنا فقد وجدتني أنحاز بيني وبين نفسي إليها، وراودني ظن بأن هذه المرأة المسكينة من عامة الشعب قد حدست صادقة بعلاقة لها أهميتها.

لننتقل الآن إلى الحصر العصابي، ولنتساءل عما يتسم به من تظاهرات جديدة وصلات جديدة. والحق أننا نستطيع أن نفيض القول في هذا الموضوع. فأول ما نجده عند هؤلاء العصبيين حالة عامة من الحصر، حصر عائم إن جاز القول، متأهب للتشبث بمضمون أول خاطر يمكن أن يتخذ منه ذريعة وحجة؛ فهو يؤثِّر في أحكام المرضى، ويختار التوقعات والترقبات، ويترصد الفرص والسوانح كافة ليجد لنفسه تبريراً. ونحن نطلق على هذه الحالة اسم «الحصر الترقُّبي» أو «الترقب القلِق». فالأشخاص الذين يقاسون هذا الحصر يتوقعون على الدوام أسوأ الاحتمالات وأوخمها، بل يرون في كل حادث عارض نذيراً بخطب، ويميلون على الدوام إلى تأويل الوقائع والأحداث على أسوأ وجوهها إذا كان الشك

---

٣ ـ ماكدوف: بطل خرافي تدوولت قصته في إسكتلندا في القرن الرابع عشر. لم يولد ولادة طبيعية بل انتزع من أحشاء أمه انتزاعاً. وألبسه شكسبير ثوب قاتل مكبث في مسرحيته التي تحمل هذا الاسم. «م».

٤ ـ العقبي MÉCONIUM: أول براز للطفل ساعة الميلاد. «م».



يحيط بنتائجها. وهذا النزوع إلى توقُّع الشر سمة طبعية عند كثيرين من الأشخاص ممن لا يبدو عليهم، باستثناء ذلك، أثر للمرض البتة. وهؤلاء يعابون على مزاجهم الكدر وتشاؤمهم. لكن حصر الترقب يطّرد وجوده، وبدرجة ملحوظة من الشدة، في آفة عصبية أطلقتُ عليها اسم «العصاب الحصري» وصنَّفتها في عداد الأعصبة الراهنة.

على النقيض من هذا الشكل من الحصر، ثمة شكل آخر روابطه نفسية بالأحرى، وأواصره مشدودة إلى مواضيع أو مواقف بعينها. ذلك هو الحصر الذي يسم بميسمه ضروب «الرهاب» PHOBIE الكثيرة التنوع والغريبة المظهر في أغلب الأحيان. وقد أخذ عالم النفس الأمريكي الشهير ستانلي هال HALL[٥] على عاتقه ذات مرة أن يقدم لنا طائفة بكاملها من هذه الأرهبة بأسماء إغريقية ظريفة. وكان عمله هذا شبيهاً بتعداد مصائب مصر العشر[٦]، لكن مع فارق واحد وهو أن تعداد الأرهبة أكثر بكثير. وهأنذا أعدِّد لكم كل ما يمكن أن يصبح موضوعاً أو مضموناً لرهاب: الظلام، الهواء الطلق، الأماكن المفتوحة، القطط، العناكب، السرفات، الثعابين، الفئران، العاصفة، الرؤوس المدبَّبة، الدم، الأماكن المقفلة، الجموع البشرية، الوحدة، عبور الجسور، السفر بحراً أو بالسكة الحديدية، إلخ. وإذا ما بذلنا محاولة أولى لنهتدي إلى طريقنا وسط هذه الزحمة، لاحت لنا إمكانيةٌ لتمييز ثلاث فئات من الأرهبة. فبعض هذه الموضوعات أو المواقف المخوِّفة لها جانب مخيف فعلاً، حتى بالنسبة إلينا نحن الأسوياء لما تستحضره في أذهاننا من خطر، ولهذا لا تبدو لنا هذه الأرهبة مستغربة، غير مفهومة، وإن وجدناها على درجة مسرفة من الشدة. وعلى هذا النحو يساورنا، أكثرنا، شعور بالتقزز لدى رؤية ثعبان. بل يسعنا القول إن رهاب الثعابين رهاب يعمّ البشرية جمعاء، وقد وصف ش. داروين وصفاً أخاذاً الذعر الذي دبّ في أوصاله لدى مرآه ثعباناً

---

٥ ـ غرانفيل ستانلي هال: عالم نفس أمريكي (١٨٤٤ ـ ١٩٢٤). من أشهر رواد علم النفس التجريبي في الولايات المتحدة، وقد أبدى تجاه التحليل النفسي تعاطفاً. «م».

٦ ـ هي المصائب التي تقول التوراة إن يهوه أنزلها على أرض مصر وبشعبها ليرغم الفرعون على إطلاق سراح العبريين والإذن لهم بالمهاجرة. «م».



يزحف باتجاهه، وهذا بالرغم من وجود أسطوانة زجاجية سميكة كانت تقيه شرَّه[٧]. وندرج في الفئة الثانية الحالات التي لا تكون هي الأخرى منقطعة الصلة بالخطر، ولكنه خطر اعتدنا ألا نعتدّ به وألا ندخله في حسابنا. فنحن نعلم أن السفر بالسكة الحديدية ينطوي من المجازفة (خطر التصادم) على قدر أكبر مما لو مكثنا في بيوتنا لا نبرحها، ونعلم كذلك أن المركب قد يبتلعه البحر فنلقى مصرعنا غرقاً، ومع ذلك نسافر بالسكة الحديدية أو بالسفينة بلا حصر، ومن دون أن نفكّر بتلك الأخطار. ومن المحقق كذلك أننا سنهوي إلى الماء إذا ما انهار الجسر لحظة عبورنا فوقه، ولكن ذلك نادر الحدوث إلى حدّ لا نقيم معه اعتباراً البتة لهذا الخطر المحتمل. ولا تخلو الوحدة بدورها من بعض الأخطار، ونحن نتحاشاها في بعض الظروف، ولكن لا يترتب على ذلك أننا نعجز عن احتمال الوحدة لهنيهة من الزمن كائنة ما كانت الذريعة أو الظروف. وهذا كله يصدق أيضاً على الجموع، والأماكن المقفلة، والعاصفة، إلخ. والحق أن ما يبدو لنا مستغرباً في أرهبة المعصوبين هذه ليس مضمونها، بل شدّتها. فالحصر الذي ينشأ عن الأرهبة هو بكل بساطة عديم الجدوى، ويخالجنا أحياناً الانطباع بأن العصابيين لا يساورهم إطلاقاً الحصر إزاء نفس الموضوعات ونفس المواقف القمينة بأن تثير جزعنا نحن في بعض الظروف، والتي يسمونهم بمثل ما نسميها نحن.

تبقى فئة ثالثة من الأرهبة، وهي فئة يستغلق فهمها علينا. فعندما نرى رجلاً ناضجاً، قوياً، ينتابه خوف وحصر حين يتعيَّن عليه أن يعبر شارعاً أو ساحة في المدينة التي رأى فيها النور والتي يعرف زواياها وخباياها طراً، أو حين نبصر بامرأة سليمة معافاة في الظاهر تقع فريسة رعب مجنون لأن هراً مسّ طرف تنورتها أو لأن فأراً ولج إلى الغرفة، فكيف يسعنا أن نقيم صلة بين خوف ذلك الرجل أو هذه المرأة من جهة، وبين الخطر الذي لا وجود له بالبداهة إلا في نظر الرهابي وحده من الجهة الأخرى؟ أما الأرهبة التي موضوعها الحيوانات، فلا يمكن تفسيرها بالشطط في النفور البشري العام من الحيوانات، إذ لدينا دليل على

٧ ـ الإشارة هنا إلى كتاب تشارلز داروين: **التعبير عن العواطف لدى الإنسان والحيوان**، لندن ١٨٧٢. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.



العكس في كون الكثيرين من الناس لا يملكون كلما مروا بقطّ إلا أن ينادوه ويداعبوه. كما أن الفأرة، التي تذعر لها النساء أشد الذعر، أُستعير اسمها في صياغة تعبير من تعابير الودّ العارم: فالفتاة التي يطيب لها أن يناديها خطيبها بـ«فأرتي الصغيرة» تطلق هي نفسها صيحة فزع حين يقع نظرها على الحيوان الصغير الرشيق المعروف بهذا الاسم. أما فيما يتعلق بالأشخاص الذين يعانون من حصر الشوارع والساحات، فلا نجد تفسيراً أو وسيلة أخرى لتعليل حالتهم سوى أن نقول إنهم يسلكون مسلك الأطفال. فالتربية تعلِّم الطفل مباشرة أن عليه أن يتفادى مثل هذه المواقف لما تنطوي عليه من خطر. وبالفعل، إن صاحبنا المصاب برهاب الخلاء لا يعود يساوره حصر إذا ما اجتاز الساحة بصحبة أحدهم.

إن شكلي الحصر اللذين تقدَّم وصفهما، أي حصر الترقب الطليق من كل قيد، والحصر المرتبط بالأرهبة، مستقلان واحدهما عن الآخر. وليس يسعنا القول إن أحدهما يمثل مرحلة أكثر تقدماً من تلك التي يمثلها الآخر، وهما لا يجتمعان معاً إلا بصورة استثنائية وكما لو من قبيل الاتفاق والمصادفة. وليس من المحتم أن تتظاهر حالة الحصر العامة، مبلغاً ما بلغت شدّتها، من خلال الأرهبة؛ فثمة أشخاص يسم رهاب الخلاء حياتهم بميسمه، ولكنهم لا يعانون مع ذلك بصورة من الصور من حصر الترقب المتشائم. والثابت أن بعض الأرهبة، كرهاب الساحات أو رهاب السكة الحديدية، إلخ، لا يتم اكتسابها إلا في سن النضج، بينما تفرض أرهبة أخرى، كرهاب الظلام ورهاب العاصفة ورهاب الحيوانات، وجودها منذ السنوات الأولى من الحياة. وأما الأولى فدالة على أمراض خطيرة، وأما الأخيرة فتبدو بالأحرى ضرباً من غرابة الأطوار وشذوذها. وعندما يظهر لدى فرد من الأفراد رهاب من هذه الفئة الأخيرة، يكون مباحاً لنا أن نشتبه في وجود أرهبة أخرى من النوع نفسه لديه. وعليَّ أن أضيف أننا نصنِّف جميع هذه الأرهبة في باب **الهستيريا الحصَرية**، أي أننا نعدُّها إصابة قريبة الصلة جداً بالهستيريا الاستبدالية.

يضعنا الشكل الثالث من الحصر العصابي في مواجهة لغز، إذ تغيب عن أنظارنا تماماً العلاقات بين الحصر وبين الخطر المتوعِّد. ففي الهستيريا، مثلاً،



يتظاهر هذا الحصر بصحبة الأعراض الهستيرية الأخرى، أو قد يظهر في أي شرط آخر من شروط التنبيه والإثارة. ولكم يدهشنا في مثل هذه الحال، ونحن نتوقع تظاهر حالة انفعالية ما، أن ينوب منابها الحصر، وهو أبعد ما كنا نتوقعه. وأخيراً، يمكن أن يتظاهر الحصر من دون أن تكون له صلة بأية ظروف، وعلى نحو نعيا كما يعيا المريض عن فهمه، فكأنه نوبة تلقائية وحرة لا مجال معها للكلام عن خطر أو ذريعة يكون من نتيجة الغلو فيهما حدوث هذه النوبة. ونلاحظ، في أثناء هذه النوبات العفوية، أن تلك الحالة المتشابكة التي نطلق عليها اسم الحالة الحصرية قابلة للتفكيك. فالنوبة في جملتها يمكن أن ينوب منابها عرض واحد، على درجة كبيرة من الشدة، كالارتعاد أو الدوار أو خفقان القلب أو ضيق التنفس، بينما لا يكون ثمة وجود، أو على كل حال وجود ظاهر، لذلك الانفعال العام الذي به نتعرف الحصر. ومع ذلك، إن هذه الحالات التي نصفها باسم «مكافئات الحصر» ينبغي أن نعادل بينها وبين الحصر من جميع المناحي، السريرية والإتيولوجية.

هنا يبرز لنا سؤالان. هل ثمة رابط ما بين الحصر العصابي، الذي لا يلعب فيه الخطر أي دور أو لا يلعب سوى دور طفيف، وبين الحصر الواقعي المنشأ الذي هو على الدوام ومن الأساس ردّ فعل على خطر؟ ثم كيف ينبغي لنا أن نفهم هذا الحصر العصابي؟ ذلك أننا نودّ أن نتمسك، بكل تأكيد، بتوقّعنا التالي: كلما وجد حصر، فلا بدّ أن يكون ثمة شيء ما يستثير هذا الحصر.

تمدنا المشاهدة السريرية بعدد من العناصر التي من شأنها أن تعيننا على فهم الحصر العصابي. وسأناقش دلالتها أمامكم.

أ ـ لا يعسر علينا أن نبيِّن أن حصر الترقب أو القلق العام يرتبط ارتباطاً وثيقاً ببعض سيرورات الحياة الجنسية، أو بتعبير أدق ببعض توظيفات الليبيدو. وأبسط أمثلة هذا النوع وأبلغها دلالة نلفاه لدى الأشخاص الذين يتعرضون لتنبيه محبط، أي لتهيج جنسي عنيف لا يجد له تصريفاً كافياً ولا يفضي إلى غايته من الإشباع. ذلكم هو، على سبيل المثال، حال بعض الرجال في أثناء مدة الخطوبة، أو بعض النساء اللاتي لا ينعم أزواجهن بقوة جنسية سوية أو هم



يتسررون الفعل الجنسي أو لا يمضون به إلى نهايته بداعي الحذر والاحتياط. ففي مثل هذه الظروف يختفي التنبيه الليبيدوي لينوب منابه الحصر، إما في شكل حصر ترقبي أو في صورة نوبة أو مكافئ لنوبة حصرية. وإذا ما غدا الجماع المبتور COITUS INTERRUPTUS هو النظام الجنسي المعتاد تفادياً للحمل، صار لدى الرجال، وعلى الأخص لدى النساء، علة مطردة للعصاب الحصري بحيث يتوجب على الأطباء المعالجين، كلما واجهوا شبيه هذه الحالة، أن يتحروا بادئ ذي بدء عن هذا السبب الإتيولوجي. فإذا ما فعلوا تسنت لهم أكثر من فرصة واحدة ليشاهدوا زوال العصاب الحصري حالما يقلع الشخص المعني عن هذا التقنين الجنسي.

وعلى حدّ علمي، إن الصلة بين التقنين الجنسي وحالات الحصر لم تعد موضوع جدل حتى في أوساط الأطباء الغرباء عن التحليل النفسي. لكنني أتكهن بأنهم لن يحجموا عن محاولة قلب المعادلة، فيزعموا أن أولئك الأشخاص يمارسون التقنين الجنسي على وجه التحديد لأن لديهم استعداداً مسبقاً للحصر. غير أن هذا الرأي يدحضه دحضاً باتاً موقف المرأة التي يتسم النشاط الجنسي لديها بطبيعة سلبية في جوهره، وذلك بقدر ما يخضع للكيفية التي يعاملها بها الرجل. فكلما زاد شبق المرأة وتوقها إلى الجماع وقدرتها على اجتناء الإشباع منه، ردّت على عنة الرجل والجماع المبتور بظاهرات حصرية، في حين أن هذه الظاهرات تكاد لا تعلن عن وجودها لدى امرأة مصابة بالخدار الجنسي أو فاترة الليبيدو.

إن القطاعة الجنسية، التي يدعو بعض الأطباء إليها بحرارة بالغة في أيامنا هذه، لا تيسّر بطبيعة الحال نشوء حالات الحصر إلا إذا كان الليبيدو، المسدودة عليه طرق التصريف الإشباعي، على درجة معينة من الشدة ولم يذهب الإسماء بالجزء الأكبر منه. فنشوء الحالة المرضية موقوف دوماً على عوامل كمية. ولكن حتى لو صرفنا النظر عن المرض وركّزنا اهتمامنا على طبع الشخص، لما شقّ علينا أن نتبين أن التقنين الجنسي هو من نصيب الأشخاص الذين من طبعهم التردد والميل إلى الشك والقلق، بينما ذوو الطبع المقدام، الشجاع، لا يطيقون في أغلب الأحيان



التقنين الجنسي. ومهما تكن التعديلات والتعقيدات التي تطرأ على هذه العلاقات بين الطبع والحياة الجنسية تحت تأثير مختلف شروط الحياة الحضارية، يبقَ الحصر مرتبطاً بالنسبة إلى غالبية البشر بالتقنين الجنسي.

هيهات أن أكون قد أحطتكم علماً بجميع المشاهدات التي تؤيد هذه العلاقة التكوينية بين الليبيدو والحصر. فثمة مجال لأن نتكلم بعد، في هذا الصدد، عن الدور الذي تلعبه، في نشوء الأمراض ذات الصفة الحصرية، بعض مراحل الحياة التي تيسِّر بلا مراء فورة الليبيدو، كما في سنّ البلوغ والإياس[8]. وفي بعض حالات التهيج نستطيع أن نلحظ بصورة مباشرة تراكب الحصر والليبيدو وحلول ذاك محل هذا حلولاً نهائياً. ومن هذه الوقائع نستخلص نتيجة مزدوجة: فالمسألة على ما يتراءى لنا مسألة تراكم في الليبيدو المعاق عن مجراه السوي، كما أن السيرورات التي نحن بصددها هي جميعها من طبيعة جسمانية ليس إلا. ولسنا ندري إلى اليوم كيف يتولد الحصر من الليبيدو؛ وكل ما نلحظه أن الليبيدو غائب وأن الحصر قد حلّ محله.

ب ـ يمدّنا تحليل الأعصبة النفسية، وبخاصة الهستيريا، بمؤشر آخر. فنحن نعرف من قبل أن الحصر في هذا المرض يظهر في كثير من الأحيان مصاحباً لأعراض، لكننا نلحظ فيه أيضاً حصراً مستقلاً عن الأعراض يتظاهر إما في صورة نوبات أو يلبس لبوس الحالة الدائمة. ويعجز المرضى عن تحديد سبب شعورهم بالحصر، ونراهم يربطون حالتهم، عن طريق صياغة ثانوية سهل تعرُّفها، بالأرهبة الدارجة المألوفة: رهاب الموت والجنون والسكتة[9]. وعندما نحلِّل الموقف الذي تولَّد عنه الحصر أو الأعراض المصحوبة بحصر، يتاح لنا في العادة أن نكتشف التيار النفسي السويّ الذي أعيق عن مجراه فحلّت محله ظاهرة الحصر. وبتعبير آخر، نستعيد السيرورة اللاشعورية كما لو أنها نجت من الكبت وتابعت طريقها وصولاً إلى الشعور. والمفروض أن يكون قد صاحب هذه السيرورة انفعال معيَّن، لكن كم يدهشنا أن نلاحظ أن هذا الانفعال الذي

٨ ـ الإياس: سن انقطاع الطمث لدى المرأة. «م».

٩ ـ القلبية أو الدماغية. «م».



يصاحب جريان السيرورة السويّ قد كُبت في الأحوال جميعاً، كائناً ما كان نوعه، وحلّ محلّه الحصر. وعلى هذا، ومتى ما كنا بصدد حالة حصر هستيري، كان من حقنا أن نفترض أن تكلمتها اللاشعورية قد تكون إما انفعالاً من النوع نفسه ـ توجس، خجل، حيرة ـ وإما تهيجاً ليبيدوياً لا يحتمل لبساً، وإما أخيراً انفعالاً عدائياً وعدوانياً كالسخط أو الغضب. إذاً، فالحصر هو العملة المتداولة التي بها تُقايَض أو يمكن أن تقايَض جميع الحاثات الانفعالية حين يُنحّى مضمونها عن التمثل ويقع فريسة الكبت.

ج ـ الخبرة الثالثة يزوِّدنا بها المرضى ذوو الأفعال القهرية، وهم من المرضى الذين يبدون إلى حدّ لافت للنظر وكأنهم بمنجاة من الحصر. فعندما نحاول أن نحول بين هؤلاء المرضى وبين أداء أفعالهم القهرية، من اغتسال أو طقوس، إلخ، أو عندما يتجرؤون هم أنفسهم على الإقلاع عن بعض وساوسهم، انتابهم حصر رهيب يرغمهم على الصدوع للآمر الوسواسي. وعندئذ نفهم أن الحصر كان مختفياً، ليس إلا، وراء الفعل القهري، وأنهم ما كانوا يؤدون هذا الفعل إلا باعتباره وسيلة للتملص من الحصر. وهكذا لا يفصح الحصر عن نفسه في العصاب الوسواسي ولا يتظهَّر، إذ تنوب منابه الأعراض. وإذا اتجهنا نحو الهستيريا وجدنا فيها الموقف نفسه كنتيجة للكبت: فإما حصر خالص، وإما حصر مصاحب للأعراض، وإما أخيراً مجموعة أكمل من الأعراض بلا حصر. من المباح لنا إذاً فيما يبدو أن نقول بصورة مجردة إن الأعراض لا تتكون إلا للحيلولة دون تظاهر الحصر، ولولاها لأعلن عن وجوده لا محالة. وهذا التصور يضع الحصر في مركز الصدارة من الاهتمام الذي نوليه للمشكلات ذات الصلة بالأعصبة.

لقد أسلمتنا ملاحظتنا عن العصاب الحصري إلى نتيجة مؤداها أن حيَدان الليبيدو عن تثميره السوي ـ وهو الحيدان الذي يتولد عنه الحصر ـ هو ثمرة سيرورات جسمانية خالصة. وقد أتاح لنا تحليل الهستيريا والأعصبة الوسواسية استكمال تلك النتيجة، إذ أوضح لنا أن الحيَدان والحصر يمكن أن ينجما أيضاً عن تدخل عوامل نفسية. هذا كل ما نعرفه عن كيفية نشوء الحصر العصابي؛ ولئن



بدا أنه لا يزال يكتنفه قدر كبير من الإبهام، فلست أتبين في الوقت الراهن من طريق حقيق بأن يمضي بنا إلى أبعد من ذلك.

أما المشكلة الثانية التي كنا أخذنا على عاتقنا أن نجد حلاً لها، وهي بيان الصلة بين الحصر العصابي، الناجم عن تثمير شاذ لليبيدو، وبين الحصر الواقعي المنشأ، الذي هو استجابة لخطر، فتبدو أصعب حلاً من سابقتها. وقد يتراءى لكم أن هذين النوعين من الحصر مختلفان كل الاختلاف واحدهما عن الآخر، ومع ذلك لا نملك أية وسيلة تتيح لنا أن نميّز، على مستوى الإحساس، بين الحصر العصابي والحصر الواقعي المنشأ.

غير أن الصلة المفتقدة سرعان ما تنجلي للعيان لو أخذنا بعين الاعتبار التعارض الذي أكدنا مراراً وتكراراً على وجوده بين الأنا والليبيدو. فالحصر، كما نعلم، يتظاهر بصفته ردّ فعل من قبل الأنا على خطر ما، ويكون بمثابة الإشارة التي تعلن عن الهرب وتمهّد له؛ ولا شيء يمنعنا من الافتراض، عن طريق التشابه والمقايسة، بأن الأنا في الحصر العصابي يحاول أن يتملص عن طريق الهرب من متطلبات الليبيدو، وأنه يتصرف إزاء هذا الخطر الداخلي كما لو كان خطراً خارجياً. وهذا التصور يبيح لنا أن نستنتج أنه كلما وجد حصر وجد أيضاً شيء يكون علة لهذا الحصر. لكننا نستطيع أن نمضي في المقايسة إلى أبعد من ذلك بعد. فكما أن محاولة الهرب من خطر خارجي تفضي إلى التوقف وإلى اتخاذ بعض التدابير الدفاعية اللازمة، كذلك فإن تكوين الأعراض يوقف تمخُّض الحصر ويحلّ في نهاية المطاف محلّه.

هنا تنتقل صعوبة فهم الصلات المتبادلة بين الحصر والأعراض إلى ناحية أخرى. فالحصر، الذي ينمّ عن فرار الأنا من الليبيدو، متولد أصلاً عن هذا الأخير. وهذه حقيقة واقعة وإن كانت لا تثب إلى العين من تلقاء نفسها؛ لذا لا يجوز أن يغيب عنا أن الليبيدو عند شخص من الأشخاص هو جزء منه ولا يمكن لهذا الشخص أن يقف موقف المعارضة منه كما لو كان شيئاً خارجياً. والشيء الذي يبقى غامضاً بعد في نظرنا هو الدينامية الطبوغرافية لتمخُّض الحصر، أي معرفة ما كنه الطاقات النفسية التي يجري إنفاقها في هذه الأحوال، وعن أية



أنسقة نفسية تصدر هذه الطاقات. ولا يسعني أن أعدكم بأجوبة عن هذه الأسئلة، لكننا لن نتوانى عن اقتفاء أثرين آخرين وعن التوجه من جديد نحو الملاحظة المباشرة والبحث التحليلي لنسألهما تأييداً لاستنتاجاتنا النظرية. وعلى هذا سنطرق باب تمخُّض الحصر لدى الأطفال، وباب مصدر الحصر العصابي المقترن بأرهبة.

إن حالة الحصر شائعة جداً بين الأطفال، ومن العسير جداً في كثير من الأحيان أن نحدد هل هذا الحصر عصابي أو واقعي المنشأ. وموقف الطفل ذاته هو ما يجعلنا نشكّ في قيمة أي تمييز قد نقيمه عند الاقتضاء. فمن جهة، لا نستغرب البتة أن يتوجس الطفل خيفة حيال الأشخاص الجدد والمواقف الجديدة والمواضيع الجديدة، ونفسر بلا عناء ردّ فعله هذا بضعفه وجهله. إذاً نحن نعزو إلى الطفل نزوعاً قوياً إلى الحصر الواقعي المنشأ، وقد نرى أنه من الطبيعي أن يقال لنا إن الطفل حمل معه حالة الحصر هذه في شكل استعداد موروث حينما جاء إلى العالم. وبذلك يكرر الطفل موقف الإنسان البدائي السالف أو الإنسان المتوحش في أيامنا هذه عندما يساوره، بسبب جهله وقلّة حيلته ونقص وسائله الدفاعية، شعور بالخوف حيال كل ما هو جديد، وحيال الأشياء التي باتت مألوفة لنا ومستأنسة بحيث ما عادت تستثير لدينا أدنى توجس. وإنه لمما يتمشى مع توقعنا أن تكون أرهبة الطفل هي عينها، في شطر منها على الأقل، الأرهبة التي نعزوها إلى تلك المراحل البدائية من التطور البشري.

ولا يجوز أن يفوتنا، من جهة أخرى، أن الأطفال لا يتساوون من حيث درجة تعرضهم للحصر، وأن من يبدي منهم حصراً شديداً حيال شتى المواقف والمواضيع هو المرشح تحديداً لأن يكون معصوباً في المستقبل. إذاً، فالاستعداد العصابي يجد تعبيره في نزوع قوي إلى الحصر الواقعي المنشأ؛ ومن ثم، إن حالة القلق، لا العصاب، هي الحالة الأسبق إلى الظهور؛ ومن هنا يمكن لبعضهم استخلاص نتيجة مؤداها أن الطفل، وفيما بعد الراشد، إذا كان يساورهما شعور بالحصر إزاء قوة الليبيدو عندهما فهذا على وجه التحديد لأنهما يشعران بالحصر إزاء كل شيء. ومثل هذا التصور ينكر، في النتيجة، أن يكون الحصر متولداً عن

الليبيدو؛ ومن ثم، إننا لو تفحصنا جميع شروط الحصر الواقعي المنشأ لانتهينا منطقياً إلى أن شعور الفرد بضعفه وعجزه، أو بدونيته حسب اصطلاح أ. أدلر، هو العلة الأولى لعصابه، إذا ما بقي هذا الشعور ملازماً له حتى سنّ النضج، بدلاً من أن تطوى صفحته مع الطفولة.

إن هذه المحاكمة تبدو على جانب كبير من البساطة والجاذبية معاً، فلا مندوحة بالتالي من إيلائها اهتمامنا، وإن كانت كل النتيجة التي يمكن أن تتمخض عنها هي نقل لغز العصبية إلى غير المكان الذي نبحث عنه فيه. إن استمرار الشعور بالدونية، وبالتالي استمرار شرط الحصر والأعراض، يبدو بموجب هذا التصور شيئاً محققاً أكيداً إلى حدّ أن تلك الحالة التي نسمِّيها بالصحة هي التي تغدو بحاجة إلى تفسير إذا ما قُيِّض لها بالمصادفة أن تبقى قائمة. لكن عمَّ تكشف لنا الملاحظة الدقيقة لحالة الحصر عند الأطفال؟ إن الطفل الصغير يتوجس في المقام الأول من الأشخاص الغرباء، ولا تلعب المواقف من هذا المنظور دوراً إلا بقدر ما يكون لها صلة بهؤلاء الأشخاص، أما المواضيع فتأتي في الترتيب الأخير من حيث دورها في توليد الحصر. لكن إذا كان الطفل يشعر بالقلق أمام أشخاص غرباء فما ذلك لأنه يعزو إليهم، على سبيل المثال، نيات سيئة، أو لأنه يقارن ضعفه بقوتهم، ويتصوَّرهم بالتالي خطرين على وجوده وأمنه وبرئه من الألم والوجع. كلا، إن الصورة التي تمثل الطفل على هذا النحو وكأنه كائن مرتاب، يحيا في ظل الخوف من غريزة العدوان المبثوثة في الكون بأسره، لا تعدو أن تكون فرضاً نظرياً لا أساس له في الواقع. والأصح أن نقول إن الطفل يخاف لدى مرأى وجه جديد لأنه ألف مرأى ذلك الشخص الأنيس والمحبوب الذي هو الأم؛ فيشعر على الأثر بخيبة ومرارة لا تلبثان أن تتحولا إلى حصر. إذاً، فالأمر أمر طاقة غير مستثمرة من الليبيدو، يتعذر عليها أن تبقى معلقة، فتجد منصرفاً لها في الحصر. وليس من قبيل المصادفة أن ينطوي هذا الموقف، المميِّز للحصر الطفلي، على تكرار للظرف الذي صاحب حالة الحصر الأولى في أثناء الميلاد، أي الانفصال عن الأم.

إن أول رهاب من أرهبة الموقف لدى الطفل هو رهاب الظلام ورهاب



الوحدة. والأول يدوم في كثير من الحالات مدى الحياة، ويشترك الرهابان في شيء واحد وهو غياب الشخص المحبوب، مانح الرعاية، أي الأم. وجد طفل نفسه ذات مرة في ظلام، فاستبدّ به الخوف، وصاح بخالته التي كانت في غرفة مجاورة: «يا خالتي، كلِّميني، أنا خائف»؛ فقالت: «وما فائدة ذلك لك ما دمت لا تراني؟»؛ فأجابها قائلاً: «إذا تكلم أحد خفّ الظلام». هكذا يتحوّل الاكتئاب الذي ينتاب الطفل في الظلام إلى حصر حيال الظلام. إذاً، لا يصحّ أن نقول إن الحصر العصابي ظاهرة ثانوية وحالة خاصة من الحصر الواقعي المنشأ؛ بل نرى، على العكس من ذلك، لدى الطفل الصغير شيئاً إن كان يشبه في مسلكه الحصر الواقعي المنشأ، فإنه تجمعه والحصر العصابي سمة مشتركة رئيسية: صدوره عن طاقة غير مستثمرة من الليبيدو. أما الحصر الواقعي المنشأ بحصر المعنى، فيبدو أن الطفل لا يعرفه إلا بقدر طفيف. ففي جميع المواقف التي يمكن أن تغدو فيما بعد شرطاً للرهاب، كالتواجد في أماكن شاهقة الارتفاع، أو اجتياز جسور ضيقة فوق الماء، أو السفر بالسكة الحديدية أو في السفن، لا يظهِر الطفل أي حصر، ولا سيما إذا كان جاهلاً بطبيعتها. وحبذا لو انطوى ميراثه على عدد أكبر من هذه الغرائز الهادفة إلى صون البقاء؛ فلو كان كذلك هو واقع الحال لهانت كثيراً مهمة المراقبين الموكلين بحمايته من تعريض نفسه لأخطار داهمة. غير أن الطفل ينزع في بادئ الأمر إلى الغلوّ في تقدير قواه ويتصرف بلا خوف لأنه يجهل الخطر. فهو يركض عند حافة الماء، ويصعد فوق متكأ النافذة، ويلعب بأشياء حادة وبالنار، وبالاختصار يفعل كل ما يمكن أن يجلب له الأذى، وللموكلين برعايته الهمّ والقلق. وليس إلا بالتربية نخلق لديه في نهاية المطاف الحصر الواقعي المنشأ، وذلك ما دمنا لا نستطيع أن نسمح له بأن يتعلم من التجربة الشخصية.

فإن استجاب بعض الأطفال بيسر وسرعة لهذه التربية التي ترمي إلى تلقينهم الحصر الواقعي المنشأ وانتهى بهم الأمر إلى أن يكتشفوا بأنفسهم أخطاراً لم نحدِّثهم عنها ولم نحذِّرهم منها، فمردّ ذلك إلى أن جِبِلَّتهم تنطوي على حاجة ليبيدوية أشد إلحاحاً، أو إلى كونهم قد اكتسبوا منذ عهد مبكر عادات سيئة في مجال الإشباع الليبيدوي. ولا عجب إن غدا كثير من هؤلاء الأطفال في وقت



لاحق من العصبيين، إذ إن أكثر ما يسهِّل نشوء العصاب، كما نعلم، هو العجز عن تحمُّلِ كبتٍ صارم لليبيدو لمدة طويلة من الزمن. وأرجو أن تلاحظوا أننا نُدخِل في حسابنا هنا عامل الجِبِلَّة، وهو عامل لم نمارِ قط في أهميته أصلاً. وكل ما في الأمر أننا نعترض على التصور الذي يغفل سائر العوامل الأخرى لصالح العامل الجِبِلِّيّ وحده، ويجعل له مركز الصدارة حتى في الحالات التي تدلّ فيها معطيات المشاهدة والتحليل على أنه عديم التأثير أو لا يلعب سوى دور ثانوي.

لنلخص إذاً النتائج التي خرجنا بها من ملاحظة حالات الحصر لدى الأطفال: فالحصر الطفلي، الذي لا تكاد تجمعه والحصر الواقعي المنشأ سمة مشتركة، يقترب على العكس اقتراباً كبيراً من الحصر العصابي لدى الراشدين؛ فهو يتولد، كهذا الحصر الأخير، من طاقة غير مستثمرة من الليبيدو ما وجدت موضوعاً يمكنها أن تصبّ عليه حبَّها فاستبدلته بموضوع خارجي أو بموقف.

والآن لن يسوءكم فيما أحسب أن أقول لكم إن التحليل يكاد لا يكون في جعبته شيء جديد يعلمنا إياه بصدد **الأرهبة**. فما يحدث فيها هو بالفعل عين ما يحدث في الحصر الطفلي: طاقة غير مستثمرة من الليبيدو تتحول بلا انقطاع إلى حصر واقعي المنشأ ظاهرياً، ومن ثم يصبح أدنى خطر خارجي مكلفاً بتمثيل المتطلبات الليبيدوية. وليس في هذا التوافق بين الأرهبة والحصر الطفلي ما يوجب أن تثور له دهشتنا، إذ إن الأرهبة الطفلية ليست فقط النموذج الأول للأرهبة التي تظهر في زمن لاحق والتي ندرجها في عداد «الهستيريا الحصرية»، بل هي أيضاً الشرط المباشر المسبق الذي يمهِّد لها. فكل رهاب هستيري يرجع في أصله إلى حصر طفلي ويكون امتداداً له، حتى وإن كان له مضمون مغاير وتعيَّن أن يُسمَّى باسم مغاير. ولا تختلف الإصابتان فيما بينهما إلا من منظور آلية تكوُّنهما. فلدى الراشد لا يكفي، كيما يتحول الليبيدو إلى حصر، أن يبقى هذا الليبيدو، من حيث هو رغبة متأججة، غير مستثمر بصورة مؤقتة. ذلك أن الراشد تعلّم منذ زمن بعيد كيف يضبط الليبيدو عنده أو يستثمره بطريقة مغايرة. لكن متى ما ارتبط الليبيدو بحاثة نفسية أصابها الكبت، نشأ موقف مماثل للموقف الذي نلقاه لدى الطفل الذي لا يعرف كيف يميِّز بعد بين الشعور واللاشعور. وهذا النكوص



نحو الرهاب الطفلي يمدّ الليبيدو بوسيلة موائمة كيما يتحول إلى حصر. وتذكرون أننا كنا أطلنا في الكلام عن الكبت، لكننا كنا نضع نصب أعيننا على الدوام مصير الفكرة المرشَّحة للكبت، وهذا بطبيعة الحال لأن هذا المصير أسهل على الإدراك والملاحظة وأيسر في العرض. أما مصير الانفعال المرتبط بالفكرة المكبوتة فلم نولِه اهتماماً، وها نحنذا نعلم الآن فقط أن المصير الأول لهذا الانفعال هو تحوله إلى حصر، أيا ما كان نوعه، في ظروف عادية سوية. وتحول الانفعال على هذا النحو هو أهم جانب على الإطلاق في سيرورة الكبت. وليس من بالغ اليسر الكلام عنه، على اعتبار أننا لا نستطيع أن نؤكد وجود انفعالات لاشعورية بمثل ما نؤكد وجود أفكار وتمثلات لاشعورية. فالتمثل، سواء أكان شعورياً أم لاشعورياً، يبقى كما هو إلى حدّ كبير؛ وبوسعنا أن نبيِّن بوضوح ما يناظر تمثلاً لاشعورياً. أما الانفعال فعملية تصريفية، ومن ثم إن الحكم عليه لا بدّ أن يكون مختلفاً عن الحكم على تمثل من التمثلات. وما لم نحلِّل ونوضِّح إلى أبعد مدى مقدماتنا وفروضنا بصدد السيرورات النفسية، فلن يكون في مقدورنا أن نبيِّن ما يناظر الانفعال في اللاشعور. على أن هذا عمل لا نستطيع أن نقوم به هنا. لكننا نريد على أي حال أن يقرّ في أذهاننا ذلك الانطباع الذي ظفرنا به، وهو أن تمخُّض الحصر يرتبط ارتباطاً وثيقاً بنسق اللاشعور.

قلت إن التحول إلى حصر، أو بتعبير أدق التصريف في شكل حصر، هو المصير الأول المقيَّض لليبيدو الذي يتعرَّض للكبت. وعليّ الآن أن أضيف القول إن هذا ليس مصيره الأوحد ولا النهائي. فالأعصبة تترافق بسيرورات من شأنها أن تعيق تمخُّض الحصر، وقد تفلح في إدراك غايتها بطرق شتى. ففي الأرهبة، مثلاً، نميِّز بجلاء طورين اثنين في السيرورة العصابية. الأول هو طور كبت الليبيدو وتحويله إلى حصر مرتبط بخطر خارجي. وفي الطور الثاني تُتخذ جميع الاحتياطات والضمانات التي من شأنها الحؤول دون الاتصال بهذا الخطر الذي يُعامَل وكأنه واقع خارجي. ويكون الكبت في هذه الحال بمثابة محاولة يقوم بها الأنا للهرب من الليبيدو إرهاصاً منه بأنه يشكِّل خطراً عليه. ومن الممكن أن نشبِّه الرهاب بالتحصُّن في حصن للوقاية من خطر خارجي يكون قد ناب في هذه



الحال مناب الليبيدو المخوِّف. وضعف النظام الدفاعي المستخدم في الأرهبة يكمن بطبيعة الحال في واقع أن هذا الحصن، الذي لا تمكن مهاجمته من خارج، ليس منيعاً من داخل. فإسقاط الخطر الذي يمثله الليبيدو على الخارج لا يمكن أبداً أن ينجح نجاحاً كاملاً. ولهذا تصطنع الأعصبة الأخرى أنظمة دفاعية مغايرة ضد احتمال تمخُّض الحصر. وهذا باب بالغ الطرافة في علم نفس الأعصبة. على أننا لا نستطيع، ويا للأسف، أن نطرقه هنا، لأنه قد يشطّ بنا بعيداً، وبخاصة أن فهمه يقتضي توفر معارف خاصة معمَّقة. وليس لي إلا أن أضيف بضع كلمات إلى ما قلت: فقد سبق لي أن حدَّثتكم عن «التوظيف المضاد» الذي يلجأ إليه الأنا في أثناء الكبت والذي لا خيار له إلا أن يغذِّيه باستمرار كيما يدوم الكبت . والحال أن هذا التوظيف المضاد هو ما تقع عليه مهمة تجنيد مختلف الوسائل الدفاعية للوقاية من تمخُّض الحصر عقب الكبت.

لنعد أدراجنا إلى الأرهبة. أعتقد أني أوضحت لكم أنه لا يكفي أن نسعى فقط إلى تفسير مضمونها، وأن نهتم فقط بمعرفة لماذا يغدو هذا الشيء أو ذاك، وهذا الموقف أو ذاك، هو موضوع الرهاب. فمضمون الرهاب له بالنسبة إلى الرهاب نفس الدلالة التي للواجهة الظاهرية للحلم بالنسبة إلى الحلم نفسه. ويمكننا أن نسلِّم، بعد أخذ التقييدات الضرورية بعين الاعتبار، بأن بعض مضامين الأرهبة صالحة بوجه خاص لأن تغدو بحكم الوراثة السلالية، كما أوضح ستانلي هال، مواضيع حصرية. وتلقى هذه الفرضية ما يؤيدها في كون الكثير من المواضيع الحصرية لا تستطيع أن تقيم مع الخطر إلا علاقات رمزية خالصة.

هكذا تأتى لنا أن ندرك المكانة المركزية حقاً التي تشغلها مشكلة الحصر في علم نفس الأعصبة. وقد عرفنا أيضاً الوشائج الوثيقة التي تربط تمخُّض الحصر بصروف مصائر الليبيدو وبنسق اللاشعور. غير أن تصورنا لا يزال يشكو من ثغرة: فمع أنه من الصعب المماراة في أن الحصر الواقعي المنشأ يجب أن يعتبر تظاهراً لغرائز المحافظة على الأنا، فإننا لا ندري كيف نربط بين هذه الواقعة وبين ما نعرف.

المحاضرة السادسة والعشرون

نظرية الليبيدو والنرجسية

سيداتي سادتي، لقد كان علينا في أكثر من مرة، وإلى عهد قريب أيضاً، أن نميِّز بين الدوافع الغريزية الأنوية والدوافع الغريزية الجنسية. فقد أظهر لنا الكبت بادئ ذي بدء أنه من الممكن أن يقوم بين كلا النوعين تعارض ينتهي بهزيمة سافرة للدوافع الغريزية الجنسية، فترغم على التماس الإشباع بطرق ملتوية نكوصية. ذلك أن هذه الدوافع شموس غير قابلة للترويض في الحقيقة، وهي تجد في شموسها بالذات تعويضاً عن هزيمتها. ورأينا بعد ذلك أن هاتين الفئتين من الدوافع الغريزية تسلكان مسلكاً مختلفاً حيال تلك المربية الكبرى التي هي الضرورة، فيسير تطور كل فئة منها في طريق مغاير، وتعقد مع مبدأ الواقع علاقات متباينة. ولاح لنا أخيراً أننا استطعنا أن نتحقق من أن الدوافع الغريزية الجنسية أوثق ارتباطاً من الدوافع الغريزية الأنوية بالحالة الانفعالية كما تتمثل بالحصر؛ وهذه نتيجة تبدو وكأنها لا تزال ناقصة، غير مكتملة، في نقطة واحدة هامة. وعليه سنسوق تأييداً لهذه النتيجة واقعة جديرة بالملاحظة، وهي أن عدم إشباع الجوع والعطش، وهما من أكثر غرائز البقاء بدائية، لا يتمخض أبداً عن تحول هاتين الغريزتين إلى حصر، على حين أننا نعلم أن تحول الليبيدو غير المشبع إلى حصر ظاهرة من الظاهرات الشائعة التي تلاحظ بكثرة غالبة.

لنا، إذاً، حقّ مشروع في التمييز بين الدوافع الغريزية الأنوية والدوافع الغريزية الجنسية. ونحن نستمد هذا الحق من وجود الحياة الجنسية بصفتها فاعلية خاصة للفرد. والسؤال الوحيد الذي يمكن أن يُطرح علينا هو مدى ما نعزوه إلى هذا التمييز من أهمية وعمق. لكننا لن نتمكن من الإجابة عن هذا السؤال إلا بعد أن نبيِّن الفوارق في السلوك بين الدوافع الغريزية الجنسية، في تظاهراتها الجسمانية



والنفسانية، وبين الدوافع الغريزية الأخرى التي نعارضها بها، وإلا بعد أن تقرّ في أذهاننا أهمية النتائج التي تترتب على هذه الفروق. ولا نملك بطبيعة الحال أي سبب يحملنا على القول بوجود فارق نوعي ـ يصعب بالأصل تصوره ـ بين هاتين المجموعتين من الدوافع الغريزية. فكلتاهما لا تتبديان لنا إلا من حيث أنهما محض تسمية لمصادر الطاقة لدى الفرد؛ وأما مسألة معرفة ما إذا كانت هاتان المجموعتان تؤلفان في جوهرهما شيئاً واحداً أو ما إذا كان بينهما فارق نوعي، وعلى فرض أنهما تؤلفان شيئاً واحداً فمتى انفصلت واحدتهما عن الأخرى، نقول: أما هذه المسألة فيمكن ويجب أن تُناقش على أساس الوقائع التي تمدّنا بها البيولوجيا، وليس على أساس مفاهيم مجردة. ومعارفنا بصدد هذه النقطة لا تزال غير كافية؛ وحتى لو كانت أكثر مما هي عليه فليس لنا أن نشغل أنفسنا بهذه المسألة التي لا صلة لها بأبحاثنا التحليلية النفسية.

ولن نجني كبير فائدة بالطبع إذا ما ألححنا، مع يونغ، على الوحدة الأصلية لجميع الدوافع الغريزية وأطلقنا اسم «الليبيدو» على الطاقة التي تتظاهر في كل واحد منها. فبما أنه يتعذر علينا، كيفما تحايلنا، أن نقصي الوظيفة الجنسية عن الحياة النفسية، فسنرانا ملزمين في هذه الحال بأن نتكلم عن ليبيدو جنسي وليبيدو لاجنسي. إذاً فمن الحق أن نحتفظ باصطلاح الليبيدو للدوافع الغريزية الجنسية حصراً، وبهذا المعنى وحده استخدمناه ونستخدمه دائماً.

أعتقد إذاً أن مسألة معرفة إلى أي حدّ يخلق بنا أن نذهب في فصلنا، المبرَّر بلا جدال، بين الدوافع الغريزية الجنسية وغرائز البقاء ليست على جانب كبير من الأهمية للتحليل النفسي. وهذا الأخير لا يملك أصلاً من أهلية لحلّ هذه المسألة. غير أن علم الأحياء يمدّنا مع ذلك ببعض القرائن التي تبيح لنا الافتراض بأن لهذا التمييز دلالة بليغة. وبالفعل، إن الجنسية هي الوظيفة الوحيدة من بين وظائف الجهاز العضوي الحيّ التي تتجاوز الفرد وتكفل ارتباطه بنوعه. ولا يشقّ علينا أن ندرك أن أداء هذه الوظيفة لا يعود على الفرد دواماً بمثل الفائدة التي يعود بها عليه أداء وظائفه الأخرى، بل يخلق له، على العكس، ولقاء لذة مسرفة الشدة عادة، أخطاراً تتهدد حياته، وقد تقضي عليها في بعض الأحيان. ثم إنه من



المرجح، فضلاً عن ذلك، أن ثمة سيرورات أيضية[1] خاصة، متمايزة عن كل ما عداها من السيرورات، تكفل أن يتم نقل شطر من حياة الفرد إلى ذريته في شكل استعداد وراثي. وأخيراً، إن الكائن الفرد، الذي يرى إلى ذاته على أنه هو الأساس والجوهر ولا يرى في جنسيته سوى وسيلة للإشباع بين جملة من الوسائل الأخرى، لا يعدو أن يكون، من وجهة النظر البيولوجية، حادثاً عارضاً في سلسلة من الأجيال، استطالة سريعة البلى لبلازما رُشيمية[2] غير قابلة للموات افتراضياً، مالكاً مؤقتاً لوديعة مقيَّض لها أن تبقى وتدوم من بعد فنائه.

غير أن التفسير التحليلي النفسي للأعصبة ليس بحاجة إلى مثل الاعتبارات البعيدة المدى للغاية. وقد أمدَّنا الفحص المنفصل للدوافع الغريزية الجنسية وللدوافع الغريزية الأنوية بوسيلة لفهم الأعصبة التحويلية، فأمكن لنا بالتالي أن نردّها إلى الصراع بين الدوافع الغريزية الجنسية وغرائز البقاء، أو، بتعبير بيولوجي، وإن يكن أبعد عن الدقة، إلى الصراع بين الأنا، بوصفه كائناً فرداً ومستقلاً، وبين الأنا منظوراً إليه على أنه عضو في سلسلة من الأجيال. وثمة أكثر من داع للاعتقاد بأن هذه الازدواجية لا وجود لها إلا عند الإنسان، ومن ثم جاز أن يكون العصاب هو بمثابة امتياز له على جميع الحيوانات. ويبدو أن التطور المفرط لليبيدو عنده، وما يستتبعه من غنى وتنوع في حياته النفسية، قد خلقا الشروط الموائمة لظهور مثل ذلك الصراع. ومن الواضح أن هذه الشروط هي عين الشروط التي أتاحت للإنسان أن يحقق تقدماً كبيراً خلَّف وراءه بأشواط ما كان مشتركاً بينه وبين سائر الحيوانات، بحيث أن استعداده للعصاب لا يعدو أن يكون الوجه الآخر لقدراته وملكاته الإنسانية المحضة. لكن دعونا من هذه التأملات التي ليس من شأنها إلا أن تبعدنا عن مهمتنا المباشرة.

لقد مضينا في بحثنا حتى الآن مصادرين على إمكانية التمييز بين الدوافع

---

١ ـ نسبة إلى الأيض: Métabolisme التحول الغذائي، أي قوة التجدد والدثور والبناء والهدم في الكائن الحي. «م».

٢ ـ البلاسما الرشيمية أو البروتوبلازما: المادة الحية الأساسية أو الهيولى الأولية في الخلية البشرية والحيوانية والنباتية. «م».



الغريزية الأنوية والدوافع الغريزية الجنسية تبعاً لتظاهر كل مجموعة منها. وقد أمكننا أن نقيم هذا التمييز بلا صعوبة في ما يتصل بالأعصبة التحويلية. وأطلقنا اسم «**الليبيدو**» على ما يوظفه الأنا من طاقة برسم مواضيع نوازعه الجنسية، واسم «**المصلحة**» على كل توظيفات الطاقة الأخرى التي يكمن مصدرها في دوافع غريزة البقاء. وباقتفائنا أثر جميع توظيفات الليبيدو هذه وتحولاتها ومصيرها النهائي، أمكن لنا أن نكوّن فكرة أولى عن كيفية عمل القوى النفسية. وقد زوَّدتنا الأعصبة التحويلية من هذا المنظور بأنسب المواد. غير أن الأنا نفسه، والتنظيمات المختلفة التي يتألف منها، وبنية هذه التنظيمات وطريقة عملها، كل ذلك بقي خافياً علينا، ولم يكن في مقدورنا إلا أن نفترض أن تحليل اضطرابات عصابية أخرى هو وحده الذي من شأنه أن ينير لنا هذه المسائل.

هكذا بدأنا من وقت مبكر جداً بسحب التصورات التحليلية النفسية على تلك الإصابات الأخرى. فمنذ عام ١٩٠٨ تقدم ك. إبراهام، بعد تداول في الرأي بيني وبينه، بأطروحة مؤداها أن الخاصية الرئيسية **للخبل المبكر** (المدرج في عداد الأعصبة) هي أن **المواضيع في هذا المرض غير مشحونة بالليبيدو** (لا يجوز أن نغفل عن الفروق النفسية الجنسية بين الهستيريا وبين الخبل المبكر). لكن إلامَ يؤول ليبيدو المخبولين ما دام ينصرف عن مواضيعه؟ إن أبراهام لم يتردد في أن يجيب عن هذا السؤال بأن الليبيدو يرتدّ عندئذ نحو الأنا، وأن **هذا الارتداد المنعكس لليبيدو نحو الأنا هو مصدر هذاء العظمة في الخبل المبكر**[٣]. ومن الممكن أصلاً أن نقارن هذاء العظمة هذا بما نلاحظه في الحياة الحبِّية من مغالاة في القيمة الجنسية للموضوع. وهكذا تأتَّى لنا لأول مرة أن نتفهم سمة تتسم بها إصابة ذهانية من خلال مقارنتها بما يحدث في الحياة الحبِّية السوية.

وأقولها لكم بلا توانٍ: إن تصورات أبراهام الأولى هذه احتفظ بها التحليل النفسي، فصارت أساس موقفنا من الأمراض الذهانية. وهكذا ألفنا رويداً رويداً فكرة أن الليبيدو، الذي نلفاه مثبّتاً على مواضيع معينة والذي هو تعبير عن ميل

٣ ـ الإحالة هنا إلى مقال كارل أبراهام: **الفروق الجنسية النفسية بين الهستيريا والخبل المبكِّر** (١٩٠٨). هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.



إلى الوصول إلى إشباع عن طريق هذه المواضيع، يمكن أيضاً أن ينصرف عنها وأن يستبدلها بالأنا. وقد عكفنا عندئذ على إعطاء هذه الفكرة شكلاً أدنى فأدنى إلى الكمال بما أقمناه من روابط منطقية بين عناصرها المكوِّنة. وكلمة **النرجسية** التي نستخدمها للإشارة إلى انتقال الليبيدو هذا مقتبسة عن انحراف كان ب. ناكه Nacke[٤] قد وصفه، وفيه يصبّ الفرد الراشد على جسده بالذات الحب الذي يُغدق في العادة على موضوع جنسي خارجي.

وعلى الأثر خطر لنا أنه ما دام الليبيدو قادراً على أن يتثبت على هذا النحو على جسد الفرد المعني وعلى شخصه بالذات بدلاً من أن يتعلق بموضوع، فذلك لا يمكن بكل تأكيد أن يكون ظاهرة استثنائية وغير ذات دلالة، وأنه من المرجح بالأحرى أن النرجسية هي الحالة العامة والبدائية التي عنها تمخَّض في زمن لاحق الحب الموضوعاني، دون أن يستتبع ظهوره زوال النرجسية. وبناء على ما كنا نعلم عن تطور الليبيدو الموضوعاني، تذكرنا أن الكثير من الدوافع الغريزية الجنسية تتلقى في بادئ الأمر إشباعاً أسميناه **إيروسياً ذاتياً**، أي إشباعاً مصدره جسد الشخص ذاته، وأن النزوع إلى **الإيروسية الذاتية** هو ما يفسِّر تأخر الجنسية في التكيُّف مع مبدأ الواقع كما يتم تلقُّنه عن طريق التربية. وهكذا ظهر أن الإيروسية الذاتية هي النشاط الجنسي للمرحلة النرجسية في تموضع الليبيدو.

خلاصة القول: إننا كوّنّا عن العلاقات بين الليبيدو الأنوي والليبيدو الموضوعاني فكرة أستطيع توضيحها لكم بتشبيه مقتبس من علم الحيوان. فأنتم تعرفون، ولا بدّ، تلك الكائنات الحية البدائية المؤلفة من كرة صغيرة من مادة وذفية عديمة التمايز تقريباً. هذه الكائنات تبرز استطالات تسمى بالشوى الكاذبة Pseudopodes، تفرغ فيها مادتها الجسمية. لكن في مقدورها أيضاً أن تسحب هذه الاستطالات وأن تعود فتتكور من جديد على نفسها. والحال أننا

---

٤ ـ بول ناكه: طبيب نفسي وعالم إجرام ألماني (١٨٥١ ـ ١٩١٣). كان أول من أدخل إلى علم النفس مفهوم النرجسية عام ١٨٨٩. من مؤلفاته: **الجنسية المثلية في البلدان اللاتينية** و **الجريمة والجنون لدى المرأة**. والإحالة هنا إلى بحث له بعنوان: **فحص نقدي لموضوع الجنسية السوية والمرَضية** (١٨٩٩). «م».



نشبِّه إبراز هذه الاستطالات باشرئباب الليبيدو نحو المواضيع، وإن بقيت كتلته الرئيسية أسيرة الأنا، ونسلِّم بأن الليبيدو الأنوي يتحول بسهولة في الظروف العادية السوية إلى ليبيدو موضوعاني، قابل بدوره للارتداد من جديد إلى الأنا.

إن هذه التصورات تتيح لنا أن نفسر، أو بتعبير أكثر تواضعاً أن نصف بلغة نظرية الليبيدو عدداً كبيراً من الحالات النفسية التي ينبغي أن نعتبرها مظاهر من الحياة السوية: كالسلوك النفسي في الحب، وفي أثناء الأمراض العضوية، وفي حالة النوم. وفيما يتصل بهذه الحالة الأخيرة، كنا قد سلَّمنا بأنها تقوم على انسحاب من العالم الخارجي وعلى الاستسلام للرغبة في النوم. وقلنا إن جميع الأنشطة النفسية الليلية التي تتظاهر في الحلم تعمل في خدمة هذه الرغبة، وأنها متحددة ومحكومة بدوافع أنوية. فإذا انطلقنا هذه المرة من نظرية الليبيدو، جاز لنا أن نستنتج أن النوم حالة تنسحب فيها الطاقات كافة، الليبيدوية منها والأنوية على حدّ سواء، من المواضيع التي كانت متعلقة بها وتنكفئ باتجاه الأنا. أفلا ترون أن هذا التصور يسلط ضوءاً جديداً على الاستجمام الذي يوفره لنا النوم، وكذلك على طبيعة التعب؟ وبذلك تكتمل من وجهة النظر النفسية صورة الانعزال الهانئ في أثناء الحياة داخل الرحم، وهي الصورة التي يستحضرها النائم أمام أنظارنا كل ليلة. ففي النوم تتكرر الحالة الأولية لتوزيع الليبيدو، أي حالة النرجسية المطلقة التي يعيش في ظلها الليبيدو ومصلحة الأنا متحدين وغير متمايزين في الأنا المكتفي بذاته.

هنا ينفسح المجال لإبداء ملاحظتين. أولاً: كيف نميِّز النرجسية من الأنانية؟ في تقديري أن النرجسية هي التكملة الليبيدوية للأنانية. فعندما نتكلم عن الأنانية لا يذهب بنا الفكر إلا إلى ما ينفع الفرد؛ لكننا إذا ما تكلمنا عن النرجسية أخذنا في اعتبارنا أيضاً إشباعه الليبيدوي. ومن الممكن، من الناحية العملية، المضيّ بهذا التمييز بين النرجسية والأنانية إلى مسافة غير يسيرة. فقد يكون الفرد ذا أنانية مطلقة من دون أن يكفّ مع هذا عن توظيف كميات كبيرة من الطاقة الليبيدوية في مواضيع أخرى، وذلك بقدر ما يتمشى الإشباع الليبيدوي المتأتي من هذه المواضيع مع حاجات الأنا. وفي هذه الحال تتخذ الأنانية من الاحتياطات ما



يحول دون وقوع ضرر على الأنا من جراء طلب تلك المواضيع. وقد يكون الفرد أنانياً وعلى درجة بارزة جداً من النرجسية في الوقت نفسه، أي يكون في مستطاعه الاستغناء بسهولة عن المواضيع الجنسية سواء أمن ناحية الإشباع الجنسي المباشر، أم من ناحية تلك الميول السامية المشتقة من الحاجة الجنسية والتي درج الناس على تسميتها بـ«الحب» توكيداً على التباين بينها وبين «الشهوانية» الخالصة. وفي جميع هذه الأحوال تبدو الأنانية وكأنها العنصر الثابت المتعالي على أي مناقضة، بينما النرجسية، على العكس، هي العنصر المتغيِّر. أما نقيض الأنانية، أي **الغيرية**، فلا تتطابق مفهومياً مع التوظيف الموضوعاني الليبيدوي، بل إن ما يميِّزها هو الامتناع عن التماس إشباع جنسي. وفي الحالة الحبية المطلقة وحدها تتطابق الغيرية مع التوظيف الموضوعاني الليبيدوي. فالموضوع الجنسي يجذب إليه في العادة جزءاً من نرجسية الأنا، ومن هنا ينشأ ما يمكننا أن نسميه بـ «المغالاة في القيمة الجنسية للموضوع». فإذا ما اقترن ذلك بالانتقال الغيري للأنانية باتجاه الموضوع الجنسي، صار هذا الموضوع على درجة بالغة من القوة؛ فنستطيع أن نقول عندئذ إنه امتصّ الأنا.

ولعلكم تجدون، بعد هذا العرض الجافّ والعويص لكشوفات العلم، بعض الترفيه فيما لو أسمعتكم وصفاً شعرياً للتعارض الاقتصادي القائم بين النرجسية والحالة الحبِّية. وأنا أقبسه من **الديوان الغربي والشرقي** لغوته:

زليخة

الشعوب والعبيد والغالبون اجتمع رأيهم

في كل العصور

على أن السعادة القصوى لأبناء الأرض

لا تكمن إلا في شخص الإنسان.

فكل حياة يمكن أن تعاش

ما دام المرء يعرف نفسه.



وليس ثمة شيء يضيع
ما دام الإنسان على ما هو عليه.

حاتم

هذا ممكن! وذلك هو الرأي الشائع.
لكن غير هذا الرأي أرى.
فكل سعادة الأرض
أراها مجتمعة في زليخة وحدها.
فبقدر ما تجزل لي العطاء من نفسها
يعلو شأني في نظر نفسي.
وإن أشاحت عني
هويت إلى الدرك الأسفل في نظر نفسي.
وهكذا لا يعود لحاتم من وجود.
لكني أعرف ما أنا صانع في هذه الحال:
سأتجسّد على عجل في شخص ذلك المحظوظ
الذي ستغدق عليه قبلاتها[٥]

أما ملاحظتي الثانية فتأتي لتكمّل نظرية الحلم. فنحن لا نستطيع أن نفسِّر تكوين الحلم ما لم نسلِّم، علاوة على كل شيء، بأن اللاشعور المكبوت صار مستقلاً إلى حدّ ما عن الأنا، فبات لا يخضع للرغبة في النوم، بل يبقى محافظاً

---

٥ ـ الجدير بالذكر أن لهذه القصيدة مقطعاً سادساً لم يرد في نص فرويد:
لست أريد بكل تأكيد أن أكون حاخاماً
فهذه فكرة لا تخامرني بحال
بل الفردوسي أو المتنبي
أو على أي حال إمبراطور
هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.



على توظيفاته، في حين أن جميع الطاقات الأخرى الموضوعة في تصرف الأنا، والموظفة في مواضيع، تكون قد انسحبت لصالح النوم. عندئذ فقط يتسنى لنا أن نفهم كيف يستطيع هذا اللاشعور أن يغتنم فرصة انتفاء الرقابة أو ضعفها أثناء النوم ليستولي على البقايا النهارية وليشكل، من المواد التي تمدّه بها، رغبة حلمية محظورة. ومن جهة أخرى، من المحتمل أن تستمدّ البقايا النهارية، جزئياً على الأقل، قدرتها على المقاومة من الليبيدو الذي استأثر به النوم واحتكره، لما بينها وبين اللاشعور المكبوت من صلة قائمة مسبقاً. وهذه خاصية دينامية هامة لا بدّ أن ندخلها في تصوُّرنا عن تكوين الحلم.

إن مرضاً عضوياً أو تهيُّجاً مؤلماً أو التهاب عضو من الأعضاء يخلق في نفس الفرد حالة تكون عاقبتها الجليَّة انفصام الليبيدو عن مواضيعه. وهذا الليبيدو المنسحب من المواضيع ينكفئ نحو الأنا ليتعلق بقوة بالجزء المريض من الجسم. بل يسعنا أن نجترئ على التوكيد بأن انفصام الليبيدو عن مواضيعه ألفت للنظر في هذه الأحوال من انفصام الاهتمامات الأنانية عن العالم الخارجي. ويبدو أن هذا يفتح لنا الطريق إلى فهم هاجس المرض الذي يصبح فيه عضو من أعضاء الجسم مصدر همٍّ للأنا، وهذا من دون أن يكون به من مرض حقاً. لكنني أقاوم الإغراء بالمضيّ قدماً في هذا السبيل، أو بتحليل مواقف أخرى تتيح لنا فرضية انكفاء الليبيدو الموضوعاني نحو الأنا إمكانية فهمها أو تصورها عيانياً: ذلك أني أتلهف إلى الردّ على اعتراضين أعرف أنهما يشغلان فكركم. فأنتم تريدون أن تعرفوا، أولاً، لماذا أصرّ، وأنا أتكلم عن النوم والمرض وغيرهما من الأوضاع المشابهة، على التمييز بين الليبيدو والمصلحة، بين الدوافع الغريزية الجنسية والدوافع الغريزية الأنوية، في حين أنه من الممكن تأويل مشاهداتنا هذه تأويلاً مُرضياً فيما لو سلَّمنا بوجود طاقة واحدة، وحيدة، حرة في حركتها، تلقي بنفسها تارة على الموضوع وطوراً على الأنا، وتضع نفسها تارة في خدمة دافع من الدوافع الغريزية وطوراً في خدمة آخر. ثم إنه يدهشكم ثانياً، ولا ريب، أن تروني أعالج انفصام الليبيدو عن مواضيعه كما لو أنه مصدر لحالة مرضية، مع أن تحولات الليبيدو الموضوعاني إلى ليبيدو أنوي، أو بصورة أعمّ إلى طاقة أنوية،



هي من السيرورات السوية للدينامية النفسية، وهي تتكرر كل يوم وكل ليلة.

وجوابي هو كالآتي. إن اعتراضكم الأول يبدو في محله ظاهرياً. فدراسة حالة النوم والمرض والحالة الحبية ما كان لها بحدّ ذاتها في أرجح الظن أن تقودنا أبداً إلى التمييز بين ليبيدو أنوي وليبيدو موضوعاني، أو بين الليبيدو والمصلحة. لكنكم تنسون الأبحاث التي اعتمدناها منطلقاً لنا، والتي على ضوئها ننظر الآن في المواقف النفسية التي نحن بصدد مناقشتها. فمشاهدتنا للصراع الذي منه تتولد الأعصبة التحويلية هي التي علّمتنا أن نميّز بين الليبيدو والمصلحة، وبالتالي بين الدوافع الغريزية الجنسية والدوافع الغريزية إلى المحافظة على الذات. وليس لنا بعد الآن أن نتخلى عن هذا التمييز. وقد لاح لنا أن إمكانية تحول الليبيدو الموضوعاني إلى ليبيدو أنوي، وبالتالي ضرورة أخذ وجود الليبيدو الأنوي بعين الاعتبار، هي التفسير الوحيد المعقول للغز الأعصبة النرجسية، ومنها مثلاً الخبل المبكر، وكذلك وجوه التشابه والاختلاف بين هذه الأعصبة وبين الهستيريا والعصاب الوسواسي. ونحن نطبّق الآن على المرض والنوم والحالة الحبّية ما ثبتت لنا صحته ثبوتاً لا يرقى إليه الشك في حالات أخرى. والفرض الوحيد الذي لا ينبع من تجربتنا التحليلية توكيدنا بأن الليبيدو يبقى هو الليبيدو، سواء أتعلق بمواضيع أم بأنا الفرد نفسه، وأنه لا يتحول أبداً إلى مصلحة أنوية أو بالعكس؛ غير أن هذا الفرض لا يعدو أن يكون صيغة أخرى من التمييز، الذي سبق أن أخضعناه لتقييم نقدي، بين الدوافع الغريزية الجنسية والدوافع الغريزية الأنوية، وهو التمييز الذي عقدنا العزم، لأسباب تتعلق بمنهج البحث، أن نتمسك به حتى يظهر ـ احتمالاً ـ ما يدحضه.

واعتراضكم الثاني له بدوره ما يبرره، لكنه موجّه في وجهة خاطئة. فلا ريب في أن ارتداد الليبيدو نحو الأنا بعد انفصامه عن المواضيع ليس سبباً مباشراً للمرض؛ أفلا ترون هذه الظاهرة تتكرر في كل مرة قبل النوم، ثم تسلك مساراً عكسياً بعد اليقظة؟ كذلك يسحب الحيوان الرشيمي المجهري استطالته ليعود إلى إبرازها عند أول سانحة. غير أن الأمر يختلف بيِّن الاختلاف حين ترغِم سيرورة محددة، على جانب كبير من القوة، الليبيدو على الانفصام عن مواضيعه.



فالليبيدو، الذي يصبح في هذه الحال نرجسياً، لا يعود في مقدوره أن يسلك من جديد الطريق الذي يفضي إلى المواضيع، وهذا النقص في حركية الليبيدو هو الذي يغدو مسبِّباً للمرض. فلكأن تراكم الليبيدو النرجسي لا يعود يطاق إذا ما تجاوز حدّاً معلوماً. ومن المباح لنا أن نفترض أن هذا التوظيف الموضوعاني ما كان ليحدث لولا أن الأنا وجد نفسه مكرهاً على أن يبعد عنه الليبيدو المتراكم فيه تحاشياً للعواقب المرَضية التي لا بدّ أن تنجم عن هذا التراكم. ولو كان في خطتنا أن ندرس بمزيد من التفصيل الخبل المبكر، لبيَّنت لكم أن السيرورة التي تفطم الليبيدو عن مواضيعه ثم تسدّ عليه طريق العودة إليها إذا ما تراءى له أن يؤوب إليها، تقترب غاية الاقتراب من سيرورة الكبت وينبغي أن تُعتبر نظيرتها. ولن يساوركم شعور بأنكم تطؤون أرضاً جديدة لو ذكرت لكم أن شروط هذه السيرورة تكاد تكون مماثلة، بحسب ما بات متوفراً لنا من المعرفة اليوم، لشروط سيرورة الكبت. فالصراع يبدو واحداً ويدور بين القوى عينها. ولئن اختلف مآله عما نشاهده في الهستيريا مثلاً، فلا يمكن أن يكون مردّ ذلك إلا إلى اختلاف في الاستعداد. فنقطة الضعف في تطور الليبيدو - وهي التي تتيح، كما لعلكم تذكرون، إمكانية تكوين الأعراض - تقع لدى المرضى بالخبل المبكر في مرحلة أخرى، هي في أرجح الظن مرحلة النرجسية الأولية التي يرتدّ إليها الخبل المبكر في آخر أطواره. ومما يستلفت النظر أن نكون مضطرين إلى التسليم، فيما يتصل بالأعصبة النرجسية جميعاً، بوجود مراكز لتثبيت الليبيدو تقع في مراحل من التطور أبكر بكثير مما في الهستيريا أو العصاب الوسواسي. لكنكم تعلمون من قبل أن الأفكار التي خرجنا بها من دراسة الأعصاب التحويلية تسمح لنا أيضاً بأن نهتدي إلى طريقنا في الأعصبة النرجسية التي هي أشد تعقيداً وصعوبة من الناحية العملية. والحق أن السمات المشتركة بين هذين النوعين من الأعصبة عديدة للغاية، والفينومينولوجيا في كلتا الحالتين واحدة في الجوهر. ومن ثم يسهل عليكم أن تدركوا مدى الصعوبة، إن لم يكن الاستحالة، التي لا بدّ أن يصطدم بها من يتصدى لتفسير هذه الأمراض التي تنتمي إلى حقل الطب النفسي، إن لم يكن مزوَّداً بالمعرفة التحليلية التي تمدّه بها دراسة الأعصبة التحويلية.



إن الصورة الأعراضية، البالغة التنوع أصلاً، للخبل المبكر لا تتألف فقط من الأعراض الناجمة عن انفصام الليبيدو القسري عن مواضيعه وتراكمه، كليبيدو نرجسي، في الأنا. بل ثمة ظاهرات أخرى تشغل حيِّزاً كبيراً، ذات صلة بجهود الليبيدو للعودة إلى مواضيعه، ويمكن اعتبارها بالتالي محاولة للترميم أو لاسترداد الصحة والشفاء. بل إن هذه الأعراض الأخيرة هي أكثر أعراض هذا المرض ظهوراً وصخباً. وثمة شبه لا يمارى فيه بينها وبين أعراض الهستيريا، وعلى نحو أندر بينها وبين أعراض العصاب الوسواسي؛ ومع ذلك، إنها تختلف عن هذه وتلك من الوجوه كافة. ويبدو أن الليبيدو، في ما يبذله من جهد للعودة إلى مواضيعه، أي إلى التمثلات الموضوعانية، يفلح حقاً في التعلق بها في الخبل المبكر، لكنه لا يمسك من هذه المواضيع إلا ظلالها، أعني التمثلات اللفظية المناظرة لها(٦). ولا يسعني أن أذكر أكثر من ذلك هنا؛ لكنني أقدِّر أن مسلك الليبيدو هذا، في صبوته إلى العودة إلى المواضيع، أتاح لنا أن ندرك الفارق الحقيقي الذي يقوم بين تمثل شعوري وتمثل لاشعوري.

هكذا أكون قد أدخلتكم إلى المجال الذي نرجو أن يحرز فيه البحث التحليلي تقدمه التالي. فمنذ أن ألفنا التعامل مع فكرة «ليبيدو أنوي»، باتت الأعصبة النرجسية سهلة المأتى علينا. والمهمة التي تقع على عاتقنا بالتالي هي أن نجد تفسيراً دينامياً لهذه الإصابات المرَضية، وأن نستكمل في الوقت نفسه معرفتنا بالحياة النفسية من خلال تعميق ما نعلمه عن الأنا. وعلم نفس الأنا، الذي نسعى إلى تشييده، لا بدّ أن ترسى أسسه لا على معطيات إدراكاتنا الذاتية، بل، كما في الليبيدو، على تحليل اضطرابات الأنا وضروب تفككه. ومن المحتمل، بعد أن ننجز هذا العمل، أن تتضاءل في نظرنا قيمة المعلومات التي زوَّدتنا بها دراسة الأعصبة التحويلية عن مصير الليبيدو. غير أننا لم ننجز بعد من هذا العمل إلا

---

٦ ـ التمثل Représentation: مصطلح اقتبسه فرويد من الفلسفة ومن علم النفس الكلاسيكي، ويعني به عادةً الصورة، أي صورة الشيء في الذهن. وهو يميِّز بين التمثل الشيئي أو الموضوعاني كما يؤثر أن يقول، وهو المتأتي عن استحضار شكل الموضوع، وبين التمثل اللفظي، وهو الذي يتأتى عن استحضار لفظه أو الاسم الدالّ عليه. «م».



شطراً يسيراً. فالأعصبة النرجسية لا تنصاع إلا على قلة وندرة للتقنية التي اعتمدناها في دراسة الأعصبة التحويلية، وسأوضح لكم السبب في ذلك عما قليل. والحق أننا كلما تقدمنا خطوة إلى الأمام في دراسة الأعصبة النرجسية انتصب أمامنا حاجز يوقف تقدمنا. وكنا قد اصطدمنا في الأعصبة التحويلية أيضاً، على ما تذكرون، بحواجز من المقاومة، لكننا استطعنا في مجالها أن نذلل العقبات الواحدة تلو الأخرى. أما في الأعصبة النرجسية فالمقاومة عاتية لا تقهر؛ وأقصى ما في مستطاعنا أن نلقي نظرة فضول واستطلاع من فوق الحاجز لنرى ما يجري في الجانب الآخر. إذاً لا مناص من أن نستبدل طرائقنا التقنية المعهودة بأخرى غيرها، ولسنا ندري بعد إن كان التوفيق سيحالفنا في عملية الاستبدال هذه. وليست المواد هي ما يعوزنا فيما يتصل بهؤلاء المرضى؛ فهم يفصحون عن حالتهم بصور شتى، وإن لم يكن على الدوام في صورة أجوبة عن أسئلتنا. على أنه لا خيار لنا في الوقت الحاضر سوى أن نؤوِّل تظاهرات مرضهم بالاعتماد على المفاهيم التي ظفرنا بها من دراسة أعراض الأعصبة التحويلية. والتشابه على كل حال كبير بما فيه الكفاية ليعيننا على الوصول، في بادئ الأمر، إلى نتيجة إيجابية، ولكن من دون أن يكون في مقدورنا أن نتكهن بأن هذه التقنية قمينة بأن توصلنا إلى غاية مرادنا.

ثمة صعوبات أخرى تعترض سبيل تقدُّمنا بعد. فالأمراض النرجسية والأذهنة التي ترتبط بها لن تبوح بسرِّها إلا لراصدين استكملوا تأهيلهم في مدرسة الدراسة التحليلية للأعصبة التحويلية. والحال أن أطباءنا النفسيين يجهلون التحليل النفسي، كما أننا لا نشاهد، نحن أنصار التحليل النفسي، إلا القليل من حالات الأمراض النفسية. والحق أننا بحاجة إلى جيل من أطباء الأمراض النفسية ممن يكونون قد مرّوا بمدرسة التحليل النفسي على سبيل العلم التمهيدي. وتُبذل اليوم في أمريكا جهود من هذا القبيل، حيث يقوم أطباء نفسيون نابهون بتعريف تلامذتهم بالنظريات التحليلية النفسية، وحيث يعمل بعض مدراء المصحَّات العقلية، الخاصة والعامة، على ملاحظة مرضاهم على ضوء هذه النظريات. غير أننا أفلحنا، نحن أيضاً أحياناً، في إلقاء نظرة من فوق



الحاجز النرجسي[٧]؛ وسأسرد لكم فيما يلي ما تسنى لنا أن نراه، على قلّته.

إن ذلك الشكل المرضي المسمى بالبارانويا، ذلك الجنون المطَّرد النسق والمزمن، لا يزال يشغل مركزاً متقلقلاً في المحاولات التصنيفية للطب النفسي الحالي. ومع ذلك، إن صلة قرباه بالخبل المبكر أكيدة لا جدال فيها. وقد أبحت لنفسي مرة أن أجمع بين البارانويا والخبل المبكر تحت تسمية مشتركة هي **البارافرينيا**[٨]. وتُصنف أشكال البارانويا بحسب مضمونها؛ ومنها هذاء العظمة، هذاء الاضطهاد، هذاء الشبق، هذاء الغيرة، إلخ. ونحن لا نتوقع محاولات للتفسير من جانب الطب النفسي. وسأذكر لكم بهذا الصدد، وعلى سبيل المثال (أقرّ بالمناسبة أنه مثال يعود إلى عهد بعيد وقد فقد اليوم قدراً كبيراً من قيمته)، المحاولة التي بذلت لاستنتاج عرض من عرض آخر غيره، عن طريق عزو قدرة على المحاكمة العقلية إلى المريض: فالمريض الذي يداخله الاعتقاد، بفعل استعداد أولي، بأنه ضحية للاضطهاد، يستخلص من هذا الاضطهاد ما مؤداه أنه شخص ذو أهمية، وهذا ما يولِّد لديه بالتالي هذاء العظمة. أما في تصورنا التحليلي فإن هذاء العظمة هو النتيجة المباشرة لتضخم الأنا بالكمية الكبيرة من الطاقة الليبيدوية المنسحبة من المواضيع؛ فهو نرجسية ثانوية تطرأ كما لو من جراء استيقاظ النرجسية الأولية التي هي النرجسية الطفلية المبكرة. غير أن ملاحظة لاحظتها في حالات هذاء الاضطهاد حملتني على سلوك اتجاه خاص. فقد كنت لاحظت أول الأمر أن المضطهِد في الكثرة الغالبة من الحالات ينتمي إلى نفس جنس المضطهَد. وكانت هذه الواقعة قابلة لتفسير بريء، لكن ظهر لنا من التمعن في دراسة بعض الحالات أن الشخص الذي كان المريض يحبه من نفس جنسه حباً جماً قبل مرضه هو عينه الذي يتحول إلى مضطهِد له في نظره بعد مرضه. ومن الممكن أيضاً أن يتطور الموقف بفعل آلية الاستبدال، إذ ينوب مناب الشخص المحبوب، بفعل بعض

٧ ـ يقصد الحاجز النرجسي الذي ينصبه أنصار كل منهج ـ وهنا التحليل النفسي ـ في مواجهة المنهج المنافس ـ وهنا الطب النفسي التقليدي. «م».

٨ ـ البارافرينيا (= الجنون الهذائي): كان إميل كرابلن هو أول من نحت مفهوم البارافرينيا، وقد قبسه فرويد عنه في بحثين أو ثلاثة له قبل أن يعدل عنه إلى مصطلح السيكزوفرينيا (الجنون الفصامي) الذي صاغه يوجين بلولر والذي فرض نفسه في التداول بصورة نهائية إلى يومنا هذا. «م».



وجوه الشبه المعروفة، شخص آخر، وعلى سبيل المثال المعلم أو الرئيس محل الأب. وقد استخلصت من هذه التجارب، التي ما ونت تزداد عدداً، ما مؤداه أن هذاء الاضطهاد Paranoia Persecutoria شكل مرَضي يدرأ فيه الفرد عن نفسه حاثة جنسية مثلية صارت على درجة لا تحتمل من القوة. أما تحول الحب إلى كراهية، وهو التحول الذي يمكن أن يغدو، كما هو معلوم، خطراً عظيماً على حياة الموضوع المحبوب والمكروه في آن معاً، فيناظر في هذه الحالات تحول الحاثات الليبيدوية إلى حصر، كنتيجة مطَّردة لسيرورة الكبت. وهاكم، على سبيل المثال أيضاً، آخر مشاهداتي في هذا المجال. فقد اضطر طبيب شاب إلى مغادرة مسقط رأسه لأنه توعد بالقتل ابن أحد الأساتذة في جامعة هذه المدينة، وكان إلى ذلك الحين أخلص أصدقائه. وقد صار يعزو إلى صديقه القديم هذا نيات جهنمية حقاً وقوة شيطانية. وقد اتهمه بكل ما ألمّ بأسرته من خطوب في السنوات الأخيرة، وبكل ما واجهه من متاعب عائلية واجتماعية. بل أكثر من ذلك، إذ إن الصديق الشرير المزعوم لم يقنع بكل ما أتاه من أذى، بل عمل أيضاً، مع والده الأستاذ، على إشعال نار الحرب وعلى استدعاء الروس إلى داخل حدود البلاد. وقد تعرض صاحبنا المريض ألف مرة للموت على حدّ زعمه، ورسخ في يقينه ألا سبيل إلى وضع حد للمصائب طراً إلا بموت المجرم الشرير. ومع ذلك، كان حبه القديم لهذا المجرم لا يزال على درجة بالغة من القوة، فلما سنحت له الفرصة ذات يوم لصرع عدوّه بطلقة من مسدس لم تطاوعه يده التي أصابها ما يشبه الشلل. وقد علمت، أثناء الأحاديث المقتضبة التي دارت بيني وبين المريض، أن صلات الصداقة بين الرجلين تعود إلى السنوات الأولى من المدرسة. ولمرة واحدة على الأقل تخطت هذه العلاقات حدود الصداقة: فقد تمخضت ليلة أمضياها معاً عن اتصال جنسي كامل بينهما. والحق أن مريضنا لم تساوره قط إزاء النساء مشاعر مشبوبة تتفق مع عمره وسحر شخصيته. وكان قد خطب فتاة جميلة وأنيقة، لكنها لما لاحظت فتور خطيبها نحوها فسخت الخطبة. وبعد ذلك بعدة سنوات تظاهر المرض لديه، على وجه التحديد في اليوم الذي أفلح فيه لأول مرة في إشباع امرأة اتصل بها إشباعاً تاماً. إذ لما عانقته هذه المرأة بعرفان للجميل



وباستسلام، أحسّ من فوره بألم غريب، فلكأن ضربة سكين شطرت قحف رأسه. وقد وصف فيما بعد هذا الإحساس بقوله إنه لا يستطيع أن يشبِّهه إلا بما ينتاب المرء من إحساس حين تُحطَّم جمجمته لتعرية مخه، كما هي الحال في تشريح الجثة أو حجّ العظام وثقبها. وبما أن صديقه كان متخصصاً في التشريح الباتولوجي، فقد راح يكتشف رويداً رويداً أن هذا الصديق هو وحده من يستطيع أن يبعث إليه بتلك المرأة لتغويه. وابتداء من تلك اللحظة تفتحت عيناه، وفهم أن كل ضروب الاضطهاد الأخرى التي يكابدها إنما هي من صنع صديقه القديم وكيده.

لكن كيف تحدث الأمور في الحالات التي لا يكون فيها المضطهِد من نفس جنس المضطهَد، والتي تطعن فيما يبدو في صحة تفسيرنا لهذا المرض باعتباره دفاعاً ضد ليبيدو جنسي مثلي؟ لقد تسنت لي الفرصة مؤخراً لفحص حالة من هذا النوع، فاستخلصت من التناقض الظاهري توكيداً لما أذهب إليه من تصور[٩]. إنها حالة فتاة كان يداخلها الاعتقاد بأن الرجل الذي جمعها وإياه لقاءان حميمان هو من يضطهدها، ولكنها كانت في بادئ الأمر قد صبَّت هذاءها، في واقع الأمر، على امرأة يمكن اعتبارها بديلاً حلّ في ذهنها محلّ أمها. وهي لم تفلح في كفّ هذائها عن هذه المرأة وتحويله إلى الرجل إلا بعد لقائها الثاني به. إذاً، فشرط الجنس المثيل كان متحققاً من البداية في هذه الحالة، مثلما كان متحققاً في الحالة السابقة التي حدثتكم عنها. ولم تتعرض المريضة، في شكواها لمحاميها ولطبيبها، بذكر لذلك الطور الأولي من جنونها، وهذا ما جعل الحالة في ظاهرها وكأنها تنقض تصوَّرنا عن البارانويا.

إن الاختيار الموضوعاني الجنسي المثلي يكون في بادئ الأمر أوثق صلة بالنرجسية من الاختيار الموضوعاني الجنسي الغيري. ولذا، إذا اقتضت الحال استبعاد حاثة جنسية مثلية أقوى وأعنف مما ينبغي، سهلت كل السهولة العودة إلى النرجسية. ولم تتسنَّ لي الفرصة حتى الآن لأحدِّثكم ملياً عن الأسس التي تقوم عليها الحياة الحبية، كما أتصورها، ويتعذر عليّ أن أسدّ هذه الثغرة هنا. وكل ما

---

٩ ـ عرض فرويد هذه الحالة في مقاله المنشور عام ١٩١٥ تحت عنوان: **بيان بصدد حالة بارانويا مناقضة للنظرية التحليلية النفسية.** هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.



بوسعي أن أذكره لكم هو أن الاختيار الموضوعاني، أي الخطوة التالية في تطور الليبيدو، يمكن أن يتمّ وفق طرازين مختلفين: **الطراز النرجسي**، وفيه يتم استبدال أنا الشخص المعني بأنا شخص آخر يشبهه قدر الإمكان، **والطراز الاتكالي**، وفيه يقع الاختيار، كمواضيع لليبيدو، على الأشخاص الذين صار الفرد لا يستغني عنهم لأنهم يعضدونه ويتكل عليهم أو لأنهم يكفلون إشباع حاجات حيوية أخرى عنده. وفي رأينا أن ميل الليبيدو الجامح إلى اختيار موضوعه وفق الطراز النرجسي هو من جملة مكوِّنات الاستعداد للجنسية المثلية السافرة.

لقد حدَّثتكم، كما تذكرون، في أولى محاضراتي لهذا الموسم الدراسي، عن حالة امرأة مصابة بهذاء الغيرة. وأما وقد شارف عرضي الآن على الانتهاء، فأكبر الظن أنه يثور بكم فضول إلى أن تعرفوا كيف أفسِّر الهذاء من وجهة نظر التحليل النفسي. ويؤسفني ألا يكون في مقدوري أن أحدِّثكم عن هذا الموضوع بقدر ما تنتظرون. وكل ما سأذكره لكم أن استعصاء الهذاء على التأثر بالحجج المنطقية والتجارب الواقعية يمكن أن يعلَّل، مثله مثل استعصاء الوسواس على المؤثرات نفسها، بصلاته بالركيزة اللاشعورية التي تمثلها وتقمعها في آن واحد الفكرة الهذائية أو الفكرة الوسواسية. ولا تختلف الإصابتان فيما بينهما إلا من الناحيتين الطبوغرافية والدينامية.

وكما في البارانويا وجدنا في السويداء (المالنخوليا)، التي وُصفت سريرياً في صور شتى، صدعاً من شأنه أن يشفّ لنا عن بنيتها الداخلية. فقد لاحظنا أن ضروب الملامة التي ينهال بها السوداويون بلا شفقة على أنفسهم تنصبّ في الواقع على شخص آخر، على الموضوع الجنسي الذي فقدوه أو الذي فقدوا اعتبارهم وتقديرهم له لخطأ ارتكبه. وقد أمكن لنا أن نستنتج من ذلك أن السوداوي إن كان سحب من الموضوع الليبيدو الذي وظَّفه فيه، فإن هذا الموضوع قد انتقل إلى داخل الأنا، وكأنه أسقط عليه، بفعل سيرورة نستطيع أن نطلق عليها اسم «التماهي النرجسي»[١٠]. ولا يسعني هنا أن أقدم لكم سوى

١٠ ـ الإحالة هنا إلى البحث الذي نشره فرويد عام ١٩١١ عن حالة مشهورة في التحليل النفسي باسم حالة الرئيس شريبر (رئيس غرفة في محكمة الاستئناف بدرسدن) تحت عنوان: **ملاحظات تحليلية نفسية بصدد حالة حالة بارانويا موصوفة في شكل سيرة ذاتية**. «م».



صورة مجازية عن هذه الحالة، وليس وصفاً طبوغرافياً دينامياً حسب الأصول. فالأنا يعامَل عندئذ وكأنه هو الموضوع المهجور، فيكابد جميع ضروب العدوان ومظاهر الانتقام الموجهة أصلاً إلى الموضوع. ومن الممكن أيضاً أن نعلل على ضوء هذا التصور، وبسهولة أكبر، ما نلاحظه لدى السوداويين من ميل إلى الانتحار، إذ يحاول المريض في هذه الحال أن يقضي على نفسه وعلى الموضوع المحبوب والمكروه في آن معاً. وفي السويداء، كما في سائر الأمراض النرجسية، تتظاهر على نحو سافر سمة من سمات الحياة الوجدانية اعتدنا أن نطلق عليها، مع بلولر، اسم **الازدواجية**[11]. ونقصد بها أن توجد لدى الشخص الواحد عواطف متناقضة، ودية وعدائية، تجاه شخص آخر. ومن دواعي الأسف ألا تكون قد سنحت لي الفرصة، في أثناء هذه المحاضرات، لأحدِّثكم ملياً عن ازدواجية العواطف هذه.

إلى جانب التماهي النرجسي يوجد تماهٍ هستيري نعرفه منذ عهد أبعد بكثير. وكان بودي لو أبيِّن لكم الفوارق بين هذين النوعين من التماهي ببضعة أمثلة مختارة. على أنه يسعني أن أسرد على مسامعكم على كل حال شيئاً طريفاً بكل تأكيد حول الأشكال الدورية والنوبية للسويداء. إذ من الممكن في ظروف مؤاتية (وقد جرَّبت ذلك بنفسي مرتين) الحؤول دون رجوع الحالة السوداوية، إما بصورتها الوجدانية المعهودة وإما بصورة معاكسة، عن طريق تطبيق العلاج التحليلي في الفترات التي يصفو فيها ذهن المريض بين النوبات. فعندئذ نلاحظ أن بيت القصيد في السويداء كما في الهوس الوصول إلى حلٍّ لصراع من نوع خاص، وإن تكن عناصره هي بالتحديد عين عناصر الأعصبة الأخرى. ولكم أن تتخيلوا كم لا يزال على التحليل النفسي أن يتعلم من أشياء كثيرة في هذا المضمار.

ذكرت لكم كذلك أنه بوسعنا، بفضل التحليل النفسي، تحصيل

١١ ـ Ambivalence: مصطلح منحوت من اللاتينية: Ambo، أي اثنان، وValer أي يعادل، ويطلق على كل ما له بذاته مظهران متعارضان. وقد درجت المدرسة المصرية على ترجمته بالتعارض الوجداني. «م».



معلومات عن تركيب الأنا وعن العناصر الداخلة في بنيته. بل شرعنا فعلاً نستشفّ هذا التركيب وهذه العناصر. وقد لاح لنا أن تحليل هذاء الترصُّد (Délire d'observation) يتيح لنا أن نستنتج أنه توجد في الأنا فعلاً سلطة تراقب وترصد وتنقد وتقارن على الدوام، وتقف من ثم موقفاً معارضاً من الشطر الآخر من الأنا. لهذا أرى أن المريض يكشف لنا عن حقيقة لا تولى في العادة ما تستأهله من اهتمام واعتبار. وذلك عندما يتشكى من أن كل خطوة من خطواته مراقبة مرصودة، وكل فكرة من أفكاره مستباحة منقودة. وخطؤه الوحيد أنه يجعل خارج نفسه مركز هذه القوة المزعجة، وكأنها غريبة مستقلة عنه. إنه يشعر في داخل نفسه بسلطان هيئة تقيس أناه الراهن وكل تظاهرة من تظاهراته بمقياس **أنا مثالي** اختلقه لنفسه بنفسه في أثناء تطوره. بل إني أرى أنه ما اختلق هذا الأنا المثالي إلا بغية استعادة رضاه عن نفسه، ذلك الرضى الذي كان يلازم النرجسية الطفلية الأولية والذي مُني مذّاك بصدمات وإذلالات كثيرة. هذه السلطة التي تراقب وترصد معروفة لدينا: فهي الرقيب على الأنا، أي **الضمير**؛ وهي عينها التي تمارس ليلاً الرقابة على الأحلام، والتي تفرض الكبت على الرغبات غير المقبولة. ومع تحلُّل هذه السلطة في سياق هذاء الترصد تتكشف لنا أصولها: تأثير الوالدين والمربين والوسط الاجتماعي، والتماهي مع بعض الأشخاص الذي كان تأثيرهم أبعد مدى من تأثير غيرهم.

تلكم هي بعض النتائج التي يمكن أن نخرج بها من تطبيق التحليل النفسي على الأعصبة النرجسية. وأنا أقرّ أنها ليست بالكثيرة، وأنه كثيراً ما يعوزها ذلك الوضوح الذي لا سبيل إلى الوصول إليه إلا بعد التآلف مع المضمار الجديد. ونحن ندين بهذه النتائج لاعتماد مفهوم الليبيدو الأنوي أو الليبيدو النرجسي، مما أتاح لنا أن نسحب على الأعصبة النرجسية المعطيات التي أمدَّتنا بها دراسة الأعصبة التحويلية. وإنكم لتتساءلون الآن بلا ريب عما إذا لم يكن في الإمكان أن نعمِّم نظرية الليبيدو على جميع اضطرابات الأمراض النرجسية والأذهنة، وعما إذا لم يكن العامل الليبيدوي في الحياة النفسية هو المسؤول في



نهاية المطاف عن المرض، من دون أن نقيم اعتباراً لأي خلل في وظائف الدوافع الغريزية إلى المحافظة على الذات. والحال أن الإجابة عن هذا السؤال، سيداتي سادتي، لا تبدو لي عاجلة ملحّة، وهي على الأخص لم تنضج بما فيه الكفاية لنجازف بصوغها. فلندع البحث العلمي يواصل تقدمه ولننتظر بصبر. ولن يدهشني أن أعلم ذات يوم أن القدرة على إتيان المفعول الإمراضي هي بالفعل سمة موقوفة على الدوافع الغريزية الليبيدوية وحدها، وأن نظرية الليبيدو يعقد لها إزار النصر على طول الخط، بدءاً من أبسط أشكال الأعصبة الراهنة وانتهاء بأخطر أشكال الجنون الذهاني لدى الفرد. أفلا نعرف أن ما يميّز الليبيدو هو رفضه الخضوع لواقع العالم ولمبدأ الضرورة؟ لكن يتراءى لي أنه من المرجح أن تتعرض الدوافع الغريزية الأنوية هي الأخرى لاضطرابات وظيفية، استتباعاً لاندفاعات الليبيدو الإمراضية. ولئن علمت ذات يوم أن الدوافع الغريزية الأنوية تكون هي السباقة إلى الاختلال في الأشكال الخطرة من الذهان، فلن أرى في ذلك حيداناً عن الاتجاه العام لأبحاثنا. ولكن هذه مسألة لا تزال رهن المستقبل، بالنسبة إليكم على الأقل. لكن اسمحوا لي بالرجوع لهنيهة من الزمن إلى موضوع الحصر لكي أجلو نقطة غامضة أخيرة لا تزال تحفّ به. فقد قلنا إن الصلات المعروفة القائمة بين الحصر والليبيدو لا تبيح لنا أن نفترض، رغم أن هذه قضية مسلَّم بها ولا تكاد تحتمل جدالاً، أن يكون الحصر الواقعي المنشأ حيال خطر من الأخطار تظاهراً للدوافع الغريزية إلى المحافظة على الذات. لكن كيف الحال فيما لو أن ليبيدو الأنا، وليست الدوافع الغريزية الأنوية، هو من يتحمل تكاليف الانفعال الحصَري؟ ذلك أن حالة الحصر هي في صميمها غير موائمة لأي غاية، وعدم موائمتها هذه تغدو ظاهرة للعيان متى ما أدركت درجة معيَّنة من الشدة، إذ تعطِّل عندئذ العمل، سواء أكان هرباً أم دفاعاً، مع أن هذا العمل هو وحده الموائم وهو وحده القمين بأن يصون البقاء. وهكذا لو عزونا الشطر الانفعالي من الحصر الواقعي المنشأ إلى ليبيدو الأنا، والعمل الذي يحدث بهذه المناسبة إلى دافع الأنا الغريزي إلى المحافظة على الذات، لذلَّلنا كل صعوبة نظرية. ولست أخالكم



تصدقون فعلاً أن الإنسان يهرب لأنه يشعر بالحصر. كلا، إن الإنسان يشعر بالحصر ويلوذ بالفرار تحت ضغط الدافع المشترك الذي يوقظه إدراك الخطر. ويروي رجال واجهوا أخطاراً جسيمة أنه لم يساورهم أي خوف أو حصر، بل تصرفوا وعملوا ليس إلا، بأن سددوا مثلاً بنادقهم إلى الوحش الكاسر. وهذا أعقل ردٍّ فعلٍ يمكن أن يصدر عنهم.



المحاضرة السابعة والعشرون

التحويل

سيداتي سادتي، مع اقترابنا من نهاية أحاديثنا هذه يستيقظ فيكم ـ أنا على يقين من ذلك ـ توقع معيَّن آمل ألا يكون لكم مصدر خيبة. فأنتم تقولون بينكم وبين أنفسكم إني لم أمضِ بكم عبر متاهات التفاصيل الكبرى والصغرى للمادة التحليلية النفسية لكي أستأذنكم في آخر المطاف بالانصراف من دون أن أنبس لكم ببنت شفة عن العلاج الذي إليه ترتكز مع ذلك إمكانية ممارسة التحليل النفسي. وبالفعل، إنه ليتعذر عليَّ أن أتفادى هذا الموضوع، لأني لو تملَّصت منه لتركتكم في جهل بواقعة جديدة سيبقى بدونها فهمكم للأمراض التي تفحصناها ناقصاً غير كامل.

أنا أعلم أنكم لا تنتظرون مني إرشادكم إلى التقنية، إلى خطة ممارسة التحليل لهدف علاجي. إنما تريدون فقط أن تعرفوا بصفة عامة ما هي طريقة عمل المعالجة التحليلية النفسية وما هي نتائجها ومفاعيلها على وجه التقريب. وحقكم في معرفة ذلك لا مرية فيه، ومع هذا لن أذكر لكم عنه شيئاً، بل سألحّ على العكس كيما تخمِّنوه بأنفسكم.

هيا، أعملوا فكركم! أنتم تعرفون الآن الشروط الأساسية للوقوع في حالة المرض، وكذلك جميع العوامل التي تفعل فعلها لدى الشخص الذي يقع في حالة المرض. فهل يبقى ثمة من مجال للكلام عن التأثير العلاجي؟ هاكم أولاً الاستعداد الوراثي: فنحن لا نكثر من الكلام عنه، لأن غيرنا يلحّ عليه إلحاحاً شديداً، ولأنه ليس لدينا من جديد نضيفه. لكن لا تحسبوا أني أتجاهل أهمِّيته: فليس لنا أن ندرك مدى قوته وأثره إلا بقدر ما نمارس العلاج. ثم إننا لا نملك أن نغيِّر فيه شيئاً؛ فهو يبقى بالنسبة إلينا مجرد معطى، أشبه بقوة ترسم حدوداً



لجهودنا. ويأتي بعد ذلك تأثير الخبرات الحياتية الطفلية المبكرة التي اعتدنا أن نجعل لها مكانة الصدارة في التحليل. هذه الخبرات تنتمي إلى الماضي، ولا نملك أن نتصرف كما لو أنها لم توجد قط. ولدينا أخيراً كل ما جمعناه في باب «الحرمان الواقعي»، أي مختلف فواجع الحياة التي تفرض القطاعة عن الحب وتتسبب في الشقاء والبؤس، والشقاق العائلي، والزواج غير الموفق، وهذا ناهيك عن الظروف الاجتماعية غير المؤاتية وصرامة المطالب الأخلاقية التي نرزح تحت ضغطها. ولا ريب في أن هذه كلها مداخل إلى العلاج الناجع، ولكنها من النوع الذي طبّقه الإمبراطور جوزيف[١] على حدّ ما تروي الأسطورة الفييناوية: التدخل العميم النفع لرجل قادر قاهر، ينحني أمام إرادته الرجال قاطبة وتزول الصعوبات طراً. لكن من نحن حتى نبيح لأنفسنا مثل هذا التدخل النافع في مضمار العلاج؟ ألسنا نحن أنفسنا فقراء، غير نافذين اجتماعياً، ومكرهين على اتخاذ مهنتنا وسيلة للرزق والمعاش، فلا نملك أن نبذل عنايتنا مجاناً للمرضى الذين ما أوتوا حظاً من اليسار، على حين أن غيرنا من الأطباء، ممن يستخدمون طرقاً أخرى في العلاج، لا يعزّ عليهم إتيان مثل هذا المعروف؟ ذلك أن طريقتنا العلاجية طويلة النفَس، ولا تعطي ثمارها إلا بتؤدة مسرفة وبعد طول عناء. ولعل واحداً من العوامل التي استعرضتها أمامكم قد استرعى انتباهكم أكثر من غيره، فارتأيتم أنه أصلحها لأن يكون منطلقاً لما ننشده من تأثير علاجي. فلئن يكن التقييد الأخلاقي المفروض من قبل المجتمع هو المسؤول عن الحرمان الذي يقاسيه المريض، ففي وسع العلاج، على ما قد تتصورون، أن يشجع هذا المريض أو يحثه حثاً مباشراً على التعالي على هذا التقييد وعلى التماس الإشباع والصحة عن طريق رفض الانصياع لمثل أعلى يعلّق عليه المجتمع قيمة كبرى، ولكن نادراً ما يستلهمه الناس فعلاً. وهذا يعدل القول بأن سبيل الفرد إلى الشفاء أن يحيا حياته الجنسية إلى أقصى مداها. ولكن لو كان العلاج التحليلي ينطوي فعلاً على تحريض وتشجيع من هذا القبيل، لاستأهل بلا جدال الملامة

---

١ ـ هو جوزيف الثاني (١٧٤١ ـ ١٧٩٠)، ولد في فيينا وقاد الإمبراطورية الجرمانية، وكان مثالاً للمستبد المستنير، واشتهر بإلغائه الرق والقنانة. «م».



ولاستحقّ أن تعاب عليه مخالفته للأخلاق العامة، لأن ما يعطيه للفرد في هذه الحالة إنما ينتزعه من المجموع.

لكن من أين جاءكم، سيداتي سادتي، هذا الخبر الباطل؟ إن نصح الفرد بأن يعيش حياته الجنسية إلى أقصى مداها لا صلة له من قريب أو بعيد بالمعالجة التحليلية النفسية، وحسبي أني كنت ذكرت لكم أنه تدور في نفس المريض رحى صراع دائم بين الحاثة الليبيدوية والكبت الجنسي، بين الجانب الشهواني فيه والجانب الزهدي. وليس السبيل إلى حلّ هذا الصراع أن نساعد أحد الخصمين على التغلب على الآخر. فنحن ندرك جيداً أن الزهد هو الذي ترجح كفته لدى العصبي، فتكون عاقبة ذلك أن يعوِّض الميل الجنسي المقموع عن خسارته بالأعراض. أما لو عملنا، على العكس، على أن تكون الغلبة للجانب الشهواني في الفرد، فإن الجانب الزهدي فيه هو الذي سيبحث في هذه الحالة عن متنفس له، بعد أن كُبت، بالأعراض. وليس يملك أي من هذين الحلَّين أن يضع حداً للصراع الداخلي، إذ سيبقى هناك على الدوام جانب غير مشبع. ونادرة هي الحالات التي يكون فيها الصراع واهناً إلى درجة يكفي معها تدخل الطبيب لحسمه؛ والحق أن هذه الحالات لا تقتضي معالجة تحليلية. فالأشخاص الذين يمكن للطبيب أن يؤثر عليهم مثل هذا التأثير يسهل عليهم أن يظفروا بالنتيجة نفسها من دون تدخل الطبيب. وأنتم تعلمون حق العلم أنه متى ما قرّ قرار الشاب المتعفف على أن يقيم علاقة جنسية غير مشروعة أو متى ما عزمت زوجة محرومة من الإشباع على التماس ما هي محرومة منه لدى رجل آخر، فإنهما لا ينتظران في العادة الإذن من الطبيب ولا حتى من المحلل النفسي ليقدما على ما عقدا النية عليه.

ثمة نقطة أساسية في هذه المسألة لا تحظى بالانتباه المطلوب، وهي أن الصراع الإمراضي لدى العصبيين لا يشبه في شيء الصراع العادي الذي ينشب بين الحاثات النفسية المتعارضة فوق أرض سيكولوجية واحدة. فالصراع عند العصبيين صراع بين قوى وصل بعضها إلى مستوى الشعور والقبشعور، بينما لم يتخطَّ بعضها الآخر حدود اللاشعور. ولهذا لا يمكن للصراع أن يفضي إلى حلّ.



فالخصمان لا يجابه واحدهما الآخر وجهاً لوجه، كما يتجابه الدب الأبيض والحوت في المثل المعروف[٢]. ولا سبيل إلى حلّ حقيقي إلا إذا واجه واحدهما الآخر على مستوى واحد. وأعتقد أن المهمة الوحيدة للعلاج أن يجعل هذه المواجهة ممكنة.

بوسعي أن أؤكد لكم، علاوة على ذلك، خطل ما اجتمع لكم من علم إن كنتم تعتقدون أن النصح والإرشاد وتسديد الخطى في صروف الحياة هي من مقومات التقنية التحليلية النفسية. فنحن نبتعد قدر المستطاع عن دور الناصح المرشد هذا، ولا تعتمل فينا سوى رغبة واحدة وهي أن نرى المريض يبرم قراراته بنفسه. ولهذا نطلب إليه أن يرجئ إلى نهاية العلاج كل قرار هام يتصل بمستقبل حياته: كاختيار مهنة، أو القيام بمشروع تجاري، أو عقد زواج، أو الإقدام على طلاق، إلخ. وأعتقد أنكم توافقونني على أن هذا يختلف كل الاختلاف عما كنتم تظنون! ونحن لا نشذّ عن هذه القاعدة ونقرن إلى دور الطبيب دور المربي إلا إذا كنا بصدد معالجة أفراد يافعين، أو أفراد لا حيلة لهم ولا قوة بالمرة. لكننا نعي في مثل هذه الحال مسؤوليتنا، ونتصرف بكل الفطنة والحيطة المطلوبتين.

غير أنكم تخطئون أيضاً لو استنتجتم، من جِدّتي في الردّ على اتهام من يتهم المعالجة التحليلية النفسية بأنها تحضّ العصبي على أن يحيا حياته الجنسية إلى أقصى مداها، أن التأثير الذي نمارسه يأخذ بناصر الأخلاق الاجتماعية. فهذا القصد بعيد عنا بعد القصد الأول. صحيح أننا ملاحِظون ومراقبون، ولسنا مصلحين، لكن لا يسعنا مع ذلك أن نمسك عن أن نلاحظ ونراقب بعين ناقدة: لذا وجدنا أنه يستحيل علينا أن نتولى الدفاع عن الأخلاق الجنسية المتواضع عليها، وأن نمحض تأييدنا للطريقة التي يحاول المجتمع أن يحلّ بها عملياً مشكلات الحياة الجنسية. وبوسعنا أن نقول بكل بساطة للمجتمع إن ما يسمِّيه بعرفه الأخلاقي يكلِّف من التضحيات أكثر مما يستحقّ، وإن أساليبه وطرائقه تفتقد إلى الصدق افتقادها إلى الحكمة. ونحن لا نخطئ حينما نفصح عن

٢ ـ قول سائر معروف في زمن فرويد، ويُنسب خطأً إلى بسمارك للإشارة إلى الصراع السياسي بين روسيا وانكلترا اللتين كان تحالفهما يبدو بحكم المستحيل يومئذ. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.



انتقاداتنا أمام المرضى؛ بل نعوّدهم على التفكير، بلا تحيُّز وبلا أحكام مسبقة، في الوقائع الجنسية كما في غيرها من الوقائع؛ فإذا ما صار العلاج إلى نهايته واستقلوا بأنفسهم وقرروا بمحض إرادتهم الأخذ بحلّ وسط بين الحياة الجنسية اللامقيدة والزهد المطلق، لم يرزح ضميرنا تحت عبء أي تبكيت. والرأي عندنا أن من استطاع، بعد أن جاهد نفسه، أن يرقى بها نحو الحقيقة كان بمنجاة من خطر التحلل الخلقي، وكان في حِلٍّ من أن يكون سلَّم قيمه الأخلاقية مختلفاً بعض الاختلاف عن سلَّم القيم التي تواضع عليها مجتمعه. ولنحذر على كل حال من المبالغة في تقدير دور التعفف الجنسي في نشوء الأعصبة. ففي عدد محدود للغاية من الحالات فقط يمكن للفرد أن ينعتق من الموقف الإمراضي الناجم عن الحرمان وعن تراكم الليبيدو بإقدامه على إقامة علاقات جنسية سهلة لا عناء فيها.

إذاً لن يكون في وسعكم أن تفسروا التأثير العلاجي للتحليل النفسي بالقول إنه يبيح للمريض أن يحيا حياته الجنسية حتى أقصى مداها. بل عليكم أن تبحثوا عن تفسير آخر. ولعل ملاحظةً أبديتُها، وأنا أفنِّد خطأكم بصدد هذه النقطة، قد وجَّهتكم في الوجهة الصحيحة. ولعلكم بالتالي أدرتم في أذهانكم الفكرة التالية: إن نفع التحليل النفسي يكمن في أرجح الظن في استبدال اللاشعوري بالشعوري وترجمة اللاشعور إلى الشعور. وهذا صحيح. فنحن إذ نستدرج اللاشعور إلى الشعور نلغي الكبت، وننحّي الشروط التي تتحكَّم بتكوين الأعراض، ونحوِّل الصراع الممرِض إلى صراع سويّ لا بدّ أن يجد سبيله، بطريقة أو بأخرى، إلى الحلّ في خاتمة المطاف. ونحن لا نصنع للمريض شيئاً غير أن نستثير لديه هذا التغيُّر النفسي وحده، ومدى نجع تقنيتنا مرتهن بمدى اتساع نطاق هذا التغيُّر. أما في الحالات التي لا سبيل فيها إلى إلغاء الكبت أو أية سيرورة نفسية من النوع نفسه، فإن تقنيتنا العلاجية يسقط في يدها.

في مقدورنا أن نعبِّر عن هدف جهودنا بصيغ شتى: فبوسعنا أن نقول مثلاً إننا نسعى إلى جعل اللاشعوري شعورياً، أو إلى إلغاء الكبت، أو إلى سدّ الثغرات الذاكرية؛ وهذا كله سيان. غير أن هذا الإقرار قد لا يقع منكم موقعاً حسناً. فلعلكم كوَّنتم عن شفاء المريض العصبي فكرة مغايرة، فتصوَّرتم أن هذا المريض



يغدو بعد خضوعه لعملية التحليل النفسي الشاقة شخصاً آخر؛ وهأنذا أقول لكم إن شفاءه لا يعدو أن يكون تزايداً في الشعور لديه وتناقصاً في اللاشعور بمقدار ضئيل عما ذي قبل! والحال أنكم لا تقدِّرون في أكبر الظن أهمية مثل هذا التغيُّر الداخلي حقَّ قدره. فالعصبي الذي يشفى يغدو بالفعل شخصاً آخر، لكنه يبقى في صميم الأمر هو نفسه بطبيعة الحال، أي أنه يصير ما كان يمكنه أن يكونه، بدون مساعدة العلاج، فيما لو كانت الظروف أكثر مؤاتاة له. وهذا ليس بقليل. فلو عرفتم هذا واطلعتم على كل ما ينبغي فعله وعلى جميع الجهود التي لا بدّ من استنفارها للوصول إلى هذا التغيُّر الطفيف في الظاهر في حياة المريض النفسية، لما عاد يخامركم شكٌ في أهمية ذلك الانتقال الذي نفلح في استثارته من مستوى نفسي إلى آخر.

هنا أستطرد قليلاً لأسألكم هل تعرفون ما المقصود بالمعالجة العِليّة؟[٣] إن هذه التسمية تطلق على طريقة في العلاج تجعل همَّها لا أن تتصدى لتظاهرات المرض بل أن تلغي أسبابه وعلله. فهل التحليل النفسي على هذا الأساس علاج عِليّ أم لا؟ الإجابة عن هذا السؤال ليست بالسهلة، لكنها قد تتيح لنا الفرصة لندرك بطلان السؤال نفسه. فبقدر ما لا يكون إلغاء الأعراض هو الهدف المباشر للمعالجة التحليلية، تكون هذه سلكت قد مسلك المعالجة العِلّية. لكننا لو نظرنا إليها من غير هذا المنظور لبدت لنا غير علّية. فلقد وضعنا نصب أعيننا من البداية أن نقتصّ أثر تسلسل العلل والأسباب، من خلال ضروب الكبت، وصولاً إلى الاستعدادات الغريزية المسبقة بما تكون عليه من شدة نسبية في جبلَّة الفرد، وبما يطرأ عليها من حيدان وانحراف عن مسار تطورها السويّ. ولنفرض الآن أنه تأتّى لنا أن نؤثِّر بطرائق كيميائية في هذه البنية النفسية، فنزيد أو ننقص كمية الليبيدو المتواجدة في لحظة معينة، ونعزز دافعاً غريزياً بعينه على حساب غيره؛ فلو فعلنا لكان هذا علاجاً علّياً بحصر معنى الكلمة، علاجاً لا يكون من شأن التحليل النفسي غير أن يرود له الطريق ويمهِّدها. والحال أنه لا مجال في الوقت الحاضر للتفكير بإخضاع سيرورات الليبيدو لمثل ذلك التأثير؛ فمعالجتنا النفسية

---

٣ ـ أي السببية. «م».



تتصدى لحلقة أخرى في السلسلة، حلقة قد لا تكون موصولة بجذور الظاهرات المنظورة من قبلنا، ولكنها بعيدة كافي البعد مع ذلك عن الأعراض، وقد هدتنا إليها ظروف فريدة بحقٍّ.

ماذا ينبغي إذاً أن نفعل لنستبدل اللاشعوري بالشعوري لدى مرضانا؟ لقد خيِّل إلينا لحين من الزمن أن الأمر في غاية من السهولة، وأنه حسبنا أن نميط اللثام عن اللاشعور لنضعه من ثمّ تحت بصر المريض. لكننا نعلم اليوم أننا كنا على خطأ من أمرنا. فما نعرفه عن اللاشعور لا يتطابق بتاتاً مع ما يعرفه المريض عنه؛ فحين نكاشفه بما نعلمه، **لا يستعيض** عن لاشعوره بما تحصَّل له من معرفة، بل يرصف هذه **بجانب** ذاك، فيبقى اللاشعور عنده بالتالي بلا تغيير تقريباً. وأولى بنا أن نكوّن عن هذا اللاشعور تصوراً **طبوغرافياً**، وأن نلتمسه في ذكريات المريض حيثما أمكن له أن يتكون وبتشكل عقب عملية كبت. وهذا الكبت هو ما ينبغي أن يُزال كيما يتم حلول الشعوري محل اللاشعوري من تلقاء نفسه. لكن ما السبيل إلى إزالة الكبت؟ هنا تبدأ المرحلة الثانية من عملنا: فنتقصى أولاً أثر الكبت، ونلغي ثانياً المقاومة التي تبقي عليه قائماً.

كيف السبيل إلى إزالة هذه المقاومة؟ بالطريقة عينها: بأن نميط عنها اللثام ونضعها تحت بصر المريض. ذلك أن المصدر الذي تنشأ عنه المقاومة هو الكبت أيضاً، وقد يكون هذا الكبت هو عينه الذي نسعى إلى حلِّه، وقد يكون كبتاً آخر طرأ قبله. والواقع أن المقاومة هي حصيلة التوظيف المضاد الذي يرمي إلى كبت الحاثة المستهجنة. ثم نفعل الآن ما كنا أردنا أن نفعله في أول الأمر: نؤوِّل ونكشف ونكاشف المريض بما نصل إليه، لكننا نفعل ذلك هذه المرة في الموضع المناسب. والتوظيف المضاد أو المقاومة جزء، لا من اللاشعور، بل من الأنا الذي يتعاون وإيانا، وذلك حتى ولو لم تكن هذه المقاومة شعورية. وكلمة «اللاشعور» لها هنا، كما نعلم، معنيان: اللاشعور كظاهرة، واللاشعور كنسق[٤]. وقد يبدو الأمر غامضاً وبالغ التعقيد، ولكنه أليس في صميمه واحداً؟ وهذه مسألة كانت

---

٤ ـ رأينا من قبل أنه من الممكن حلّ هذا الإشكال باللغة العربية، إذا ترجمنا اللاشعور من حيث أنه ظاهرة وصفة بـ«اللاوعي»، ومن حيث أنه نسق نفسي بـ«اللاشعور». «م».



قد عرضت لنا على كل حال من قبل. إذاً فنحن ننتظر أن تختفي المقاومة، وأن يتراجع التوظيف المضاد، حالما يضع تأويلنا كلا منهما تحت بصر الأنا. فما القوى التي نعمل وإياها في هذا الضرب من الحالات؟ إن أول اعتمادنا هنا على رغبة المريض في استعادة صحته وعافيته، وهي الرغبة التي حملته على التعاون معنا؛ ونعتمد ثانياً على ذكائه الذي نسانده بتدخلنا. ومن المؤكد أنه سيكون من الأيسر على الذكاء أن يتعرف المقاومة وأن يهتدي إلى ترجمة ما تمّ كبته فيما لو أعطيناه من البداية فكرة عما ينبغي عليه أن يتعرفه ويهتدي إليه. فلو قلت لكم: «انظروا إلى السماء، تروا فيها منطاداً» لوقع عليه نظركم بأسرع مما لو اكتفيت بأن أطلب إليكم بأن تشخصوا بأبصاركم إلى السماء من دون أن أعيِّن لكم ما يفترض بكم أن تروه فيها.

ثم لدينا بعد ذلك الوقائع. ففي عدد كبير من الإصابات العصبية، في ضروب الهستيريا والأعصبة الحصرية والأعصبة الوسواسية، تثبت صحة فروضنا ومقدماتنا. فببحثنا عن الكبت وبكشفنا المقاومة وبإماطتنا اللثام عما جرى كبته، نفلح فعلاً في حلّ المشكلة، وفي التغلب على المقاومات، وفي إزالة الكبت، وفي تحويل اللاشعوري إلى شعوري. وفي أثناء قيامنا بذلك نحسّ إحساساً واضحاً بأن ثمة صراعاً عنيفاً ينشب في نفس المريض حيال كل مقاومة يراد التغلب عليها، صراعاً نفسياً سوياً، على مستوى سيكولوجي واحد، بين دوافع متعاكسة، بين قوى تنزع إلى الإبقاء على التوظيف المضاد وأخرى تدفع باتجاه التخلي عنه. والدوافع الأولى دوافع قديمة، وهي التي تسببت في حينه بالكبت؛ وبالمقابل، إن بين الدوافع الثانية بعض دوافع نشأت حديثاً وعليها نعقد الرجاء في حسم الصراع بالاتجاه الذي نريد. وهكذا نكون قد أفلحنا في بعث الصراع القديم ونفخ الحياة فيه من جديد، بعد أن آل به الأمر إلى الكبت، وفي إعادة النظر في السيرورة التي كان يبدو وكأنه ختم عليها من عهد بعيد. والوقائع الجديدة التي نسوقها مساندةً لهذه المراجعة تتمثل في ما يلي: تذكيرنا المريض بأن الحلّ السابق للصراع هو الذي أفضى إلى المرض، ووعدنا إياه بأن حلاً آخر من شأنه أن يفتح الطريق إلى شفاء، وبياننا له أن الشروط تغيّرت جميعها تغيّراً كبيراً منذ عهد ذلك

الحلّ الأول. فيوم تشكل المرض، كان الأنا ضعيفاً، ضامراً، طفلياً، وربما كان له عذره في استبعاد متطلبات الليبيدو بوصفها مصدراً تأتي منه الأخطار. أما اليوم فهو أقوى وأشد مراساً، وله علاوة على ذلك في الطبيب معاون أمين مخلص. ومن ثم، إن لنا الحقّ في أن نتوقع أن يتمخّض الصراع المؤججة ناره من جديد عن حلٍّ أنسب من ذاك الذي تمخّض عنه يوم آل به الأمر إلى الكبت؛ وكما تقدم بيان ذلك، إن النجاح الذي أحرزناه في حالات الهستيريا والأعصبة الحصرية والأعصبة الوسواسية يبرر من حيث المبدأ توقُّعنا.

غير أن هناك أشكالاً أخرى من المرض لا تكلَّل فيها طرائقنا العلاجية بالنجاح أبداً، مع أن الظروف والشروط متشابهة. فلقد كان الأمر في هذه الأمراض أيضاً أمر صراع بدئي بين الأنا والليبيدو، وهذا الصراع تمخَّض بدوره عن كبت، حتى وإن اختلفت مواصفاته طبوغرافياً؛ ثم إننا نستطيع أن نتقصى حياة المريض لنكتشف في هذه الأمراض، كما في غيرها، المواقع المحددة التي حدث فيها الكبت؛ ثم نطبّق على هذه الأمراض الطرائق عينها، ونجزل للمرضى الوعود ذاتها، ونساعدهم بالطريقة نفسها، أي بأن نعطيهم بعض أفكار أولية أو «تصورات توقعية» عما ينبغي أن يبحثوا عنه؛ وعلاوة على هذا كله، إن الفترة الفاصلة بين العهد الذي حدث فيه الكبت وبين الوقت الحاضر قمينة بأن تعين على إيجاد مخرج مرضٍ للصراع. ولكن بالرغم من ذلك كله لا نفلح في التغلب على مقاومةٍ أو في إزالةِ كبتٍ. فهؤلاء المرضى، من المصابين بالبارانويا أو السويداء أو الخبل المبكر، يستعصون إجمالاً على المعالجة التحليلية النفسية. فما السبب في ذلك؟ لا يمكن أن يكون مرجع ذلك إلى قصور في الذكاء؛ ونحن نفترض بطبيعة الحال أن مرضانا يتمتعون بمستوى عقلي معيَّن، وهذا المستوى موجود بكل تأكيد لدى المرضى البارانويين الذين يظهرون أرابة كبيرة في اختلاق أبرع القصص. كذلك لا يمكننا أن نرجِع السبب في إخفاقنا إلى غياب أية قوة غريزية مفترضة أخرى؛ فالسوداويون مثلاً، وبخلاف البارانويين، يعون أنهم مرضى وأنهم يكابدون آلاماً مبرحة، لكن هذا لا يجعلهم أكثر امتثالاً للمعالجة التحليلية النفسية. والحق أننا نصطدم هنا بواقعة لا نفهمها، الأمر الذي يحدونا



إلى التساؤل عما إذا كنا فهمنا واستوعبنا فعلاً جميع شروط النجاح الذي أحرزناه في الأعصبة الأخرى.

إذا حصرنا اهتمامنا بمرضانا المصابين بالهستيريا والعصاب الوسواسي، فلن نلبث أن نقع على ظاهرة أخرى لم نتهيأ لملاقاتها إطلاقاً. إذ لا نكاد نمضي في العلاج ردحاً يسيراً من الزمن حتى نلحظ أن هؤلاء المرضى يتصرفون حيالنا بطريقة غريبة للغاية. فقد كنا نحسب أننا أحطنا بجميع القوى الغريزية التي يجدر بنا أن نأخذها في اعتبارنا في أثناء المعالجة، كما كنا نظن أننا حدَّدنا موقفنا من المريض بجلاء لا مزيد عليه كما لو في معادلة حسابية؛ لكن ها نحنذا نتبيَّن أنه تسرَّب إلى الموقف عنصر لم يكن في حسابنا. ونظراً إلى أن هذا العنصر اللامتوقع يمكن أن يتجلى في أشكال شتى، فسأبدأ بأن أصف لكم مظاهره الأكثر تواتراً والأقرب إلى الفهم.

أول ما نلاحظه أن المريض، الذي لا ننتظر منه أن يبحث عن شيء آخر إلا عن مخرج من صراعاته المؤلمة، يظهر تجاه شخص طبيبه اهتماماً خاصاً. فكل ما يتصل بهذا الأخير يبدو له أهمَّ من شؤونه الخاصة ويصرف انتباهه عن مرضه. ولذا، إن العلاقات التي تقوم بين الطبيب والمريض تكون ودية للغاية لفترة من الزمن؛ فالمريض يبدي عن حسن استعداد ومودة، ويبذل قصاراه ليظهر عرفانه بالجميل ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، ويكشف عن جانب مرهف في شخصيته وعن خصال حميدة أخرى قد لا يدور لنا في بال أن نبحث عنها عنده. ولا يملك الطبيب في نهاية المطاف إلا أن يكوّن فكرة طيبة عنه، ويحمد الظروف التي أتاحت له الفرصة ليقدِّم معونته إلى مثل هذا الشخص الرائع. وإذا سنحت الفرصة للطبيب ليتحدث إلى أقارب المريض، سرّه أن يعلم أن مشاعر ودِّه تجاه هذا الأخير متبادلة. فالمريض لا يني يكيل الثناء أمام ذويه للطبيب ويكتشف لديه في كل يوم مزايا جديدة. ويشنِّف أقاربه أذنيك بقولهم: «إنه لا يفكر إلا بك، وثقته بك عمياء، وكل ما تقوله هو عنده كلام مُنزل». وقد يزيد أحد أفراد هذه الجوقة بين الحين والآخر فيقول: «لقد أصبح مملاً، فهو لا يتحدث إلا عنك، ولا يتردَّد غير اسمك على شفتيه».



ولنأمل أن يكون الطبيب على درجة كافية من التواضع كيلا يرى في كل ضروب الإطراء والمديح هذه سوى محض تعبير عن الرضى الذي يخالج المريض لما يتيحه له الطبيب من أمل في الشفاء، ونتيجة للتوسع في أفقه العقلي من جراء منظورات التحرر المدهشة التي تفتحها أمامه المعالجة. وفي مثل هذه الشروط لا بدّ أن يكون التحليل قد أحرز تقدماً مرموقاً؛ فالمريض يفهم التوجيهات التي تُقترح عليه، ويستوعب المهام التي تقتضيها منه المعالجة، وتتوارد إلى ذهنه الخواطر والذكريات باستفاضة، وتدهِش تأويلاته بصحّتها ووثوقها الطبيب، فلا يملك إلا أن يلحظ بعين الرضى سرعة تقبّل المريض للبدع السيكولوجية التي تقابل في العادة من أصحاء الناس بأعنف المعارضة. وهذا التفاهم الطيِّب الذي يسود أثناء العمل التحليلي لا بدّ أن يناظره تحسُّن موضوعي في الحالة المرضية لا تعسر ملاحظته على أحد.

على أن الجو الجميل لا يمكن له أن يدوم أبداً. إذ يأتي يوم يتعكر فيه ويربد، وتبرز في وجه المعالجة عقبات، ويزعم المريض أن سيل خواطره قد نضب معينه. ويراود الطبيب شعور واضح بأن المريض ما عاد يحفل بالتحليل، وأنه يتهرب باستخفاف من الوفاء بالعهد الذي قطعه للطبيب بأن يبوح له بكل ما يرد إلى خاطره، من دون أن يلقي بالاً إلى أي اعتبار نقدي. ومن ثمّ نراه يتصرّف وكأنه ليس قيد المعالجة، وكأنه لم يعقد مع الطبيب اتفاقاً. ومن الواضح هنا أن باله انشغل بشيء يحرص على عدم الإفصاح عنه. وهذا موقف فيه على المعالجة خطر. ولا جدال في أن مقاومة عنيفة تعترض سبيلنا هنا. فما عسى أن يكون حدث؟

حين تتأتى لنا القدرة على جلاء الموقف من جديد، نلاحظ أن علة الاضطراب تكمن في كون المريض قد أسقط على الطبيب مشاعر حبِّية قوية لا يأذن بها سلوك هذا الأخير ولا العلاقات التي قامت بينهما في أثناء المعالجة. والشكل الذي يتظاهر به هذا الشعور الودّي أو الحبّي والأهداف التي ينشدها تتوقف بطبيعة الحال على ظروف العلاقات الشخصية بين الطرفين. فإن كانت المريضة فتاة، وكان الطبيب في مقتبل العمر كذلك، خالجنا انطباع بأننا إزاء حالة حبيّة



سوية، ولن نستغرب هنا أن تتدله فتاة بحب رجل تنفرد به لفترات طويلة وتستطيع مكاشفته بأشياء حميمة كثيرة ويكون له عليها وقع وإيهام لما له من تفوُّق يستمده من موقعه كمنقذ. ولكننا نكون قد نسينا في هذه الحال أن ما يمكن لنا أن نتوقعه من جانب فتاة معصوبة هو بالأحرى اضطراب في المقدرة على الحب. والأبعث على العجب أن نلتقي هذا الموقف الحبّي عينه حتى عندما تكون العلاقات الشخصية بين المريض والطبيب بعيدة عما هي عليه في الحالة الافتراضية السالفة. والأمر ممكن التصور مع ذلك فيما لو كانت المريضة زوجة في مقتبل العمر، ما ذاقت طعماً في زواجها إلا للشقاء، فساورها هوى مشبوب حيال طبيبها إن كان لا يزال أعزب، وأبدت عن استعدادها لطلب الطلاق كيما تتزوجه؛ وإن كان ثمة عقبة تعترض سبيل زواجها منه ما تردّدت في إبداء استعدادها لتصير عشيقته. ومن المؤكد أنه لا يندر أن تحدث أشياء كهذه حتى خارج نطاق التحليل النفسي. ولكننا، في مثل هذه الظروف، لا نملك إلا أن نُدهش عندما نسمع من أفواه النساء والفتيات تصريحات تنمّ عن موقف محدد من مشكلة العلاج: فهن يزعمن أنهن كنّ يعرفن من البداية أنه لا سبيل أمامهن للشفاء غير الحب، وأن يقينهن كان راسخاً، من أول العلاج، بأن صلتهن بالطبيب ستمنحهن في نهاية المطاف ما ضنّت به الحياة عليهن. واستناداً إلى هذا الأمل وحده بذلن ما بذلنه من جهود في أثناء المعالجة وتغلّبن على كل صعاب الاعتراف والبوح بالأسرار. وسنضيف من جهتنا: «إنما استناداً إلى هذا الأمل وحده فهمن بسهولة أشياء لا يتقبلها الناس في العادة إلا بلأي وعسر». على أن اعترافاً كهذا يذهلنا ويقلب حساباتنا كافة. أفمن الممكن أن نكون قد تركنا أهمّ بند في محاسبتنا يسقط منا؟

بالفعل، كلما تعمقت تجربتنا، تضاءلت قدرتنا على المماراة في هذا التصحيح الذي فيه ما فيه من المهانة لادعاءاتنا العلمية. فلعلنا كنا نحسب في بادئ الأمر أن التحليل قد اصطدم بعقبة نشأت عن حادث عارض لا يمتّ بصلة إلى النية الأصلية للمعالجة ولم تكن هي السبب فيه. لكن عندما نرى أن تعلق المريض الحُبّي بالطبيب يتكرر قياسياً في كل حالة جديدة، وعندما نراه يتظاهر حتى في



الظروف غير المؤاتية على الإطلاق، بل حتى في الحالات التي يصل فيها عدم التناسب بين المريض والطبيب إلى حدّ يبعث ـ لغرابته ـ على الضحك، كأن تتعلق امرأة طعنت في السن بطبيب ابيضَّت لحيته، أي في الحالات التي لا يمكن أن يكون فيها، في تقديرنا، مجال للجاذبية أو للإغراء، إذّاك نجدنا مكرهين على أن نطَّرح جانباً فكرة أن الأمر كان محض مصادفة عكَّرت صفو التحليل، ولا يكون أمامنا مناص من التسليم بأننا أمام ظاهرة وثيقة الصلة بطبيعة الحالة المرضية بالذات.

هذه الواقعة الجديدة، التي لا نسلِّم بها إلا على كره منا، ما هي إلا ما نسمِّيه **بالتحويل**، ونعني به تحويل العواطف نحو شخص الطبيب، لأننا لا نرى أن الموقف العلاجي يمكن أن يبرِّر تفتُّح مثل هذه العواطف[٣]. إنما نشتبه بالأحرى في أن كل هذه اللهفة الوجدانية آتية عن مصدر آخر، وأنها كانت موجودة لدى المريض في حالة من الكمون، ثم خُلعت على شخص الطبيب في أثناء المعالجة التحليلية. ومن الممكن أن يتظاهر التحويل إما في شكل مطلب حبِّي صاخب، وإما في أشكال أدنى إلى الاعتدال؛ فإزاء طبيب متقدم في السن يمكن أن تراود المريضة الشابة رغبة، لا في أن تصير عشيقته، بل في أن يعاملها وكأنها ابنته الأثيرة، كما يمكن أن يجنح ميلها الليبيدوي إلى الاعتدال فيصير صبوة إلى صداقة مثالية، غير قابلة لأن ينفرط عقدها، وبعيدة عن الشهوانية. وفي مقدور بعض النساء إسماء التحويل وتكييفه بحيث يغدو قابلاً للحياة بمعنى ما؛ لكنه يتظاهر لدى غيرهن في شكل فجّ، بدائي، لا يطاق في أغلب الأحيان. على أن الظاهرة واحدة في كلا الحالين، ولا يمكن أن يخالجنا شك في أن أصلها واحد.

قبل أن نتساءل عن موقع هذه الواقعة الجديدة في الحياة النفسية، اسمحوا لي بأن أستكمل وصفها. كيف تجري الأمور في الحالات التي ينتمي فيها المرضى إلى الجنس المذكر؟ قد يتراءى لنا لأول وهلة أن هؤلاء بمنجى من التدخل المؤسف للفارق بين الجنسين وللجاذبية الجنسية. كلا، فشأنهم في هذا شأن النساء من

---

٥ ـ من هنا أطلق فرويد على الأعصبة التي تحدث فيها هذه الظاهرة اسم الأعصبة التحويلية، وفي مقدمتها الهستيريا الحصَرية والهستيريا الاستبدالية (أو الاستبدانية) والعصاب الوسواسي. «م».



المرضى. فهم يفصحون عن التعلق نفسه بالطبيب، ويكوّنون لأنفسهم الفكرة المشتطّة نفسها عن مزاياه وصفاته، ويبدون اهتماماً بالغاً بكل ما يتصل به ويغارون، كالنساء، من كل من له به صلة في الحياة العامة. والأشكال التي طالها الإسماء من التحويل تكون بين رجل ورجل أكثر تواتراً، كما تكون المتطلبات الجنسية المباشرة أكثر ندوراً طرداً مع تضاؤل الدور الذي تلعبه الجنسية المثلية السافرة لدى الفرد المعني لصالح بروز المقوِّمات الأخرى. ويلحظ الطبيب أيضاً لدى مرضاه الذكور، أكثر بكثير مما لدى النساء، شكلاً من التحويل يبدو للوهلة الأولى متناقضاً مع كل ما تقدم من وصفنا له حتى الآن: التحويل العدائي أو **السلبي**.

لنحدد قبل كل شيء بأن التحويل يتظاهر لدى المريض من بداية العلاج، ويبقى لحين من الزمن أقوى حافز للاستمرار فيه. على أننا لا نلحظه وليس لنا أن نشغل أنفسنا به ما دام تأثيره يؤاتي التحليل الذي نتابعه بالتعاون مع المريض. لكنه حالما يتحول إلى مقاومة، يستدعي منا الاهتمام كله، وعندئذ نلاحظ أن صلاته بالعلاج يمكن أن تتبدل في اتجاهين مختلفين ومتعارضين: أولاً أن يغدو الموقف الودي بالغ القوة، فتنجلي للعيان علامات أصله الجنسي بوضوح يمسي من المحتَّم معه أن تنتصب في وجهه من جانب المريض مقاومة داخلية؛ وثانياً أن تنقلب عواطف الودّ والمحبة إلى عواطف بغض وعداء. وبصورة عامة، يكون ترتيب عواطف العداء في الظهور متأخراً عن عواطف الودّ وتحت ستارها؛ والتواجد المتزامن لهذين الضربين من العواطف يعكس الازدواجية الوجدانية التي تتسم بها أغلب علاقاتنا بغيرنا من الناس. فالعواطف العدائية، مثلها في ذلك مثل العواطف الودية، علامة على تعلق وجداني، تماماً كما أن التحدي يعبر، مثله مثل الطاعة، عن شعور بالتبعية، وإن تعاكست علاماتهما. ولا مراء في أن العواطف العدائية تجاه الطبيب تستأهل هي أيضاً اسم «التحويل»، لأن الموقف الذي تخلقه المعالجة لا يمثِّل أي سبب كافٍ لتعليل تظاهرها؛ وهكذا يثبت لنا تصوّرنا الضروري عن وجود تحويل سلبي أننا لم نكن على خطأ من أمرنا في ما أصدرناه من أحكام بصدد التحويل الإيجابي أو الحبيِّ.



من أين يأتي التحويل؟ ما الصعاب التي يقيمها في وجوهنا؟ كيف نستطيع أن نتغلب على هذه الصعاب؟ وما الربح الذي يمكننا اجتناؤه منه آخر المطاف؟ كل هذه أسئلة لا سبيل إلى معالجتها بالتفصيل إلا في إطار شرح تقني ومختص لمسألة التحليل، ولذا سأكتفي بمسّها مساً رفيقاً هنا. من البدهي أننا لا نلبي مطالب المريض الناجمة عن التحويل؛ لكن ليس من الحكمة أن نردّها بخشونة أو غضب. بل نحن نظهر على التحويل ونتغلب عليه إذا ما أوضحنا للمريض أن عواطفه غير ناشئة عن الموقف الراهن وليس لها بالتالي أن تنصبّ على شخص الطبيب، بل هي تكرار لموقف سبق له أن مرّ به من عهد بعيد. وبذلك نرغمه على التراجع القهقرى من هذا التكرار إلى الذكرى. ومتى ما وصلنا إلى هذه النتيجة وضع التحويل، الحبّي أو العدائي ـ وهو عينه الذي كان يبدو وكأنه يشكّل أكبر خطر على نجاح العلاج ـ بين أيدينا المفتاح الذي به نستطيع أن نفتح أشدّ المقصورات استغلاقاً في الحياة النفسية. لكن بودّي أن أفضي إليكم ببضع كلمات أبدّد بها ما يمكن أن يكون اعتراكم من دهش لهذه الظاهرة اللامتوقعة. وبالفعل، لا يغرب عن أذهانكم أن مرض المريض الذي نشرع بتحليله لا يمثّل ظاهرة مكتملة، ناجزة، متحجرة، بل هو على العكس قيد النمو والتطور، نظير الكائن الحيّ تماماً. وبداية العلاج لا تضع حداً لهذا التطور. لكن عندما يفلح العلاج في الإمساك بتلابيب المريض، نلحظ أن كل تشكيلات المرض الجديدة تغدو متركزة عند نقطة واحدة، وبالتحديد العلاقة بين المريض والطبيب. وبذلك يمكن تشبيه التحويل بالقُلْب Cambium الذي يتوسَّط بين خشب الشجرة واللحاء، أي تلك الطبقة التي تتشكل بدءاً منها الأنسجة الجديدة وتتعاظم سماكة الجذع. فمتى ما صار للتحويل مثل هذه الأهمية والدلالة، طرأ فتور ملحوظ على العمل الذي يرمي إلى استحضار ذكريات المريض. ويمكننا القول عندئذ إنه ما عاد لنا شأن مع مرض المريض السابق، بل صرنا نواجه عصاباً حديث التكوُّن والتحوُّل حلّ محلّ الأول. هذه الطبقة الجديدة التي تراكبت فوق المرض القديم كنا قد تتبعناها من بدايتها، فرأيناها تولد وتتطور، ولن يكون شاقاً علينا أن نراها على حقيقتها ما دمنا نشغل نحن أنفسنا نقطة المركز فيها. فجميع أعراض المريض فقدت دلالتها



الأولى واكتسبت معنى جديداً ذا صلة بالتحويل. أو بالأحرى لم يبقَ من الأعراض في الواقع سوى تلك التي أمكن لها أن تتحوّل وتتلاءم مع الوضع المستجد. ولكن تغلبنا على هذا العصاب المصطنع الجديد معناه القضاء على المرض الذي كان موجوداً قبل بدء العلاج. وهاتان النتيجتان متضامنتان، ومتى ما وصلنا إليهما تكون مهمتنا العلاجية قد انتهت. فالشخص الذي صار سوياً وانعتق، في علاقاته مع الطبيب، من تأثير الحاثات الغريزية المكبوتة، سيبقى كذلك في حياته العادية بعد أن يختفي منها الطبيب.

إن هذه الأهمية الخارقة، بل المركزية من المنظور العلاجي، التي يتَّسم بها التحويل تتجلى في المقام الأول في حالات الهستيريا والهستيريا الحصرية والأعصبة الوسواسية. ولهذا تمَّت إعادة تجميع هذه الأعصبة، بحق، تحت اسم «**الأعصبة التحويلية**». ومن تسنت له الفرصة لتكوين فكرة صحيحة عن طبيعة التحويل من خلال ممارسة العمل التحليلي، لا يعود يخامره شك بصدد نوع الحاثات المكبوتة التي تفصح عن نفسها في أعراض هذه الأعصبة، ولا يعود يتطلب برهاناً آخر، أكثر إقناعاً، على طبيعتها الليبيدوية. وبوسعنا القول إن اقتناعنا بأن أهمية الأعراض تكمن تحديداً في كونها إشباعاً ليبيدوياً بديلاً لم يتثبت لنا بصورة نهائية إلا بعد أن تحقَّقنا من واقعة التحويل.

والآن نملك أكثر من سبب لتصحيح تصورنا الدينامي السابق عن سيرورة الشفاء، وأكثر من سبب أيضاً للتوفيق بينه وبين هذه الرؤية الجديدة. فحين يتأهب المريض لشن الكفاح العادي السوي على المقاومات التي كشف له تحليلنا عن وجودها، يكون بحاجة إلى حافز قوي ليحسم الصراع في الاتجاه الذي نريده، أي في اتجاه الشفاء. ومن دون هذا قد يقرّ قراره على تكرار المخرج السابق، فيدع الكبت يخيِّم من جديد على ما جرى استدراجه إلى الوعي. وما يبتّ في مآل هذا الصراع ليس اقتناع المريض العقلي ـ فهو لا يكون على درجة كافية من القوة والتحرر للتصدي لذلك ـ بل فقط موقفه من الطبيب. فإن كان تحويله من النوع الايجابي، خلع على الطبيب سلطاناً عظيماً، وحوّل كلامه وآراءه إلى عقيدة إيمانية. وبدون هذا التحويل، أو إذا كان التحويل سلبياً، لم يعر المريض أقوال



طبيبه أي اهتمام. فالإيمان يكرر هنا تاريخ نشأته بالذات: فهو ثمرة الحب ولا يكون بحاجة إلى حجج في أول الأمر. وإنما في زمن لاحق فحسب يعلق الحب على هذه الحجج قدراً كافياً من الأهمية ليخضعها لتمحيص نقدي عندما تكون صادرة عن أشخاص محبوبين. أما الحجج التي لا يعززها صدورها عن أشخاص محبوبين فلا يكون لها، وما كان ليكون لها قط، أي أثر في حياة غالبية البشر. وعلى هذا، إن الإنسان لا يكون مأتاه، حتى من الجانب العقلي فيه، إلا بقدر ما يكون قادراً على توظيف موضوعاني ليبيدوي؛ ولدينا من الأسباب ما يحملنا على الاعتقاد ـ وهذا شيء يخشى حقاً ـ بأن درجة تأثره بالتقنية التحليلية، بما فيها خيرها وأفضلها، مرتهنة بدرجة نرجسيته.

وعلى كل، إن القدرة على توجيه التوظيفات الموضوعانية للطاقة الليبيدوية نحو الأشخاص الآخرين خاصية ينبغي أن نقرّ بها لكل إنسان سوي. وما الميل إلى التحويل الذي لاحظناه في الأعصبة المشار إليها أعلاه إلا مظهر مشتطّ لهذه القدرة العامة. وعلى هذا، إنه لمن المستغرب حقاً ألا تكون مثل هذه السمة الخلقية من سمات البشر، على ما هي عليه من ذيوع وأهمية، قد لفتت إليها الانتباه وحظيت بما هي أهل له من التقدير. غير أنها لم تغب، في الحقيقة، عن بصيرة بعض المراقبين الثاقبي الفكر. ولقد دلّل برنهايم على سداد فكر كبير بتأسيسه نظرية الظاهرات التنويمية على أطروحة تقول إن جميع بني الإنسان «قابلون للإيحاء» بدرجات متفاوتة. وما أسماه بـ«قابلية الإيحاء» ليس شيئاً آخر غير الميل إلى التحويل منظوراً إليه نظرة ضيقة بعض الشيء، أي محذوفاً منه التحويل السلبي. غير أن برنهايم ما أمكن له قط أن يقول لنا ما كنه الإيحاء حقاً وكيف يحدث. فقد كان الإيحاء عنده واقعة أساسية لا تحتاج إلى تفسير أصولها. وهو لم يرَ رابط التبعية الذي يربط «قابلية الإيحاء» بالجنسية وبنشاط الليبيدو. ولزام علينا أن نعترف بأننا إن كنا تخلينا في تقنيتنا عن التنويم، فقد التقينا الإيحاء من جديد في صورة التحويل.

لكن هنا أتوقف وأدع الكلام لكم. وإني لأستشفّ أن ثمة اعتراضاً ينهض في أذهانكم بقوة سيعجزكم معها تتبع تتمة عرضي ما لم تطلقوا له حرية الإفصاح



عن نفسه. فكأن لسان حالكم يقول: «لقد انتهى بك الأمر إلى الإقرار بأنك تعمل بالاستعانة بالإيحاء، تماماً كما يفعل أنصار التنويم المغنطيسي. وهذا ما كنا نشتبه فيه من البداية. فما يغنيك، والحالة هذه، استحضار ذكريات الماضي، وكشف اللاشعور، وتأويل التحريفات وإعادة ترجمتها، وكل ذلك الإنفاق الكبير في الجهد والوقت والمال، ما دام الإيحاء هو العامل الناجع الوحيد؟ ولمَ لا تلجأ إلى الإيحاء مباشرة في مقاومة الأعراض نظير ما يفعل الآخرون من شرفاء المنوِّمين؟ وإذا أردت أن تعتذر عن ركوبك هذا المركب الوعر، فتعللت بالكشوف السيكولوجية الكثيرة والهامة التي تقول إنك توصلت إليها والتي لا يفلح الإيحاء المباشر في إماطة اللثام عنها، فما يضمن لنا صحة هذه الكشوف؟ أفليس ممكناً أن تكون هذه الكشوف بدورها من ثمرة الإيحاء، وعلى الأخص الإيحاء غير القصدي؟ أفلا يسعك، في هذا المجال أيضاً، أن تفرض على المريض ما تشاء وما يبدو لك صحيحاً وحقاً؟».

إن ما تقولونه لي لعلى جانب كبير من الوجاهة، ويتطلب جواباً. لكنني لا أستطيع أن أعطيكم الجواب اليوم، بالنظر إلى انقضاء الوقت. سأكتفي إذاً بأن أختم بما بدأت. فقد كنت وعدتكم بأن أشرح لكم، بواسطة واقعة التحويل، السبب في ما تُمنى به جهودنا العلاجية من إخفاق في الأعصبة النرجسية.

سأفعل ذلك بقليل من الكلام، وسترون أن حلّ اللغز لفي منتهى البساطة، ويتمشى مع كل الباقي. فالمشاهدة تدلّ أن المرضى المصابين بالعصاب النرجسي لا يملكون قدرة على التحويل أو لم يبقَ لديهم منها سوى آثار لا تذكر. إنهم يصدفون عن الطبيب، لا بدافع العداء، وإنما عن لامبالاة. ولهذا لا منفذ لتأثيره إليهم؛ ومن ثم، إن آلية الشفاء، التي أثبتت نجعها البالغ لدى الآخرين والتي تقوم على أساس تجديد الصراع المُمْرِض والتغلُّب على المقاومة التي يبديها الكبت، لا تجدي فيهم. فهم يبقون على ما هم عليه. وقد سبق لهم أن بذلوا من تلقاء أنفسهم محاولات لتصحيح الموقف، غير أن هذه المحاولات لم تتمخض إلا عن عواقب مرَضية. ولسنا نملك أن نغيِّر في الأمر شيئاً.

لقد أكدنا، استناداً إلى المعطيات السريرية التي أمدَّنا بها هؤلاء المرضى، أن



الليبيدو انفصل لديهم، ولا بدّ، عن المواضيع ليتحول إلى ليبيدو أنوي. وقد خيِّل إلينا أننا نستطيع، بالاستناد إلى هذه الخاصية، أن نميِّز العصاب النرجسي عن الفئة الأولى من الأعصبة (الهستيريا والعصاب الحصري والوسواسي). والحال أن مسلكهم أثناء المحاولة العلاجية يؤكد وجهة نظرنا هذه. فهؤلاء المرضى، العاجزون عن التحويل، يستعصون على جهودنا ولا سبيل إلى شفائهم بالوسائل التي في متناولنا.



المحاضرة الثامنة والعشرون

العلاج التحليلي

سيداتي سادتي، تعرفون ما هو موضوع حديثنا اليوم. فقد سألتموني لماذا لا نستخدم في المعالجة النفسية التحليلية الإيحاء المباشر، ما دمنا نعترف بأن تأثيرنا يرتكز أساساً إلى التحويل، أي إلى الإيحاء. ثم أعربتم، إزاء هذا الدور الغالب الذي نخصّ به الإيحاء، عن شكوككم في موضوعية كشوفنا السيكولوجية. وقد وعدتكم بإجابة مفصَّلة.

الإيحاء المباشر هو الإيحاء الموجّه ضد تظاهر الأعراض، هو الصراع بين سلطاتكم ونفوذكم وبين أسباب الحالة المرضية. فإن لجأتم إلى الإيحاء لم تشغلوا أنفسكم بهذه الأسباب، بل طلبتم فقط إلى المريض أن يكفّ عن التعبير عنها في صورة أعراض. والأمر سيان في هذه الحال إن نوَّمتم المريض أو لم تنوِّموه. ولقد كان برنهايم، بما أوتيه من نفاذ بصيرة، أشار إلى أن الإيحاء هو الواقعة الأساسية في التنويم المغنطيسي، على اعتبار أن النوام نفسه هو نتيجة للإيحاء وحالة موحى بها؛ وقد آثر أن يمارس الإيحاء في حالة اليقظة لأنه قمين بأن يفضي إلى نتائج مماثلة لتلك التي يفضي إليها الإيحاء أثناء النوام.

ترى أي الشيئين أحظى الآن باهتمامكم: أمعطيات التجربة أم الاعتبارات النظرية؟ لنبدأ بالأولى. فقد كنت تلميذاً لبرنهايم وحضرت دروسه في نانسي سنة ١٨٨٩، وترجمت إلى الألمانية كتابه عن الإيحاء[١]. وقد طبقت على امتداد سنواتِ المعالجةَ التنويمية، مقرونة أولاً بالإيحاء الرادع، ومقرونة ثانياً

١ ـ في الواقع ترجم فرويد إلى الألمانية كتابين لبرنهايم: **عن الإيحاء وتطبيقاته في العلاج**، و **التنويم والإيحاء والعلاج النفسي**. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.



بالطريقة **البروبرية** في استكشاف حياة المريض. لديّ إذاً ما فيه الكفاية من الخبرة لأتكلم عن نتائج المعالجة التنويمية أو الإيحائية. فإن يكن العلاج المثالي هو العلاج الذي يعطي نتائج سريعة، وموثوقة، ولا يستكرهه المريض، بحسب قولٍ طبِّيٍّ مأثور، فلا جدال في أن طريقة **برنهايم** كانت تحقق شرطين من هذه الشروط الثلاثة. فقد كانت قابلة للتطبيق بسرعة، بأسرع بكثير من الطريقة التحليلية، ثم إنها ما كانت تجشِّم المريض تعباً ولا تسبِّب له اضطراباً. غير أنها كانت تغدو بالنسبة إلى الطبيب مع مرّ الزمن .. رتيبة، إذ كان عليه أن يلجأ، في جميع الحالات، إلى طريقة واحدة لا تتبدل طقوسها في استئصال الأعراض الشديدة التنوع، من دون أن يتأتى له أن يفهم مدلولها أو يدرك أهميتها وخطرها. لقد كان ذلك ضرباً من العمل الآلي، لا يتَّصف بأي صفة علمية، وأدنى إلى السحر والتعزيم والشعوذة. ولم يكن للطبيب مندوحة مع ذلك عن أداء هذا العمل من أجل صالح المريض. غير أن الشرط الثالث لم يكن متوفراً لهذه الطريقة، إذ لم تكن موثوقة بحال من الأحوال. فهي قابلة للتطبيق في بعض الحالات، وممتنعة عليه في حالات غيرها؛ وهي عظيمة النجع مع بعض المرضى، ومعدومته مع بعضهم الآخر، من دون أن ندري لذلك سبباً. والأسوأ من هذا التقلب المزاجي عدم ثبات نتائجها وقصر مدة نجاحها. فكثيراً ما كان يتناهى إلى علمنا بعد مرور بعض الوقت أن المريض قد انتكس أو أن مرضاً آخر عاده محلَّ المرض الأول. وكان في مقدور الطبيب في مثل هذه الحال أن يلجأ ثانية إلى التنويم؛ غير أن سلطات كفوءة وعندها خبرة ومراس كانت حذَّرت من الإسراف في استخدام التنويم: فقد تكون عاقبته إلغاء الاستقلال الذاتي للمريض من جراء تعويده عليه كما يعتاد على مخدِّر من المخدرات. لكن حتى في الحالات ـ النادرة بلا ريب ـ التي كنا نُوفَّق فيها، من دون أن نبذل جهوداً زائدة عن الحدّ، إلى نجاح تام ودائم، كنا نبقى على جهل بشروط هذه النتيجة الموفقة. وقد عرَضت لي مرة حالة خطيرة للغاية، فأفلحت في إزالتها تماماً بعد معالجة تنويمية وجيزة، غير أنها ما لبثت أن انتكست، وتصادف انتكاسها فيما كانت المريضة قد شرعت تبدي إزائي عداءً وكرهاً، فعملت على تصحيح مشاعرها هذه ووُفِّقت إلى شفاء أكمل



مما في المرة الأولى، لكنها عادت إلى الانتكاس من جديد وعاد إليها موقفها العدائي مني. كما أن واحدة أخرى من مرضاي، كنت قد أفلحت في تخليصها بالتنويم من نوبات عصبية لمرات عدة، ألقت بنفسها على حين غرة على عنقي فيما كنت أعتني بها أثناء نوبة جامحة. وأشباه هذه الوقائع ترغمنا، شئنا أو أبينا، على التساؤل عن طبيعة سلطتنا الإيحائية وأصلها.

تلك هي التجارب. وإنها لتدلنا على أننا، بتخلينا عن الإيحاء المباشر، لم نحرم أنفسنا من شيء لا غنى عنه. واسمحوا لي الآن بإبداء رأيي في هذا الموضوع. فاعتماد العلاج التنويمي لا يكلِّف الطبيب أو المريض جهداً يذكر. فهذه الطريقة العلاجية تتمشى كل التمشي مع الرأي الذي لا يزال سائداً عن الأعصبة في أغلب الأوساط الطبية. فالطبيب يقول للعصبي: «ما بك من شيء وما تشعر به هو من طبيعة عصبية ليس إلا، وبوسعي ببضع كلمات وفي بضع دقائق أن أخلِّصك من متاعبك». غير أن الطبيعة العقلية لمعرفتنا بالطاقة تأبى موقفاً كهذا: إذ كيف يمكن تحريك حمل ثقيل بالتصدي له مباشرة بمجهود طفيف وبدون معونة آلة خاصة؟ وبقدر ما يمكن للشروط أن تتشابه، تدلنا التجربة أن هذه الحيلة لا تنجح في الأعصبة أكثر مما في الميكانيكا. غير أني أعلم أن هذه الحجة ليست منيعة لا مطعن عليها، وأعلم أن هناك أيضاً «انفلاتات».

إن المعرفة التي حصَّلناها بفضل التحليل النفسي تبيح لنا أن نصف الفوارق بين الإيحاء التنويمي والإيحاء التحليلي النفسي على الوجه التقريبي الآتي: فالمعالجة التنويمية تسعى إلى تغطية شيء ما في الحياة النفسية وإلى تمويهه، بينما تسعى المعالجة التحليلية، على العكس، إلى تعريته وتصفيته. الأولى تفعل وكأنها طريقة تجميلية، والثانية وكأنها طريقة جراحية. المعالجة التنويمية تستخدم الإيحاء لتحْجُر على الأعراض، وتعزز ضروب الكبت، ولا تمسّ في شيء السيرورات التي تمخضت عن تكوين الأعراض. أما المعالجة التحليلية فحين تواجه صراعاً تمخَّضت عنه أعراض تسعى إلى النفاذ إلى الجذور وتستخدم الإيحاء لتعدِّل مآل الصراع في الاتجاه الذي تريد. المعالجة التنويمية تترك المريض سالباً، بلا تغيير، وبالتالي بلا مزيد من المقاومة إزاء أي مسبّب جديد للاضطرابات المرَضية. وبالمقابل تتطلب



المعالجة التحليلية من الطبيب والمريض جهوداً شاقة بقصد التغلُّب على المقاومات الداخلية. ومتى ما ذُلِّلت هذه المقاومات، تكن حياة المريض النفسية قد تغيَّرت بصورة دائمة، وارتقت إلى درجة أعلى من النمو والتطور، وصارت بمأمن من كل احتمال ممرِض جديد. وهذا المجهود الكفاحي ضد المقاومات هو المهمة الرئيسية للمعالجة التحليلية، وهي مهمة تقع على عاتق المريض بمعونة الطبيب الذي يلجأ إلى الإيحاء الفاعل باتجاه تربوي. وعلى هذا قيل بحقٍّ إن العلاج التحليلي النفسي ضرب من **تربية لاحقة**.

أعتقد أني أوضحت لكم ما وجه الاختلاف بين طريقتنا في استخدام الإيحاء لهدف علاجي وبين الطريقة الوحيدة الممكنة لاستخدامه في المعالجة التنويمية. وبفضل إرجاع الإيحاء إلى التحويل، بات في ميسوركم أن تفهموا أسباب ذلك التقلُّب الملفت للنظر في المعالجة التنويمية، بينما يمكن حساب نتائج المعالجة التحليلية والركون إليها حتى آخر مراحلها. فعند اللجوء إلى التنويم يكون كل اعتمادنا على قدرة المريض على التحويل، من دون أن يكون في مستطاعنا التأثير بأدنى قدر على هذه القدرة. والتحويل عند الفرد الذي نريد تنويمه يمكن أن يكون سلبياً، أو متَّسماً بالازدواجية كما في الكثرة الغالبة من الأحوال؛ وليس من المستبعد أن يحتمي الفرد من طاقة التحويل عنده بتدابير ومواقف يصطنعها لنفسه سلفاً، وهذا كله لا نعرف عنه شيئاً. أما في التحليل النفسي فإننا نشتغل على التحويل نفسه، فننحّي كل ما يتعارض وإياه، ونجهِّز الأداة التي نريد بواسطتها أن نمارس تأثيرنا. وهكذا يتسنى لنا أن نجتني فائدة مغايرة من قوة الإيحاء، إذ يصبح طيِّعاً بين أيدينا؛ فليس المريض وحده من يتصرف بقابليته للإيحاء كما يحلو له، بل نتولى نحن توجيه هذه القابلية بقدر ما يمكن له، بصفة عامة، أن يفيد من تأثيرها.

ستقولون لي الآن إنه ليس من المهم أن نسمي القوة المحركة لتحليلنا «تحويلاً» أو «إيحاء»، ففي الحالين كليهما يلقي التأثير الذي نمارسه على المريض ظلالاً من الشبهة والشك على القيمة الموضوعية لملاحظاتنا وكشوفنا. فما يفيد العلاج قد يضرّ بالبحث. وهذا هو الاعتراض الذي غالباً ما يوجَّه إلى التحليل النفسي، ولا



مفرَّ لي من التسليم بأنه وإن يكن خاطئاً فليس لنا أن نردَّه كما لو أنه غير معقول. وأما لو كان مسوَّغاً وله ما يبرِّره فلن يكون التحليل النفسي في هذه الحال إلا ضرباً من العلاج بالإيحاء، من نوع بالغ النجع والفعالية، ومن ثم ليس لنا أن ننظر بعين الجِدّ إلى أية أطروحة من أطروحاته بصدد المؤثرات الحياتية، والدينامية النفسية، واللاشعور. وهذا ما يراه بالفعل خصومنا، فيزعمون على الأخص أن أطروحاتنا عن أهمية التجارب المعاشة الجنسية، بله هذه الحياة نفسها، لا تعدو أن تكون من نسج خيالنا الفاسد، وأن كل ما يقوله المرضى في هذا الخصوص إنما هو من وحينا ومما نغرسه في أذهانهم. ودحض هذه الاعتراضات بأدلَّة من معين التجربة أسهل من دحضها بالاعتبارات النظرية. وكل من مارس بنفسه التحليل النفسي تسنى له أن يتحقق أكثر من مرة من أنه من المتعذر الإيحاء إلى المريض إلى هذا الحدّ. وليس من العسير بطبيعة الحال حمل المريض على مناصرة نظرية بعينها وعلى مشاطرة الطبيب في معتقد خاطئ له. ويتصرف المريض عندئذ كما يتصرف أي إنسان آخر، أي كتلميذ؛ وكل ما في الأمر أن التأثير يكون قد طال في هذه الحال ذكاءه، لا مرضه. ولا يُقيَّض النجاح لحلّ الصراعات التي يقاسي منها المريض ولإزالة مقاوماته إلا حين تكون «التصورات التوقعية» التي نقّدمها له مطابقة لديه للواقع الفعلي. وأما ما لا يتفق من مفترضات الطبيب مع هذا الواقع فإنه يتلاشى ويزول من تلقاء نفسه في أثناء التحليل، ويتوجب استبعاده ليفسح في المجال أمام مفترضات أخرى أقرب إلى الصحة تحلّ محلّه. وينبغي لنا أن نعتمد خطة مناسبة ويقِظة للحؤول دون تخلُّف نجاحات عابرة عارضة عن الإيحاء؛ ولكن حتى لو قامت مثل هذه النتائج، لا يكون في ذلك ضُرّ كبير، لأننا لا نقنع أبداً بأول نجاح لنا. فالتحليل لا ينتهي ما لم تنجلِ جميع النقاط الغامضة في الحالة، وما لم تُسدّ جميع الثغرات الذاكرية، وما لم يمط اللثام عن جميع ظروف الكبت. ومن الواجب أن نرى في النجاح الذي نحرزه بسرعة أكبر مما ينبغي عقبة أمام العمل التحليلي أكثر منه ظرفاً مؤاتياً له، وأن نبادر إلى هدم هذا النجاح بإلغائنا دوماً وباستمرار التحويل الذي يقوم عليه. والواقع أن هذه السمة الأخيرة هي التي تميِّز المعالجة التحليلية عن المعالجة الإيحائية الخالصة، وتحرر



نتائج التحليل من شبهة كونها نتيجة لنجاح الإيحاء. ففي كل معالجة إيحائية، أياً كان شأنها، يصان التحويل بعناية ولا يمّس؛ أما في المعالجة التحليلية فيكون هو نفسه موضوعها، إذ تسعى إلى إماطة اللثام عنه وتفكيكه إلى كل شكل من أشكال تظاهره. وفي نهاية المعالجة التحليلية يتعيَّن هدم التحويل نفسه. وإذا تأتَّى لنا أن نظفر بنجاح دائم، كان ارتكاز هذا النجاح لا إلى الإيحاء المحض، بل إلى النتائج المتحصِّلة بواسطة الإيحاء: التغلُّب على المقاومات الداخلية وما استتبع ذلك من تغيُّر داخلي في نفس المريض.

طرداً مع تعاقب الإيحاءات أثناء المعالجة التحليلية، يتعيَّن علينا أن نتصدى باستمرار للمقاومات التي تعرف كيف تتحول إلى ضروب سلبية (عدائية) من التحويل. ولن يفوتنا أن نعود إلى التأكيد هنا بأن الكثير من نتائج التحليل، التي قد نميل إلى اعتبارها من ثمرة الإيحاء، إنما تنبع من مصدر آخر لا يمكن أن يكون موضع مماراة. وشاهدنا على ذلك المصابون بالخبل والبارانويا الذين ليس لأحد بطبيعة الحال أن يشتبه في أنهم تلقوا أو يمكن أن يتلقوا تأثيراً إيحائياً. فما يرويه لنا هؤلاء المرضى من خلال أخاييلهم وترجمتهم للرموز يتفق مع النتائج التي تحصلت لنا من أبحاثنا عن اللاشعور في الأعصبة التحويلية، ويؤيد بالتالي الصحة الموضوعية لتأويلاتنا التي غالباً ما جرى التشكيك بها. وأعتقد أنكم لا تجازفون بالتورط في الخطأ فيما لو محضتم التحليل ثقتكم كاملة بصدد هذه النقاط.

لنستكمل الآن عرض آلية الشفاء بالتعبير عنها بمفردات نظرية اللبيدو. فالمعصوب عاجز عن الاستمتاع وعن الفعل والإنجاز: عاجز عن الاستمتاع لأن اللبيدو عنده غير موجَّه نحو أي موضوع واقعي، وعاجز عن الفعل لأنه مرغم على إنفاق قدر كبير من الطاقة للإبقاء على لبيدواه في حالة كبت ولتحامي هجماته. ولا سبيل أمامه إلى الشفاء إلا بعد أن ينتهي الصراع بين أناه ولبيدواه ويظهر الأنا من جديد على اللبيدو. إذاً فالمهمة العلاجية تتلخص في تحرير اللبيدو من متعلقاته الراهنة التي لا ممسك للأنا عليها، وفي وضعه من جديد في خدمة هذا الأنا. أين يوجد لبيدو العصابي إذاً؟ من السهل الإجابة عن هذا



السؤال: إنه يكون عالقاً بالأعراض التي تكفل له الإشباع البديل الوحيد الممكن في الوقت الحاضر. وعليه، ينبغي أن نسيطر على الأعراض التي تولَّدت عنه، وأن نوجِّه هذا الصراع نحو حلٍّ آخر، مستعينين بعوامل ما كانت في متناول المريض يوم نشأت الأعراض. هذه المراجعة للسيرورة التي أفضت إلى الكبت لا يمكن القيام بها إلا بصورة جزئية عن طريق تقصِّينا الآثار التي خلَّفتها. والشطر الحاسم من مهمتنا هو أن نستحدث، انطلاقاً من موقف المريض من الطبيب، أي انطلاقاً من «التحويل»، طبعات جديدة من الصراعات القديمة، بحيث يتصرف المريض فيها كما كان تصرف في صراعاته القديمة، مع فارق وحيد وهو أنه يستنفر هذه المرة كل قواه النفسية المتاحة ليصل إلى حلٍّ مغاير. هكذا يغدو التحويل ساحة حرب تتواجه وتتصادم فيها جميع القوى المتصارعة.

إن كل الليبيدو وكل المقاومة التي يواجَه بها يتركزان بأسرهما في موقف المريض من الطبيب؛ وعليه يكون من المحتم أن يقع انفصال بين الأعراض والليبيدو، فتتبدى تلك متجردة عن هذا. وعوضاً عن المرض الفعلي، نواجه الآن التحويل المستحدث اصطناعياً، أو إذا شئتم، مرض التحويل؛ وعوضاً عن مواضيع الليبيدو، المتنوعة بقدر ما هي لاواقعية، يمسي لدينا الآن موضوع واحد، وإن يكن بدوره وهمياً: شخص الطبيب. غير أن الإيحاء الذي يلجأ إليه الطبيب يرقى بالصراع الذي يدور حول هذا الموضوع إلى أسمى مستوى نفسي، بحيث يغدو هذا الصراع محض صراع نفسي سويّ. وبحؤولنا دون حدوث كبت جديد نضع حداً للانفصال بين الأنا والليبيدو، ونردّ إلى الشخصية وحدتها النفسية. وحين ينفصل الليبيدو أخيراً عن هذا الموضوع العابر الذي هو شخص الطبيب، لا يعود في مقدوره أن يرتدّ إلى مواضيعه السابقة، بل يمسي الآن تحت تصرف الأنا. أما القوى التي نكون قد تصدينا لها بالمكافحة في أثناء هذا العمل العلاجي فهي، من جهة أولى، نفور الأنا من بعض توجهات الليبيدو، وهو النفور الذي يتظاهر في النزوع إلى الكبت، ومن الجهة الثانية، قوة لصوق الليبيدو أو لزوجته ـ إن جاز القول ـ التي تجعله لا ينفصل طوعاً وعن طيبة خاطر عن المواضيع التي تعلَّق بها.



من الممكن إذاً تقسيم العمل العلاجي إلى طورين: في أولهما ينفصل الليبيدو برمّته عن الأعراض ليتثبت ويتركز في التحويل؛ وفي ثانيهما يدور الصراع حول هذا الموضوع الجديد الذي نتمكن في آخر الأمر من تحرير الليبيدو منه. ولا نظفر بهذه النتيجة المؤاتية إلا إذا أفلحنا، في أثناء هذا الصراع الجديد، في الحؤول دون حدوث كبت جديد يتيح لليبيدو أن يفلت مرة ثانية من قبضة الأنا ليلوذ بحمى اللاشعور. ونحن نتوصل إلى ذلك بفضل ما يطرأ من تغيير على الأنا تحت تأثير الإيحاء الطبي. فبنتيجة العمل التأويلي الذي يحوِّل اللاشعوري إلى شعوري، يكبر الأنا على حساب هذا اللاشعور؛ وتحت تأثير النصائح التي تسدى إليه يغدو أكثر تسامحاً إزاء الليبيدو وأكثر استعداداً لمنحه شيئاً من الإشباع؛ وتخفّ وطأة المخاوف التي كانت تنتاب المريض إزاء متطلبات الليبيدو بفضل ما يتاح له من إمكانية للانعتاق والتحرر عن طريق إسماء جزء من الطاقة الليبيدوية. وكلما اقترب تقدم السيرورات وتعاقبها في أثناء المعالجة من هذا الوصف المثالي، تعاظمت فرص العلاج التحليلي النفسي في النجاح. أما ما قد يحدّ من هذا النجاح فهو، من جهة أولى، النقص في حركية الليبيدو الذي لا يرضى بالانفصال بسهولة عن المواضيع التي تثبَّت عليها، ومن الجهة الثانية تصلب النرجسية الذي لا يسمح بالتحويل الموضوعاني إلا بقدر محدود. ولعل ما سيزيد في فهمكم لدينامية السيرورة الشفائية أن تعلموا أننا نعتقل ونحتجز كل الليبيدو الذي أفلت من قبضة الأنا، باجتذابنا إلينا شطراً كبيراً منه عن طريق التحويل.

ويحسن أن تعلموا أننا لا نستطيع أن نستخلص من مواضع توزُّع الليبيدو في أثناء العلاج وعن طريقه أي استنتاج مباشر عن مكان تموضعه Localisation في الحالة المرضية. لنفرض أننا لاحظنا، في أثناء العلاج، تحويلاً لليبيدو باتجاه الأب، وأننا أفلحنا في فصله عن هذا الموضوع وفي اجتذابه إلى شخص الطبيب: والحال أننا سنخطئ لو استنتجنا من هذه الواقعة أن المريض كان يعاني فعلاً من تثبيت لاشعوري لليبيدواه على شخص الأب. فما التحويل باتجاه شخص الأب إلا ساحة الحرب التي فيها نأسر الليبيدو ونسيطر عليه في آخر العراك؛ ولكن هذا لا



يعني أن هذه الساحة كانت واحدة من قلاع العدو المهمة. فالدفاع عن العاصمة العدوَّة ليس بحاجة إلى أن يدور أمام أبوابها بالذات. وإنما فقط يعد أن نهدم التحويل الأخير يتأتى لنا أن نعيد ذهنياً تحديد مكان تموضع الليبيدو في أثناء المرض.

ومن منطلق نظرية الليبيدو نستطيع أيضاً أن نضيف بضع كلمات أخيرة بصدد الحلم. إن أحلام المعصوبين، كهفواتهم وتداعياتهم الحرة العفوية، تفيدنا في النفاذ إلى مغزى أعراضهم وتعيننا على اكتشاف مكان تموضع الليبيدو. فهي، إذ تتخذ شكل رغبات متحققة، تكشف عن الرغبات التي تعرضت للكبت وعن المواضيع التي تعلق بها الليبيدو الفالت من قبضة الأنا. لذا يلعب تأويل الأحلام دوراً هاماً في التحليل النفسي، بل كان في العديد من الحالات ولفترة طويلة من الزمن وسيلة عمله الرئيسية. وقد رأينا من قبل أن حالة النوم بما هي كذلك تؤدي إلى بعض التراخي في ضروب الكبت. ومن جراء هذا التخفيف للعبء الذي ترزح تحته الرغبة المكبوتة، يتأتى لها أن تتخذ في الحلم تعبيراً أوضح وأجلى بكثير من ذاك الذي يتيحه لها العرض في حياة اليقظة. هكذا تفتح لنا دراسة الحلم أيسر مدخل إلى معرفة اللاشعور المكبوت الذي ينتمي إليه الليبيدو الفالت من قبضة الأنا.

على أن أحلام المعصوبين لا تختلف في أي وجه رئيسي عن أحلام الأشخاص الأسوياء؛ ولا يكفي أن نقول إنها لا تختلف عنها، بل يصعب تمييز بعضها عن بعض. ومن اللامنطقي أن نحاول إعطاء أحلام الأشخاص المعصوبين تفسيراً لا يصدق على أحلام الأشخاص الأسوياء. ومن ثم يتعيَّن علينا أن نقول إن الفارق بين العصاب والصحة لا يتجلى إلا في حياة اليقظة في كلتا هاتين الحالتين، ويتلاشى في الأحلام الليلية. ولزام علينا بالتالي أن نطبِّق وأن نسحب على الإنسان السوي طائفة من المعطيات التي نستخلصها من العلاقات بين أحلام المعصوبين وأعراضهم. ويتعيَّن علينا أن نعترف بأن الإنسان الصحيح المعافى يملك، هو الآخر، في حياته النفسية ما يتيح الإمكانية لتكوين أحلام ولتكوين أعراض، ويتحتّم علينا بالتالي أن نستنتج من ذلك أنه يفرض على نفسه، هو



الآخر، ضروباً من الكبت، وأنه ينفق قسطاً من الطاقة للحفاظ عليها، وأن نسقه اللاشعوري ينطوي على رغبات مقموعة، لا تزال مشحونة بالطاقة، وأن **شطراً من ليبيدواه يفلت زمامه من قبضة أناه**. إذاً فالإنسان الصحيح المعافى معصوب هو أيضاً بالقوة، لكن الحلم هو العرَض الوحيد الذي يبدو أن في مقدوره تشكيله. غير أن هذا محض ظاهر، إذ لو أخضعنا حياة اليقظة لدى إنسان سويّ لتحليل نافذ لاكتشفنا أن حياته الموصوفة بأنها سوية تزخر بطائفة كبيرة من الأعراض، وإن تكن ـ والحق يقال ـ غير ذات بال ولا أهمية لها تذكر من الناحية العملية.

إن الفارق بين الصحة العصبية وبين العصاب لا يعدو إذاً أن يكون فارقاً على مستوى الحياة العملية، ويتوقف على درجة الاستمتاع والفعل والإنجاز التي لا يزال الفرد قادراً عليها. وربما جاز أن نردّه إلى النِسَب ما بين كميات الطاقة التي بقيت حرة وكميات الطاقة التي تجمدت من جراء الكبت. إذاً، هو فارق كمّي لا كيفي. ولست بحاجة إلى تذكيركم بأن هذه الرؤية تقدم أساساً نظرياً لما أعربنا عنه من اقتناع بأن الأعصبة قابلة للشفاء من حيث المبدأ، وإن يكن مرتكزها إلى استعداد جِبِلِّي مسبق.

هذا كل ما يمكن لنا أن نستنتجه بصدد مؤشرات الصحة وعلاماتها من التماثل بين أحلام الأشخاص المعافين وأحلام الأشخاص المعصوبين. أما فيما يتصل بالحلم نفسه فتنجم عن هذا التماثل نتيجة أخرى، وهي أنه لا يجوز لنا أن نفصل الحلم عن صلاته بالأعراض العصابية، وأنه لا يجوز لنا أن نتصور أننا أبنّا عن طبيعة الحلم بما فيه الكفاية حينما قلنا إنه محض شكل أثري قديم للتعبير عن بعض الأفكار والخواطر، وأنه يتعيَّن علينا أخيراً أن نقرّ بأنه يهدينا إلى مواقع تموضع الليبيدو وتوظيفاته الموضوعانية الفعلية.

* * *

شارفت الآن على ختام عرضي. ولعلي خيَّبت ظنكم إذ لم أحدِّثكم في هذا الفصل الذي مداره على العلاج التحليلي إلا عن اعتبارات نظرية، ولم أذكر لكم شيئاً عن الشروط التي نتصدى فيها للعلاج، ولا عن النجاحات التي يحققها هذا



العلاج. وسأستنكف عن هاتين النقطتين. عن الأولى لأنه ليس في نيّتي أن أقدِّم لكم دليلاً عملياً لممارسة التحليل النفسي، وعن الثانية لأن أسباباً عديدة تحدو بي إلى ألا أخوض في ذلك. لقد قلت لكم، من أول أحاديثنا، إننا نتوصل، في الظروف المؤاتية، إلى نجاحات علاجية لا تقلّ روعة عن أروع النتائج التي يتم التوصل إليها في مضمار الطب الداخلي، وبوسعي أن أضيف بعد أن النجاحات في التحليل النفسي لا يمكن أن تظفر بها أية طريقة أخرى من طرائق العلاج. ولو قلت لكم أكثر من هذا، فلربما اشتبهتم بأني أريد أن أطمس بهذا الإعلان الصاخب على أصوات المشنّعين علينا التي قاربت أن تكون زعيقاً. فقد هدَّد بعض الزملاء أنصار التحليل النفسي، حتى في أثناء مؤتمرات مهنية عامة، بفتح أعين الجمهور على عقم طريقتنا في المعالجة عن طريق نشر قائمة بالحالات التي منيت بها بالإخفاق، وحتى بالنتائج المفجعة التي يقال إنها تمخَّضت عنها. لكن بصرف النظر عن الطابع المقيت لهذا الأسلوب الذي يقارب أن يكون ضرباً من وشاية حاقدة، فإن نشر مثل تلك القائمة التي يتوعدوننا بها لا يمكن اتخاذه بيّنة لإصدار حكم مطابق على الفعالية العلاجية للتحليل. فالعلاج التحليلي، كما تعملون، حديث النشأة، وقد اقتضانا سنين كثيرة كي نضع قواعد تقنيته، وما أمكننا أن نفعل ذلك أصلاً إلا في أثناء العمل نفسه واستجابة للتجربة المباشرة المتنامية. وبالنظر إلى ما يكتنف تعليم هذا الفرع من فروع الطب من صعوبات، فإن الطبيب المبتدئ في التحليل النفسي مكره، أكثر من أي اختصاص آخر، على الاعتماد على قواه وجهوده الخاصة ليبرع في فنه؛ ومن ثم، إن النتائج التي يمكن أن يحرزها في السنوات الأولى من الممارسة لا يمكن أن تقوم دليلاً موجباً أو سالباً على نجع المعالجة التحليلية.

لقد مُني كثير من المحاولات العلاجية بالفشل في بداية التحليل النفسي، لأنها أجريت على حالات لا تدخل ضمن نطاق طريقته، ونحن نستبعدها اليوم من عداد صلاحياته. لكن بفضل هذه الحالات تحديداً أمكن لنا أن نحدد نطاق عمله. فما كان لنا أن نعرف سلفاً أن الجنون الهذائي والخبل المبكر، في طورهما المتقدم، يستعصيان على التحليل النفسي، وكان لا يزال من حقنا أن نجرِّب هذه



الطريقة على طائفة واسعة من أشباه هذه الأمراض. إلا أنه من الإنصاف أن نقول إن معظم الإخفاقات في تلك السنوات الأولى ينبغي أن يعزى لا إلى قلة خبرة الطبيب أو إلى سوء اختياره للموضوع، بل بالأحرى إلى ظروف خارجية غير مؤاتية. فنحن لم نعالج سوى المقاومات الداخلية، أي مقاومات المريض التي هي محتَّمة وممكن التغلب عليها. لكن هناك أيضاً مقاومات خارجية، وهي تلك التي تأتي من الوسط الذي يعيش فيه المريض ويخلقها أهله ومحيطه؛ ولئن تكن معدومة الأهمية نظرياً، فإنها جسيمة الخطر عملياً. وآية ذلك أن العلاج التحليلي النفسي أشبه ما يكون بعملية جراحية، فلا سبيل إلى إجرائه، نظيرها تماماً، إلا إذا قُلِّصت احتمالات الفشل إلى أدنى حدّ ممكن، وأنتم تعلمون كم من الاحتياطات يتخذ الجراح: غرفة مناسبة، إضاءة جيدة، مساعدون ذوو خبرة، استبعاد أهل المرض، إلخ. ترى كم من العمليات الجراحية يمكن أن يكتب لها النجاح لو كان من المحتم أن تجرى بحضور جميع أفراد الأسرة، فيحيطون بالطبيب والمريض ويصيحون ويصرخون كلما أعمل مبضعه؟ إن حضور الأهل في المعالجة التحليلية النفسية خطر محقق، وخطر لا نملك درءاً له. إن لدينا من السلاح ما نستطيع أن نواجه به المقاومات الداخلية الصادرة عن المريض والتي نعلم أنها محتمة لا مناص منها؛ لكن كيف نذود عن أنفسنا شرَّ تلك المقاومات الخارجية؟ فأما فيما يتصل بذوي المريض فليس لنا من مدخل إليهم عن طريق الشرح، ومن المحال أن نجعلهم ينقادون للصواب وأن نقنعهم بحزم أمرهم على التنحي عن المسألة كلها. ثم إنه لا يجوز لنا، من جهة أخرى، أن نتحالف وإياهم أو أن ننحاز إلى جانبهم، إذ نجازف عندئذ بأن نخسر ثقة المريض الذي يتطلب، بحقٍّ أصلاً، أن يقف الشخص الذي يركن إليه ويكاشفه بما في نفسه إلى جانبه دوماً وفي كل الظروف. ومن يعلم منكم ألوان الشقاق التي تمزق الأسرة في كثير من الأحيان، فلن يدهشه أن يلاحظ، وهو يمارس التحليل النفسي، أن أقارب المريض يؤثرون في أحوال كثيرة أن يبقى على ما هو عليه على أن يروه يبرأ ويشفى. وفي الحالات التي يكون فيها للعصاب صلة بالمنازعات بين أفراد الأسرة الواحدة ـ وما أكثر هذه الحالات ـ لا يبدي الصحيح المعافى تردداً البتة فيما لو تعيَّن عليه أن



يختار بين مصلحته الخاصة وبين شفاء المريض. فلا غرو إذاً ألا يرحب الزوج بعلاج من شأنه، كما يشتبه بحقٍّ، أن يؤدي إلى كشف النقاب عن أخطائه وذنوبه. ونحن المحللين النفسيين لا ندهش لهذا، ولكننا نصدّ عن أنفسنا كل ملامة إذا لم يكتب لعلاجنا النجاح أو إذا اضطررنا إلى إيقافه لأن مقاومة الزوج جاءت تعزز مقاومة الزوجة المريضة. إذ نكون في هذه الحال قد شرعنا بشيء كان يستحيل أصلاً، في الظروف القائمة، تحقيقه.

لن أسوق لكم، بين جملة من الحالات، سوى مثال واحد فرضت عليّ فيه اعتبارات طبية خالصة الاضطلاع بدور ضحية صامتة. قبل بضع سنوات شرعت بتطبيق العلاج التحليلي على فتاة استبدَّ بها منذ عهد بعيد حصر شديد صارت معه لا تستطيع أن تخرج إلى الشارع ولا أن تبقى وحدها في البيت. وبعد طول تردد اعترفت لي الفتاة بأن مخيِّلتها أسيرة ما لاحظته مصادفة واتفاقاً من وجود علاقة غرامية بين أمها وبين رجل ثري من أصدقاء الأسرة. غير أنها لخرقها ـ أو لحذقها ـ أطلعت أمها على ما كان يدور بيننا في أثناء جلسات التحليل النفسي؛ وعلى الأثر تغيّر موقف الفتاة من أمها، وصارت لا تريد أن تذود عن نفسها خوف الوحدة إلا بصحبتها، فتعترض عليها كلما أرادت الخروج من المنزل. وكانت الأم نفسها قد عانت في الماضي من آفة عصبية وتلقت علاجاً ناجعاً في إحدى مؤسسات الاستشفاء المائي. ولنضف أنها تعرفت في المؤسسة المذكورة إلى الرجل الذي قامت بينه وبينها في وقت لاحق صلات وجدت فيها كل منية نفسها. وإزاء المطالب المشتطة التي صارت ابنتها تواجهها بها، فطنت **على حين غرة** إلى ما يعنيه خوفها وحصرها. فقد فهمت أن ابنتها استسلمت للمرض حتى ترهن حريتها هي وتحرمها من إمكانية ملاقاة عشيقها. وبقرار مباغت وضعت الأم حداً للعلاج الخاسر بالنسبة إليها. وأوكلت أمر الفتاة إلى مؤسسة للأمراض العصبية حيث صار يشار إليها، على مدى سنوات، على أنها «ضحية مسكينة للتحليل النفسي». ولكم عاد عليّ هذا المآل الفاشل للعلاج من لوم وتبكيت! لكني لزمت الصمت، إذ كنت أشعر بأني مقيَّد بواجب الكتمان المهني! ولم أعلم إلا بعد مضيّ فترة طويلة، وعن طريق زميل لي زار تلك المؤسسة وسنحت



له الفرصة لرؤية تلك الفتاة التي كانت تقاسي من رهاب الخلاء Agoraphobie، أن العلاقات بين الأم وصديق الأسرة الغني معلومة للقاصي والداني، وأن الزوج والأب كان في أرجح الظن يحبِّذها ويشجِّعها. إذاً من أجل الحفاظ على هذا «السرّ» كانت التضحية بالعلاج.

في السنوات التي سبقت الحرب، ويوم تدفقت من شتى أرجاء المعمورة أعداد كبيرة من الأجانب الذين أتاحوا لي أن استقل بنفسي عما ألاقيه في مدينة آبائي[٢] من استحسان أو استهجان، أخذت على نفسي عهداً ألا أعالج مريضاً لا يكون مسؤولاً عن نفسه ومستقلاً عن كل كائن سواه في صلات حياته الأساسية. وهذه قاعدة لا يملك كل محلل نفسي أن يفرضها على نفسه وأن يتقيَّد بها. لكن بما أني أحذِّركم من ذوي المريض، فقد تميلون إلى الاستنتاج أن المرضى الذين يتصدى التحليل النفسي لمعالجتهم يجب أن يفصلوا عن أسرهم، وأن علاجنا لا يسري إلا على نزلاء مؤسسات الأمراض العصبية. وهذا رأي لا أراه إطلاقاً: فمن الأجدى بكثير للمرضى، إذا لم يكونوا في حالة خطيرة من الإعياء، أن يتابعوا حياتهم أثناء فترة المعالجة في ظل نفس الشروط التي يتعيَّن عليهم فيها أن يجدوا حلولاً للمشكلات التي تواجههم. ويكفي في هذه الحال ألا يتدخل الأهل فيبطلوا هذه الميزة بموقفهم، وألا يظهروا بالإجمال أي عداء ومعارضة لجهود الطبيب. لكن ما أشقّ الحصول على هذه الأشياء! ولن يطول بكم الأمر بطبيعة الحال لتدركوا ما للبيئة الاجتماعية ولوضع الأسرة الثقافي من أثر في نجاح العلاج أو إخفاقه.

ألا ترون أن هذا كله ليس من شأنه أن يعطيكم فكرة سامية عن نجع التحليل النفسي كطريقة علاجية، حتى وإن كانت أغلب إخفاقاتنا غير مرهونة إلا بعوامل تشويش خارجية؟ لقد حثَّني أصدقاء للتحليل النفسي على أن أضع إحصائية بالحالات التي أصبنا فيها نجاحاً في مقابل لائحة الإخفاقات التي نلام عليها. غير أني لم أقبل بنصيحتهم. وقد احتججت لرفضي هذا بأن الإحصاء

---

٢ ـ فيينا. «م».



يكون عديم القيمة إذاً لم تكن الوحدات الجدولية المقارن بينها متشابهة بما فيه الكفاية؛ والواقع أن حالات الإصابات العصابية التي أُخضعت للعلاج التحليلي النفسي كانت تختلف فيما بينها اختلافاً بيِّناً من وجوه شتى. أضف إلى ذلك أن الفترات التالية للشفاء كانت أقصر من أن تأذن لنا بأن نجزم بأن الشفاء دائم فعلاً، ناهيك عن أننا في حالات كثيرة أخرى لا نستطيع حتى أن ندلي بمعلومات في هذا الخصوص. والحالات الأخيرة هذه هي حالات الأشخاص الذين يفرضون السرية على مرضهم وعلاجهم على حدّ سواء، والذين لم يكن مفرّ بالتالي من إبقاء شفائهم طيّ الكتمان. بيد أن أقوى اعتبار حملني على عدم الأخذ بتلك النصيحة هو خبرتي بمسلك الناس اللاعقلاني إزاء مسائل العلاج، وبضعف احتمال إقناعهم بالحجج المنطقية، حتى ولو كانت مستمدة من المشاهدة والتجربة. فالبدعة العلاجية تُستقبل إما بحماسة صاخبة كما حدث مع اكتشاف كوخ Koch[٣] الأول للسلّين، وإما بريبة وتشكيك مثبطّين للعزائم كما حدث مع لقاح جنّر Jenner[٤] الذي كان عميم النفع حقاً والذي لا يزال له إلى اليوم خصوم ألداء. وقد اصطدم التحليل النفسي بموقف متحيِّز سافر. فحين كنا نتكلم عن شفاء حالة صعبة كان يقال رداً علينا: هذا لا يثبت شيئاً، فبمثل هذا الوقت الطويل كان من المحتم أن يشفى مريضك حتى ولو لم يخضع لمعالجتك. وقد جاءتني يوماً مريضة مرّت بأربعة أدوار من الكآبة والهوس، فأخضعتها للعلاج التحليلي النفسي في الوقفة التي أعقبت نوبة سويداء، لكنها ما لبثت، بعد ثلاثة أسابيع من بدء العلاج، أن عرضت لها بداية مرحلة هوس جديدة، فإذا بجميع أفراد أسرتها، يؤيدهم في ذلك طبيب من الثقات أُستدعي لأخذ مشورته، يعربون عن اقتناعهم بأن هذه النوبة الجديدة لا يمكن إلا أن تكون نتيجة للعلاج الذي حاولته المريضة. وليس في اليد من حيلة إزاء الأحكام والآراء المسبقة. ولا

---

٣ ـ روبرت كوخ: طبيب وعالم جراثيم ألماني (١٨٤٣ ـ ١٩١٠). مكتشف عُصَيَّة السل، وكذلك السلّين، أي لقاح السل المعروف أيضاً باسم مصل كوخ. «م».

٤ ـ إدوارد جنّر: طبيب إنكليزي (١٧٤٩ ـ ١٨٢٣)، مكتشف لقاح جدري البقر. «م».



مندوحة لنا من الانتظار، تاركين للزمن أن يعفّي عليها. ولا بدّ أن يأتي يوم يرى فيه الناس أنفسهم إلى الأشياء نفسها بغير ما كانوا يرون إليها بالأمس. لكن لماذا لم يروا إليها بالأمس كما يرون إليها اليوم؟ هذا لغز مبهم وعويص فهمه علينا وعليهم على حدّ سواء.

على أنه من المحتمل أن يكون الحكم المسبق المناوئ للعلاج التحليلي قد بدأ يتراجع ويتداعى، وأني لأرى في ذلك، فيما لو صحّ، دليلاً على تواصل انتشار النظريات التحليلية وعلى تزايد عدد الأطباء الذين يمارسون التحليل النفسي في بعض البلدان. فيوم كنت طبيباً ناشئاً رأيت الدوائر الطبية تستقبل العلاج عن طريق الإيحاء التنويمي بعاصفة من السخط والاستنكار مماثلة لتلك التي يستقبل بها «العقلاء» اليوم التحليل النفسي. غير أن التنويم المغنطسي، كوسيلة علاجية، لم ينجز ما وعد به في البداية؛ وعلينا نحن أنصار التحليل النفسي أن نعتبر أنفسنا ورثته الشرعيين، فلا ننسى كل ما ندين له به من تشجيع وتفاسير نظرية. والعواقب الضارة التي تعاب على التحليل النفسي ترتدّ في الواقع إلى تلك الظاهرات العابرة التي تنشأ عن احتداد شدة الصراع في الحالات التي لا يدار فيها التحليل بحذق أو يوقف على نحو مباغت. أما وقد تأتّى لكم الآن أن تطّلعوا على الكيفية التي نتصرف بها إزاء المرضى، فبوسعكم أن تحكموا ما إذا كان من شأن جهودنا أن تسبّب لهم أذى دائماً. صحيح أن في التحليل متسعاً لضروب شتى من سوء الاستعمال، كما أن التحويل بوجه خاص يشكّل أداة خطرة بين يدي طبيب عادم الذمة، لكن هل تعرفون وسيلة أو طريقة علاجية بمنجى من سوء الاستعمال؟ إن المبضع لا يكون أداة للشفاء إلا إذا كان يقطع.

سيداتي وسادتي، سأختم الآن. ومن دون أن أصطنع حيلة خطابية سأعترف لكم آسفاً بجميع العيوب وبجميع الثغرات التي تخللت محاضراتي التي استمعتم إليها. ويؤسفني بوجه خاص أني كثيراً ما وعدتكم عندما كنت أمسّ موضوعاً بعينه مسّاً رفيقاً بأن أعود إلى تناوله بالتفصيل، ثم لم أفِ بوعدي بحكم السياق الذي مضى فيه العرض. لقد أخذت على عاتقي أن أعرّفكم بمادة لا تزال قيد



التطور، لما تكتمل بعد؛ ومن شدة ما رغبت في تلخيصها جاء عرضي نفسه منقوصاً. وكثيراً ما حشدت المواد كلها بغية الخروج باستنتاج، ثم كنت أحجم عن استخلاصه بنفسي. على أني لم أطمع في أن أجعل منكم اختصاصيين؛ وكل ما صبوت إليه أن أنير الطريق أمامكم وأن أحفز اهتمامكم.



محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي

في الموسمين الجامعيين 1915 - 1917 ألقى فرويد سلسلة من ثمانية وعشرين محاضرة أرادها أن تكون مدخلاً إلى التحليل النفسي وعرضاً شاملاً لأطروحاته ولكشوفه كعلم نظري وتطبيقي معاً.

هذه المحاضرات، علاوة على شمولها، تتسم ببساطتها وسهولتها: فقد ألقى فرويد أكثرها ارتجالاً ابتغاء تعريف الجمهور الواسع بمبادئ التحليل النفسي وتقنيته.

وقد وزّع فرويد محاضراته هذه إلى ثلاثة أقسام، بادئاً بعلم نفس الهفوات، ثم بعرض لنظرية الأحلام، قبل أن ينتهي إلى بيان مفصّل للنظرية العامة للأمراض العصابية.

ودار مدارك ، إذ تقدم للقارئ العربي مؤلفات فرويد شبه الكاملة هذه في عدة أجزاء تصدر تباعاً، تحرص على التنويه بعملية المراجعة والتنقيح الشاملة التي اعتمدها المترجم قبل أن يعيد تقديم نصوص هذه المؤلفات الي أربت على الثلاثين عنواناً إلى القارئ العربي.



